د. مصطفى حجازي

الأحداث الجانحون

دراسة ميدانية نفسانية إجتماعية



دار الحقيقة . بيروت

الاحداث الجانحون

طبــــع هذا الكتاب بفضل منحة مــــن منظمة الامم المتحدة للاطفال اليونيسيف

د. مصطفى حجازي

الأحداث الجانحون

دراسة ميدانية نفسانيّة إجتماعيّة

دار الحقيقة ـ بيروت

مقدمة

انحراف الاحداث من الموضوعات التي تحتل مكانة بارزه في ميدان الطفولة والحداثة · بدأ يشكل منذ فتره ظاهرة مقلقة في العالم الصناعي ادت الى العديد من الابحاث والدراسات والاستقصاءات ونتج عنها الكثير من الخطط التربوية والتأهيلية والعلاجية · الا ان الظاهرة تستمر في استفحالها بشكل قد يثير الدهشة . ذلك انها ليست امرا معزولا عن مجمل اوضاع الصحة العقلية في المجتمع . بل هي من ابرز الاعراض التي تدل على مدى شدة المأزم والموانع التي تقف في سبيل الوصول الى تلك الصحة العقلية . انها مؤشر ومنذر بالخطوره الفعلية للوضعية ولو كانت الظواهر الخارجية تشير الى العكس ·

اما في البلدان النامية ومنها لبنان فان انحراف الاحداث لم يحظ بعد بالاهتمام والوعي الكافيين لدلالته · نلاحظ موجات من الحماس بين الجمهور والمسؤولين وتوضع الخطط لدراسة مستفيضة وبرامج رعائية شاملة ثم لا تلبث جذوة الحماس ان تنطفىء وتعود الظاهرة الى مكانتها الهامشية في سلم الاهتمامات · وخلال ذلك كله تكثر الفرضيات حول طبيعة الظاهرة ومداها وخصائصها . تبنى اما على ملاحظة عابرة او استنتاجات يتفاوت نصيبها من السند الواقعي . او (وهذا هو الاكثر مدعاة للقلق) على تعميم التفسيرات الموضوعة في المجتمعات الصناعية على البيئة المحلية بدون تكريس الجهد الكافي للتثبت من مدى ملاءمتها ·

ويتذبذب الامر كله ما بين الشعور بيقين المعرفة الحقة للظاهرة وغموضها أو الجهل بها بدرجات متفاوتة . مما يثير الحيرة أو يدفع الى سد

للثغرات عند الضرورة بشكل افتراضي • وفي ذلك خطر كبير بالطبع على الحدث الجانح وعلى سلامة موقف الباحث أو العامل معه على حد سواء • ان قصور المعرفة الملائمة بظاهرة ما يؤدي رأسا الى تدخل التفكير السحري نحوها والتأويل الاسطوري لها من ناحية والى بروز اتجاهات انفعالية مشكوك بعافيتها تجاه موضوعها (وهو هنا الحدث الجانح) من ناحية ثانية •

الغاية من هذا المؤلف مزدوجة • اعطاء صورة أقرب ما تكون الى الواقع عن الحدث الجانح في لبنان لتكون عونا للعاملين معه على اختلاف وظائفهم والمهتمين بأمره على مختلف المستويات النظرية والعملية • صورة تبين الملامح النوعية لشخصيته ومعالم المحيط الذي يعيش فيه ونوع التجربة الوجودية التي تميز حياته • أما الغاية الثانية والاهم في نظرنا فهي اعادة انسانيته اليه من خلال القضاء على الاساطير التي تجمعت حوله والتي نسجتها قلة المعرفة به • الحدث الجانح كانسان ، بدلا عن الجانح كاسطورة • بذلك فقط يمكن تدامجه اجتماعيا بشكل يعطيه قيمته كمواطن • والا فانه كاسطورة سيحولنا بدوره الى أساطير ونغرق كلانا عندها في علاقة مرضية •

الا ان هذه الغاية كسابقتها ليست سهلة كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة• يصطدم الدارس رأسا في محاولته لبلوغهما بعقبتين أساسيتين لا تقل كل منهما عن الاخرى في صعوبتها ودرجة التحدي التي تطرحها : غموض الواقع وتعقده من ناحية ، ومجموعة التحيزات الواعية واللاواعية عند الدارس التي تنحرف به عن المعرفة الموضوعية والتي تنشط بشكل خاص ازاء الظواهر غير المحايدة (كظاهرة الانحراف) من ناحية ثانية •

ليس هناك أبحاث كافية عن ظاهرة انحراف الاحداث في لبنان ، لا من الناحية الوصفية (شدتها ، مداها ، توزيعها) ولا من الناحية التفسيرية ، (العوامل والقوى المولدة لها) • هناك انطباعات عامة وبعض الاحصائيات التي لا تحيط الا بقسم محدود منها • وهذه بدورها غير موضوعة على اسس محددة تسمح دائما باستنتاجات تخلو من اللبس • ثم ان الواقع المولد لانحراف الاحداث متشابك الابعاد متعددها مما يجعل الظاهرة تتخذ وجوها عدة قد يبدو لاول وهلة ان لا رابطة تجمعها • ثم تصادف عقبة اضافية وهي التوفيق بين العوامل الاجتماعية الفاعلة في الظاهرة بشكل عام والعوامل الذاتية (وهي بدورها متشعبة جدا) التي يصادفها الدارس على المستوى الفردي • وكذلك هناك العلاقة الممكنة بين مجموعة من ظواهر سوء التكيف عند الطفل واسرته والتي لا يشكل الانحراف الا أحد

أوجهها · كل هذه المشكلات تطرح علينا مسألة الصلة بين النوعية والعمومية في فهم الحدث الجانح ·

ولقد وجدنا ان المنهج الجدلي هو أفضل المناهج التي تتيح لنا أن نأخذ هذه الجوانب جميعا بعين الاعتبار · فهو وحده يبين الصلة بين الذاتي والاجتماعي ، بين العام والخاص ، بين العادي والمرضي ، وبين الحاضر الآني والتاريخي · وهو الذي يستطيع أن يحيط بالظاهرة بكل تعقيدها فلا يغلب العام على حساب الخاص ، ولا يغرق في الذاتي على حساب الاجتماعي ·

ونحن نعتقد ان هذا المنهج يوضح الصلة الدينامية بين الانحراف ومختلف اشكال الاضطراب وسوء التكيف ويبين انها جميعا ليست سوى جوانب لظاهرة واحدة وانها قابلة للابدال فيما بينها ·

ان تطبيق المنهج الجدلي على دراسة انحراف الاحداث في لبنان يمكن ان يتخذ في رأينا كنموذج منهجي لدراسة نفس الظاهرة في العالم العربي وبعض البلدان النامية · ولذلك فاذا لم تكن نتائج هذه الدراسة قابلة للتعميم الكلي من حيث المحتوى فانها تظل صالحة تماما لذلك من حيث المنهج ·

كما ان هذا المنهج يصلح في رأينا لالقاء أضواء كاشفة على السلوك الانساني بشكل عام· تلك هي خاصية المنهج العلمي الصحيح في المعرفة، ابراز خصوصية الظاهرة وتبيان صلتها بعمومية السلوك الانساني في آن معا · وكما ان النظرية التي تفسر كل شيء ليست علمية (لانها تكون بالضرورة تبسيطية اختزالية) كذلك فتلك التي لا تحيط سوى بنوعية ظاهرة ما بمعزل عما عداها ليست علمية ايضا (حيث لا عزلة مطلقا بين الظواهر على مستوى الواقع الموضوعي) ·

ان استخدامنا لهذا المنهج سلط أضواء هامة على ظاهرة انحراف الاحداث ولكنه في نفس الوقت أبرز قضايا أساسية تحتاج الى ابحاث جديدة حتى يكتمل الفهم · تلك نتيجة تبعث على الطمانينة من الناحية العلمية ، حيث ان أي منهج بحث لا يمكن الوثوق به الا اذا كشف مناطق ظلال وغموض تشكل حدود المعرفة التي اوصلنا اليها وتدفع الى تجاوزها من خلال ابحاث جديدة · المعرفة التي لا تحمل في ثناياها امكانية تجاوزها (من خلال ما تطرحه من قضايا جديدة) ليست معرفة حقة ·

اما عقبة التحيز فلم تطرح علينا فعليا رغم جدّيتها. انها تكون عادة نشطة جدا في الابحاث ذات الطابع التصنيفي التشخيصي بما فيها من تقويم ومعيارية من ناحية ومن تجميد للشخصية في ديناميتها الافقية والعامودية ·

ان بحثنا منطلق في محتواه من الممارسة العلاجية بشكل أساسي وهي في يقيننا افضل السبل لمعرفة الآخر من خلال فهمه · انها تتابعه في مأساته ، في دفاعاته الظاهرية ومعاناته الداخلية ، في تذبذبه ما بين البعد والعداء والاقتراب والتودد ، ما بين الفظاظة والخشونة الظاهرية والرّقة والحساسية الداخلية· ثم هي تتابعه في صيرورته ، في تقدمه وتقهقره ، في يأسه وتفاؤله · كل حالة من هذه الحالات حقيقية وكذلك كل لحظة ، انها أوجه مختلفة أو تعبيرات متنوعة للشخصية التي تتميز بالغنى الذي يتجاوز أي تشخيص أو تصنيف جامد بالضرورة · ان العلاج النفساني لهؤلاء الاحداث في نفس الوقت الذي سمح لنا بمعرفتهم بشكل أكثر حيوية ساعدنا على النفاذ اليهم واللقاء بين انسانيتنا وانسانيتهم ، ذلك اللقاء الذي يكون شرط العلاقة المعافاة الكفيلة وحدها بمساعدة الجانح على التكيف من جديد ·

يقسم هذا المؤلف الى ابحاث ثلاثة مستقلة عن بعضها البعض ومتكاملة في آن معا ·

البحث الاول نظري يعرض نماذج من النظريات الحديثة في دراسة الانحراف من الناحيتين النفسانية والاجتماعية ، تعتبر حاليا نماذج رائدة في هذا الميدان في البلاد الاوروبية اللاتينية والانجلوسكسونية · في كل حالة نعرض النظرية ثم نبين اسهامها في فهم ظاهرة الانحراف واوجه القصور التي تعتورها ومدى ملاءمتها لفهم الواقع المحلي والعربي · ولقد توخينا من هذا العرض النقدي أن نطلع القارىء على التيارات الحديثة في دراسة الانحراف ومساعدته على تلمس مدى ما تقدمه من عون في خطاه نحو فهم الظاهرة اذ ان أكبر خطر يتهدد جهدنا المعرفي هو الميل الى السهولة من خلال التسرع في تعميم التفسيرات الاجنبية (لما فيها من تماسك وارتفاع مستوى) على الواقع المحلي ، مما يعرضنا للضلال من خلال وهم المعرفة النظرية · ولقد انتهينا من هذا البحث بعرض اسس المنهج الجدلي في دراسة السلوك الجانح ·

أما البحث الثاني فهو محاولة لرسم ملامح الاطار الاجتماعي لظاهرة انحراف الاحداث في لبنان · ولقد سلكنا فيه سبيلا عمليا يتلخص في التحليل النقدي

للاحصائيات المتوفرة عن الاحداث ثم القيام باستبار مع العاملين الاساسيين في ميدان رعاية وتأهيل الجانحين بغيـة تلمس الصورة كما هي معاشة واقعيا ، وأكملنا ذلك بعرض لنماذج من الحالات الاجتماعية الاكثر شيوعا لأسر الاحداث الجانحين ثم انتهينا ببعض الاستنتاجات التي تشكل ملامـح الوضع الاجتماعي لظاهرة الانحراف ·

وأما البحث الثالث فهو الاطول والاهم · انه دراسة نفسانية عيادية لمختلف فئات الجانحين من حيث خصـائصهم الشخصية وديناميانهم النفسانية ونوعية السلوك الجانح لديهم · ولقد خصصنا ضمن هذا الاطار قسما للحالات المرضية وآخر للحالات الاجتماعية العادية · ولم يكن همنا في كل ذلك العودة الى التصنيف الجامد،بل محاولة تبيان التفاعل الجدلي بين النفساني والأسري والاجتماعي في كل حالة · لقد اتضح لنـا خطأ الزعم باختلاف المرضي النفسي عـن المرضي الاجتماعي فكلاهما مشروط بالآخر ، وكلاهما يتبادلان التعزيز المستمر ·

ولقد أنهينا هذا البحث باستعراض الخصائص الاساسية للحدث الجـانح في لبنان، وهي خصائص تنطبق في تقديرنا على أمثاله في العالم العربي الى حد بعيد · الا انه يتضح لنا في النهاية ان الانحراف على اختلاف فئاته ، في نوعيته أو عموميته ، ليس مسألة فردية ، انه تفاعل ذاتية معينة تشكلت بطابع معين في أسرة معينة واطار اجتماعي محدد وفي حمام من العلاقـات المسهلة او المعطلة لوصولها الى انسانيتها ·

البحث الأول

نظريات الانحراف
وإسهامها في فهم الواقع المحلي

تمهيد

تطرح ظاهرة انحراف الاحداث مسألة السلوك الانساني في أعلى درجات تعقيده ٠ فرغم حداثة الاهتمام بدراستها علميا ، حيث لا يعود تاريخ اولى المحاولات الى ما قبل بداية هذا القرن ، نجد أنفسنا الآن أمام فيض من الدراسات والنظريات التفسيرية التي تتشعب وتتعارض كما قد تتلاقى ٠ ويجد الباحث المبتدىء نفسه في حيرة أمام كل ذلك ، بماذا يأخذ وماذا يترك وأي التفسيرات تنطبق على الظاهرة كما تبدو في طابعها المحلي ٠ قد تستميله هذه النظرية أو تلك لما تتميز به من وضوح أو تماسك علمي فيأخذ بها ويحاول أن يفسر من خلالها الواقع الذي يدرسه ٠ وتكون النتيجة ايجابية تتمشى مع توقعاته ولكن الى حد ٠ فهي تلقي اضواء على المشكلة ولكنها تترك دائما مناطق ظلال وثغرات تجعل الظاهرة تفلت من الاطار التفسيري الشامل الذي أراد الوصول اليه ٠ ويحدث أيضا أن تكون النظرية مغرية من الناحية العلمية ولكن محك الواقع يجعلها تولد لمن اعتنقها خيبة الامل ٠

أسباب هذا التنوع والتعارض في النظريات التفسيرية سهلة التحديد ٠ فالسلوك الجانح ظاهرة تقع على مفترق طرق مختلف العلوم الانسانية ، تهم عالم الاجتماع ، وعالم القانون ، وعالم النفس ، والمربي ، والطبيب ، وتدخل في نطاق اختصاص كل منهم ٠ ولذلك حاولت كل فئة من هؤلاء أن تفسرها انطلاقا من اطرها النظرية وطرقها في البحث ٠ وزاد الامر تعقيدا ان كل فئة عملت بمفردها

في البداية ولذلك جاءت نظريتها في التفسير تنطبق على الظاهرة انما جزئيا ٠ حاول الباحثون في هذا الميدان في مرحلة تالية تنسيق جهودهم والقيام بأبحاث تجمع بين منطلقاتهم رغبة في مزيد من الشمول ٠ ونتج عن ذلك نظريات تفسيرية متعددة المنطلقات (منطلق اجتماعي ومنطلق نفساني ومنطلق بيولوجي الخ٠٠٠)

ولقد تنوعت التفسيرات تبعا لتعدد البلدان بالاضافة الى تعدد المنطلقات في البلد الواحد وذلك نتيجة لما تتميز به ظاهرة السلوك الجانح من خصوصية في كل بلد بالاضافة الى بعض العمومية والعالمية في الاسباب ٠ وهنا ايضا حدثت لقاءات بين العلماء والباحثين من مختلف البلدان ٠ وادت مناقشة مختلف الابحاث الى تصحيحات متبادلة واستخلاص نظريات اكثر شمولا ٠

ثم ان العلوم الانسانية تمر بمرحلة سريعة من التطور في مناهج بحثهـــا ومنطلقاتها النظرية ٠ ولقد أثر ذلك على دراسة السلوك الجـــانح فعرفت نفس التغيرات في النظرة وأساليب البحث ٠ ولذلك نجد من فترة الى اخرى قفزات في بحث الظاهرة ونشهد ولادة نظريات جديــدة تنسف كليا او جزئيا ما سبقها او تدخل تغيرات اساسية عليها ٠

وهكذا تتلاقى هذه النظريات المتنوعة من حيث منطلقها ، ومصدرهـــا ، وجدتها جنبا الى جنب في المراجع المتداولة حاليا ٠ هذا الواقع هو الذي أملى علينا كتابة هذا البحث النظري اذ يهمنا أن نعرف ما يمكن أن تقدمه لنا النظريات المختلفة من عون لفهم ظاهرة السلوك الجانح ٠ وما هي مزايا وحدود كل منهـــا ومدى انطباقها على الواقع اللبناني والعربي٠ هذا الاعتبار العملي يجعلنا نذهب في اتجاه الانتقاء وليس الشمول ٠ ولذلـــك فلن نعرض كل النظريات ، قديمها وحديثها ، بل نقتصر على معالجة نماذج من الحديثة منها ٠ فهناك نظريات لم تعد لها سوى قيمة تاريخية وهي بالتالي لا تهم الا من يود دراسة تاريخ هذا العلم ٠ كما اننا سنستعرض من هذه النظريات الحديثة نماذج تمثل التيارات الاساسية في فهم الظاهرة في عدد من البلدان المتقدمة في الابحاث في هذا الميدان وخصوصا بعض البلدان الاوروبية والبلدان الانجلوسكسونية ٠ وأهمية هذا التنوع ليست في حاجة الى اثبات فهو يعطي فكرة عن مختلف الاتجاهات مما يتيح لنا فرصة مقابلة هذه التيارات ومقارنتها وبالتالي معرفة ما يمكننا اقتباسه من كل منها في دراستنا للظاهرة ، اذ ان أكبر خطر يمكن أن تتعرض له البلدان المبتدئة في هـــذا المضمار هو تعميم التفسيرات التي اعطيت لظـــاهرة الانحراف في أحد البلدان

السالفة الذكر على الواقع المحلي بشكل متسرع وسطحي ، انطلاقا مـــن الظن بعمومية الظاهرة وعمومية أسبابها ·

درجت العادة على تقسيم النظريات التي تفسر ظاهرة الانحراف عموما ، الى فئتين أساسيتين· الفئة الاولى تنطلق من المنحرف كفرد وتفسر سلوك الجانح بأسباب داخلية وتندرج تحتها النظريات البيولوجية والنظريـــات الطبية العقلية والنظريات النفسانية التقليدية · أما الفئة الثانية فتنطلق من الانحراف كظاهرة اجتماعية وتفسرها بالرجوع الى عوامل خارجية وتمت اليها أساسا كل النظريات الاجتماعية · وهناك نظريات تجمع ما بين السببية الداخلية والسببية الخارجية فتدمج البيولوجي والنفسي بالاجتماعي مع تغليب أحد الجوانب كتفسير أساسي على الجوانب الاخرى التي تعتبر عندها تفسيرات متممة او عوامل ثانوية ·

على أن هناك نظريات حديثة تقترب ، بدرجات متفاوتة ، من المنهج الجدلي الذي يأخذ بتفاعل القوى المؤثرة وينظر الى السلوك الجانح كنتيجة لهذا التفاعل معتبرا أن ليس ثمة تناقض مـــا بين الداخلي والخارجي ، مـــا بين النفسي والاجتماعي وانما على العكس من ذلك هناك تكامل ·

سنقتصر في هذا الباب على تخصيص فصل للنظريات الاجتماعية الشائعة وآخر للنظريات النفسانية ، ونختتمه بايراد بعض الاعتبارات المنهجية حول تلـك النظريات ثم نقدم المنهج الجدلي في دراسة السلوك الجانح ، الذي يقود خطانا في هذه الدراسة ·

ان استعراض نظريات انحراف الاحـــداث بهذا الشكل يسقط من حسابه منطلقين اثنين · الاول هو النظريات البيولوجية ، والثاني النظريات الطبيـــة العقلية ·

والدافع الى ذلك هو كما اسلفنا الاكتفاء بعرض النظريات الحديثة ، اذ ان النظريات البيولوجية والنظريات الطبية العقلية بعدما شاعت في بداية الدراسة العلمية للسلوك الجانح ولم تعد تحتل الآن سوى مكانة جد ثانوية في تفسيره ·

في البداية حاول العلماء تفسيـــر السلوك الجانح من خـــلال العوامل البيولوجية · وكانت التفسيرات تذهب في اتجاه ارجاع الانحـــراف والسلوك العدواني عموما الى خلل بيولوجي في تكوين الدماغ والجهاز العصبي · ولقد ساد

الاتجاه الوراثي والجبلي (١) بين اتباع المدرسة الايطالية في علم الجريمة. فكان يعتقد ان الانحراف هو وليد تشويهات دماغية وعصبية تؤدي الى اختلال العلاقة بين وظائف الضبط والارادة والقيم الخلقية في الدماغ وبين مراكز الغرائز والنزوات ذات الطابع العدواني ، الدموي أو الجنسي . ويؤدي هذا الاختلال الى تغلب مراكز الغرائز وسيطرتها على السلوك . ثم في مرحلة تالية وفي نفس الاتجاه ادخلت الاسباب المكتسبة التي تؤدي الى الخلل السابق ذاته انما من خلال الصدمات الدماغية (٢) او الكلوم (٣) او التخمجات (٤) ، مما يضعف وظائف الضبط ويطلق العنان للنزوات العدوانية الدموية .

هذا التفسير الاساسي عرف عدة صيغ قال بها باحثون ايطاليون واسكندنافيون . ولكن رغم ان الكلوم والتخمجات التي تصيب الدماغ نتيجة لعوامل شتى تؤدي الى سلوك اندفاعي وغير متكيف يصل احيانا مرتبة الانحراف الصريح رغم ذلك لم تعد هذه النظريات تحتل مكانة ذات اهمية في تفسير السلوك الجانح .

أما الطب العقلي فكان أول فروع العلوم النفسانية والانسانية اهتماما بمسألة السلوك الجانح . وكان هذا الاهتمام يجيب على ضرورة عملية هي حاجة المحاكم للتمييز بين من يملكون قوى عقلية سوية ويعتبرون مسؤولين عن افعالهم وبين مرضى العقول غير المسؤولين. اذ انه في الحالة الثانية تحفظ القضية ويحال المتهم الى مستشفى للامراض العقلية ، هذه الضرورة أدت بالاطباء العقليين الاوائل الى الافراط في تطبيق فئات المرض العقلي على الجانحين والنظر اليهم بالتالي كأشخاص يعانون من اضطرابات عقلية متفاوتة في صراحتها وشدتها .

ولكن هذه الموجة في التعميم انحسرت بعد تقدم الدراسات الاجتماعية والنفسانية، كما سبق ان انحسرت موجة التفسيرات الاحيائية(٥). ومن المعروف ان نسبة المصابين بأمراض عقلية صريحة بين الجانحين الاحداث ضئيلة ولا تزيد عن نسبتهم بين مجمو ع السكان العاديين .

موجز القول اننا سنهتم في هذا الباب بالمنطلقات العلمية الحديثة في فهم السلوك الجانح . ولم نأت على ذكر النظريات القديمة الا بغية لفت الانظار الى ضآلة امكانياتها في تفسير الظاهرة وبالتالي ضرورة عدم اعطاءها اهمية مبالغا فيها .

---

(١) جبلة (جبلي) : Constitution

(٢) صدمة دماغية : traumatisme cranien

(٣) كلوم (مفردها كلم) : Lesions

(٤) تخمج (تخمجات) : infections

(٥) احيائية : Biologique

الفصل الأول

النظريات النفسانية في الانحراف

تنطلق الدراسات النفسانية عادة من محاولة تحليل السلوك الجانح من خلال البعد الذاتي للشخصية المنحرفة · لا تهتم به كظاهرة اجتماعية أو جماعية ، بل تركز على الحدث المنحرف كفرد قائم بذاته وتحاول من خلال دراسته أن تتوصل الى اكتشاف مختلف الاسباب التي دفعت به الى الانحراف · وهي تهتم منطقيا بالاسباب النفسانية أساسا · وعندما يجد الباحث نفسه أمام عوامل بيولوجية أو اجتماعية أو غيرها لا ينظر اليها تبعا لحالتها الاولية بربطها مباشرة بالسلوك الجانح بل يبحث عن آثارها على نفسية الحدث في خطوة اولى ، ثم يحاول أن يرى في خطوة ثانية كيف تؤدي هذه النفسية المتأثرة بالعوامل السالفةالى السلوك الجانح · فالنظريات النفسانية رغم انها لا تنكر المؤثرات الخارجية تركز ابحاثها حول ميدانها وهو فهم السلوك المنحرف من خلال الشخصية وتكوينها وطبيعة القوى الفاعلة فيها ·

ولكن رغم هذا الاتجاه تتعدد النظريات النفسانية تبعا للمنطلق المذهبي لكل باحث · لذلك فهنالك العديد من الدراسات النفسانية التفسيرية للسلوك الجانح ، لا تتمتع كلها بنفس القيمة العلمية · بعضها قديم تجاوزته الابحاث الحالية ، وبعضها اكثر شمولا واحاطة بالواقع الانساني · بعضها يهتم بحدود ذاتية ضيقة ، واخرى تنظر الى الشخصية الجانحة من خلال انغراسها في وضعية

اجتماعية وفي تفاعلها مع الآخرين ومع المحيط في شبكة من العلاقات الاساسية أو الدالة ٠

ثم ان هذه النظريات تتفاوت أيضا من حيث اسلوب دراستها للمنحرف ٠ فهناك دراسات وصفية محضة تقتصر على استخلاص السمات الاساسية للشخصية الجانحة تلخصها في قوائم ٠ وكلما زاد امتلاك شخص ما لعدد أكبر منها كان ميله الى الانحراف أشد ٠ هذه النظريات الوصفية التي تظل في بحثها على سطح الشخصية لا تفيد كثيرا في فهم السلوك الجانح ٠ ولكن هناك دراسات تذهب في اتجاه تفسيري فتحاول دراسة بنية الشخصية بما فيها من أوجه قوة أو ضعف ، وتدرس التفاعل بين مختلف ابعادها كما تدرس الدوافع الفاعلة فيها سواء كانت واعية أم لا واعية ، وتفاعلها في لقائها أو تعارضها ، ثم العلاقة بين الدوافع وبنية الشخصية ٠ وقد تذهب أبعد من ذلك ، خصوصا في بعض التيارات الحديثة ، فتحاول دراسة العلاقة بين القوى الذاتية والقوى الخارجية ، أي تفاعل الشخصية مع محيطها الانساني معتبرة السلوك الجانح كمحصلة لهذا التفاعل ٠

وسنركز اهتمامنا في هذا الفصل على استعراض بعض النظريات الحديثة العهد نسبيا ونهتم خصوصا ببعض الدراسات التي تمثل وجهة نظر مدارس فكرية بارزة في ميدان الانحراف ، وتشكل حاليا اطرا مرجعية أساسية في البلدان التي نشأت فيها٠ وهكذا نتحدث اولا عن التحليل النفسي في فهمه للسلوك الجانح، ثم نتحدث عن دراسة أساسية للشخصية الجانحة قدمها عالم نفسي أميركي وأصبحت تشكل مصدر ايحاء للعديد من العاملين في ميدان تربية الجانحين ، ثم نحاول أن نعرض موجزا لابحاث ونظريات المدرسة الكندية في فهم الشخصية الجانحة وأخيرا نأتي الى دراسة تعبر عن وجهة نظر المدرسة البلجيكية التي تحتل مكانة مرموقة في الدراسات الجنائية في أوروبا الغربية حاليا ٠

اولا ـ التحليل النفسي والسلوك الجانح :

مساهمة التحليل النفسي أساسية جدا في فهم السلوك الجانح وتوضيح خفاياه ٠ ورغم ان هذه النظرية اهتمت أساسا بالاضطرابات النفسية على اختلاف أشكالها الا ان مساهمتها في دراسة الانحراف لا تقتصر على توضيح غموض الحالات المرضية وحدها ٠ فهي قد سلطت أضواء أساسية على دوافع السلوك الجانح لدى الاحداث وساعدت على فهم تركيب شخصية العديد منهم مما ساعد على وضع خطط تربوية وعلاجية ملائمة حيث كانت تفشل الاساليب التربوية

التقليدية القائمة على مبدأ الثواب والعقاب او التربية الخلقية العادية والاعداد المهني ٠

ويمكننا بدون ان نجانب الصواب كثيرا القول انه من العسير حاليا فهم الشخصية الجانحة ودوافعها بدون الاستعانة باحدى تيارات التحليل النفسي ٠ فكل التفسيرات النفسانية الاساسية لسلوك الحدث المنحرف والشائعة حاليا تعتمد على منطلقات كان للتحليل النفسي دور هام في صياغتها : مشكلة العلاقات مع الوالدين ، مشكلة التماهيات (١) الاولية ، مسالة الحرمان العاطفي ، مسالة مشاعر الذنب والنقص، مسالة العقد النفسية خصوصا عقدة اوديب(٢)٠ واخيرا هناك لقاء نظرية التحليل النفسي مع المنطلق العلائقي الذي يشكل محورا رئيسيا في الاتجاهات الحديثة لفهم الشخصية الجانحة ٠

على أن نظرة التحليل النفسي الى هذه الشخصية لم توضع مرة واحدة ونهائية بل عرفت تطورا طويلا مرّ بمراحل عدة من خلال اسهام الكثير من المحللين النفسيين الذين درسوا جماعات من الجانحين ٠ وفي كل مرحلة كانت تعطى الاولوية في التفسير لمنظور (٣) معين يعدل ويغير فيما بعد ٠

قبل الدراسات التحليلية النفسية النوعية لشخصيات الجانحين فسر المحللون الاوائل الانحراف من خلال نظرية العصاب (٤) ٠ وحدث ابهام ما بين العصاب والانحراف فترة من الزمن ٠ ويمكن عرض تطور نظرية التحليل النفسي الى هذا الامر كما يلي :

١ ـ تعميم نظرية العصاب على الجانحين :

حدث هذا التعميم كما قلنا في اول مراحل اهتمام التحليل النفسي بالسلوك الجانح وقبل القيام بدراسات خاصة على المنحرفين ، وكانت هناك اسباب عدة تبرره ٠ فمن ناحية يلاحظ عند العديد من الجانحين الكثير من الاضطرابات النفسية التي تميز الحياة العصابية ٠ فالمنحرف شبيه بالعصابي

---

(١) تماهي : Identification
(٢) عقدة اوديب : Complexe d'Odipe
(٣) منظور : Perspective
(٤) عصاب : Névrose

من حيث سرعة تفجر القلق النفسي لديه ومن حيث عدم استقراره ، وسرعة انفعاله ، ونقص نضجه الشخصي ، وعدم تمكنه من الارتباط بعلاقات عاطفية مستقرة وناضجة وخصوصا الاضطرابات الجنسية التي تلاحظ عنده بكثرة ٠ كما ان دراسة بعض التصرفات الجنائيــة تثبت علاقتها بعقدة اوديب وعقد الحسد الاخوي والرغبة في التعويض القضيبي (١) وكلها من مكونات العصاب الاساسية ٠

وعلى العكس فان دراسة الحيــاة النفسية للعصابي وخصوصا دوافعه ونزواته (٢) المكبوتة(٣) في اللاوعي(٤) تظهر ان هناك شحنات هائلة من النوازع العدوانية والجنسية وغير الخلقية وميول دفينة لتصر فات اجرامية ٠ كمـا ان دراسة احلام العصابي وكوابيسه تشير الى كثــرة موضوعات العدوان الاقتتال والموت ، والاعتداء والضرب والجرح والدم الخ ٠٠٠) وهي امور تميز حياة بعض الجانحين الذين ينزعون الى العنف٠ فحياة العصابي لا تخلو ابــدا من مكافئات رمزية للجنح والانحرافات والميول الجنائية ٠ لكل ذلك اعتبر الانحراف في البداية كشكل من اشكال العصاب وعومــل على هذا الاساس من الناحية العلمية بعد ان اطلق عليه اسم اضطرابات الطباع (٥) ٠

ولكن اذا كان هنــاك تشابه بين بعض جوانب العصابوالانحراف ، فقد اتضح للمحللين الذين درسوا هذا الامر عدم امكان التعميم المبسط ٠ طبعا هناك جانحون ينتج انحرافهم عن اسبــاب مرضية نفسية ، و يختفي عصابهم وراء اضطرابات خلقية وسلوكية ٠ ولكن لا يمكن مطلقا ارجاع جميع المنحرفين الى هذه الفئة ٠ أثبتت الابحاث التالية أن حوالي ٨٠ ٪ من الجــانحين لا يتميزون مطلقا عن الناس العاديين من حيث ظهور الاعراض العصــابية لديهم ٠ و مــن الضروري عند بحث حالتهم التمييز الواضح بين الشخصية الجانحة والشخصية العصابية ٠

ثم ان الاعراض العصابية(٦) التي تلاحظ عند الجانحين ليست هي المسؤولة بالضرورة عن انحرافهم ، فالعلاقة بينها وبين السلوك الجانح ليست سببية ٠

---

(١) تعويض قضيبي : Compensation phallique
(٢) نزوة ، نزوات : Pulsion
(٣) مكبوت ، كبت : Refoulement, Refoulé
(٤) لاوعي : Inconscient
(٥) اضطرابات الطباع :Troubles de caractère
(٦) اعراض عصابية (مفردها عرض): Symptomes névrotiques

ومن ناحية اخرى فكل الميول ذات الطابع العدواني واللاخلقي التي تظهر في احلام العصابي وتملأ حياته اللاواعية لا تتعدى غالبا المستوى الهوامي (١) ولا تتجسد الا في حالات نادرة في سلوك جانح ـ انها مصدر قلق له يحاول عادة اتخاذ جميع الاحتياطات لمنعها من الظهور على مسرح السلوك لدرجة ان الخوف من ظهورها يصبح وسيلة للتعبير عن قلقه المرضي ٠ وعلى كل حال فهذه الهوامات اللااجتماعية والنوازع المكبوتة غير الخلقية لا تؤدي أبدا حتى ولو ظهرت بأشكال مقنعة في السلوك الى النمط الجانح من الوجـــود ٠ فالانحراف لا يقاس بفعل او اكثر مخالف للمعايير الاجتماعية ، بل هو أساسا اسلوب حياتي مضاد للمجتمع له نوعيته ـ كما ان الاضطرابات العصابية التي تلاحظ عند بعض الجانحين تظل ثانوية بالنسبة للاضطراب الاساسي وهو التوجه نحو الحياة الجانحة ٠

وأخيرا تؤدي نفس العوامل أحيانا الى نتيجتين مختلفتين ٠ فالحرمـــــان العاطفي في الطفولة المبكرة قد يؤدي الى العصاب او الذهان او الانحراف٠ يولد الحرمان من حب الام نتيجــة تفاعله مع بقية القوى الفاعلة في المجال الأسري والحيوي للطفل صراعات نفسية تنتهي بتوجه بنية الشخصية قيد التشكل نحـــو النمط العصابي أو الجانح من الوجـــــود ٠ ونكون هنا أمام فروق نوعية بين الاستجابة الجانحة والاستجابة العصابية للحرمـــــان من المهم جدا أن نعرف طبيعتها حتى نحدد طريقة علاجها ٠

كل النقاط السابقة أدت بالمحللين النفسيين الى تبني منطلق مضاد للسابق تماما وهو التعارض بين الجانح والعصابي ٠

٢ ـ التعارض بين الجانح والعصابي :

هناك عدة فروق نوعية بين العصابي والجانح لا تتعلق بأسباب الاضطراب بل ببنية الشخصية وتوجه العمليات النفسية ، استخلصت من الابحاث العيادية على كل من الفئتين ٠ ويمكن تلخيصها في ثلاثة أساسية :

- توجه الصراع والموقف من الآخرين ٠
- الموقف من الذات ٠
- الموقف من الديمومة ٠

(١) هوام : **Fantasme**

توجه الصراع : أن صراعات العصابي تظل على المستوى النفسي الداخلي أساسا ولا تبرز للخارج سوى اثار هذا الصراع · أما الجانح فان صراعاته تتخذ عادة الطابع العلائقي ·

فمشكلة العدوان مثلا يعاني منها كلاهما ولكنها تتجه اتجاها مضادا عند الاول عنها عند الثاني · فنقص الحب الاموي وكذلك عدم احساس الطفل بأنـــه مرغوب فيه يؤدي عند العصابي المقبل الى شحنة هائلـــة من العدوان ولكن هذه الشحنة ترتد على الذات وتولد معاناة وجودية عنيفة · وهو يعيش الحرمـــــان والاهمال كادانة له وتتولد لديــه مشاعر الدونية (١) والذنب (٢) ، هذه المشاعر تمنعه من توكيد ذاته ومن الوصول الى مرحـــــلة الاستقلال والاعتزاز بالنفس الضروريين لمجابهـــة الحياة والآخرين ولذلك يظل في حالـــة عجز تجاه العالم الخارجي ، خصوصا ان هذا العالم يتضخـــم في قيمته واهميته بنسبة تضاؤل قيمة واهمية ذات(٣) العصابي · ويؤدي العدوان بكل ما صحبه من معاناة وقلق ومشاعر دونية الى ازدراء للذات ونقمة عليها وميل الى تحطيمها ·

أما عند الجانح المقبل فتتخذ العملية وجهة معـــاكسة تماما في سيرها · فالحرمان يولد عنده نفس الالام الوجوديةونفس الارجاع العدوانية ولكنالعدوان يتوجه الى الخارج في تمرد على السلطة وعلى الحياة الاجتماعية المتكيفة · فهو بدل أن يستجيب بمشاعر الذنب يحتج على حرمانه في رد فعل يتضمن درجة عالية من الحيوية ويطالب بحقه في الحب وبادانة الاخرين الذين منعوا عنه الحب · ووضع الآخرين في موضع المتهمين يبرر اضطهاده لهم وعدوانه عليهم · ويتخذ الفعل الجانح عندها طابع التعويض عن الغبن الذي لحق به · وهكذا بدل أن تنحسر شخصيته وقيمته الذاتية تجاه العالم الخارجي كما هو حال العصابي نجد تضخما في القيمة الذاتية وتوسعا في الشخصية على حساب العالم الخـــارجي (ادماج (٤) العالم بشكل عدواني) ·

وهكذا يصبح الانا (٥) (عنصر التنسيق بين الحاجات الذاتية ومتطلبات الواقع) غاية في حد ذاته بدل أن يكون مجرد منسق بين الذات والواقع · فهو لا

---

(١) مشاعر الدونية : Sentiments d'infériorité
(٢) مشاعر الذنب : Sentiments de culpabilité
(٣) الذات : Le soi
(٤) ادماج : Incorporation
(٥) الانا : Le moi

يعترف بما عداه ، (اللاأنا) بالاخر الا كجزء من الانا او بالاحرى كأداة في خدمة أغراض ورغبات الانا يمكن استغلالها عند الحاجة · ويؤدي ذلك الى انعـــــدام التمييز بين العالم الداخلي والعالم الخارجي · وبالتالي فالرغبة في شيء ما تعني في نفس الوقت امتلاكه ·

الا ان العدوان ليس وحيد الاتجاه في الحالتين · فهناك عدوان موجـــــه للخارج عند العصابي ولكنه يظل عدوانا غير مباشر · وهناك تضخم للذات ونفيا للآخرين ولكنه يظل على مستوى ذاتي خيالي · أما الجانح فان عـدوانه يتوجه ايضا نحو الذات في نفس الوقت الذي يتخذ طابع التمرد التدميري على العـــالم الخارجي · ويتخذ العدوان الموجه نحو الذات طابع السلوك الانتحـــاري الذي يلاحظ عند معظم الجانحين (سلوك المغامرة وتعريض النفس للاخطار بدون مبرر) ، كما ان وراء الانا المتضخمة مشاعر دفينة بالدونية والذنب وانعدام القيمة الذاتية تتخذ عادة طابع الدونية (١) الاجتماعية ·

الموقف من الذات : يشكل وجه الاختلاف الآخر بين الجــانح والعصابي · فالاول يهرب من ذاته بينما ان الثاني يهرب في ذاته · الجانح يتجنب عادة مواجهة صراعاته النفسية ويتهرب من القلق الداخلي ومن الآلام النفسية التي تتولد عـن هذه الصراعـــــات وذلك القلق · وأصعب الامور على الجانح الاحساس بآلامه المعنوية بشكل فعلي · فهو يصاب بالذعر أمام كل ذلك مما يجعل الحديث معـــه حول هذه الآلام أمرا في غاية الصعوبة · وهو يتهرب منها بالانغماس في الواقع المادي وبالاحداث والوقائع التي تعترض حياته اليومية · الحرمـــان من الحب يتحول بسرعة الى مسألة حرمان مادي من هذا الامر أو ذاك والشكوى الوجودية من الاهمال تأخذ طابع الاحتجاج على حرمان مادي او رفض طلب ظرفي (٢) ·

أما العصابي فيعاني من صعوبة الانغراس في الواقع المادي · وهو يتجنب هذا الواقع مرتدا الى الذات كي يغرق في هواماتها وتخيلاتها · وعلـــــى عكس الجانح الذي يتجنب الاحساس بالالام المعنوية والذاتية نجد العصابي يجتر هذه الآلام ويعممها على الواقع المادي · ويتناسب اجتراره لآلامه الذاتية مـــن حيث الشدة مع انخفاض مراعاة الواقع وتقديره بشكل صحيح ومواجهته انطلاقا مـن

---

(١) الدونية الاجتماعية : Infériorité Sociale

(٢) ظرفي : Occasionnel

ذلك · وهو يصبغ الواقع بصبغة ذاتية تؤدي الى تضخيم ما يتضمنه من صعوبات وعراقيل وأخطار وتمنعه من التصرف بشكل عملي وفعال ·

ولكن رغم هذا الاختلاف من حيث الموقف من الذات نجد ان وظيفة الواقع مضطربة لدى الاثنين جميعا · فالجانح لا يدرك من الواقع الا ما يحمله من لذة آنية أو احباط آني ولا يستطيع مراعاة الواقع في جميع أبعاده ، وموقفه منه اضطهادي(١) اساسا · كما ان العصابي يشوه الواقع من ناحية تضخيم اخطاره ومشكلاته وبالتالي تضخيم عجزه هو تجاه هذا الواقع · فهو اذا في الحالتين مصطبغ بصبغة ذاتية لا شك فيها ·

الموقف من الديمومة (٢) : ثالث اوجه الاختلاف الاساسي بين الجانح والعصابي · رغم اضطراب الديمومة في الحالتين من حيث تناسق أبعادها الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) في وحدة لها طابع التسلسل المستمر ، فان ذلك الاضطراب يتخذ شكلين مختلفين عند كل منهما · وسيكون لنا عودة لبحث الديمومة عند الجانح وانما يمكننا أن نذكر باختصار أن الجانح يهرب من الماضي ويهرب من المستقبل كذلك ، بينما يهرب العصابي من الحاضر · وبمعنى آخر فالجانح يهرب في الحاضر بينما يهرب العصابي من الحاضر · يظهر معظم الجانحين عجزا واضحا عن التخطيط للمستقبل ، كما يظهرون ميلا كبيرا للهروب من الماضي وآلامه لدرجة أنهم يعجزون عن الاستفادة من تجارب ذلك الماضي · وهم يظلون اسرى اغراءات اللحظة الراهنة غير مكترثين لما ستجره هذه الاغراءات من نتائج قد تكون وخيمة على مصالحهم في المستقبل · فقط الآني والظرفي يهم وأمام ضغوطه ومغرياته تنهار العبرة من تجارب الماضي ويتلاشى الاحتياط للمستقبل ·

أما العصابي فهو على العكس من ذلك يغرق في ماضيه مجترا تاريخه بما يحفل به من تجارب ومآس ، كما قد يغرق في المستقبل بما فيه من خطط وتصورات وهمية وحلول سحرية ، مما يبعده عن مجابهة الحاضر والتصرف الفعال تجاهه · فالحاضر ومجابهته تثير لدى العصابي قلق تجسيد الرغبات والمخاوف ولذلك فهو يهرب مما هو كائن الى ما كان أو ما سيكون ·

هذه الفروقات النوعية يضمها فرق أساسي هو الاسلوب العام للوجود من

---

(١) اضطهادي : Persécutif

(٢) الديمومة : Durée

ناحية وبنية الشخصية من ناحية ثانية · فالانحراف هو قبل هذه السمة او تلك توجه حياتي عام يتميز بالعداء للمجتمع ومعاييره والدخول في حالة صراع معها· اما العصاب فيتميز ايضا بنمط من الوجود العاجز أمـام المجتمع وامام الاخرين وبالتالي من الانقياد الراضخ واحيانا من التمرد الفاشل تجاه هذا المجتمع · هذه الفروقات جعلت دراسة السلوك الجانح بابا مستقلا بذاته في ابحاث التحليـــل النفسي ·

ولكن دراسة شخصية الجانح بشكل مستقل لم تصل الى غايتها دفعة واحدة بل عرفت كما اشرنا سابقا تطورا كبيرا في التركيز على هذا الجانب أو ذاك مـن جوانبها من ناحية ، وعرفت تطورا في فهم أسباب تكون هذه الشخصية الجانحة من ناحية اخرى ·

٣ ـ دراسة الجانح بشكل مستقل :

مرت هذه الدراسة بمراحل أساسية أهمها ثلاث (١) :

أ ـ الجانح انسان بدون انا اعلى (٢) ·

ب ـ الجانح انسان ذو أنا أعلى عنيف ·

جـ ـ الاهتمام بالانا والعلاقات ·

وتعالج كل مرحلة أمرين اثنين هما مركز الخلل في شخصية الجانح الذي يؤدي به الى السلوك المنحـــرف واسباب هذا الخلل تاريخيـــا تكوينيا (٣) او جدليا (٤) تفاعليا (٥) ·

أ ـ الجانح انسان بدون انا اعلى :

أول محاولة لتفسير سلوك الجانح كانت القول بغياب الانا الاعلى لديــه ·

ايكهورن هو الذي تقـــدم بهذا الافتراض التفسيري في كتـابه (الشباب الجامح) الذي وضعه بعد عمله العلاجي مع جماعة منهم وهو محلل نفسي مـــن

---

(١) انظر مقالة جولييت فافيز بوتونييه في مجلة التحليل النفسي :
La psychanalyse, vol. 3, Paris 1975, P.U.F.

(٢) الانا الاعلى : Surmoi

(٣) تكوينيا : Génétiquement

(٤) جدليا : Dialectiquement

(٥) تفاعل : Interaction

أتباع فرويد ، ووضع افتراضه بموافقته · وكان المبرر لوضعه سلوك هؤلاء الجانحين الذي يتميز بالعنف ، والاندفاع ، وانعدام الضبط الذاتي ، وانعدام مشاعر الذنب والخطأ والندم ، وعدم الاحساس بآلام الآخرين · هذه المظاهر تجعل المراقب يعتقد انهم يفتقدون الحس الخلقي تماما وينجرفون في تيار نزواتهم · وحيث ان المسؤول عن هذه الوظائف هو الانا الاعلى (مركز الضبط الخلقي ومشاعر الذنب ومحاسبة الذات) فلقد ظن ايكهورن ان الجانحين يفتقدون هذا الانا الاعلى أو انه ضعيف جدا لديهم بشكل يجعله عاجزا عن القيام بوظائفه الخلقية · ويكون الجانح بالتالي رازحا تحت وطأة الهو (مركز الشهوات والغرائز والنوايا اللاخلقية) مما يجعله يعتدي على الحرمات ويخرق القوانين الاجتماعية بشكل أناني ·

الا ان الملاحظات الدقيقة أثبتت فيما بعد صعوبة الاخذ بهذا الافتراض التفسيري · فالجانح الشائع لا يختلف كثيرا عن الناس العاديين وعنفه وأنانيته وخرقه للمعايير الخلقية ليست بالصفات العامة التي تميز حياته بشكل دائم بل يقتصر ظهورها على مناسبات معينة · خارج هذه المناسبات يظهر الجانح عادة قدرة حسنة على التعاطف مع الآخرين وتنتابه مشاعر الندم ويستطيع التمييز بين الصواب والخطأ ، بين الخلقي واللاخلقي · كما انه في حالات اخرى يظهر الكثير من الحياء والتأثر ويندفع في تصرفات غيرية (١) (تضحية الذات من اجل الآخرين) تذهب بعيدا ·

ثم ان فرويد نفسه ونفرا من المحللين الذين عالجوا بعض حالات الانحراف اتضح لهم ان وراء هذا القناع من القسوة المفرطة والانانية وعدم مراعاة الاخرين ميولا دفينة تعصف بالجانح وتدفع به الى تحقير ذاته وتحطيمها ، كما تدفع به أحيانا الى القيام بأفعال تظهر جميع الدلائل على ان المحرك الاساسي وراءها هو البحث عن العقاب · يظهر ذلك خصوصا في حالة الجانحين المعتادين الذين يكررون انحرافاتهم ويتنقلون ما بين حياة السجن والحياة الحرة ·

أدت هذه الملاحظات الى تغيير كلي في النظرة الى الجانح وقلب الافتراض السابق الى عكسه ·

---

(١) غيرية : Altruisme

ب ـ الجانح انسان ذو انا اعلى عنيف :

ليس الجانح انسانا مجردا من الانا الاعلى بل هو على العكس ضحية أنـا أعلى عنيف يمارس على صاحبه نوعا من الهمجية ويدفعه باستمرار الى وضعيات تنتهي بالعقاب والحط من القيمة الذاتية • وهو بذلك يحرمه الوصول الى النجاح أو الى العيش اللائق ويدفعه باستمرار الى البقاء في وضعية المدان •

يلتقي حول هذا الافتراض فرويد وميلاني كلاين وأتباع كل منهما • ولكن

هناك اختلافا في المنطلق الذي ادى بهما الى هذه النتيجة •

١ ـ رأي فرويد : أما فرويد فيقول أن الجانح يرتكب أفعاله المضادة للمجتمع بحثا عن العقاب • وهو يفعل ذلك لانه مدفوع بمشاعر ذنب شديدة ناتجة عن أنـا أعلى مفرط في قسوته ويتطلب العقاب بشكل دوري لكي يهدأ • ويعود سبب نشأة هذا الانا الاعلى العنيف الى فشل حل عقدة أوديب • يظل الطفل متعلقا بأمـــه ومشحونا بالنوايا العدوانية اللاواعية تجاه الاب • هذه النوايا العدوانية تطلق بدورها مشاعر ذنب شديدة وخوف من انتقام الاب • وهكذا يتكون لديه أنا أعلى على صورة هذا الاب الهوامي : الاب العنيف المنتقم والذي يعاقب الطفل على نواياه العدوانية والتملكية • هذا الانا الاعلى يتميز اذا بالعنف بينما يفترض أن يتميز في الحالات السوية بالرأفة والتشجيع والتقدير بالاضافة الى الحســاب المتشدد على الاخطاء • ويظهر العنف على شكل مشاعر ذنب قوية تحتــاج الى عقاب كي تهدأ • ولذلك فالجانح تبعا لفرويد مدفوع في أفعاله بالبحث اللاواعي عن العقاب • الا ان جميع هذه الدوافع تكبت (١) عادة ولا يعي الانسان سوى أثارها المؤلمة •

ولقد فسر فرويد وبعض أتبـــاعه مثل باش وكات فريـــدلاندر وليبوفيسي Pache, Kate, Friendlander, Lebovici ظاهرة التكرار عند بعض الجانحين الفاشلين من خلال هذا الافتراض • فالجانح الفاشل المكرر يبدو كأن لديه انجذابا نحـــو السجن ، يعطي الانطبـــاع وكأنه ينحـــرف كي يعاقب ، وفي السجن السجن يبـــدو عليه الهدوء لان العقـــاب يسكت صوت الانا الاعـــلى • بعد خروجه لا تمضي فترة طويـــلة من الزمن في حيـــاة الحرية حتى يتحرك الانا

....

(١) الكبت : Réfoulement

الاعلى من جديد مطالبا بالعقاب من خـــلال اثارة مشاعر الذنب الشديدة · ويستجيب الجانح لذلك بالعدوان والسلوك المضاد للمجتمع فيعاقب من جديد · وهكذا تترسخ الحلقة المفرغة التي تميز حياة هؤلاء المكررين (١) :

مشاعر ذنب ← سلوك عدواني جانح ← عقاب ← مشاعر ذنب ·

ولكن هذا الافتراض التفسيري لا ينطبق على جميع الجانحين · انه يصلح فقط لفهم الانحراف النابع عن مشاعر ذنب مرضية · ونسبة هذه الحالات تبقى محدودة بالقياس الى جمهرة الجانحين الذين لا يتمنون سوى البقاء طلقـــاء والاستمتاع بثمار الحياة الجانحة ·

٢ ـ راي ميلاني كلاين :

ميلاني كلاين وجه مرموق من وجوه التحليل النفسي · وتعتبـــر صاحبة مدرسة فكرية في هذا المجال · كان لآرائها وكتاباتها اثر كبير على حركة التحليل النفسي في انكلترا ثم في العديد من البلدان خارجها · نفر كبير مـــن المحللين الانجليز تبنوا آراءها وأصبحوا من أتباعهـــا · ولقد اهتمت خصوصا بالطفولة الاولى وقدمت مساهمة قيمة في علاج الاطفال بالتحليل النفسي · وتعتبر مع آنـا فرويد رائدة علاج الاطفال بهذه الطريقة · ويمثل كل منهما تيارا نظريا وعيــاديا يختلف عن الاخرى ولكنه يلقي الاضواء من زاويته الخاصة على جوانب أساسية من اضطرابات الطفل النفسية · كما اكملت كل منهما من منطلقها الخاص تعـاليم واكتشافات فرويد في ميدان الطفولة ·

تقول ميلاني كلاين بأن الجـانح مدفوع أساسا بأنا أعلى عنيف وهمجي · ولقد عبرت عن رأيها هذا في مقال صغير كتب عام ١٩٢٤ وظهر فيكتابها محاولات في التحليل النفسي (٢) · ولكنها تختلف مـع فرويد حول نشأة هذا الانا الاعلى الهمجي · بينما يرده فرويد الى عقدة أوديب ما بين الثانية والنصف والخامسة أو السادسة مـــن العمر ، ترى ميلاني كلاين أن الانا الاعلى سابق لعقدة الاوديب ويتكون في السنة الاولى من الحياة · وهي ترجعه الى العلاقة الاولية مع الام من خلال تجربة الرضاعة · فالطفل عندما يرضع لا يبتلع الحليب فقط وانما تتكون لديه في نفس الوقت صورة ما عن الام وبالتالي عن نفسه من خلال نوعية تجربة الرضاعة · فاذا كانت هذه التجربة وما رافقها من علاقة سارة ومطمئنة ومشبعة

....

(١) انظر مقالة ليبوفيسي : Lebovici في :
Actes de II congrès international de criminologie, Tome I, Paris, P.U.F. 1951,
(٢) Mélanie Klein, Essais de psychanalyse, Paris, 1967, Payot.

للطفل تكونت لديه صورة ايجابية عن الام ٠ وهذا ما تطلق عليه ميلاني كلاين اسم صورة الام الصالحة٠ اما اذا كانت هذه التجربة مؤلمة او محبطة (١) ولم يحصل الطفل من خلالها على الارتياح والطمأنينة فتتكون لديه صورة سلبية عن الام ٠ وهو ما تطلق عليه اسم صورة الام السيئة ٠ وصورة الام هذه سواء كانت ايجابية «الام الصالحة» (٢) او سلبية «الام السيئة» (٣) تشكل النواة الاولى لكل صورة تالية يكونها الطفل عن الاخرين وعن العالم من ناحية ولكل صورة يكونها عن ذاته وعن وجوده من ناحية ثانية٠ ويتم ذلك من خلال اوالية(٤) الاجتياف (٥)٠ وهكذا تؤدي صورة الام الصالحة الى تكوين صورة ايجابية عن الذات وبالتالي تنشىء انا أعلى ودودا ورفيقا ٠ أما الصورة السيئة فتؤدي الى تكوين قيمة سلبية عن الذات والى تكوين انا أعلى همجي عنيف يمارس بطشه على الطفل ٠

ومهما كانت الام ايجابية ومتعاطفة مع الطفل فالعلاقة بينهما معرضة لتكوين صورة سلبية عنها ٠ يحدث ذلك في الحالات العادية لان أول اجتياف فمي لصورة الام يتم خلال المرحلة الفمية السادية(٦) في نهاية السنة الاولى، حيث تكون الميول السادية (العنف الفمي من خلال العض والابتلاع والتملك٠٠) عنيفة وتصبغ بطابعها الصور التي يكونها عن الام وعن ذاته ويؤدي ذلك الى نشأة أنا اعلى عنيف ٠ هذه الصور الداخلية تسقط (٧) على الخارج في خطوة ثانية فتتلون الموضوعات الخارجية (الاشخاص الآخرون) بهذه الصبغة السادية ٠ وهكذا يرزح الطفل تحت وطأة الخوف من أن يتلقى من الموضوعات الخارجية الحقيقية ومن أناه الاعلى هجمات انتقامية ذات قسوة لا تتصور ٠ ويدفع به ذلك الى الهجوم بدوره عليها والميل الى تدميرها ٠ ويكثر الطفل من هذه الهجمات في خياله بقصد الاحتماء من الخوف الذي توحيه له موضوعاته الخارجية والداخلية ٠ ويحاول خلالها اسكات صوت الانا الاعلى بالقضاء على الموضوعات التي تغذيه (الام السيئة والاشخاص العدوانيين الخطرين خياليا) ٠ ويؤدي ذلك الى اقامة حلقة

---

(١) احباط : Frustration
(٢) الام الصالحة : Bonne mère
(٣) الام السيئة : Mauvaise mère
(٤) اوالية : Mécanisme
(٥) اجتياف : Introjection
(٦) المرحلة الفمية السادية : Stade sadique-oral
(٧) الاسقاط : Projection

مفرغة:القلق النابع من تهديد الموضوعات الهوامية(١)يدفع بالطفل الى تحطيمها · وهذا التحطيم يولد في نفسه الخوف من انتقام هذه الموضوعات من خلال مبادلته العدوان والعنف مما يؤدي الى زيادة شدة القلق ، والى المزيد من نوايا العدوان والتحطيم ·

هذه الحلقة المفرغة تكون في رأي ميلاني كلاين الاوالية النفسية التي يظهر انها أساس الميول المجرمة والمعادية للمجتمع عند الشخص ·

يؤدي النمو في الحالات العادية الى تجاوز هذه الوضعية مما يساعد الطفل على الاحتماء بمحبة الوالدين ضد هواماته المرعبة والخطرة · فالعلاقة الواقعية تحميه من العلاقة الهوامية وتصححها · وتبرز صور الوالدين العطوفين متغلبة على الصور الهوامية الخطرة بمقدار ما تتدعم الميول التناسلية وتعود صورة الام الرقيقة والمعطاء التي اجتافها في المرحلة الفمية الاولى الى الظهور مقتربة بذلك من حالة الام الحقيقية · ويتأثر الانا الاعلى بهذه التغيرات والتصحيحات ويطغى عليه طابع الصور الوالدية الايجابية فيصبح اكثر يسرا وحدبا ولينا · ومنذ تلك اللحظة تصبح متطلباته اكثر واقعية ، أي انه يتحول الى ضمير خلقي فعلي · وهكذا تقل سادية الطفل تدريجيا ويحل محلها مشاعر ايجابية ويتحول العدوان الى شعور بالذنب وضرورة اصلاح الضرر الذي لحق بالاخرين ، مما يرسي اسس الموقف الخلقي الحقيقي ويسمح بقيام علاقات طبيعية وتوازن ما بين الود والصدام ·

ولكن لا يتمكن كل الاطفال من المرور بهذا التطور العادي لتكوين الانا الاعلى · فهناك حالات يعسر فيها كسر طوق حلقة الحقد والقلق والميول التدميرية التي بيناها نتيجة لسادية عنيفة وقلق ساحق · يؤدي ذلك الى بقاء الطفل تحت وطأة القلق الطفلي الاولى وأسير الاواليات الدفاعية الخاصة بهذه المرحلة المبكرة· فاذا تجاوز الخوف الذي يحدثه الانا الاعلى حدودا معينة قد يجد الشخص نفسه مضطرا للقيام بسلوك تدميري تجاه الاشخاص والاشياء · ويشكل هذا الاضطرار في رأي ميلاني كلاين أساس الذهان او الانحراف · كما يتبعه عادة هوامات اضطهاد (٢) تجعل الاعتداء على الاخرين ممكنا بل تبرر هذا الاعتداء

---

(١) هوام اضطهاد Phantasme de persécution

(٢) الموضوعات الهوامية : Objets phantasmatiques

وتحوله الى نوع من الدفاع المشروع عن النفس أو الحقوق الشخصية وذلك من خلال اسقاط الصراع الداخلي على الخارج • وتقول المؤلفة ان الاضطهاد ذا الطابع الداخلي أساسا يجد عادة تدعيما وتعزيزا له من المحيط • فاما أن يكون الاهل قساة نابذين او ان يكون المحيط بائسا مما يجعل التمرد على كلا الامرين موقفا مشروعا •

أين تذهب مشاعر الحب والود في خضم هذا العالم العدواني الاضطهادي التدميري المقلق الذي يغرق الطفل من هؤلاء في دوامته ؟ تقول ميلاني كلاين ان الحب ليس مفقودا عند الجانح ولكنه مخبأ ودفين • مشاعر الود والحسنى ليست مفقودة سوى ظاهريا ، اذ نجد الحب وراء الحقد والقلق عندما نتمكن من تحليل أعمق صراعات الجانح ، والسبب في ذلك بسيط ، فموضوع الحقد الاول هو في نفس الوقت موضوع الحب • وتواجد الامران معا يؤدي الى تناقض غير مقبول في العواطف • ولذلك يكبت الحب • ويساعد كبته في القضاء على مشاعر الذنب ويجعل العدوان ممكنا حيث يحتل وحده مجال الحياة الواعية للجانح ويخلق حالة اضطهادية تجعل الدفاع عن الذات ضد الاخرين وضد العالم الخارجي الهم الاول له •

هذه الملاحظة تصيب لب الواقع • ولقد أثبتت الدراسات التالية فعلا ان ان الحب والود غير مفقودين حتى عند اكثر الجانحين قسوة وأقلهم احساسا بآلام الاخرين • ولكن هؤلاء يكبتون هذه المشاعر الايجابية لاسباب سنعرض لها عند الحديث عن الاواليات الدفاعية للانا الجانح في موضع اخر من هذا الكتاب •

ومن المهم جدا أن لا ننسى هذا الامر ، اذ انه يغير كليا من نظرتنا الى ديناميكية شخصية الجانح • فالقسوة الظاهرية لا تظل في هذه الحالة وليدة فسق خلقي وحياتي انما هي نتيجة لتطور نفسي • وبالتالي فالامر يصبح قابلا للعلاج بعد ان كان العلماء الاوائل يعتقدون بالفسق الموروث ولا يرون من علاج للجانحين العتاة سوى الابادة أو القضاء على امكانات تناسلهم • ان القول بالحب المكبوت عند الجانح يفسح المجال واسعا أمام مساعدته على تغيير نوعية ارتباطه مع الآخرين من علاقات عدائية اضطهادية تدميرية الى اخرى ايجابية ودية تعاطفية ، وبالتالي تساعد على تكيفه للحياة الاجتماعية •

ان هذا الاطار التفسيري الذي تقدمه لنا ميلاني كلاين يسلط الاضواء على

طبقات عميقة جدا من شخصية الجانح ويعكس فعلا ما يعتمل فيها من صراع . فلقد اتضح من الابحاث التالية ان هذا القناع من الجمود العاطفي واللامبالاة الذي يحاول الجانح عن قصد التستر به واستعراضه امام الآخرين يخفي وراءه كائنا يسحقه القلق ويعصف به الذعر من ميوله التدميرية ومن خوف الفشل في الحصول على الحب . ومن هنا نفهم ان حاجته لذلك القناع الظاهري تتناسب عادة مع شدة قلقه وذعره من ميوله التدميرية ويأسه من عدم الحصول على الحب . وبالتالي فهذه النظرة تجعلنا نغير جذريا استراتيجية الاصلاح التقليدي التي كانت تتبع مع الجانحين الى الان والتي تقوم على عنصري الترغيب والترهيب ، وتبني خطة علاجية اصلاحية تنطلق من معرفتنا الوثيقة بدينامكية شخصية . ولقد حاول الاختصاصيون الذين أتوا بعدها أن يضعوا تلك الخطط الملائمة . وسنتحدث في فقرة تالية من هذا الفصل عن واحد من أبرزهم في هذا الميدان وهو ردل F. Redl .

ولكن اذا كنا نأخذ بهذا التفسير ونشدد عليه فان لنا بعض التحفظات حول عدة امور تتعلق به .

أولا : أول هذه التحفظات يدور حول كيفية نشأة هذا الانا الاعلى العنيف . ان دراسة مختلف حالات الانحراف لا تؤيد رأي ميلاني كلاين في أن الأنا الاعلى العنيف هذا ينتج فقط عن المرحلة الفمية السادية وعدم امكان تجاوزها من خلال الوصول الى المرحلة التناسلية . وبشكل أدق لا تؤيد دراسات الجانحين كون الانا الاعلى ينتج فقط عن مرحلة عادية من مراحل النمو . فلقد اثبتت ابحاث بولبي على عينة من الجانحين (٤٤) اللصوص المحرومين عاطفيا ، أن الأنا الاعلى الوحشي ينتج أساسا عن صورة الام السيئة التي تعكس في الواقع ، وليس فقط نتيجة لسادية ذاتية عند الطفل أما حقيقة نابذة غير محبة ، أو غيابا كليا للام المحبة وعدم امكانية التماهي بصورتها . فالأنا الاعلى الوحشي ينشأ نتيجة لاجتياف صورة ام سيئة أو صورة عالم مقلق مليء بالاخطار لانه لا يؤمن للطفل اشباع حاجته الى الحب والحرارة العاطفية والطمانينة . هذه الصور السلبية المقلقة تثير سادية الطفل الكامنة ، وتخلق بالتالي الحلقة المفرغة التي تحدثت عنها ميلاني كلاين . ويمكن القول بعد ذلك ان هذه الصيغة التفسيرية تصلح تماما في حالة الاطفال المحرومين عاطفيا منذ سن مبكرة .

ثانيا : تظهر قراءة ابحاث ميلاني كلاين تركيزا أساسيا على البعد الذاتي من المشكلة ، بمعنى انها تعتبر مصدر الاضطراب سواء اتخذ شكل العصاب أو

الذهان أو الانحراف داخليا لا يتدخل المحيط الا بشكل ثانوي فيه . وليس هذا المنطلق بمستغرب اذا تذكرنا أن المؤلفة قامت بأبحاثها في فترة مبكرة نسبيا من تطور نظرية التحليل النفسي أي في الفترة التي كان التركيز الاول فيها حول الهو(١) وما فيه من نزوات وميول مكبوتة . ولقد أتت بعد هذه المرحلة عدة مراحل تركز خلالها الاهتمام على الانا (٢) وأوالياته الدفاعية ، ثم على العلاقات الواعية منها واللاواعية بين الطفل ووالديه أولا وأفراد اسرته ثانيا .

فالمنطلقات الحديثة في التحليل النفسي تقول بعدم امكانية فهم اضطرابات الطفل بمعزل عن علاقته بوالديه . وأكثر من ذلك يميل العديد من المحللين النفسيين المحدثين الى اعتبار اضطراب الطفل مهما كان نوعه وليد التفاعل اللاواعي مع رغبات (٣) الوالدين . ولذلك يمكننا ان نتساءل الى اي حد تكون سادية الطفل التي تحدثت عنها ميلاني كلاين عند الاطفال العاديين وليدة موقف أمه اللاواعي منه ؟ أي الى أي حد تكون سادية الطفل مجرد جواب على نبذ لاواع له من قبل الام ، أو حتى رغبة دفينة عندها في دفعه الى ذلك السلوك العدواني ؟ وفي خطوة أبعد يأتي التساؤل الثاني وهو الى أي حد يعود اضطراب الطفل (جانحا كان ام عصابيا) الى اضطراب الام أو الاب أو العلاقة الزوجية بينهما ؟ نكتفي بهذا القدر من التساؤلات فلنا عودة الى هذه النظرة الحديثة الى الاضطراب النفسي عند الطفل في فقرة تالية من هذا الفصل . ونلخص الامر بالقول ان نظرة كلاين الى بنية شخصية بعض الجانحين تعتبر مساهمة هامة في توضيح ديناميكية سلوكهم وكيفية علاجهم ، أما ما يجب التحفظ بصدده فهو كيفية نشأة هذه البنية .

ج ـ اضطراب الانا لدى الجانح :

بعد الاهتمام بالهو ومحتوياته المكبوتة وكيفية تسربها الى السلوك ، والاهتمام بالانا الاعلى ، نشأته ودوره في الحياة النفسية ، توجه اهتمام المحللين النفسيين الى الأنا باعتباره القوة المنسقة لجميع المعطيات والمنفذة للرغبات من خلال هذا التنسيق . كان هذا التوجه طبيعيا ، اذ لا يكفي أن نعرف حالة النزوات حتى نحدد نوعية الاضطراب ونفهم الشكل الذي يظهر فيه . لا بد في آن معا من

---

(١) الهو : Le ça
(٢) الأنا : Le moi
(٣) رغبات : Désirs

معرفة حالة السلطة المنسقة والمنفذة من قوة او ضعف ومعرفةموقفها من المتطلبات المتعارضة التي تجابهها ·

عديدون هم العلماء الذين اهتموا بدراسة الأنا وأعطوه المكانة الاولى في النظرية التحليلية النفسية لفهم السلوك السوي والمرضي · ولكن تبقى مساهمة آنّا فرويد من ابرز المساهمات في هذا الميدان· فلقد كرست اهمية الانا نهائيا في كتابها المسمى « الانا والاواليات الدفاعية » (١) الذي صدر بالالمانية عام ١٩٤٦ وترجم الى معظم اللغات ، حيث عرضت الوسائل التي يتبعها الانا لمجابهة الضغوط المختلفة التي يتعرض لها · ولقد صار واضحا أن نوع الاضطراب والشكل الذي يظهر فيه يتحدد في نهاية الامر بطبيعة هذه الاواليات التي يلجأ اليها الأنا لمجابهة القلق ·

ولقد امتدت الدراسات حول عمل الأنا الى ميدان انحراف الاحداث وظفرنا من ذلك بدراسة قيمة حول خصائص الأنا الجانح وطريقة عمله واوالياته الدفاعية تكاد تعتبر فتحا في هذا الميدان · اذ اثبتت ان الانا الجانح طرقه الخاصة في مجابهة الضغوط والقلق تختلف عن أنا الناس العاديين أو العصابيين أو الذهانيين · وقيمة هذه الدراسة ليست نظرية فقط بل عملية في المقام الاول · فهي تساعد الاختصاصي على فهم طبيعة عمل الحياة النفسية للجانح وبالتالي تمكنه من وضع خطط ملائمة لعلاجها ·

قام بهذه الدراسة المحلل النفسي الاميركي فرتز ردل Fritz Redl الذي ادار في الاربعينات مؤسسة نموذجية لعلاج الشباب الجانحين ذوي الحالات الصعبة اطلق عليها اسم بيت الرواد واستمرت التجربة بنجاح سنوات عدة · ثم اضطر الى انهاء المشروع نتيجة لعدم توفر الامكانات المالية ·

ولقد عرض نتائج هذه التجربة في مؤلف من جزئين بعنوان «الاطفال الذين يحقدون» (٢) · الجزء الاول يعالج بعض النواحي النظرية المتعلقة بشخصية الجانح وخصوصا دراسة طبيعة الأنا عنده وطرق عمله وكذلك الانا الاعلى ·

---

(١) A. Freud, Le moi et les mécanismes de défense, Paris, P.U.F, 1967.

(٢) F. Redl et D. Winemann, L'enfant agressif, Paris, 1964, Ed. Fleurus.

اما الجزء الثاني فلقد خصص لعرض الجو العلاجي الذي يجب توفيره في مؤسسة من هذا النوع وأساليب العمل التربوي والعيادي مع الجانحين · ولقد اصبحت هذه الدراسة مرجعا اساسيا ودليل عمل للعاملين في ميدان عـــــلاج وتربية الاحداث الجانحين ·

دراسة ردل للأنا الجانح :

لا يهتم ردل بتوضيح نشأة وأسباب السلوك الجانح ، بل يركز جل همه على الدراسة الدقيقة لطـــريقة عمل الجهـــاز النفسي عنده ، خصوصا عمل الأنا وخصائصه وأوجه القصور في الأنا الاعلى · وهو يعرض هذه الدراسة باسلوب جد مبسط فيه الكثير من تيسير الامر على القارىء غير المتخصص ·

يقول ردل ان هناك فئتين أساسيتين من المتغيرات تتحكمان بالسلـــوك وتفسرانه ·

أ ـ نظام النزوات(١) : وهو مجموع الميول والرغبات والحاجات والنزوات والمطامح التي تدفع الشخص نحو الاشباع والوصول الى الهدف أو التعبير في لحظة ما ·

ب ـ نظام الضوابط (٢) : يضع حدا للنظام الاول ، ونعني به تلك القوى أو الاجزاء من الشخصية التي تملك وظيفة وقدرة تقرير نوع النزوات او الحاجات التي يمكن اشباعها أو لا يمكن اشباعها ، من خلال وصولها الى مستوى السلوك النشيط · وبأي شكل يتم ذلك ·

مثلا الطفل الذي يعتدي على رفيق له · قد يرجع ذلك الى عدوانية زائدة عن الحد (نظام النزوات) لا يستطيع نظام الضوابط السليم أن يوقفها · وقد يرجـــع الى عدوانية عادية تماما ولكن نظام الضوابط ضعيف جدا أو هو منعدم · ورغم ان النتيجة واحدة على المستوى السلوكي الا ان هناك فرقا أساسيا بين الحالتين على مستوى فهم السلوك وخصوصا على مستوى علاجه · ففي الحالة الاولى يتركز الجهد العلاجي على اصلاح نظام النزوات أما في الحالة الثانية فيتركـــز على نظام الضوابط ·

....

(١) نظام النزوات : Système de pulsions
(٢) نظام الضوابط : Système de contrôle

ويتكون نظام الضوابط تبعا لنظرية التحليل النفسي من ركيزتين أساسيتين هما الأنا والانا الاعلى · وكل من هاتين الركيزتين تتصفان بمميزات خاصة ·

بعد هذه المقدمة المبسطة يتعرض الباحث لدراسة كل من الأنا والانا الأعلى بالتفصيل · على ان القسط الاكبر من اهتمامه ينصب على دراسة الأنا من النواحي التالية :

أ ـ وظائف الأنا ·
ب ـ القصور التكيفي للانا ·
جـ ـ الاواليات الدفاعية للأنا الجانح ·

النقطة الاولى هي محاولة توضيحية لمفهومه عن الأنا ووظائفه الاساسية اما الثانية فتعالج جوانب العجز التكيفي في الأنا الجانح ، العجز عن تحقيق الذات وتوكيدها من خلال الانجازات · وأما النقطة الثالثة فيعرض فيها أهم الاساليب الدفاعية التي يتسلح بها الأنا الجانح ·

أ ـ وظائف الأنا :

للأنا عادة عدة وظائف أساسية أهمها في رأيه ما يلي :

١ ـ وظيفة معرفية : وهي ذات شقين · الأول يتوجه للتعامل مع العالم الخارجي والابقاء على الصلة معه على المستويين المادي الفيزيقي والاجتماعي (الاشخاص والجماعات والوضعيات الانسانية) · كما يقوم بحصر الامكانات والاخطار وايجاد طرق الوصول الى الاهداف · وأما الشق الثاني من الوظيفة المعرفية فيتوجه الى الداخل · الى ما يحدث ضمن الشخصية · ويهدف الى التقويم المعرفي للهو (الرغبات والنزوات) وللأنا الأعلى (الحساب الداخلي) ·

٢ ـ وظيفة القوة : قدرة الأنا على فرض قراراته ومقاومة بقية القوى في الجهاز النفسي، فلا يكفي ان يتمكن الانا من حسن الاختيار وانما يجب ان يتوصل الى فرض هذا الاختيار ·

٣ ـ وظيفة الاختيار : بعد ادراك مختلف جوانب وضعية ما وأفضل حل لها على الأنا أن يختار حلا ملائما ووسيلة مناسبة لتنفيذه ·

٤ ـ وظيفة تنسيقية : تنسيق متطلبات وضغوط مختلف القوى الضاغطة على الأنا من خلال مراعاة مختلف الاعتبارات · ويتوصل الى حل يراعي التوازن الحسن بينها ·

ب ـ القصور التكيفي للأنا الجانح :

يعدد خصائص الأنا العاجز عن القيام بوظائفه عند الجانح · سواء ظهر هذا العجز في وضعيات صعبة أو تناول وظيفة محددة · وهو لا يهتم كثيرا لمسالة أسباب العجز ، بقدر ما يدرس خصائصه ومظاهره · والهدف من ذلك هو وضع خطة لمواجهة نتائجه · من أهم هذه الخصائص التي تقضي على فرص التكيف ما يلي :

ـ انعدام القدرة على تحمل الاحباط · مما يجعل الجانحين يثورون أمام أي حرمان ويندفعون في تصرفات عنيفة لتحطيم العقبات بصرف النظر عن النتائج أو الاخطار التي يتعرضون لها ·

ـ العجز عن السيطرة على القلق والخشية وانعدام الشعور بالامن · على عكس الاطفال العاديين الذين يملكون العديد من الوسائل التي تساعدهم على الاحتياط من المخاوف والدفاع عن أنفسهم ازاءها ، نجد الجانح يعجز عن ضبط نفسه تجاه المخاوف والقلق الداخلي ويندفع في تصرفات عشوائية أو عدوانية أو متطرفة ·

ـ انعدام القدرة على مقاومة الاغراء : فهم يقعون اسرى مغريات اللحظة الراهنة وينجرفون وراء اشباعها بشكل اندفاعي وبدون أي تقدير للعواقب ·

ـ العدوى الجماعية : ازاء الاثارة ينجرف هؤلاء مباشرة في تصرفات مضرة بأنفسهم وبالآخرين في عملية من التسمم الجماعي · فيكفي أن تتجه الجماعة نحو بعض تصرفات العدوان أو التدمير حتى يشارك معظمهم فيها في حالة من فقدان تقدير الواقع ·

ـ الذعر أمام الجديد : يتجنب الجانح الوضعيات الجديدة التي لا يعرفها ولم يعتد أن يتصرف تجاهها · واذا وجد في وضعية تخرج عن المألوف يعجز كليا عن التكيف السوي لها ويستجيب اما بالسلوك العدواني أو بالتهريج ·

ـ العجز عن ضبط سدود الماضي: يتهرب الجانح من مواجهة خبراته المؤلمة واذا حدث ان اضطر لمجابهتها أو اذا هي استيقظت لسبب ما فانه يصاب بالذعر ويحتمي في النفي الكلي المعاند أو ادعاء عدم الحساسية أو السلوك العدواني · ولذلك آثار خطيرة على العلاج ، اذ لا يجوز اثارة هذه الخبرات قبل تدعيم الأنا بشكل كاف كي يتمكن من مجابهتها ·

ـ تفكك الأنا أمام مشاعر الذنب : هنا ايضا يظهر الجانح عجزا واضحا من تحمل مسؤولية الخطأ والاحساس بالذنب وهو يلجأ الى مجموعة من الاواليات النفسية للاحتماء من مشاعر الذنب ، سنتعرض لها بالحديث في فقرة تالية · أما اذا وُضع امام خطئه فانه يتصرف عادة بشكل هروبي او عدواني او اضطهادي· أو هو ينهار ويسقط في يده ·

ـ تلاشي الاحساس بالمسؤولية الشخصية في السلسلة السببية : بالنسبة للجانح المسؤولية تقع دائما على الاخرين · وهو يعجز عن ادراك دوره فيما حدث ولو كان هذا الدور أساسيا ، أو كان هو المسؤول الاول عما حدث ، فهو يقف أبدا بشكل اضطهادي من الاحداث ملصقا التهمة بالاخرين ومعتبرا أنـــه ضحيتهم · ولذلك فغالبا ما يعتبر القصاص أمرا غير عادل ·

ـ الحرب ضد الوقت : ويقصد بذلك أمرين اثنين : عدم القدرة على تقدير الزمن الموضوعي والعيش فقط انطلاقا من الزمن الذاتي واضطراب العلاقة مـــع المستقبل ، عدم القدرة على التخطيط ولو لمستقبل قريب نسبيا والتصرف انطلاقــا من اللحظة الراهنة · وهذه نقطة في غاية الاهمية بالنسبة لنجاح أو فشل البرامج العلاجية ·

ـ التعلم من التجربة : وهي ترتبط باضطراب العلاقة بين الماضي والحاضر· وتشكل الجانب الثاني من اضطراب الديمومة بالاضافة الى النقطة السابقة التي تمثل الجانب الاول · تبقى تجارب المـــاضي عديمة الجدوى في توجيه السلوك الراهن ، ولذلك يقع الجانح في نفس المأزق مرارا وتكرارا ناسيا في كل مـــرة النتائج التي ترتبت على تجربته السابقة ·

ـ التعلم ممـــا اصاب الاخريـــن : يعيش الجانـــح عـــادة تحت شعار « هذا لن يحدث لي أنا » · ولذلك فهو يعجـــز عن استخلاص العبر مما حل بالآخرين وتوجيه سلوكه تبعا لذلك · ليس هناك أي استمرارية بين ما حدث للآخر وما يمكن أن يحدث له هو في نفس الظروف · انه يعتبر نفسه حالة خاصة لا تنطبق عليها قوانين الحياة المادية والاجتماعية ·

ـ رد الفعل للفشل: يخاف الجانح كثيرا من الفشل ويؤدي به ذلك الى تجنب التجريب أو مجابهة وضعيات جديدة · ويميل كي يدعم تهربه هذا الى ادعاء عدم الرغبة ، أو الحط من قيمة التجربة أو ادعاء عدم القدرة · ويشكل ذلك عقبة فعلية أمام برامج التعليم المدرسي والتدريب المهني التي توضع لهم ·

ـ التعقل في تقدير الامكانات : اختيار افضل الوسائل للوصول الى الغايات أمر صعب بالنسبة للكبار العاديين · هذه الصعوبة تكاد تصبح استحالة عند الجانحين · فهم يعجزون في غمرة تسرعهم للوصول الى الهدف عن فحص الوسائل الممكنة واختيار انسبها · ويؤدي بهم ذلك بالطبع الى الفشل الذي يرسخ مشاعر الدونية والاضطهاد لديهم · ومن ناحية ثانية يعجز الجانح عادة عن تقدير امكانياته الفعلية بشكل معقول ولذلك ينجرف في تصرفات او يضع خططا لا يمكن أن تؤدي الى النجاح · فهو اما أن يبخس امكانياته حقها واما أن يبالغ فيها بشكل غير واقعي · وفي الحالتين يعجز عن التصرف الفعال المتكيف ·

هذه بعض أوجه القصور في أنا الجانحين ، وهي تعتبر عقبة في سبيل اعادة تكيفهم · كما انها تدعم ميلهم للانحراف كنشاط اساسي ، أو باعتباره النشاط الوحيد الذي يبرعون فيه · ولا يجوز أن تاخذ كل من هذه الجوانب بمفردها عند تشخيص حالة الجانح ، بل يجب النظر اليها في مجموعها وتفاعلها · وكلما زاد عدد هذه الاوجه ، كان الأنا اكثر عجزا عن مجابهة الحياة وتحدياتها ·

ج ـ الاواليات الدفاعية للانا الجانح :

لن نتحدث هنا باسهاب عن الوسائل الدفاعية التي يتبعها الأنا الجانح لوقاية ذاته من مشكلات الوضعية الجانحة ، اذ سيكون لنا عودة اليها في موضع آخر من هذا الكتاب · ويمكننا هنا أن نكتفي بالاشارة الى أهم اتجاهات هذه الاواليات الدفاعية وهي ثلاثة :

١ ـ استراتيجية تجنب الحساب الداخلي : وتدور حول الاواليات الدفاعية التي يتسلح بها الأنا لتجنب مشاعر الذنب الداخلية ، ووضعية الخاطىء اجتماعيا، اذ بدون هذه الوسائل لن يتمكن من الاستمتاع بثمار الحياة الجانحة ·

٢ ـ البحث عن سند للانحراف : ويتلخص ايضا بمجموعة من الاواليات الدفاعية التي تشجع الانخراط في الحياة الجانحة وتزينها · وتبعده بالتالي عن التفكير بامكانية التكيف ·

٣ ـ مقاومة التغيير : وتتحرك الاواليات الدفاعية هنا عندما نحاول اصلاح الجانح ودفعه الى تغيير نمط حياته والاقلاع عن الانحراف · وتهدف هذه الاواليات خصوصا الى احباط محاولة التغيير هذه بابطال مفعولها ، أو القضاء على امكانية نجاحها ·

وتتفاعل الاواليات الدفاعية مع جوانب القصور التكيفي في الأنا مما يؤدي الى تدعيم متبادل بينها · ويضخم هذا التدعيم آثارها السلبية علـــى السلوك التكيفي · مما يسد جميع منافذ التعامل المتكيف مع الحياة ومجابهتها ما عـــدا منفذ واحد هو الانحراف كامكانية وحيدة للوجود ·

على ان الامر لا يقتصر على الأنا واشكالاته · بل يضاف اليها اضطرابات الأنا الاعلى التي تتفاعل مع الانا وتؤدي الى زيادة تعقيد المشكلة وبالتالي صعوبة التغيير ·

اضطرابات الانا الاعلى عند الجانح :

يملأ الانا الاعلى في نظر ردل وظيفتين أساسيتين :

١ ـ يمثل القيم والقواعد الخلقية ويعبر عن المعايير الاجتماعية ·

٢ ـ يشير الى الاخطار كلما برز صراع ممكن بيـــن النزوات والقيم ، أو عندما تخرق المتطلبات النابعة من القيم ·

يرفض ردل وجهة النظر القائلة بغياب الانا الاعلى أو انعدامه عند الجانح رفضا قاطعا · ويقول ان هذا الزعم ليس سوى اسطورة ولدها الاقتصار علـــى المقابلة الفردية كوسيلة لدراسة حالة الجانحين · وعلى العكس تظهـــر مراقبة هؤلاء الاولاد خلال حياتهم اليومية ان هناك أنا أعلـــى لديهم · ولكنه يتصف بخصائص نوعية تجعله يختلف عنه عند الناس العاديين ·

من أهم هذه الخصائص ما يلي :

١ ـ التماهي بقانون جانح نابع من المحيط :

العدوانية الزائدة والتحديات وغيرها من التصرفات التي تميز الجانحين ، لا تنبع من غياب الحس الخلقي بحد ذاته ، بل من التماهي بقيم جماعة جـــانحة (أسرة مفككة عاطفيا ومتدهورة خلقيا ، حي" هامشي في صراع مـــع المجتمع الكلي) · سلوك الجانح ليس ثورة ضد القيم وانما تكيف لتلـك القيم النوعية التي تتعارض مع قيم المجتمع الكلي ·

٢ ـ جزيرات قيم الطفولة :

يقوم الجانح فجاة بتصرفات تدل على قيم ايجابية لديه · وتبدو هذه القيم خصوصا في بعض لحظـــــات العلاقة الودية الوثيقة مع المربي ، أو في بعض المناسبات الاجتماعية · وهي وليدة الجانب الاجتماعية من معايير المحيط الذي لا يخلو منها مهما بلغت درجة تفككه ومهما وصلت حدة صراعه مع المجتمع الكلي ·

٣ ـ حساسية للقيم واحترام القيم .

هناك احترام لقيم الغير ، عندما يوجد الجـــانح في بيئة او وضعية عريبه عليه · فهو يتصرف عادة بأدب وحذر وتحفظ شديد · وهو يحرص كـل الحرص على أن لا تبدر منه تصرفات تصدم من حوله من الغرباء · يراعي الجانح تلـــك القيم دون تبنيها شخصيا ·

٤ ـ عدم ملاءمة وظيفة التنبيه :

قد لا يكون الخلل في محتوى ألانا الاعلى وانما في وظيفة التنبيه · فهـو متماه مع القيم تماما ولكنه يعجز عن التنبيه في الوقت الملائم · ينساق الجانح وراء المغريات تلقائيا وبدون ضابط · ولا يتحرك الانا الاعلى مولدا مشاعر الذنب والندم الا بعد وقوع الخطأ · ويتكرر هذا الامر فيما بعد بنفس الطريقة · وهكذا بدل أن ينبه الانا الاعلى قبل وقوع الخطأ ينحصر دوره في مفعول رجعي (تنبيه بعد فوات الاوان) ·

٥ ـ قصور في أوالية التماهي :

لم يتمكن الجانح من اقـــامة التماهيات الاولية بالام والاب والجمـــاعة الاسرية ، لان صور هؤلاء لم تكن حـــاضرة بشكل كاف أو هي غيـــر ثابتة في حضورها وفي نوعية هذا الحضور (التنبذب ما بين الشدة والتراخي) وكذلك قد تكون هذه الصور الوالدية مفتقدة للصفة الايجابية وللشحنة العـــاطفية الكافية لتكوين نموذج ايجابي من العلاقات مع الاخرين · ويؤدي ذلك كله الى التشويش والقصور في التماهيات والى اختلال سلم القيم الذاتي ·

٦ ـ تصلب الانا الاعلى :

يقوم الانا الاعلى في هذه الحالة بوظيفته في قطاع معين فقط ويظل صامتا في بقية القطاعات · ولذلك يحدث خلل في القدرة على التصميم · مثلا قد يكون الجانح عديم الحساسية تجاه الغدر الذي ينزله بالآخرين ولكنه يذوب حساسية لاقل تقصير تجاه الام أو الاب الخ··· كما قد نجده يقيم علاقة ايجابية مـــع أحد المربين ويبدو أناه الاعلى مفرط الحساسية تجاهه ولكنه يظـــل عديم الحساسية تجاه الاخرين · فالجانح يصنف العالم والاخرين الى فئتين قاطعتين لا تداخـــل بينهما : الفئة الصالحة والفئة السيئة · ويؤدي هذا التصنيف الى نتائج خطيرة اذ يمنعه من رؤية الواقع بموضوعية كافية ويسد أمامه فرصة التعامل مع هـــذا الواقع بشكل ناجح ·

وهكذا علينا كما يؤكد ردل أن ننظر الى كل من اضطراب الانا وأواليات الدفاعية واضطرابات الانا الاعلى من خلال تفاعلها معا · فهذا التفاعل وحده هو الذي يكوّن الصورة المتكاملة عن شخصية الجانح وخصائصها واسلوبها في الوجود والتعامل مع الاخرين ·

تعبّر ابحاث ردل افصح تعبير وأحسنه عن تطبيق نظرية الأنا في التحليل النفسي على الشخصية الجانحة · فلقد ساعدت هذه الابحاث كما رأينا في تسليط أضواء غاية في الاهمية على الحياة النفسية للجانح وديناميكيتها · وبعد ان كان العلماء الذين سبقوه يتحدثون عن الجانح ككائن مجرد ، اذا بردل يرسم لنا صورة حية وواقعية عنه ، يجعلنا أقل حيرة ازاءه واكثر معرفة ودراية بكيفية التعامل التربوي والعلاجي معه · ولذلك فان هذه الابحاث عظيمة الفائدة من الناحية العملية رغم انها ظلت على المستوى الوصفي ولم تقدم لنا منطلقا تفسيريا لفهم اضطراب تلك الشخصية التي أحسن تحديدها ·

الا اننا يمكن أن نسجل على هذه النظرة بعض التحفظات التي لا تهدف الى النيل منها بقدر ما ترمي الى تسليط الاضواء على جوانب أساسية من حياة الجانح لا بد من أخذها بعين الاعتبار ، بغية الفهم الشامل لهذه الظاهرة ·

أهم هذه المآخذ على الاطلاق هو تصوير الجانح ككائن قائم بذاته ، ذي شخصية مدفوعة بتفاعل قوي داخلية ومتميزة ببنية خاصة · يبدو من خلال عرضه وكأن الوضعية الحياتية التي يعيش فيها الجانح ليس لها دور سببي في تحديد سلوكه · لقد تجاوزت النظريات الحديثة في العلوم الانسانية عموما وفي دراسة الاضطرابات النفسية والسلوكية خصوصا ، النظرة التقليدية التي تركز على البعد الفردي وحده · فهناك البعد التفاعلي على مستوى الجماعات على اختلافها وعلى مستوى العلاقات الثنائية · والسلوك ليس وليد الشخص الذي يسلك كذاتية قائمة بنفسها بل هو نتاج لذلك التفاعل ايضا · حتى الذاتية ليست سوى انعكاس لمجموع العلاقات الاجتماعية التي ينغرس فيها الشخص · من هذا المنطلق يكون علينا ان نرى السلوك كمحصلة لتفاعل الشخص بحاجاته ورغباته مع حاجات ورغبات أهله أولا وما ينتج عنها من مكانة تعطى له في الاسرة ومن قيمة سلبية أو ايجابية تسبغ عليه من قبل الوالدين ومن دوره بين الاخوة فيما بعد · يحدد موقعه في الاسرة والدلالة التي يأخذها مبدئيا توجهه نحو هذا الاسلوب أو ذاك من الوجود · وتجسيده لذلك الاسلوب في تصرفات يومية أو سلوك عام يعود فينعكس على دلالته في الاسرة ومكانته منها سلبا أو ايجابا مما

يؤدي الى تعزيز تصرفاته او تعديلها وهكذا · ثم ياتي دور الجماعات المختلفة التي ينتمي اليها الشخص ويحتل في كل منها مكانة ودلالة ويكتسب قيمة سلبية أو ايجابية ، فهو يتفاعل مع هذه الدلالة ويستجيب في سلوكه لها · وهذه الاستجابة تنعكس على نظرة الاخرين اليه فتدعم سلبيتها أو ايجابيتها · ويؤدي هذا التدعيم الى ترسيخ تصرفات معينة لديه ودفعه الى الانخراط في تجسيد ادوار معينة · وهكذا يمكننا القول مثلا ان السلوك العدواني ليس فقط وليد قصور في الانا الاعلى وانما هو بالاضافة الى ذلك وليد علاقة أو علاقات تتميز بالعداء المتبادل · فهو يستجيب في البداية بالعدوان مثلا على نبذ او اهمال من قبل الوالدين، وعدوانه هذا يتجسد في سلوك تخريبي يدفع بالاهل الى مزيد من النبذ وأكثر من ذلك يعطيهم مبررا له ونتيجة لترسيخ موقف الاهل منه يستجيب بالتمرد ومشاعر الاضطهاد · وبذلك تتحول العلاقة الى عداء واضطهاد متبادلين ، وتعمم من الاسرة الى بقية العلاقات، ضمن مختلف الجماعات · وهنا يلعب موقف الجماعة النابذ عن وعي أو لا وعي دورا أساسيا في تدعيم مشاعر العداء والاضطهاد لدى الحدث · وهكذا تقوم حلقة مفرغة تسجن الحدث ضمنها وتسد أمامه سبل السلوك الايجابي من خلال اجباره على التصرف تبعا لتوقعات المحيط الذي لا ينتظر منه الا السوء ·

هذه النظرة الديناميكية العلائقية بدأت تحتل مكانة هامة في أبحاث التحليل النفسي الحديث والدراسات الانسانية عموما · ولقد حاول نوال مايو Noel Mailloux العالم النفسي الكندي فهم السلوك الجانح من خلالها ، كما سنبين ذلك في فقرة تالية ·

أما من الناحية التحليلية النفسية فليس لدينا بعد دراسات خاصة على الجانحين من هذه الناحية ما عدا اشارات عابرة لبعضهم من امثال لاجاش ولاكان الفرنسيين · ولا بأس من التعرض لها بكلمة موجزة ·

د – وجهة نظر علائقية :

يتحدث لاجاش(١) عن الجانح من ناحيتين : شخصية الجانح وخصائصها والسلوك العدواني باعتباره السمه الاساسية للانحراف ·

---

(١) Lagache, Psychocriminogénèse actes du II congrès international de criminologie, Tome I, Paris , 1951, P.U.F.

اما شخصية الجانح فيمكن معرفتها من خلال دراسة اضطرابات التماهي والتدامج الاجتماعي (١) • يأخذ اضطراب التماهي طابع الفشل في اقامة علاقات أولية ايجابية مع الام في البداية ثم مع المحيط الاسري بعد ذلك•وهذا الاضطراب هو المسؤول عن معظم السمات التي توصف بها شخصية المجرم : الانوية (٢) ، عدم القدرة على الحكم على مسالة خلقية من وجهة نظر غير ذاتية (أي من خلال وضع الذات موضع الآخر ورؤية الامر تبعا لوجهة نظر هذا الآخر) ، انعدام اعتبار الآخرين (مراعاة اوضاعهم كحدود لحريتنا) ، طابعجزئي ونرجسي (٣) للاهداف والموضوعات الجنسية ، موقف اتهامي ونقدي تجاه الاخرين (علاقة اضطهادية) نقص الحس بالمسؤولية والخطيئة (انعدام الالتزام تجاه الاخرين والجماعة) ، ميل الى ردود فعل البراءة • وكذلك سمات مميزة للشخصية غير الناضجة : عدم القدرة على التخلي عن الاشباعات المباشرة على حساب السلامة ورغم منظور العقاب ، نقص الضبط الانفعالي ، نقص الحكم والنقد الذاتي والاستفادة من تجارب الماضي • هذه السمات التي يعتبرها رِدل ناتجة عن اضطراب الانا والانا الاعلى عند الجانح ، ينظر اليها لاجاش على انها اساسا فشل في اقامة العلاقات الايجابية • وهو يقول ان بالامكان اختصارها في صفة عامة وهي نفي قيمة الاخر ، والقيم العامة • وبدل ان يسترشد الجانح بمجموعة علاقاته الايجابية مع الاخرين وتفاعله معهم فانه يغلّب طابع العداء والصراع والاضطهاد على هذه العلاقات • وبالتالي فهو يؤكد الحاجات الفردية والميول التسلطية في سلوكه منخرطا في عملية من التماهي البطولي من خلال الانتماء الى جماعة جانحة •

أما السمة الاساسية التي تميز السلوك الجانح فهي العدوان • والعدوان ليس أمرا ذاتيا محضا بل هو قبل ذلك اسلوب حركي للدخول في علاقة • وبالتالي لا يمكن فهم العدوانية (نية العدوان والميل اليه) الا في اطار علائقي •

العدوانية مرتبطة بالنرجسية وهي مثلها علاقة سادومازوشية (٤) ، علاقة

---

(١) التدامج الاجتماعي : Socialisation
(٢) انوية : Egocentrisme
(٣) نرجسي : Narcissique
(٤) سادو مازوشية : Sadomasochisme

سيطرة وخضوع · العدوانية هي على نقيض الود والتعـاطف الذي يؤدي الى الغيرية،حرب على الاخر وسيادة للانانيةالذاتية على حسابه من خلالتحطيمه او اخضاعه · ولذلك تحمل معظم الافعال الجانحة طابعا سحريا : اثارة او اطلاق شعور بدائي بالجبروت ـ وكل شعور بهذا الجبروت لا يتم الا من خلال علاقة مع آخر وبواسطة التسلط عليه في شخصه او ممتلكاته · ولذلـك فالتدمير ضرورة للجانح · واذا منع عنه فانه سيقع أسير الذعر والذهـول والاكتئاب · ذلك لانه في هذه الحالة سيواجه بانعدام القيمة الذاتية ، باللامعنى تجاه الاخر ·

ويذهب لاكان(١) في منطلق مماثل عندما يقول ان السلوك الجانح هو أساسا حوار عنيف بالطبع ، ولكنه على كل حال حوار ، محاولة للدخول في علاقة مع الاخر · من خلال العنف الجسدي او المادي يحاول الجانـح ان ينتزع من الاخر اعترافا به ككائن ذي قيمة ، وليس المهم ان تكون هذه القيمة سلبية او ايجابية بل المهم هو الاعتراف بهـا ، الاعتراف بوجود الجانـح (اذا لم يحبني الاخرون ويحترمونني فليخافوا مني على الاقل) · بذلـك فقط يحس انه موجود وبدونه يجابه خطر العدم (اللاوجود) ·

هذه النظرة العلائقية غنية ولا شك في نتائجهـا · فهي تبين لنا ان سلوك الجانح لا يمت بصلة الى المجانية والعبثية اللتين يتعرض لان يوصم بهما · ان سلوكه هو نداء ، حوار مع العالم لم يتمكن من الوصول الى غايته بالاقناع فلجأ الى القهر والاخضاع · وبالتالي فهي تغير نظرتنا الى ذلك السلوك وموقفنا منه· اذ يصبح علينا ان نحاول فهم هذا الحوار والتقاط الرسالة التي يبثها لنا الجانح من خلاله· فاذا تمكنا من ذلك ونقلنا اليه فهمنا لندائه نكون قد اعدنا فعلا الحوار الانساني الايجابي معه وبالتالي اعطيناه انسانيته ، أي نكون باختصار قد دخلنا واياه في علاقة تعطيه معناه وتعطينا معنانـا ايضا · وعند تلك النقطة يكون الانحراف كنتاج لعلاقة مريضة قد زال ·

على ان هذين الباحثين لم يذهبا في تحليلهمـا العلائقي الى غايته · فلقد اكتفيا كما رأينا بابراز المعنى العلائقي للسلوك الجانح من خلال التركيز على احد قطبي العلاقة فقط وهو الجانـح · والاقتصار على احد القطبين يبقى التحليل

---

(١) Lacan, Actes du II congrès international de criminologie, Tome I, Paris, P.U.F. 1951.

ميثورا • ولا بد من تكملته بدراسة موقف القطب الثـــاني ، اي موقف الاخر والمعنى الذي يعطيه للجانح والحكم الذي يحكم به عليه من خلال سلوكه • وعلينا ان نبحث في دوافع الاخر الواعيـــة واللاواعية لنر كيف يدفـــع بالجانح الى التصرف السلبي العدواني • فاذا كان السلوك وليد العلاقة فان العلاقة لا يمكن ان تكون وليدة احد قطبيها فقط ، لا بد ان تكون نتاج كل من القطبين في تفاعل مواقعهما المتبادلة • ولقـــد اثبتت الابحاث التي اجريـــت على بعض اشكال الاضطراب النفسي والسلوكي من زاوية التحليل النفسي الحديث ، ان الاخر ليس بريئا مما الم بالمريض النفسي او غير المتكيف سلوكيا (الاخر هنا قد يكون الام او الاب او احد افراد الاسرة او القرين ، او الجماعـــة ••) • فله منه موقف لاواع وهو يسقط عليه رغبات ومخـاوف ويدفعه الى تجسيدها ، ولو كان اول الشاكين والمتالين او حتـى المتضررين من اثارهـــا • كتلك الام التي تعاني من احباط عاطفي في حياتهـــا الجنسية والعاطفيـــة مع زوجها والتـــي تتفجر في دخيلة ذاتها حقدا على علاقتهـــا الزوجية وعلى حياتها الاسرية وعلى اهلها الذين تعتبرهم مسؤولين عن فشلها • فاذا بهـــا تسقط رغبتها في الثورة والتمرد التي تعجز عن التعبير الشخصي عنهما على ابنها واذا بهذا الابن ينشأ متمردا على الاب وعلى الاسرة ثم على المجتمع مجسدا بذلك رغبة أمه بالثورة ومتمردا نيابة عنها • ويمتد التمرد كي يصيبها بدورها ، كي تلقى هكذا عقابها على فشلها الوجودي ورغباتها العدوانية على حد سواء• او كتلك الام التي تغدق الدلال على ابنها رغبة في تعويض عن حرمان عانت منه في طفولتها وفي حياتها الزوجية وتنمي فيه انانية مفرطة وازدراء للاخرين وتغليبا للنرجسية وتضخيما لها على حساب مراعـــاة الالتزام تجـــاه المجتمـــع وتجـــاه الاخريـــن • واذا به ينشأ جانحـــا انتفاعيا لا يهمـــه سوى ملذاته الذاتية • ولا يقتصر موقف الاخر على هـــذا المستوى الفردي بل يتعـــداه بالضرورة الى المستوى الجماعي والاجتماعي على حد سواء • فالجماعة تسقط اضطراباتها وتوتراتها على بعض اعضائها وتدفع بهـــم الى المرض او الانحراف مجسدين بذلك هذه الاضطرابات •

ولن نتوسع هنا في هذا الاتجاه اذ سنعود اليه بالتفصيل عند الحديث عن الاعتبارات المنهجية في دراسة السلوك الجانح في نهايـــة هذا الباب • ولكن ما نود قوله هو ان هذا التحليل العلائقـــي الذي بدأ يشيع في دراسة اضطرابات

الاطفال النفسية لم يطبق بعد بشكل منظم على دراسة السلوك الجانح · ولا شك ان تطبيقه سيلقي اضواء نافذة تساعـد على فهمه ، بل يمكنه ان يحدث ما يشبه الثورة في اساليب علاج واصلاح الجانحين ·

٤ ــ تقويم عام لدراسات التحليل النفسي للسلوك الجانح :

مساهمة التحليل النفسي في فهم السلوك الجانـــح والمساعدة على وضع خطط فعالة لعلاجه ليست مطلقا موضع شك · ويمكننا ان نكرر القول باختصار انه من العسير فعلا ان لم يكن من المستحيل دراسة الجـــانح نفسيا وشخصيا بدون الاستعانة بنظريات وابحاث التحليـــل النفسي سواء وضعت في الاصل للجانحين أم لغير الجانحين ·

على ان هذه المنطلقات على غناها لها حدودهـــا · فهي تشكو من عمومية النظرة وعدم نوعيتها · فالتحليل النفسي يبدو وكأنه يتحدث عن جانح نموذجي ، او ما هو عام جدا عند الجانحين · ولكـــن المنحرفين فئات متعددة لكل منها نوعيتها من حيث النشأة والصيرورة والنمط الوجودي العام رغم اوجه الالتقاء بينها · وهناك ضرورة عملية لاخذ هـــذا التنوع بعين الاعتبار اذا اردنا علاج الجانحين · علينا ان نفهم كل فئة منهم ونتعامل معها تبعا لخصائصها النوعيـة وموقعها من المجتمع ومن العلاقات ومن القيم الحياتية · وستتاح لنا الفرصة في هذا الفصل للحديث عن دراسة عملية تأخذ هذا التنوع بعين الاعتبار وهي دراسة ديبويست العالم النفسي البلجيكي ·

ولكن المأخذ الاساسي على دراسات التحليل النفسي في ميدان الانحراف يكمن في اهماله للبعد الاجتماعي · فمهما ذهبنا عمقا في دراسة الشخصية الجانحة لا يمكن ان ندرك ابعـــاد مشكلة الانحراف الا من خـــلال وضعها في اطارها الاجتماعي وتبيان دلالتها واسبابها الاجتماعية والدور الذي يلعبه السلوك الجانح على مستوى ديناميكية البنية الاجتماعية · فكما انه مشروط بديناميكية الشخصية وقواها النفسية الواعية واللاواعية ، كذلك هو مشروط ببنيـــة المجتمع وقواه المتفاعلة · والامر ليس عبارة عن تلاحق الاسباب النفسية بالاسباب الاجتماعية وتواجدها جنبا الى جنب بل هو اساسا تفاعل على مستويات الوجود الانساني النفسانية الواعية واللاواعية مع الجماعيـــة والاجتماعية · وسنرى من خلال دراستنا لهذا التفاعل كيف يحدث التدعيم المتبـــادل ما بين الاضطراب الفردي وصراعات الجماعة واضطراب بنية المجتمع كي يؤدي الى سوء التكيف · عندها

يتضح لنا ان للسلوك الجانح ككـــل سلوك مضطرب دلالات ووظائف على كل المستويات السابقة بشكل يتجاوز اي نظرة وحيدة الجانب ٠

ثانيا : نظرية المدرسة الكندية في فهم السلوك الجانح

للمدرسة الكندية نظريتان هامتان في ميدان الانحراف عرفتا انتشارا خارج الحدود واثرتا في الحركة العلمية لدراسة الاحـــداث الجانحين وعلاجهم ٠ كما انهما تاثرتا بالتيارات الخارجية خصوصا الاميركية منها والانجلو سكسونية ٠ وتعتبر هاتان النظرتان مكملتين لبعضهما بعضا، اذ انهما حصيلة تجربة ميدانية كبيرة في رعاية الجانحين وعلاجهـــم قام بها فريق مـــن الاختصاصيين الذين تعاونوا معا سنوات عدة على مستوى التربية والعـــلاج ، وعلى مستوى البحث العلمي ٠ وكان البحـــث العلمي يستند خصوصا على نتـــائج التجربة العملية ويحاول ان يعمقها ويمدها بالاطار النظري الذي لا غنى عنه لاي عمل ميداني ٠

أما النظرة التي اهتمت بفهم السلوك الجـــانح وفئاته فيمثلها نوال مايو Noel Mailloux وأما تلك التي درست مسألة اعـــادة تربية الجانح فلقد لخصتها جانين جاندون Jeanine Guindon في كتـــاب قيم هو اطروحتها للدكتوراه بعنوان « مراحل اعادة تربية الجانحين وغيرهم »(١) ٠ وكانت جاندون في البداية اختصاصية في مركز التوجيـــــه والارشاد التابع لجامعة مونتريال للاطفال الاذكياء ذوي الشخصية المضطربة ما بين سن ٧ و ١٢ سنة ٠ والحقت به مؤسسة داخلية لاعادة تربية هؤلاء بادارة مايو ٠

أما مايو فهو اختصاصي ومعالج نفساني أسس مع آخرين مركز بوسكوفيل Boscoville عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ٠ وهو مخصص لعلاج الجانحين الفعليين ما بين عمر ١٦ و ٢٠ سنة ٠ ثم تلاقى فريقـــا المركزين وتاثرا بآراء الاميركي ر د ل ٠ وأدى هـــذا اللقاء الى انشاء مدرسة لاعـــداد المربين العاملين في بوسكوفيل الحقت فيما بعد بجامعة مونتريال ٠

وسنقتصر هنا على عرض آراء مايو حول فئات الجانحين وتطورهم الحياتي نحو الانحراف ، اذ ان نظرية تربية هؤلاء لا تهمنا مباشرة هنا ٠

---

(١) Jeanine Guidon, les étapes de la rééducation des jeunes délinquants et des autres... Col. Pédagogie psychosociale/13. Paris, Fleurus, 1970

كان مايو من ابـــرز المعالجين النفسانيين في ميـــدان الانحراف · ولقد استخدم خصوصا طريقة العلاج الجماعي · ومن خــلال عدد كبير من جلسات العلاج هذه (اكثر من ٣٠٠ خلال عدة سنوات) استخلص صيغة وصفية تفسيرية للتطور نحو الانحراف · اذ ان الجانحين الذين عولجـــوا كرروا اثناء علاجهم مختلف المراحل التطورية التي مروا بها قبل ان يصبحوا جانحين اكيدين · ولقد عرض مايو أبحاثه هذه في عدد من المقالات والتقـارير والمحاضرات في مجلات او مؤتمرات دولية أو دورات تدريبية وجمـــع اهمها في كتاب بعنوان : « شباب بدون حوار » (١) ·

ينطلق مايو في عرضه لفئات الجانحين وتطورهم نحو الانحراف من نتائج علم النفس المرضي الذي توصل (حسب رأيه) الى تمييز فئتين اساسيتين من الاضطراب· الاولى تضم مجموعة الاعصبة (جمع ’عصاب) التي لا تحرم الانا من تماسكه ووعيه ونشاطه مما يمكنه من مواجهة متطلبات الحيــاة اليومية ولو ببعض العناء · فالانا الواقع تحت وطأة الصراع يحتفظ بشكل ما بالقدرة على القيام بوظائفه رغم افلاتها جزئيا من سيطرته ، كما يحتفظ بصلة بالواقع ، رغم الشوائب الذاتية ·

أما الفئة الثانية فتضم مجموعة الامراض العقلية ، حيث انهيار الانا كلي وفقدانه للسيطرة على السلوك تام مــــع تصاعد النرجسية التي تمنع العلاقات الموضوعية والتواء في ادراك الواقع ·

ويقول مايو ان ملاحظة السلوك الجانـــح تسمح بتصنيف المنحرفين الى فئتين اساسيتين كذلك · فمن جهة نجد ما يقابـل العصاب عند فئة من المنحرفين الذين يتمكنون رغم جنحهم الدورية من اخفاء انحرافهم والاحتفاظ بصلة معقولة مع المجتمع · وهم يقيمون علاقات وثيقة مـع الاخرين · ويحتاطون كي لا تقطع الجسور بينهم وبين المجتمع المتكيف · ويندمجون في ميـــدان العمل رغم بعض الصعوبات والتوترات ·

أما الفئة المقابلة للذهان فتتكون من مجموعة من الجانحين المكررين بشكل

---

(١) Noel Mailloux, Jeunes sans dialogue, Pédagogie psychosociale/14, Paris, Fleurus, 1971.

دائم والذين يشكلون الزبائن المعتادين للسجون · وصل الانا عند هؤلاء لدرجة البنية الجانحة التامة التكوين · سلوكهم معاد للمجتمع لدرجة اننا لا نستطيع التفكير بعمل ممكن او بتحرر وشيك لهم · ويعرض المؤلف لكل فئة في مراحل تطورها كما يلي :

١ ـ فئة الجانحين المعادلين للعصابيين :

يبدو سلوك هؤلاء مستقلا نسبيا عن الانا ، ومدفوع بدوافع خارجة عن ارادته ، ولذلك تظل جنحتهم دائما مثارا لدهشتهم وقلقهم · ونتيجة لعجزهم عن اخفاء خوفهم وخجلهم اللذين يمنعانهما من التماهي بالجانح الحقيقي ، يشعرون ان جنحهم هي نتيجة انزلاقات ظرفية تجرهم قبل ان تتمكن ارادتهم من التدخل ·

ويتميز هؤلاء بمستوى معقول من التدامج الاجتماعي ، ولكنهم لم يفلتوا تماما من الاشكالات · ولقد وقعوا منذ البداية ضحايا سلسلة من التجارب الصدمية في مراحل اساسية من حياتهم · ففي كل مرة كان من المفروض ان يؤدي فيها الاتصال مع الواقع الى الالتزام والمشاركة الاجتماعيين ، تأتي احباطات (١) غير متوقعة ، او فشل معين ليقلل من أمل الوصول الى انتماء اجتماعي ، والى دور ايجابي في جماعة متكيفة · كثير منهم قابل نفس التحقير العدائي في كل مكان وجد فيه · ويبدو ان الواحد منهم يقع أسير عملية من التكرار القهري (٢) تبدأ في الاسرة مارة بالمدرسة ثم بميدان العمل وأخيرا في مجال الانتماء الاجتماعي بشكل عام ·

في البيت يقع الطفل منهم ضحية حكم مسبق يتخذ شكل الصورة السلبية يكونه الاهل عنه ويؤدي الى تأثير حاسم على نموه النفسي الاجتماعي · فهو الناقة الجرباء ، الفاشل ، السيء الذي لن يصدر عنه اي خبر او اي سلوك يستحق التقدير · وبالتالي فهو يحشر في دور الطفل السيء · ويظهر ان الصراع الذي يولده الاحساس المقبل بالذل والهوان، وحتى العار، في نفوس الاهل لانهم انجبوا طفلا على هذه الصورة ، هو النواة التي تؤدي بالجانحين المعتادين الى ترسيخ وبلورة اتجاهاتهم الجانحة ·

وانطلاقا من التماهي بالصورة السلبية التي فرضها الاهل عليه يشعر

---

(١) احباط : Frustration

(٢) التكرار القهري Répétition Compulsionnelles

الطفل انه مدفوع بشكل قهري للقيام بما لا يكف الاهل عن نهيه عنه ٠ وهو يجسد المصير الذي تنبأ به الاهل، فيعتبر نفسه كمجرم لا خلاص له ولا جدوى من محاولة اصلاحه ٠ وهو يخلق حوله جوا من العـــداء اينما حل ٠ وذلك يؤكد له صورته السالبة من خلال حكمهم السيء على تصرفاته ٠ ويخمد هذا الامـر آخر جذوات الامل في نفسه ، وكان القدر حكم عليـــه بالنفي من عالم الناس الشرفاء ٠ فهو يتفاعل اذا مع الاخرين في مختلف الوضعيات الاجتماعية من خلال هذا التماهي السالب(١) وكانه يؤكد الصورة السيئة ٠ ويؤدي ذلـــك حتما الى وصمه نهائيا بالسوء وعدم النظر اليه الا من خلال هذه الصورة الموصومة ٠

يذهب الواحد من هؤلاء الى المدرسة ٠ وهناك تعزز الصورة السلبية التي فرضت عليه في البيت ٠ فهو تلميذ غير مهتم بدروسه ، غير منضبط ، يخلق حوله جوا من العداء خصوصا في العلاقة مع المعلم ومـــــع سلطة المدرسة ، ويصبح بسرعة المعبر عن كل التوترات العدائية التي يحفل بها جو الصف بعد ان يتبناها لحسابه ٠ ويقابل بالتالي بالعقوبات والاستهزاء او التجاهـــل من قبل المعلم ٠ وذلك يدفعه الى مزيد من الانخـــراط في دوره السلبي ٠ وينتهي الامر بتكريسه تلميذا سيئا ويسير نحو نبذه من جماعة المدرسة المتكيفة ٠

ينخرط في ميدان العمل ولكن سرعان ما يحكـــم عليه ، نتيجة لتصرفاته القهرية التي توقعه في الاخطاء وتوتر العلاقـــات بينه وبين من حوله ، بانعدام الكفاءة ، وانعدام الامل في الوصول الى مكانة مرموقة ٠ ويبـــدو له بسرعة انه سيضطر للبقاء في مكانة مهنية متواضعة ان لم تكن بائسة ٠

هذا النبذ من الجماعات المتكيفة يجعلــــــه ينغلق على ذاته ٠ ويدفعه الى النكوص (٢) وبالتالي الى تبني موقف نرجسي تجاه المجتمع النابذ ٠

يتخذ الامر طابعا دفاعيا في البداية ، على شكل : انزعاج ، حذر ، صد(٣) امام كل من يمثل المجتمع ومعاييره ومتطلباته ٠

وهناك مرحلة انتقالية يكون الصراع فيها حادا وكامنا (٤) في آن معا ٠

---

(١) تماهي سالب : Identification négative

(٢) نكوص : Régression

(٣) صد : Inhibition

(٤) كامنا : Latent

ويؤدي ذلك الى ما يشبه الحالة العصابية في مظاهر التعبير عنه : توتر ، عدم استقرار ، ضعف وسائل الضبط ، ذعر ، شك ، ارجاع عرضية (١) ٠

ويبدو كشخص لديه القدرة والرغبة في الاحتفاظ بعلاقات شخصية واجتماعية خصوصا مع اصدقاء الطفولة ٠ ولكنه يصطدم بمشكلة الفشل الاجتماعي كل مرة يحاول فيها التكيف ، ويقع نتيجة مقارنة نفسه بمن ينجحون في مشاعر الدونية (٢) ، مما يجعله يحس بالغربة عن المحيط الذي يود الانتماء اليه ولكنه يلفظه ٠ ويبدو هروبيا امام هذه الوضيعة المحيطة ٠ ويحاول انقاذ المظاهر الشريفة مع تصور مستقبل قريب تحل فيه مشكلة مكانته الاجتماعية ٠ ولكن الحل لا يأتي ، بل تترسخ الصورة السلبية عن الذات مكان الامل٠ حيال هذا المأزق الوجودي ، يجد نفسه امام العصابات الجانحة ، مع مرور في حالة تردد ٠ فهو يرغب في الانتماء الى العصابة والوصول الى حلول تعويضية سريعة ، ولكنه يخاف من الانزلاق الى مهاوي الانحراف ٠

تنتهي عملية الوصم الاجتماعي به حتما بعد مرحلة التردد الى الانحراف في تيار العصابات الجانحة ٠ وبالتالي يصبح ، رغما عنه ، ما لم يرد يوما ان يصيره ٠ ورغم احساسه بالمنزلق الذي ينزلق فيه ، يشعر كأنه قدر محتوم عليه٠ وبذلك يجسد نهائيا الصورة السلبية عن ذاته التي فرضها المحيط عليه ٠ العملية اذا نكوصية ، تفاعلية ، ويمكن بالتالي ايقافها بوسائل تربوية من خلال وضعه في حلقة معاكسة تماما للاولى ، حلقة اعادة الاعتبار التدريجي الى وجوده واعطاء شخصيته دلالة ايجابية ٠ وباختصار من خلال توفير فرصة للتماهي بصورة ايجابية ٠

ب ـ فئة الجانحين المعادلين للذهان :

تقدم لنا فئة الجانحين المعادليز للذهان ، لوحة مغايرة تماما للاولى ٠ فنجد انفسنا ازاء اشخاص يتبنى الانا عندهم مباشرة الاتجاهات المعادية

---

(١) ارجاع عرضية : Fixation

(٢) مشاعر الدونية : Sentiments d'infériorité

للمجتمع · وتستقطب هذه الاتجاهات كل الشخصية مسخرة السلوك لخدمتها ·

يرتبط الامر هنا بتثبيت (١) النمو عند مرحلة نرجسية مبكرة · ويؤدي الى عجز جذري عن اقامة علاقات موضوعية (علاقـات مع الاشخاص الاخرين) · ويبدو الطفل من هؤلاء غير قابل للاصلاح منذ السن المدرسية · وهو يبتعد بشكل شبه غريزي عن كل من يمثل ويحترم معايير المجتمع وقيمه · وتتم أوالية التماهي بالصورة السيئة بدون صراع وكأنها امر مفروغ منه · ويبدو الانا وكأنه قبل هذا المصير كأمر واقع يجب الانسجام معه ·

وامام اليأس المعن الذي يصل حد التخدير ضد القلق ، يغرق الواحد مـن هؤلاء وبدون مقاومة في نمط من الحياة يرزح عليه كقدرية لا يمكن الافلات منها· وبالتالي يعتبر نفسه كانتحاري مغامر وكضحية نهائية لشيطان يتملكه ·

يشعر الواحد منهم انه ضحية بطش اجتماعي : ليس هناك من فتاة تقبل به كزوج،ليس هناك جار يمكن ان يحترمه،ليس هناكرب عمل يمكن ان يعتبره ويقدره الخ ··· ولانه دفع باليأس من الانغراس الاجتماعي الى غايته ، فهو ينخرط بكل طمأنينة نفسيته في البيئة الجانحة : بارات ، صالات لعب الخ ··· ولكنه يشعر انه موضوع ملاحقة دائمة من قبل الشرطة وعرضة للاستجواب في اي لحظة · وذلك الموقف من الشرطة يرسخ ميولـــه الاضطهادية · ويجد الانا نفسه في هذه الوضعية امام الاختيار بين الاندثار والضياع الكليين وبين الانبناء تبعا للنموذج الجانح · ويختار الاحتمال الثـــــاني بدون تردد ، لانه يتضمن على الاقل وهم الوجاهة والقوة ·

وهكذا يجد الجانح نفسه ، نتيجة للنبذ خارج دائرة الانتمـــاء الاجتماعي الذي يؤمن القيمة والاعتبار لصاحبه ، مضطرا ان يبني عالما بديلا ، عالم العصابة الجانحة · وهو يحتل في هذا العالم مكانة قيادية · ويبذل قصارى جهده للحفاظ على العصابة لانها عالمه الاجتماعي الوحيد ويصبح محركهـا وضمانة تماسكها ونافخ الحياة فيها · وهو يقيم لهذا العالم البديل (عوضا عن العالم الاجتماعي)

---

(١) تثبيت ، تشبث : Reactions symptomatiques

معايير الولاء وشرف الكلمة ، والانضباط والغيرية • وباختصار يتجنب الجانح مشكلة انعدام الهوية الاجتماعية من خلال الانتماء الى عالم اجتماعي جانح •

ولكن هذه المحاولة محكوم عليها بالفشل لانهـــا تقترن بالملاحقة والايقاف والاستجواب ومختلف اساليب تدخل السلطة في المجتمـــع • هذا الفشل يلقيه رأسا في العالم الاجرامي الذي يؤدي في النهـــاية الى السجن • ويتخذ السجن معنى التدريب على مهنة الاجرام ، او على الاقل معنى نقص الخبرة • ولا يمت الامر بصلة الى مشاعر الذنب والخطيئة نتيجـــــة لتحريك أواليات دفاع تجنب الحساب الداخلي التي تحدث عنها رَدِل خصوصا اسقاط التهمة على الاخرين• واثناء اقامته في السجن ، يتدرب على ايدي الخبـراء ، ويضع الخطط الخيالية لجرائم لا يطالها الخلل منجذبا بصورة الجانح الكبير المرموق الذي يكوّن مثله الاعلى •

تقويم :

عرض مايو للحلقة التطورية المؤدية الى الانحراف فيه الكثير من الغنى ، خصوصا انه وليد تجربة علاجية اصيلة استمرت على مدى سنوات عدة • لقـد سلط الضوء على بعد اساسي من تطور الحدث نحو الانحراف ، الذي ظل مهملا في الكثير من الدراسات التي كانت تحكم حكما جائرا على الجانح معتبرة ايـاه كائنا فاسدا منذ البداية • وتزداد اهمية هذا العرض خصوصا لانه يركز على عملية الوصم الاجتماعي التي يقع الجانح ضحية لها ويضطر بالتالي ان يتماهى بالصور السيئة التي تفرض عليه • فعملية الوصم هذه التي غفل عنها دارسو مشكلة الانحراف لاسباب واعية او لا واعية تتعلق على الاغلب برغبتهم في نفـي المسؤولية عن غير الجانحين تشكل حلقـــة اساسية من التطور نحو الانحراف • انها تلقي الاضواء على اسباب المشكلة التي لم تعد ذاتية بل اضبحت علائقية ، وأهم من ذلك فهـــي تبين مسؤولية الاسرة ومسؤولية المحيـــط التي لا تقل عن مسؤولية الجانح مطلقا فيما آل اليه أمره • فهو لم يصبح جانحا الا بعد ان سدت امامه سبل التكيف ووقع ضحية حكـــم مسبق عليه بالادانة • هذه النظرة تضع الامور في نصابها من ناحية اسباب الانحراف ومن ناحية طرق علاجه • فلا يكفي ان نهتم بالجانح بل لا بد من علاج المحيط الذي سجنه في عملية الوصم هذه وهي بالتالي توضح لنا ان عملية اصلاح الجانح ممكنـــة وان لم تكن سهلة من خلال اعادة الاعتبار الذاتي الاجتماعي اليه •

على ان مايو وان سلط الاضواء على ذلك الجانب المهم من مشكلة السلوك الجانح الا انه لم يذهب في هذا الاتجـــاه الى منتهاه · فهو لم يوضح لنا مثلا الدوافع التي جعلت الاسرة تدين الطفل بهـــذا الشكل منذ البداية · اذ ان هذه الدوافع هي نفسها التي تدفعه بالتالي الى الانحراف بشكـل شبه محتوم بعد ان تسد امامه سبل التكيف · وهو لم يبين لنا على وجه الدقة وظيفة هذه العلاقـــة المريضة بين الجانح وأسرته · والاغلب انّ هذه العلاقة هي وليدة مرض الاسرة نفسها جسدته في احد ابنائها · ثم انه لم يذهب بعيدا في توضيح اسباب تدعيم المجتمع بمؤسساته المختلفة (المدرسة والمصنع والشرطة الخ ···) لتلك الصورة السيئة التي وصمت الاسرة بها الطفل ·

اغلب الظن ان هذا التدعيم هو وليـــد الاشكالات التي تعاني منها هذه المؤسسات والنابعة بدورها من الخلل في بنيـــة المجتمع نفسه · ويخيل الينا ان مايو ، من خلال صمته هذا عن وظيفة التدعيـم على المستوى الاجتماعي ، يريد نفي المسؤولية عن المجتمع في توليد السلوك الجانح والمضطرب ·

يضاف الى ذلك ان تقسيم مايو الجانحين الى فئتين يظـــل دون مستوى الاحاطة بظاهرة الانحراف واشكالها · فهناك فئات عدة من الجانحين لا تدخـل ضمن الفئتين اللتين اقترحهما · هناك خصوصا حالات الانحراف الناتجة عـن مشكلات أسرية واجتماعية · مثلا حالات الافراط في تدليل الطفل واعطائه قيمة مبالغا فيها · وذلك على عكس الصورة التي اعطاهـا عن علاقة الجانح بأهله ، بأنها علاقة سيئة فقط · ثم هناك حالات التواطؤ مع الحدث الجانح التي تلاحظ في الاسر المفككة او حتى الجانحة · فهنا تتستر الاسرة على ابنهـا المنحرف وتنفي عنه الوزر امام السلطات والهيئات الاجتماعية كما يلاحظ بكثرة في بلدان العالم الثالث · هذه الفئات التي اغفل مايو الحديث عنها تشغل نسبة هامة من مجموع الاحداث الجانحين في لبنان ·

وموجز القول ان مايو رغم ابرازه بعـــدا رئيسيا من ابعاد عملية التطور نحو الانحراف ، وهو عمليـــة الوصم التي تتم في جو من العلاقـــات السلبية والعدائية بين الجانح والمحيط وشكل بذلـك مساهمة أساسية في الفهم الصحيح للمشكلة ، الا انه ظل أسير الاطار الذاتي اساسا ، ولم يذهب الى النهاية المنطقية للمنطلق الذي اكد عليه وهو الدور الجوهري الذي يلعبـــه المحيط ، ووظيفة السلوك الجانح فيه ·

ثالثا وجهة نظر ديبويست

يمكن اعتبار ديبويست العالم النفساني واستاذ علم النفس في جامعة لوفان مثلا جيدا للمدرسة البلجيكية في علم الجريمة ٠ فهو تلميذ ديجريف اشهر علماء الجريمة البلجيكيين والاوروبيين في القــــرن الحاضر ، لدرجة ان بعضهم يعتبر مساهمته في علم الجريمة مشابهة لمساهمة فرويد في علم الامراض النفسية من حيث الاهمية ٠

لقد تتلمذ على يدي ديجريف وتابـــــع بأمانة المنطلق العلمي الذي قال به استاذه مطبقا اياه على دراسة السلوك الجانــــح عند الاحداث ٠ درس ديجريف خصوصا العمليات النفسية الداخلية وتطور النمط الوجودي الذي يحدث في حياة الجاني قبل اقدامه على جناية القتل ، مبينا ان فعل القتل ليس ابدا عشوائيا أو اعتباطيا او فجائيا كما قد يبدو ظاهريا ٠ انه نتيجة تحول في النظرة الى الذات والى الوجود والى الضحية ٠ ويدور منطلق ديجريف حول عدة محاور تربط ما بين المدرسة الظواهرية وتعاليمها (الاهتمام بالخبرة المعاشة ، والقيم الوجودية التي تعطى للذات وللآخر ، والوعي القاصد) والتحليل النفسي ونظرية الغرائز، بالاضافة الى وجهات نظر اصيلة في النفس الانسانية٠ وأهم محور على الاطلاق هو نظام العلاقات الذي يربط الانسان بالاخرين ، الجــــانح بالضحية والمجتمع ، وسلم القيم التي توجه سلوكه ٠ ونستطيع ان ندرك اهميـــــة هذه المساهمة اذا علمنا ان خطورة الجانح تتحدد اساسا في علم النفس الجنائي الحديث انطلاقا من مدى الارتباط الايجــــابي بين الجانح والاخرين ٠ فكلمـــــا تراخى هذا الارتباط ، أو تحول الى ارتبــــاط عدائي اضطهادي بالاخر ، بالمجتمــــع كان الجانح في وضعية وجودية اكبر خطرا من حيث امكانية اقدامه على افعال منافية للمجتمع ، ومن حيث امكانية اصلاحه على حد سواء ٠

من خلال هذا الاطار العلمي درس ديبويست العديـــــد من جوانب الوجود الجانح عند الاحداث ٠ ولن نتعرض هنا لكل هذه الابحاث وانما نكتفي بتلخيص دراسة نموذجيـــــة من حيث تمثيلها لهذه المدرسة اجراهـــــا على السارقين الصغار (١) ٠

ما يهمه في هذه الدراسة هو قياس خطورة التوجه نحو الانحراف كنشاط

---

(١) Christian Debuyst et Julienne Joos, L'enfant et l'adolescent voleurs, Bruxelle, Dessart, 1971.

اساسي عند الاحداث · ومن خلال ابحاثه لقياس هذه الخطورة بواسطة الروائز الاسقاطية (١) ، خصوصا رائز تبصر المتون (٢) .T.A.T الذي عمل عليه

كثيرا توصل الى وضع ما يمكن اعتباره سلم خطورة (مقياس لتصنيف الجانح تبعا لدرجة خطورته) · ولقد قام انطلاقـــا من هذا السلم بتصنيف السارقين الصغار الى ٤ فئات أساسية ، كل اثنتين منهـــا تشكلان قطبين متعارضين على نفس المحور :

- السرقة بدون دلالة جانحة تقابلها السرقة كأسلوب حياة ·
- السرقة العصابية تقابلها السرقة كسلوك غير شريف ·

ويعني بالسرقة بدون دلالة جانحة تلك الافعال التي يقدم عليها الطفل فـي فترة ما من حياته كسلوك له مكانه في تطور الشخصية نحو النمو · اما السرقة كأسلوب حياة فيعني بهـــا الاستمرار في السلوك الجانـــح رغم ردود الفعل الاجتماعية ورغم اصطدامه بالمعايير مما يؤدي الى التمرد عليهـــا وينتهي الامر بتكوين شخصية جانحة ·

أما في السرقة العصابية فيكون السلوك كعـــرض لصراع داخلي يقع فيه الانا الذي يتوزع ما بين الرغبة في الانتماء الاجتمـــاعي وبين تفجر النزوات اللاواعية · ويبدو الفعل الجانح وليـــد قوى داخلية لا واعية تفلت من سيطرة الشخص ·

اما السرقة كسلوك غير شريف فتحدث على المستوى الواعي في اطار من الرغبة في التكيف والاحتفاظ بالانتماء الاجتماعي ولكن بدون تقبل القيم الخلقية بشكل فعلي وملتزم ·

١ ـ السرقة والكذب كتصرفات عادية في تطور الطفل :

يتعلق الطفل العادي بأهله ويشعر بمكانته بينهم ، الا ان هذه الوضعية لا تخلو من قيود ومنغصات تفرض على رغباته وتجعله يشعر بالحرمان والغبن ، مما يحدث خللا في توازنه الحياتي · ولذلك يقضي فترة من وقته محاولا علاج

---

(١) الروائز الاسقاطية : Tests projectifs
(٢) رائز تبصر المتون : Thematic Aperception Test

هذا الخلل واستعادة التوازن من جديد · من خلال هذه الوضعية تأخذ السرقة والكذب وما شابهها من الافعال اللاأخلاقية دلالتها ، وتشكل جزءا من تجربة كل منا اثناء الطفولة· ويكون لها دلالات ايجابية في الشخصية التي تنمو وتحاول مجابهة الواقع ·

فالسرقة قد تكون نوعا من توكيد الذات ومحاولة اشباع الرغبات في حالة من السيطرة على الواقع · وقد تعني الاحتفاظ بنوع من الاحتكاك بالواقع والتعامل مع ما فيه من اشياء (رغبة الاطفال في الامساك بالاشياء الجديدة وتفحصها وتجريبها وحتى تملكها،الرغبة في الشراء عند اكتشاف القوة الشرائية للنقود) يقود ذلك الى سرقة الاشياء او النقود · كما ان الانخراط في نشاط مخالف للقانون قد يتم بقصد توكيد الذات والاحتفاظ بالسمعة امام الرفاق الذين يتحدونه او ينطلقون معه في مغامرة ، فهنا يقدم الطفل على فعل ممنوع من اجل هدف ايجابي هو الاحتفاظ بعلاقته مع الجماعة وعدم فقدانه الاعتبار امامها ·

ينتهي هذا السلوك حتما بوضع صاحبه في حالة صراع مع المجتمع· ولذلك يتوجه الطفل السوي الى التكيف ويتجاوز تصرفاته هذه من اجل الحفاظ على علاقاته الايجابية مع الاخرين · ويتعلم التضحية برغباته طمعا في الحصول على تعويض بديل من المكانة والاعتبار اللذين يحظى بهما من قبل الجماعة ·

اما في حالات الاضطراب ونتيجة لعدم توفر فرص التعويض المتكيف(اهمال الوالدين ، نبذ ، حرمان ، قسوة او اضطراب نفسي) فقد يتحول الامر من فعلة عابرة الى اسلوب اساسي في اشباع الرغبات ، وبالتالي يتحول من سرقة ذات معنى ايجابي الى نمط جانح من الوجود · ويتميز هذا النمط بالاصطدام بمعايير المجتمع ويؤدي الى تحول الشخصية الى الدفاع الاضطهادي بدل نمط التفاعل العلائقي الايجابي ·

٢ ـ السرقة العصابية وانبناء الشخصية (١) في طريق تعويضي :

لا بد من وجود عوامل داخلية مؤلمة كي يستمر الاصطدام مع الجماعة ومعاييرها · وهذه العوامل قد تكون واحدة من ثلاث :

---

(١) انبناء الشخصية : Structuratiin de la personnalité

أ ـ العصاب : حيث تكون السرقة كعرض يدل على اشكال داخلي· فهناك صراع بين مختلف القوى الفاعلة في الشخصية يجعلها عاجزة عن الوصول الى تنسيق مقبول بينها على المستوى الواعي · ويكون الصراع خصوصا بين توجه الانا نحو التكيف وضغط النزوات المكبوتة · ويعتبر الفعل الجانح كمخرج لهذا الصراع ·

وللسرقة العصابية عدة شروط ومظاهر اهمها ما يلي :

- تعارض اساسي بين مختلف قوى الشخصية بشكل لا يستطيع الانا حله حلا موفقا ·
- تولّد هذه الوضعية توترا خطرا لا يستطيع الانا السيطرة عليه ·
- يمثل الفعل الجانح نوعا من التسوية الفاشلة على المدى البعيد لانها ستتكرر على شكل افعال جانحة من آن لآخر ·
- تحتاج هذه المعاني التي تخفي عادة على الشخص وعلى المحيط الى اختصاصي لتفسير واستجلاء غوامضها ·
- يشكل الفعل الجانح نشازا بالنسبة للسلوك العادي للشخص وبالنسبة لاختياراته الواعية · كما انه يبدو له بدون مبرر ويقترن بحالة من الانزعاج ·

ب ـ ردود الفعل التعويضية (١) : ونكون هنا امام حالة أحباط تولد آلاما معنوية وتدفع الشخص نحو البحث عن حل تعويضي عن طريق اللذة · يتعارض هذا البحث مع القيم الاساسية للشخصية ويبدو كأنه مفروض عليها من الخارج، بدون ارادة او اختيار من جانبها · يظهر هذا الامر خصوصا في الشخصيات ذات التوازن الركيك · وتبدو السرقة التعويضية سرابية (لا تحقق الامال ولا تقضي على التوتر) لانها تولّد مشاعر الذنب والقلق ·

جـ ـ انبناء الشخصية في طريق تعويضي :

تتخذ الشخصية هذا الطريق نتيجة لتاريخ مليء بالتجارب المؤلمة التي لا تتيح سبيلا آخر للتطور · مثلا الحرمان العاطفي وتحول البحث عن الامن والارتباط العلائقي الانساني الى الاستهلاك والتملك المادي·وتؤدي هذه الوضعية

---

(١) رد العقل التعويضي : Réaction compensatrice

الى غياب الصراع النفسي والـــى القبول بالانحراف والعيش تبعـــا لنموذجه والتعامل مع العالم في حالة من رد الفعل الدفاعي ضد تهديد الانا والخطر المحيط بمستقبله ·

٣ ـ النموذج الجانح من الحياة :

يصل سلوك السرقة درجة اعلى من الخطورة منذ اللحظة التي يصبح فيها مقبولا ومعترفا به من الشخص · ويتحـــول الامر من سلوك عابر الى نمط من الوجود يتماهى به المنحرف ويعتز بتبنيه · هـــذا النمط يثير المجتمع ومؤسساته المسؤولة عن الحفاظ على احترام القوانين · وتبدو السرقة في هذه الحالة كنمط من الوجود مقبول من جانب الجانح عن وعي ورغم اصطدامه بالقوانين · كمـا تصبح الوسيلة الاساسية والسهلة لتلبية الحاجات والافلات من الانصياع للنظام والعيش على مستوى مبدأ اللذة واسلوب تحقيق الذات · فالسلوك الجانح يصبح في نظر صاحبه الحل الوحيد للصعوبات الحياتية ، وهو يتبناه امام الاخرين عن وعي ، رافضا اللعبة الاجتماعية ·

وقبل ان نعرض لخصائص الجانح المكرر (١) كنهاية لتطور اسلوب الحياة نحو الانحراف يحسن ان نستعرض المسالـــك التي تؤدي اليـــه · وهي في نظر ديبويست ثلاثة اساسية : الطفل المحروم ـ الطفـــل المدلل ـ الطفل الذي تماهى بمعايير جانحة · ومع ان النهاية واحدة في كل الحالات الا ان خط السير اليها مختلف ·

أ ـ الطفل المحروم : ويتم التوجه نحو الانحراف في حالته كما يلي :

- حرمان لا مبرر له وغير عادل فعلا (اهمـــال ، نبذ ، قسوة ، نقص في عاطفة الحب عند الاهل) ·
- رد دفاعي حيوي ضد القلق الناتـــج عن ذلك الحرمان ، يتخذ اتجاها جانحا · تنخفض قيمة العلاقات الانسانية مع اعلاء شان الاشياء لقدرتها الارضائية التعويضية ·
- صراع خطير ومتكرر مع المحيط يؤدي الى مأساة داخلية وتذبذب ما بين

---

(١) الجانح المكرر : Délinquant récidiviste

(٢) الارضـاء : Satisfaction

الانسياق وراء الاشباع التعويضي من خلال اللذة الآنية وبين التكيف ٠

- ينتهي الصراع في اتجاه المعارضة والعداء للمجتمع والتمرد عليه مع انسياق وراء اشباع الشهوات بشكل مباشر ٠

ب ـ الطفل المدلل : ويتم التوجه نحو الانحراف في حالته كما يلي :

- قصور في تعلم معنى الجهد وشخصية لم تعرف سوى الاشباع المباشر لرغباتها حين تبرز ٠

- الاصطدام بمتطلبات وقيود المجتمع يؤدي الى قلق شديد وشعور بالغبن وعدم القدرة على التلاؤم مع هذه المتطلبات بالتخلي عن مبدأ اللذة ٠

- صراعات خطيرة ومتكررة مع المجتمع وسلطاته يؤدي الى تكوين شخصية جانح يتوجه نحو النمط المنحرف من الوجود ٠

يتعلق كل من هذين النموذجين بالوجود المتوجه نحو الدفاع التهجمي على المجتمع (ضد التعاطف) (١) ٠ ويؤدي ذلك الى افقار الشخصية لتعارضها مع المحيط الانساني٠ولا ينظر الواحد منهما الىمن حوله الا بحذر وكاعداء محتملين مع شعور اساسي بالمرارة تجاه غبن المجتمع المزعوم ٠

ج ـ التماهي بمعايير اجتماعية جانحة :

لا يعطى دييويست لهذا النموذج وزنا كبيرا ٠ ويعتبر ان التماهي الجانح لا يفسر التوجه نحو الانحراف بمفرده بل لا بد من ادخال البعد النفسي كي يستقيم ذلك التفسير فالجانح من هؤلاء يمر بمرحلة صراع مع المجتمع وهو يحس بمعارضة سلوكه لمعاييره ولذلك يكون أمام عملية اختيار بين التمسك بسلوكه وبين التكيف ٠ وعندما يستمر في انحرافه يكون قد مر بعملية تطور نفسي داخلي هي التي تسمح بترسيخ تماهيه بالقيم الجانحة ٠

بعد استعراض المسالك المؤدية الى الوجود الجانح يستعرض دييويست أهم خصائص شخصية الجانح المكرر كما قال بها استاذه ديجريف وهي التالية:

١ ـ عجز عن مراعاة مبدأ الواقع : يظهر هذا العجز من خلال حرية رفض المعايير الاجتماعية ٠

---

(١) تعاطف : Sympathie

٢ ـ غياب كل انتباه للاخرين ، وكـــل اكتراث لهم وبكملة اخرى غياب الالتزام العاطفي والخلقي تجاه الاخرين ٠

٣ ـ حساسية مفرطة لكل ما يشكل غبنا مفروضا (١) ٠

٤ ـ عجز عن التكيف للديمومة (٢) ٠

وهكذا يصبح الجانح الذي اختار الانحراف نمطا اساسيا للحياة عاجزا عن التكيف للديمومة (للماضي والمستقبل) ، اعمـــى عن الاخر كقيمة عاطفية تستتبع التزاما سلوكيا تجاهه ، اعمى عما يسمى فضيلة العدالة كي لا يستجيب الا للغبن المفروض ٠ وهو الى ذلك يعيش في جو من العداء معتبرا نفسه ضحية اكثر منه مذنبا ، وعلى درجة شديدة من الاحساس بحقـــه في الرد الانتقامي الذي لا يبرر سلوكه فقـــط بل يجعله يصور نفسه متساهـــلا وصبورا تجاه الاخرين ٠

٤ ـ السلوك غير الشريف :

ليس هناك في السلوك غير الشريف تمرد على المجتمع ورفض لمعاييره ٠ الواحد من هؤلاء قد تمثل (٣) هذه المعايير ويهمه الاندماج في المجتمع ٠ وهو الى ذلك قد تبنى مثـــلا عليا متكيفة (ان يكـــون سلوكه موافقا للمعاييـــر الاجتماعية) ٠ فهو اذا امتثالي(٤)، والجنحة التي يرتكبها لا تضع تكيفه ورغبته في الحفاظ على مكانته الاجتماعية موضع الشك اطلاقـــا ٠ ولكن هذا التكيف يظل سطحيا في نهاية الامر ، فهو يقبل المعايير الاجتماعية ولكنـــه لا يلتزم بها دائما على المستوى الشخصي ٠ وهنا يكمن الاشكال الاساسي ٠

ولدينا نماذج عدة من السلوك غيـــر الشريف ٠ منها ما هو شائع مثل القبول بالقواعد الخلقية والقوانين من غير اقتنـــاع كاف بها ٠ ولذلك تحتاج القاعدة الى سلطة تراقب تنفيذهـــا ٠ فاذا غابت الرقابة كثـــر الاعتداء على القاعدة ٠ ويتعلق هذا الامر عادة بدرجة التعاضد الاجتمـــاعي (٥) ٠ فكلما ضعف التعاضد زاد السلوك غير الشريف ٠

---

(١) غبن مفروض : Injustice subie
(٢) الديمومة : Solidarité sociale
(٣) تمثل : Conformiste
(٤) امتثالي : Assimilation
(٥) التعاضد الاجتماعي : Durée

ومن نماذج السلوك غير الشريف جماعة الوعاظ (١) ٠ يستخدم هؤلاء لغة خلقية مفرطة ، ولكن سلوكهم الفعلي يبقى معاكسا تماما لاقوالهم ٠ فهم يتلاعبون بالحديث عن القواعد الخلقية كي يلزموا بها الاخرين بدون ان يلتزموا بها انفسهم ٠

ثم هناك حالات المهن الهامشية التي تدور حول الربح السريع بالوسائل السهلة بدون خرق القوانين بشكل صريح، انما من خلال التحايل عليها ٠ ويتعلق نفر من الناس غير المتكيفين بشكل فعلي بهذه المهن السهلة ، المسلية ، المربحة بدون الوقوع في متاعب السلوك الجانح ٠

نحن هنا امام فئة جانحة تحت ستار من التكيف الاجتماعي السطحي ٠ يتعلق التكيف خصوصا بالغايات اكثر مما يتعلق بالوسائل ٠ فهم يريدون الوصول الى غايات ذات وجاهة اجتماعية ولكن بوسائل مشكوك في صفتها الخلقية ٠

تتميز هذه الفئات جميعا بالفقر العاطفي ، وبغياب الروابط الانسانية العميقة وبطغيان الانوية والميل العظامي احيانا ، وبفقدان الالتزام الاجتماعي ، وهي كثيرا ما تستغل تكيفها الظاهري لاغراض جانحة ٠

تقويم :

مساهمة المدرسة البلجيكية هامة من ناحيتين اساسيتين ٠ دراسة عالم الجانح الذاتي وتجربته الوجودية والتعمق في كيفية ادراكه لهذا الوجود بكل ما فيه من اشكالات ٠ اذ انطلاقا من نظرة الانسان الى وضعه والى موقعه العلائقي والاجتماعي يتصرف ٠ وقد يختلف تقديره لوضعه هذا عن الواقع الموضوعي بدرجة تكبر او تصغر ، انما يظل ذلك التقدير العنصر الحاسم الذي يحدد توجهه الحياتي ويجعل تصرفاته ذات معنى بالنسبة له ٠ وهكذا فما قد يعتبر لامنطقيا من خلال منظار الواقع الموضوعي ليس بالضرورة كذلك من خلال التجربة المعاشة ، بل ويصبح قابلا للفهم الصحيح ٠ هذا ما فعلته المدرسة البلجيكية من خلال ابحاث ديجريف وتلميذه ديبويست ٠

اما الناحية الثانية فهي دراسة تطور العلاقات بين الجانح وبين الاخرين والمجتمع ، والتغيرات التي تطرأ على انتماءاته وعلى التزاماته العاطفية والخلقية تجاه المحيط ٠ اذ ان هذه العلاقات وتلك الانتماءات والالتزامات هي

(١) وعاظ : Moralisateurs

التي تحدد في نهاية الامر طبيعة السلوك متكيفا ام جانحا ، كما انها تحدد درجة خطورة التوجه نحو الانحراف ·

هذه المنطلقات جد غنية بأبعادها ونتائجهـــــا النظرية والعملية ولقد ظل ديبويست أمينا لها ومعبرا عنها في كل ابحاثه حول الاحداث الجانحين ·

كما اننا يمكن ان نسجل له مساهمة هامة في ادخال مزيد من الدقة فـــي فهمنا للمنحرفين من حيث تنوع فئاتهم وخصائص كل فئـــة · وهو بذلك قد سد ثغرة اساسية في الدراسات النفسية للسلوك الجانـــح التي كانت تتحدث عن المنحرفين بشكل عام وبدون مراعاة مبدأ النوعية (١) · ولقد اصاب حين قال ان سلوكا كالسرقة رغم بساطته الظاهرية هو في الواقع امر على غاية من التعقيد· ومع ان مظهر سلوك السرقة واحد او متشابه من النـــاحية الوصفية ، الا ان الاسباب الدافعة اليه والتطور الحياتي الذي يقـــود اليه يختلف من حالة الى اخرى · ولقد استطاع ديبويست الاحاطة بشكل جيد بواقع هذا التنوع حينما درس الظاهرة من خلال محاور اربعة ، من السرقة العادية الى السرقة المحترفة ومن السرقة العصابية الى السرقة الناجمة عن سلوك غير شريف · وهو بذلك قد اكسب منهجية دراسة السلوك الجانح مزيدا من الدقة ·

ونود ان نشير ان عرضة هذا ينطبق اجمـــالا على فئات الجانحين الذين اتيحت لنا دراستهم في البيئة المحلية · كمـــا ان دراسته للسلوك غير الشريف كفئة منفصلة تلقى الكثير من الضوء على فئـــة هامة من الجانحين في لبنان والعالم العربي · فهناك جماعات منهم تعيش على هامش الانغراس الاجتماعي من الناحية المهنية ، تمارس اعمالا عابرة تبعا لما تيسره الظروف · الا ان أهم صفة لهذه الاعمال هي عدم تخصصها وسهولة القيام بهـــا · فهي لا تدخل في نطاق العمل المهني الفعلي · ويقوم الواحد من هؤلاء بتلك الاعمال المتميزة بعدم الاستقرار من خلال ما يسمى شعبيا « بتدبير الحال والارتزاق » · فمن بيع سلع تافهة ، الى مسح زجاج السيارات ، الى بيـــع اشياء ممنوعة يحدث انزلاق تدريجي نحو الانحراف · وتكون الحدود واهية بين النشاط المسموح وبين ذلك المخالف للقانون · ويتم هذا الامر في نمط من الوجود الهامشي اساسا لا يقف ضد المجتمع ومعاييره بل هو يتبناها · ويحرص الواحد من هؤلاء على الانتماء

---

(١) النوعية : Spécificité

الاجتماعي ولكن مع خروج ظرفي عنه من آن لآخر، وستكون لنا عودة الى بحث هذا الموضوع بالتفصيل · انما نود ان نشير الى ان منهج بحث ديبويست ينطبق الى حد كبير على الظاهرة في البيئة المحلية ·

الا انه رغم هذه النواحي الاساسية لمساهمة المدرسة البلجيكية في فهم السلوك الجانح يمكن ان نأخذ عليها اهمالها للبعد الاجتماعي اساسا وهو في الحقيقة مأخذ ينطبق على معظم الدراسات النفسية التي عرضناها في هذا الفصل · فمع الاعتراف بأهمية البعد الذاتي والبعد العلائقي ، ومع الاعتراف بأهمية دراسة الشخصية الجانحة الا انه من غير الممكن الاحاطة بظاهرة الانحراف الا بالتأكيد على البعد الثالث الرئيسي فيها وهو البعد الاجتماعي · وبدونه تظل تلك الابحاث مبتورة · وقد يكون السبب في ذلك التركيز على البعد الذاتي ان معظم هؤلاء الباحثين كانوا من اتباع علم النفس التقليدي بفروعه السوية والمرضية الذي كان يعترف بالبعد الاجتماعي ولكنه يعتبره كحد لدراسة الظاهرة النفسية فقط وليس محورا اساسيا فيها لا تستقيم بدونه · اما اليوم فلقد تداخل علم النفس وعلم الاجتماع لدرجة اصبح من الصعب الحديث عن ظاهرة نفسية بدون ابراز ابعادها الاجتماعية ، والعكس صحيح · فالظاهرة لم تعد تعتبر نفسية فقط او اجتماعية فقط وانما انسانية لها اوجهها النفسية والاجتماعية التي تؤلف وحدتها ·

ولقد اجريت حديثا ابحاث عدة على السلوك الجانح انطلاقا من هذه النظرة المتكاملة للواقع الانساني · قام بمعظمها فريق من الباحثين ذوي التخصصات التي تتكامل في العلوم الانسانية · ونذكر منها على سبيل المثال ابحاث فوكرسون وهو مركز للاعداد والبحث في التربية المتخصصة في فرنسا (١) · كما نذكر المساهمة الاساسية للفريق الليوني لعلم الجريمة العيادي (٢) الذي استطاع اعطاء صورة متكاملة عن تداخل وتفاعل الاضطراب الفردي والاضطراب العلائقي والاجتماعي · وسيكون لنا عودة الى هذا المنطلق عند الحديث عن المسائل المنهجية في دراسة السلوك الجانح في نهاية هذا البحث ، ولكن قبل ذلك علينا ان نقوم بجولة في الدراسات الاجتماعية للانحراف على غرار ما فعلنا في هذا الفصل ·

---

(١) Vaucresson, Centre de formation et de recherche de l'éducation surveillée

(٢) Equipe lyonnaise de criminologie clinique.

الفصل الثاني

النظريات الاجتماعية في الانحراف

بينما تهتم النظريات النفسانية بدراسة الانحراف بالجانح الفرد مركزة جهدها على فهم شخصيته والقوى الفاعلة فيها ، تنطلق النظريات الاجتماعية من دراسة الانحراف كظاهرة اجتماعية تخضع في شكلها وابعادها لقوانين حركة المجتمع . فهي لا تهتم بالجانح الفرد بقدر ما تركز جهدها على مجمل النشاط الجانح . وترى معظم هذه النظريات ان الانحراف أمر يتعدى السلوك الفردي بدوافعه السوية منها والمرضية ولا يمكن فهمه الا من خلال دراسة بنية المجتمع ومؤسساته . وقد يكون للعوامل الذاتية دورها الا ان تحديد الانحراف يبقى ، أصلا ، أمرا اجتماعيا . وهناك البعض الاخر مثل دوركهايم الذي يعتبر الانحراف ، نظرا لوجوده في كل المجتمعات ، وفي جميع العصور ، ظاهرة اجتماعية عادية ، وبالتالي فدراستها يجب ان تتم بالطريقة الاجتماعية .

ولكن العلوم الانسانية الحديثة تجاوزت هذا الصراع حول تابعية موضوع الانحراف . فالسلوك الجانح ظاهرة متعددة المستويات والابعاد ، ولكل فروع العلوم الانسانية دورها في توضيحها . ويحتل علم الاجتماع في ذلك مكانة رئيسية لا يمكن بدون مساهمته فهم هذه الظاهرة بدرجة معقولة من الشمول .

وكما هو حال الدراسات النفسانية ، فان الدراسات الاجتماعية متعددة

في منطلقاتها • ولا تتساوى كل هذه المنطلقات بالطبع في قيمتها التفسيرية • فهناك نظريات قديمة نسبيا تنطلق مـن السببية الميكانيكية ، وهناك اخرى اكثر جدة وعمقا تنطلق من المنهج الديناميكي الجدلي على اختلاف تفرعاته • وهناك اخيرا محاولات تذهب ابعد من ذلك محاولة فهم الانحراف كلغة رمزية اجتماعية على الباحث ان يستجلي غوامضها كي يتمكن من معرفة الوظائف التي تقوم بها في مجتمع ما ، تماما كتحليل الاساطير والتراث الشعبي •

وسنحاول في هذا الفصل ان نستعرض مجموعة من هذه النظريات ، مع التركيز على اهمها واكثرهـا تمثيلا للدراسة الاجتماعية الحديثـة لظاهرة الانحراف • وسيلاحظ القارىء ان معظم هذه النظريات اميركية المنشأ • ذلـك ايضا يعكس الواقع حيث ان الولايات المتحدة كانت منذ البداية، ولا زالت مصدر اهم النظريات الاجتماعية في هذا الميدان • ولقد اقتبستها منهـا بقية البلدان الاوروبية بشكل او بآخر •والسبب في ذلك بسيط جدا وهو ان ظاهرة الانحراف لم تطرح ابدا كمشكلة اجتماعية على اي مجتمع بنفس الحدة التي طرحت فيها على المجتمع الاميركي •

قبل الخوض في هذه النظريات يجدر بنـا ان نشير بكلمة موجزة الى الطريقة الاجتماعية في دراسة الانحراف • وتتم هـذه الدراسة عادة ، شانها شأن دراسة جميع الظواهر الاجتماعيـة ، على مرحلتين • الاولى هي مرحلة وصف الظاهرة وتحديدها ، وهي تعتبر بمثابة تمهيد للثانية • اما الثانية فهي مرحلة التفسير الاجتماعي على اختلاف منطلقاته• وتدخل معظم النظريات التي سنعرضها هنا في المرحلة الثانية •

تحدد الطريقة الاجتماعية الظاهرة وتحـاول وضعها من خلال دراسة احصائية تتناول عدة ابعاد اهمها ما يلي :

١ ــ شكل الانحراف :

يتوقف على شروط حياة كل شعب ، والنابعة بدورها من بنية المجتمع • مثلا يلاحظ ان اكثر الانحرافات شيوعا في البلدان المتخلفـة ذات طابع حركي (ضرب ، جرح ، قتـل ، اعتداء ، تحطيم ، تخريب الـخ •••) • اما في المجتمعات المتقدمة فتتميز الانحرافات بالتحول من العنـف الى الاشكال العقلية الاحتيالية (جنح ضد الملكية ،اساءة امانة ، تزوير ، احتيال الخ •••) • على ان ذلك الامر اذا صح بوجه عام على السلوك الجانح عند الكبار فهو لا ينطبق

على الواقع تماما عند بحث انحراف للاحداث . اذ يلاحظ حاليا ازديـاد ملحوظ في نسبة اعمال العنف عند الصغار الجانحين في اكثر المجتمعات تقدمـا من الناحية التقنية والاجتماعية ابتداء بالسويد وانتهـاء بالولايات المتحدة . في نفس الوقت تكثر عند المنحرفين الصـغار في البلدان الناميـة جنح العوز (السرقة من اجل الاكل ، او الانتقال) التي تتصف اساسا بطغيان طابع البؤس عليها .

٢ ـ مدى (١) الانحراف :

يعرف مدى السلوك الجانح من خلال المكانة التي يشغلها النشاط المنحرف في مجموع النشاط الاجتماعي . وتتغير هذه المكانة تبعا للاطار المرجعي الذي تقاس من خلاله . فهي ترتفع اجمالا اذا قسناها انطلاقـا من معدل الانحراف الحقيقي(٢) ولكنها تنخفض اذا قيست بالنسبة للانحراف الظاهر(٣) المعروف من الشرطة وتتدنى اكثر فأكثر اذا قيست بالنسبة للانحـراف القضائي (٤) الذي تلاحقه المحاكم . فالمعروف اجمالا من العلماء ان مدى الاجرام الفعلي في مجتمع ما بالنسبة لمجموعة النشاطات الاجتماعية (انتاجية ، استهلاكية ، تبادليـة وعلائقية) اكبر بكثير من مظهره الذي تلاحقه المحاكم . كما ان دراسة المدى مثلا تريناكيف ان الريف قد لا يكون أقل انتاجا للانحراف من المدينة كما يخيل للمرء الذي يكتفي بالملاحظة السطحية . فلا يجوز ان نحسب مجموع الانحراف في الريف بالنسبة لمجموعه في المدينة وانما علينا كي نصل الى التقرير الصحيح ان نحسب كل من هذين المجموعين بالنسبة الى مجموع النشاط الاجتماعي في الريف او المدينة . فاذا كان مجموع السلوك الجانح في المدينـة كبيرا فقد يعود ذا الى ارتفاع مجموع النشاط الاجتماعي فيها والعكس صحيح بالنسبة للريف

شدة الانحراف (٥) :

فتكون الشدة مرتفعة ، متوسطة ، او ضعيفـة . وهي تحسب عـادة

....

(١) مدى Etendue

(٢) انحراف فعلي : Delinquance réelle

(٣) انحراف ظاهر : Delinquance apparente

(٤) انحراف قضائي Delinquance judiciaire

(٥) شدة انحراف : Intensité de la delinquance

بمقارنة عدد المخالفات والجنح والجنايات ونسبة كل منها الى مجموع النشاط الجانح • تكون الشدة مرتفعة اذا ارتفعت نسبة الجنايات وضعيفة اذا ارتفعت نسبة المخالفات • ولكن الصعوبة التي تعترض هذه الدراسة المقارنة هي تحويل بعض الجنايات الى جنح (او العكس) وخلق جنح جديدة في قانون العقوبات تبعا لتطور النشاط الاجتماعي •

٤ ـ اتجاه الانحراف (١) :

وهنا تدرس بنسبة النشاطات الجانحـــــة الموجهة نحو الاشخاص وتلك الموجهة نحو الملكية او نحو المعايير والقيم الاجتماعية • ومن المتعارف عليه بين علماء الجريمة ان هناك تعارضا بين النشاطات الجانحة الموجهة نحو الاشخاص (اعتداء ضرب ، جرح ، قتل) وتلك الموجهة نحو الملكية • فاذا زادت الثانية قلت الاولى وبالعكس • ولكن لهذه القاعدة شواذ خصوصا في حالة الاحداث كما بينا اعلاه •

٥ ـ تواتر الانحراف (٢) :

دراسة تواتر النشاط الجانح هي رصد حركته خلال فترة طويلة من الزمن وعلى مستويات • فهناك التواتر السنوي ، وهناك التواتر الفصلي (تغير حركة النشاط الجانح تبعا للفصول) والشهري واليومي • وفي بعض البلدان المتقدمة في الدراسات الاحصائية يحسب التواتر على مستوى الساعات والدقائق ومن خلال هذه الدراسة يمكننا ان نرسم صورة لحركة الجريمة تساعد الباحث كثيرا عند بحث اسبابها •

تعطي هذه الدراسة الوصفية صورة واضحة عن حالة النشاط الجانح في مجتمع ما كما تحدد الخصائص العامة لذلك النشاط، وهي تشكل بالتالي المعطيات الاولية المنظمة التي ينطلق منهـا العالم الاجتماعـــي لوضع تفسيره لظاهرة الانحراف •

اولا : نظرية العوامل السائدة :

اول المحاولات العلمية لتفسير ظاهرة الانحراف اجتماعيا كانت خلال

---

(١) اتجاه : Direction

(٢) تواتر : Fréquence

استخدام طريقة العوامل السائدة (١) . ولقد شاعت هذه الطريقة كثيرا في الابحاث الاجتماعية على اختلاف انواعها وتتلخص عادة في الخطوات التالية :
القيام باحصائيات عن السلوك الجانح تبعا لما هو مبين اعلاه .
تحليل هذه الاحصائيات من خلال دراسة ارتباطه بالمتغيرات (٢) ، المختلفة التي تلازمه او التي يحدث ضمن اطارها (الحالة الصحية ، حالة السكن ، مدى تماسك الاسرة ، المستوى الاقتصادي ، الحالة التعليمية ، المنطقة الجغرافية ، السن ، الجنس ، الهجرة ، البطالة الخ ...) وذلك تبعا للمعطيات الاولية التي جمعها الباحث عن الظاهرة وما يحيط بحدوثها من ظروف . ثم تأتي خطوة ثالثة وهي استخلاص العوامل التي تلازم ظهور السلوك الجانح بشكل كاف من التواتر (أي انها تظهر كلما ظهر السلوك الجانح وتغيب كلما غاب) . ويعبر عن هذا التلازم الذي يحسب بوسائل احصائية بشكل رقمي (معامل ارتباط (٣) او غيره) . ويعتبر هذا التلازم عادة كدليل على العلاقة السببية . وتزداد هذه العلاقة طبعا كلما ارتفعت نسبة التلازم . ويستخلص الباحث من دراسته في نهاية الأمر العوامل التي لها اعلى درجة تلازم مع السلوك الجانح معتبرا اياها اسبابا لذلك السلوك ويرتبها في قائمة يطلق عليها اسم العوامل السائدة . وهناك قوائم عدة من هذه العوامل تختلف تبعا للباحثين ، مثلا وضع فان باملان (٤) قائمة من ١٥ عاملا اعتبرها مولدة للانحراف :

النشاة في اسرة كبيرة العدد ـ النشاة كطفل وحيد ـ النشاة في اسرة غير كاملة ـ النشاة بدون تعليم كاف ـ النشاة في منطقة مكتظة بالمومسات واماكن اللهو وحانات الشرب ـ النشاة في مسكن غير فسيح بشكل كاف ـ النشاة في مكان ليس فيه مجال للهو الاطفال (الفنادق والغرف المفروشة مثلا) الفقر المباشر ـ الفقر النسبي ـ البطالة بمساعدة او بدون مساعدة ـ مهنة غير متكيفة ـ هجرة لم يحضر لها بشكل كاف ـ تصنيع جد سريع ـ اختلاف في العرق والجنسية ومشكلات السلطة ـ التاثير الاجرامي للسلطة العامة .

وهناك من حاول ادخال بعض التمايز في طريقة تدخل العوامل الاجتماعية

---

(١) العوامل السائدة : Facteurs prédominants

(٢) المتغيرات : Variables

(٣) معامل ارتباط : Coefficient de correlation

(٤) Van Bemmelen, actes du II congrès international de criminologie, VI, Paris, P.U.F. 1951.

المؤدية للانحراف كما فعل شومبار ديلو(١) حيث صنف عوامل المحيط الى عوامل اولية نابعة من المحيط ذاته ، و عوامل ثانوية هي عبارة عن حاجات ولدتها العوامل الاولية • من ضمن العوامل الاولية يذكر العوامل الاقتصادية (مؤشر الانتاج ، الازمات الاقتصادية على المستويين العام والمحدود ازدياد افراد الاسرة مع دخل ثابت) وعوامل بيئية حيوية ويقسمها الى قسمين : المحيط المادي والبيولوجي (المناخ الجغرافي ، رداءة المسكن ،) والمحيط الحيوي الاجتماعي (مخطط المدينة، العزلة العرقية، الاحياء ، كثافة المساكن والتجمعات البشرية ، الانفصال بين الطبقات) • ويعتبر الباحث ان كلا من هذه العوامل سواء أخذ بمفرده أم في تفاعله مع غيره يؤدي الى الانحراف •

هذه النظرة الى الامور اكثر مراعاة للواقع من مجرد تعداد العوامل في قوائم • ولكنها لاقت أصلا العديد من الانتقادات من جانب العديد من علماء الجريمة • فاذا كانت قادرة على توضيح مشكلة الجريمة على مستوى المجتمع الكلي فهي عاجزة عن تفسير الانحراف على المستوى الفردي ، نفس العوامل تمارس تأثيرها على مجموعة سكانية معينة انما لا يؤدي ذلك الى انحراف كل افراد هذه المجموعة • ولكن الامر لا يقتصر على مستوى التفسير الفردي ، اذ انها لاقت انتقادات منهجية حتى على مستوى التفسير الاجتماعي •

نقد نظرية العوامل :

يتناول هذا النقد عدة جوانب تتعلق بنقطتين اساسيتين : المنطلق المنهجي والاسس الاحصائي •

١ ـ المنطلق المنهجي :

يؤخذ على طريقة العوامل السائدة عدة ماخذ من أهمها ما يلي :

١ ـ تستخلص هذه الطريقة عوامل سائدة عامة بمعزل عن الاطار الاجتماعي النوعي الذي استخرجت منه • ولكن اذا عزلنا عاملا سائدا مهما كانت اهمية عن ذلك الاطار يصبح غامضا جدا وغير قابل للتعميم • فالعامل ليس له من دلالة الا ضمن وضعية اجتماعية محددة، منها استخلص وعليها تنحصر امكانية تطبيقه • ولقد ادى تجاهل هذا الامر الى الوقوع في تناقضات عديدة كانت مبعثا على الحيرة • وهكذا وجدنا ابحاثا مختلفة ادت الى استنتاجات متعارضة

---

(١) Chombart de lauwe, milieu social et état dangereux, II cours international de criminologie, Paris, 1953.

بخصوص نفس العامل · ومن الامثلة البارزة على ذلك الفقر المادي · فالعلماء قد اختلفوا في تقدير أهمية هذا العامل في توليد السلوك الجانح · بعضهم يربط بين الانحراف والفقر معتبرا اياه السبب الاول ، مستشهدا على ذلك بأن غالبية نزلاء السجون من اصل فقير · كما ان الفقر يولد العديد من المشكلات الحياتية (صحة ، سكن ، تعليم ، عدد الاولاد ومقدار الاهتمام بهم ، توازن الاسرة) التي تولد الانحراف · وتظهر العلاقة بين الفقر والانحراف في جنح الملكية · ولكنها موجودة ايضا وبشكل واضح في الكثير من اعمال العنف النابعة من الحرمان ·

وعلى عكس الاستنتاجات السابقة هناك ابحاث اثبتت ان الغنى والرخاء هما سبب ازدياد حالات الانحراف · ويصدق ذلك خصوصا في البلاد المتقدمة صناعيا واجتماعيا كالبلاد الاسكندنافية وبعض دول أوروبا الغربية · فهذه البلاد تمر بفترة من الرخاء والازدهار الاقتصادي لم تعرفها من قبل ، ولكن في نفس الوقت يزداد عدد الاحداث الجانحين فيها بمعدلات مذهلة · ويتهم هؤلاء ، الحالات التي يظهر فيها العكس ، الاحصاءات المضللة بانها السبب في اخفاء العلاقة بين الرخاء والانحراف · فمن ناحية تبقى جنح الاغنياء كما سنرى بعد قليل خفية ، او هي تسوى قبل ان تصل الى المحاكم على العكس تماما من جنح الفقراء · كما ان كون معظم نزلاء السجون والمؤسسات الاخلاقية من الطبقات الفقيرة لا يثبت العلاقة بين الفقر والانحراف بقدر ما يظهرتحيزا عاما ضدهم فهم اكثر الناس تعرضا للملاحقة واول من يقع الظن عليه · كما انهم لا يتمتعون عادة بوسائل الحماية التي تتوفر للاغنياء من ناحية ثالثة · اذا كان بالامكان تفسير جنح الطبقات الفقيرة بعامل العوز فاننا لا يمكن استعمال نفس التفسير في حالة التصرفات غير المشروعة والجانحة التي تكثر في اوساط رجال الاعمال كما هو معروف للجميع ·

خلافا للرأيين السابقين هناك باحثون يقولون بانعدامالعلاقة كليا بين الفقر والسلوك الجانح · وهكذا يؤكد زابو ان الفقر العام في منطقة ما ليس عاملا مولدا للانحراف · كما أن تواتر الانحراف عند كل من رجال الاعمال والطبقات المعدمة تذهب في اتجاه نفس العلاقة السببية بين الفقر والانحراف · ولقد اثبت استقصاء اجتماعي قام به ناي (١) Nye في واشنطن انه ليست هناك علاقة

---

(١) — M. Hijazi, Delinquance juvenile et réalisation de soi, Paris, Masson et cie., 1966.

واضحة بسبين التصرفات الجانحة للاحداث والمستوى الاقتصادي الاجتماعي لذويهم • ولقد تاكدت نتائج هذا الاستقصاء من خلال ابحاث اضافية اجريت على مناطق اوسع •

رغم التعارض الواضح بين هذه الاراء لا يمكننا انكار علاقة الفقر بالانحراف • وما ذلك التعارض سوى نتاج خطا منهجي هو عزل العامل عن الاطار الاجتماعي الذي يحدث فيه ومحاولة تعميمه بشكل شمولي على كل المجتمعات وعلى بنى اجتماعية مختلفة جدا في تركيبها وظروفها • قد يكون الفقر عامل انحراف وكذلك الغنى • ما يحدد هذا الامر هو بنية المجتمع ونمط الوجود فيه • في مجتمع تعطى القيمة الاولى فيه لمظاهر الوجاهة الخارجية وللقدرة على الاستهلاك بصرف النظر عن مصدرها ، في مجتمع لاتقاس فيه المكانة الا من خلال تلك القدرة ترتفع عادة مستويات الطموح ، كما سنتبين ذلك عند عرضنا لنظرية مرتن ، وترتفع معها درجة الشعور بالحرمان والغبن ، ويؤدي ذلك الى بروز حاجة ماسة للوصول باي ثمن ، باي وسيلة • ينعكس الامر على الاغنياء والفقراء على حد سواء ، ويؤدي الى السلوك الجانح لدى كلا الفئتين • يعود الامر اذا الى طبيعة بنية المجتمع وما تولده من علاقات وقيم وضغوط على السلوك وضمن هذه البنية ياخذ اي عامل اجتماعي دلالته •

٢ ـ الانتقاد السابق يقودنا الى اخر اكثر جوهرية من الناحية المنهجية • فنظرية العوامل تقوم على مبدأ السببية الميكانكية • ونعني بذلك رؤية الامور بشكل جامد على شكل علاقات ثنائية معزولة عن اطارها : سبب يؤدي الى نتيجة • هذه السببية التي تذهب في اتجاه واحد (تسمى ايضا السببية الطولية) اثرت كثيرا على العلوم الانسانية وادت الى تاخيرها فترة هامة من الزمن • ولقد تعدتها العلوم المضبوطة التي تاخذ بالسلبية الجدلية • تبعا لهذا المنهج يحتل مبدأ التفاعل وتبادل التاثير المركز الاول في فهم الظواهر طبيعية كانت ام اجتماعية • فكل عامل هو فاعل ومنفعل سبب ونتيجة في نفس الوقت • هذا التفاعل بما فيه من تاثير متبادل لا يتم بشكل ثنائي ومنعزل بل يتحدد بالوضعية النوعية التي يتم فيها كما انه يساهم في تحديدها بدوره • فالجزء يتاثر بالكل ويؤثر فيه في ان معا • من خلال هذه النظرة يمكن اعتبار العوامل السائدة ليس كقوى منفصلة مرتبطة بالانحراف برابطة السببية ذات الاتجاه

الواحد وانما كقوى نشطة في وضعية اجتماعية وينتج عن تاثرها بهذه الوضعية وتاثيرها فيها شرط وجودي يحدد نمط الحياة والسلوك السائدين ·

ب ـ الاساس الاحصائي لنظرية العوامل السائدة :

تستند نظرية العوامل السائدة كما بينا الى نتائج الاحصائيات التي تحاول تلخيص الوقائع في سلاسل من الارقام· ومن العمل على هذه المعطيات الاحصائية تستخرج قوانين تفسيرية للظاهرة · فليس هناك احتكاك مباشر مع الجانح لأن الاحصاء يفترض ان قانون الاعداد الكبيرة يلغي الفروق الفردية ويتجاوز التغييرات النوعية من حالة لاخرى ·

هناك نوعان من الاحصائيات المستخدمة في هذا الصدد : الاحصائيات الوصفية والاحصائيات التفسيرية ، وغالبا ما تقوم الثانية على الاولى · وللاحصائيات الوصفية انواع تتفاوت في مدى شمولهـا للظاهرة · فهناك احصائيات الشرطة وهي أوسعها مدى واحصائيات القضاء واحصائيات المراكز العقابية وهي اقلها شمولا لسبب بسيط هو ان كل ما يصل علم الشرطة من جنح لا يلاحق جميعه امام المحاكم ، وان كل القضايا التي تعالج امام المحاكم لا تنتهي الى المؤسسات العقابيـة ·

ولكن حتى اكثر هذه الاحصائيات شمولا لا تغطي الظاهرة الجانحة بأكملها· فهناك ثلاثة مستويات لواقع الانحراف : الانحراف الفعلي ـ الانحراف الظاهر ـ والانحراف القضائي · واحصائيات الشرطـة تسجل عادة القسم الاكبر من الانحراف الظاهر وليس كله اذ ان هناك العديد من الجنح التي تصل الى علمها لا تدون في الاحصائيـات · الا ان المشكلة الاساسية تكمـن في الفرق بين الانحراف الظاهر والانحراف الحقيقي في مجتمع مـا · ويجمع العلماء على ان هذا الفرق يتفاوت في حجمه فهو صغير في جنايات القتل ولكنه كبير جدا فـي جرائم الملكية ويطلق عليه اسم « الرقم الاسود » (١) ، وهو مرتفـع خصوصا في الجنح المالية في اوساط الاعمال التي تهدف الى الاثراء السريع بكل الوسائل الممكنة · وتبقى هذه الجنح رغم كمية الضرر الكبيـرة التي تلحقها بالمجتمع مستترة لعدة اسباب ، اهمها التساند المتبادل بين هؤلاء لاخفاء اعمالهم الماليـة غير المشروعة ، وكذلك الاحتيال على نصوص القـانون ، وأخيرا لعدم توفر الرغبة في ملاحقتها ·

---

(١) الرقم الاسود : Chiffre noir.

ولقد قام العالم الاميركي سزرلند (١) بأستقصاء علـــى ١٧٠٠ فرد مـــن الطبقة المتوسطة والعليا في ولايـــة نيويورك · واثبت بحثـــه ان الوسائل غير المشروعة منتشرة بين هؤلاء وخصوصا رجال الاعمال منهم · واثبت ايضا انها تظل بدون ملاحقة اما لانها لم تكشف وامـــا لان الجمهور لا يشدد عليها او لان السلطة لا تريد ان تعاقبهم · ولقد ثبت ان الرقم القياسي ضرب من قبل اكثرهـــم احتراما له ، اذ اعترف ٩٩٪ منهم بارتكاب واحدة على الاقل من ٤٩ جنحة يعاقب عليها قانون نيويورك بحبس لمدة سنة · كما وجد ان متوسط عدد الجنح المرتكبة خلال سن الرشد كان ١٨ للرجال و ١١ للنساء · ولقد اعترف ٦٤٪ من الرجال و ٢٩٪ من النساء بذنبهم في اقتراف جنحة على الاقل من تلك التي يعاقب عليها بالحرمان من الحقوق المدنية ·

على ان المآخذ التي تؤخذ على الاحصائيات الوصفية منها والتفسيرية ، لا تقف عند هذا الحد فهي متعـــددة لدرجة تضع معها قيمتهـــا موضع التساؤل الجدي ·

اهم هذه المآخذ ما يلي :

١ ـ تتفاوت الاحصائيات في حجمها من منطقة الى أخرى في مجتمع مـــا وقد يؤخذ ذلك دليلا على ان هذه المنطقة موّلـــدة للانحراف · ولكن الملاحظة الدقيقة قد تثبت ان هذا الاختلاف يعود الى مجرد التشدد في الملاحقة في منطقة ما والتهاون فيها في منطقة اخـــرى · كما ان دراسة الواقع الاجتماعي تظهـــر بوضوح عدم التساوي في شدة الملاحقة في جميـــع المناطق · فهناك مثلا احياء اكتسبت سمعة في كثرة انحرافاتها ولذلـــك تصبح الاضواء مسلطة عليها دائما واليها يتوجه الباحثون عندما يريدون دراسة الظاهرة ·

٢ ـ تتفاوت الاحصائيات في حجمها من فترة لاخرى في المجتمع الواحد · ولا يرجع ذلك دائما الى تغير في الحجم بمقدار ما قد يرجع الى التفاوت في شدة الملاحقة · اذ يحدث في فترات الاضطراب ان تشغـــل السلطة بالظروف التي تفرضها تلك الاضطرابات وبالتالي تنصرف الشرطة عن ملاحقة السلوك الجانح خصوصا عند الاحـــداث · ويلاحظ بعد استتباب الامـــن مباشرة ارتفاع في

---

(١) Robert Nerton, Structure sociale, anomie et déviance, in Social Théory and social structure, Free press, New York, 1949.

الاحصائيات مرده الى عودة الشرطة الى ملاحقة الجانحين الذين تركوا في فترة الاضطراب . ويصدق هذا الامر ايضا على المناطق المختلفة في المجتمع الواحد . فبينما كنا نرى منطقة ما تغذي هذه الاحصائيات بنسبة عالية من حالات انحراف الاحداث اذ بمكانتها تتراجع في تلك الاحصائيات . ولا يعـــود ذلك الى تغير في وضعها بقدر ما قد يعود الى تراخ طارىء في المراقبة والملاحقة. كل ذلك قد يجعل المقارنة والاستنتاج أمرين بالغي الصعوبة .

٣ ـ هناك عامل هام آخر لا يتعلق بالتقلبـــات الاجتماعية والسياسية في مجتمع ما بل بتطور القوانين وتغيرها . فسن قوانين جديدة تخلق جنحا جديدة لم يكن القانون ينص عليها سابقا . كما ان هناك تصرفات كانت تعتبر جنحا في فترة ما ثم تفقد هذه الصفة في فترة اخرى . وكذلك تحويل بعض الجنايات الى جنح . مما يجعل الدراسة المقارنـــــة للاحصائيات الجنائية في فترات تاريخية مختلفة أمرا بالغ الصعوبة اذا لم تصبح المقارنة مستحيلة فعلا . فمن الصعب القول مثلا ان النشاط الجانح قد ازداد في مجتمـــع ما بشكل فعلي انطلاقا من الزيادة في الارقام . اذ قد تعود هذه الزيادة الى النمو السكاني او الى التشدد في الملاحقة او الى خلق جنح جديـــدة . والعكس صحيح بالنسبة الى انخفاض الارقام ودلالته .

على ان مشكلات الاحصائيات لا تتوقف عند حدود مجتمع ما بل هي تبرز بحدة اكبر عند محاولة الدراسة المقارنة للسلوك الجانـح بين مختلف البلدان . وتصل المشكلة اقصى درجات التعقيد عند الدراسة المقارنة لانحراف الاحداث . ويرجع ذلك الى اسباب اهمها ما يلي :

ـ ان الاحصائيات الدولية غير قابلة للمقـــارنة فيما بينها نظرا لاختلاف قوانين العقوبات من مجتمع لآخر . فما هـــو ممنوع في مجتمع ما قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر .

ـ يختلف تعريف الحدث الجانح ايضا من مجتمع لآخر فهناك بلاد تمدد فترة الحداثة الى سن الثامنة عشرة وقلة قليلة جدا تتجـــــه نحو تمديدها الى سن الحادية والعشرين . ويعتبر بذلك الشاب الذي اقدم على جنحة وهو في العشرين من عمره قاصرا ويحاكـــــم امام محكمة الاحداث مما يضخـــم عدد الاحداث الجانحين . اما في بلاد اخرى ومنها لبنان فتقف فترة الحداثة عند سن الخامسة عشرة . يعتبر الحدث بعدها راشدا من الناحيـــــة القانونية . وهذا يؤدي الى انخفاض نسبة الاحداث المنحرفين في الاحصائيات الجنائية .

ـ تتفاوت البلدان المختلفة في درجة تشددها في مراقبة سلوك الاحداث ففي الولايات المتحدة مثلا يعتبر الهروب من المدرسة جنحة وفي انجلترا يعتبر التهرب من دفع ثمن التذكرة في النقل المشترك جنحة • ويحاكم الحدث في الحالتين امام محكمة الاحداث التي تدرس وضعه وتضع توصيات بعلاجه،مما يؤدي الى تضخيم احصائيات الاحداث الجانحين • اما في البـــلاد التي لم تصل مستوى عال من التطور فهناك ميل نحو التساهل تجاه سلوك الاحداث او تسوية مخالفاتهم بشكل مباشر وشخصي (يحل الجار او القريب مثلا محـــل الشرطة في حل المشكلة) ولذلك تنخفض نسبة هؤلاء في الاحصائيات •

قد لا تكمن المشكلة في درجة الملاحقة وانما في توفر او عـدم توفر اجهزة دقيقة للاحصاء • هذه المشكلة تطرح خصوصا في البلدان المتخلفة ، او تلك التي لا زالت في بداية نموها فهي تفتقر عادة الى الاجهزة المتخصصة التي ترصـد الظاهرة وتسجل تطورها وابعادها ، مما يؤدي الى انخفاض كبير في أرقام الاحصائيات لا يمكن باي حال الانطلاق منه للزعم بضالة انتشار الظاهرة •

نأتي الان الى الاحصائيات التفسيرية التـــي تستخدم في دراسة انحراف الاحداث • فبالاضافة الى ما سبق تتعرض هذه الاحصائيات لمشكلات عديدة تحد من قيمتها • من اهمها انطلاقها من دراسة الملفات الشخصية • ولكن تلك الملفات لم تملأ من قبل شخص واحد، بل من قبل عدة اشخاص تتفاوت نظرتهم الى اهمية الوقائع التي تسجل • فما يعتبره هذا الملاحظ هامـــا ويعطيه مكانة بارزة في تكوين الملف قد يعتبره ملاحظ آخر ثانويا ولا يفرد له مكانة تستحق الذكر • مما يؤدي الى معطيات لا تتساوى في قيمتها ويجعـــل الاستفادة منها أمرا مشكوكا فيه • ثم انه من العسير تحديد عينات مقارنـة متساوية فعلا في طبيعتها • فمن المشكوك فيه امكانية اجراء البحث على عينـــة من الجانحين واخرى من غير الجانحين في نفس الظروف الموضوعية وبنفس العمق ، اذ ان درجة التعاون مع الباحث ليست واحدة في العينتين لان دلالة البحث ليست موحدة • فبينما يغلب ان يعيش افراد العينة الجانحة التجريبية كتهديد لهم (لان خوف الادانة يظل كامنا في العلاقة بين الفاحص والمفحوص في هذه الحالة) يميل افراد العينة الضابطة الى اخذ الامر باستخفاف او نوع من العشرية احيانا •

وتتعرض النتائج لخطر الوقوع في خطأ منهجي احيانا • فنتائج الدراسة توضع في نهاية الامر على شكل معاملات ارتباط بين ظواهر او عوامل معينة وبين السلوك المنحرف • والمشكلة هي في اعتبار هذا الارتباط علاقة سببية ونسيان انه ليس سوى علاقة تلازم • فالتلازم بين الظواهر لا يعني بالضرورة ارتباطهما

بعلاقة سببية . فقد يعني أحيانا أن كـلا الظاهرتين المتلازمتين تنجمان من سبب آخر يفسرهما كليهما .

ويوجز القول ان الاحصائيـات مفيدة في دراسة ظـاهرة الانحراف وخصائصها العامة في مجتمع ما . وهي تعطي صورة تقريبية عن تلك الظاهرة ولكن لا يمكنها ان تتجاوز هذا المستوى كي تصل الى مستوى استخراج عوامل سابقة تفسر الظاهرة .

ونتيجة لذلك بدأ العلماء ينصرفون عن نظرية العوامل السائدة ويتوجهون نحو نظريات اكثر ديناميكية في فهم السلوك الجانـح . وسنعرض الان لبعض هذه المحاولات .

ثانيا : نظرية الترابط الفارقي (١) :

وضع هذه النظرية العالم الاجتماعي الاميركي سزرلاند الذي اهتم خصوصا بدراسة جنح رجال الاعمال ، واشتهر عالميا من خلال دراسته الرائعة عن اللص المحترف (٢) ،حيث تعمق في وصف نموذج حياتـــه ، وتدريبه على الانحراف وتدرجه فيه . كما وصف جماعات اللصوص المحترفين ، وروحية الفريق بينهم ، ومواثيق الشرف التي تحكم تصرفاتهم ، وعلاقتهم مع المجتمع الكلي .

ولقد حاول وضع نظرية تفسر السلوك الجانح بشكل متكامل، اذ انه لم يكن راضيا قط عن دراسات العوامل السائدة . فهي في رأيه ليست نوعية (اي انها لا تقتصر على السلوك الجانح) فالفقر ، والمرض ، وتفكك الاسرة الخ ... قـد يؤدي الى الانحراف ولكنها ليست خاصة به ولذلك يجب تجاوزها . أراد وضع تفسير نظري للانحراف يملك نفس خصائص النظريــات العلمية الموجودة في مجالات اخرى . ويجب ان تتوفر لهذا التفسير في رأيه شروط سببية تكون دائما حاضرة عندما يحدث الانحراف وغائبة عندما لا يكون هناك انحراف. وقيمة هذا التفسير هي في تشجيع وتبسيط وتوجيه الابحاث الجنائية في نفس الوقت الذي يقدم فيه اطارا يسمح بفهم وتحديد قيمة المعلومات المتوفرة حاليا في هذا الميدان.
ويعتقد سزرلاند انه من الممكـــن الوصول الى التفسير النوعي للسلوك

(١) نظرية الترابط الفارقي Théorie des associations différentielles.
(٢) E. Sutherland, le voleur professionnel, Paris, Spes 1963.

الجانح من خلال الدراسة المنطقية لاواليات التوجـــه نحو الانحراف والانخراط فيه • وهي أواليات عامة في رايه يشترك فيها كل الجانحين (فقراء ، اغنياء ، ريفيين ، حضريين ، مستقرين عاطفيا او مضطربين) •

وهو يبحث هذه الاواليات التي تميز عملية التوجه نحو الانحراف من خلال دمج البعد التاريخي النشوئي في التفسير بالبعد الموضعي الديناميكي (العوامل والقوى المؤثرة في الوضعية الراهنة) • ويكون السلوك الجانح على ذلك نتاج تفاعل تاريخ الشخصية ووضعيتها الحياتية الراهنة • وهو طرح منهجي موفق ويراعي الاسس العلمية لدراسة السلوك الانساني •

وحتى نفهم حق الفهم نظريته في دراسة السلوك الجـــانح لا بد من القاء نظرة سريعة على التيارات الفكرية التي تاثر بها واهمها اثنان :

ا ـ سلوكية واطسن : وهي مدرسة نفسية انتشرت بكثـــرة في الولايات المتحدة ابتداء من عام ١٩٢٠ • تذهب هذه النظرية الى رفض كـل ما هو وراثي او غريزي او جبلي الخ ••• ولا تعتـــرف في تفسيرهـــا للسلوك الانساني الا بالعوامل البيئية المكتسبة • ويقول واطسن بهذا الصدد انـه مستعد اذا اعطي خمسة اطفال ان يجعل من الاول طبيبا ومن الثاني محاميا ومن الثالث مجرما•• فالامر كله يعود الى المؤثرات البيئية • وليس هناك من مجال للوراثي او الغريزي او ما شابه • والسلوك ليس سوى ردود فعل معقدة على مثيرات معقدة يتلقاها الشخص من بيئته الخارجية او الداخلية • ولقد اقتبس سزرلاند من هذه المدرسة مبدا السلوك المتعلم او المكتسب • ولذلك نراه يقول ان كل سلوك جانح متعلم وهو وليد مثيرات خارجية تلقاها الشخص من الجماعة الجانحة التي ينتمي اليها • اما مسالة الدوافع الذاتية فليس لها دور يذكر في احداثه •

ب ـ نظرية الصراع الثقافي : وهي نظرية قال بها العالم الاجتماعي سلن Sellin لتفسير السلوك الجانح • فمن رأيه ان ذلك السلوك هو وليد تعارض معايير الجماعة المحددة التي نشا فيها الفرد مع معايير المجتمع الكلي • فالفرد غير المتكيف للمجتمع الكلي هو كذلك نتيجة انتمائـــه الى جماعة غير متكيفة • وبكلمة أخرى فهو غير متكيف للمجتمع الكلي لانه متكيف لجماعة غير متكيفة • ولقد دفعه الى القول بهذه النظرية تعدد الجماعات العرقية والثقافية في المجتمع الاميركي في بداية نشاته ، وتعارض معايير كل جماعة مع الجماعات الاخرى ، ثم تعارض قيم وعادات كل جماعة مع معـــايير المجتمع الاميركي الجديد • فابن

المهاجر الجديد قد يصبح جانحا نتيجة لاصطدام المعايير السلوكية التي تعلمها من ذويه داخل الجماعة التي ينتمي اليها مع معايير المجتمع الجديد ٠

ولقد اخذ سزرلاند من هذه النظرية مبدأ الصراع بين معايير الثقافات المختلفة التي يتكون منها المجتمع الاميركي حين قال ان الشخص يصبح جانحا عندما تطغى على تصرفاته المعايير الجانحة السائدة في جماعة انتمى اليها ضد المعايير المتكيفة التي تحكم المجتمع الكلي ٠

ولقد عرض سزرلاند مبادىء هذه النظرية في فصل تمهيدي بعنوان « نظرية اجتماعية في السلوك المجرم » من كتابه « مبادىء علم الجريمة » (١) ٠ واتى هذا العرض على شكل عدة نقاط تكوّن فرضيات للبحث حاول البرهنة عليها في بقية فصول الكتاب ٠ وهو يلخص في تلك النقاط مراحل العملية التي يصبح الشخص جانحا من خلالها كما يلي :

١ ـ السلوك الجانح متعلم : ويعني ذلك ان هذا السلوك ليس وراثيا وان من لم يتلق تدريبا على الاجرام لا يخترع الجريمة ٠

٢ ـ السلوك الجانح متعلم من خلال الاحتكاك بأشخاص آخرين في عملية تواصل (٢) ٠ هذا التواصل لفظي وشخصي أساسا ، كما يمكن ان يتم بالمثال والقدوة ٠

٣ ـ يتم تعلم السلوك الجانح خصوصا ضمن جماعة محصورة ، تتميز بالعلاقات المباشرة والشخصية ٠ ولذلك فان وسائل الاعلام اللاشخصية (تلفزيون ، راديو ، منشورات) لا تساهم الا بدور ثانوي جدا في نشأة السلوك الجانح ٠

٤ ـ يشمل التدريب على الانحراف أ) ـ تعلم تقنيات ارتكاب الجنح وهذه قد تكون بسيطة او معقدة ٠ ب) ـ توجيه الدوافع والميول والتفكير والاتجاهات نحو الانحراف ٠

---

(١) ترجم الى الفرنسية عام ١٩٦٦ بعنوان :
Principes de criminologie, Paris, 1966, Cujas.

(٢) تواصل : Communication

٥ ـ توجيه الدوافع بهذا الشكل هو نتـــاج التفسير الملائم او غير الملائم للقوانين المرعية الاجراء (اي تغليب احترام هــذه القوانين او عدم احترامها) · ويجد الشخص نفسه في بعض الجمـــاعات محاطا بآخرين يفسرون القوانين كقواعد تجب مراعاتها دائما في السلوك· كما يجد نفسه في جماعات اخرى محاطا بأشخاص يميلون للاعتداء على هذه القوانين · مما يؤدي الى صراع ثقافي بين معايير هاتين الفئتين ·

٦ ـ يصبح الفرد جانحا عندما تطغى التفسيرات المضادة للقـــانون على التفسيرات التي تحترمه · وهذا يشكل مبدأ الترابط الفارقي · وهو ترابط يصح على جماعات المجرمين وغير المجرمين · ويصبح الفرد جانحا اذا وجد امامه نماذج ومعـــايير سلوكية جانحة لا تجابهها معايير متكيفة على درجة كافية من القوة ·

٧ ـ تتنوع الترابطات الفارقية من حيث التواتر، المدة، الاسبقية والشدة· فاذا تماهى الشخص بمعايير جانحة قبل أن يتعرض لتأثير المعايير المتكيفة قد يصبح جانحا بشكل نهائي والعكس صحيح · وأما الشدة فتتعلق بمقدار وجاهة وجاذبيـــة النماذج السلوكية (جانحة او متكيفة) فاذا كانت وجاهة النمـاذج الجانحة اكبر تعرض الشخص للانحراف بدرجة اشد ·

٨ ـ التدريب على الانحراف يتم ليس من خلال التقليد وانما من خلال أواليات عمليات التعلم العادي ·

٩ ـ مع ان السلوك الجانح يعبر عن مجموعة من الحاجات والقيم الا انه لا يفسر من خلالها ، لان السلوك غير الجـــانح هو ايضا تعبير عن نفس الحاجات والقيم ، فاللص يسرق كي يحصل على النقود (قيمة) والعامل يعمل من اجل نفس الغاية · ولذلك فكل الاسباب التفسيرية التي اعطيت للانحـــراف غير مجدية لانهـــا نفسها تفسر السلوك المتكيف ·

هذه النقاط تفسر السلوك الجانح على المستوى الفردي · ولا تهتم بتفسير معدل الاجرام ، الذي تهدف اليه النظريـــات الاجتماعية · ومن رأيه ان تفسير ذلك المعدل يجب ان ينسجم مـــع تفسير السلوك الفـــردي · ولذلك يحاول فهم

الانحراف على المستوى الاجتماعي انطلاقا من مفهوم مشابه وهو مفهوم الترابط الاجتماعي الفارقي (١) • فالجريمة هي نتـــاج الترابط الاجتماعي وتعبير عنه • والجماعة قد تكون منظمة بشكل يسهل ميلاد السلوك الجانح او بشكل يقاومه • ومعظم الجماعات متجاذبة (٢) عادة (بمعنى انهـا تتضمن ميولا جانحة واخرى متكيفة) ولذلك فمعدل الاجرام هو تعبير عن الترابط الفارقي للجماعة •

$$\text{معدل الجريمة} = \frac{\text{قوة النماذج المشجعة على الانحراف .}}{\text{قوة النماذج المشجعة على التكيف .}}$$

وهكذا ينتج الانحراف في نهاية الامـر عن تعرض الشخص لمعايير جماعة جانحة تجتذبه بشكل تتغلب فيه على معايير الجماعات المتكيفة • وهو ينتمي الى الجماعة الجانحة ويتدرب من خـــلال الاتصال الشخصي على فنون الانحراف ، ويتمثل نمط الوجود الجانح السائد في تلك الجماعة حتى يتبناه بشكل نهائي •

تقويم نظرية الترابط الفارقي :

حاول سزرلاند تجاوز التشويش والتخبط العلمي الذي تقود اليه نظريات العوامل السائدة والتي كانت تقدم نتائجها بشكل مفكك حيث لا رابطة منطقية او منهجية بين العوامل التي تعطى كتفسير للانحراف • وبذل جهدا حسنا في سبيل وضع نظرية ، او على الاقل افتراض علمي متماسك يلم بأطراف الواقع وينظمها في صيغة علمية تساعد الباحث على التوجه في دراساته بشكل متناسق • تلك هي الميزة الهامة والاساسية التي تتمتع بها ابحاثـــــه • وقد دفع بذلك ولا شك دراسة السلوك الجانح خطوة الى الامام •

أما الميزة الثانية لابحاثه فهي مساهمته القيمة في الدراسة الدقيقة للتدرج نحو الانحراف والابتعاد عن العالم المتكيف ، ثم التدرج في الانحراف والانخراط فيه حتى الوصول الى مرتبة الاحتراف• كما انه ألقى الكثير من الاضواء على نمط الوجود المنحرف وخصائصه • وتتضح لنـا اهمية هذه الابحاث اذا علمنا ان الانحراف ليس مجرد استجابة الية لعوامل مولّدة للجريمة بل نهاية تطور حياتي يؤدي الى تغير كلي في موقع الشخص من المجتمع وطبيعة ارتباطاته به من خلال

---

(١) الترابط الاجتماعي الفارقي : Association sociale differentielle

(٢) متجاذب وجدانيا : Ambivalent

تغيير جوهري في الانتماء الجماعي (من انتماء الى جماعات متكيفة الى اخرى مضادة لها غير متكيفة)٠ انه في نهاية الامر انقلاب كلي وجذري في نمط الوجود عندما يصل الجانح درجة الاحتراف ٠ وهكذا يتضح لنا ان مجرد تغيير العوامل المؤدية الى الانحراف بشكل موضوعي لا يحل المشكلة دائما اذا وصل الجانح حد الاحتراف ٠ فبالاضافة الى تغيير تلك العوامل ، هنـالك ضرورة لبرنامج تربوي وعلاجي يغير نمط الوجود نفسه ويحول انتماءه الى عالم متكيف يجد لذاته فيه مكانة تعطيه قيمته ومعناه ٠

رغم اهمية هذه المساهمـــــة فهي لا تخلو من الثغرات ٠ فوصف دينامية التدرج نحو الاحتراف بالشكل السابق يترك تساؤلين اساسيين ٠

يتعلق الاول بدوافع الشخصية للانتماء الى جماعة جانحة ٠ فالتوجه نحو التصرف السلبي ليس أوليا عند الانسان ٠ بل هو حـــل بديل عندما لا تتيسر له امكانيات الحصول على مكانة مقبولة في الجماعة المتكيفة ٠

ولقد اخذ العديد من العلماء على سزرلاند تجاهله لدوافع الشخصية للانتماء الى جماعة جانحة ، حتـــى ان بعضهم (١) (هوشون ، بيناتل ، كنبرج ، تسلر) اتهمه بالتسرع والرغبة في الوصول الى نظرية شاملة بدون بحث جميع مستويات الظاهرة بالعمق الكافي ٠ ولم تخف هذه الثغـــرة على سزرلاند ولكنه لم يحاول سدها بل اقترح موضوعا للبحث لتوضيح العمليات التاريخية والدوافع الداخلية التي تؤدي الى الانحراف ٠

اما التساؤل الثاني الذي يحتاج الى جواب ، وقـد يكون اهم من الاول ، فيتركز حول علة وجود جماعات ذات معايير تشجع على الانحراف وتغري بخرق القوانين ٠ فلا يكفي ان نعرف كيف يتدرب الجانح على الاحتراف ضمن جماعة جانحة كي تفسر الظاهرة بل يبقى علينا ان نعرف اسباب وجود هذه الجماعات: لماذا تنشأ ولماذا تستمر وما هي وظيفتها في بنية المجتمع ٠

تساؤلات اساسية على علم الاجتماع ان يجيب عنها حتى يستقيم فهم ظاهرة الانحراف ٠ ولقد قام العديد من المحاولات لاعطاء هـذا الجواب ، منها محاولة عالم الاجتماع مرتون التي تلقي اضواء هامة على الظاهرة ٠

---

(١) انظر كتاب **Delinquance juvenile et Réalisation de soi** الفصل الثالث تاليف مصطفى حجازي ، نشر ماسون ، باريس ١٩٦٦ ٠

ثالثا : نظرية مرتون :

تحتل مساهمة مرتون مكانة مرموقة في التفسيرات الاجتماعية للانحراف التي يتبناها علماء الاجتماع الاميركان · ولقـــد عرض نظريته هذه في كتابه « النظرية الاجتماعية والبنى الاجتماعية » (١) تحت عنوان « البنية الاجتماعية، التراخي (٢) الاجتماعي ، والانحراف » (٣) ·

يبدأ مرتون برفض التفسيرات النفسية للانحراف من خلال اضطراب الحياة النزوية او الاضطراب النفسي عموما · ويحاول ان يبرهن ان بعض اشكال هذا السلوك معافاة نفسيا كالسلوك المتكيف تماما · وهكذا فهو يضع نفسه في منظور اجتماعي محض ، محاولا وضع أسس تحليـــل المصادر الاجتماعية للانحراف · وينطلق في ذلك كله من تحليل البنية الاجتماعية محـــاولا اكتشاف الكيفية التي تؤدي نتيجة لتميزها بخصائص معينة،الى دفع بعض الافراد الى السلوك المنحرف بدل السلوك المتكيف · في هذا الطرح الاجتماعي الديناميكي للمشكلة يكون قـد قفز خطوات الى الامام بالدراسة الاجتماعية للانحراف حيث يبين ان هذا السلوك هو وليد الوضعية الاجتماعية التي يجد الشخص نفسه فيها وليس وليد هذا او ذاك من الاسباب الداخلية او الخارجية المعزولة عن اطارها الحياتي ·

وهو ينطلق كي يصل الى غايته من تحليـــل عناصر البنية الاجتماعية في تفاعلها ، ويبين كيف يؤدي هذا التفاعل الى تصرفات متنوعـــة بعضها جانح ، وبعضها متمرد ، وبعضها استسلامي الخ ····

١ ـ المعايير والاهداف الثقافية :

لكل بنية اجتماعية عنصران اساسيان : الاهداف والمعايير ·

ـ **الاهداف** : لكل مجتمع مجموعة من الاهـــداف والاهتمامات المحددة حضاريا · وتشكل هذه الاهداف الامال المشروعة التي يحددها المجتمع لافراده·

---

(١) Robert Merton, Social theory and social structure, New York, Free press, 1949.

وهو مترجم الى الفرنسية عام ١٩٦٥ تحت عنوان

Elements de théorie et de méthode sociologiques, Paris, plon.

(٢) قصد بالتراخي الاجتماعي هنا غياب المعايير الاجتماعية التي توجه السلوك وتضبطه

(٣) Structure sociale, Anomie et séviance. .

وهي مرتبة حسب اهميتها في سلم من القيم المرتبية (١) ٠

ـ المعايير (٢) : مجموعة القواعد التي تحكـــم السلوك وتضبط وسائل الوصول الى الاهداف من خلال قنوات معينة ٠ وترتب هذه المعايير طرق الوصول الى الاهداف حسب قيمتها الاجتماعية : فهناك طرق مثلى ، وطرق مستحسنة ، واخرى مقبولة وغيرها ممنوعة ٠

ويقوم هذان العنصران (الاهداف والمعـــايير) بوظائفهما بتناسق لتحديد النشاطات الاجتماعية الاكثر شيوعا ٠ ولكن الصلة بينهما ليست دائما ثابتة ولا هي متوازنة ٠ فأحيانا يحدث التأكيد على الاهداف مع تراخ وتساهل في المعايير٠ وهنا تصبح كل الوسائل صالحة للوصول الى الهدف ونكون امام مجتمع ذي بنية غير متكاملة (مصابة بالخلل) وعلى العكس من ذلـــك فقد تصبح امام وسائل الوصول اهدافا بحد ذاتها ٠ فنجد انفسنا امـــام تصرفات طقسية (٣) حيث يشكل الامتثال الصرف للقواعد السلوكية القيمـــة الاساسية ٠ يحدث ذلك في حالات التزمت الاجتماعي او الفردي ٠ ويؤدي الى جمود بنية المجتمع وصعوبة التطور ومواكبة الجديد ٠ وبين هاتين الحالتين تقـع المجتمعات التي توازن بين الاهداف والوسائل ، وهي مجتمعات مستقرة نسبيا انما قادرة على التغيير ٠

عندما تعطي بنية المجتمع وزنا مفرطا للاهداف على حساب المعايير ، يزداد الميل الى الوصول الى تلك الغايات باتباع اكثر الطرق فعالية على حساب مراعاة السبل المشروعة ٠ واذا انتشرت هذه الروحية في مجتمع ما تبرز ظاهرة التراخي الاجتماعي (غياب المعايير المشروعة) وتمارس النشاطات الجانحة للوصول الى الهدف ، الذي اصبح يحتل قيمة اساسية ، ضغطـا واغراء كبيرين على الافراد في اتجاه الوصول اليه (الغش في اللعب ، في الرياضة ، في الامتحان ، فـي الربح الخ ٠٠٠) ٠ ويقول مرتون ان هذه هي حال المجتمعات التي كرست النقود كقيمة اجتماعية والغنى كهدف بحد ذاته٠ولذلك فالثروة تصبح ذات اعتبار كبير بصرف النظر عن مصدرها ٠ وبما ان النجاح المالي بدون حدود ، فحلم المواطن لا ينتهي ٠ وهو يعاني من خضوعه لشعارات له الحق بل وعليه الواجب تبعا لها ان يغتني رغم كل العراقيل ٠ فالمجتمع يمارس ضغوطا دائمة على افراده لرفـع

---

(١) القيم المرتبية : Valeurs hiérarchiques

(٢) المعايير : Normes

(٣) طقسية ٠ (Rite) Rituelles

مستوى طموحهم ، كما انه يؤكد في نفس الوقت على خطأ وعيب التخلي عن هذا الطموح ·

ويذهب مرتون في تحليله للمجتمع مبينا كيف يمارس ضغوطا على افراده لرفع مستوى طموحهم الى درجة تتجاوز السبل المتوفـــرة لهم لتحقيقها وكيف يؤدي ذلك الى ضروب من السلوك غير المتكيف ·

ما يهمنا هنا هو تبيان كيف ينتج السلوك الجانح عن البنية الاجتماعية كرد فعل وحيد على ما تفرضه من تحديات ·

ب ـ انماط التكيف الفردي :

يعرض مرتون نماذج التكيف الفردي الممكن لهـــذه الضغوط مؤكدا على خمسة منها · وهو يرتبها في جدول بالنسبة للاهداف والمعايير · وتعني اشارة « زائد » في جدوله الموافقة أما « ناقص » فتعني الرفض ، كما ان اشارة « زائد ناقص » تعني الرفض ومحاولة التغيير في آن معا ·

انماط التكيف	الاهداف	الوسائل
١ ـ الامتثالي ·	+	+
٢ ـ المجدد ·	+	−
٣ ـ الطقوسي ·	−	+
٤ ـ الهروبي ·	−	−
٥ ـ المتمرد ·	+ −	+ −

هذه الانماط التكيفيـــة لا تتعلق بشخصية الفـــرد عموما بل بادواره في الوضعيات المختلفة · ولذلك فهو قد يتحـــرك من نمط لآخر تبعا لدوره في كل وضعية · وتطبق انماط التكيف هـــذه خصوصا على النشاط الاقتصادي بالمعنى الواسع (انتاج ، تبادل ، توزيع ، استهلاك المتـــاع والخدمات) في المجتمعات ذات الطابع التنافسي حيث تحتل الثروة القيمة الاولى في سلم الوجاهة ·

١ ـ النمط الامتثالي :

اكثر الانماط شيوعا في مجتمع مستقر · ولولاه لما امكن استمرار تماسك المجتمع واستقراره · ويكون الامتثال بالنسبة للغايات والوسائل على حد سواء·

٢ ـ النمط المجدد :

عندما يعطي المجتمع اهمية للنجاح والجاه والمظهر يدفع الافراد لاستخدام وسائل ممنوعة ولكنها فعالة ۰ ويحدث ذلك عندما يتقبـل الفرد الغايات ولكنه لا يتبنى المعايير الاجتماعية والوسائل الدارجة (هذا هو حال الجانح اجمالا سواء كان صغيرا ام كبيرا غنيا أم فقيرا) ۰ ولكن لا يحـــدث هذا الامر الا في بنية اجتماعية ذات خصائص معينة ، حيث تضيع الحـــدود بين البراعة في الكسب والوسائل غير الشريفة التي تستحق الملاحقة ۰ تكون الطبقات المعدمة في هذه البنية اكثر الفئات السكانية تعرضا للضغوط الدافعـــة نحو الانحراف ۰ ولقد اثبتت ابحاث عديدة ان بعض اشكال الرذيلة والجريمـــة ما هي سوى رد فعل عادي لوضعية يكون من المستحيل على الفرد فيها استخدام الوسائل المشروعة لتحقيق النجاح والوجاهة اللذين تؤكد الحضارة على أهميتهما ۰ فالامكانيـــات المتوفرة لهؤلاء وفرص الوصول المتاحة لهم لا تسمح بأي أرتقاء أجتماعي ، مما يفرض عليهم وضعية تتميز بالتناقض والصراع بين التعلق بأهداف الغنى والجاه وانسداد السبل المشروعة للوصول اليها ۰ ويولد هذا التعارض تعلقا بالاهداف وتراخيا تجاه مشروعية الوسائل ، أي أنه يؤدي الى السلوك الجانح ۰ وينشـأ هذا الوضع في الواقع في رأي المؤلف من خلل في البنية الاجتماعية يترك فروقات كبيرة في فرص الوصول المتاحة لمختلف الطبقات من ناحية ويفرض على الجميع واجب الوصول من ناحية ثانية ۰

يساعد هذا التحليل في الواقع على فهـــم العلاقات المختلفة الموجودة بين الفقر والغنى والجريمة ۰ ففي المجتمعـات التي لا تعاني من هذا التناقض بين الاهداف والوسائل وفرص الوصول لا يؤدي الفقر دوما الى الجريمة أما في المجتمع الذي يتصف بهذا التناقض فانـه يلقي بالفقير دوما في خضم الصراع والتمزق والمعاناة ويدفع به نحو الانحـــراف او نحو الانسحاب والاستسلام وكلاهما حل غير متكيف۰ ان من يعيش هذه الوضعية الصراعية ويعي ابعادها وأولياتها قد يصبح متمردا (يحاول التغيير) ۰ أمـــا الذين لا يعونها فانهم يعيشونها كقدر مفروض او كحظ (يتبنى الجانح عادة هذه النظرة حين يعتبر نفسه انسانا غير محظوظ)۰ وأما الذين نجحوا فانهم كما يقول مرتون يشجعون مفهوم الحظ هذا لان الامـــور تصبح آنئذ عادلة (من خـــلال طمس الظلم الاجتماعي) ۰

٣ ـ النمط الطقوسي :

يحدث في هده الحال تخل عن المثـــل الاعلى في الجاه والثروة واكتفاء بمستوى يمكن الوصول اليه مع تمسك متزمت بالمعايير الاجتماعية ۰ ويقتصر

الواحد من هؤلاء على نمط روتيني من الحياة يتميز بمستوى طموح منخفض ، هو نمط الذين يبحثون عن مخرج فردي هربا من اخطار الفشل والآلام المعنوية المرتبطة بتعثر محاولات الوصول • ويشيع هذا النموذج في الطبقات المتوسطة الدنيا عموما •وقد ينتقل اكثر الافراد تعرضا لتناقضات المجتمع من نمط تكيفي الى آخر • مثلا يحدث الانتقال من الامتثالية المفرطة الى التجديد او الطقوسية وبالعكس •

٤ ـ النمط الهروبي :

انه نادر نسبيا في المجتمع الاميركي موضوع دراسة هذا الباحث ويلاحظ خصوصا عند الهامشيين (١) على اختلاف فئاتهم (مشردين ، مرضى عقول ، طفيليين ، متسولين ، مدمني مخدرات الخ •••) ولكن نسبة تواتره قد ازدادت بين الشباب حاليا • ويعيش افراد هذا النمط في المجتمـع وكأنهم ليسوا منه ، انهم غرباء عنه اذ تخلوا عن الاهداف والوسائل على حد سواء •

ويحدث نمط التكيف هذا عندما تشتد وطأة كل من الاهداف والمعايير على الشخص • فهو لا يستطيع ان يتخلى عن الاهـــــداف ولكنه لا يستطيع أيضا الوصول اليها لشدة ضغط المعايير عليه • وينتهي به الامر بعد فترة من الصراع الى الهروب من الوضعية بأكملها • ويحـل الصراع بالاستكانة والانهزامية او يصبح شخصا لا اجتماعيا (٢) ، وتمثل هذه الوضعية الشرط الانساني للانسان الحالي الممزق بين خوف الهزيمة اذا قاتل وخوف الاستكانة اذا رفض القتال • وهو نمط تكيف فردي الا انه معرض لان يصبح اجتمـــــاعيا (بعض جماعات المدمنين والطفيليين الذين يكوّنون ثقافة فرعية) •

٥ ـ التمرد :

خروج على البنية الاجتماعية ومحاولة استبدالهـا بأخرى • يفترض ان يعي من تبنى هذا النمط من التكيف غربته عن اهـــداف ومعايير المجتمع التي تظهر له اعتباطية ، بدون شرعية او قوة الـــزام • وهو يحاول استبدال هذه

---

(١) هامشي : Marginal

(٢) لا اجتماعي : Asocial

الاهداف والمعايير بأخرى اكثر ملاءمـــــة وعدالة فيها تناسب ما بين الجهود والنتائج ٠

ويظهر هذا النمط عندما يحس المـــرء ان المؤسسات الاجتماعية القائمة تشكل عقبة امام تحقيق الاهداف المشروعة ٠ وبالتالي يضع هـــذه المؤسسات موضع الشك والتفكير بأخرى لا تتميز بذلـك التناقض ٠ هذا هو طريق التغيير الجذري ٠ وهو يختلف كليا عن الغيظ (مشاعر الحقـــد والعداء) الذي يميز موقف الجانح احيانا من المجتمع ٠ فالغيظ لا يهدف الى التغيير بل يقتصر على الاحتجاج على الغبن ٠

وخلاصة القول ان تناقضات المجتمع بين الاهداف التي يدفع اليها وبين عدم توفر الوسائل المشروعة لبلوغ تلك الاهداف يؤدي الى حالة صراع شديد خصوصا عندما تزداد الضغوط في اتجاه الاهداف ٠ هذه الزيادة تؤدي عادة الى اختلال التوازن بين الغايات والمعايير وبالتالي يظهر التراخي الاجتماعي ٠ ويكون من نتيجته ظهور السلوك المنحرف ٠

تقويم :

يمكن اعتبار دراسة مرتون قفزة اكيدة الى الامام في الفهم العلمي لمشكلة السلوك الجانح عامة ٠ فهي قد حلت فعلا التناقض الذي اوقعتنا فيه دراسات العوامل السائدة التي أدت الى نتائج متعارضة بخصوص اسباب الانحراف ٠ كان هذا الحل من خلال تجاوز العوامل المنعزلة والاهتمام بالبنية الاجتماعية بما فيها من تناقضات تضع الفرد في وضعية مأزقية ، وتجعل الصراع النفسي أمرا محتما وبالتالي تدفع الى الانحراف كمخرج ممكن من ذلك المأزق ٠ هذا النموذج التفسيري (التناقض بين اهداف الوجاهـــــة وامكانية الوصول اليها بالسبل المشروعة) يحل بشكل موفق التعارض الظاهري بين اسباب جنح الاغنياء وجنح الفقراء ٠ فكلا الفئتين تتعرض لنفس الضغوط (الوصول السريع الى الوجاهة) وتضطر لسلوك نفس السبل غير المشروعة ٠

ومع ان هذه الدراسة تنطلق من تحليـــــل بنية المجتمع الاميركي لاظهار قوى الدفع نحو الانحراف فيها فهي تنطبق كليا على بعض جوانب الظاهرة في المجتمع المحلي ٠ انها تفسر خصوصا الاثراء غير المشروع الذي يلاحظ احيانا في بعض اوساط الاعمال وتفسر في نفس الوقت التصرفات الجانحة في الاوساط الفقيرة التي دفعتها وضعيتها الحياتية للاحتكاك بالمثـل الاستهلاكية والتماهي

بها(المهم الظهور والوصول الى القدرة على الاستهلاك بأسرع ما يمكن وبمختلف السبل) • ذلك التماهي يضع الفقيـــر في مأزق وجودي لا خروج له منه ، الا باللجوء الى السلوك الانتفاعي غير المشروع (سرقة ، رشوة ، العاب ممنوعة ، استزلام الخ •••) • في الحالتين نحن امام وضعية تأخذ فيها الاهداف قيمة مفرطة ، بينما تنخفض قيمة السبل المشروعة للوصول وتتراخى المعايير •

ولهذا التفسير الذي يؤكد على خلل البنية الاجتماعية وتناقضاتها كموّلد للسلوك الجانح اهمية اخرى ، فهو يعكس بشكل جيد مرونة وديناميكية السلوك الانساني عندما يؤكد على انماط متعددة من الاستجابة لمواجهة المأزق الوجودي الناجم عن التناقض الاجتماعي • وكذلك عندما يؤكد على امكانية الانتقال من نمط لاخر (من النمط المجدد الجانـــح الى النمط الهروبي الهامشي ••) • ويتطابق ذلك مع واقع الوجود الجانح تماما • فالمنحرف المتمرد العدواني الذي يقف ضد المجتمع قد يتحول الى انسان هامشي مستكين وطفيلي ، اذا جابهته صعوبات وقوى حطمت نقمته ورسخت في نفسه مشاعـــر الفشل • مرة اخرى يقفز بنا مرتون قفزة اكيدة الى الامام عندمــــا يقدم منظوره هذا في مواجهة السببية الميكانيكية الجامدة وذات الاتجاه الواحـــــد التي تقوم عليها العوامل السائدة •

على ان هذه المحاولة رغم اهميتها لا تخلو من بعض المآخذ التي تحد من قيمتها كنموذج تفسيري للسلوك المنحرف •

فمع ان مرتون عكس مرونة الواقع وتعقيده الا انه لم يذهب في ذلك الاتجاه الى اقصاه من ناحية تطبيقه على الوجود الجانح وامكـانية تحوله الى وجود متشرد هامشي او طفيلـــي • الصلة دائمة بين هذه التحـــولات رغم الفروق الظاهرية اذ انها تشكل مظاهر متعددة لمرض واحد ••

ومن ناحية ثانية اعطى مرتون تفسيرا عاما لظاهرة الانحراف ، تاركا فيه ثغرات هامة عندما اهمل البحث في تنوع الظـــاهرة ومستوياتها • فمع ان الانحراف يشكل نمطا عاما من الوجود والموقف من المجتمـع الا انه يتخذ عدة اشكال تتفاوت في اتجاهها وشدتها وخطورتها • وليس من الممكن دائما تعميم نموذج مرتون الذي بناه انطلاقا من الجنح الانتفاعية والنشاطات غير المشروعة على بقية اشكال ظاهرة الانحراف • فرغم صحة المنهـج التحليلي الذي انطلق منه الا ان هناك ضرورة لتوضيح كيفية انطباق هذا التفسير العام على الحالات

النوعية · اذ ان الخلل في بنية المجتمع الذي يؤدي الى الانحراف يتخذ مظاهر واشكالا تبعا لفئات السلوك الجانح ·

على ان المأخذ الاساسي الذي يمكن ان يؤخذ على مرتون هو تجاهله المقصود للبعد الشخصي في مشكلة الانحراف · فهو مصيب في رفضه ارجاع السلوك الجانح الى عوامل نفسية مرضية محضة ، وهو مصيب كذلك في تأكيده على البعد الاجتماعي لذلك السلوك ، وهو مصيب في المقام الثالث في حديثه عن سلوك جانح سوي نفسيا · ولكن رغم ذلك كله لا يمكننا فهم هذه الظاهرة من خلال بعدها الاجتماعي وحده · علينا ان نرى كيف تتفاعل البنية الاجتماعية بكل تناقضاتها المولدة للانحراف مع الشخصية بتناقضاتها الداخلية ، فعن هذا التفاعل وحده ينتج الانحراف · وكما انه لا يمكن تجاهل التناقضات الاجتماعية لحساب التناقضات الشخصية ، كذلك لا يمكن تجاهل هذه الاخيرة لحساب الاولى · فالمرض الاجتماعي يتفاعل مع المرض الشخصي ، التناقض الاجتماعي يتفاعل مع التناقض الذاتي وينشأ عن ذلك سلوك منحرف او غير متكيف اجمالا· والتناقض الاجتماعي لا يمارس تأثيره بشكل موحد على جميع افراد المجتمع ، وهؤلاء لا يتعرضون لنفس الضغوط ولنفس المآزق · هناك افراد يعانون من تناقضات داخلية يأتي التناقض الاجتماعي ليفجرها · هذه التناقضات الذاتية هي بدورها وليدة مآزق علائقية على مستوى الاسرة والجماعة المحلية ، بشكل يصبح معه كل فصل بين مختلف مستويات الوجود الانساني (المستوى الاجتماعي ، المستوى العلائقي والجماعي ، المستوى الذاتي) تبسيطا يجافي الواقع · السلوك الجانح كغيره من الاضطرابات وهو وليد تفاعل هذه المستويات لدرجة يصعب معها احيانا ان نبين بدايته ونهايته ، السبب والنتيجة فيه · السلوك الجانح هو اضطراب على جميع هذه المستويات المترابطة فيما بينها في علاقة جدلية ·

سنعود الى بحث هذا الامر بالتفصيل ولكن نكتفي هنا بتكرار الاشارة الى المكانة الهامة التي يجب ان نعطيها لمنظور مرتون كخطوة اساسية في السير نحو نظرية جدلية في فهم السلوك الجانح ·

رابعا ــ الدراسات السكانية والسلوك الجانح :

احتلت الدراسات السكانية مكانة هامة في أبحاث علم الاجتماع عن السلوك الجانح · فلقد ربط هذا السلوك من عدة أوجه بتوزيع السكان في المدن والريف ،

بحركة السكان (الهجرة من الريف الى المدن) ، باكتظاظ السكان المهاجرين في الاحياء الهامشية (مدن الصفيح) وبعمليات التحضر (١) ٠

ولقد كان موضوع العلاقة بين التوزيع والتحرك السكاني والانحراف من الموضوعات التقليدية في علم الاجتماع منذ أواخر القرن التاسع عشر الذي شهد تحولات سكانية هامة (هجرة الى المدينة ثم تحضر الريف) نتيجة للثورة الصناعية في العالم الغربي ٠

كل فئة من العلماء ركزت على ناحية من الموضوع ٠ هناك من ركز خصوصا على العلاقة بين التحضر السريع والانحراف ، وهناك من درس المناطق المكتظة بالسكان المعدمين اقتصاديا في المدن الكبرى ، وهناك من وجه أنظاره نحو دراسة العلاقة بين تكدس السكان في مناطق هامشية (مدن الصفيح) التي تحيط بالمدن الكبرى وبالمراكز الصناعية والتجارية ٠ وما يهمنا من كل ذلك هو الحديث عن تلك الهامشية التي تستقطب المهاجرين الجدد المعدمين مهنيا واقتصاديا والتي أطلق عليها بعض الباحثين اسم مناطق البؤس أو مناطق الانحراف لانها تمثل أبرز أشكال العلاقة بين التوزيع السكاني والانحراف ٠

قبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع ، لا بد من الاشارة الى درجة التعقيد العالية التي يتسم بها٠ فالعلماء يختلفون حول أمور عديدة بشانه ، منهم من يعتبر تلك المناطق مفككة اجتماعيا وبالتالي خلقيا ، ومنهم من يرفض هذا الزعم ، منهم من يقول بأنها المصدر الاساسي للانحراف واخرون لا يعترفون بأنها مسؤولة عن نسبة من الافعال الجانحة تزيد عن نسب بقية مناطق المجتمع٠ ثم أن الدراسات التي عملت في الغرب عن هذا الموضوع تفيدنا من الناحية المنهجية فقط ولا تعكس في نتائجها الواقع المحلي بخصائصه النوعية ، ولذلك يصعب أن نعمم انطلاقا منها ٠

وحتى ندخل بعض التنظيم والوضوح في بحثنا نرى البدء في الاشارة الى أولى الدراسات التي عملت في هذا الميدان ، ثم نقدم وصفا تحليليا اجتماعيا للعوامل المولدة للانحراف في تلك المناطق ، ونأتي بعد ذلك الى الدراسات التي عارضت الاولى ٠ بعد هذا العرض ننتقل الى علاج المشكلة في البيئة المحلية محاولين ان نتبين موقعها من السلوك الجانح ٠

---

(١) عمليات التحضر : Urbanisation

اول من حاول دراسة الانحراف من خلال بحث التوزيـــــع السكاني في مختلف أحياء المدن الكبرى كان كليفورد شو Clifford shaw، العالم الاجتماعي واستاذ علم الاجتماع في جامعة شيكاغو · ولقد قام ببعض الابحاث مع مساعديه حول أكثر المناطق توليدا للانحراف في شيكاغو · اثبت ان ٦٠٪ مـن الجانحين الاحداث في تلك المدينة يأتون من أحياء خاصة تتميز بالانهيار المعنوي والتفكك الخلقي أطلق عليه أسم مناطق الانحراف ·

تزعم هذه النظرية السكانية أن الاحياء مـا تحت الكـــادحة(١) فـي المدن الكبرى وكذلك المناطق الهامشية أجتماعيـا (مدن الصفيح (٢) والعشش) تشكل مركز تصدير الانحراف وسوء التكيـــف الاجتماعي · ويفترض أن سكان هذه الاحياء مفككون اجتماعيا · يتصفون بتاريخ طويل من البؤس المادي والثقافي والمعنوي : المساكن قذرة وغير صحية، مع تكدس سكاني شديد في أماكن ضيقة البطالة والعمل غير المنتظم وغير المتخصص يميز حياتهم المهنية، التدبير المنزلي وتنظيم حياة الاسرة معدومان ، الاطفال مهددون صحيا ودراسيا ، تعيش كثير من الاسر عالة على مساعدة المؤسسات الخيريـــة أو اعانات الدولة ، وأخيرا استكانة هؤلاء تجعلهم لا يفكرون بتغيير مصيرهم ولا يقومون بالجهد اللازم من أجل ذلك · ويفترض أن هذه المناطق هي التي تكون الاحياء المفككة اجتماعيا ، والمتدهورة خلقيا وهي بالتالي بؤر للجريمة والامراض ، والدعارة ، وعصابات الاحداث الجانحين ، وجميع أشكال النشاط غير المشروع ·

ويرجع علماء الاجتماع أسباب ذلك كلـــه الى عدة عوامل فاعلـــة على مستويات ثلاثة وهي : مستوى المجتمع ، مستوى الثقافة ، مستوى الشخصية· ويوضح زابو (٣) هــــذه المستويات في تفاعلها كي تولد مـــا يسمى بالتفكك الاجتماعي والتراخي الاجتماعي اللذين يؤديان مباشرة الى الانحراف ·

ـ مستوى المجتمع :

ان قدوم الريفيين بشكل كثيف الى المدن ادى الى تغيير المؤسسات الموجودة: انهيار القديمة وحلول أخرى جديدة محلها· مثلا الاسرة تفككت في شكلها الريفي

(١) ما تحت الكادحة : Sous-prolétaires

(٢) مدن الصفيح : Bidonvilles

(٣) D. Szabo, Deviance et criminalité, coll, U2, Paris, A. Colin, 1970.

التقليدي مع الهجرة الى المدينة ، كي تظهر بشكل جديد في البيئة الحضرية وتشير نسبة الطلاق والانفصال وترك المنزل الزوجي الى مدى ذلك التفكك · كما ان عمل المرأة خارج المنزل ، وتعليم الاطفال لمدد طويلة ، وانهيار السلطة الابوية والوالدية غيرت المؤسسة العائلية كليا · وهكذا تراخت الروابط الاسرية كثيرا وانكمشت الجماعة الاسرية لتنحصر في الزوجين والاقارب المباشرين· وبالاضافة الى انهيار المؤسسات القديمة ، برزت مع الهجرة الى المدينة مؤسسات جديدة · فبدلا من الجماعات الاولية القائمة على التواصل الشخصي والعلاقات المباشرة، قامت جماعات ثانوية تتركز على التواصل اللاشخصي · وبينما تربط الجماعات الاولية الشخص بروابط وثيقة ببقية اعضاء الجماعة ، تربطه الجماعات الثانوية بعدد اكبر وأعقد من الروابط الواهية وذات الطبيعة الضاغطة اساسا · ولذلك يجد المهاجر نفسه امام جماعات لا ينتمي اليها ويستمد منها السند المعنوي ، بل جماعات يرضخ لها ·

ويضاف الى ذلك التنوع العرقي والاقليمي الكبير جدا لسكان تلك المناطق الذي يتفاعل مع تعقد الجماعات وضغوطها كي يخلق عند الشخص شعورا بالغربة نتيجة لما يحدثه من تفتت اجتماعي وثقافي ومكننة للحياة وفردية مفرطة· ويقابل هذا كله ويتعارض معه توحيد وتنميط (١) وسائل الاعلام بما تفرضه من قيم ومثل جديدة في الوجاهة والمكانة وانماط الوجود وطرق الوصول ·

ـ مستوى الثقافة (٢) :

الثقافة هي مجموع التقنيات والعلاقات والمعايير والاهداف والعقائد التي تسود جماعة ما · فهي اذا عنصر تنظيم وتوجيه حياة أفراد هذه الجماعة · وفي الهجرة من الريف الى المدينة تتأثر الثقافة كثيرا لما تتضمنه تلك من تحولات في الحاجات والعلاقات والمثل العليا والادوات ·

الا أن المشكلة ليست في التغيير بحد ذاته وانما في تفاوت وتيرته من حيث السرعة والعمق · هذا التفاوت يخلق اختلالا في تماسك الجماعة لانه يفقدها وحدة الخط الموجه لحياتها · كما أن الجماعة التي تتغير ثقافتها تمر عادة بمرحلة من اللاانبناء الثقافي (٣) · وتفاعل ذينك الامرين مع التنوع السكاني

---

(١) تنميط : Stéreotypisation

(٢) الثقافة : Culture

(٣) اللاانبناء الثقافي : Astructuration culturelle

الكبير يجعل الثقافة تفقد الكثير من حيويتها وجانبيتها وتصبح بالتالي غامضة وضعيفة التأثير • وينشأ عن هذه الوضعية الكثير من حالات الصراع الثقافي بين القديم والجديد والواحد والمتعدد مما يفقد الفرد أطر التوجه السلوكي ومعاييره ويوقعه في حالة من التخبط تؤدي به الى سوء التكيف والانحراف •

ـ مستوى الشخصية :

يؤثر التمايز الاجتماعي وتنوع وتعدد الثقافات على بنية الشخصية وتوازنها اذ انها تتدامج في ثقافة وتتلقى تاثيرات عديدات غيرها•ثم ان التغيير الاجتماعي السريع يجعل الشخص مضطرا لاعادة النظر دوما بسلم قيمه ومعاييره السلوكية • هذان الامران يولدان صراعات ذاتية ويؤديان الى نشوء شخصيات هامشية لا هي قادرة على الاستمرار في التمسك بالقديم ولا هي مستعدة لتمثل الجديد ، مما يؤدي بها الى صعوبة تحديد ادوارها وادوار الاخرين •

هذا المحيط الحضري الهامشي يؤدي من خلال تفاعل مستوياته الثلاثة الى ظاهرة التراخي الاجتماعي (فقدان المعايير الموجهة للسلوك)، وهو بالتالي يخلق وضعية تدفع الى سوء التكيف • اذ كلما زاد التراخي الاجتماعي اصبحت شروط تكيف الافراد اكثر ركاكة •

موجز القول ان اصحاب المنطلق السكاني يقولون بالتفكك الاجتماعي لهذه الاحياء الهامشية • ينتج عن هذا التفكك تشويش في المعايير وتراخ في القواعد الموجهة للسلوك • يؤدي هذا التراخي الى ازدياد حجم النشاط غير المتكيف على اختلاف انواعه ومنه الانحراف •

لقي هذا النموذج التفسيري الكثير من المعارضة من قبل العديد من علماء الاجتماع • تتلخص هذه المعارضة في رفض امرين اثنين : الاول هو الزعم بأن هذه الاحياء مفككة اجتماعيا والثاني هو الزعم بأن نسبة السلوك الجانح في هذه الاحياء اعلى منها في بقية مناطق المدينة •

اثبتت ابحاث لاينز على مدن الصفيح في فرنسا انها على عكس الزعم الشائع تتمتع بكل خصائص المحيط الاجتماعي المتماسك • وانها من بعض النواحي اكثر تماسكا من بقية الاحياء • فهناك نظام ثابت وفعال من تبادل الخدمات والسلع • التواصل وثيق جدا بين السكان•هناك انتماء الى المجموعة يحس به كل عضو منها ويجد فيه دعما معنويا وماديا عند الحاجة • روابط

القربى ونظام الاسر الكبيرة تدعم أكثر فأكثر الروابط الانسانية · كل ذلك يجعل أكثر العناصر ركاكة من ناحية القدرة على المجابهة تحتفظ بتوازن حياتي مقبول· وباختصار ، فان هذه الجماعات بعيدة عن أن تكون مفككة ، بل هي تكون عوالم مغلقة لها روابط خاصة بالمجتمع الكلي تتميز بالتذبذب ما بين الحذر والخوف والعداء والدونية وطلب العون ·

ومن جهة ثانية اثبت بعض علماء النفس الاجتماعي أن نسبة الانحراف في هذه المناطق ليست أعلى منها في المناطق الاخرى · وجدت مدام شومبـــار دي لو (١) في دراسة لها عن الطفولة غير المتكيفة أن نسبة الاضطرابـات السلوكية والانتحـار تتساوى في هذه الاحيـاء مع الاحيـاء الاخرى ، بينما ترتفع نسبة الانحراف في الاحياء السكنية الشعبية الجديدة عنها في مدن الصفيح ·

أما سلوسSelosse فلقد وجد في دراسة له على الاحياء البائسة والمعدمة اقتصديا في مدينة نانسي بفرنسا ان العوز المـادي ليس كافيـا بمفرده لتفسير انحراف الاحداث في تلك المناطق · هناك متغيرات خمسة تميز عائلات الاحداث الجانحين بالمقارنة بعائلات غيرهم من الاحداث في نفس الحي وهي : غياب الاب، سوء تفاهم الوالدين ، البطالة وعدم الاستقرار المهنـــي ، الادمان الكحولي في الاسرة ، الماضي الجانح لاحد الوالدين (٢) ·

على ضوء هذه الاعتراضات يمكننا ان نعيد النظر في نتائج ابحاث العلماء الذين سبقوهم في هذا الميدان والذين قالوا بارتفاع نسبة النشاط الجانح في هذه المناطق · ان البحث المتعمق في الظاهرة يبين ان هناك عدة اسباب حدت بالعلماء الى الاخذ بهذا الاعتقاد · منها تركيز اهتمام الشرطة على هذه الاحياء · وهذا التركيز يشدد من مراقبتها لها · وذلك التشديد يؤدي الى اكتشاف نسبة أكبر من الانحرافات عن تلك التي تكتشف في مناطق أخرى · كمـــا ان اكتشاف هذه الحالات يتبعه عادة ملاحقة قضائية مما يضخم الاحصائيات الخاصة بتلك المنطقة، بينما ان موقف الشرطة لا يتصف بهذه الدرجة من تركيز الاهتمام على الاحياء ذات المستوى الاقتصادي المرتفع مما يؤدي الى انخفاض حجم الاحصائيات ·

يضاف الى ذلك ان هناك تحيزاً من قبل العلماء أيضا · فاول مكان يفكر

---

(١) T.M.J. Chombart de Lauwe, Psychopathologie sociale de l'enfant inadapté, C.N.R.S. Paris, 1959.

(٢) Selosse, Familles dites asociales et délinquance Juvénile, in familles inadaptées et relations humaines, Paris, 1961.

فيه هؤلاء عند محاولتهم بحث مشكلة الانحراف هو تلك الاحياء · ونتيجة لتركيز الاهتمام عليها فانهم يكتشفون نسبة اكبر من حالات الانحراف ·

ثم انه اذا كانت نسبة الجنح من حيث العدد اكبر من هذه الاحياء فانه من المشكوك فيه ان يكون الضرر اللاحق بالمجتمع منها معادلا لذلك الذي ينتج عن النشاط غير المشروع في المجتمع الكلي · فمعظم جنح الاطفال في هذه الاحياء وكذلك جنح الراشدين تدخل في عداد ما يسمى بجنح البؤس(١) (تصرفات ذات طبيعة انتفاعية تهدف الى سد حاجة راهنة) ذات الضرر المحدود جدا على العكس الاضرار التي تسببها النشاطات غير المشروعة (في اوساط رجال المال والاعمال) ، اذ ينال الاذى في هذه الحالة قطاعا لا بأس به من المواطنين بشكل غير مباشر ·

ولكن الخوض اساسا في المشكلة من زاوية تقويم ما على هذه الاحياء وما لها بالمقارنة مع بقية مناطق المدينة لا يقودنا الى الحل الصحيح ، بل قد يؤدي الى نوع من التعمية · المشكلة الفعلية ليست في ان هذه الاحياء مولدة للمرض وسوء التكيف أم لا ، ذلك أمر لا شك فيه ، بل في انها هي المرض ، وبكلمة أدق وجودها ما هو الا نتاج للخلل الذي تعاني منه بنية المجتمع · انها احد مظاهر الاضطرابات التي تعاني منها المجتمعات · انها دليل قصور في عدالة توزيع الحظوظ والخدمات ·

ـ مشكلة الاحياء الهامشية في البيئة المحلية :

للاحياء الهامشية محليا خصائص تشترك في بعضها مع مدن الصفيح في الغرب وتختلف عنها في أمور عدة ·

تشكل هذه الاحياء حزاما من مدن الصفيح حول اجزاء من العاصمة · وتتميز بقصور الخدمات العامة فيها اجمالا : الانارة ، الماء ، المدارس ، الطرقات · وتتكون المساكن من هياكل خشبية تكسوها صفائح من الزنك مع القش · وهي نتيجة لضيقها (غرفة واحدة لا تتعدى بضعة امتار مربعة لاسرة عديدة) لا تشكل مسكنا ملائما وتجعل من العسير على الاولاد البقاء فيها · ولذلك فليس امامهم سوى الشارع · كما ان المشكلة تزداد حدة في فترات الحر

---

(١) جنح البؤس : Delits de misère

الشديد حيث تصبح الاقامة غير محتملة وتدفع بالجميع الىالخروج الى الشارع المجاور للحي ، وباختصار هناك غياب كلي للشروط السكنية التي تؤمن حياة عائلية تتمتع بدرجة مقبولة من التماسك والتفاعل ، خصوصا بالنسبة للاطفال. وتقل الفرصة امام هؤلاء نتيجة لغياب الام والاب عن البيت من اجـــل السعي وراء الرزق . ويؤدي الامر بالاطفال الصغار ، نتيجـة لعدم توفر المدارس من ناحية وغياب الاهل من ناحية ثانيـــة ، الى التشرد في الحي او في الاحياء المجاورة من المدينة ، اذ انهم لا زالوا في سن لا تمكنهم من الدخول في معترك العمل والكسب . وهكذا يتجمع الاطفال وينطلقون في مغامراتهم التي تتفـاوت ما بين اللهو وتصرفات البحث عن كسب مشروع او غيـر مشروع . في بعض الاحياء مثلا يتوجه هؤلاء نحو مراكز تجميع القمامة ويبحثون فيها عما يمكن استهلاكه او استخدامه (زجاجات فارغة او غيرهـــا) او هم يقومون ببعض الاعمال التي تقترب من التسول (مسح زجـــاج السيارات ، بيع العلكة) مما يجرهم في وضعية او اخرى الى السلوك الجانح . يظـــل هذا السلوك عابرا متقطعا حتى تقدم الطفل في السن الى الحـد الذي يساعده على القيام بأعمال تسمح بالكسب (الاستخدام خصوصا ، او المهن غير المتخصصة) للمساعدة في اعالة الاسرة . وفي بعض الحــــالات ينجرف الطفل كليا في عالم الانحراف ويتدرج فيه حتى الوصول الى درجة الاحتراف التقليدي . يحدث الانحراف اذا نتيجة لفقدان الرعاية الملائمة للاطفال اسريا واجتماعيا .

أما الاسرة فهي لا تهمل الاطفال تلقائيـــا ، الا في حالات تفككها . وهي تضطر الى ذلك نتيجة للضغوط المعيشية التي تشكل كابوسا وجوديـا فعليـا . العمل المشروع غير متوفر دائما وعندما يتوفر لا يدر كسبا كافيا . كما انه يتم في ظروف غير ملائمة من حيث مقدار الجهد والتعب والظـروف الصحية التي تحيط به (اجور زهيدة لعمـل مضنٍ يكـاد يقترب من ضعف ساعـات العمـل العادي يتم في امكنة لا تتوفر فيهـــا الشروط الصحية) . تأمين الاحتياجات الضرورية تشكل الهاجس الرئيسي للوالدين. ولذلك فان الام ترى بعض ابناءها ينجرفون نحو الانحراف بشكل قدري وشعور بالعجز عن اصلاح الامر . كما ان بعض التصرفات الشبيهة بالجانحة او الجانحة اصبحت أمورا متعارفا عليهـا في الحي بالنسبة لصغار السن . نحن هنا امـــام حالة انسحاق وجودي تجاه تحديات الحياة .. والرغبة عامة عند الجميع في الخلاص من الحي والانتقال الى مجال حيوي اكثر ملاءمة .

على ان أمر الانحراف لا يقتصر على الاطفال والاحداث ، بـل نجد نسبة

من السكان تنجرف في النشاط غير المشروع(خصوصا تهريب وترويج المخدرات على اختلاف انواعها وكذلك التبغ) يحدث ذلك في الاسر التي انهارت كليا امام الضغوط الحياتية التي تفرضها الاقامة في تلك الاحياء • ويؤدي هذا الانهيار الذي يصيب اكثر الاسر ركاكة الى تفككها ويجر التفكك الكلي او الجزئي معه الانجراف في تعاطي المخدرات والدعارة واللواط والسلوك الجانح •

على ان هذه الصورة التي قد تبدو قاتمة تجعل المرء يعتقد ان هذه الوحدات السكانية تعاني من التفكك الاجتماعي ومن الانهيار الخلقي ، كما اوضحته لنا دراسة زابو • ولكن بحث اوضاعها ميدانيا لا يؤيد وجهة النظر هذه • فالبنية الاجتماعية الداخلية متماسكة الى حد كبير وذلك لان التجمع السكاني يتم في وحدات تقوم على اساس الانتماء الريفي او الاناسي(١) (فيتجمع المهاجرون من كل قرية معا ، وكذلك يتجمع ابناء كل طائفة او جنسية معا) او العشائري • هذا التجمع في وحدات متماسكة يحافظ على شروط الانتماء الانساني ويخلق نظاما من التعاون والتساند المادي والمعنوي(في حالات المرض ، او العوز ، او الغياب ، هناك دائما قريب يمكنه الاهتمام بشؤون الاسرة نيابة عن الوالدة الغائبة او عن الوالد المريض) • كما ان هذه الوحدات البشرية تحتفظ بعلاقات جيدة بقرية المنشأ وتعود اليها في بعض المواسم (مواسم الصيف او جني المحاصيل مثلا) • فهي اذا لم تفقد الانتماءات القديمة التي تشكل الدعامة الاساسية في الحفاظ على توازنها ازاء الضغوط المادية والتحديات المعنوية الشديدة التي تفرضها الحياة في تلك المناطق الهامشية • كما انها تحتمي في هذه الانتماءات من طغيان المعايير والاهداف والنماذج الحياتية التي تفرضها المدينة بشكل يجعلها لا تفقد القدرة على المقاومة كليا ولا تشعر بالغربة مباشرة• ولكن الصراع الثقافي اكثر بروزا عند الجيل الجديد فهو يتأثر مباشرة باغراءات المدينة ونماذج الوجاهة فيها • كما انه يتعرض بدرجة اشد لفرص الانحراف والسلوك غير المشروع التي تقدمها المدينة من اجل الوصول الى شكل ولو رمزي من اشكال الوجاهة الاستهلاكية • وازاء هذا الانحراف تظل الاسر عاجزة كما اسلفنا وترضخ للامر كقدر محتوم او مأساة انسانية بانتظار الامل في الحل عن طريق توفر الظروف التي تسمح بمغادرة مدينة الصفيح والارتقاء الاجتماعي الى مستوى حياتي افضل •

---

(١) الاناس ، اناسي : Ethnie, ethnique

تقويـــم :

لقد ثار جدل منهجي حول موضوع الاحيـاء الهامشية في علاقتها بسوء التكيف الاجتماعي • وتوزعت الاراء بين اصحاب المنطلق الفـــردي واصحاب المنطلق الاجتماعي • فالاولون قالوا بأن تلك الاحياء تعـاني من مختلف اشكال الاضطراب لانها تستقطب اساسا العناصر غير المتكيفـــة ، التي لم تستطع ان تنغرس اجتماعيا ومهنيا او التي تعاني من اضطرابات شخصية تجعل هـــــذا الانغراس غير ممكن • ولانها لم تجد لها مكانا في المجتمع العادي تتوجه تلقائيا الى محيط غير متكيف يشجع على ظهـــور الاضطراب الشخصي والسلوكي • وموجز رأي اصحاب هذا المنطلق هو ان الشخص ينتمي الى تلك الاحياء لانــه مريض • أما الرأي المعاكس فينطلق من القول بأن السكان ينجرفون في السلوك غير المتكيف نتيجة اقامتهم في تلك الاحياء • وان مصدر العلة هو الحي وليس الفرد • ان العيش في حي هامشي لا يقتصر على مجـــرد السكن وانما يفرض نوعا من الوجود على السكان ويضعهم امـــام ضغوط هائلة لن يجدوا لانفسهم مخرجا منها سوى في الانحراف او المرض على اختلاف اشكاله • يدلل اصحاب الرأي الاول على صحة نظرتهم في ان العناصر الركيكة فقط هي التي تنهار من جراء الاقامة في تلك الاحياء اما تلك التي تتمتـــــع بقدر كاف من المتانة فانها تكافح حتى تخلق الظروف الملائمة التي تساعدها على الافلات من هذه الوضعية، وحتى لو ظلت هناك فهي تبذل قصارى جهدهـــا كي تحتفظ بتوازنها • ويجيب اصحاب الرأي الثاني على هؤلاء بأن قلة قليلة من أي مجموعة سكانية تستطيع تحمل ضغوط حياتية تتجاوز حدودا معينة من الشدة • أما الغالبية فانها تنهار تحت وطأة تلك الضغوط بعد فترة تطول او تقصر من المقاومة • حتى ولو تمكنت من الصمود بأن المتطلبات الحياتية تمنعها من تقديم الرعاية الكافيـة للابناء • ولذلك فاذا افلت الجيل الاول من الانحراف فلن يفلت الجيل الذي يليه • ثم انه مهما بلغت مناعة الشخص فانها لا تظل فاعلة الا ضمن شروط حيوية معينة اما اذا تجاوز المأزق الحياتي هذه الشروط فانه سيولد ولا شك الاضطراب • وأخيرا ليس من الضروري ان يتخذ الاضطراب شكل الانحـــــراف السلوكي بل هو قد يتحول الى اشكال اخرى عديدة (الادمان ، الاستكانة والرضوخ ، الانتحار ، الخور (١) ، او الامراض النفسجسمية (٢)) • وبذلـــك نرى ان مجرد غياب

---

(١) الخور : Dépression

(٢) الامراض النفسجسمية : Maladies psychosomatiques .

الانحراف ليس دليلا على الصحة النفسية وعلى التكيف الاجتماعي ٠

يمكن لمناقشة من هذا النوع أن تستمر طويـــلا حتى تتخذ طابع الحلقة المفرغة ٠ كل فريق لن يعدم الحجـــــج التي تدّعم وجهة نظره ٠ ولكن الامر لا يمكن ان يحل بالانضمام الى هذا الرأي او ذاك ، او حتى باعطاء بعض الحـق لكل منهما ، تلك نظرة جزئية تفتت الواقـــــع الانساني ٠ وهي في النهاية نتاج الوقوع في خطأ استخدام المنهج الميكانيكي ذي الاتجاه الواحد الجامد : سبب ونتيجة ، بداية ونهاية ٠

الواقع ان المشكلة لا تكمـــن في معرفة ما اذا كانت هـــذه الاحياء تو"لد الانحراف ، ام انها مجرد بؤر تستقطبه ٠ انها تتجاوز هذا وذاك من المنطلقات فلا هي تو"لد المرض ولا هـــي مجرد بؤر تستقطبه ٠ انهـــا بحد ذاتها مرض اجتماعي ٠ انها اعراض الخلل الذي تشكو من بنية مجتمع ما وتعبير عنه ٠ فلو لم تكن هذه البنية تعاني من بعض الخلل لما نشأت هـذه الاحياء ٠ كما انه لولا ذلك الخلل لما ظهر في المجتمع عناصر بشرية ركيكة (علميا ، ومهنيا ، وصحيا ونفسيا) ٠ فالاضطراب الفردي ما هو الا تعبير عن خلل في الجماعة والخلل في هذه الاخيرة ما هو الا نتاج مظـــاهر سوء الاداء الوظيفي في المجتمع ٠ تتلاقى المستويات جميعا على اختلاف اتساعها وتتفاعل فيما بينها لينتج عن ذلك سوء التكيف عموما ومن اشكاله الانحـــراف ٠ وهذا التفاعل يدعم عناصر الاضطراب ويعزز قواه ٠ فالفرد الركيك يساهم في خلق محيط مضطرب ، وهذا المحيط يفجر الاضطراب الفردي وهكذا ٠

وفي رأينا ان هذه النظرة التكاملية الجدليــة لا تساعدنا فقط على تجاوز التناقضات التي لا تنتهي والتي توقعنا فيها المنطلقات الوحيدة الجانب وانما هي قبل ذلك وأهم منه ، تعكس الواقع بشكل أشمل وتحيط بكل تعقيداته ٠ ولذلك فانها تشكل المنطلق المنهجي الذي يوجه بحثنا هذا بصرف النظر عن المستوى الذي نعالج الظاهرة الجانحة من خلاله : فرديا أم جماعيا أم اجتماعيا ٠ فالظاهرة الانسانية تتميز بالوحدة والتنوع في آن معـــا ٠ وحدة القوى المحركة وتنوع المستويات، والخطأ الذي يقع فيه الكثير من الدراسات التقليدية هو اعتبار تنوع المستويات وتعددها تعارضا جامدا بينها وليس تناقضا جدليايضمهـــا معـــا ويجعل كل منها متممة للاخرى ومؤكدة لها في آن معا ٠

الفصل الثالث

المنهج الجدلي في دراسة السلوك الجانح

رأينا في الفصلين السابقين نماذج من الابحـــاث النفسية والاجتماعية المعاصرة لتفسير السلوك الجانح · وكنا في كل مرة نبين مميزات كل منهـــا ونوضح مساهمتها في فهم الظاهرة · الا اننا كنا دائما نجد انفسنا امام ثغرات فيها تجعل النموذج التفسيري الذي تطرحـــه قاصرا عن الشمول والاحاطة فبعضها كان مفرطا في نوعيته مما يجعلـــه صالحا لفئة واحدة من السلوك الجانح · وبعضها الاخر كان على العكس مفرطا في عموميته لدرجة تجعل من الصعب انطباقه على الحالات الخاصة · كما ان معظمها ظلت وحيدة الجانب في منطلقها ، فالدراسات الاجتماعية تناست الفرد واهتمت بالانحراف كظاهرة اجتماعية · أما الدراسات النفسية وخصوصا التحليليـــة منها ، فلقد حصرت نفسها في المستوى اللاواعي من الشخصية رادة مسألة الانحراف الى خلل مـــا يعتوره · في الحالتين ثمة افراط في حصر الظاهرة في أحد اوجهها · وتبـــرز المشكلة بشكل حاد عندما تحاول الانتقالمن مستوى الى آخر ، اي عند محاولة فهم سلوك حدث جانح من خلال النظرية الاجتماعية ، أو فهم ظاهرة الانحراف في محيط اجتماعي من خلال النظرة الشخصية المحضة ، مما يؤدي الى الوقوع في التناقض وحيرة الاختيار· هل نختار المنطلق النفساني الذي يهتم بالشخصية فقط ، أم المنطلق الاجتماعي الذي يتجاهلها ؟ يبدو هذا التناقض للبعض كتعارض قاطع ما بين الفردي والاجتماعي ما بين النوعي والعام ·

استمرت هذه الثنائية مسيطرة زمنـــا طويلا على الكثير من الابحاث في

العلوم الانسانية وادت الى نشوء علم اجتماع صرف وعلم نفس صرف · وكان بعض من يحاولون الوصول الى نـــوع من الشمول في النظرة يضطرون الى الاعتراف بكلا المستويين مع ابقائهما منفصلين،للسلوك الجانح اسباب اجتماعية واسباب ذاتية ولكن الصلة تظل مفقودة بين سلسلتي الاسباب ، مما يؤدي الي تراكم التفسيرات مع افتقار الصلة بينها · كما ادى الامر بالبعض الاخر الـى تبني التفسير الاجتماعي ثم الحق به تفسيرا نفسيا كعنصر ثانوي ، او العكس · كانت تضيع في ذلك كله وحدة الوجود الانساني التي لا تقبل الاختزال الى احد ابعادها او مستوياتها ، كما لا تقبل التجميد في احـــدى حالاتها · فالوجود الانساني كلي رغم تعدد وتنوع مستوياته وهو في صيرورة وتجاوز دائم لحالته رغم تعدد حالاته ونوعية كل منها ·

نتجت الاشكالات السابقة كلها من الاخطـــاء التي لازمت تطبيـق المنهج الميكانيكي في العلوم الانسانية · وهذا المنهج ينطلق من السببية الطولية التي تذهب في اتجاه واحد : سبب معين يؤدي الى نتيجـــة معينة ، التأثير ياتي من السبب ويؤدي الى النتيجة · اما الحركة في اتجاه معاكس (تأثير النتيجة على السبب) فغير معقولة ، وكذلك التفاعل المتبادل بينهما (التأثير المتبادل) · ثم هو ينطلق من السببية المبسطة : سبب واحـــد او اكثر يؤدي الى نتيجة ما · وتقوم بينهما علاقة مغلقة لا رابطة لها مع بقية الاسباب وبقية النتائج في حقل الدراسة · وتؤدي السببية المبسطة الى ظاهرة العزل ، عزل وحدات صغيرة في الظاهرة واستخلاص العلاقة السببية داخلها · ويتم ذلك بالطبع على حساب وحدة وكلية الظاهرة · أبرز مثل على ذلك نظرية العوامل السائدة في تفسير ظاهرة الانحراف ·

ثم ان المنهج الميكانيكي يجمد الظاهرة حين يدرسها خلال قطاع محدد من الديمومة ، أي في احدى حالاتها فقط ويحاول ان يعطي تفسيرا يعممعلى وجودها كله بانيا توقعات مستقبلية انطلاقا من ذلك ، كتفسير سلوك احد الاحداث المنحرفين بعوامل مختلفة ذاتية وخارجية وتكويـــن صورة جامدة عنه تسجن وجوده في اطارها · ثم الاعتقاد بأن هذا الحدث سيتصرف دائمـا بنفس الاسلوب ونفس الاتجاه ، *والوقوف منه بالتالي انطلاقا من ذلك التوقع* · *المشكلة هنا* في عـدم التمييز بين الكلية الجامدة والكلية الدينامية · فالكليـــة الجامدة (الصورة الجامدة التي كونها الباحث عن الجانح وتوقـــع سلوكه في المستقبل انطلاقا منها) معطاة مرة واحدة وبشكل نهائي توقـــف الوجود الانساني عند احدى

لحظاته فقط • اما الكلية الدينامية فترى الوجود في حركـة دائمة وتوجه نحو تعريف وتحقيق تدريجي للذات يتجاوز نفسه في حالة من الصيرورة التي تستمر ما استمرت الحياة ، ولا يمكن لاي تحديد مهما كان نوعه ان يجمدها • ان مـا يحدد سلوك الجانح في الحالة السابقة ليس فقط الاسباب التي اعطيت لتفسيره بل ايضا الصورة الجامدة التي سجن ضمنها والتي تعززت بموقفنا منه • فهذه الصورة وذلك الموقف قد فرضا عليه موقعا معينا ودورا محددا ليس من السهل الافلات منهما • سلوكه ليس سوى رد فعل لتلك الوضعية الجديدة التي فرضت عليه صيرورة جانحة او على الاقل رسخت توجها اوليـا نحو الانحراف •

على ان العلوم الانسانية بدأت تتجاوز حاليـا المنهج الميكانيكي ، كما تجاوزته قبلها العلوم المضبوطة ، واخذ المنهج الجدلي يحل تدريجيا محله • ولقد طبق على مختلف فروع العلوم الانسانية وأدى الى تجاوز كل الثغرات السابقة • ونتج عن ذلك ابحاث تتميز بالشمول والدينامية • ولقـد كان لدراسة السلوك الجانح والاضطرابات الشخصية على اختلاف مظاهرها نصيب من تطبيق هذا المنهج عليها مؤخرا مما اعطى نتائج باهرة احدثت ما يشبه الثورة في طريقـة دراستها وفهمها • قبل استعراض هذه النتائج بشيء من التفصيل ، يحسن بنا ان نتوقف لحظة لتوضيح الملامح الاساسية لذلك المنهج •

أولا – الملامح الاساسية للمنهج الجدلي :

ينطلق المنهج الجدلي من نظرة علائقية ، دينامية ، تفاعلية للظواهر المعتبرة في حالة صيرورة تاريخية • فبدل العزلة هناك علاقـة ، وبدل الجمود حركة ، وبدل التاثير ذي الاتجاه الواحد تفاعل بين الاسباب والنتائج ، وبدل التعارض القاطع بين مستويات الظاهرة تكامل • ولتوضيح كل ذلك يمكننا الانطلاق مـن العلاقة • فالنظريات القديمة كانت تعتبر الانسان كوحدة منعزلة مغلقة على ذاتها قد تقوم بينها وبين الخارج علاقات أم لا • هذه الوحدة قائمة بذاتهـا وسباقـة لكل علاقة • أما المنهج الجدلي فيذهب الى أن الشيء في ذاته (وحدة مغلقـة قائمة بذاتها) هو تجريد فارغ ، لا حياة فيه • كل شيء هـو لذاته وايضا لآخرين ، هو في علاقة مع شيء آخر • والانسان ليس وحدة منعزلة بل هو قبل ذلك جملة العلاقات الاساسية التي يقيمهـا مـع الآخرين او التي ينغرس فيهـا تاريخيا ، هو جملة الدلالات والقيم والادوار التي يأخذها في هذه العلاقات • ولذلك فلكي نفهم سلوكا ما علينا ان ندرس مجموع العلاقـات التاريخية التي ينغرس فيها الشخص صاحب ذلك السلوك • وهناك انواع متعددة منها (تعاون،

تآزر ، تعاطف ، ود ، صراع ، سيطرة ، خضوع ، اتكال الخ ٠٠٠) كل منهـا تؤدي الى تصرفات من نوع معين· ولكن هذه العلاقة لا تحدد السلوك بمفردها·

فبالاضافة الى نوعهـا هنالك ضرورة لدراسة حالة كـل من طرفيها وخصائصه · بذلك نفهم نوع التفاعل والتأثير المتبادل بينهما · ونقصد بدراسة كل من طرفي العلاقة فهم المركز الخاص الذي يحتله كل منهما والشكل المحدد ، الذي يعتمد به على الاخر · فكل طرف في علاقة يتطلب وجـود الطرف الاخر المتناقض معه كشرط مسبق لوجوده · وهذان الطرفان تجمعهما رغم تعارضهما وحدة العلاقة · كما ان علينا ان ندرس الوسائل التي يجابه بها كل طرف نقيضه عندما يكون معتمدا عليه لبقائه · مثلا ، السلوك العدواني لا يمكن فهمه الا في علاقة تضم طرفين تقوم بينهما حالة عداء · العدواني يحتاج الى ضحية يصب عليها عدوانه · والضحية ليست كذلك الا بالنسبة للعدواني · ورغم تعارضهما فان علاقة العـداء تجمعهما · وكذلك حـال الحقد ، لا يتم الا في علاقـة مع اخـر ينصب عليه الحقـد ويقف منـه موقفا محـددا وبدونه يصبـح غير ممكن · الحاقد وموضوع الحقد تجمعهما وحدة العلاقة رغم تعارضهما ، كل منهما يتمم الآخر · ويمكن تعميم هذا النموذك على جميع اشكال العلاقات · ولكن علينا دائما ان لا ننسى دراسة كـل من الطرفين وموقفه من الآخر وان لا نقتصر على دراسة احدهما فقط ، كما كان يفعل المنهـج الميكانيكي · فالحقد والعدوان وكذلك الود المنطلق من الطرف الاول يصل الى الثاني · وهذا الاخير يستجيب له وهذه الاستجابة تنعكس على الاول وتعـدل من الشحنة العاطفية فتزيدها او تنقصها وتعود بذلك فتنعكس على الثاني ويستجيب لها من جديد مما يؤدي الى تغييرها نحو الزيادة او النقصان في حركة تاريخية دائمة · فالعلاقة السببية ليست طولية بل تفاعلية تصاعدية تذهـب من الاول الى الثاني ومن الثاني الى الاول · ويكون كل من طرفي العلاقة فاعلا ومنفعلا ، سببا ونتيجة في آن معا · على ان المسؤولية في كل علاقة لا تكون متساوية بين الطرفين دائما ، بل هنـاك تفاوت في مقدار مساهمة كل منهما · هنـاك طرف أساسي وطرف ثانوي · طرف يصدر عنه العدوان اساسا وطرف يتفاعل معه· ومن المهم دراسة مسؤولية او مساهمة كل من الطرفين حتى نفهم العلاقة جيدا ·ولكن هذا التقسيم لا يظل ثابتا على الدوام ، بل قد يحدث تحول في الادوار من طرف لاخر · فمن كان يلعب الدور الرئيسي في لحظة ما قد يلعب دورا ثانويا في لحظة تالية حالا بذلك محل الآخر الذي يحتل عندها الدور الرئيسي · ان مجرد تغليب طرف على آخر في سببية العلاقة بشكل دائم وجامد هو وقـوع في السببية الميكانيكية · وهكذا قد يقع الحدث ضحية حكم سيء من قبـل الاهل عليه ، (الاهل في هذه

الحالة يشكلون الطرف الرئيسي في السببية ويشكل الحدث الطرف الثانوي) ثم هو يتصرف بشكل جانح يجسد الحكم السيء الذي وقع ضحية له اصلا٠ ويؤدي تصرفه الى ترسيخ رأي الاهل فيه (هنا يصبح الحدث الطرف الرئيسي في العلاقة والاهل الطرف الثانوي) وتعود الدورة من جديد ٠ ولكنها لا تتكرر على نفس المستوى من الشدة والمدى والدلالة بل تنتقل الى مرحلة اعلى من التوتر مما يجعل العلاقة بينهما تتدهور الى مستوى اخطر ٠ وهكذا نرى ان التفاعل غير ثابت في مستواه بل هو تاريخي ومتطور ٠ تلك هي احدى مقومات المنهج الجدلي ، فالاشياء لا تظل على ما هي عليه كما يعتقد اصحاب المنهج الميكانيكي بل هي تتغير ، تتحول نحو الزيادة او النقصان وعندما يزداد ذلك عن حد معين يؤدي الى تحول نوعي ٠ ترسيخ حلقة الحكم السيء والاستجابة له بالسلوك الجانح يؤدي في النهاية ، الى انهيار كل علاقات الود مع الاسرة وتحولها الى علاقات عداء ٠ كما تؤدي في مرحلة اعلى من الخطورة الى تحول الحدث كلي من الوجود المتكيف مع بعض الصعوبات الى الوجود الجانح الاكيد ٠

وكما ان الفرد ليس كائنا منغلقا على ذاته بل هو دائما طرف في علاقة تفاعلية تحدده، كذلك فان العلاقة بدورها في صيرورتها ليست منغلقة على ذاتها او منفصلة عن الاطار الاجتماعي الذي تقوم فيه بل هي مرتبطة بكل ما عداها من العلاقات ٠ فعلاقات كل ظاهرة ليست فقط متعددة بل هي كلية ، كل ظاهرة مرتبطة بما عداها من الظواهر تتأثر بها وتؤثر فيها في آن معا ٠ وكل علاقة فرعية تتحدد خصائصها بالاضافة الى موقع كل من طرفيها ودوره فيها ، بموقعها من شبكة العلاقات الكلية ٠ ولقد ساعدنا المنهج الجدلي مساعدة كبرى في نظرته الكلية هذه على حل تناقض زائف وقعت العلوم الانسانية ضحية له فترة طويلة من الزمن ، وهو التناقض ما بين العام والخاص ، بين الذاتي والموضوعي ، بين الكلي والجزئي الذي اتخذ شكل تعارض اساسي بين علم النفس الفردي وعلم الاجتماع ٠ في الحقيقة ليس هناك تعارض وانما تفاعل بين المستويات ٠ فالعام ليس موجودا الا في الخاص ، والخاص لا يستقيم الا في العام ٠ الخاص هو التجسيد الحي للعام ، والعام هو الذي يعطي الخاص نوعيته وتفرده ٠ ولذلك فالوجود سواء على المستوى العام او الخاص ما هو الا نسبة علاقة ٠ هناك تعارض ولكن من خلال الاتصال والوحدة ٠ هناك حدود وتخوم ، ولكنها مناطق فصل وربط في آن معا ، فصل وانتقال ، هوية وغيرية فالخاص يتحدد بالعام ولكن حدّه يذهب الى ما وراء ذلك الحد اي انه يتضمن وجود العام والعكس صحيح ٠

وكما ان هناك وحدة تناقض بين طرفي العلاقة كذلك هناك وحدة تناقض بين العام والخاص ٠ والمسألة في نهاية الامر ليست اذا في ايهما اسبق واصح بل في النظر اليهما كوحدة متفاعلة تاريخيا تتبادل التاثير والتحديد ٠ والوجود الانساني على ذلك لا يتلخص في هذا الجانب او ذاك بل له مستويات متفاوتة في مداها من اقصى الخصوصية الى اقصى العمومية ٠ وكل من هذه المستويات متفاعل مع الاخرى بشكل جدلي وهو يساهم في تحديـد السلوك من خلال هذا التفاعل ٠ وهكذا فالسلوك يتحدد في نفس الوقــت بالمستوى الذاتي اللاواعي (الخبرات والعقد والصراعات والرغبات والمخاوف المكبوتة) وبالمستوى الذاتي الواعي (رغبات وآمال ومثـــل عليا ومخططات الخ ٠٠) وبالمستوى العلائقي ضمن الجماعات الصغيرة (جماعة الاسرة ، جماعة الرفاق ، جماعة العمل الخ ٠٠ والادوار والمكانات في تلك الجماعـــات) وبالمستوى الاجتماعي العام (الطبقة الاجتماعية الاقتصادية ، المستوى الثقافي المهني ، الانتماء الجغرافي، الانتماء الحضاري الخ ٠٠٠) ولنفس السلوك دلالته النوعية على كل من هذه المستويات ٠ ورغم امكانية دراسته على اي منها بشكل مشروع الا انه من الخطأ حصر التفسير في ذلك المستوى فقط ، لا بد دائمـــا من ربطه ببقية المستويات وتبيان دلالته واسبابه في كل منها ٠ في الحقيقـة ان الاسباب على كل مستوى تتبادل التاثير من خلال تفاعلها ٠ وهكذا فالسلوك الجانح مثلا ليس فقط وليد المستوى اللاواعي فقط كما حاولت دراسات التحليـل النفسي ان تؤكد ولا هو وليد المستوى العلائقي فقط كما بيَّن لنا مايو (عملية الحكم العائلي السيء على الحدث الذي سيصبح جانحا) ولا هو وليد اشكالات البنيـــة الاجتماعية كما اوضحه لنا مرتون ٠ بل انه وليد تفاعل كل هذه المستويات في آن معا ٠ فهذه تدعم بعضها بعضا في عملية من التاثير المتبادل ٠الخلل في بنية المجتمع يفجر الخلل في بنية الوحدات الاجتماعية الصغرى (الاسرة مثلا) وهذه بدورهـــا تدعم الاضطراب الفردي عند احد اعضائها وتعـود العملية فتسير من الخاص الى العام في حركة تاريخية ٠ طبعا يجب ان لا ننسى ان العلاقة بين العـــام والخاص لا تكون دائما متساوية في تاثيرها كما هو الشان في مسؤولية ومدى مساهمة طرفي العلاقة الثنائية التي اوضحناها اعلاه ٠ فاحيانا يكون الخاص هو الطرف الرئيسي الفاعل ويكون العام عنصرا مساعدا ولكن الغالب ان يكون العام هو الفاعل ٠ كذلك فالعلاقة بين العـــام والخاص ليست ثابتة من حيث توزيع مستوى المساهمة ٠ فالطرف ذو المساهمـــة الاساسية قد يصبح ثانويا وبالعكس ٠ وكلا الاثنين في الوحدة التي تجمعهمـــا رغم تناقضهما في حالة صيرورة ٠

ذلك هو الجدل الافقي ، يقابله ويتفاعل معه ويحدده ويتحدد به ويناقضه ويتممه الجدل العامودي ٠ العلاقات تتحدد تاريخيا وتصنع التاريخ في ان معا ٠ هناك تفاعل جدلي بين الماضي والحاضر والمستقبل في تحديد السلوك ٠ الماضي يصنع الحاضر والمستقبل ٠ والحاضر يعطي طابعه ودلالتـــه للماضي ويحدد المستقبل من خلال اسقاط الواقع الراهن واحتمالات تطوره عليـــه ٠ والمستقبل بدوره من خلال الافاق الممكنة سلبا او ايجابا يصبغ الحـاضر والماضي بصبغة خاصة ويجعلها اكثر يسرا او عسرا ، اكثر شقاء او املا ٠ الماضي والحاضر يصبحان اكثر تأزما اذا كانت آفاق المستقبل متسمة بالتشاؤم او اليأس٠الا أن هذا اليأس ما هو سوى اسقاط لمعاناة الماضي والحاضر ٠ وهكذا فالانسان في سلوكه لا يتحرك فقط في مجال علائقي ، انما وفي نفس الوقت في مجال تارخيي ، في ديمومة ٠ وحركته في كل من المجالين تتحدد بالمجال الآخـر وتحدده ، حيث ان كلا منهما (التاريخ والعلاقات) شرط الاخر وصانعه ٠ لا علاقة خارج التاريخ (تاريخها الخاص وتاريخ كل من طرفيها) ولا تاريخ خـــارج شبكة العلاقات (تاريخنا الشخصي هو مجموع تجربتنا الوجودية العلائقية) ٠

وهكذا نرى ان المنهج الجدلي يساعدنا على حل تناقض آخر بين التاريخي والانبنائي الذين وقع فيه العلماء ردحا من الزمن وما يزالون حين انقسموا الى فئتين متعارضتين (أصحاب المنهج التاريخي وأصحاب المنهج البنائي) كل منهما تسفه الاخرى وتدعي قدرة أكبر على الاحاطة بالواقع الانساني ٠ الحقيقة لا واقع بشري ممكنا الا من خلال تفاعل الجدلين بشكل دائم٠ من هذه الزاوية نستطيع ان نفهم كيف يتحدد السلوك الجانح من خلال تاريخ الحدث المنحرف الذي يحدد علاقاته الممكنة ٠ ولكن ذلك التاريخ ما هو سوى نسيج العلاقات الاولية والماضية ثم هو يصنع من خلال العلاقات الجديدة (عمليات التفاعـــل السلبي والوصم خصوصا) التي يهيء لها ويسمح بهـــــا ٠ الفردي والاجتماعي ، التاريخي والانبنائي ، هي في النهاية محاور الوجود الانساني ومحددات سلوكه السوي وغير السوي ٠

تلك هي باختصار الملامح الاساسية للمنهج الجدلي ، ولقد اكدنا خصوصا على جوانبه التي تتعلق بالظاهر موضوع بحثنا وهي السلوك الجانح ٠ فلنر الان كيف طبق هذا المنهج عليها من قبل علماء النفس والاجتماع المعاصرين ٠

ثانيا ـ المنهج الجدلي في دراسة السلوك الجانح :

هناك عـدة محاولات لتطبيق المنهج الجدلي عـــلى دراسة الاضطرابات

السلوكية والمشكلات والامراض الشخصية علي تفاوت درجاتها • ولكنها لا زالت في معظمها جزئية ولم تصل بعد حد التطبيق الكامـــل لذلك المنهج بشكل يحيط بمختلف مستويات الظاهرة على ان المحاولات ازدادت عددا وعمقا بسرعة فــي السنوات الاخيرة • بدأت في اتجاهات متعددة وعلى مستويات مختلفة : دراسة ظواهر الاضطراب الاجتماعي ، دراسة اضطرابات العلاقة ، دراسة الامراض العقلية والنفسية، دراسة اضطرابات الاطفال، وكذلك دراسة السلوك الجانح • وقال بها علماء متعددو الاختصاصات : علماء نفس ، محللون نفسيون ، اطباء عقليون محدثون ، علماء جريمة ، علماء اجتماع وعلماء اناس • بدأت ابحاثهم بشكل مستقل في البداية، ولكنهم بدأوا يلتقون تدريجيا • وبدأت الصورة تتكامل في تعقدها وترابط مستوياتها • الاحاطة الجدلية بظاهرة الاضطراب الحياتي بدأت تظهر ملامحها كوضعيات مضطربــة تنشيء اشخاصا مضطربين او حتى جماعات مضطربة • هذه الوضعيات تشكل عمومية الاضطراب ووحدته ولكنها تتخذ اشكالا مختلفة تبعا للظروف النوعية الخاصة بكل حالة (مرض عقلي او ادمان ، او انتحار ، او انحراف الخ ••) وكان اكبر قسط من هذا التقدم من حظ الطب العقلي الحديث الذي ثار على سلفه التقليدي •• امـــا في ميدان الانحراف فلقد لمحنا محاولات جزئية لدراسة السلوك الجانح من منطلق دينامي في الفصلين السابقين ، لكنها لم تصل كما رأينا حد الشمول •

هناك محاولة اقتربت اكثر من غيرها من ذلك الشمول لدرجة يمكن معها اعتبارها ممثلة للمنهج الجدلي في دراسة الانحـــراف • وهي محاولة الفريق الليوني لعلم الجريمة العيادي وعلم الاناسة الاجتماعي (١) •

محاولة الفريق الليوني لعلم الجريمة العيادي :

يضم هذا الفريق مجموعة من علماء النفس والاجتماع والاطباء العقليين يرئسه الاستاذ مارسال كولان (٢) • ولهـــذا الفريق شهرة كبيرة في فرنسا واوروبا على صعيدي العلاج والبحث في ميدان الامراض الاجتماعية • ولقـد اطلق على المفهوم النظـــري الذي حاول فهم تلـك الامراض من خلاله اسم

---

(١) Equipe lyonnaise de criminologie clinique et d'anthropologie sociale.

(٢) Marcel Colin استاذ في كلية الطب في جامعة ليون ورئيس قسم علم الجريمة العيادي وعـلم الاناسة الاجتماعي • ويعتبر من اكبـر الاختصاصيين الفرنسيين والاوروبيين في علم الجريمة •

السسيوباتية (١) · وتعني هذه الكلمـــة في ذهن كولان ، واضعها ، امراض الانغراس الاجتماعي (٢) · وهي تتخذ مختلف اشكـــال الاضطرابات الموقعية سواء في العلاقات مع الاخرين او مع الجماعـات او في المجتمع الكلي · تقول بوحدة الاضطراب من حيث اسبابـــه وديناميكيته وبتنوعـــه من حيث الشكل والمظهر · والسلوك الجانح ليس سوى واحد من هـذه الاشكال القابلة للابدال فيما بينها · ولكن توضيح هذا المفهوم يقتضي وقفـــة قصيرة نستعرض خلالها المصادر العلمية التي غذت تفكير هذا الفريـق · وتكوّن في معظمها جزءا من محاولات تطبيق المنهج الجدلي على المشكلات الاجتماعية كما اسلفنا ·

تقسم هذه المصادر الى قسمين احدهما عملي والاخر نظري ·

١ ــ **القسم العملي** : ان الفريق الليوني هو اساسا فريـق علاجي · وهو يعتبر عن حق ان افضل اساليب فهـــم الاضطراب النفسي والسلوكي هي التي تقوم على علاجه · انه يرفض الابحاث المجردة او المكتبية · وتغطي النشاطات العلاجية لهذا الفريق معظم مؤسسات التأهيل والعلاج في منطقة ليون لمختلف فئات الاضطراب · فالمعالج منهم يعمل في مستشفى الامراض العقلية وفي علاج المدمنين الكحوليين وفي علاج الانتحاريين وفي حل مشكلات سوء التكيف المهني وخصوصا في علاج الجانحين الاحداث والراشدين · ولذلك فلقد تجمعت لديه معلومات قيمة جدا من خلال جلسات العـــلاج التي امتدت سنوات مع مختلف فئات الاضطرابات الشخصية · والقيمة الاساسية لهذه المعلومات هي في اظهار العناصر الديناميكية المشتركة بين مختلف هذه الحالات على تنوع مظاهرها · وكثيرا ما اتيح للفريق مرافقة بعض هذه الحالات في تطورها وتنقلها من مرض لآخر · مثلا تحول الجانح العدواني الى مدمن كحولي او انتحاري ، او تحول هذين الى مرضى عقليين وتحول المريض العقلي الى متسول والعكس · في كل هذه التحولات تظل المشكلة الاساسية ثابتـــة وهي مرض الانغراس الاجتماعي ومرض العلاقات والمواقع من الاخرين والجماعات · والنتيجة الاساسية لكـل هذه الملاحظات كانت بروز وحدة الاضطراب في عموميته وديناميكيته ·

هذه التجارب العلاجية الغنية بمعطياتها كانت دائما مادة للتفكير العلمي،

---

(١) السسيوباتية : Sociopathie

(٢) امراض الانغراس الاجتماعي : Maladies de l'insertion sociale

ولوضع الاسس النظرية لفهم الظاهرة المرضية • وكانت المعرفة تتبع في ذلك خطى المنهج الجدلي : من الممارسة الى النظرية التي تنظم هذه الممارسة ، ثم عودة الى الممارسة بفعالية اكبر ، ممـــا يغني النظرية ويغذيها ويساعد على الارتفاع بها الى مستوى اعلى من العمق والشمول وهكذا •••

ب ـ القسم النظري : بالاضافة الى خبرتـــه العلاجية استفـــاد الفريق الليوني من معطيات ابحـــاث عدة في ميدان الامراض الاجتمـــاعية والعقلية والعلائقية • ويمكن رد هذه الابحاث الى اربعة اساسية :

ـ التفسير الاجتماعي الرمزي للسلوك الجانح •

ـ المدرسة الظواهرية في دراستها للعلاقات واضطراباتها •

ـ تحليل عملية التفاعل •

ـ التيار المضاد للطب العقلي التقليدي •

١ ـ التفسير الاجتماعي الرمزي للسلوك الجانح :

قدم هذا التفسير فرانسوا داغونييه (١) الذي انتقد بشدة دراسات القياس الاجتماعي التي تحاول ان تبحث ظاهرة الانحراف تبعا لحركة السكان وتوزعهم• وهو يرى انه لا يمكن فهم الظاهرة الاجتماعية من خـلال الحسابات ، بل لا بد من الاهتمام بالرمزية الاجتماعية • ففي كل مجتمـــع هوامات ورموز وافكار تكوّن لغة ذلك المجتمع اللاواعية • ومن خلال فهمها يستطيع عالم الاجتماع ان يفسر لغة الانحراف ، الجنوح كلغة تعبر عن اشكال اجتماعي •

من خلال هذه الرمزية يحاول داغونييه ان يبين وظـائف السلوك الجانح بالنسبة للمجتمع • وهو يعتقد ان كل مجتمع يعاني ابدا من توترات واشكالات وأزمات نابعة من الخلل الوظيفي الذي تعاني منه بنيته • وكلما زاد سوء تنظيم البنية زادت كمية الخلل الوظيفي في المجتمع وزاد بالتالي التوتر والازمات • واذا وصل هذا التوتر الى حد معين هدد تماسك المجتمـــع ووحدته بالانهيار •

---

(١) François Dagognet استاذ فلسفة العلوم في جامعة ليون وعالم اجتماع عمل مع الفريق الليوني منذ البداية وساهم في توضيح الاسس النظرية لهذا الفريق •

ولذلك كان لا بد له من منافذ لتفريغه وتفريـــغ العدوان الناتج عن سوء توزيع الخيرات وعدم عدالة السلطان لئلا ينفجر العدوان في سلوك تمردي تحطيمي ٠ وهناك عدة وسائل لذلك ، بعضها موسمي وبعضها دائم ، وبعضها الآخر عابر٠ من الوسائل العابرة الكثيـــرة الشيوع في ايامنا تجاوز المجتمـــع لتناقضاته الداخلية وتماسكه ضد خطر عدو خارجي ٠ أما الوسائل الموسمية فهي الاعياد ، خصوصا اعياد الكرنفال حيث يتحلل الجميـــع من قواعد الانضباط السلوكي وينغمسون في تصرفات تهتكية (خمرة ، تهتك الخ ٠٠٠) يرافقها دائما ثورة رمزية (الالعاب الناريـــة) وقتل رمزي للسلطـــان (حرق الدمية التي تمثل السلطان) ٠ وبذلك تفرغ الجماعة توترها وعدوانها وتستعيد حيويتها وتماسكها مما يجعلها تستمر في حياتها وتتحمل الخلل فيها ٠

أما الوسائل الدائمة فهي الانحراف والاضطراب عموما ٠ المنحرف هـــو انسان في عيد دائم ٠ هو العنصر الذي يخـــرق قوانين الجماعة ويتمرد على معاييرها ويرفض الانصياع للسلطان فيها ٠ وهـــو المعبر عن عدوان الجماعة وتوترها ٠ ولكن الجماعة لا تسمح له بالتعبير عن تناقضاتهـــا الا كي تضبط الاخرين وتفرض عليهم الامتثال ٠ ولذلـــك فهي تضحي بالجانح بعد ان قام بوظيفة تفريغ العدوان ٠ وتتخذ هذه التضحية شكـــل العقاب الذي يتفاوت في شدته ٠ في الماضي كانت التضحية تتخذ شكلا شاملا من خلال القتل او النفي خارج الجماعة ٠ اما الان فلا زالت آثار العـــزل الاجتماعي واضحة من خلال السجون والمستشفيات العقليـــة ومؤسسات الرعاية المعزولـــة عن المدينة ونشاطاتها ٠ فهي اذا تسمح له بالتعبير عن العدوان وتعتبره كائنا خطرا على الجماعة ولذلك يجب عزله عنها حتى لا يفجر تمردها ٠ ولكن الحاجة الى عمل هذه العناصر جعلت المجتمع يغير خططه مؤخرا ويحاول توظيفها بشكل أو بآخر في سوق العمل ٠

وعلى ذلك فالجماعة بحاجة لان تحصر الخلل في بنيتها في بعض العناصر المذنبة التي تجسد هذا الخلل ٠ وهي عندمـــا تعاقب المذنب الذي حمّل آثام الجماعة واوزارها فانما تهدف الى ما يلي :

- تهاجم في المذنب نقائصها التربوية وضعف نظام تماسكها ٠

- تقوم بسلوك تعويضي يغطي فشلها في ادماج ذلك الفرد في الجماعـة او يغطي الاعتراف بعجزها عن ذلك ٠

– اسقاط الميول العدوانية عند اعضاء الجماعة على المذنب بقصد التنصل منها واخفائها ، بل وانكارها من خـــلال عقاب المذنب • وهنا يمكننا القول ان شدة العداء للمذنب تتناسب مع شدة الحرب على الرغبات المذنبة عند افراد الجماعة •

– عقاب المجرم بديل رمزي للخصاء ، وتعبير عن قلق الخصاء في الموقف من السلطة – خصاء من تجرأ على التمرد على السلطة •

وهكذا نرى ان الخلل في بنية المجتمع هو الذي يفرز الجانحين وهو الذي يتنكر لهم وينبذهم او يعزلهم او يقضي عليهم بعد ان حملّهم آثامه واوزاره • وهو يضحي بهم كي تحتفظ هذه البنيـــــة بتماسكها وتفرض الامتثال على بقية اعضائها •

وشأن الانحراف هو شأن بقية الاضطرابات الشخصية والسلوكية • فهذه كلها ليست سوى تعبير عن اضطراب المجتمع • وبمقدار ما يزداد الخلل في بنية المجتمع تزداد حاجته الى عناصر مضطربة تجسد ذلك الخلل ثم تعزل او تنبذ •

ويذهب ليفي شتراوس (١) عالم الاناسة الفرنسي الشهير الذي طبق نظرية الانبنائية(٢) في هذا المجال نفس المذهب حين يقول ان كل بنية تميل الى حصر فيها في نقاط او مناطق معينة كي تحتفظ بالبـــــاقي سليما وقادرا على القيام بوظائفه • في هذه النقاط يعبّر عن الخلل اشخاص ذوو تكوين نفسي اجتماعي ركيك يدفعون الى مواقع هامشية من بنية المجتمع بعد ان جسدوا تناقضاتها • ذلك بالضبط هو شأن الجانحين وكـــل غير المتكيفيين (مدمنين ، انتحاريين ، متسولين ، مرضى عقول) فهم عناصر هامشية تقابل عادة بمزيج من الازدراء والاشفاق والخوف والاعجاب من قبل بقية اعضاء المجتمع •

٢ – الثورة على الطب العقلي التقليدي : دراسات اسر الفصاميين :

هناك تيار جديد في الطب العقلي يقوده بعض المحللين النفسيين الشبان في كل من انجلترا والولايات المتحدة الاميركية قد اعلن الثورة على طرق الطب

---

(١) انظر مقدمة كتاب Levy-Strauss: Anthropologie sociale P.U.F. Paris لمؤلفه (Marcel Mauss)

(٢) الانبنائية Structuralisme

العقلي التقليدي في التشخيص والعلاج . وهـــو يعتبر ان الاساليب القديمة لا تفعل سوى ان تؤدي بالمريض الى الازمان (١) بدل الشفـــاء . ويقول دافيـد كوبر (٢) David Cooper احد ابرز ممثلي هــذا التيار بان الطب العقلي ومستشفيات الامراض العقلية تمارس نوعـــا من العنف المعنوي على المريض وتحشره في هذا الدور ولا تقبـــل منه سوى الاعراض المرضية . وهي تسد السبيل امام كل محاولة حوار سوي يقـــوم بها مع من حوله . ويتهمها بانها تتواطأ مع اسرة المريض كي تؤكد المرض وتفرضه عليه . وهي بدل ان تشفي ساهمت في القضاء على قسم كبير ممن يعـــانون من الاضطرابات . والخطأ الاساسي في رايه هو في اعتبار المريض وحدة قائمة بذاتها واعتبار المرض وليد عوامل بيولوجية ونفسية ذاتية محضة لا دخل للمحيط فيها . وهو يرفض بالتالي تشخيص الاضطراب الى احدى الفئات الطبية العقلية المعروفة . يرفض مثـلا اعطاء تشخيص الفصام (وهو المرض الذي اهتم بدراسته خصوصا) قائلا ان هذا التشخيص قد استخدم كثيرا من قبل الاطباء كلمـــا عجزوا عن فهم حالة المريض . وهو تشخيص يجمد المريض ويسجنه في اطر جامدة تجعل الغير لا يتوقع منه سوى تصرفات غريبة وبالتالي تمنعه من الشفاء .

وفي مقابل هذه النظرة يقترح محاولة بحث المرض بأعراضه المختلفة كلغة ذات معنى قابل للفهم والتوضيح اذا ما بذلنا الجهد الكافي للانصات . من خلال اعراضه ، يبعث الينا المريض برسائل قابلـــة للتفسير تعبر عن المأزق العلائقي والوضعي الذي يعيش فيه . وفي محاولته فهم هذه الرسائل توصل الى اكتشاف هام ، وهو ان ما يدعى بمرض الفصام ليس سوى جـــواب على مأزق أسري فرضته صراعات الاسرة على المريض . وهو لذلـــك لا يعالج المريض فقط بل ينصت ايضا الى الاهل ويعالجهم ، يستمع الى حوارهم معا ، وحوارهم مـــع المريض ، كما يستمع الى كل منهم بمفرده .

ولقد اتضح له من كل ذلك ان المريض ما هو الا المعبر عن مأزق أسري يستعصى حله ويهدد توازن الاسرة جميعها اذا لم يتجسد في احد اشخاصها . لا بد لواحد من هؤلاء ان يتحمل المرض نيابة عن الاسرة . ولقد اوضح لنا في دراسة شيقة (٣) كيف ان ذلك الشاب الجامعي الذي ابدى اعراضا فصامية لم

---

(١) الازمان : Chronicisation.

(٢) دافيد كوبر ، في كتابه Psychiatrie et antipsychiatrie, Paris, Seuil.

(٣) المرجع السابق

يكن في الحقيقة سوى المعبر عن مازق الوالدين في علاقتهما الزوجية • وعندما بدأ يفلت من ذلك المأزق تفجرت المشكلة الزوجيـــة الكامنة ووجد المعالج نفسه مدعوا لعلاجها حتى يتمكن من تخليص الشاب من الدور الذي فرض عليه •

ولقد قامت دراسات عديدة حول تكوين اسرة الفصامي وانماط العلاقات فيها • فلقد وجد واين Wynne الاميركي ومساعدوه ان اسرة الفصامي تتميز بنمط علاقات التعاون الزائف (١) الذي يتخذ طابعا حادا ودائما• فاعضاء الاسرة بحاجة الى البقاء معا كي يتبادلوا التحطيـــم • ويرتبط الجميع بشكل قهري من خلال مجموعة من الاساطير والمحرمات تتضمن التهديد بأوخم العواقب لمن يجرؤ على الخروج من قبضتها •

أما باتيسون G. Bateson فلقد تقدم خطوة أبعد في هذه الدراسات وقال بنظرية الارغام المزدوج ، او الطريــق المسدود المزدوج • وهو تعبير استخدمه ليصف نمط العلاقات والتواصل في أسرة الفصامي • وتتميز وضعية الارغام المزدوج بما يلي :

ـ انخراط الشخص في علاقـــــة شديدة ، يحس فيهـــا ان من الحيوي والجوهري له ان يميز بدقة نوع الرسائل الموجهة اليه حتى يعطي اجوبة ملائمة عليها •

ـ في هذه الوضعية يبث القرين في العلاقة فئتين من الرسائل تناقض كل منهما الاخر ى•

ـ عندها يعجز الفرد عن التعليق على هذه الرسائل التي يتلقاها والتـي تفرض عليه اوامر متناقضة (ان يفعل شيئا ما وان لا يفعله في نفس الوقت) ولذلك يصاب بالتشوش ولا يجد امامـــه سوى الاعراض المرضية مخرجا من الوضعية •

وهكذا فان من يمارس الارغام المزدوج في رأي كوبر هو بدوره متجانب، فهو يريد ان يضغط على الاخر ولا يريد ذلك في نفس الوقت • وهو يريد جوابا من الشخص الاخر ويخشى هذا الجواب اشد الخشية لدرجـــة تجعله لا يريده

---

(١) نفس المصدر

مطلقا٠ وهكذا يكون واقعا هو نفسه تحت وطأة ارغام اجتماعي مزدوج،وضحية قوى اجتماعية متعارضة تلاقت عنده ٠ والوسيلة الوحيدة التي تمكنــه من الافلات منها هي في دفع الاخر الى المرض ٠

لقد عممت هذه المنطلقات في البحث على العديد من الاضطرابات وخصوصا اضطرابات الاطفال ، حتى اصبح من الشائع الان القول ان الطفل المريض ما هو الا مندوب أسرة مريضة ٠ مرض الطفل هو تعبير عن مرض الاسرة واخفاء له في آن معا٠

وما يهمنا من كل ذلك هو وصولنا هنـا ايضا الى نفس النتيجة التي قال بها علماء الاجتماع الذين عرضنـا رأيهم في الفقرة المسابقـة : المرض او الاضطراب الفردي ليس سوى تعبير عن خلل تعاني منه الجماعة ٠ المرض ليس مسألة فردية محضة بل الاصوب ان نقول انه نتاج تفاعل الاضطرابات الذاتيـة مع اضطرابات الجماعة واضطرابات المجتمع بوجه عام ٠

٣ ـ تحليل عملية التفاعل ـ بارسونز ٠

بارسونز T. Parsons هو احد علماء الاجتمـاع الاميركان المعاصرين الذين اهتموا بدراسة التفاعل بين المريض ومن حولـه ٠ وبيّن كيف يؤدي هذا التفاعل الى ترسيـخ المرض لدى الاخيـر ، ولقد اطلـق على تحليلـه هذا اسم عملية الوصم (١) ٠ وأقرب توضيح لها هو التفسير الذي قدمه نوال مايو لتماهي الجانح بالصورة السيئة التي كونها عنه الاهل ٠ وقد يبدأ الامر بشكل عابر فيبدو من الطفل تصرف شاذ ٠ ويستجيب الاهل لذلك بأن ينعتوه بالشذوذ٠ وهذا النعت قد يدعم تصرفاته الشاذة ٠ وتلك تدّعم رأي الاهل فيه ٠ وخـلال عملية التفاعل هذه يصل الامر الى حد سجن الطفل في صورة الشاذ ٠ ويصبح هذا مضطرا للتصرف تبعا لتلك الصورة خصوصا ان المحيط يعمم حكمه عليه ، ولا يعود يتوقع منـه الا تصرفات شاذة اذا كان بحاجـة للتهرب من مآزمه واضطراباته التي تهدد وحدته وتماسكه ، باسقاطها على الحدث ٠ ويذهب الامر حدا بعيدا لدرجة ان التصرف السوي الايجابي يصبح مستغربا منه ٠ او هـو يعتبر تكيفا استراتيجيا (يعتقد الاهل ان الطفـل يتظاهر بالتكيف) من اجل الحصول على مغنم او تجنب عقاب ٠ كما قد يعتبر تصرفا ثانويا لا يدل على

---

(١) عملية الوصم : Labeling Process

الجوهر الشاذ الذي يتصف به اساسا · وهكذا يحشر في دور سلبي ويتحمل السمعة التي الصقت به ويجسدها ويعرّف نفسه امام الاخرين ويتفاعل معهم من خلالها · وفي كل ذلك تحدث عملية تعزيز للدور الذي فرض عليه وتلاش لبقية الادوار ·

ولقد درس بعض العلماء من هذا الاتجاه عمليات التعزيز التي قد يقوم بها الطبيب مع المريض العقلي اثناء تشخيص المرض ، حيث نجد الطبيب لامباليا طالما يدور حديث المريض حول امور يومية عادية · اذ لا يعتبر هذا الحديث ذا دلالة ، ولذلك لا يعطيه أية اهمية · ولكن عندما يبدا المريض بالحديث عن شكاوى وهمية او هجاسات ، او مشاعر اضطهاد ، او هلاوس تنفرج اساريره ويبدي الاهتمام بحديث مريضه · وهذا الاخير حساس عادة لردود فعل الطبيب وعندما يلمس اهتماما منه في هذه الناحية يميل تلقائيا الى الاطالة في الحديث عن هواجسه وهلاوسه بينما يتجنب الحديث عن الحياة العادية التي لا تثير الاهتمام ·ويقع عاجلا ام آجلا اسير هذه العملية ويكون ذلك على حساب ابعاده تدريجيا عن الخطاب (١) السوي والوقوع في الخطاب المريض ·

وما يجري على مستوى العلاقة الثنائية مع الطبيب اثناء الاستشارة يستمر اثناء حياة المريض اليومية في المستشفى · فهو قد وصم بالمرض : الاضطهاد او الهلاوس او غيرها · واصبح يعامل فقط على هذا الاساس ، لا ينتظر منه سوى هذه الاغراض ولا يلتفت المرضون الا اليها · كما ان العلاج بالعقاقير يحول المريض الى حالة جردت من انسانيتها ، يحوله الى مجرد هذيان او هلاس يحتاج الى جرعة معينة من دواء معين لشفائه (اختفائه) · اما المأساة الانسانية الكامنة وراء ذلك فلا محل لها في العلاقة بين المريض ومن يهمتون به · وانكار انسانيته بهذا الشكل لا يساعده مطلقا على الشفاء ·

عملية التفاعل هذه بما فيها من وصم للشخصية وتعزيز للاضطراب ، لا يمكن ان تحدث الا في وضعية أنسانية مريضة كان من نصيب المريض نتيجة لموقعه في شبكة علاقاتها ان يجسدها · وهي تبدا عادة في-الاسرة كما بين كوبر وتستمر في المستشفى مرورا بمجموعة الطقوس والاجراءات التي يخضع لها المريض قبل دخوله المستشفى (الشهادة الصحية ، موقف الشرطة ، موقف الجيران ، موقف المرضين وسيارة الاسعاف الخ ···) ·

---

(١) خطاب : Discours

نفس التحليل ينطبق تماما على الجانح · فهـــو يخضع لعملية وصم في الاسرة اولا (اهمال ، قسوة ، نبذ الخ ··) حيث يحكم عليه حكما سيئا ، ثـم تستمر هذه العملية بعد ان يرتكب جنحة ويقع في ايـــدي العدالة ، وتعزز من خلال طقوس القبض والتوقيف والقيود والمحاكمة الخ ··· ثم ياتي الى المؤسسة التربوية وهناك يتعرض لخطر تصنيفه كجانح خطر او غير خطر من خلال موقف الحذر الذي يقابل به في البداية ·

خلال هذه العملية يمر الجانح بمجموعة من العلاقات التشييئية(١)· ونعني بذلك تحويله الى مجرد حالة ، او مجرد خطر يتفاوت في شدته على النظام او على الغير والتصرف معه على هذا الاساس · وما يميز العلاقة التشييئية هـــو انهيار بعدها الانساني ، انهيار اعتبار الاخـــر كانسان شبيه بنا ، له محاسنه وعيوبه ، لديه مشكلاته وآلامه وامكانياته وآماله · فاذا حول الى حالة (شيء، مرض ، خطر) فقد فرصة التعبير عن مأساته من خـــلال حوار انساني · فقد اعتباره كشخص وبالتالي فقد فرصة شفاءه · اذ انه يجب ان لا ننسى ان مـــا يشفى ليس المرض او العرض وانما الانسان عندما يتحرر من مأساته ويخـــرج من مأزقه الوجودي · وهكذا تساهم علاقة التشييء في ترسيخ انحرافه وتؤدي الى عزله نهائيا عن المجتمع المتكيف بعد عدة محاولات لدفعه نحو الامتثال ·

هذه اجمالا التيارات النظرية التي استقى منهـــا الفريق الليوني لعلم الجريمة العيادي · وساهم في تعميقها بدوره · ولقد كان لنا نصيب المشاركة في هذه العملية كلها خلال عملنا مع هذا الفريق طوال خمس سنوات ·

ثالثا : السسيوباتية : مرض الانغراس الاجتماعي :

يظهر لنا العرض السابق كيف يجد الجـــانح نفسه في نظام من العلاقات المرضية يحتل فيه موقع ودور المعبر عن اضطراب بنية المجتمع وشبكة العلاقات في الجماعة · وهذا الموقع يجعل منه انسانا هامشيا لا يجـــد له مكانة مقبولة ومعترف بها سوى مكانة الغريب او الخطـــر او المهدد لسلامة الاخرين · او يكون من نصيبه الاشفاق والرثاء لبؤسه بعد ان يودع في مؤسسة تأهيلية أو

---

(١) العلاقات التشييئية Relations chosifiantes يعود الفضل في هذا المفهوم الى المدرسة الظواهرية التي تعمقت في دراسة العلاقات على اختلافها بين الناس اثناء تفاعلهم ، والامراض التي تلم بهذه العلاقات واثرها على السلوك وادراك الآخر ·

السجن · وفي الحالتين يفقد انسانيته من خلال المواقف التي يجابـــه بها ممن حوله · وبفقداته هذه الانسانية تنتفي عنه صفة الاخر الشبيه بنا الذي يمكن ان يماثلنا وذلك يدعم بدوره الارتباك الموقفي منه · فالناس العاديون لا يتساءلون كثيرا كيف يتصرفون تجاه بعضهم بعضا · اما اتجاه الجانح فهناك دائما حيرة وارتباك ، هناك فقدان لتلقائية التصرف ، هذا الارتباك يجعل الجانح بدوره في حيرة من امره كيف يسلك امامنا لانه يشعر بالغربة التي قذفناه في خضمها · وهو يحولنا بدوره الى غرباء ، عليه ان يحتاط من الاخطار التي قد تهدده مـن جانبنا · وفي ذلك انهيار للعالم الانساني ولامكانية الحوار الذي يعطي الطرفين معناهما وقيمتهما من خلال اعترافه بانسانيتهما ·

ولا ينحصر مرض العلاقة هذا بالجانح وحده والموقف منه ، بل هو عام تجاه مجموعة عريضة ممن يعـــانون من اضطرابات عقلية وسلوكية : فالمريض العقلي ، والمدمن على الكحول او المخدرات ، والمتشرد، والمتسول، والانتحاري، وضعيف العقل كلهم يشكلون عناصر هامشية · كلهم يقعون ضحايا الاغتراب العلائقي (ليسوا كالاخرين ، كالنـــاس العاديين) · وكلهم يفقـــدون بالتالي الاعتراف بانسانيتهم من قبل الآخرين وبالتالي المكانة التي تغرسهم في العالم الاجتماعي · صحيح ان الاعراض او مظاهـــــر المرض تختلف من حالة الى اخرى ، ولكن جوهره واحد وهو مرض الانغراس الاجتماعي ، فكل فئة قابلـة للابدال بأخرى · قد يتحول الجـــانح العدواني الى متشرد متسول تحت وطأة الضغط الاجتماعي ، كما قد يتحول المدمن الى كائن عدواني ، وكـــلاهما قابل لان يصبح انتحاريا ·

القضاء على عدوانية الجانح لا يعني مطلقا انه اصبح كائنا متكيفا اذ ان عدوانه قد يرتد الى الداخل في انتحار او ادمان · فقـــط الانغراس الاجتماعي الذي يعيد اليه اعتباره الانساني هو معيار التكيف والشفاء ·

الذي يعيد اليه اعتباره الانساني هو معيار التكيف والشفاء · ليس فقط شفاء جانح وانما أيضا وبنفس الدرجة شفاء الجماعة التي وقفت منه موقفا مريضـا وأقامت معه علاقة اغتراب ، الجماعة هي أيضا نتيجة لموقفها هذا مضطربة بنفس الدرجة من الشـــدة ·

وهنا تأتي النقطة الثانية من السسيوباتية ، وهـي دراسة اسباب مرض العلاقة ، لقد بينت لنا ابحاث كوبر على اسر الفصاميين كيف ان المريض ليس سوى المعبر عن مرض العائلة وله من هذه الناحية وظيفـة اساسية في الاسرة رغم الشكاوى الظاهرية من الاثار المزعجة لمرضه ·

والاسرة نفسها في اعتلالها ليست سوى تعبير عن التناقضات الاجتماعية التي تفرز وحدات أسرية مضطربة وتولّد علاقات فاشلة · الاسرة في هذه الحالة كالاحياء الهامشية تماما تعبير مباشر أو غير مباشر عن الخلل في بنية المجتمع كما اوضحه جيدا كل من داغونييه وليفي شتراوس ·

اما لماذا يقع عبء التعبير عن المرض على هـــذا الشخص او ذاك فذلك يعود لعوامل ذاتية لديـــه · ازاء ضغوط تمارس في اسرة مـــا على عدد من اعضائها نجد ان بعضهم انهار والبعض الاخر احتفظ بتوازنـــه · ويعود الامر في الحالتين اما الى تكوين شخصي ركيك اصلا ، او استهياء تاريخي او لموقع ذلك الشخص في الاسرة والدلالة التي اكتسبها بالنسبة للوالدين وبقية الاخوة·

وموجز القول ان النظرة الجدليـــة لا ترى مبررا للتعارض بين السببية الاجتماعية والسببية الفردية · هل الفرد جانح نتيجة لوضعية مولدة للانحراف أم انه يبحـــث عن وضعيـــة كهذه كـــي تفجـــر ميولـــه الجانحـــة ؟

ليس هنـــاك من مجـــال للتعارض القاطع أو التفضيل · الانحـــراف هو وليد تفاعل كل مستويات الوجود الانساني · القوى المرضية على المستوى الاجتماعي تتفاعل مع القوى المرضية على مستوى الجماعـــة الاساسية التي ينتمي اليها الفرد (الاسرة او غيرها من الجماعات الجوهرية) ومع القوى المرضية علـــى المستوى الذاتي · كل مستوى يدعم ويعزز الاخر في نوع من التفاعل الجدلي · ويؤدي ذلك كله الى نشوء وضعية حياتية مو لدة للانحراف ، يطلق عليها كولان اسم الوضعية الخطرة (١) ·

نعني بالوضعية الخطرة تلك التي تجعـــل امكانية بروز فعل جانح كبيرة جدا · وخطورة الوضعية هي الرد الجدلي على خطورة الجانح التي كان يقول بها علم الجريمة التقليدي ·

وهكذا فالكل متفاعل ، والقوى المرضية متممة بعضها لبعض وليس لكل منها فاعلية الا من خلال هذا التتميم وذلك التفاعل · وللفعل الجانح او المرض

---

(١) الوضعية الخطرة : Situation dangereuse

عموما دلالة اساسية بيناها على المستويين الاجتماعي والاسري ، ولا زال هناك ضرورة لتبيانها على المستوى الفردي ٠

الفعل الجانح يعاش دائما من قبل من يرتكبه كمخرج وحيد ممكن من المازق الوجودي الذي يجد نفسه فيه ٠ انه الحل شبه السحري للصراع الذاتي الذي يحس الجانح انه رازح تحته نتيجة للوضعية الخطرة التي تحدثنا عنها ٠ هذه الوضعية تبدو له بدون امكانيات خلاص الا من خلال الفعل الجانح ٠ فالجنحة اما انها تقضي على مشاعر الدونية وانعدام القيمة عندما تتخذ طابعا طنانا يبهر الاخرين واما انها تسد الحاجة وتعوض عن الحرمـــــان العاطفي بشكل بديل (المتاع والاستهلاك بديلان للحب) واما انها وسيلة لاعادة الاعتبار الى الذات من خلال الانتقام للغبن الذي لحق بها وقد تعبر عن رغبة في الامتثال لاهداف الوجاهة والظهور من خلال الاستهلاك الذي يعطي قيمة اجتماعية كبرى تمارس ضغطا هائلا على المواطن كما بيَّن لنا مرتون كمـــــا انها تتضمن دائما دلالات لاواعية بالاضافة الى معانيها الواعية (تعويض عن قلق الخصاء ، حل لمشكلة الاوديب او لعقدة الحسد الاخوي ، حل للقلق الذي تفجره الميول العدوانية ــ كما حدثتنا ميلاني كلاين ــ ، ميل الى تحطيم الذات وعقابها على غلطة مرضية أو نوايا آثمة الخ ٠٠) ٠ وهي في جميع الحالات حوار مع العالم ومع الآخرين ومع الذات يطالب بالاعتراف بالقيمة الذاتية وفرضها على الآخر ٠

بالاعتراف بالقيمة الذاتية وفرضها على الاخر ٠

بعد هذا العرض للمنهج الجدلي في بحث الانحراف يمكننا ان نوجز النقاط السابقة بشكل مركز كما يلي :

- الفعل الجانح هو شكل من اشكال مرض الانغراس الاجتماعي ٠ وهو قابل للتحول الى اشكال اخرى اذا اقتصرنا على مجرد عـلاج المظهر دون التصدي للمرض الاساسي ٠

- يتخذ هذا المرض طابع الاغتراب الاجتماعي والموقع الهامشي والعلاقة التشييئية التي تقضي على انسانية الاخر وتؤدي الى انهيار الاعتراف المتبادل بالقيمة الانسانية للذات وللاخرين ٠

- لا يمكن اختـــزال مرض الانغراس الاجتمـــاعي الى احد ابعاده او مستوياته وفهمه على اساسها فقط ٠ انه دائما وليد تفاعل المستويات

الثلاثة (الاجتماعي والعلائقي والذاتي) بشكل تاريخي جدلي ·

- يخلق هذا التفاعل وضعية مرضية تتخذ احد مظـاهر مرض الانفراس الاجتماعي · لهذا المرض في مظهره الخارجي وظائف اساسية ودلالات على كل مستوى من المستويات الثلاثة ، ولا يمكن فهمه الا من خـلال بحث تفاعل هذه الوظائف ·

نعتقد ان هذه الصيغة على تشابكها تعكس الواقع الانساني بشكل افضل من المنطلقات الوحيدة الجانب · ولذلك فسنتخذها منهجـا لابحاثنا التالية في السلوك الجانح ·

البحث الثاني

ملامح الإطار الاجتماعي
لانحراف الأحداث في لبنان

ـ تمهيد ـ

تضع الدراسة الاجتماعية لظاهرة الانحراف في لبنان الباحث امـــــام صعوبات تجعل اتباع مناهج البحث الشائعة في هذا المجال عسير التطبيق ٠

تمر الدراسة الاجتماعية لظاهرة الانحـــراف في مجتمع ما بمرحلتين ، الاولى وصفية والثانية تفسيرية ٠ في الخطـــوة الاولى يحاول الباحث اعطاء صورة عامة عن شكل الظاهرة ، مداها ، شدتها ، اتجاهها وتكرارها ٠ وتقوم اساسا على المعطيات الاحصائية الموضوعة تحت تصرفه ٠ اما الخطوة الثانية فهي محاولة استخلاص بعض العوامل والمتغيرات التي تفسر الظاهرة انطلاقا من المعطيات السابقة ٠ وفي الحالتين تقـــوم الدراسة على احصائيات تتمتع بأكبر قدر ممكن من الشمول ٠ والا فقدت دورها الاساسي في تجسيد الواقع ٠ ثم ان دراسة شاملة من هذا النوع تتطلب فريقا من الباحثين المتخصصين يعمل في وضعية تتوفر فيها التجهيزات البشرية والمادية والتقنية اللازمـــة ٠ هذا ما يحدث عادة في مراكز الابحاث المتخصصة في البلدان المتقدمة (١) ٠

اذا الدراسة الاجتماعية لظاهرة الانحـــراف على مستوى المجتمع الكلي تتطلب توافر الشرطين السابقين : احصائيات شاملـــــة منظمة تمتد على عدة سنوات وفريق بحث متخصص تتوفر له التجهيزات العلمية الضرورية ٠

....

(١) مثلا مركز فوكريسون Vaucresson
Centre de formation et de recherche de l'éducation surveillée.
فهو يقوم بابحاث جماعية بالغة الاهمية حول ظاهرة الانحراف في فرنسا وتتوفر له تجهيزات بشرية ومادية جيدة خصوصا من حيث المستوى العلمي لفريق الباحثين فيـــه ٠

فاذا نظرنـــا في الواقع المحلـي من حيث توفر هين الشرطين وجدنا ان هناك مجهودات قيمة فيما يختص بالشرط الاول وهو توفر الاحصائيات · الا أن هذه تبقى مقتصرة على الحالات التي تعالج امام المحاكم،وتدخل في باب الاحصائيات القضائية · وهي بطبيعتها اقل الاحصائيات شمولا · اذ انه من المعروف في هذا المجال ان الفرق بين حجم السلوك الجانح الحقيقي في مجتمع ما وحجم الحالات التي تحال على المحاكم يكون عادة كبيرا·وتعتبر احصائيات الشرطة اكثر شمولا من احصائيات القضاء ولكنها لا تتوفر بشكل قابل للمعالجة العلمية· كما ان تلك الاحصائيات القضائية يعوزها الكثير من التنظيـــم والتبويب العلمي · ويقوم العاملون في الاتحاد لحماية الاحداث بمجهودات حسنة في هذا المجال الا انه لم تتوفر لهم بعد التجهيزات التقنية الضرورية لهذا العمل ·

أما الشرط الثاني ، اي توفر مركـــز متخصص يضم فريقا متفرغا من الباحثين ، فهو امر لم يتيسر بعد · صحيح ان هناك عدة أبحـاث على الاحداث الجانحين في لبنان الا انهـــا تظل فردية الطابع تقوم على معلومـــات جزئية واستقصاءات محدودة في مداها وشمولهـا · وهي تلقي ولا شـك اضواء قيمة على المشكلة انما لا تحيط بها لا من حيث الوصف ولا من حيث التفسير ·

من خلال هذا الواقع وضمن الامكانات المتوفرة لنا سنحاول اعطاء صورة عن الواقع الاجتماعي لظاهرة الانحراف · وسنتبع طريقة تحاول الاستعاضة عن الدقة الحسابية الشمولية باعطاء صورة عن الواقع المعاش · وهي تقترب مـن مناهج علم الانـام ، وتهتم بعرض الوقائع الحية ثم محاولة تفسيرهـا بشكل دينامي · وتقع محاولتنا هذه في فصول ثلاثة يتبعها استنتاج عام ·

في الفصل الاول نستعرض آخر احصائيات الاتحاد لحماية الاحداث عـن الحالات التي درست اوضاعها من الناحية الاجتماعية وقدمت للمحاكم · وذلك خلال ٧ سنوات من عام ١٩٦٣ الى عام ١٩٦٩ ·

وفي الفصل الثاني نعرض معطيات استبيان قمنا به على الاختصاصيين العاملين في الميدان مباشرة وبشكل يومي والذين تكونت لديهم نتيجة الممارسة العملية والمستوى العلمي الذي يتمتعون به تصورات وآراء غنية عن الظاهرة كما هي في واقعها المعاش · ويضم هؤلاء مجموعـــة متنوعة الاختصاص ،

ابتداء بقضاة الاحداث وانتهاء بالعاملات الاجتماعيات مرورا بمديري مؤسسات رعاية الجانحين والمربين المتخصصين ٠

اما في الفصل الثالث فنحاول استعراض عينة من الحالات الاجتماعية لبعض الجانحين نبين فيها واقعهم الاجتماعي وتاريخ الاسرة والاطر التي عاشت فيها والعوامل التي اثرت فيها ٠

في كل من هذه الفصول سنبين مميزات وحدود هذه المعطيات ، وكيف تساعدنا في تسليط الاضواء على الظاهرة ٠

ثم نختتم محاولتنا بخلاصة تربط بينها وترسم صورة دينامية لظاهرة الانحراف في لبنان ٠ تلك الصورة لن تبلغ الشمول باي حال ، انما ستساعد قطعا على توضيح خصائص الاطار الاجتماعي الذي يقترب بدرجات متفاوتة من مثيله في الاقطار العربية ٠ وهو توضيح يشكل شرطا اساسيا لكل دراسة نفسانية ٠

ولكن قبل المباشرة بمحاولتنا هذه يحسن ان نستعرض بسرعة الاطار القانوني الذي يحدد مسألة الانحراف ٠ وسنرى من خلال هذا الاستعراض انه وان كان القانون يشكل المرجع الاساسي في تحديده الا اننا لن نستطيع في بحث اجتماعي نفساني ان نكتفي بالحدود التي يرسمها ولا بد من تبني منطلق اكثر شمولا هو المنطلق الاجتماعي العيادي ٠

١ ـ التحديد القانوني للانحراف :

حدد القانون اللبناني مسألة انحراف الاحداث والاجراءات الواجب اتخاذها بصددهم في مجموعة من مواد قانون العقوبات المعدل لغاية اول سنة ١٩٦٠ وتتوزع هذه المواد في فصلين احدهما خاص بتدابير الاصلاح والاخر بتحديد مفهوم القصر ٠

أ ـ في القصر :

حدد مفهوم القصر في قانون العقوبات في المواد ٢٣٧ الى ٢٤٠ كما يلي:

المادة ٢٣٧ : لا يلاحق جزائيا من لم يكن قد أتم السابعة من عمره حين اقترف الفعل

المادة ٢٣٨ : لا عقاب على القاصر الذي لم يتم الثانية عشرة من عمره

حين اقترف الفعل ٠ الا انه تفرض عليه تدابير الحماية المنصوص عليها في المادة ١١٩ بموجب حكم يصدر عن محكمة الاحداث الى ان يتم الثانية عشرة من عمره ، واذا تمرد على تدابير الحماية فيحكم بوضعه في دار الاصلاح لمدة سنة على الاقل او الى ان يتم الثامنة عشرة من عمره على الاكثر ٠

ومن اتم الثانية عشرة من عمره ولم يتم الخامسة عشرة وكان جرمه من نوع الجناية او الجنحة تفرض عليه تدابير التاديب المنصوص عليها في المادة ١٢٠ حتى بلوغه الثامنة عشرة من عمره ٠

واذا كان جرمه من نوع القباحة او يستحق عقوبة الغرامة فقط فتفرض عليه في المخالفتين الاولى والثانية تدابير الحماية وفي المخالفة الثالثة تدابير التاديب حتى بلوغه الثامنة عشرة من عمره ٠

ومن اتم الخامسة عشرة من عمره ولما يتم الثامنة عشرة فانه يعاقب على الوجه الآتي :

اذا كانت جريمته من الجنايات المستحقة عقوبة الاعدام او الاشغال الشاقة المؤبدة او الاعتقال المؤبد فانه يوضع في الحبس اصلاحا لنفسه مع التشغيل من خمس سنوات الى عشر ٠

ثم يعدد القانون مختلف حالات تخفيف العقوبة عن هذه الفئة من الاحداث ٠

المادة ٢٤٠ : يعني هذا القانون بالولد من اتم السابعة من عمره ولما يتم الثانية عشرة ٠ وبالمراهق من اتم الثانية عشرة ولما يتم الخامسة عشرة ٠ وبالفتى من أتم الخامسة عشرة ولما يتم الثامنة عشرة ٠

ب ـ في تدابير الاصلاح :

حددت تدابير الاصلاح في المواد ١١٨ الى ١٢٨ كما يلي :

المادة ١١٨ : تطبق تدابير الاصلاح على القاصرين الذين تراوح اعمارهم بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة وتقسم الى تدابير حماية وتدابير تاديب ٠

ويمكن ان يقضي بها لمدة معينة او غير معينة ٠

المادة ١١٩ : تدابير الحماية هي :

١ ـ تسليم القاصر الى ابويه ٠

٢ ـ تسليمه الى احد اصوله او احد افراد عيلته ٠

٣ ـ تسليمه الى غير ذويه ٠

المادة ١٢٠ : تدابير التأديب هي :

١ ـ الوضع في الاصلاحية ٠

٢ ـ الوضع في معهد تاديبي ٠

ويوضح القانون مختلف حالات الحماية وشروطها والضمانات التي يجب ان تتوفر فيمن يتولى رعاية القاصر من اهله ومن الغرباء او في المؤسسات ٠

اما فيما يختص بتدابير التاديب فهي على درجتين : الوضع في الاصلاحية والوضع في معهد تاديبي ٠

اما الاصلاحية فالغرض من الاقامة فيها تلقي الدروس الابتدائية والاخلاقية والدينية وتعلم احدى الحرف وممارسة الرياضة البدنية ٠

واما معهد التأديب فيحجز فيه القاصر في محل غير المحال المعدة لتوقيف البالغين ٠ ويشغل في احدى الحرف التي احتواهـــا المعهد التاديبي على ان يراعى في ذلك عمره وحالته البدنية والعقلية ويستكمل تعليمه الديني والمدني ٠

وتحدد المادة ١٢٦ ضرورة علاج الحـــالات المرضية او المصابة باحدى العاهات (صرع ، صمم ، خرس ، سكر ، ادمان ، أو مس) بما يتناسب مـــع حاجات كل حالة ٠ أما اذا تبين اصابة الحدث بالجنون فيمكن حجزه في جناح خاص من المأوى الاحترازي الى ان يتم الاحـــدى والعشرين ، فاذا تجاوز هذه السن لا يضبط فيه الا اذا كان خطرا على السلامة العامة ٠

أما ما تبقى من المواد (١٢٧ و ١٢٨) فتحدد بعض الاجراءات الخاصة بتطبيق الاحكام الخاصة بالتأديب ٠

٢ ـ المنطلق الاجتماعي العيادي :

يحدد القانون كما رأينا خطورة السلوك الجانح ويعيـن التدبير الواجب اتخاذه بصدده انطلاقا من محكين اساسيين : شدة الجريمة وعمر الحدث حين ارتكابها ٠ فهناك المخالفة والجنحة والجناية ٠ ويعتبر السلوك اكثر جنوحـــا

واشد خطورة بمقدار الابتعاد عن المخالفـــة والاقتراب من الجناية ، كما يعتبر كذلك مع تكرار المخالفات ·

هذا التحديد يؤكد على الفعل اكثر من توكيده على الفاعل · ولكن الفعل على خطورته لا يمكن ان يشكل دائما معيارا كافيا او دقيقا للخطورة الفعلية ، اي التوجه نحو الانحراف ـ فالجناية على خطورتها المادية قد تظل فعلا معزولا في حياة متكيفة · وهي قد تكون عارضة · واحيانـــا تستنفذ جناية واحدة كل الدوافع الجانحة عند الحدث ·

على العكس قد تدل مخالفات متكررة او تشرد وعدم تكيف أسري ومدرسي او مهني عند طفل صغير على بداية حياة جانحة تسير نحو الترسخ والخطورة التصاعدية ·

كما ان السن تشكل معيارا آخر للخطورة من الناحية العيادية فعلى عكس الناحية القانونية قد يعتبر السلوك الجانح اكثر خطورة كلما صغرت سن الحدث وكلما أقدم على تكرار افعاله ولو كانت من نوع المخالفات والجنح · بينمـــا ان الاقدام على افعال جانحة في سن متقدمـــة قد لا يدل على انحراف متأصل وبالتالي قد لا تكون درجة خطورة الحالـــة من حيث توجهها نحو الانحراف كأسلوب سائد في الحياة كبيرة ·

نتيجة لهذه الاعتبارات ينطلق التقدير الاجتماعي العيادي للانحراف مـن حيز يتجاوز الحدود الضيقة للفعل الى شخصية الفاعـــل من ناحية ، والاطار الاجتماعي الذي يعيش فيه من ناحية ثانية · فتفاعـــل الشخصية التي تتميز بتركيب نفسي معين مع اطار يتضمن قوى دافعة للانحراف هو الذي يحدد درجة خطورة التوجه الفعلي نحو الاسلوب الجانح من الحيـــاة · الاعتبار الاساسي يتلخص اذا في تحديد مدى استعداد الشخصية للسلوك الجانح ومدى شدة قوى الدفع نحو الانحراف سواء اقدم الحدث على خرق القانون فعلا أم لا · فهناك من خرقوا القانون ولكنهم غير معرضين لخطر الانحراف مستقبلا وهناك احداث يتوجهون نحو الانحراف بدون ان يصلوا بعد حد خرق القانون · وهكذا فاننـــا سنتبنى في هذه الدراسة المفهوم الاجتماعي العيادي العريض · ويجعلنـــا ذلك ننظر في امر العديد من الحالات غير المتكيفة التي لم تصل بعد الى المحاكم ولم تدخل في احصائياتها كالمشردين وغيـــر المتكيفين مهنيا ومدرسيا واسريـــا والذين يقضون الجزء الاساسي من ايامهم في وضعية هامشية يقومـــون بالعديد من

الاعمال التي تقع على حافة الملاحقة القانونية ، او تلك التي تدخل تحت طائلة القانون وتظل بدون ملاحقة لضياعها في خضم النشاطات الانتفاعية الهامشية وغير المنتجة · في كل هذه الحالات خطر الانحـــراف المقبل كبير ، اذ ان هذا النمط من الحياة يشكل احد مراحل السير نحو احتـــراف السلوك الجانح · وبتعبير آخر لا بد لدراستنا ان تدخل في اطارها كل حالات الاحداث المعرضين لخطر خلقي سواء اجتازوا عتبة الانحراف القانوني ام لا · فهامشيتهم وسوء انغراسهم الاجتماعي وعدم اندماجهم في احـــــد نماذج الحياة المتكيفة تجعل وضعياتهم الحياتية محملة بامكانات الانجراف في السلوك الجانح بشكل يكاد يكون حتميا · ومن البديهي ان يكون عدد هؤلاء اكبر بكثير من الارقام التـــي تقدمها لنا احصائيات القضاء ·

الفصل الرابع

دراسة احصائية

سنعالج في هذا الفصل الاحصائيات التي وضعها المكتب المركزي للاتحاد لحماية الاحداث عن سبع سنوات من ١٩٦٣ الى ١٩٦٩ · وهي تضم الحالات التي عالجتها مكاتب هذه المؤسسة في المحافظات الخمس (١) · وسنشير احيانا الى الاحصائيات التي اوردها الدكتور مصطفى العوجي في دراسته عن الاحداث الجانحين في لبنان للسنوات التي تسبق ١٩٦٣ (٢) وهـي مستقاة بدورها من وثائق الاتحاد لحماية الاحداث ·

طبعا لا يمكن لهذه الاحصائيات القضائية ان تحيط بظاهرة الانحراف كما سبق ان بيّنا في التمهيد لهذا البحث · فهناك الانحراف الحقيقي الذي يضم كل الحالات التي تفلت من الملاحقة اما لعدم توفر الاجهزة البشرية والوسائل المادية لهذه الملاحقة واما لعدم تصريح الضحية عما حل بها · ولقد كان من المفيد ان

---

(١) الاتحاد لحماية الاحداث هو جمعية معتبرة ذات منفعة عامة تتولى بشكل رسمي مسؤولية الاستقصاءات الاجتماعية لحالات الاحداث الجانحين الذين طالتهم الملاحقة القانونية وتغطي نشاطاتها جميع المحافظات · وهي تتولى بالاضافة الى ذلك الكثير من مهمات التربية والمراقبة والرعاية لهؤلاء الاحداث وتشرف على المؤسستين الرسميتين للاحداث الجانحين في لبنان وهما معهد الاصلاح ودار الملاحظة ·
والاحصائيات التي سنعالجها في هذا الباب مستقاة من التقرير الذي اصدرته الجمعية عام ١٩٧٢ عن نشاطاتها ·

(2) Mustafa El-AUGI, Delinquance juvenile au Liban, publication du centre de recherche, Université libanaise, Beyrouth, 1970.

نعالج احصائيات الشرطة التي تعتبر اكثر شمولا الا انها لـم تتوفر لنا • على كل حال سنرى ما يمكن ان نستخلصه من هذه الاحصائيات من وقائع وعوامل فهي على ضيقها تسلط كثيرا من الضوء على الانحـــــراف الذي يلقى ملاحقة ورعاية • وبالتالي فهي تشكل ركنا أساسيا من الصورة التي سنحاول رسمها لظاهرة الانحراف في هذا البحث •

الاحصائيات التي بين أيدينا تتميز بالكثيـــر من التفصيل • ومن المتعذر ان نوردها على حالها • ولذلــك أقدمنا في معظم الحـــالات على تكثيف عدة جداول في جدول واحد • وسنعوض عن هذا التكثيف بابداء بعض الملاحظات التي تستقيها من الجداول الاصلية المفصلة •

ونقترح من حيث منهج التحليل تقسيمها الى اقسام ثلاثة : الظاهرة بوجه عام على مستوى المجتمـــع الكلي ، الاحداث الذين تضمهـــم الاحصائيات وخصائصهم ، الوضع الاسري ومميزاته • ثم نتبع ذلك ببعض الملاحظات حول طبيعة الاحكام التي اصدرها قضاة الاحداث ودورها في عملية التأهيل •

القسم الاول

ظاهرة الانحراف بشكل عام

نستعرض في هذا القسم الاحصائيات الخاصة بعدد الاحداث الجانحين خلال سبع سنوات في مختلف المحافظات ثم نبحث ، في خطوة ثانية ، توزيعهم حسب المحافظات وحسب الاحياء في العاصمة بيروت وخصائص الانحراف في كل حالة • اما نوع الجرم فسنبحثه في خطوة ثالثة ونـرى بذلك توزيع انواع التصرفات الجانحة في العاصمة والاقاليـــم واخيرا نتطرق لجنسية الاحداث موضوع البحث وتغير السلوك الجانح تبعا للفصول •

وكما يذكر الدكتور عوجـــي (١) ، عن حق ، لا يمكن تحديـــد دلالة الاحصائيات بشكل مطلق ، بل لا بد من الرجوع ما امكن الى التركيب السكاني للمجتمع المدروس في كل المتغيرات التي سنتناولها بالبحث · اذ ليس للارقـــام دلالة بحد ذاتها ، بل تبرز بالنسبة للوضعية الكلية التي تحدث فيها الظاهرة · لذلك سنحاول الرجوع الى بعض البيانات التي تتوفر لنا في هذا الصدد كاطار يمكننا من تحليل معطياتنا ·

١ ـ عدد الاحداث الذين وردت دعاويهم الى محاكم الاحداث في لبنان :

الجدول رقم ١

السنة	المنطقة : بيروت	لبنان الشمالي	البقاع	لبنان الجنوبي	جبل لبنان	المجموع
١٩٦٣	٤٧٩	٣٧٥	٣٨٢	٤٣٩	٢٥٤	١٩٢٩
١٩٦٤	٥١٣	٤٠٨	٢٧٤	٣١٨	٢٤٣	١٧٥٦
١٩٦٥	٩٧٩	٣٢٧	٣١٩	٣٩٣	٢٧١	٢٢٨٩
١٩٦٦	٥١٨	٤١٦	٢٥٢	٣٥٤	٣١٦	١٨٥٦
١٩٦٧	٢٧٠	٣٦٨	٢٦٣	٢٨٢	٣٧٦	١٥٥٩
١٩٦٨	٢٣٧	٤٢٠	٢١٣	٣١٧	٣٧٠	١٥٥٧
١٩٦٩	٢١١	٥٨٩	٢١٧	٢٣٣	٢٥٦	١٥٠٦
المجموع	٣٢٠٧	٢٩٠٣	١٩٢٠	٢٣٣٦	٢٠٨٦	١٢٤٥٢

تحليـــل :

دراسة هذا الجدول تبرز عدة نقاط تستدعي المناقشة·اولها الثبات النسبي لعدد الحالات المحالة على المحاكم خلال السنوات السبع· بل واكثر من ذلك نجد هناك قفزة واحدة في الارقام عام ١٩٦٥ حيث يرتفع العدد الى ٢٢٨٩ · ثـــم

(١) نفس المرجع ·

نلاحظ امرا غير منطقي وهو انخفاض العـدد في ثلاث السنوات التي تلت تلك القفزة ٠

فاذا اخذنا الرقم الاجمالي لعدد الحالات في بعض السنوات التي تسبق هذه الاحصائية كما اوردتها دراسة الدكتور عوجـــي نجد ان الظاهرة تزداد اشكالا ٠

السنوات	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢
العدد	١٧٧٣	١٣١٢	١٦١٧	١٣٨٩	١٧٣٠	١٧٩٤

يبدو من ذلك ، ان عدد الحـــالات يتراوح حول متوسط ثابت نسبيا وهو حوالي ١٧٠٠ حالة سنويا من عام ١٩٥٤ الى ١٩٦٦ مـــا عدا القفزة الخاصة بعام ١٩٦٥ ٠

هذا المتوسط لا يشير الى ثبات الظاهرة وانما الى انحسارها٠ لان الثبات يفترض زيادة سنوية تتمشى مع زيادة عدد السكان وهي حوالي ٧٥٠٠٠ نسمة سنويا تبعا لنشرة مديرية الاحصاء المركزية٠ يضاف الى ذلك ان حوالي ٥٠٪ من سكان لبنان الذين يبلغ عددهـــم في المتوسط حوالي مليون وثلاثة ارباع المليون نسمة تقريبا تبعا لمختلف التقديرات الخاصة بنفس الفترة التي تشملها الدراسة هم دون العشرين من العمر ٠ وان نسبة من هم ما بين سن الخامسة وسن العشرين (السنوات التي تقدم اكبر كمية من الجانحين الاحداث) تبلـغ ٤٠٪ من عدد السكان ٠

ثبات الارقام اذا غير منطقي خصوصا ان التجهيـزات الخاصة بمراقبة الاحداث ورعاية الجانحين لم يطرأ عليها زيادة تذكر حتى نرجع هذا الانحسار في العدد الى زيادة في فعالية علاج الظاهرة ٠ كيف نفسر الامر اذا ؟

يشير الدكتور عوجي في دراسته الى ان الاحصائيات لا تتذبذب فقط تبعا لتقدير عدد الجانحين وانمـا خصوصا تبعـا لمقدار الاهتمـــام الذي يوجـــه الى ملاحقة الانحراف ٠ وهـــو فـــي ملاحظتـــــه هـــذه مصيب تمامـــا ٠ فطفرة عام ١٩٦٥ ترجع الى حملة اوحى بها احد المسؤولين آنذاك للقضاء على ظاهرة التشرد ٠ تمت الحملة في العاصمة خصوصا ، ولذلك فان عدد الحالات في مدينة بيروت في تلك السنة قد تضاعف تقريبا وقفز من ٥١٣ عام ١٩٦٤ الى ٩٧٩ عام ١٩٦٥ ٠

ويؤكد هذا التفسير ايضا ان سنوات ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ التي عرفت اقل عدد من الحالات في المجموع الاجمالي حوالــي ١٥٥٠ كمتوسط للسنوات الثلاث ، وهو رقم يقل عن عدد الحالات عــام ١٩٥٤ (١٧٧٢) هي بالتحديد سنوات مر خلالها لبنان والمنطقة عموما بظروف اقليمية وداخلية صعبة استدعت تجنيد قوى الامن بشكل شامل تقريبا • وذلك لم يترك مجالا كبيرا لامكان مراقبة وملاحقة ظاهرة الانحراف • ويؤكد هذا الواقع انخفــاض عدد الحالات بشكل مفاجىء وكبير في تلك السنوات في مدينة بيروت • حيث انخفض العدد من ٩٧٩ عام ٦٥ (عام الحملة على التشرد) الى ٥١٨ بعد انتهــاء هذه الحملة عام ١٩٦٦ ثم الى ٢٧٠ عام ١٩٦٧ ومرة ثانية الى ٢١١ عام ١٩٦٩ •

ويلاحظ في نفس الفترة انخفاض العدد في لبنان الجنوبي وجبل لبنــان والبقاع عن المتوسط العام لهذه المحافظات •

نخلص من هذه المناقشة الى القول ان الارقام السابقة لا تعكس واقــع الانحراف في لبنان بقدر ما تعكس مستوى مراقبة وملاحقة الاحداث الجانحين•

كما يمكننا ان نفترض ان عدد الجانحين في مدينــة بيروت هو اجمالا ضعف العدد الذي تعكسه الاحصائيات (٥٠٠ حالة بالمتوسط) • ويؤكد ذلـك الرقم ٩٧٩ الذي وصل اليه عددهم حينما عبئت الاجهزة المختصة بشكل كـاف ٍ لملاحقة التشرد الذي يتضمن حتما درجات مختلفــة من الانحراف تتفاوت في وضوحها • فمعظم المشردين ان لم يكن كلهــم كما يقرر بعض الاختصاصيين العاملين في ميدان الرعاية يرتكبون العديــد من الافعال الجانحة التي تظل مستترة نتيجة لنمط معيشتهم وللضغوط والاغراءات التي يتعرضون لها •

ويمكننا ان نفترض اذا اضفنا الى السنوات السبع المدرجــة في الجدول عدد الحالات في السنوات السابقة وهي التي اعطتنــا معدلا وسطا يدور حول ١٧٠٠ حالة سنويا ان هذا العدد يشكــل حدود امكانات استيعاب الاجهزة التي تهتم بالظــاهرة سواء على مستوى الشرطــة او على مستوى مكاتب الاستقصاء الاجتماعي التابع للاتحاد لحمايــة الاحداث • انه مجرد افتراض يحتاج الى اثبات ولكنه ممكن منطقيا ، اذ مــن المعروف ان ارقام الاحصائيات ترتفع كلما ازدادت التجهيزات المادية والبشرية المخصصة للاهتمام بالظاهرة • ويقول احد الاختصاصيين المشهورين في علـم الجريمة بهذا الصدد ان ارتفاع ارقام احصائيات انحراف الاحداث في البلــدان الصناعية والمتقدمة عنه في

البلدان الزراعية والنامية لا يعكس بالضرورة فرقـا حقيقيا في حجم الظاهرة بمقدار ما يعكس تطور وازدياد التجهيزات الخاصة بها ٠

٢ ـ التوزيع الجغرافي للانحراف ٠

يهم الدارس لظاهرة الانحراف في مجتمع ما ان يكون صورة عن توزعها الجغرافي وتفاوت شدتها من منطقة الى اخـــرى ، مما يلقى الكثير من الضوء على اسباب الظاهرة بشكل عام والقوى النوعية التي تؤثر فيها تبعا للمناطق٠ ويمكننا بهذا الصدد استخـــلاص بعض الملاحظات حول هـــذا التوزع من الاحصائيات المتوفرة لدينا ٠

يتضح من مراجعة الجدول السابق (رقـــم ١) ان شدة الظاهرة تتوزع بشكل تصاعدي في المحافظات الخمس كالتالي :

المستوى	المنطقة : البقاع	جبل لبنان	لبنان الجنوبي	لبنان الشمال	بيروت
عدد الحالات	١٩٢٠	٢٠٨٦	٢٣٣٦	٢٩٠٣	٣٢٠٧
كثافة السكان	١٤٪	٩ر٢٢٪	٦ر١٤٪	٨ر٢٠٪	٧ر٢٧٪

اذا تاتي بيروت في المقدمة ثم لبنان الشمالي ثم الجنوبي ثم جبل لبنان ثم البقاع ٠ وهذا التسلسل منطقي حيث أن تدرج المحافظات بهذا الشكل يتناسب تقريبا مع ترتيبها من حيث عمليات التبادل والانتاج ، ومن المعروف انه كلما زادت عمليات التبادل ارتفعت نسبة السلوك الجانح ٠

على اننا اذا قارنا معدل الانحـــــراف في المحافظات الخمس انطلاقا من كثافة السكان نجد ان اكبر معدل للانحراف هو في لبنان الجنوبي ثم البقاع ثم لبنان الشمالي ثم جبل لبنان واقل معدل في مدينة بيروت ٠ وهو أمر يكاد يبدو غير منطقي ، خصوصا بالنسبة لمركز بيروت كعاصمة تستقطب اعدادا كبيرة من العناصر الهامشية المعرضة للانحـــــراف وتقدم من ناحية ثانية اكبر نسبة من فرص الانحراف واغراءاته ٠ الا ان المشكلة تتضح الى حد ما اذا تذكرنا فترات تراخي الملاحقة التي عرضناها في الفقرة السابقـــة وكيف انها تظهر خصوصا في مدينة بيروت ٠ على ان ذلك لا يكفي لجلاء الامر ٠ ولا بد من الرجعة الـــى المحكات الاجتماعية النفسية للانحراف كي تضع الامر في نصابه ٠

اذا استبقنا الامر ونظرنا في انواع الجنح والجنايات الاكثر تكرارا في كل محافظة لوجدنا ان الغالبية العظمى من حالات الانحراف في لبنان الجنوبي والبقاع تدخل ضمن فئة اتلاف المزروعات ورعاية المواشي في ارض الغير وهي من نوع المخالفات · مثلا عام ١٩٦٥ نجد ما يلي :

	سرقة موصوفة وعادية	ضرب وجرح وايذاء	اقلاق راحة شتم وتحقير	مخالفات رعاية ومزروعات	
البقاع	٤٨	٢٨	١٢	١٢٣	٥٠٪
لبنان الجنوبي	٥٥	٣٤	٢٩	١٧٠	٥٢٪

اذا ٥٠٪ في البقاع و ٥٢٪ في لبنان الجنوبي من عدد الحالات يدخل في باب المخالفات · ونجد سيادة هذه الظاهرة ثابتـا في جميع السنوات تقريبا · ففي عام ٦٧ نجد ٦٢٪ من الحالات في البقاع و ٣٤٪ في الجنوب من نفس نوع المخالفات · وهي افعال لا يمكن ادخالها اصلا في ميدان الانحراف اذا نظرنا الى الامر من الناحية الاجتماعية والنفسانية ، اي من خلال محك خطورة التوجه نحو الانحراف · نحن هنا امام حالة تضخم في الارقام تعطي صورة جد خاطئة عن الواقع تعرضنا لخطر الخروج باستنتاجات مضللة ·

فاذا ذهبنا خطوة ابعد من ذلك تأكد لنا هذا القول من خلال توزيع الارقام على مختلف المناطق في كل محافظة ، حيث نجد ان الانحراف في كل من الجنوب والبقاع ريفي اساسا · اذ ان معظم الحالات تأتي من خارج عاصمة المحافظة ·

مثلا في السنتين ٦٥ و ٦٦ نجد التوزيع التالي لعدد الحالات بين عاصمة المحافظة وخارجها ·

السنة	١٩٦٥	١٩٦٦
المنطقة :		
البـــقاع – زحلة	٩	٢٠
– خارجها	٢٢٨	١٤٥
الجنوب – صيدا	٢٧	١١
– خارجها	٣١٥	٣٢٦

وتستقر هذه النسبة بين الارقام اجمالا خـــلال جميع السنوات • وذلك يجعل ظاهرة الانحراف قليلة الخطورة في هاتين المحافظتين • اذ من المعروف ان الانحراف الريفي يظل ظرفيا ويدخل ضمن انواع النزاعات التي تشكل احد مظاهر العلاقات في الريف •

اما محافظة الشمال فيتوزع الانحراف فيها بشكل اكثر انسجاما ما بين عاصمة المحافظة وبقية المناطق • وهنـــــاك محوران للانحراف ، احدهما في طرابلس والاخر خارجها • ويستقر الامر على ذلك خلال السنوات التي تشملها الدراسة • ومن المعروف عن محافظة الشمال ان عاصمتها تضم بعض الاحياء المنتجة للانحراف ، خصوصا السرقة على مختلف اشكالها وبعض اشكال اعمال العنف مما سنعود اليه بالتفصيل بعد قليل •

اما محافظة جبـــل لبنان فهي اقل المحافظـــات من حيث كمية الانحراف خصوصا بالنسبة الى كثافتها السكانية • وممـــا يلفت النظر عند بحث جدول توزيع الانحراف في مختلف مناطقها هو تجمع اكبر نسبة من الحالات في المنطقة التي تحيط ببيروت مباشرة وتشكل ضاحيتها (برج البراجنـــــة ، الغبيري ، الشياح ، سن الفيل ، تل الزعتر ، الدكوانة ، النبعة وبرج حمود) • هذه المنطقة رغم تابعيتها الادارية لمحافظة جبل لبنان لا تشكل جـزءا منها من حيث مصدر السكان والنشاطات الاقتصادية ، بل ترتبط ببيروت وتضم خليطـا من السكان النازحين من الارياف البعيدة المعدمة اقتصاديا (البقاع ، الجنوب ، الشمال) كما تضم تجمعات سكانية غير لبنانية •• ويتميز هؤلاء بالهامشية الاجتماعية، وتردي المستوى الثقافي والاقتصادي والحياتي وهي من اكثر العوامل انتاجـا للسلوك الجانح • مرة ثانية يؤدي بنا الاكتفاء بظواهر الامور الى استنتاجات متسرعة لا يحالفها الصواب • اذ الواقع ان محافظة جبل لبنان اقل المناطق من حيث كمية الانحراف نظرا لارتفاع المستوى الثقافي والاقتصادي لسكانها ومـــا يستتبعه ذلك من ظروف اكثر ملاءمة للارتقاء الحياتي • ويلاحظ كما سترى بعد قليل ان النسبة الكبرى من الانحرافات في هذه المحافظة تدخل في فئة السلوك العدواني على اختـــلاف درجاته (شتم ، تحقيـــر ، ضرب ، جرح ، حمـل اسلحة الخ •••) وهي ايضا قد تكون ظرفية •

توزيع الانحراف في بيروت وضواحيها :

مصدر الاحداث في مدينة بيروت وضواحيها

الجدول رقم ٢

المنطقة / السنة	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	المجموع	
البرج، باب ادريس، المعرض، المحلات العمومية	٤٥	٣٧	١١٧	٥٧	١٥	١٠	٦	٢٨٧	
البسطة ، الباشورة	٨٠	٨٧	٦١	٣٨	٢٥	١٨	٢٩	٣٣٨	٩٧٢
المصيطبة كركول الدروز	٣٢	٢٦	٣٩	٤٩	٣٤	١٨	٢٧	٢١٥	
زقاق البلاط	٢١	٩	٤٧	٥٠	٢٦	٣	١٦	١٧٢	
خندق الغميق	٢١	٦	٣٠	٩	٨	١٤	٦	٩٤	
الصنايع ، تلة الخياط رأس بـيروت	٢٤	٣٠	٢٤	٣٣	٢٢	١١	٩	١٥٣	
الاشرفية ـ حي السريان كرم الزيتـون	٤٠	٣٠	٣٧	٢٥	٢٠	١٤	١٧	١٨٣	
طريق الشام ، رأس النبع بدارو	٦	٥	١٢	١٤	٧	١	٢	٥٥	
كورنيش المزرعة ، المزرعة	١٧	١٢	٦	٧	٨	١	٤	٥٥	
الأوزاعي ، بئر حسن	٢٣	٦	٢١	١٥	٦	٣	—	٦٤	
طريق الجديدة ، الحرج ، صبرا ، شاتيلا	٤٨	٥٨	٧٠	٦٤	٦٧	٣٩	٣٣	٣٥٩	١٢٣٩
تل الزعتر ، برج حمود ، النبعة الدورة ، المسلخ	١١٠	٧٢	١٩٦	١٠٤	٥١	٤٦	٢٨	٦٠٧	
عين الفيل ، برج البراجنة شيري ، دكوانة	٥٥	٤٢	٧٤	٥١	٣٠	٢٤	٣٣	٢٧٣	
بدون مأوى	١٥	١٧	١٨	٣٣	١٢	٥٠	١٠	١١٠	
من خارج بيروت	١٨	٣٢	٦١	٩٥	٥٢	٢٠	١٣	٢٩١	

المجموع ٣٢٥٧

من المهم جدا ان ندرس توزيع الانحـــراف على مختلف احياء العاصمة بيروت لانها تضم اكبر تجمع سكاني في لبنان من ناحية، وتحدث فيها اكبر كمية من النشاطات الاقتصادية مما يجعل امكانيـــــات الكسب الجانح كبيرة ويوفر فرصا تغري بالانحراف لا تتمتـــع بها بقية المناطق من ناحيـــة ثانية ، ولانها كمختلف المدن الكبرى في البلدان النامية تستقطب اعدادا سكانية كبيرة ومتنوعة

من حيث انتمائها تاتي طلبا للرزق وتظــــل هامشية من حيث درجة الانغراس الاقتصادي والثقافي والعمراني من ناحية ثالثة ٠

كل ذلك يجعل بيروت المركز الاساسي للانحراف الفعلي الذي يؤدي فـــي كثير من الحالات الى الاحتراف ٠ هذا من الناحية النظرية ولننظر قليلا فـــي الجدول السابق رقم (٢) لنرى الى اي مدى تنطبق النظرية على الواقع ٠

يتوزع الانحراف في العاصمة تبعا للجدول في مناطق ثلاث اساسية :

ا ـ الحزام المحيط ببيروت : والذي يذهب من المسلخ في الشمال الشرقي ثم برج حمود والدورة والنبعة الى تل الزعتر وسن الفيل والدكوانة ومنها الــى الشياح والغبيري وبرج البراجنة ثم الحرج وشاتيلا وصبرا ٠ ويستقطب هــذا الحزام العدد الاكبر من الحالات ١٢٣٩ ٠ وهذه الظاهرة تتكرر في الكثــير من عواصم البلدان المتقدمة والنامية ، حيث تقوم حولها احياء هامشية تتكون من خليط سكاني ، يتميز بظـــاهرة ما تحت التكديح ، حيـــث يكون السكان غير متخصصين مهنيا ، ذوي مستوى اقتصادي متواضع ومستوى ثقافي جد محدود وامكانات تربوية ورعائية هزيلة للابناء ٠ من هذه الاحياء تأتي اكبر نسبة من الاطفال الذين يظلون خـــارج المدرسة اولا يتكيفون لها ويميلون الى التشرد والبحث عن الكسب الانتفاعي ويسيرون تدريجيـا نحو الانحراف مع الاقتراب من المراهقة ٠

ب ـ منطقة بيروت الغربية: وتشكل مركز الثقل الثاني في الانحراف حيث يبلغ مجمل عدد الجانحين القادمين منهـــا ٩٧٢ ٠ تتميز هذه المنطقة بتجاور تجمعات سكانية ذات مستوى اقتصادي اجتماعي ثقافي مرتفع وهي فئات سكانية منغرسة جيدا في احيائها ، وتجمعات اخرى على النقيض من الاولى ٠ وتتكون هذه الاخيرة خصوصا من النازحين من الريف منذ فترة بعيدة نسبيا ٠ ولكنها لا زالت متواضعة واحيانا معدمة في مستواها الاقتصادي والاجتماعي ٠ وهي تسكن البيوت القديمة غير الصحية في تلك المناطق ٠ واحيانا يأخذ السكن شكل جزيرات صغيرة من مدن الصفيح ٠ ويقترب السكان كثيرا في وضعهم العام من سكان المناطق الهامشية المحيطة ببيروت ٠ انما هذه التجمعات في طريقها الى الزوال التدريجي نتيجة لمختلف مشاريع التنظيم المدني التي تخترق تلك الاحياء، ونشاط حركة البناء فيها ٠ على كل حال يعيش هؤلاء نفس نموذج حياة المناطق الهامشية ويخضعون لنفس الظروف والضغوط، وان كانت احوالهم اكثر ملاءمة في بعض الاحيان ٠ ويقترب من هذا الواقع السكاني احد احياء المنطقة الشرقية

وهو كرم الزيتون الذي يضم تجمعات بشرية بائسة وهامشية ٠

جـ ـ تبقى منطقة البرج ، المعرض ، باب ادريس ، المحـــلات العمومية ، تقترب منها من حيث الخصائص منطقة الزيتونة ٠ هذه المناطـــق تضم اساسا الاطفال والاحداث المشردين وتعتبر مراكز استقطاب كل الجانحين القادمين من بقية الاحياء او الضواحي او المناطق خارج بيروت ، والطامعين في الانغماس في مغريات الانحراف ٠ فاذا اضفنا الى سكانهـــا الاصليين اولئك الذين بدون مأوى والقادمين من خارج العاصمة اصبحت تشكل مركز الثقل الثالث من حيث عدد حالات الانحراف ٠ والواقع ان هذه المناطق تشكل ميادين ارتزاق ومناطق نفوذ للجانحين المحترفيـــــن الذين يسيطرون على النشاطـــات الجانحة فيها ويستقطبون الاطفال المشردين القادمين حديثا الى العاصمة ٠ فيها تزدهر كـــل التصرفات الجانحة وشبه الجانحة التي تشكل خامة متنوعة من النشاطات يتدرب عليها الجانح الصغير في تدرجه نحو الاحتراف ٠

اما بقية الاحياء فنصيبها من الانحراف قليل ٠ وقد تتاح لنا فرصة لبحث خصائص التصرفات الجانحة التي تظهر فيها ٠

موجز القول يتضح ان مناطق الانحراف في العاصمة تتطابق تقريبا مع مناطق تواجد التجمعات السكانية غير المنغرسة اجتماعيا والضعيفة اقتصاديا وغيـر المتخصصة مهنيا والبائسة ثقافيا ٠

تبقى ملاحظة اخيرة على هذا الجدول ٠ اذ يتضح مـــن بحث تغير عدد الحالات في مختلف السنوات انخفاض هائـــل يقترب من النصف في السنوات الثلاث الاخيرة التي حدث فيها تراخ كبير في الملاحقة ٠ انخفض العدد في منطقة البرج مثلا من ١١٧ عام ١٩٦٥ (سنة الحملة على التشرد) الى ٦ حالات عام ٦٩ وهو أمر لا يمكن ان يعكس واقع الانحراف بأي حال من الاحوال ٠

٣ ـ تابعية الاحداث الذين انتهت دعاويهم :

يستقطب لبنان اعدادا لا بأس بها من غير اللبنانيين عربا واجانب ، وذلك على مختلف المستويات السكانية : طبقة رجـــال الاعمال ، ذوي المهن الحرة ، وايضا الفئات ما تحت الكادحة التي تأتي من مناطق زراعية معدمة من خارج البلاد ٠ وهذه الاخيرة نتيجة لوضعها الركيك تتعرض بعد ان تستقر في الاحياء الهامشية الى تحديات كثيرة تكشف ضعفها ٠ ولذلك يبرز بينها العديد مـــن حالات التفكك الاسري وسوء التكيـــف الاجتماعي ، وخصوصـــا سوء تكيف

الابناء • على انه لا يجوز التسرع والجور في الحكم بالصاق ظاهرة الانحراف في المجتمع بها دون سواها • فلدينا جدول يبين ان نسبتها في مجموع الحالات التي انتهت دعاويها ضئيلة اجمالا •

الجدول رقم ٣ ـ تابعية الاحداث الذين انتهت دعاويهم

السنوات	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
العائدية :								
لبناني	١٥٩٧	١٧٠٦	١٤٣٦	١٣٨٧	١٣٢٣	١١٤٢	١٢٠٩	٩٧٠٠
سوري	٩٥	١٣٨	٢٢٥	١٨٥	١٣٤	١٢٧	١٤٢	١٠٤٦
فلسطيني	١٥٣	١٠٨	١٦٦	١٢٩	١٠٩	٩٠	٧٤	٨٢٩
كردي	٤٤	٤٦	١٣٣	٧٩	٥٥	٤٤	٢٢	٤٢٣
نور رحل	١٧	٣٣	٢٧	١٩	١٩	١٢	١٨	١٤٥
من بلاد عربية					١٢	٢٩	٣٢	+٧٣
من بلاد أجنبية		٨	١٣	١٩	٦	٣	١	+١٠
متكوم	٨				١٦	٢٣	٣٣	+٧٢
غير معروف	ـ	٥٨	٢٦	١٨	٢٨	١٦	٥٣	١٩٩
المجموع	١٩١٤	٢٠٩٧	٢٠٢٦	١٨٣٦	١٧٠٢	١٤٨٦	١٥٨٤	١٢٤٩٧

يبين لنا هذا الجدول ان الغالبية العظمى من الحالات وخلال جميع السنوات من اللبنانيين يأتي بعد ذلك السوريون اللذين يشكلون ١/٩ تقريبا من الحالات وتظل هذه النسبة ثابتة تقريبا • ويحل في المرتبة الثالثة الفلسطينيون، ١/١٠ تقريبا مع انخفاض عددهم في السنوات الاخيرة • واخيرا يأتي الاكراد•

ولا يشكل غير اللبنانيين نسبة تذكر من المجموع العام • الا ان هذه الارقام لا دلالة لها في حد ذاتها ولا بد من حسابها انطلاقا من مجموع الاحداث المقيمين من كل جنسية • عندها فقط يمكننا أن نجزم بالامر ونحدد مستوى الانحراف فيها • ولكن هذه الاحصائيات لم تتوفر لنا في بحثنا •

فاذا نظرنا في توزع غير اللبنانيين على مختلف المحافظات ، كما ورد في تقرير الاتحاد لحماية الاحداث ، لوجدنا ان بيروت تستقطب القسم الاكبر منهم اجمالا ، خصوصا السوريين ، الفلسطينيين ، الاكراد ، النور الرحل والغرباء بشكل منتظم وثابت خلال الاعوام ٦٣ ـ ٦٦ •

اما فيالاعوام ٦٧ الى ٦٩ فينتشر السوريون والفلسطينيون في جميـع المحافظات · ويقل عددهم في بيروت بمقدار انتشارهم ·

اذا تستقطب بيروت كعاصمـة معظـم العناصر الهامشية التي تحاول الارتزاق كيفما تيسر ، خصوصا من خـلال الاعمال اليدوية غير المتخصصة ذلك امر منطقي نظرا لما تقدمه من امكانات لهذا الشكل من الكسب· هذا الواقع يتلاقى اجمالا مع قوانين توزع السكان حول عواصم البلدان النامية ·

٤ ـ طبيعة الافعال الجانحة ·

بالاضافة الى حجم ظاهرة الانحراف كمؤشر على خطورتها ، هناك نوع التصرفات الجانحة، او ما يطلق عليه علميا الشكل والشدة· نوع تلك التصرفات يقرر درجة خطورة الظاهرة · فلو سادت مثلا مخالفات المزروعات والرعي في منطقة ما دل ذلـك على قلة الخطورة علـى العكس تمامـا لو سادت جنح وجنايات السرقة البسيطة والموصوفة التي تمـيز تصرفات المنحرفين السائرين نحو الاحتراف ، او اذا سادت التصرفات الجانحة المتخصصة كالنشل مثلا ، اذ أن الانخراط في هذا النوع من السلوك المنحرف يشكل اغراءا كبيرا للحدث بما يقدمه من ثمار سهلة يجعل امكان التحرر منه والعودة الى الحياة المتكيفة أمرا صعبـا ·

ولقد ضم تقرير الاتحاد لحماية الاحداث مجموعة من الجداول تبين توزيع الافعال الجانحة على مختلف السنوات وفي مختلف المحافظـات لخصناها في جدول واحد اجمالي : ولكننا سنلجأ حين تحليلنا له الـى الجداول التفصيلية الاصيلة ·

يتضح من الجدول رقم ٤ ان الافعال الجانحة تتوزع كالتالي من حيث حجم تكرارها ·

- سرقات عادية وموصوفة مع نشل :٣٢٢٦
- شتم وتعد وضرب وجرح وقتل وتسبب بوفاة : ٢٦٨١
- مخالفات مزروعات : ٢٦٧٧
- افعال جنسية متنوعة وتشرد : ١٧٣
- حمل أسلحة وصيد ممنوع : ٥٩٦
- العاب ممنوعة وتهريب : ٢٦٨١
- حريق وتسبب بحريق : ١٤٠

جدول رقم ٤

توزيع التصرفات الجانحة

السنة / نوع الجرم	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع	
سرقات موصوفة : وعادية	٤٥٠	٥٢٣	٤٦١	١٤٨	٥٢٢	٤٣٣	٥١٨	٢٩٥٥	٣٣٢٦
نشل ومحاولة نشل	٢١	٢٠	٧١	٥١	٥٦	٤٠	١٢	٣٧١	
ألعاب ممنوعة وتهريب دخان	٢٣٢	٩١	٣٢٩	١٧٧	٣٨	١٩	٨	٩٩٤	١٣٨١
تشرد وتسول	٣٣	٢٤	١٧٢	٨٩	٢١	٢٤	٢٤	٤٨٧	
شتم وتحقير وتعدي	١١٤	٨٤	١٠٨	١٩٢	١٣٧	١١٢	١١٢	٨٦٩	
ضرب،جرح،إيذاء	٢٧٦	٣١٠	١٩٥	١٩٩	٢٤٥	٢٣٢	٢٢٦	١٦٨٣	٢٦٨٢
قتل ومحاولة قتل وتسبب بوفاة	٣٣	٢٦	١٥	١٢	٧	١٥	٢١	١٢٩	
حريق	٢٢	١٧	٢٠	١٩	٣٠	١٦	١٦	١٤٠	
مخالفات رعي إتلاف مزروعات	٤٧٢	٥١٥	٤٠٣	٢٩٠	٣٦٨	٣١٤	٣١٤	٢٦٧٧	
حمل اسلحة وصيد ممنوع	٧٥	١١٦	٥٣	٨٢	٧٥	٩٩	٩٦	٥٩٦	
لواط محاولة لواط فض بكارة،دعارة	٨	٤	١٣	١٥	٣٩	١٨	٢٤	١٢١	١٧٣
فعل مناف للحشمة، تحرش بقاصر	١٠	٦	١	٢	١٣	٧	١٣	٥٢	

تاتي في المقدمة اذا السرقة على مختلف انواعها ودرجة تخصصها ، وتليها التصرفات العدوانية على مختلف درجات خطورتهـــا ثم المخالفات الزراعية ثم الالعاب الممنوعة والتشرد ثم حمل الاسلحة ثم الافعال الجنسية ٠

هذا التوزيع يعكس ظاهريا الواقع كما يفترض منطقيا ٠ اذ من المعروف ان جنح السرقة على اختلافها تحتل عادة اكبر نسبة من احصائيات الانحراف ٠ الا

ان ما يلفت النظر هو ارتفاع نسبة حالات السلوك العدواني الذي لا يبتعد كثيرا عن حالات السرقة · كما ان الامر الملفت للنظر اكثر من ذلـــك هو ارتفاع نسبة المخالفات الزراعية لدرجة ادت الى تضخم الاحصائية · ان ارتفاع نسبة السلوك العدواني والمخالفات الزراعية تعطي لانحراف الاحداث في لبنان طابعا زراعيا بدائيا· اذ من المعروف انه كلما تطورت النشاطات في مجتمع ما وسارت نحو الصناعة والتقنية ارتفعت نسبة الافعال الانتفاعية (على اختلاف اشكالها من سرقة وغيرها) وكلما تخلف المجتمع ارتفعت نسبة الافعال العدوانية · فهل تعكس هذه الارقام واقع الحال أم ان هناك ضرورة لايجاد تعليل لذلك ؟ وبكلمة اخرى هـــل صحيح ان الانحراف في لبنان ذو طابع ريفي اساسا ام لا ؟ ·

للاجابة على هذه التساؤلات يجب أولا استبعاد مخالفات المزروعات لانها كما سبق ان بينا لا تشير الى انحراف فعلي بقدر ما تـــــدل على وجود نزاعات وخصومات بين مختلف الجماعات السكانية الريفيـة تجعل الامر يأخـذ طابع الانتقام من ناحية وطابــــع انتهاز هذه الفرصة لاثارة الملاحقـــة القضائية بحق الخصوم وتكديرهم من خلال الشكوى على ابنــــائهم · ان مخالفات المزروعات يمكن اعتبارها ظاهرة صراع جماعي اكثر مما هي سلوك فردي منحرف· وبالتالي فان الحدث المخالف لا يمكن اعتباره من الناحية الاجتماعية النفسانية جانحا لان مخالفته لا تؤدي به بالضرورة الى التوجه نحو الانحراف كأسلوب حياتي ·

يبقى البحث فـــي نسب السرقة وافعـــال العنف · وهنا علينا ان نرى خصوصا توزيع افعال العنف على مختلف المحافظات كي نتمكن من تكوين فكرة عن درجة خطورتها ، حيث ان افعال العنف في المناطق الحضرية تتضمن درجة اعلى من التوجه نحو الانحراف والتصرفات المضادة للمجتمـــع لانها اساسا ظاهرة فردية · اما في الريف فيغلب على العكس ان تدخل الافعال العدوانية في اطار الصراعات المحلية بين الاسر والعشائر والتجمعات المتناحرة · وبالتالي فالحدث لا يكون عدوانيا لحسابه الخاص بقدر ما يعبر عن صراع الجماعة التي ينتمي اليها مع بقية الجماعات ·

ولتوضيح هذا الامر قمنا بمقارنة افعال العنف بالنسبة للسرقة من ناحية وبالنسبة لمجموع الانحرافات من ناحية في كل من المحافظـــــات الخمس خلال سنوات ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ اخترناهـــا لانها تشكل سنوات استقـــرار في ارقام الاحصائيات · (أنظر جدول رقم ٥)

جدول رقم ٥

المنطقة	بيروت			لبنان الشمالي			البقاع			لبنان الجنوبي			جبل لبنان		
السنة	٦٤	٦٥	٦٦	٦٤	٦٥	٦٦	٦٤	٦٥	٦٦	٦٤	٦٥	٦٦	٦٤	٦٥	٦٦
نوع الجرم :															
سرقات عادية وموصوفة ونشل	١٢٥	١١٧	١٩٠	١٩٩	١٣٠	١٢٢	٨١	٤٨	٤٦	٦٥	٥٥	٦٤	٧٣	٧٧	١٢٥
شتم ضرب، جرح قتـــل	٦٩	٤٧	٨٦	١٤٧	١١٧	٨٥	٧١	٤١	٣٩	٩٤	٦٤	٩٧	٣٩	٤٧	٩٦
المجموع بالنسبة للمنطقة	٧٧	٨٤٥	٦٧١	٤٧٦	٣٣٢	٢٨١	٢٩٢	١١٤	١١٢	١٩٧	١٧٢	٢٠٥	١٤٩	١٤٠	٢٧٧

لقد اسقطنا عمدا من احصائيات المحافظات مخـــالفات المزروعات التي اشرنا الى عدم تعبيرها عن مشكلة الانحراف ٠

نرى من هذا الجدول ان الافعال العنيفة اقل بانتظام وبفوارق واضحة من السرقات في كل من بيروت وجبل لبنان وان نسبتها ضئيلة الى العـــدد الكلي لحالات الانحراف في هاتين المحافظتين ٠ بينما تقترب في حجمها من السرقات في محافظة الشمال مع زيادة طفيفة في الثانية٠أما في البقاع فيتساوى النوعان من الجنح ولكن نسبتها الى مجموع الحـــالات اكبر بكثير ، مما يعطيها وزنا اكبر ٠ وأما في محافظة الجنوب فان عدد حالات اعمـــال العنف يفوق بانتظام حالات السرقة ، ويحتل نسبة هامة من مجموع الانحرافات ٠

هذه الوقائع تؤيد افتراضنا في ان اعمـال العنف ريفية أساسا وبالتالي فخطورتها من الناحية الاجتماعية النفسانية قد لا تكـون كبيرة نتيجة للاسباب التي بينّاها اعلاه ٠ ويمكن ان تفسر هـــذه الامور بشكل آخر ٠ ففي البقاع والجنوب امكانيات الجنح الانتفاعية قليلة اجمالا لانعدام الفرص ٠ وذلك على عكس بيروت وجبـــل لبنان والشمال بعاصمته التي تتمتـــع بدرجة حسنة من النشاط الاقتصادي ٠

وهناك تفسير آخـــــر يمكننا تقديمه وهو ان افعال العنف معرضة اكثر للملاحقة سواء من قبل الضحية او من قبل رجال الامن ، من افعال السرقة التي يظل جزء كبير منها مستترا ٠ الواقع ان معيار قوة الملاحقة وفعاليتها ينعكس في مدى الاهتمام الذي يوجه الى تلك الافعال التي تتعرض الى البقاء مستترة في معظمها ٠ دليلنا على ذلـــك هو في استعراض حالات التهريب والالعاب الممنوعة والتشرد في سنة التشدد بالملاحقة عام ٦٥ وسنوات التراخي عام ٦٧، ٦٨ ، ٦٩ في مدينة بيروت ٠

السنة	٦٥	٦٧	٦٨	٦٩
نوع الفعل :				
مراهنة وتهريب دخان والعاب ممنوعة	٢١٧	٢٨	١٤	٣
تشرد وتسول	١٥٧	١٨	١٨	١٢

هذا التفاوت الكبير في عدد الحـــــالات لا يقابله تفاوت مماثل بالنسبة لافعال العنف التي حافظت على مستواها اجمالا مع ميل الى الانخفاض يتمشى

مع الانخفاض العام في ارقام الاحصائيات ٠

فاذا اعتبرنا ان افعال التسول والتشرد والالعاب الممنوعة تتم اجمالا في محيط يتميز بسيادة النشاط الجانح والقيم المنحرفة ، اي في محيط يتضمن درجة عالية من خطورة التوجه نحو الانحراف كأسلوب حياتي ، **اتضح لنا ان الملاحقة كما تدل الاحصائيات لا تطال دائما الافعـال الجانحة التي تتضمن درجة عالية من الخطورة بالمفهوم الاجتماعي النفساني ٠ وان الانحراف الخطر يفلت منها في كثير من الاحيان** ٠ هذه الحقيقة تتمشى مع انطباعـات المختصين العاملين في الميدان كما سنرى في الفصل القادم ٠

لنتوقف قليلا عند الجدول رقم ٤ فهناك ملاحظات اخرى نود تسجيلها ٠

هناك اولا خانة حمل الاسلحة والصيد الممنوع ٠ انها تحتل مكانة متوسطة الا انها يجب في رأينا ان تخرج من الاحصائيات تمامـا كمخالفات المزروعات حينما نحاول ان نستشف خطورة ظاهرة الانحراف ٠ صحيح ان الفعل ممنوع قانونا انما لا يتضمن بالضرورة ميلا الى الانحراف بقـدر ما يدل على انتشار عادات شائعة تصطدم بالقانون الرسمي ، وبالتالي فمن الصعب ان نعتبر معظم هؤلاء من الجانحين ٠

ثم هناك ثانيا خانة الافعال الجنسية ٠ وهي تحتل مكانة متواضعة تماما في الاحصائية ٠ وهذا طبيعي ومنطقي حيث انهـا تظل خفية في معظمها لان الضحية لا تشتكي دائما خوفا من الفضيحة التي يتجاوز ضررها المعنوي الضرر المادي الذي لحق بها ٠

اخيرا نستطيع ان نحدد خانات خطورة الانحراف في هـذه الاحصائية بالاربعة الاولى ٠ فالسرقات والنشل والالعاب الممنوعة والتشرد هي من اكثر الوضعيات خطورة من حيث مصير الحدث وتوجهه المقبـل ٠ في هذه الخانات تحتل بيروت ومحافظة جبل لبنان المكانة السائدة ، ثم يأتي لبنان الشمالي في المرتبة الثالثة ٠ وبذلك نرى ان انحرافات هذه المناطق الثلاث يطغى عليها طابع الخطورة الاجتماعية بينما ان انحرافات البقاع ولبنان الجنوبي لا تتضمن نفس الدرجة من الخطورة للاسباب التي بيناها ٠ الا اننا يجب ان نتذكر ان سكان هاتين المحافظتين يعانون من حالة نزوح كثيف الى العـاصمة بيروت والى ضواحيها التابعة ادرايا لجبل لبنان ٠ وان وجودهم في هذه المناطق وبوضعية هامشية سبق ان تحدثنا عنها يعرض ابنـاءهم للانحراف ، الى حد كبير ٠

فالغالبية العظمى من حالات الانحراف الخطير الذي اشرنا اليه في بداية هذه الفقرة يقوم بها هؤلاء السكان · ومن ناحية ثانية فان العناصر الميّالة الى الانحراف في هاتين المحافظتين ينتهي مصيرها الى بيروت وضواحيها ، مشكلّة نسبة كبيرة من المشردين الذين لا مأوى لهم ·

القسم الثاني

الاحداث الجانحون وخصائصهم

يضم التقرير بعض الاحصائيات حول خصائص الاحداث الجانحين من حيث السن ودرجة التعليم والمهنة · ويهم الباحث النظر في هذه الخصائص ونسب توزيعها على مختلف السنوات وفي مختلف المحافظات ، مما يعطيه فكرة عن تغير الظاهرة وعن الفئة التي يشملها الاهتمام وتصل قضاياها الى المحاكم، كما يعطيه فكرة عن خطورتها الى حد ما · اذ كلما بكرت بوادر الانحراف في الظهور دل ذلك على زيادة خطورة الظاهرة بشكل عام ، لارتباط هذا الامر بدرجة اعلى من خطورة المحيط الذي نشأ فيه الحدث · ولكن نفس الامر قد يشير على عكس ذلك تماما ، الى وجود درجة عالية من الرقابة والعناية الموجهة الى الاحداث والتي تجعل الاجهزة المختصة تتحرك عند ظهور اول بوادر سوء التكيف ·

ا ــ سن الاحداث المنتهية دعاويهم :

جدول رقم ٦

السنة / الأعمار	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
٧ – ١٠	٢٩٢	٣٥٤	٤١٢	٢٥٣	٢٦٨	٢٤٥	٢١٦	٢٠٤٠ ٪١٦
١١ – ١٣	٨٤٥	٩٦٥	٨٥٠	٨٢٠	٧٠٥	٦٥٤	٧١٩	٥٥٦٨ ٪٤٤
١٤ – ١٥	٢٧٤	٧٤٨	٧١٢	٦٩٩	٦١٣	٤٩٣	٥٥٩	٤٥٨٤ ٪٣٦
أكمل ١٥	٣٥	٣٠	٤٢	٦٠	٨٥	٨٦	٧٤	٤١٢ ٪٤
غير معروف	—	—	—	—	٤	١	٩	١٤
المجموع	١٩١٤	١٠٩٧	٢٠٢٦	١٨٣٦	١٧٠٢	١٤٨٦	١٥٨٤	١٢٦١٨

يتضح من هذا الجدول ان حالات الانحراف تتوزع من ناحية العمر تبعا للنسب التالية :

ـ ١١ ـ ١٣ ٤٤٪ من الحالات ٠

ـ ١٤ ـ ١٥ ٣٦٪ من الحالا ت٠

ـ ٧ ـ ١٠ ١٦٪ من الحالات ٠

ـ ١٥ فما فوق ٤ ٪ من الحالات ٠

العمر الغالب اذا هو ١١ ـ ١٥ سنة ، ثم هناك مجموعة اخرى من ٧ـ١٠

سنوات ٠ وهذا التوزيع للاعمار منطقي ٠ اذ لا بد كي يتخـــــذ السلوك طابعا جانحا صريحا من وصول الطفل الى حد ادنى من نمو قواه الجسدية والعقلية يمكنه من مواجهة مستلزمات الانحراف ٠ أما قبل هذا العمـــر فيظل الانحراف على مستوى الميل ويقوم الطفل من هؤلاء بافعال هامشية على حافة القانون او مخالفة له تبقى اجمالا بدون ملاحقة اما لانها غير منظورة او لان المحيط يعتبرها اعمالا صبيانية لا تشكل خطورة تذكر ٠ فالطفولة تحظى ببعض التساهل ممـــا يجعل النظرة الى ما يصدر عنها اكثر تسامحا ٠ ولا بد ان تكون الافعال التي صدرت عن الاطفال ما بين عمر ٧ ـ ١٠ سنوات ملفتة فعلا للنظر ومثيرة للقلق في المحيط كي يصل امرها الى المحاكم ٠ وهي بالتالي تشكل درجة عالية مـــن الخطورة في نظر هذا المحيط على الاقل ٠

أما فيما يختص بالاعمــــــار من ١١ ـ ١٣ التي تشغـــل اكبر نسبة في الاحصائية فلا بد من طرح عدة تساؤلات حول سبب ارتفاعها ٠ اذ يمكن توقـــع

ارتفاع نسبة الاعمار ١٤ ـ ١٥ اكثر منها ٠ لان الانحراف في هذه الحالة يكون قد برز بشكل صريح يصعب تجاهله ٠

هنالك افتراض ممكن لتفسير هذه الظاهرة وهو ان الاطفـــال في البيئة المحلية يصلون درجة متقدمة من التفتـــــح والوعي في سن مبكرة ٠ وبالتالي يتوجهون الى التصرفات الجانحة في مرحلة مبكرة ٠ ويمكننا ان نزعم بهـــذا

الصدد ان اطفال ١١ ــ ١٣ سنة عندنـــا يوازون في درجة تفتحهم على الواقع المحيط بهم الاحداث من سن ١٤ ــ ١٦ في الغرب ويؤيد ذلك خروج الاحداث في سن مبكر الى معترك الحياة للكسب المشروع او غير المشروع بدافع العوز ، او بسبب تفكك المحيط او بتوجيه من أسرهم نفسها ، وكلها امور تسرع في عملية التفتح على الواقع ٠

ولكن اذا كانت هذه الملاحظات تفسر ارتفـاع نسبة اعمار ١١ ــ ١٣ عن نسبة ٧ ــ ١٠ فانها لا تفسر زيادتها عن نسبة اعمـــار ١٤ ــ ١٥ سنة ٠ فمن المنطقي في حالة نقص التجهيزات الرعائية التي يعـــاني منها هذا القطاع ان يتراكم العدد وترتفع النسبة بتقدم العمر ٠

يمكن تقديم تفسير فرضي لهذا الامر وهو ان فئة ١١ ــ ١٣ الحديثة العهد بالانحراف تكون اقرب منالا من حيث امكانية ملاحقتها من فئة العمر ١٤ ــ ١٥٠ فهي لا زالت اكثر احتكاكا بالمحيط الطبيعي (الحي والاسرة) ولم تضيع بعد في عالم الانحراف وتجمعاته التي تتخذ طابعا مغلقا ٠ وهي من ناحية اخرى أقل قدرة على مقاومة الملاحقة والافلات منها ٠ أما بعد هذا السن فالحدث المتوجه نحو الانحراف يكون قد انتمى الى العالم الجانح الى حد بعيد وتسلح بالكثير من اساليب الافلات من الملاحقة ٠

اما من ناحية توزيــــع الاعمار على المحافظات الخمس فـــان الجداول التفصيلية تظهر لنا ما يلي :

ــ ان فئة اعمار ٧ ــ ١٠ تأتي خصوصا من محافظـــات لبنان الشمالي والبقاع ولبنان الجنوبي ٠ وتنخفض هذه النسبة كثيـــرا في محافظتي بيروت وجبل لبنان ، ما عدا بعض الاستثناءات عامي ٦٥ و ٦٦ حيث تتعادل بيروت مع بقية المناطق ٠

ــ تتوزع فئة ١٠ ــ ١٣ بشكل متقارب على جميع المحافظات مع ارتفـــاع كبير في بيروت عامي ٦٥ و ٦٦ يليه بعض الانخفاض في السنوات التالية ٠

ــ اكبر نسبة من فئة ١٤ ــ ١٥ سنة وكذلك من اتموا الخامسة عشرة تأتي من بيروت ٠ هذه الظاهرة يسيرة التفسير ، حيث ان بيـــروت تستقطب عادة العناصر الجانحة التي تقدمت نسبيا في الانحراف مع تقدم السن لما تهيئه لهؤلاء

من امكانيات وفرص كبيرة للانحراف لا يقدمها لهم الريف · فالجانح المحترف كرجل الاعمال الناجح يترك موطنه الاصلي في المحافظات ويقبل على العاصمة بحثا عن افاق اوسع ، ومجالات ارحب لنشاطه ·

ب ـ الحالة التعليمية :

الجدول رقم ٧

السنة	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	المجموع
الحالة التعليمية :								
اميون	٩٦٠	٩١٦	١٢٢٦	١٦٠٩	٨٠٨	٤٨٢	٦٩٧	٦١٥٨
متعلمون	٩٥٤	١٠٢٤	٧٢٣	٦٨١	٧١٥	٨١١	٧٣٩	٥٦٤٧
غير معروف	–	١٥٧	٧٧	٨٦	١٧٩	١٩٣	١٤٨	٨٤٠

ملاحظات عدة يمكن استخلاصها من هذا الجدول · ولكن قبل ذلك علينا ان ننظر في دلالة محك التعليم · كيـــف يتوزع المتعلمون من حيث المستوى الدراسي ؟ وما هو الحد الادنى الذي يمكننا ان نصنف الحالة على اساسه في فئة المتعلمين ؟ الى اي مدى هناك انتظام في دراسة المتعلمين بشكل يصبح معه الفعل الجانح امرا عارضا ؟ كل هذه الاسئلة على اهميتها لا نجد معطيات في الاحصائيات تمكننا من استخلاص جواب عنها ·

تدل التجربة العملية مع الاحداث الجانحين ان قسما لا يستهان به منهم ممن يطلق عليهم لقب متعلمين لم يتجاوزوا المبادىء الاولية في هذا المضمار · وان معظمهم سبق له ان تردد على المدارس خلال عدة سنوات · انما كانت حياته المدرسية تتميز بعدم التكيف الواضح : دراسة غير منتظـــمة ، غياب متكرر ، هروب ، تغيير المدرسة عدة مرات ، وفشل دراسي في جميع الحالات ، مما يجعله يترك الدراسة وهو شبه أمي ·

على كل حال يلاحظ من الجدول زيادة عدد الاميين على المتعلمين ، مع بعض التذبذب خلال مختلف الاعوام · وهكذا تتساوى اعداد الفئتين تقريبا في عامي ٦٣و٦٤ · وهما عاما الاستقرار في توزيع العينة على مختلف المستويات· اما في عامي ٦٨و٦٩ فيزيد عدد المتعلمين عن عـدد الاميين خصوصا عام ٦٨ حيث يكاد يبلغ الضعف تقريبا · وهذه ظاهرة تستدعي التفسير لما يمكن ان يكون لها من دلالة · وحتى نقوم بذلك يمكننـــا ان ننظر في تذبذب عدد الاميين خلال جميع السنوات وكذلك عدد المتعلمين · فنرى ان عـــدد الاميين يتذبذب بشكل واضح تبعا لمختلف الاعوام · يصل اقصاه عام ٦٥ (عام التشدد في الملاحقة) وينخفض الى ادناه عام ٦٨ ثم ٦٩ (وهما عاما التراخي في الملاحقة) · اما اذا نظرنا في عامود المتعلمين فنلاحظ ثباتا نسبيا في العدد بين مختلف الاعوام· **ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان عدد المتعلمين يعكس الى حد ما نسبتهم العامة في مجموع الجانحين·اما عدد الاميين فهو لا يعكس الواقع تماما الا في سنوات الملاحقة · وقد نستطيع الافتراض من خلال ذلك ان الاميين يشكلون في الحقيقة الفئة الاساسية من الجانحين المائلين الى الاحتراف والذين ينغمسون في عالم الانحراف** (ألعاب ممنوعة ، تهريب ، تشرد ، سرقة ، نشل ، وهي بالضبط الحالات التي زاد عددها عام ٦٥ عندما قامت حملة مكافحة التشرد) ·

أما المتعلمون فيشكلون تلك الفئة من الاحـــداث ذات الوضع الاجتماعي المتماسك الذين انحرفوا لاسباب نفسية اساسا · ودليلنا على ذلك ان اكبر نسبة للمتعلمين بين الجانحين تأتي من محافظة جبل لبنان ·

اما في بيروت فتتعادل النسب اجمالا ما عدا بعض السنوات ومنها عام ٦٥ و ٦٦ ·

فاذا نظرنا في توزيع الحالة التعليمية في محافظة الشمال نجـد طغيانا واضحا لنسبة الاميين التي تزيد عن نسبة المتعلمين بمقدار النصف الى الثلث ·

أما في محافظة البقاع فلا يلاحظ فروقات هامة في النسب وكذلك الحال في محافظة الجنوب ، ولكن هناك تذبذبا اكبر في المحافظة الاخيرة من عام لآخر ·

نستخلص من ذلك **ان بيروت تستقطب اجمالا اكبر نسبة من الاميين الذين نشاوا فيها او اتوا من الاقاليم والذين يتوجهون نحـــو الانخراط في الحياة الجانحة المحترفة · وهذا ما يؤيد استنتاجاتنا السابقة حول طبيعة الافعـــال الجانحة وحول السن ·**

ج ـ مهنة الحدث :

الجدول رقم ٨

السنة	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع	
المهنة :									
تلميذ	٥٦٤	٧١٥	٦٠٨	٦٧٣	٥٧٣	٥٦٠	٦٢٤	٤٣٢٧	
راع وفلاح	٤٤٠	٣١٠	١٨٩	١٢٣	٦٦	٦٦	١٥٥	١٣٤٩	
عامل مهن مختلفة	٢٨٤	٣٠٤	٢٧٥	٢٧٤	٢٦٨	١٧٠	٢٢٥	١٨٠٠	٢٦٧٣
مستخدم	٩٦	١١٨	١١٣	١٨١	٢٣٤	٨٨	١٥٣	٨٧٣	
بائع متجول	٣١	٤٨	٨٢	٤٥	١٩	٣١	٢١	٢٧٧	
مراهنة والعاب ممنوعة	١٥٧	١٢٥	١٤٤	٦٤	٢٢	٢	—	٥١٤	٢٥٠٨
بدون عمل متشرد	٢٦٢	٢٥٢	٤٨٧	٣٥٢	٢٥٣	١٨٥	٢٠٣	١٩٩٤	

يتضح من هذا الجدول ان الحالات تتوزع كما يلي تبعا لعددها ٠

ـ تلاميذ : ٤٣٢٧

ـ بدون عمل
ومتشرد : ١٩٩٤

ـ عامل مهن مختلفة : ١٨٠٠

ـ راع وفلاح : ١٣٤٩

ـ مستخدم : ٨٧٣

ـ مراهنة والعاب :٥١٤
ممنوعة

ـ بائع متجول : ٢٧٧

الغالبية العظمى اذا من التلاميـــذ ٠ الا ان ذلك يحتـــاج الى كثير من التفصيل ٠ فهل نحن بصدد تلاميذ مندمجين ومتكيفين دراسيا ، انحرفوا بطريق الصدفة، ام بصدد حالات تنحرف موسميا (في الصيف، بعض المواسم الخ٠٠٠) أم امام حالات غير متكيفة مدرسيا وسائرة تدريجيا في طريق الانحراف كمـــا بينّا في الفقرة السابقة ؟

وما يصدق على هذه الفئة ينطبق الى حد ما على فئـــة العاملين في مهن مختلفة والمستخدمين ، هل هم متدامجون مهنيـــا أم لا ؟ اذ من المعـــروف ان السير نحو الانحراف يمر بسوء التكيـــف المدرسي في سن التلمذة ثم يتحول الواحد منهم الى العمل وهنا يتكرر سوء التكيف على شكـل تغيير مهن متعددة

وأرباب عمل كثيرين في مدة وجيزة من الزمن مع ازدياد تدريجي لفترات البطالة وتحول نحو النشاطات المخالفة للقانون ·

ثم تأتي فئة العاطلين عن العمل وهي تشكل رقما لا بأس به ، خصوصا اذا اضيف اليها عدد الذين يمارسون العابا ممنوعة (غير متكيفون مهنيا بشكل قاطع) اذ يزيد مجموعهم عن نصف مجموع التلاميذ ·

ولقد كان من المفيد كثيرا لو وضعت احصائية تبين العلاقة بين العمر والمهنة ، فذلك يمكننا فعلا من تقدير خطورة الظاهرة بشكل دقيق · اذ لو كان التلاميذ من اعمار متقدمة ١٤ ــ ١٥ او حتى لو انتشروا على مختلف الاعمار التي تشملها الاحصائيات ٧ ــ ١٥ لدل ذلك على عدم خطورة الظاهرة ، اذ نكون عندها بصدد انحراف قابل للاصلاح ·

أما اذا كان التلاميذ من اعمار صغيرة اجمالا (فئة ٧ ــ ١٠) وكان العاطلون عن العمل من فئة متقدمة في الحداثة (١٤ ــ ١٥ سنة) وكان العاملون يتجمعون بين هاتين الفئتين ، لكانت دلالة الظاهرة خطيرة الى حد بعيد · اذ تعكس عندها خطوات التدرج نحو الحياة الجانحة ·

هناك بعض عناصر الجواب على هذه المسألة يمكن استخراجها من دراسة الاحصائيات التفصيلية لتوزيع المهن في مختلف المحافظات ، حيث يلاحظ ما يلي :

١ ــ في بيروت : نسبة العاطلين عن العمل واعمال المراهنات تبلغ بانتظام نصف المجموع الكلي للجانحين خلال السنوات ٦٣ الى ٦٦ · وهذه الاعداد هي التالية :

عام	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦
العاطلون عن العمل ، مراهنات	٣٠٦	٢٣٠	٤٥٩	٢٥٦
العدد الكلي للحالات	٥٢٣	٤٧٧	٨٤٥	٦٧١

أما في الاعوام ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، فلدينا المعدلات التالية :

عام	٦٧	٦٨	٦٩
عاطلون عن العمل ، مراهنات	١٤٣	٥٣	٦١
مجموع كلي	٣٨٣	٢٣٥	٢٣٦

نستنتج من ذلك ان نسبة غير المتكيفين مدرسيا ومهنيا تصل ذروتها في بيروت ، وان هذه النسبة تنحسر كثيرا في سنوات تراخي الملاحقة ·

ولقد سبق ان بينّا ان بيروت تستقطب اكبر عدد من الاحداث الجانحين الاميين ، وان اكبر نسبة من فئة ١٤ ـ ١٥ ومن اكملوا الـ ١٥ عاما تاتي ايضا من بيروت · واخيرا اتضح ان بيروت تستقطب اكبر عدد من حالات الجانحين الذين تدرجوا في الانحراف واقتربوا من الاحتراف · كل ذلك يجعل الظاهرة خطيرة بناء على افتراضنا الاساسي الذي اوردناه في الفقرة السابقة ·

فاذا نظرنا في توزيع المهن في محافظات الجنوب والبقاع والشمال نرى توكيدا لافتراضنا ·

يلاحظ من الاحصائيات التفصيلية طغيـــان نسبة التلاميذ على مجموع الحالات في هذه المحافظات كالتالي :

نسبة عدد التلاميذ الى المجموع الكلي للحالات

الجدول رقم ٩

الاعوام / المحافظات :	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩
جنوب	١٧٧ / ٤٢٦	١٧٦ / ٢٩٩	١٧٩ / ٣٤٢	٢١٩ / ٣٣٧	١٩٤ / ٢٩٦	١٧٤ / ٢٥٢	١٢٧ / ٢٢٦
بقـــاع	٩٧ / ٤١٥	١٢٩ / ٥١٨	٧٩ / ٤٣٧	٤٥ / ١٧٤	٤٥ / ٩٢	٤٤ / ٨١	٩٦ / ٢٥٨
شمال	١٣٢ / ٣٥١	٢٢٠ / ٦١٧	١٤٥ / ٤٠٧	١٢٦ / ٣٤٦	١٦٠ / ٤٣٩	١٠٠ / ٢٢٤	١٥١ / ٤٥٧

ويأتي عدد الرعاة والفلاحين في المحافظـــــات الثلاث قبل عدد التلاميذ اجمالا وهو المسؤول عن تضخم المجموع الاجمـــالي لحالات الانحراف في هذه المحافظات ·

فاذا رجعنا الى الملاحظات الواردة حول جدول توزيع الاعمار اتضح لنا ان المحافظات الثلاث تقدم اكبر نسبة من الاحداث في فئة عمر ٧ ـ ١٠ سنوات·

هذه المعطيات تؤكد افتراضنا مرة ثانية · ويمكننـــا اذا القول ان طغيان عدد التلاميذ في الجدول رقم ٨ (مهنة الحدث) لا يعني مطلقا انعدام خطورة

الظاهرة ، بل على العكس ان هذه **الخطورة اكبر بكثير مما يعكسه الجدول الذي يكاد يخفيها**. وان عدد التلاميذ المرتفع يتناسب مع عدد الحالات الصغيرة السن اكثر مما يعني انعداما في الخطورة . **اذا نحن امام ظاهـــــرة انحراف تزداد خطورة مع التقـــدم في السن . اذ تسير الحـــالات من وضع التلمذة في فئة الاعمار ٧ ـ ١٠ الى وضع البطالة والتشرد والالعـــاب الممنوعة في الفئة من ١٤ ـ ١٥ و ١٥ فما فوق .**

اما محافظة جبل لبنان فتسود نسبة التلاميـــذ في العدد الكلي لحالاتها خلال جميع السنوات بدون استثناء. كما تنخفض في نفس الوقت نسبة العاطلين عن العمل والمراهنين . فاذا علمنا من جداول توزيـــع الاعمار ان فئة ٧ ـ ١٠ ضئيلة العدد في هذه المحافظة ، وان الفئة السائدة هي على العكس فئة ١١ـ١٣ ثم فئة ١٤ ـ ١٥ ، امكننا القول انه في هذه المحافظة فقط تعكس مهنة الحدث وضعه بشيء من الدقة من حيث خطورة انحرافه . الارقام تدل على درجة خفيفة من الانحراف (انحراف عارض او موسمي) ضمن حيـــاة متدامجة مدرسيا واجتماعيا . وهذا يؤكد الافتراض الذي سبق ان قدمناه بخصوص العلاقة بين الانحراف والحالة التعليمية في هذه المحافظة في تعليقنا على الجدول رقم ٧ .

القســم الثــالث

الوضع العائلي للاحداث الجانحين

يحتل الوضع الاسري مكانة رئيسية في دراسة الانحـــراف واضطرابات السلوك والشخصية عموما . فالاسرة هي البيئة الحتمية التي ينشأ فيها الطفل. وتأثيرها حاسم عليـــه على جميع المستويات . ضمنهـــا تبنى الركائز الاساسية للشخصية ، ومن خلال معاييرها وقيمها يتقنى السلوك سويا كان ام مرضيا . الاســـرة هي مركز الوصل والتفاعل بين البيولوجي والاجتماعي ، وعن هـــذا التفاعل ينشأ النفساني الى حد بعيد . وشبكة العلاقات الاسرية (العلاقة بين الوالدين ، العلاقة بينهما وبين الابناء ، العلاقة بين الاخوة) بما تتميز به من انسجام وعافية او بما يعتورها من اضطراب ومآزم وتوتـــــر على المستويات

الواعية واللاواعية تحدد بشكل اكيد حالة كل من افرادها وتوجهه نحو السواء او الاضطراب · ان دراسة دينامية الاسرة وعلاقتها بالانحراف طويلة ومعقدة على طرافتها واهميتها · وسيكون لنا رجعـــة اليها في موضع آخر من هذا البحث · أما الان فغايتنـــا ان نناقش بعض الاحصائيات الخاصة بالاحوال الاسرية لعائلات الجانحين كما اوردها تقرير الاتحاد لحماية الاحداث · ومعظم هذه الاحصائيات تتعلق بالمظاهر الاجتماعية لتلك الاسر · وسنبحث في الوضع العائلي من حيث درجة تماسكه وفي عدد الاطفـــال في الاسرة ، وفي المستوى الاقتصادي والوضع المهني للوالدين ·

ا ـ الوضع العائلي للاحداث

الجدول رقم ١٠

السنة	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
الوضع العائلي :								
احداث مع الوالدين	٦٥٤	٦١٨	١٠٠٥	٩٣٨	٨٢٢	٨٣٦	٧٧٥	٥٦٤٨
أسر مفككة	١٤١	١٨٩	٢٣٢	٢٥٩	٣٥٩	١٤٦	١٦٧	١٤٩٣

يلاحظ من هذا الجدول سيادة عدد الحالات التي تعيش في اسرة متماسكة (على المستوى الاجتماعي الظاهري على الاقـل) على عدد الحالات التي تأتي من أسر مفككة (طلاق ، وفاة ، هجر ، انهيار الحيـــاة الزوجية الخ ··) · يؤدي هذا الامر الى استنتاج هام وهو انخفاض خطورة ظاهرة الانحراف في لبنان · اذ ان تفكـــك الاسرة واضطراب المحيط يعتبران من أهـــم مؤشرات الخطورة ·

الا ان هناك ملاحظتين يجب ابداؤهما بصدد هذه الارقام· تتعلق اولاهما بمعنى كل من التفكك والتماسك وتتعلق ثانيتهما بتوزيـــع هاتين الحالتين على مختلف المحافظات ·

اذا كان الحدث الذي اتى من اسرة مفككة معرضا لخطر الانحراف الـى حد بعيد ، فان ذلك لا يعني بالضرورة ان معيشة آخـــر مع والديه يـــدل على تماسك اسري جيد · التفكك ما هو الا مظهر صريح للازمات والاضطرابات التي

تعاني منها جماعة الاسرة · هذه الاضطرابات قد تكون اشد عنفا مع احتفاظ الاسرة بتماسك ظاهري · في هذه الحالـــة يتعرض الابناء لصعوبات نفسية وسلوكية اكيدة وان لم تأخذ طابع الانحراف بالضرورة · والعنصر الحاسم في هذا الصدد ليس مجرد العيش مع الوالدين وانمـــا درجة الانسجام والتوافق ضمن جماعة الاسرة · وتبين لنا الدراسة العياديـــــة في هذا الصدد كيف ان العديد من الجانحين الخطرين يأتون من أسر ذات مكانة وسمعة اجتماعية مقبولة· ولكن دراسة الوضع بشكل دقيق يظهر اضطرابات عميقة وعنيفة تظل مستترة وتسقط في معظمها على احـــد الابناء الذي يصبح معبـــرا عن آثام الاسرة ومأساتها الحميمة · على كل حال لا يمكن لاحصائية عامة كالجدول الذي نحن بصدده ان يعكس هذه الامور بتفصيل ·

يبقى ان ننظر في توزع حالات التفكك والتماسك على المحافظات · تشير الجداول التفصيلية الى ان اكبر نسبة من حالات التفكـــك الاسري تتركز في بيروت ومحافظة الشمال وذلك خلال جميع السنوات · وان اقـل نسبة من هذه الحالات تأتي من محافظات الجنوب والبقاع · أما محافظة جبل لبنان فتقل نسبة التفكك فيها في الاعوام ٦٣ وما يليهـــا وتزداد تدريجيا في الاعوام الاخيرة ٦٨ ـ ٦٩ ·

هذا التوزع يتمشى مع الحقائق التي استخرجناها من الجداول في القسمين السابقين من هذا الفصل · وهي تدعم افتراضنا بأن **بيروت تستقطب اكبر كمية من حالات الانحراف الخطير ، بينمـــا تستقطب محافظتا الجنوب والبقاع اكبر نسبة من الحالات قليلة الخطورة** · كما يمكننا القـــول ان سيادة عدد الحالات التي تعيش ضمن الاسرة على الحـــالات الاتية من أسر مفككـــة قد لا يعني بالضرورة انخفاض درجة خطورة ظاهرة الانحراف بقدر ما تعكس ان الملاحقة والرقابة تصيب خصوصا الفئة الاقل خطورة ، بينما تفلت الفئة الاكثر خطورة من الملاحقة وبالتالي تنخفض نسبتها في الاحصائيات ·

ب ـ عدد الاولاد في الاسرة

الجدول رقم ١١

السنة	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
عدد الاولاد :						
من ١ — ٣	٤٦	٥٣	١٠٠	٦٨	٧٩	٣٤٦
من ٤ — ٦	٣٥٦	٣٥٣	٤٣٩	٣٦٧	٣٤٢	١٨٥٧
من ٧ وما فوق	٨٣٥	٧٩١	٦٤٢	٥٣٨	٤٩٠	٣٢٨٦

يمكن اعتبار هذا الجدول من اكثـــــر الجداول اظهارا لواقع الانحراف خلال الفترة الزمنية التي يغطيها · فالاسر كبيرة العدد سائدة بشكل بارز خلال جميع السنوات وفي جميع المحافظات · ويدل ذلك على عدة امور : منها ارتفاع درجة تخلف المجموعة السكانية التي يأتي منها الجانحون (بصرف النظر عـن مختلف العوامل الاخرى) اذ هناك ارتبـــاط سلبي بين عدد الاولاد في الاسرة ومستواها الاجتمـــاعي الاقتصادي الثقافي ، كلما ارتفـــع المستوى قل عدد الاولاد ·في هذه المجموعة السكانية ينخفض المستوى الثقافي اذا وترتفع درجة العوز · ويؤدي ذلك الى اهمال الاولاد وتسيبهم وعـــدم توفر سكن صالح لهم وحتى تشغيلهم للمساعدة على اعالة الاسرة في سن مبكـــرة جدا مما يجعلهم عرضة لكثير من ظروف الاستغلال والاغراء والانحراف ·

ج ـ المستوى الاقتصادي للاهل

الجدول رقم ١٢

السنوات / المستوى الاقتصادي :	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
عوز وضيق	٧٤	٩٨	٢٧٢	٣٢٨	٤١٧	٢٣٨	٢٠٧	١٦٣٤
فقـــر	٥٦٣	٥٤٢	٧٧٤	٦٠٢	٤٤٦	٤١٨	٤١٢	٣٧٥٧
وسطى	١٥٣	١٥٢	١٨١	٢٩٤	٢٩٤	٢٩٦	٢٦٣	١٥٨٨
رفاهية	١٢	١٥	١٠	١٨	٢٤	٣١	٥٣	١٦٣

قبل تحليل معطيات هذا الجدول يجـــدر بنا ان نتوقف لحظة عند فئـات المستوى الاقتصادي · ان التوزيع بالشكل المبين الى ٤ فئات ولو اعطى صورة تقريبية عن المستوى الاقتصادي للاهل ، الا انه يظل عاما ومفتقرا الى الدقة التي تجعل لكل فئة معنى محددا · ونجد انفسنا امام هذه الصعوبة خصوصا عنـد ادراج حالة ما في واحدة من فئتين متقاربتين · (عوز وفقر مثلا) فاذا كـــان التمييز سهلا بين العوز والدرجة الوسطى او الرفاهية فانه ليس بالامر اليسير بين الفئتين الاوليين · ان عدم تحديد هـــذا الامر يجعل التوزيع عرضة للتأثر بالتقويم الذاتي للباحثة الاجتماعية · ما تقدره احداهما كعوز قد تقدره الاخرى كفقر · وهكذا فان الارقام موزعة انطلاقا من فئـــات لا تقوم على تحديد دقيق للفواصل بينها مما يجعل امكان استخدامها أمرا صعبا ·

وما يؤيد هذا التحفظ تعارض ارقـام هذا الجـدول مع معطيات الجدول

السابق الخاص بعدد الاولاد · فحيث تغلب الاسر كبيرة العدد (٧ اطفال فما فوق) يكون من المنطقي ان تكون فئة العوز هي السائدة ، اذ ان عدد الاولاد يعتبر مؤشرا على انخفاض المستوى الاقتصادي · ولكن هذا الافتراض قد لا يكون صحيحا في البيئات الشعبية التي تضم الفئتين معا (عوز وفقر) والتي تتميز بكثرة التناسل ·

على كل حال نلاحظ من الجدول رقم ١٢ ان الفئة الغالبة بشكل بارز ، يتجاوز ضعف الفئة التي تأتي بعدها ، هي درجة الفقر · ثم تأتي بعد ذلك درجة العوز والضيق وتتبعها مباشرة وتكاد تتساوى معها الدرجة الوسطى · ولكن بينما نرى الدرجة الوسطى تتوزع على مختلف السنوات بشكل منسجم ومتصاعد ، نجد ان درجة العوز قليلة العدد في السنوات الاولى ثم ترتفع فجأة الى اكثر من الضعف في السنوات الاخيرة ·

اما درجة الرفاهية فنسبتها ضئيلة اجمالا في الاحصائية · هل نستطيع القول انطلاقا من ذلك ان ظاهرة انحراف الاحداث هي اساسا نتاج درجة الفقر من حيث المستوى الاقتصادي ؟ واذا كان الامر كذلك فكيف يمكننا تفسيره ؟ في الحقيقة نظرا لعدم تأكدنا من دقة التصنيف يصعب علينا ان نقدم تفسيرات معقولة يمكن الدفاع عنها ·

على اننا لو عدنا ونظرنا في ملاحظاتنا حول الجداول في القسمين السابقين لوجدنا جوابا ممكنا · لقد اتضح لنا مما سبق ان هذه الاحصائيات لا تعكس واقع الانحراف كما هو ، بل تحيط فقط بذلك الانحراف غير الخطر (انظر مثلا مسألة سن الاحداث ، مستواهم التعليمي ، مهنتهم، مستوى تماسك الاسرة الخ ···) · اما الانحراف الخطير من حيث تطوره المقبل فانه يفلت من الجداول موضوع بحثنا ولا ينعكس فيها الا جزئيا · ولذلك ليس غريبا ان تكون حالات العوز اقل في هذا الجدول من حالات الفقر ·

اما اذا نظرنا في المستوى الاقتصادي كما يتوزع على المحافظات لوجدنا ان درجة الرفاهية والدرجة الوسطى تسجل اكبر معدلات لها في محافظة جبل لبنان · وهذا يدعم ما توصلنا اليه من ان الانحراف في هذه المحافظة يطغى عليه طابع المشكلات النفسية · وعلى العكس تسجل حالات العوز اكبر معدلات لها في محافظة الجنوب بانتظام خلال جميع السنوات · بينما تنخفض الى حد بعيد في محافظتي الشمال والبقاع · وهذا بدوره امر يحتاج الى تفسير ليس في مقدورنا تقديمه هنا ·

اما في بيروت فان المستويات تتذبذب من سنة الى اخـــرى ٠ انما تسود اجمالا فئة الفقر وتتبعها مباشرة درجة العوز والضيق التي تميل الى الزيادة تدريجيا وبانتظام خلال مختلف السنوات ٠ ولكن هـــذه الزيادة تتوقف وتعود النسبة الى الانحسار عامي ٦٨ و ٦٩ ٠وهي الفترة التي تشكل اكبر درجة من التراخي في الملاحقة في العاصمة كما بينا سابقا ٠

د ـ مهنة الاهل

الجدول رقم ١٣

السنة المهنة :	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
عامل وبائع ومستخدم	٤٥٠	٤٧٤	٧٦٨	٧١٥	٥٦١	٤٠٧	٤٥١	٣٨٢٦
فلاح وراع	١٣٥	٨٨	٢١١	١٥٥	٢٢٦	١٧٠	١٠١	١٠٨٦
تاجروصاحب مهنة حرة	٦٧	١٠٥	٩٧	١٣٨	١٩١	٢٢٣	١٨١	٩٠٢
موظف	٣٥	٥٥	٥٤	٧٦	٨٣	٥٤	٩٠	٤٤٧
عاطل عن العمل	٨٤	٨٥	١٠٧	١١٣	٩١	٦٢	٦٤	٦٠٦

يضاف الى هذه الفئات فئة المهنة غير المعروفة التي تحتل نسبة ذات وزن في المجموع الكلي للحالات في السنتين الاخيرتين (٦٨ و ٦٩) ٠

نلاحظ من هذا الجدول ان الفئة الغالبـــة هي فئة العمال والمستخدمين والباعة ٠ وذلك يتطابق منطقيا مع الجدول السابق حيث تسود فئة الفقر على فئة العوز ٠ وكأن الحـــالات التي تصل المحاكم تأتي اجمـــالا من هذه الفئة السكانية ٠ ولكن هذه الفئة غير منسجمة داخليا ٠ اذ نجد تنوعا كبيرا ضمنها من حيث درجة التكيف الاجتماعي والتماسك الاسري ومستوى الرعاية التـي توجه للابناء ٠

ثم تأتي بعد ذلك فئة الفلاحين والرعاة وتقترب منهـــا فئة اصحاب المهن الحرة والتجار ٠ الا اننا لا نستطيع التوقف طويـــلا عند فئة الفلاحين والرعاة لانها مسؤولة اساسا عن مخالفات الرعي والمزروعات٠اما فئة التجار واصحاب

المهن الحرة فهي ملفتة للنظر كظاهرة خصوصا اذا اضفنا اليها فئة الموظفين التي تعادلها من حيث المكانة الاجتماعية ونوع المحيط الاسري الذي ينشأ فيه الابناء . فاذا افترضنا منطقيا ان هذه الفئة تتمتع بدرجة اكبر من التماسك الاسري والاهتمام بالابناء ورعايتهم امكننا الزعم ان ارتفاع عدد الحالات ضمنها يعكس في الحقيقة درجة اكبر من الوعي الاجتماعي لخطورة التصرفات الجانحة . ولذلك تبرز هذه التصرفات عندما تحدث كظاهرة مقلقة تستدعي التدخل . ثم ان هذه الفئة اقرب منالا للباحثين الاجتماعيين ، والوصول اليها والاطلاع على واقعها أيسر بكثير من فئة العاطلين عن العمل او ذوي المهن الهامشية الذين يبدون الكثير من التحفظ والتهرب من الخوض في واقعهم . ومن المحتمل ان تكون جنح ابناء فئة الموظفين والتجار من النوع النفساني الذي يتفاوت ما بين الاضطراب النفسي وبين الافراط في التساهل تجاه الطفل . وهنا تكون الخطورة مرهونة بشدة الاضطراب ودرجة الافراط . على ان هذه الحالات لا تشغل سوى نسبة ضئيلة من مجموع الجانحين .

تأتي اخيرا فئة العاطلين عن العمل وهي رغم قلتها قد تكون مصدر اشد الحالات خطورة من حيث التكيف الاجتماعي . نحن هنا امام أسر غير متكيفة اجتماعيا تضم العديد من الاولاد الذين يتعرضون نتيجة لذلك لظاهرة التسيب والاهمال والنشاطات الانتفاعية غير المنتجة او غير المشروعة . وقد تبين نسبتها في الجدول الواقع الذي بيناه الى الان ، وهو ان هذه الاحصائيات لا تعكس الا جزئيا ظاهرة الانحراف الحقيقي والخطر تبعا للمنطلق الاجتماعي العيادي .

اما من حيث التوزع على المحافظات فنجد ما يلي :

- تتوزع فئة العمال والباعة والمستخدمين بشكل منسجم على جميع المحافظات وفي جميع السنوات تقريبا .
- تتركز فئة العاطلين عن العمل وذوي الاعمال غير المعروفة في بيروت خصوصا ثم يلي ذلك محافظة الشمال (على الاغلب في طرابلس ، اكبر مركز تجاري في لبنان بعد بيروت) الا ان بيروت تستقطب اعدادا اكبر من هذه الفئة في السنوات الاخيرة .
- تتوزع فئة الفلاحين والرعاة كما سبق ان بينا على محافظات الجنوب والبقاع والشمال .
- تسود فئة الموظفين خصوصا في محافظة جبل لبنان وثانويا في محافظة الشمال ـ وتستقطب هاتان المحافظتان بالاضافة الى بيروت القسم

الاكبر من فئة التجار واصحاب المهن الحرة ٠

على كل حال يدعم تحليل الوضع العائلي النتـــائج التي انتهينا اليها في القسمين السابقين ٠ الا ان المعطيات هنا تظل عامة جدا مما لم يمكننا من القيام بتحليل مفصل لها واستخلاص نتائج قاطعـــة خصوصا ان الوضع الاجتماعي للاسرة لا يمارس تأثيره بشكل مباشر على الابناء وتكيفهم بل بشكل غير مباشر، ومن خلال خلق بيئة اسرية تتصف بانماط معينة من العلاقات وباجواء عاطفية متفاوتة في قيمتها ٠ ولا بد من احصائيات مفصلة ومبينـــة على أسس علمية دقيقة كي نتمكن من التوصل الـــى استنتاج مقبول يوضح تلـــك العلاقة غير المباشرة ٠

ويؤكد وجهة نظرنا هذه ما اوردته الاحصائيات عـن مستوى التربية في الاسر موضوع بحثنا ٠ فلقد قسم مستوى التربيـــة الى ثلاث فئات : جيد ، وسط ، ردئ ٠

ويلاحظ ان القسم الاعظم من الحالات يقع دائما وفي كل السنوات فـــي المستوى الوسط ويليه الجيد ثم اخيرا المستوى الردئ ٠

وبالطبع لا يمكننا التوصل الى استنتاج ذي قيمـة من هذا التوزيع نظرا لغموض دلالة كل مستوى والاسس او المحكات التي بني عليها ٠ وقد يغلب ان يكون المحك المستخدم هو سمعة الاسرة في الحـــي ، او درجة الاهتمام المادي بالاطفال ٠ على ان هذين الامرين لا يظهران لنا الخصائص العلائقية والعاطفية في الاسرة ٠ وهـــي الخصائص الحاسمة من حيـــث تأثيرها على التكيف والانحراف ٠

المعلومات التي قدمها لنا التقرير عن مستوى التربية تنسجم اجمالا مـــع ما بحثناه في الفقرات السابقة عن المستوى الاقتصادي للاسرة والفئات المهنية٠ وتؤكد لنا مرة اخرى ان هذه الاحصائيات تعكس فقط جزءا محددا من ظاهرة الانحراف الفعلي ٠

نوع الاحكام الصادرة عن قضاة الاحداث

من المفيد جدا في دراسة اجتماعية كالتي نحن بصددها ان ننظر في نوع الاجراءات التي اتخذتها محاكم الاحـــداث ٠ فهذه الاجراءات تعلمنا عن مدى خطورة الحالات المبحوثة من ناحية وعن مدى فعالية السياسة التأهيلية للاحداث

الجانحين او المعرضين لخطر الانحراف من ناحية ثانية · ولقد اورد التقرير عدة جداول تلقي بعض الضوء على هذين الامرين · ولكن قبل ان نستعرض هـــذه الجداول او بعضها ، يجدر بنا ان نشير مرة اخـرى الى ان المحاكم درجت في الماضي على الانطلاق من المنطلق القانوني لخطورة الانحـــــراف في كثير من الاحكام التي تصدرها والاجراءات التي توصي بها · ولكن الواقع قد يكون غير ذلك تماما · فتسليم حدث الى والديه او الحكم بوضعه عدة اشهر في معهـــد للاصلاح ، ان دلاً على خطورة قانونية منخفضة ، قد يحولان الانتباه عن بعض الحالات الخطيرة اجتماعيا والتي تبدأ حياتها الجانحة بشكل غير خطير قانونيا ·

الكثير من هذه الحالات تعود قضاياها عدة مرات امام قاضي الاحداث قبل ان يحكم بوضعها في الاصلاحية لسن الثامنة عشرة · خلال هذه الفترة تكون ميولها الجانحة قد تدعمت وبرزت · ومراجعة سجلات بعض الجانحين المحترفين تؤكد وجهة النظر هذه · اذ نجد احكاما متتالية على مـدى عدة سنوات تتدرج في شدتها انطلاقا من التسليم الى ولي الامر وانتهاء بمعهد التأديب ·

نوع الحكم

الجدول رقم ١٤

السنة	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	المجموع
نوع الحكم :								
تسليم الحدث الى وليه	١١١٨	١١٢٤	٩٨٠	٨١٢	٧٨٨	٨٠٤	٨٧٤	٦٥٠٠
معهـــد اصلاح	٢٤١	٣١٢	٤٨٧	٤٥٣	٣٠٢	٢١٢	٢١٩	٢٢٢٦
براءة	٢٥٦	٢٥٠	٣١٠	٢٣٠	٢٢٨	١٤٣	١٧٦	١٦٠٣
اسقاط الحق العام	١٠٩	١٩٤	١٠٣	١٠٤	١٢٣	١١٤	٩١	٨٣٨
معهد تأديب	١٤	٤	—	٧	١٣	١	—	٣٩
عدم صلاحية محكمة الاحداث	٨٢	٦٩	٦٢	٧٨	١٢٣	٦٥	٨٧	٥٦٦
الاكتفاء بالتدابير السابقة	١٩	١٩	١٠	٤	٨	٣	٦	٦٩
ابطال التعقبات	٢٠	٥٤	٣٣	٩٦	٤٣	٤٤	٥٩	٤٣٠

هناك بالاضافة الى هذه الاحكام اجراءات متفرقة ترد من آن لاخر اهمها اخراج من الاراضي اللبنانية، او تسليم الحدث الى والديه مع مراقبة اجتماعية، او عدم الملاحقة جزائيا ٠

ـ يظهر لنا هذا الجدول بعض الامور التي تستحق التسجيل ٠

ـ اولا : ان معظم الحالات التي عالجتها المحاكم غير خطيرة من الناحية القانونية ولذلك تكثر احكام البراءة واسقاط الحق العام تبعا لاسقاط الحق الشخصي وابطال التعقبات٠ وقد يكون في هذه الاجراءات فائدة بالنسبة لتكيف الحدث المقبل وهي عدم وصمه بالانحراف ، واستمرار انغراسه الاجتماعي ٠

ـ ثانيا : ان اجراء تسليم الحدث الى والديه هو الغالب اطلاقا وقد يدل على امرين اثنين : عدم الخطورة القانونية من ناحية وصغر سن الحدث خصوصا من ناحية ثانية ٠ والتسليم الى الوالدين هو من الاجراءات المستحسنة شريطة ان يكون هؤلاء متمتعين بالمستوى التربوي الذي يمكنهم من حسن رعاية الابناء ، وهو أمر غير مضمون في حالاتنا ٠ ولو كان هذا التدبير مرفقا بالمراقبة الاجتماعية لكانت نتائجه افضل بكثير ٠ الا ان الاحتمال الغالب هو اننا ازاء احداث صغار السن (٧ ـ ١٠ ـ ١٢) لا زال قسم منهم في بداية حياته الجانحة فاذا كان الامر كذلك نكون امام حالة من افلات الانحراف الحقيقي من الاكتشاف المبكر والتدخل السريع قبل ترسخه ٠

ـ ثالثا : يؤكد الامران السابقان مرة اخرى ان هذه الاحصائيات لا تعكس الا جزءا يسيرا من الانحراف الفعلي ٠

ـ رابعا : تأتي احكام الاصلاح في المرتبة الثانية من حيث تكرارها بعد اجراء التسليم الى ولي الامر ٠ ويدل ذلك اساسا على نسبة الخطورة القانونية للجنح المرتكبة ٠ الا ان هذا العدد مقسم على سبع سنوات يعطينا رقما يبلغ تقريبا ضعف الطاقة التربوية القصوى لمعهد الاصلاح ٠ وهذا يضعنا امام مسألة فائدة ونتائج هذه الاحكام ٠ ولدينا جدولان يلقيان بعض الضوء على هذه القضية ٠ يتعلق الاول بنوع الافعال المرتكبة والثاني بمدة الحكم ٠

اما الافعال المرتكبة التي استدعت حكم الوضع في معهد الاصلاح فأهمها: السرقة ، القتل ، الضرب ، الافعال الجنسية ثم التسول وبعض حالات الالعاب الممنوعة ٠

مدة الاقامة في معهد الاصلاح

الجدول رقم ١٥

السنة / مدة الاقامة :	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	المجموع
لغاية شهر	٤٣	٧	١	٥١
لغاية ٣ أشهر	٤٤	٢٠	١٥	٧٩
لغاية ٦ أشهر	٣٦	١٥	١٨	٦٩
لغاية سنة	١٧	٢٧	٢٣	٦٧
لغاية سنتين	٢١	١٩	٨	٤٨
لغاية ٣ سنوات	٢	ـ	ـ	٢
لغاية ٤ سنوات	ـ	ـ	٤	٤
لغاية عمر ١٨ سنة	٨	١٠	١٠	٢٨

وهكذا فعلى مجموع ٣٤٩ حالة نجد ١٩٩ حالــة اقامت لغاية ستة اشهر فما دون وهي تشكل اكثر من نصف العدد الكلي بقليل · بينما ان الاحكام لغاية سنتين فقط ٤٨ · وينخفض العدد بشكل حاد حتى يقترب من الصفر عندما تصل الاحكام الى ٣ و ٤ سنوات ثم يرتفع قليلا في الاحكام لغاية ١٨ سنة ·

وتشير هذه الارقام الى عدة امور اهمها ما يلي :

أولا : انخفاض درجة الخطورة القانونية بشكل واضح استنادا الى قصر مدة الاقامة ·

ثانيا : الشك في جدوى هذا الاجراء · فلا يمكن القيام باصلاح معقول في مدة تقل عن السنة · وهكذا فان هذه الاحكام قد تدعم الانحراف اكثر مما تقومه، اذ انها تصم ولا تعطي الوقت الكافي للعلاج والتأهيل ·

ثالثا : ارتفاع عدد حالات الاقامة لغاية ١٨ سنة امر يسهل جدا فهمه · فهؤلاء هم عادة من الاحداث الذين استفادوا قبل ذلك غير مرة من الاجراءات المخففة (تسليم الى الوالديـــن ، احكام اقامة دون الستة اشهر في معهـــد الاصلاح) · ولكنها لم تجد معهم فاستمروا في انحرافهم وتدرجوا في خطورته·

ولحسن الحظ بدات الاحكام تتغير حاليـــا بما يتمشى مع تلبية ضرورات وشروط التأهيل الجيد ٠

استنتاج عام :

لقد القت هذه الدراسة الاحصائية ولا شك الكثيـــر من الاضواء على ظاهرة الانحراف وخصائصها في لبنان ٠ وبينت بوضوح نوعيـة الفئات التي تجد الملاحقة والرعاية ٠ الا انها في تقديرنا لا تعكس واقع الانحراف بشكل كاف ولا تحيط بالظاهرة علـــى مختلف مستويات خطورتها بالدرجـــة المطلوبة من الشمول ٠ وقد نستطيع الخروج باستنتـاج اساسي وجد له توكيدا عدة مرات خلال هذا البحث **وهو ان الانحـــراف الفعلي اجتماعيا وعياديا يفلت الى حد كبير من هذه الاحصائيات التي تعكس عمومـــا الحالات الخفيفة ٠ وان هذا الانحراف الخطير يرتبط بدرجة عالية من تفكك الوضع الاجتماعي والاقتصادي وانخفاض المستوى الثقافي والتربوي للفئة السكانيـــة التي تنتجه ٠ وان هذا الانحراف يتركز اساسا في مدينة بيروت** التي تستقطب العناصر الهامشية التي تقيم في ضواحيها وتستقطب الاحداث الذين تدرجوا في الانحراف من بقيـــة المحافظات لان فرص السلوك الجانح وامكانياته تصبح غير كافية في مناطقهم الاصلية ، بينما تقدم العاصمة امكانيات عديدة ومتنوعة في هذا الصدد ٠

الفصل الخامس

استبيان العاملين مع الاحداث الجانحين

القت مناقشتنا للمعطيات الاحصائية في الفصل السابق اضواء هامة على ظاهرة الانحراف · الا أنها تركت مناطق ظلال · ولذلك نسير هنا خطوة اضافية في محاولة رسم معالم الظاهرة من خلال طريقة الاستبار ، للوصول الى صورة واقعية عنها ·

سنتبع طريقة الاستبار الموجه بمعنى اننا سنسترشد بمجموعة من الاسئلة التي نعتقد ان في الاجابة عنها توضيحا ممكنا لموضوعنا · ولقد اتخذ الاستبار طابع الحوار المرن الموجه بتلك الاسئلة · ولم نلجأ الى طريقة الاستبيان الجامدة التي قد لا تعكس الواقع على تنوعه وغناه ، خصوصا ان هدفنا كان التوصل الى رسم ملامح الظاهرة من خلال الخبرة المعاشة والممارسة العملية للعاملين مع الاحداث والافكار التي كونها هؤلاء عن مسألة الانحراف انطلاقا منها ·

ولقد اخترنا هؤلاء العاملين انطلاقا من عدة محكات اساسية :

ا ـ الخبرة العملية المباشرة في العمل مع الاحداث الجانحين على مختلف مستويات عملية التأهيل (القضاء، الابحاث والاستقصاءات الاجتماعية لاوضاعهم ، التربية المتخصصة في مؤسسات الاصلاح والرعاية) · ولم نلجأ الى اشخاص يتعاملون مع الظاهرة على المستوى النظري المكتبي فقط ، اذ ان معلومات هؤلاء لا تعدو مجرد تصورات وافتراضات قد لا تتطابق تماما مع الواقع العملي ·

ب ـ طول مدة العمل مع الاحداث (ثلاث سنوات على الاقل) اذ لا بد من فترة زمنية طويلة نسبيا لمعايشة الظاهرة والاطلاع على خصائصها النوعية وتغيراتها · ولذلك لم نقابل اي شخص له احتكاك عابر مع الجانحين ·

جـ ـ اما المحك الاهم لاختيار العاملين الذين قمنا باستبارهم فهو المستوى العلمي والثقافي والتقني · اذ لا يكفي ان يكون لدى العامل خبرة طويلة واحتكاك يومي مع الجانحين ، بل لا بد من تمتعه بمستوى علمي يمكنه من تكوين نظرة شاملة متماسكة عن الظاهرة وخصائصها وعواملها المختلفة ·

وهكذا استبرنا على هذا الاساس احد عشر عاملا كلهم متخصصون · ويقسمون الى عدة فئات :

قضاة احداث حاليين وسابقين ـ مديري المؤسسات الرسمية والخاصة لتاهيل الاحداث ورعاية الطفولة المتشردة ـ مربين متخصصين يحملون شهادة الامتياز الفني في التربية المتخصصة ـ ومساعدات اجتماعيات يعملن في هذه المؤسسات ·

اما الاسئلة التي استرشدنا بها في توجيه الاستبار فهي التالية :

ا ـ الخصائص العامة لظاهرة الانحراف :

١ ـ مدى انتشار الظاهرة وشدتها ·

٢ ـ توزيع ظاهرة الانحراف حسب المناطق والمحافظات وحسب الاحياء في المدن الكبرى ·

٣ ـ توزيعها حسب الاعمار ·

٤ ـ توزيعها حسب الجنح والجنايات ·

٥ ـ تغيرها في الشكل والشدة في عشر السنوات الاخيرة ·

٦ ـ هل هناك من خصائص مميزة للاحداث الجانحين في لبنان في رايك ؟

ب ـ الاسباب :

١ ـ العوامل الاجتماعية العامة للانحراف ، ما هي اهمها ومدى اسهام كل منها ·

٢ ـ العوامل العائلية للانحراف ٠

٣ ـ العوامل الشخصية المرضية ، وزنها في احداث الظاهرة ٠

ج ـ امكانات الملاحقة والرعاية ٠

١ ـ تشريعات الاحداث ، ما رأيك فيها حاليا وماذا يستحسن عمله ؟

٢ ـ التجهيزات المادية والبشرية للرعاية والتأهيل ما هي اوضاعها وما رأيك في ذلك ؟

د ـ هل هناك من رأي أو توصية تود الادلاء به ؟

ولقد تجمعت لدينا نتيجة لهذا الاستبار معلومات غنية ومتنوعة عن واقع الانحراف في لبنان فيها الكثير من نقاط الالتقاء وبعض الاختلاف ٠ ووجدنا أنفسنا أمام اختيار طريقة لعرض هذه المعلومات وتحليلها ٠ أول ما تبادر الى الذهن هو طريقة التصنيف الاحصائي للمعطيات من حيث تكرار الافكار الاساسية ٠ ولكننا تخلينا عنها لانها اختزالية الى حد بعيد وتفقد المعطيات طابع التجربة الحية ٠ كما أن عدد الحالات محدود جدا مما لا يسمح لنا باستخراج نتائج كمية ذات وزن ٠ وهكذا فضلنا عرض معطيات كل استبار كتجربة شخصية نتبعها بتعليق مناسب ٠ وارتأينا الخروج بخلاصة عامة في النهاية تلخص نقاط الالتقاء والاختلاف في وجهات النظر ٠ وسنلجأ عند عرضنا هذا الى اغفال الاسماء ومراكز العمل المحددة مكتفين بتقسيم العاملين الى فئات مهنية ووظيفية ٠

أ ـ قضاة أحداث في بيروت فقط

الاستبار الاول :

أ ـ الخصائص العامة لظاهرة الانحراف :

تزداد الحالات التي عرضت على المحكمة بشكل تصاعدي خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة ٠ وما يلفت النظر في هذه الزيادة هو ارتفاع نسبة الجنايات :

السنة		١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
عدد القاصرين المحكومين	جنحة	٣٥٦	٣٧٧	٤٤٨
في بيروت فقـــط	جناية	٢٣	٤٠	٧٠

ولكن هناك الكثير من الاطفال المشردين واللاجئين والذين لا هوية لهم وكثير من حالات الهامشية الاجتماعية ، ومعظم هؤلاء يفلتون من الملاحقة · يأتي بعد ذلك بعض حالات الدعارة المحمية من عصابات من الجانحين الراشدين ، وهؤلاء يفلتون أيضا من الملاحقة الى حد كبير ·

ولقد كان الانحراف الى فترة قريبة مرتبطا بالعوز والحاجة المادية خصوصا · ولكن بدأت تظهر مؤخرا حالات انحراف بين أطفال المدارس في الطبقة البورجوازية · وازدادت هذه الظاهرة في السنوات الاخيرة ، والدافع اليها هو طلب اللهو والوصول اليه بكل الوسائل ، مع ازدياد درجة تراخي الاهل في مراقبة ورعاية أبنائهم ونقص التواصل بينهم ، واهمال الآباء للابناء تحت شعار الحرية مما عرض هؤلاء لكل المغريات التي تشجع على اللهو ·

ويأتي معظم الجانحين من المدن الكبرى خصوصا ، حيث هناك أحياء فقيرة تنعدم فيها الروابط الاسرية مع كثرة عدد الاولاد ، وانعدام رعايتهم ومراقبتهم ، وكثرة حالات الطلاق وتعدد مرات الزواج وسوء التفاهم ، مما يؤدي بالابناء الى التشرد ·

اما انواع التصرفات الجانحة فأغلبها سرقة موصوفة ، وتكثر بين الجانحين من أبناء الطبقة البرجوازية السرقة بقصد اللهو والافعال المنافية للحشمة والتسبب في الايذاء ·

ومعظم المنحرفين الذين يصلون الى محكمة الاحداث في تقديره هم من أعمار ١٢ ـ ١٥ سنة مع طغيان نسبة ١٤ ـ ١٥ سنة بينهم ·

ويتميز الجانحون اللبنانيون عن أمثالهم في البلدان الغربية بعدة صفات اهمها : امكانية اثارة مشاعر الكرامة والالتزام نحو الاسرة عندهم ، الشعور بالندم والحساسية العاطفية رغم كل انحرافاته وذلك يسهل عملية التأهيل · وهناك خصوصا غياب ظاهرة المخدرات بين جانحينا ·

ب ـ الاسباب :

الاسباب الاجتماعية عديدة ، أشرنا الى بعضها فيما سبق ولكن هناك البطالة ، عدم وجود تعليم الزامي مما يؤدي الى تشرد الاطفال وتسيبهم ونقص امكانيات العمل ·

اما على مستوى الاسرة فهناك ظاهرة التفكك كما بينا في الفقرة السابقة،

وخصوصا التراخي وانعدام روح المسؤولية لدى الاهل ولا تشكل الاضطرابات النفسية الفعلية والحالات المرضية الا نسبة ضئيلة لا تتجاوز ٥٪ ٠

جـ - امكانيات الرعاية :

نحتاج الى الكثير من المؤسسات ، اذ ان وجود معهد اصلاح رسمي واحد ودار ملاحظة واحدة لا يكفيان مطلقا لتقديم الرعاية لكل الاحداث المحتاجين لذلك ٠ كما انه لا توجد لدينا مؤسسات للفتيات الجانحات مما يضطرنا أحيانا الى القبول بتدابير غير مناسبة ٠ ونحتاج خصوصا الى انشاء مؤسسات الحرية المراقبة ٠ أما على المستوى البشري فهناك أيضا نقص في العناصر المتخصصة ومن الضروري الوعي بأهمية المشكلة ٠

كما ان تشريعات الاحداث بحاجة الى مراجعة لسد بعض الثغرات الاساسية فيها ٠ ومن المستحسن تمديد سن الحداثة حتى الثامنة عشرة مما يعطي محكمة الاحداث مجالا أكبر لاتخاذ التدابير الاصلاحية المناسبة ٠

كما انه من المستحسن الاخذ بمبدأ الاحكام مع وقف التنفيذ لضرورتها في بعض حالات الانحراف بالصدفة كالتلاميذ مثلا ٠

تعليق :

يتضح من هذا الاستبار ان هناك فئتين من الجانحين الذين يصلون محاكم الاحداث حاليا : الاولى الغالبة تجنح بدافع الحاجة وتاتي من بيئة معوزة ومن اسر مضطربة والثانية قليلة العدد نسبيا تأتي من التلاميذ في الاوساط الموسرة بدافع اغراءات اللهو ونتيجة لتراخي الاهل ٠

ان الجانحين اللبنانيين يتمتعون بقابلية اكبر للاصلاح نظرا لتوفر مشاعر الانتماء الاجتماعي والاسري لديهم ٠

الا ان عملية التأهيل تحتاج الى تأمين تجهيزات اكبر واكثر تنوعا من الموجودة حاليا ٠ وتحتاج الى اعادة صياغة تشريعات الاحداث بشكل يسهلها ويساعد عليها ٠

الاستبار الثاني :

ا - الخصائص العامة لظاهرة الانحراف :

انحراف الاحداث مسألة محدودة الحجم جدا ٠ وهي لا تكون مشكلة

اجتماعية لان هناك شعورا ضمنيا لدى المواطنين بانه ليس كل ما يضر بمصلحة الغير من تصرفات الحدث يجب ان يلاحق كجريمة ٠ وهكذا فطالما ان الانحراف متسامح به فهو لا يختلف بطبيعة الحال (في نظر المواطنين) عن مجرد سلوك غير مستحب ٠ مشكلة التكيف ليست خاصة بالاحداث بل هي عامة بين المواطنين والتبرير هو التالي : وجود تنافر بين ثقافات متعددة ـ طرق الحياة ـ الحالة الذهنية المرافقة للسلوك الاجتماعي وتوافقه مع الحقيقة ـ تعارض بين رغبات الطفل بالنمو والانطلاق وقلة الامكانات المتوفرة لذلك ـ تعارض بين المثل العليا ومتطلبات الحياة البراجماتية ـ تعارض بين الكفاءات وتوزيع الحظوظ والفرص ٠ ولكل ذلك نجد ان الكثير من المواطنين غير متكيفين مع المتطلبات الايجابية للمجتمع لصعوبة هذا التكيف ٠ المشكلة عامة اذا ، وظاهرة الانحراف ليست نوعية ، خاصة بالاحداث ، بل اصبحت جزءا من وضعية عامة مسيطرة على ذهنية ابناء المجتمع ٠

ويأتي الجانحون على الغالب من المدن الكبرى ، وهنا يتطابق توزيعهم مع التوزيع السكاني على مختلف الاحياء من ناحية المستوى الاجتماعي الاقتصادي ٠ والظاهرة كما تدل الاحصائيات مستقرة نسبيا ، ولكن يجب ان لا نغفل هنا شدة ونوعية الملاحقة ٠ اذ ان العدد يقل عندما تتراخى الملاحقة ويزداد بشدتها ٠

وقد نستطيع القول بوجود خصائص مميزة عند الجانحين وفي محيطهم في لبنان ٠ فمن الممكن ان يكون الجانح اللبناني اقل عدوانية وتصلبا في شخصيته من الجانح في الخارج الا اننا لا يمكن الجزم بذلك بدون دراسة مقارنة ٠

اما من ناحية المحيط فتحتل الجماعات السكانية الفقيرة المهاجرة من القرى المكانة الاولى من حيث نسبة الانحراف فيها ٠

ب ـ الاسباب :

انعدام التربية المدنية في المحيط الذي يخرج منه الحدث لها وزن كبير في المشكلة ، أكبر من وزن الجوانب النفسية الاجتماعية ٠ والمستوى الاقتصادي الاجتماعي لا بأس به احيانا ٠

كما انه يجب الاشارة الى ذهنية الاهل التي تقف وراء العديد من حالات

الانحراف • فهم يدفعون الحدث الى الانحـــراف لاغراض انتفاعية ، لتحقيق كسب بوسائل غير مشروعة • كما ان تصرفاتهم العامة غير المتكيفة تشكل عاملا دافعا نحو الانحراف ايضا •

اما العوامل النفسية المرضية فنسبتها ضئيلة اجمـــالا في الاحصائيات ووزنها قليل في احداث الظاهرة •

جـ ـ امكانيات الرعاية :

المؤسسات المتوفرة حاليا ملائمة الى حد كبير من حيث تجهيزاتها (دار الملاحظة ومعهد الاصلاح) ومن حيث فعاليتهـا التاهيلية ، الا أنها لا تكفي • وهناك خصوصا ضرورة لتوزيع المؤسسات بمـــا يتمشى مع مختلف حاجات واشكال الرعاية والتربية المتخصصة •

كما ان التشريعات بحاجة الى بعض التعديل والتطوير • فهناك مثلا فـي قانون الاحداث لعام ٤٣ ثغرات عديدة نتجت عن ظروف الحرب ومرور الجيوش الاجنبية وازدياد موجة الاجرام • ممـــا أدى الى اختصار سن الحداثة من ١٨ عاما الى ١٥ ، وقيد حرية القاضي في التدبيـــر • يضاف الى ذلك عدم توفر قضاة متخصصين في شؤون الاحداث واصلاحهم •

ويستحسن بالاضافة الى سد الثغرات السابقة ادخـــال اجراء المراقبة الاجتماعية وامكانية تدارك الحدث وهو في مرحلة خطـــر الانحراف وامكانية اتخاذ تدابير وقائية اثناء التحقيق •

كما ان هناك ضرورة لمتابعة الجهد الرامي لتقويم دور مؤسسات تأهيل الاحداث الجانحين •

تعليق :

يلقي هذا الاستبار الضوء على جانب هام من مسألة السلوك الجانح بين الاحداث في لبنان وهو موقف التساهل تجـاه الكثير من التصرفات التي تضر بالغير • ان تحويل العديد من حالات الانحراف الى مجرد سلوك غير مستحب يؤدي عمليا الى افلات نسبة هامة منها من الملاحقـة ورعاية من قاموا بها طالما ان المحيط لا يرى خطرا في هذه التصرفات • لقد اشرنا في الفصل السابق الى هذه الناحية عند الحديث عن ارتفاع درجة التنبه للافعال الجانحة في الطبقات

الموسرة والمتكيفة اجتماعيا عنها عند الطبقات المعدمة الهامشية · في الواقع ان التصرفات المخالفة للقانون والتي تقـــع على هامش الشرعية تعتبـــر في تلك البيئات امرا عاديا جدا وتدخل في باب الحذق وتدبير الحال ·

ثم هناك الاتجاه العام عند العديد من المواطنين الذي ورد في الاستبار حيث تشيع بعض اشكال التصرفات غير المتكيفـــــة اجتماعيا نتيجة للتناقضات التي يقعون فريسة لها بين المعايير السلوكية ومتطلبات الحياة البرجماتية · وهذا ما يعبر عنه مرتون (١) تحت عنوان الصراع بين المعايير السلوكية وطرق الوصول الى الاهداف · هذه الخلفية العامة تجعـل بعض اشكال الانحراف (الانتفاعي خصوصا) تضيع في خضم الاتجاهات السائدة ، كمـــــا انها تشجع على ذلك الانحراف · وتؤدي الى التراخي في ملاحقته مما يدعمه بشكل اضافي ·

ولهذا الواقع دور هام في فهم ديناميـــــة السلوك الجانح في مجتمعنا · وهكذا فالتأهيل لا يقتصر على اصلاح الاحداث الذين انحرفوا فقط انما يجب ان يتناول ايضا ظاهرة التساهل في احترام المعايير السلوكية ، ويضع لها الحلول الملائمة · بذلك فقط يمكن ضبط ظاهرة انحراف الاحداث ·

ب ـ مديرو مؤسسات تاهيلية ورعائية للاحداث الجانحين والمشردين

الاستبار الثالث :

ا ـ الخصائص العامة للظاهرة :

ظاهرة الانحراف اكبر من الارقام التي تعطيهـــا الاحصائيات الرسمية ، خصوصا اذا وسعنا مفهوم الانحراف ليشمل التشرد · عدد الاولاد المشردين بدون مدرسة او عمل كبير · ويمكننا القول بهذا الصدد ان الوصول الى المحكمة ثم مؤسسات التربية مسألة حظ ، الطفل المحظوظ هو الذي يصل ويستفيد من امكانات التأهيل اما الذين لا يسعفهم الحظ وينجرفون في تيار الانحراف فهـــم الغالبية ·

....

(١) ارجع الى البحث الاول من هذا الكتاب فصل النظريات الاجتماعية ·

ويأتي معظم الجانحين من المناطق التي يوجد فيها تكدّس سكاني للفئات الفقيرة والمعوزة ٠

واكثر الاعمار خطورة من ناحية الانحـــراف هو عمر ١٥ ـ ١٦ سنة اذ ليس هناك اي تقدير لعواقب الامور في هــــذا السن ، كما ان الحدث يكون قد وصل مرحلة من النمو والقوة تسمح له بالانتماء الى العصابات الجانحة ٠ فئة السن هذه تشكل الحالات الصعبة من حيث امكـــان التكيف ٠ ثم هناك الغالبية العظمى من المنحرفين العاديين تقع ما بين سن ١٢ و ١٥ سنة ٠

ويلاحظ هناك تغير في انواع الجنح والجنايات بشكل يساير تطور الحياة ـ فهناك مثلا انحرافات جديدة كسرقة السيارات والتحرش بالفتيات وكذلك سرقة آلات الراديو والتسجيل من السيارات ٠ هذا بالاضافة الى الجنح الثابتة وأهمها السرقة ، والجنايات واهمها الجرح والقتل ٠

ويتميز الجانحون عندنا بغياب تلـــك الرؤوس الصلبة المعادية للمجتمع القاطعة لكل صلة معه التي يتحدثون عنها في الغرب ٠ كما ان الانحراف عندنا نابع أساسا في تقديري من قلة العناية بالطفولة ٠ فلو توفرت لاطفالنا درجـة العناية الموجودة في الخارج لانحسرت الظاهرة الى حد كبير ٠

ب ـ الاسباب :

تشيع اسباب اجتماعية عامة اهمها قلة العناية والرعاية والحماية والتعليم والترفيه المتوفر للاطفال ٠ هناك نقص في كل ما يحتاج اليه الولد لنموه السليم٠ فلو كان لدينا تعليم اجباري مثلا لحلت الكثير مـــن المشكلات كما ان المدارس على كثرتها لا تقبل الحالات الصعبة ـ وليس هنـــاك من مركز توجيه في هذه المدارس للعناية بالاطفال ذوي المشكلات ٠ كما اننا نفتقـــر الى مؤسسات تفهم وتستطيع معالجة الاحداث المعرضين لخطر الانحراف ٠ المؤسسات الراهنة التي تهتم برعاية الطفولة تتهرب من الحـــــالات العصبية ـ كما انه ليس هناك من تجهيزات للاهتمام بالحالات البينية التي يسهل علاجهـــا والتي تتردى وتصبح صعبة وخطيرة اذا ما اهملت ٠ كذلك فان وجود خليط سكاني متكدس في بعض الاحياء (غرباء ، ونازحين من الريف) يؤدي الى الانحراف ٠

أما على مستوى الاسرة فهنـــاك الكثير من العوامـــل التي تؤدي الى الانحراف اهمها :

ـ تدني المستوى الثقافي والتعليمي للاهل وجهلهم ضرورة تربية الابناء ورعايتهم ٠

ـ التفكك الاسري على مختلف درجاته ٠

ـ الخصومات بين الوالدين وتعارض نماذج التربية والمواقف من الابناء ٠

ـ السكن المزري الذي لا تتوفر فيه الشروط الدنيا صحيا وعائليا ومكانيا، يدفع الطفل الى الانحراف٠يبدأ هذا بمحيطه وهو صغير ثم يزداد المجال الحيوي لسلوكه غير المتكيف في الاتساع مع التقدم في السن فيصل الى مستوى الحي ثم ينطلق منه الى عالم المدينة العريض بكل ما يقدمه من مغريات وما يتضمنه من اخطار ٠

أما العوامل النفسية المرضية فلها دور هـام ٠ صحيح ان حالات المرض النفسي او العقلي الصريح نادرة بين الاحداث الجانحين ٠ انما نستطيع القول ان نصف الذين يصلون الى محاكم الاحـــداث تقريبا يعانون من اضطرابات نفسية متفاوتة في شدتها ٠ هذه الاضطرابات تنبـــع اصلا من المحيط الاسري المتفكك او المتأزم او المريض ومن الظروف الاجتماعية التي فصلناها اعلاه والتي تعزز اضطرابات الاسرة ٠

جـ ـ امكانات الرعاية :

ان رعاية الطفولة والتربية المتخصصة امر مكلف اجمالا وهناك ضرورة كي يعي المواطنون على مختلف مستويات المسؤولية هذا الامر ٠

وثمة ضرورة لتشجيع المؤسسات الحالية وتخصصها في الرعاية وتجهيزها بالعناصر البشرية المؤهلة علميا وتقنيا ٠ كما ان هناك ضرورة لايجاد مؤسسات متنوعة تناسب مختلف حالات الانحـراف والتشرد والخطر الخلقي والوقاية ٠ اذ ان المؤسسات الموجودة حاليا رغم جهودها غير كافية لا من حيث العدد ولا من حيث التجهيز ٠

كما ان ثمة ضرورة لتطبيـــق تشريعات الاحداث ولتعديـــل بعضها ٠ فالاجراءات التربوية والاصلاحية تصطدم احيانا بعدم مرونة القانون ٠ وهكذا يصعب اتخاذ الاجراء المناسب لكل حالة ٠ ومن الضروري مثـلا ان تحدد مدة الحكم تربويا وليس قانونيا ٠ اي انطلاقـــا من المدة الضرورية لتأهيل الحدث وليس فقط من خطورة فعلته من الناحية القانونية ٠

تعليق :

يتلاقى هذا الاستبار مع ما سبق من حيث ضرورة زيادة التجهيزات وتعديل بعض التشريعات · الا انه يؤكد خصوصا على مسألة رعاية الطفولة قبل الانحراف وبعده بشكل يتيح لها النمو السليم ويعالج اشكالاتها حين تظهر ولا يتركها تستفحل · كما يؤكد على ضرورة تعميم التعليم الالزامي ·

ويبين على وجه الاجمال ان الظاهرة ان كانت تثير القلق من ناحية انتشارها الا انها غير مقلقة من حيث سهولة التربية والتأهيل · الصعوبة ليست على المستوى الشخصي بقدر ما هي على مستوى التجهيزات اللازمة للعناية بالطفولة ·

ويؤكد هذا الاستبار على ضرورة تبني منطلق عريض في الحديث عن الانحراف · اي عدم الاكتفاء بحالات الاعتداء الصريح على « القانون » التي لاقت ملاحقة قضائية ، انما ايضا الاهتمام بكل حالات التشرد والحالات المعرضة لخطر الانحراف نتيجة لعدم حمايتها او تأمين حاجاتها او علاج مشكلاتها الاسرية والمدرسية ·

الاستبار الرابع :

أ ـ الخصائص العامة للظاهرة :

في الاصل هناك خصوصا ظاهرة تشرد تتحول تدريجيا الى انحراف· كثير من الاطفال يهربون من المدارس لان جو المدرسة غير ملائم لا من حيث التجهيزات ولا من حيث العلاقات البشرية · يهرب الاطفال من هذا الجو الى الشارع · وما يصل الى المحاكم هو القلة القليلة من هؤلاء · فهناك تشرد بعيد عن القانون ، وآخر يفلت من الملاحقة لانه يحظى بحماية بعض رؤساء العصابات الجانحة ·

وهناك تدرج كما قلنا في الانحراف · بين ٧ ـ ١٢ سنة تشرد وهامشية واستغلال من قبل الكبار · ابتداء من ١٤ سنة تبدأ الانحرافات الفعلية· في سن ١٧ ـ ١٨ سنة نجد انفسنا امام مراهقين يريدون ان يلعبوا دور الاقوياء · وهم، لانعدام السلطة التي تضع لهم حدودا تساعدهم على اصلاح شأنهم ، ينجحون في ذلك وينتهون الى السجن حيث يتحولون الى جانحين كبار · وابتداء من هذه السن يتحولون الى رؤساء عصابات ، او يستقطبون صغار المشردين ويقومون بتشغيلهم لقاء الحماية والايواء والانفاق عليهم ·

ليس لدينا عصابات جانحة كاملة التكويـــن ومتماسكة ومستمرة · هناك رؤساء يشغلوُن الصغار كما بينّا · والعلاقـــة ليست دائمة وثابتة بل تحدث حركة تنقل كبيرة في العناصر التي تدور في فلك الرؤوس الجانحة ·

كما ان هناك حركة من نوع آخر تبعا للفصول · ففي الشتاء نلاحظ اقبالا كبيرا على بيروت من المناطق (البقا ع، الجنوب ، طرابلس) · امـا في الصيف فهناك تلاميذ المدارس الذين يذهبون للارتزاق (بيع سلع تافهة او تقديم خدمات قريبة من التسول) وينجرفون في الانحراف نتيجة للاوساط التي يحتكون بها · هؤلاء يأتون عادة من الاحياء المتواضعة في العاصمة ·

ثم هناك بعض الاحداث يأتون مـــن اوساط اسرية جيدة من حيث درجة تماسكها ومكانتها الاجتماعية · الا انهم يدللون الابناء او بعضهم كثيرا ممـــا يؤدي الى انجراف الحدث وراء اهوائه وملذاتـــه ويقوده عاجلا أم آجلا الى الانحراف ، بحثا عن المتعة او لتأمين المال اللازم للانفاق ·

أما انواع السلوك الجانح فيطغى عليهـــا بشكل ساحق السرقة البسيطة والموصوفة ويأتي بعد ذلك بقية اشكال الانحراف · وتميل الظاهرة الى التفاقم· ويمكننا القول ان اعداد الجانحين ونشاطاتهم قد تضاعفت في السنوات الاربع الاخيرة :

ب ـ الاسباب :

من اهم الاسباب الاجتماعية للانحـــراف ، ظاهرة النزوح من الريف الى العاصمة · وتكدس السكان في احياء متواضعة بدون روابط جغرافية وأسرية مع القرية · وينتج هذا بدوره عن سوء توزيـــع الثروة والنشاطات الاقتصادية على مختلف المناطق مما يجعل امكانات العمل في الريف صعبة وغير مجزية · ثم هناك العمل الموسمي وعدم الاطئنان المهنـــي الذي يضعضع الاسرة ويعطي نموذجا سيئا عن الحياة المهنية للابناء · وكذلك تساهم الصحافة باغراء بعض الاحداث باتباع مثل الاخرين بما تحيط به اخبار الافعال الاجرامية من اثارة ·

اما على مستوى الاسرة فاهم العوامـــل هو انعدام الوحدة في وجهات النظر والاسلوب الحياتي · انعدام الوحدة العقلية والثقافية والحياتية · ويخلق ذلك الكثير من الاشكالات ويؤدي الى الوان من سوء التفاهم بين الاب والابناء· يضاف اليها تراخي وغياب سلطة الاب والاسرة ·

ج - امكانات الرعاية

هناك ضرورة لتنوع المؤسسات وتعددها مع توحيد السياسة التأهيلية . كما ان هناك ضرورة كبرى للتنسيق كي تتمكن المؤسسات من العمل مع الحدث وأسرته ومحيطه في آن معا .

كما انه من الضروري تجنب صدم الحدث عند الملاحقة وعـــدم تعريضه لتجربة مؤلمة (تجنب صدمة التوقيف والمخفر والقيود) . اذ ان ذلك يدمغه الى حد بعيد . كما انه من الهام جدا تحضير الطفل للانفصال عن الاسرة والاقامة في المؤسسة . اذ ان هذه الامور قد تترك آثارا ضارة على نفسيته مما يجعل أمر اعادة تكيفه اكثر صعوبة .

اما بالنسبة للتشريعات فهناك بعض الاشكالات التي يجب حلها . فهناك ضرورة لدراسة تؤدي الى تكييف القوانين على الاوضاع والظروف والعقلية .

كما ان الاحكام يجب ان تنطلق من الحدث وحاجاته وليس من الجنحة التي ارتكبها . ومن الضروري ادخال المرونة على الاحكـــام حتى يصبح بالامكان تغييرها او تعديلها بما يتناسب مع تطور حالة الحدث خلال عملية التأهيل .

ثم انه من الضروري سن التشريعات الخاصة بالرعاية اللاحقة بعد الخروج من معهد الاصلاح والانخراط في الحياة . فلهـــذه الرعاية اهمية كبرى اذ ان الحدث بحاجة الى مساندة ودعم وتوجيه حتى يتمكن من الانغراس الاجتمـاعي والمهني والا ضاع امام التحديات ورجع الى عاداته السابقة .

تعليق :

يوضح هذا الاستبار خطوات التدرج في حياة الانحراف من الهروب من المدرسة والتشرد الى احتلال دور رئيس عصابة يشغل الاطفال لمصلحته . وهو يعكس لنا ضرورة عدم التوقف عند المفهوم القانوني . اذ ان المشكلة تبدأ قبل الجنحة التي كانت السبب في الملاحقة ويحدث كثيرا ان تستمر بعد انتهاء مدة الاجراءات المتخذة بصددها .

كما انه يبين لنا كيف تتغير ظاهرة الانحراف تبعا للفصول . ويحدد بعض ملامح عالم الجانحين الكبار .

اما على مستوى الاسباب فيشير الى نقطة تستحق الاخـذ بعين الاعتبار عند وضع الخطط العلاجية لظاهرة الانحـــراف ، وهي التخطيط لايجاد فرص

العمل في الريف بغيـــة استبقاء السكان في وسطهم الاصلي وتجنب ظاهرة الهجوم على المدنية بكل ما تحمله من اخطار على الاسرة والابناء ٠

كذلك يوضح لنا هذا الاستبار كيف ان الاجراءات التي تتخذ مـع الحدث عندما ينحرف قد تؤثر كثيرا على مصيره وتصبح بحد ذاتها عوامل مؤدية الى الانحراف من خلال وصمه بالاجرام ٠ وهو يطرح وجهات نظر قيمة في ضرورة توحيد السياسة التربوية وتنسيق الجهود بين مختلف المؤسسات اذ ان العزلـة تحد من فعاليتهـا ٠

الاستبار الخامس :

أ ـ الخصائص العامة للظاهرة :

الانحراف في لبنان ظاهرة اجتماعية اكثر منها قانونية ٠ قابلية الاصلاح كبيرة خصوصا عندما تؤمن للاحداث الجانحين امكانـات تعلم مهنة معقولة ٠ والجانحون واعون لواقعهم الاجتماعي ٠

وظاهرة الانحراف في طريقها الى الزيادة من عام لاخر ٠ وهناك خصوصا زيادة في العدوان على الاخرين (حمـــل سلاح ، ضرب ، قتل) في السنتين الاخيرتين ٧١ و ٧٢ ٠ ولقد عرف لبنان زيادة مماثلة فـــي اعمال العنف بين الاحداث بعد حوادث ٥٨ مباشرة ٠ يأتي بعد ذلك الزيادة في الافعال الجنسية (لواط خصوصا ويسبقه عادة الوقوع ضحية للواطيين آخرين) ٠

اما بالنسبة للمناطق فهناك مركزان اساسيان بيروت وطرابلس والشمال٠ اما في بيروت فمعظم الجانحين يأتون من الضواحي التي تتكدس فيها جماعات سكانية هامشية ذات اوضاع اجتماعية اقتصادية ركيكة ٠ وتزيد في طرابلس نسبة الافعال الجنسية عن غيرها من المناطق ٠

اما الاعمار ، فسن الانحراف الفعلي هو الرابعة عشرة ٠ في هـذا السن يصل الحدث الى درجة من القوة تمكنه من رفض استغلال الوالدين له ٠ فيبدأ بالعمل لحسابه الخاص ٠ كما انه يصل الى قدرة اكبر على تحدي السلطة ٠

ويلاحظ في الفترة الاخيرة ان زيادة العـــدد ترتبط بزيادة المغريات التي تشجع على الانحراف ـ مثـــلا تعدد حالات السرقة من اجـــل ممارسة لعبة الفليبرز ٠ وكذلك زيادة الحرية المعطاة للاطفال ٠

ويتميز الانحراف عندنا ، بأنه وليد البؤس اساسا من تفكك الاسرة الى مختلف العوامل الاجتماعية · وهـــو انحراف خارجي اكثر منه تكوينا نفسيا داخليا ·

ب ـ الاسباب :

من اهم العوامـــل الاجتماعية تفكك الاسرة والبطالـــة وانعدام التعليم الالزامي · وكذلك الفوضى في السماح بدخول الاجانب على اختلاف اعمارهم· ثم هناك عدم نضوج الاهل · وميل الكثير منهم الى استغلال ابنائهم في كسب رخيص منذ سن مبكرة بدون تقدير لعواقب ذلك على مستقبل الطفل وتكيفه ·

اما العوامل المرضية الشخصية فهي اكثر مما يبدو ظاهريا لاول وهلة · وهي تفلت عادة من الاحصائيات نظرا لصعوبة رصدها ·

جـ ـ امكانات الرعاية :

هناك الكثير مما يجب عملـــه على مستوى التجهيزات · فهي تكاد تكون معدومة على مستوى الاختصاص البشري · وهي هزيلـــة جدا على المستوى المادي· ويلزمنا ما لا يقل عن عشر مؤسسات متنوعة التخصصات لتلائم مختلف الحالات · ثم هناك ضرورة لتأسيس مراكز للرعاية اللاحقة · واخرى لحماية العمال الصغار الذين يفدون الى المدن الكبرى ويتعرضون لكل الاخطار الخلقية التي تؤدي بهم الى الانحراف ·

ثم هناك حاجة لمؤسسات وقائية تتخذ طابع التنمية المحلية : حماية ودعم الاسرة ، حماية الطفولة ، نوادي شباب ، تربية في البيئة الطبيعية ·

اما على مستوى التشريعات فهنـــاك ايضا الكثير الـــذي يجب عمله · خصوصا وضع النصوص التي تسمح للقاضي باصدار احكام تربوية اصلاحية تبعا لحالة حاجات كل حدث · عدم اعتبار كل طفل خالف القـانون جانحا ، اذ ان الكثير منهم تكون افعالهم ظرفية ·

ومما يجب تناوله بالتعديل جمود الاحكام وضرورة امكان تعديلها حسب الحاجة · وتمديد سن الحداثة الى ما بعد ١٥ عاما ·

تعليق :

يؤكد هذا الاستبار الآراء والنظريات التي وردت في الاستبارات السابقة·

ويتلاقى معها خصوصا على مستوى التجهيزات والتشريعات الواجب توافرها للقيام بعملية تربوية ناجعة • كما يشير بوضوح الى امكان الاصلاح وسهولته النسبية اذ ان شخصية الجانح لم تتعرض اجمالا لتدمير كبير من ناحية امكانات الانتماء والتدامج الاجتماعي •

وأخيرا فهو يوضح بعض المظاهر الجديدة للسلوك حاليا • اذ ان المغريات المختلفة ووسائل اللهو تمارس ضغوطا كبيرة على قسم من الاحداث وتدفع بهم الى الانحراف بغية تحقيق هذه الرغبات التي تولدها • خصوصا وان مراقبة الاهل والمراقبة الاجتماعية للاحداث بشكل عام تميل الى التراخي حاليا • ولقد قدم هذا الاستبار العديد من المقترحات الهامة في ميدان حماية الطفولة وميدان التربية المتخصصة عندما أكد على طريقة التنمية المحلية والتربية في البيئة الطبيعية • اذ اصبح من المعروف ان هذه الطرق من افضل وسائل القضاء على سوء التكيف الاجتماعي على مستوى الاطفال والراشدين والاسرة •

ج ـ مربون متخصصون يشغلون مناصب قيادية في تأهيل الجانحين

الاستبار السادس :

أ ـ الخصائص العامة للظاهرة :

اصر هذا المربي على ضرورة تحديد وظيفته وطبيعة عمله • فهو مسؤول عن مكافحة التشرد في مدينة بيروت • ويدير من اجل هذا الغرض نوادي للشباب في العاصمة والضواحي • ويتلخص عمله كما اراد ان يحدده في الوقاية في البيئة الطبيعية •

بدأ الاستبار بحوار حول توضيح العلاقة بين المنحرف والمتشرد • وتم اتفاق على ضرورة الانطلاق من المفهوم الاجتماعي العيادي العريض لتحديد الظاهرة وعدم الاخذ بالتفريق القانوني القاطع ما بين انحراف وتشرد •

اما المتشرد فهو :

- طفل ترك منزله ومحيطه وضاع في المدينة •
- تلميذ يعمل موسميا اثناء الفرص والعطل •
- الطفل المستغل من قبل الاهل (بيع العلكة وخلافها) •

- الطفل الذي ينتهز فرصة المواسم (سياحة او غيرها) ٠
- الطفل الذي باع نفسه للمنحرفين (لواط وقوادة) ٠

المتشرد هو على وجه الاجمال الطفل او الحدث الذي ليس لديه صنعة ، يعيش (يأكل وينام) في الشارع ، وهو الذي قطع صلاته مع المجتمع الذي نبذه (اهله ، محيطه الاصلي) والذي تغيرت قيمه (اصبح الباطل صالحا والصالح باطلا في نظره) ٠ وقد يكون منحرفا قانونيا وقضائيا وقد لا يكون ٠

ويتضح من هذا التعريف ان المتشرد يتطابق وضعه تمامـــا مع الجانح المعرض لخطر الاحتراف ٠

وتكون ظاهرة الانحـــــراف والتشرد مشكلة كبيرة تتجاوز كثيرا درجة الوعي الاجتماعي والاهتمام المعطى لها ٠

من احصاء اجراه عام ٦٨ خلال اسبوع في مدينة بيروت ، اتضح ان هناك حوالي ٨٠٠ متشرد ينامون فـــي الشارع ويتفاوتون في درجـــة اقترابهم من الانحراف، ويتجددون باستمرار في غالبيتهم ، يغيبون عن المسرح ليأتي غيرهم٠

وتتوزع الاعمار كالتالي :

قبل ١٢ سنة هروب وتشرد بدائي ٠ ١٢ ـ ١٤ تشرد نشط ومساهمة في الافعال الجانحة ٠ بعد ١٤ سنة تدرج نحو الانحراف الظاهر الخطير ٠ ويسيطر على المتشردين ويستغلهم عصابات جانحة ظرفية ٠ يتكون رؤساءها من جانحين تجاوزوا سن ١٥ سنة ٠ وتتوزع مناطق الانحراف عـادة الى مناطق نفوذ بين هؤلاء ٠ لكل منهم منطقته التي يستغلها ويشغّل في خدمته صغار المتشردين ، ويتنصل من المسؤولية عندما يقع هؤلاء في قبضة العدالة ٠ والعلاقة ليست ثابتة بين الرئيس ومن يعملون لحسابه ٠ بل هناك حركة كبيرة ـ نوع من تشغيل يـد عاملة عابرة ٠ ولقد بدأت في الفترة الاخيرة تبرز ظاهرة « القبضايات » ٠ كما تنظمت وتحددت مناطق النفوذ بشكل أدق ٠ ورغم ذلك كله فليس هناك عصابات منظمة ومستمرة ، بل شراكة بين اثنين او اكثر تقوم بعـدة مغامرات ، وتحدث ضمنها حركة كبيرة ثم تتفكك ٠ على العكس نصادف كثيـــرا ظاهرة الرفاق ٠ مجموعة من الاحداث يعرفون بعضهم بعضا اما لانهم من نفس الحي او نتيجـة لوجودهم معا في مناطق الانحــــراف ٠ ويتلاقى هؤلاء ويتفرقون تبعا للظروف والمغامرات ٠

اما اكثر التصرفات الجانحة شيوعا في هــذه الاوساط فهي السرقة على انواعها والنشل، الالعاب الممنوعة واللواط (وهي ظاهرة حديثة العهد نسبيا)٠ اما المخدرات فلا زالت قليلة الانتشار ٠

ولقد تغيرت ظاهرة الانحراف والتشرد ٠ فزادت جاذبية الاوساط الجانحة وامسى التخلص منها صعبــا لان الاغراءات التي تقدمهــا اصبحت شديدة والافعال الجانحة تعطي نتائج سريعة وكبيرة ٠ كما يلاحظ ميل الى زيادة تصلب وتمرس الاحداث في الشارع بالتصرفات الجانحـــة ، مع بروز افعال العنف وزيادة ادواته (آلات جارحة) ٠

وتتوزع الاحياء المنتجة للانحراف في بعض منـــاطق بيروت وضواحيها خصوصا ٠ أهمها ما يلي : النبعة ، برج حمود ، المسلخ ، الكرنتينا ، بـــرج البراجنة ، الغبيري ، البسطة التحتا ، شاتيلا ، خندق الغميق ، كرم الزيتون ٠ وباختصار حيث يوجد **فقر وتخلف تربـــوي وثقافي واكتظـــاظ سكاني يوجد انحراف ٠**

ويتميز الجانح اللبناني بشكل عام بالانضواء تحت قانون الشارع (عليه ان يعيش وان يتدبر امره) ، انه اسير اللحظة الراهنــة ، لا تخطيط ولا تبصر للمستقبل ، ينفق ثمار افعاله بسرعة ، متركز حول ذاتــه ومصلحته الخاصة ، يتفق مع زميله على الغير ، وهو ضد هذا الزميل عندما تتطلب مصلحته ذلك ، يعطي ما لديه بنفس السهولة التي يسرق بهـــا ما لدى الآخرين اذا احتاج ٠ وهناك خصوصا ظاهرة انعدام التنظيم في عصابات كما هو الحال في الغرب ٠

ب ـ الاسباب :

هناك اسباب مباشرة وغير مباشرة للتشرد والانحراف أما المباشرة فهي الاوضاع الاسرية المضطربة والوضعيات المأزمية ٠

- فقدان الثقة والتفاهم بين الحدث واهله والمجتمع ٠
- نقص في العاطفة والمحبة الابوية ٠
- تفكك الاسرة بالموت ، او الانفصال ، تعدد الزوجات ٠
- جهل في التربية ، فقر وكثــرة الاولاد ، اولاد بدون مدرسة ، او بدون تذكرة هوية ٠
- أم انانية مهملة لابنائها غائبة عن البيت معظم الوقت ٠

- أب عاطل عن العمل ، مدمن على الخمرة او الميسر ، او مريض ومقعد وفاقد لكل سلطة ٠

اما الاسباب غير المباشرة فاهمها :

- الهجرة من الريف الى المدينة والعيش في احيـاء مكتظة سكانيا وفي حيز مكاني ضيق جدا ٠
- عدم وجود تعليم الزامي ٠
- كثرة عدد الاولاد في الاسرة ٠
- عدم وجود قوانين واضحة لحماية الطفولة ٠

ويجدر بنا ان نذكر هنا ان الاسباب مباشرة كانت ام غير مباشرة لا تفعل فعلها الا من خلال الاضطرابات النفسية التي تفجرها في الاسرة او عند الحدث٠ وكذلك نرى عدة اطفال متكيفين في اسرة معينة ما عدا واحدا منحرفا ٠

اما نسبة الامراض العقليـــة والنفسية الصريحة فضئيلة جـــدا بين الجانحين ٠ انما هنـــاك الكثير من الاضطرابات النفسية النابعـــة من المآزم الاجتماعية ٠

جـ ـ امكانات الرعاية :

هناك ضرورة ماسة للتوجه نحو العمـل الوقائي خصوصا في الشارع ، واتباع سياسة التنمية المحلية والتربية في المجال الطبيعي ٠ ويمكن بهذا الصدد تأسيس نوادٍ وقائية في الاحياء ، ونواد مركزية في المدن الكبرى٠ وبيوت شباب واستقبال مؤقتة او دائمة ٠ ونواد لاستقطاب الاحداث الوافدين من المناطق ٠ وفي كل الحالات يستحسن ان توضع خطط متكاملة لغرس الطفل في محيطـــه (الاسرة والمدرسة والعمل) ٠

أما على صعيد التشريعات فهي غير كافية اجمـالا ، خصوصا من ناحية حماية الطفولة على مختلف الاصعدة ٠ ولحسن الحظ هنـــاك تحسس من قبل القضاة بهذه المشكلات وهم يأخذون رأي الاختصاصيين بعيـــن الاعتبار ٠ انما من الجوهري سن قوانين تحمي الطفولة بشكل جدي ٠

تعليق :

يقدم هذا الاستبار صورة حية عن واقع الانحـــراف والتشرد ليس كميا انما كيفيا ٠ كما يبين بوضوح كيفية الانتقال في مختلف مراتب الانحراف ٠ وقد

نستطيع ان نقول ان ظاهرة الرؤوس الجانحة ذات مناطق النفوذ المحددة والتي تشغل صغار المتشردين وتستغلهم تكاد تكون ظاهرة محلية لا نجد لها مثيلا في الغرب ٠ كما انه من الملفت للنظر عدم وجود عصابات مكوّنة ومتماسكة تتمتع بالاستقرار ٠ طبعا لا يتعرض هذا الاستبار الا الى الظاهرة في مدينة بيروت ، حيث يتخذ الانحراف طابعا نوعيا متميزا عنه في المناطق ٠ ففي بقية المحافظات يظل الجانح على صلة مع اسرته الى حد كبيـــر ويستمر منغرسا في محيطه ٠ اما في بيروت فهناك في الحالات التي عرضناها هنا ، انقطاع كلي عن المحيط الاصلي وانخراط في مناطق الانحراف ٠ وهــــذا ما يؤدي الى ارتفاع درجة خطورة الظاهرة ٠

اما من حيث الاسباب فلقد عزز هذا الاستبار مــــا اشرنا اليه سابقا من اسباب وعوامل للانحراف ، مع اشارة جيدة الى نوعية العلاقة بين الاضطراب النفسي والمشكلة الاجتماعية ٠

واما من حيث اجراءات الرعاية ٠ فيؤكـــد على ضرورة اتباع الطرق الحديثة في علاج ظاهرة الانحراف حين يلح على العمل الوقائي ٠ الا انه يعطي للنوادي الوقائية اهمية مبالغا فيها في رأينا ٠ فهذه الوسائل لا تعطي ثمارها المرجوة الا ضمن خطة كلية للتنمية المحلية ٠

الاستبار السابع :

الخصائص العامة للظاهرة :

ان عدد الاحداث الجانحين الموجـــود في معاهد الاصلاح والرعاية يقل كثيرا عن عددهم الفعلي في المجتمع ٠ فالمؤسسات العاملة حاليا في هذا المجال لا تستوعب اكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ حدث ٠ بينما يمكننا تقدير عـدد الجانحين والمتشردين والهامشيين بنحو ٦ او ٧ آلاف ٠

وتتفشى الظاهرة خصوصا في المناطق المكتظة بالسكان والتي تضم مزيجا من الجنسيات والمصادر: النبعة، برج حمود ، الشياح ، الكرنتينا، صبرا الخ٠٠ فالنبعة مثلا تضم مزيجا من سكـــان بعلبك والجنوب ومـــن الارمن والاكراد والاتراك والسوريين ٠ وتكثر فيها البطالة ٠

كذلك نجد مزيجا مشابها في بعض احيــــاء طرابلس حيث تزداد درجة

خطورة الانحراف ۰ اما المناطق فمعظم التصرفات الجانحة فيها ذات طبيعـــة زراعية وعشائرية ۰

وتشكل السرقة ۷۰ الى ۸۰٪ من مجموع الحـــــالات ۰ ثم تاتي الالعاب الممنوعة واللواط والافعال العدوانية ۰ ولكن الجنـــــح الانتفاعية هي الطاغية اجمالا ۰

وهناك تدرج في التوجه نحو الانحـــراف ۰ يبدأ الامر منذ سن مبكرة ، ۷ـ۱۰ سنوات على شكل هروب من البيـت والمدرسة وممارسة اعمال هامشية (تسول ، بيع علكة ، بيع اكياس ، مسح زجــــاج السيارات) ۰ هذه الاعمال توصل بعد فترة الى الانحراف ۰ المشكلة في هذه المرحلة ضخمة من حيث العدد ومن ناحية كونها فترة تحوّل من التكيف الى الانحراف ۰ ما بين ۱۳ و ۲۰ سنة تسير الاعمال خطوات ابعد في طريق الانحراف القانوني وتبرز اعلاميا ۰

وهناك فروق واضحة بين الانحراف في لبنـــان والانحراف في الخارج ۰ الظاهرة ليست صعبة العلاج وهي تنتج اجمالا عن العوز وضرورة تدبير الحال۰ ليس هناك عصابات منظمة ولا انحرافات مرضية ـ كما ان الاسرة تظل اجمالا قريبة المنال وتحتفظ ببعض القيم الخلقية والرغبة في التكيف (عائلات مستورة)۰

ب ـ الاسباب :

تتداخل العوامل الاجتماعية والاسرية لتؤدي الى الانحراف ۰ من اهـــم هذه العوامل العيش في احياء موبوءة حيث يكتظ مزيج من السكان ۰ وكذلك سوء الوضع المادي يحتل مكانة بارزة في المشكلة وخصوصا عدم انتظام الدخل غير الكافي اصلا ۰ وهناك مسألة التناسل الشديد (كثـــرة عدد الاولاد)مما لا يسمح للوالدين بالعناية بهم ۰

ولانعدام التعليم الاجباري وزن هام في تشرد الآلاف من الاطفال ۰ اذ ان العمل لا يضمن لهم الاستقرار نتيجة لعدم ملاءمة ظروفه ولتعرضهم للكثير من الوان الاستغلال من قبل اصحاب العمل ومن قبل الاسرة على حد سواء ۰

هناك موجة الحداثة (الاهتمـام بالمظاهر ، التحلـل من القيود ، الحرية المفرطة ، اغراءات وسائل اللهو المنتشرة) كلهـا تجتذب العديد من الاحداث ۰ ويلجأ هؤلاء الى وسائل ملتوية لاشباع رغباتهم التي فجرتها ۰

اما من الناحية الاسرية فهناك خصوصا مختلف اشكال الخلـــل العائلي

(تفكك الاسرة ، طلاق ، هجر) او أسر مكونة بشكل سيء ـ انعدام التكافؤ بين الوالدين ، تخلف ثقافي وتربوي ، انعدام الخطـــط التربوية الموحدة ، وغياب السلطة الوالدية المستقرة ٠

اما العوامــــــل المرضية فلا تشغل سوى نسبة ضئيلة جـــدا من حالات الانحراف ٠

جـ ـ امكانات الرعاية :

تعاني مؤسسات اصلاح ورعاية الجانحين والمتشردين من الكثير مـــن الصعاب ٠ حظها قليل من اهتمام المجتمع الذي لازال يقف من هذا الامر موقفا هو اقرب الى الصدقة منه الى العمل التربوي التقني ٠ وكذلك فهي غير مجهزة ماديا بشكل ملائم ٠ كما ان التجهيز البشري يظل دون المستوى المطلوب الى حد بعيد ٠ ولا يرجع ذلك الى عدم وجود الاختصاصيين بقدر ما يعود الى انعدام الامكانات المادية للاستعانة بهم ٠

اما التشريعـــات فهي بدورها بحاجة الى بعض التطويـــر والتعديل ٠ فيستحسن مثلا ان يمدد سن القصرَ من ٧ الى ٢٠ سنة ٠ كما ان الاحكام يجب ان تتصف بالمرونة كي تساير تطور كل حدث خلال عملية التربية تحت اشراف قاضٍ لتنفيذ الاحكام ٠ ثم هناك ضرورة لتنويع هـــذه الاحكام حسب اوضاع كل حدث ٠

ومن الضروري ايضا اللجوء الى اجراءات الرعاية في المحيط الطبيعي ٠

تعليق :

تنسجم معطيات هذا الاستبار مع كل ما سبقه تقريبا من حيث النظرة الى حجم الظاهرة وابعادها وتغيرها واسبابها ٠ وكذلك من حيث امكانات الرعاية واشكالاتها وما هو مطلوب عمله بصددها ٠ الا اننا قد نتحفظ بخصوص تمديد سن الحداثة الى ٢٠ سنة مثلا٠ فاذا كان هذا الاجراء واقعياً في البلدان المتقدمة صناعيا فانه قد لا يلائم تماما البيئة المحليـــة ٠ خصوصا ان الفئات السكانية التي يأتي منها الجانحون غير متخصصة مهنيا وبالتالي فان الوصول الى مرحلة ومسؤوليات سن الرشد من عمل وزواج وغيـــره يحدث في سن صغير ، نسبيا (اواسط المراهقة او نهايتها اجمالا) فهناك تفتح اجتماعي مبكر ولا بد من اخذ هذا الامر بعين الاعتبار عند بحث مسألة الحداثة القضائية ٠

د ـ مساعدات اجتماعيـات عاملات
مع الاحداث الجانحين والمتشردين

الاستبار الثامن :

١ ـ الخصائص العامة للظاهرة :

تنتشر ظاهرة الانحراف والتشرد كثيرا في بيروت والمدن الكبرى ·

اما في القرى والارياف فهناك ندرة في المنحرفين وكثير من العاطلين عن العمل · والمشكلة في رأيي هي اصلا نقص الرعاية في الاساس · فالاطفال الذين لا يذهبون الى المدارس ، لا يجدون حماية كافية في الشارع وفي مكان العمل · وغالبا ما تكون ظروف العمل غير ملائمة وغير مشجعة ، ولهذا فهم سرعان ما يتشردون ·

وهناك احياء تمد الظاهرة بعناصرها البشريـــــة اهمها الاحياء المحيطة بالعاصمة : برج حمود ، النبعة ، الكرنتينا ، المسلخ ، برج البراجنة ، الشياح، المريجة ، حي السلم · وكذلك حديثا الجديدة ورويسات الجديدة · يأتي السكان من الاقاليم ويستقرون او يتكدسون في هذه الاحياء بشكل غير صحي، وغالبيتهم لبنانيون · ثم هناك بعض الاحياء في طرابلس (القبـة والتبانة) تولِّد التشرد والانحراف بكثرة · تأتي بعدها زحلة ثم بقية المدن ·

اما الاعمار فهناك عدة فئات · يبدأ الامر في سن مبكرة ٨ـ٩ سنوات · ياتي الاطفال في هذه الفئة من الاحيـــــاء الهامشية · بلا دراسة ولا رعاية ، يقضون أوقاتهم في اللهو والتيه والذهاب حيثما توجد متعة أو منفعة ممكنة · ويستقطبون من قبل رؤساء العصابات الذيـــــن يشغلونهم لحسابهم في اعمال هامشية : تسول ، بيع علكة ، مراهنات ، بيع ازهار الخ ···) ·

رؤساء العصابات هؤلاء هم في الاصل من نفس فئـــة الاطفال المتشردين ومروا بجميع مراحل الانحراف وتوصلوا مع التقـــدم في السن والتجربة الى فرض أنفسهم والسيطرة على بعض مناطق النفوذ التي تمنع على غيرهم ·

خلال هذه الاعمال يتعرض الاطفال والاحداث ما بين ٩ و ١٣ سنة الـى الاستغلال الجنسي (اللواط خصوصا) وهي ظاهرة بدأت تتفشى اكثر فأكثر · معظم المتشردين يمرون بهذه التجربة· وهم يستغلون اما من قبل رئيس العصابة

الذي يستقطبهم واما من قبـــل بعض المستهلكين ممن هم علـــى صلة مع هذا الرئيس · ويحصل الطفل لقاء ذلك على منفعة مادية خصوصا الملجأ والحماية·

بعد سن الرابعة عشرة هناك فئة تحترف اللواط ، اما الغالبية فتتّجر به احيانا او تتركه منصرفة الى الافعال المجزية · وهنـــا تبدأ الالعاب الممنوعة والمراهنات والنشل والسرقات وغيرها · ومن يتمكن منهم من اثبات جدارته في هذا الميدان وفرض سطوته على الاخرين يصبح رئيسا يشغّل الاخرين لحسابه·

نحن هنا امام ظاهرة اجتماعية اساسا ، ينتـج عنها بالتالي اضطرابات شخصية · ولذلك فالمشكلة ليست فردية وعلاجها يستدعي عدم الاكتفاء بالمستوى الفردي من العناية ·

ب ـ الاسباب :

الاسباب الاجتماعية ليست بحاجة الى تبيان· فهناك خصوصا المحيط الذي ينشأ فيه الحدث ويعيش · هذا المحيط يحمل الكثير من عوامل الانحراف والقليل من امكانات الرعاية والحماية · وهنا يحتك الحدث بآخرين من امثاله يزينون له الكسب السهل ويجد كل التشجيع على الهروب من المدرسة اذا كان يتردد عليها، ومن البيت ، كي يحتفظ بثمار افعاله لنفســـه · بعد ان كان الاهل يستحوذون عليهـــا ·

ان عدم وجود تعليم الزامي او مؤسسات لحماية الطفولة ورعايتها يزيد من خطورة الوضعية التي يعيش فيها الحدث ·

ثم يأتي دور الاسرة وهـــــو رئيسي من عدة نواح في انتـــــاج التشرد والانحراف أهمها :

ـ تفكك الاسرة ·

ـ اهمال الاولاد وتسييبهم نتيجة لغياب الاهل في العمل او لعدم اكتراثهم·

ـ الجهل وعدم تقدير العواقب ، وعدم تفهم الطفل وحاجاته ·

ـ الفقر والعوز وتشغيل الاولاد بغية الكسب السريع ·

ـ السكن غير الملائم واكتظاظ الحي بالسكان مع العيش في ظروف تنعدم فيها الضمانات الحياتية والمستقبلية ·

ـ اضطرابات الاهل الزوجية ·

ج ـ امكانات الرعاية :

هنالك الكثير من النقص في التجهيزات المادية والبشرية لرعاية واصلاح الطفولة المشردة والجانحة ·كذلك عدم توفر مؤسسات متنوعة في تخصصاتها لتلائم جميع الحالات · وغياب المدارس التي تهتم بالاطفال الصعبين · وتظهر المدارس هنا انخفاضا كبيرا في درجة التســـامح والتقبل لهــؤلاء الذين يكون مصيرهم الطرد والتشرد اللاحق ·

ثم ان ظاهرة التنافس والصراعات والانانية المتفشية بدرجات متفاوتة بين المسؤولين عن المؤسسات الموجودة تؤدي الى الحد من فعالية الجهود المبذولة وتبديد طاقات العاملين في هذا الميدان· ولا بد من تجاوز هذه الاشكالات ووضع أسس للتعاون ، حتى تتمكن المؤسسات من القيام بدورها ·

اما على مستوى التشريع فالمسألة الاهم التي تحتاج الى اعادة نظر هي ضيق حدود مفهوم الانحراف (خرق القانون بصرف النظر عن كل اعتبار آخر) من الضروري ان يضع المشترع في اعتباره ان الاعتداء على القانون ما هو الا لحظة تتكرر عدة مرات في حياة غير متكيفة · وقـــد لا تكون اهم اللحظات ولا اخطرها ·

تعليق :

مرة اخرى تتلاقى وجهات النظر حول ظاهرة الانحـــراف والتشرد بين العاملين · ظاهرة منتشرة في بيروت والمدن الكبرى خصوصا، تميل الى الزيادة في الشدة والخطورة ، تنتج عن أسباب اجتماعية أسرية اصلا ، يؤدي الامر الى التشرد من البيت والاستغلال من قبل رؤساء العصابات ، ثم مـــع الخبرة يبدأ الحدث العمل لحسابه ويصل الى مستوى الانحراف · الظاهرة اجتماعية قبل ان تكون اي شيء آخر ·

على ان هذا الاستبار يلقي اضواء خاصة على مرحلة حساسة من حياة المتشرد الجانح وهي الاستغلال الجنسي · ان حدوث ذلـــك في محيط موبوء وجانح يؤدي الى وصم الطفـــل وترسيخ صورة الانحراف وفقـــدان الاعتبار الاجتماعي الذي يسمم شخصيته · وذلك أمر يؤدي الى الاستسلام كليا للحياة الجانحة بعد فقدان الامل في الحياة الاجتماعية اللائقة ·

وتؤكد الدراسات العيادية مدى التدميـــر الذي يلحق بشخصية الطفل

والذي يصيب خصوصا قوى التكيف فيها نتيجة الانخراط في تجربة اللواط في محيط جانح ·

الاستبار الثامن :

أ ـ المظاهر العامة للانحراف :

يمكن تحديد عدد الجانحين بالرجـــوع خصوصا الى الحجم السكاني للاحياء الهامشية واحياء البؤس والاكتظاظ السكـاني · ويمكن القول ان ٢٥٪ من الاحداث في هذه الاحياء جانحون · وان معظم الاطفـــال يمرون بفترة من الانحراف خلال حياتهم ·

يبدأ الامر بالتشرد اثناء الطفولة ، وعـــدم التكيف المدرسي والمهني وفي بداية المراهقة يبدأ سن توكيد الذات ، وتتكون عصابات الجانحين ·

ولقد زاد العدد كثيـــرا خلال السنوات الاخيرة نتيجة انفتـــاح الاطفال والاحداث على امكانيات ومغريات اللهو والاستهلاك والرغبة في الانفاق · ولم يعد المحتاجون والمعوزون يكتفـــون بالقليل (بيع العلكـة والاكياس مثلا) بل اصبحوا يريدون اللحاق بركب البحبوحة ولذلك فهـــم يفتشون عن اعمال غير مشروعة تدر ربحا كبيرا وسريعا ·

واما التوزيع تبعا للمنـــاطق فيلاحظ طغيان السرقـــات الموصوفة وغير الموصوفة ، والنشل ، والتهريب والالعاب الممنوعة في بيروت · أما في الشمال فهناك خصوصا السرقة والضرب والافعال الجنسية ، وأما في البقاع فتكثـــر الانحرافات ذات الطابع العدواني الحركي ومخالفات المزروعات · وكذلك الحال في الجنوب حيث تطغى مخالفات المزروعات بشكل بارز على كل ما عداها ·

ب ـ الاسباب :

هناك العديد من الاسباب الاجتماعية والاسرية تتداخل فيما بينها · امـــا على المستوى الاجتماعي فنجد خصوصا قلة الاهتمام برعاية وحماية الطفولـة والمراهقة · وعدم فرض التعليم الالزامي · وغض النظر او التراخي في الملاحقة ثم هناك الاقبال على مغريات اللهـــو والاستهلاك التي اصبحت بمثابة وسيلة لتوكيد الذات· هذه الفرص تتوفر خصوصا في العاصمة التي اصبحت تستقطب الكثير من العناصر الريفية التي تضيع في دوامة المغريـــات وتنجرف في تيار

الانحراف نتيجة لعدم توفر اعداد كافٍ يساعدها على مجـــابهة حياة المدينة وتحدياتها ٠

اما على مستوى الاسرة فهناك العديد من العوامل اهمها :

ـ فقدان رعاية الابناء اما عن جهل ، او عن بؤس مادي وعدم توفر امكان الاهتمام بهم او عن تفكك الاسرة وضياع الابناء ٠

ـ ثم هناك فقدان السلطة الابوية وتراخيهــا ، او تذبذبها ما بين الشدة المفرطة والتراخي الكلي ٠

ـ أخيرا هناك المبالغة في تدليل الاطفال ٠ ويحدث ذلك خصوصيا من قبل الامهات اللواتي يتسترن على افعال ابنائهن ٠ ويكون الاب في هذه الحالة فاقدا للسلطة على الاسرة او فاقد لاعتباره الزوجي ومكانته ٠

ج ـ امكانات الرعاية :

ان التجهيزات الخـــاصة برعاية واصلاح الاحـــداث قاصرة عن تلبية الحاجات الفعلية ٠ فليس هناك مؤسسات متنوعـــة لتلائم الضرورات التربوية لكل فئة : بيوت تأديب ، بيوت اصلاح ، بيوت استقبال ، بيوت شباب ٠

وأما المؤسسات الموجودة فتشكو اجمالا من نقص التجهيزات : عدم توفر وسائل الترفيه وتوكيد الذات ، ضيق المكان ، وخصوصا نقص العناصر البشرية المتخصصة ، مما يجعل من المتعذر القيام بالعمل التربوي في جـو من الارتياح الكافي ، وبالتالي اعطاء العناية الكافية للاحداث ٠

اما تشريعات الاحداث فلقد اصبحت قديمة جدا ٠ ولم تعد تراعي بشكل كاف الحاجات الناشئة والمستجدة وتغير اسباب الظاهرة وخصائصها ٠ فهـي قريبة جدا من قانون عقوبات الراشدين ٠ ثم ان هـــذه التشريعات تفتقر الى المرونة التي تسمح باتخاذ اجراءات تربوية واصلاحية متنوعة تبعا للحاجة ٠ ان عدم امكان تعديل الاحكام واعادة النظر فيها تجعل من المتعذر مواكبة تطور الحدث خلال عملية التربية ٠ وهناك خصوصا ضرورة لاعطاء الاحكام تبعـا لحاجات وظروف كل حالة وليس فقط تبعا للسلوك الجانح مجردا عما عداه ٠

تعليق :

ان التوكيد واضح في هذا الاستبار على الربط بين احياء البؤس والاكتظاظ

السكاني والانحراف · ويعتبر صاحبه ان السلوك الجانح في هذه الحالة هو مظهر الحياة الهامشية يمر به الحدث في مرحلة ما من حيـــاته ، سواء تكيف بعدها ام اصبح جانحا · ولهذا الرأي نصيب كبير من الصحة في رأينا ، اذ ان التصرفات الانتفاعية هي السائدة في تلك الوضعية · ويتوقـــف النشاط على الفرص متراوحا ما بين عمل عابر او ظرفي وبين نشاط يقع على حافة الشرعية القانونية · الا ان هناك ولا شك مبالغـــة في نسبة ٢٥٪ التي يقول بها صاحب الاستبار ·

كما ان المعطيات هنا تعزز ما اوردناه فـــي الاستبارات السابقة من حيث عملية التوجه نحو الانحراف ومن حيث اسبابه ومــن حيث امكانات الرعاية · ولذلك فلا مبرر للتكرار · انما يؤكد هذا الاستبار على ناحية لم ترد كثيرا فيما سبق ، وهي تعلق قسم كبير من الطفولة المتشردة والجـــانحة بمظاهر اللهو واغراءاته والبحث عن الملذات التي تقدمها العاصـمة ، والرغبة في اللحــاق بالركب · ولذلك لم يعد الحدث يكتفي بالقليل او بالنشاط المنخفض المردود ·

خلاصة عامة

لقد رأينا الاكتفاء بهذا القدر من العرض التفصيلي للاستبارات التي قمنا بها رغبة منا في تجنب التكرار ، خصوصا ان معظم المعطيات تتلاقى وان بقيـة الاستبارات التي لم نتناولها بالعرض لا تضيف جديدا يذكر سوى تدعيم وجهات النظر السابقة ·

ترسم المعطيات المعروضة امامنا صورة حية عن واقع الانحراف وظروفه· ويمكننا ان نستعيض بهذا العرض الحي عن دقة الارقام التي لا تتوفر لنا · كما يلاحظ انها تتلاقى وتتكامل الى حد بعيد بدون اختـــلاف يذكر بينها · وذلك ما يؤكد قيمتها ويجعلنا نستطيع الاخذ بها والاطمئنان الى واقعيتها ·

ثم ان هذه المعطيـــات تعكس في النهاية موقـــف ووجهة نظر العاملين الرئيسيين في ميدان الانحراف · ولهذا الموقف قيمة عملية كبيرة على مستوى الرعاية والاجراءات الاصلاحية · فهو الذي يوجـــه الممارسة الميدانية لهؤلاء العاملين ويوجه قراراتهم وخططهم التربوية · وبالتالي فهو على الاقل، وبصرف

النظر عن قيمة المعلومات الواردة ، يمكن اعتبـــاره عاملا اجتماعيا مؤثرا في الظاهرة ومصيرها على مستوى الرعاية والتأهيل ٠

نظرا لقلة حجم المعطيات التي عرضناها يصعب القيـــام بعرض وتحليل كفي لها ٠ ولذلك ستتخذ خلاصتنا شكل اجابات اجمالية على اسئلة الاستبار ٠

١ ـ الخصائص العامة لظاهرة الانحراف :

١ ـ مدى انتشار الظاهرة : تجمع كل المعطيات ما عدا حالة واحدة علـى ان الظاهرة منتشرة الى درجة اكبر بكثيـــر من ارقام الاحصائيات الرسمية المعروضة في الفصل السابـــق ٠ وهناك من قـــال بأن من تندرج حالاتهم في الاحصائيات الرسمية اي الذين وصلت قضاياهم الى محـاكم الاحداث هم من المحظوظين بالنسبة للعدد الكبير من الجانحين والمتشردين الذين لا يلقون هـذا الاهتمام ٠

كما ان المعطيات تجمع اجمـــالا على ضرورة تبني المنطلق الاجتماعي العيادي العريض في بحث الانحراف وعـــدم الاقتصار على المنطلق القانوني الضيق ٠ هذا المنطلق العريض يدخل في اعتباره كل حالات التشرد والطفولة السائبة المعرضة لخطر الانحراف ٠ هؤلاء جميعـا يعيشون في وضعية خطر الانحراف (بمعنى الاعتداء على القانون) الى حد كبير ٠ وقد نجد في تصرفات كل منهم الكثير من الافعـــال التي تعتبر جانحة والتـــي ظلت خفية لم تطالها الملاحقة ، كما بين الاستبار الاخير حين قال بمرور معظم الاحداث في المناطق الهامشية بتجربة الاعتداء على القانون ٠ طبعا نحن لم نقصد من توسيع المنطلق الى الحديث عن الطفولة التي تفتقد الرعاية والحماية بشكل عام ، فذلك يخرجنا قطعا عن موضوع بحثنا ، انما قصدنا الى القول بضرورة تحديد محك الجنوح انطلاقا من وضعية خطر الانحراف الذي يتدرج نحو الاحتراف ٠

لقد وردت وجهة نظر هامـــة تسلط كثيرا مـــن الضوء على الخصائص الاجتماعية لظاهرة الجنوح في الاستبار الثـــاني تؤكد على مسألة التسامح والتساهل تجاه السلوك الذي يخـــرق القانون ويضر بالغير واعتباره مجرد سلوك غير مستحب٠ ان هذه الظاهرة مسؤولة الى حد بعيد عن افلات الانحراف من الملاحقة من ناحية وعن التشجيع عليه بين الاحداث من ناحية ثانية ٠ فهؤلاء يحتذون نموذج الراشدين الذين لا يرون في النشاطات غير المشروعة من الناحية المعيارية سوى مجرد وسائل غير مستحبة ولكنهـا مقبولة الى حد ما كأساليب

لتدبير الحال • ويؤدي هذا الامر الى ظهور خلفية اجتماعية عامة تشجع على السلوك الجانح وتتراخى في ملاحقته •

ويقول احد الذين استبرناهم ولم نعرض رأيهـــم بهذا الصدد « ان أسر الاحداث الجانحين لا تختلف كثيرا عن الاسر العادية الشائعة في الاوساط التي ينتمون اليها • ان معظم الاسر كحال الكثير من الناس تلجأ الى الوسائل الملتوية في السلوك ـ يتساوى في هذا الجانحون وغير الجانحين ـ لقد اصبح هذا الامر في بعض الاوساط أسلوبا للتصرف في الحياة » والطريف هنا هو رد فعل هؤلاء الناس تجاه الحكم على احد ابنائهم باقامة طويلـــة نسبيا في معهد للاصلاح • انهم يرون فيه حكما جائرا ليس له من مبرر • ولا يتاتى ذلك عن رغبة في نفي التهمة او التهرب من المسؤولية بقـــدر ما ينتج عن ظاهرة التراخـــي تجاه السلوك الجانح • فهم يرون ان ولدهم لم يقم بأمـــر شاذ عن المالوف يستدعي اتخاذ اجراءات اصلاحية طويلة المدى •

٢ ـ توزع الظاهرة حسب المحافظات والاحياء في المدن الكبرى :

تتركز معظم الاجابات على ظاهرة الانحراف في بيروت خصوصا • تاتي بعد ذلك مدينة طرابلس ومحافظة الشمال ، ثم بقية المحافظات • اما في بيروت فتتوجه النظرة خصوصا الى الضواحي المحيطـــة بالعاصمة والتي يحدث فيها تكدس سكاني كبير لاسر كثيرة العدد متعددة الجنسيات والمصادر ، هامشية من حيث نشاطاتها الاقتصادية ومركزها الاجتماعي • واهم هذه الاحياء : النبعة ، برج حمود ، المسلخ ، برج البراجنة ، الشياح والغبيري ، حي السلم ، الجديدة ورويسات الجديدة وبعض الاحياء القديمـــة في بيروت ذات الاوضاع السكنية المتدهورة • هناك اذا ربط للظـــاهرة بالوضع الاجتماعي الاقتصادي الثقافي المتدهور •

ولكن الاستبارات تشير ايضا الى وجود انحراف حديث العهد نسبيا فـي الاوساط الموسرة ذات المستوى الاجتماعي والثقافي الجيد • الانحراف هنا اما مرضي واما اجتماعي محض ناتج عن تراخي سلطة الاهل والتباعد بينهم وبين ابنائهم من جهة وانجذاب هؤلاء نحـــو وسائل اللهـو المغرية من ناحية ثانية ، ونجد انفسنا هنا امام ظاهرة الانحراف من اجـــل الفلييرز •

٣ ـ التوزع حسب الاعمار :

تجمع الآراء ان الانحراف يصل الى درجـــة الخطورة القانونية في سن

١٤ ـ ١٥ سنة ٠ الا ان الامر يبدأ قبل ذلك بكثير ويمتد بعده ٠ تقع البداية ما بين ٧ و ١٠ سنوات وتتخذ طابع سوء التكيف العائلي والمدرسي ، يتبعه تسيّب وتشرد ٠ يؤدي ذلك الى وقوع هؤلاء ضحية الرؤوس الجانحة الذين يستقطبونهم ويشغلونهم لقاء تأمين الحماية والملجأ والمأكل ٠

يقوم الاطفال بأعمال غير منتجة انتفاعية ومخالفة بعض الشيء للقانون ٠ ثم يتدرجون في الانحراف فيصلون الى التصرفات الجانحة بشكل صريح ما بين ١٣ و ١٥ سنة ٠ ثم يترسخون في الانحراف ويفرض الاقوياء منهم مكانتهم في الوسط الجانح ويصبحون رؤساء عصابات ما بين ١٧ و ١٨ سنة ٠ طبعا عدد الصغار كبير جدا وتقل النسبة تدريجيا كلما تقدم السن ٠ اما نتيجة تغير ظروف الحياة والاقلاع واما نتيجة للملاحقة ٠

٤ ـ التوزع حسب الجنح والجنايات :

تتركز الاجابات هنا حول بيروت خصوصا والنشاطات الجانحة فيها ويجمع العاملون على ان الانحراف الخطير يتركز فيها ثم في طرابلس ٠ تأخذ الافعال الجانحة مظاهر تتفاوت في شدة خطورتها تبعا للسن ٠

في السنوات المبكرة هناك خصوصا التشرد والتصرفات الانتفاعية الهامشية (بيع علكة ، بيع اكياس ، بيع زهور ، تسول ، مسح زجاج السيارات) ويتعرض الكثير من هؤلاء الاطفال لتجربة اللواط اما مع رؤساء العصابات او مع مستهلكين عابرين ٠ وتؤثر هذه التجربة على مصيرهم اذ انها ترسّخ انحرافهم ٠

بعد هذه المرحلة تأتي السرقات البسيطة والموصوفة والنشل ـ وتحتل هذه نسبة عالية جدا من الافعال الجانحة ، ما بين ٧٠ ـ ٩٠ بالمئة من المجموع تبعا لمختلف التقديرات ٠ هناك فئة اخرى تكثر في بيروت وهي الالعاب الممنوعة والمراهنات وتهريب الدخان وبعض التصرفات المشابهة التي تؤدي الى كسب سريع ٠ اما الافعال الجنسية او المنافية للحشمة وكذلك حوادث الضرب والجرح وجنايات القتل فأقل بكثير من السابقة ٠

وتستطيع ان تستخلص من مجمل الاستبارات ان هناك عملية تطورية للتدرج في الجناح حتى الوصول الى درجة الاحتراف الكلي ٠ وتزداد خطورة الافعال بتقدم السن من ناحية ودرجة الانغماس في المحيط الجانح والتمرس بالنشاطات غير المشروعة من ناحية ثانية ٠

٥ ـ تغير الظاهرة في السنوات الاخيرة :

تختلف الآراء هنا بعض الشيء · فهناك قلة تقول بثبات الظاهرة ولكن الغالبية تشير الى تغير في عدة اتجاهات :

ـ زيادة في المدى : حيث يزداد عدد الجانحين بسرعة خصوصا في السنوات الاخيرة · وفي رأي البعض ان العدد قد تضاعف في المدة الاخيرة ·

ـ زيادة في الشدة : يقول بعض العاملين ان الجانحين قد تصلبوا اكثر وتمرسوا الى درجات ابعد في الانحراف · كما ان درجة العدوانية ارتفعت في بعض الاوساط · يضاف الى ذلك تنظيم اكبر النشاطات الجانحة المحترفة وتقسيم لمناطق النفوذ · ورغبة اكبر في الوصول الى مستويات النشاط الجانح المربح · وعدم الاكتفاء بالقليل ·

ـ تنوع في الشكل : فبعد ان كان السلوك الجانح وليد العوز والحاجة المادية اساسا ، اصبح هناك انحراف من اجل الاستهلاك وتحقيق الرغبة في اللهو ليس فقط في الاوساط البائسة وانما ايضا الموسرة وذات المستوى الاجتماعي الجيد · ويقول البعض انه من الطبيعي ان يتبع السلوك تطور النشاطات والادوات ولذلك فهناك سرقات لم تكن شائعة قبلا مثل سرقة السيارات والراديوات وآلات التسجيل من السيارات والتحرش بالفتيات وغيرها ·

٦ ـ خصائص الجانحين في لبنان :

تتذبذب الآراء هنا كثيرا وتفقد طابع الجزم احيانا خصوصا عند الحديث عن الخصائص الشخصية للجانحين · ولكنها تميل الى الاجماع على سهولة اصلاح الجانحين في لبنان وعلى عدم ترسخ الانحراف على مستوى بنية الشخصية الاساسية · فهم لا زالوا يكنون بعض التقدير للقيم الاجتماعية الاساسية ، ولا زالوا قابلين للسلطة المتفهمة · كما ان درجة الانتماء الاجتماعي الاسري لا زالت كبيرة · وتؤكد الابحاث العيادية هذا الرأي الى حد بعيد · وتظهر كأن هناك نوعا من الازدواجية في شخصية هؤلاء الجانحين · فهم حساسون جدا للقيم الاجتماعية الاساسية وقابلون لتحريك مشاعر التعاطف والايجابية ولكنهم يتصرفون بشكل جانح خطر بعض الاحيان يتعارض مع بنية الشخصية · في الواقع نحن امام ظاهرة انفصال ما بين المعايير الحياتية والقيم المعيارية الذاتية وبين السلوك الذي يتعارض معها ·

كما تؤكد الكثير من الاجابات اننا امام ظاهرة انحراف ذات طابع اجتماعي

اساسا تنبع من انعدام الرعاية والحماية للطفولة وعدم توفر الظروف والتجهيزات المناسبة لتمكينها من التكيف المدرسي والمهني والاجتماعي • ولذلك فانه يكفي في الكثير من الحالات تامين تلك الظروف حتى تتم عملية التكيف •

ولا تختلف الظاهرة في لبنان كثيرا ، تبعا لهـــذه الآراء ، عنها في بلدان العالم الثالث •

ب ـ الاسباب :

١ ـ **العوامل الاجتماعية العامة للانحراف** : ذكرنا في الفقرة السابقة كيف تميل الاجابات الى تغليب الطابـــع الاجتماعي لظاهرة الانحـــراف في لبنان • ونستطيع ان نستخرج منها بعض العوامل الاجتماعية العامة :

ـ عدم توفر امكانـــات الرعاية والحماية والتوجيـــه والاعداد لقسم من الاطفال مما يدفع الى الهامشية والتسيب وتشرد فالانحراف : عدم توفر التعليم الالزامي ، عدم توفر امكانات النمو السليم للطفل •

ـ الهجرة من الريف والتكدس في الاحياء الهامشية المحيطة بالعاصمة مما يخلق اوضاعا معيشية تجعل تماسك الاسرة وتوازنهـــا صعبا وتجعل الاهتمام بالاولاد وحمايتهم عسيرا • ولقد لخص احدهم هذا الامـــر في ثلاثية الاكتظاظ السكاني والفقر والجهل ، كوضعية مولدة للانحراف • يضاف الى ذلك الوضعية الاقتصادية الهامشية والتـــذبذب ما بين البطالة والاعمـــال العـــابرة مرورا بالنشاطات شبه المشروعة وغير المشروعة •

ـ تزايد درجة جاذبية وسائل اللهو وحيـــاة المظاهر وممارستها ضغوطا كبيرة على الراشدين والاحداث على حد سواء ، مما يدفع ببعضهم الى الانحراف لتامين النفقات الكثيرة التي يتطلبها هذا النمط من الحيـــاة • ويدخل في هذا الاطار ما اشرنا اليه اعلاه من التساهل في النواحي المعيـــارية لصالح النواحي البراجماتية ، او بكلمة أخرى التساهل بالقيم التي تتحكـــم بالسلوك وتوجهه لصالح الوصول الى الهدف •

اما العوامل الاسرية فهي عديدة ومتشابكة وكل استبار يعرضها بأسلوب مختلف في الشكل مع ان الاساس واحد وأهمها :

ـ تصدع الاسرة وتفككها (طلاق ـ تعدد مرات الزواج ـ هجر ـ موت)

ـ العوز الذي يدفع الاهل الى ترك المنزل بحثا عن القوت ويترك الاطفال مهملين بدون رعاية او حتى يدفع بالاطفال الى سوق العمل غير الملائم او الاعمال الهامشية غير المنتجة التي تفتح الباب امام النشاطات غير المشروعة ٠

ـ اضطراب تكوين الاسرة وفقدانها الانسجام والتفاهم والتماسك وانعدام خطط موحدة للتربية ٠ مع غياب السلطة الوالدية او تشددها المفرط في اطار من المأزم الزوجية التي تنعكس على الابناء من نبذ الى اهمال الى تدليل مفرط ٠

ـ الجهل وانعدام المسؤولية الابويـــة تجاه الابناء (كثرة التناسل مع تسيب ، استغلال الابناء ، عدم الاكتراث لمستقبلهم او مصيرهم) ٠

ـ الاضطراب النفسي الاجتمـاعي الصريح لاحـد الوالدين او كليهما (ادمان ، فسق ، انانية مفرطة ، دعارة ، حقد على الابناء الخ ٠٠) ٠

٢ ـ **العوامل النفسية المرضية** : نجد هنا اكبـــر نسبة من الاختلاف في وجهات النظر بين الذين شملهم الاستبار ٠ فهناك من يقول بأن نسبة الاضطرابات النفسية كعامل اساسي في الانحـــراف اكبر بكثير مما يتضـح ظاهريا ٠ وان الاحصائيات لا تعكس هذه النسبة بسبب صعوبة تحديد هذه الاضطرابات بشكل محسوس وذلك على عكس الاسباب الاجتماعية ٠ وهناك من يقول بأن الاسباب الاجتماعية لا تؤثر الا على خلفية من الاضطراب النفسي او التكوين الشخصي المريض ٠

ولكن الغالبية تقدر بأن نسبة حالات المرض النفسي او العقلي الصريح تظل ضئيلة جدا لا تتجاوز ٥ بالمئة من مجموع الحالات ٠ ويتطابق هذا الرقم اجمالا مع المعطيات الاحصائية في البلدان الاخرى ٠ ولكن بعض هذه الغالبية توضح هذا الامر بشكل أدق فتقول انه اذا كانت نسبة المرض الصريح ضئيلة فان نسبة الاضطرابات النفسية كبيرة ٠ ويحدث لقـــاء بهذا الصدد بين بعض من شملهم الاستبيان حول القول بأن هذه الاضطرابات النفسية تنتج اصلا عن اضطرابات الاسرة والوضع الاجتماعي المتأزم والصعب الذي يعيش فيه ٠ يتفق هذا الرأي مع النظرة الجدلية لمسألة التكيف التي لا ترى فصلا وتعـــارضا بين الاجتماعي والنفساني ، بين الموضوعي والـــذاتي ، بل على العـــكس نرى تكاملا وتتميما وتعزيزا متبادلا ٠ فالاضطراب الاجتماعي الاسري يؤدي الى اضطراب نفساني وهذا بدوره يؤزم الوضعية الاجتماعية الاسرية ، مما يجعل عوامل الاضطراب وسوء التكيف ضمنها اكبر وزنا واشد تأثيرا ٠

هـ ـ امكانات التأهيل والرعاية :

١ ـ تشريعات الاحداث :

تجمع وجهات النظر على عدم كفاية وملاءمة تشريعـات الاحداث · وتلح جميعها على ضرورة ادخال بعض التعديـــلات عليها كي تؤمن الشروط الملائمة لعملية التربية والاصلاح · وتتلخص اوجه التعديل المقترحة في عدة نقاط :

ـ ضرورة توسيع المدى الذي تشمله من حيث سن الاحداث وخصوصا الى ما بعد سن ١٥ سنة · وسن قوانين لحماية ورعاية الطفولة ·

ـ ضرور تنويع الاحكام كي تتوافق مع الحاجات التربوية لكل حالة · مثلا ادخال نظام الحرية المراقبة ونظام الوقاية ·

ـ ضرورة مرونة الاحكام كي تتمشى مع تطور كل حالة خلال عملية التربية (زيادة مدة الاقامة في مؤسسة اصلاحية ، تغيير الاجـــراء الى حرية مراقبة ، تخفيض المدة اذا دعت الحاجة الخ ···) ·

ـ وخصوصا ضرورة الانطلاق من الاعتبارات والامكانات التربوية وتجاوز المنطلق القانوني المحض الذي يركز فقط على السلوك الجانح بصرف النظر عن صاحبه ·

ان التشريعات الخاصة بالاحداث في اي مجتمع تحدد الى مدى بعيد مصير الانحراف في ذلك المجتمع · فاذا كانت الاجراءات عقابية اساسا ادى ذلك الى تأزيم وزيادة خطورة حالة الحدث الجانح ، الذي يخـــرج من المؤسسة العقابية اكثر حقدا على المجتمع واكثـــر تشربا لقيم العالم الجانح واكثـــر عجزا عن الانغراس الاجتماعي المتكيف · أما اذا كـــانت الاجراءات تربوية اساسا ، أدى ذلك الى تخفيف حدة المشكلـــة بانقاذ العناصر التي جنحـــت وتأمين الظروف الموضوعية والشخصية لاعادة تكيفها · وبذلك تكون وسيلة هامة من وسائـــل محاربة الانحراف · كما ان نوع التشريعات ومستوى التجهيزات البشرية والمادية الخاصة بانحراف الاحداث او بأي ظاهرة اخـــرى تعكس عادة مدى اهتمام المجتمع بتلك الظاهرة وبالتالي مدى الجهود المبذولة للحد من تفشيها ·

٢ ـ التجهيزات المادية والبشرية :

نجد في هذا الصدد ، ما عدا حالة واحـــدة ، اجماعا على عدم توفر كل

التجهيزات اللازمة لعـــلاج ظاهرة الانحراف ، وعلى ضرورة زيـــادة هذه التجهيزات من عدة نواحٍ ·

ـ ضرورة تنويع المؤسسات المتخصصة كي تلبي حـــاجات تأهيل مختلف فئات سوء التكيف والانحراف ابتداء بمؤسسات علاج الاطفال الصعبين وغيـر المتكيفين مدرسيا وانتهاء بالمؤسسات التاديبية ومرورا بمؤسسات الوقاية والتربية في المحيط الطبيعي والرعاية اللاحقة وبيوت الشباب وبيوت الاستقبال ونوادي الاحياء ·

ـ ضرورة عدم الفصل بين تربية الجانح وتنمية واصلاح بيئته الطبيعيـــة (الاسرة والحي) والاسراع في اعادة الجانـح الى الحياة الاجتماعية العادية ما امكن ·

ـ ضرورة توفر العناصر البشرية المتخصصة كي تقوم بعملية التأهيـــل والتربية انطلاقا مـــن الاسس العلمية والتقنية وليس فقـــط من خلال التطوع والتجريب · ولا بد من تنسيق ارادة الاصلاح مع تقنياته كي يمكن الحصول على نتائج معقولة ·

وحال التجهيزات كحال التشريعات ، على نوعيتهـــا ودرجة رقيها تتوقف مصائر الامور ، وينحسر خطر الانحراف او يتفاقم ·

الفصل السادس

حالات أسرية اجتماعية

نقدمفي هذا الفصل بعض الحالات الاجتمـاعية ضمن جهدنا لرسم صورة حية عن الواقع الاجتماعي لظاهرة انحـراف الاحداث · وليس الغرض الاحاطة والشمول ، الذي لا يتيسر لنا لما سبق ان قدمنا من اسباب ، انما ما نقصد اليـه هو تقديم بعض نمـــاذج الوضعيات الاجتماعيـــة الاسرية التي يتعامل معها الاختصاصي في هذا الميدان ، والتي تمثل الجو العـــام الذي ينشأ فيه الحدث الجانح · ولذلك فسيكون عدد الحالات محدودا ، وستكون المعطيات غير قابلة للمعالجة الاحصائية ولكنها تقبل التحليل الكيفي ·

لقد وضعنا هذا الهدف امام عدة صعوبات · اولهــا اي نوع من الحالات نختار وكيف يتم هذا الاختيار · وثانيهما اخطـــار التحيز الواعي واللاواعي لاختيار حالات تتمشى مع الفرضيات التفسيرية التي برزت بعض معالمها فـــي الفصلين السابقين · وثالثها خطر تخفيف حدة الظاهرة الى درجة تجافي الواقع وتظل دونه او البحث عن حالات صارخة (الحالات المثيرة للاهتمام) تبالغ في تضخيم مشكلات ذلك الواقع ·

ولكي نتجنب هذه الصعوبات ، كان لا بد من تبني بعض المحكات للاختيار· وطالما ان الهدف هو عرض صور عن الواقع الاجتماعي الاسري الذي ينشأ فيه الاحداث فان الحالات التي سيقع عليها الاختيـــار يجب ان تتوفر فيها الشروط التالية :

١ ـ ان تكون من النوع الذي يشيع في حالات الانحراف الذي يتدرج نحو الاحتراف • وليس ذلك الذي يظل عارضا او عابرا • اي اننـــا سنهتم برسم الاجواء التي تنتج الانحراف الفعلي •

٢ ـ ضمن الشرط السابق يجب ان تعكس الحالات المختارة التنوع الطبيعي في الاوضاع الاجتماعية والاسرية الاكثر شيوعا • ولذلك فانهـا تتدرج ما بين الاسر المتماسكة والمكونة بشكل جيد والمتكيفة اجتماعيا وبين تلـــك التي انهارت كليا وأدت الى تسيب الابنــــاء وتشردهم ثم انحرافهم ، مـــــارة بكل حالات الاضطراب الاسري النفسي والاجتماعي •

٣ ـ ان تتوفر عنها معطيات اجتماعيـــــة وأسرية كافية تساعد على رسم الصورة المنشودة •

انطلاقا من تلك الشروط استطعنا ان نختار مجموعة من الحالات بمساعدة العاملين في الميدان وجمعنا عنها ما يتسر لنا من المعطيات • ثم قمنا بتصنيفها تبعا لاكثر المشكلات شيوعا في ميدان الانحراف الفعلي • وتوصلنا من ذلك الى اختيار ثان للحالات التي سنعرضها موزعة على الاوجه التالية :

- أسر متماسكة ومتكيفة مع خلل تربوي •
- اسر معوزة ماديا ومتماسكة مع خلل تربوي•
- أسر تعاني من اهمال الاب وقسوته •
- أسر تعاني من انهيار مكانة الاب وتسلط ام غير صالحة تربويا •
- أسر مفككة بالطلاق وتكرار مرات الزواج والوفـــاة وضياع الابناء بين الوالدين والاقارب •

على ان هذه الفئات لا يمكن ان تغطي البعــــد الاسري الاجتماعي تماما ، لانه يتميز بتنوع كبير وتفاعل مع الابعاد النفسية والمرضية مما يجعل كل حالة تتسم بالتفرد رغم اندراجها تحت هذه الفئة او تلك • كما ان طريقة الاختيار التي اخذنا بها لا تخلو بالطبع من بعض العيوب ، خصوصا من حيث صعوبة البرهنة على موضوعيتها وبالتالي خطر الانزلاق نحو شكل أو آخر من أشكال التحيز • ولكن اذا لم تتوفر الدقة الموضوعية على المستوى الكمي فان كل الحالات التي ستعرض تحتفظ بقيمتها الكيفية والتدليلية على ظاهرة الانحراف كما تلاحظ في العمل الميداني •

١ ـ أسر متماسكة ومتكيفة مع خلل تربوي (١)

الحالة الاولى : طفل مدلل وتناقض تربوي :

القاصر سمير من مواليد ١٩٥٨ · هو الولد السادس في أسرة من سبعة أولاد · تضم خمس بنات وصبيين · وهو الولد قبل الاخير ولد بعد ثلاث بنات وأتت بعده بنت رابعة · البنت الكبرى مدرسة في الابتدائي والابن الاكبـــر يعمل بانتظـــام أما بقية الابناء ففي المدرسة ·

الاب في الخمسين من عمره هادىء الطباع ، متفهم الامور ، مهذب لائق المظهر · عمل مدة طويلة في مطعم يستأجره ثم فقد عمله نتيجة لتسلط المالك وظل بدون شغل فترة من الزمن ثم عمل سائقا على سيارة عمومية ·

الام من نفس سن الاب تقريبا ربة بيت مدبرة ، بسيطة المظهر ، صريحة ومتعاونة ، تعمل في الخياطة للمساعدة في اعالة الاسرة · وتتفانى من اجل تربية اولادها وتعليمهم ·

الوضع الاقتصادي متوسط فما دون نتيجة لانقطـــاع الوالد عن العمل · الا ان الام والاخت الكبرى والاخ يسدون العجز ويتوصلون الى تأمين حاجات الاسرة · أما السكن فهو متوسط ، نظيف مرتب فيه التجهيزات الاساسية (براد ، غسالة ، تلفزيون الخ ··)

تزوج الوالدان منذ ثلاثين عاما وسكنا في بيروت متنقلين بين عدة احياء متوسطة · الجميع يسعون في طلب رزقهم · وسمعة العائلة حسنة جدا ·

ولد القاصر في الشهر السابع وكان ركيك الصحة في طفولته مما أدى الى احاطتـه بعناية زائدة عن اللزوم خصوصا انه ولد بعد عدة بنـــات · ذهب الى المدرسة منذ سن الرابعة الا انه لم يستقر ولم يتكيف للدراســـة رغم انه كان يحظى بظروف مدرسية ملائمة للنجاح والاندماج وهكذا غير عدة مدارس ثم انتهى به الامر الى العمل · ولكن الاهل قلقون عليه جدا لانه انجرف في معاشرة بعض الاحداث الجانحين وبدأ يرافقهم ويشترك معهم في سرقاتهم · ولم يفده نصح ولم يردعه عقاب ولم تجد معه رقابة ، كان الاهل يحجزونه في البيت أحيانا ولكن بدون جدوى ·

---

(١) كل الحالات التي ستعرض في هذا الفصل وفي مختلف المواضع في الفصول التالية مضى على مغادرة الحدث فيها للمؤسسة سنتين على الاقل · كما انه روعيت في طريقـة العرض كل شروط الحفاظ على السر المهني من حيث التعريف بالحدث وأسرته وذلك من خلال التستر على كل ما يمكن أن يدل على هويتهما ·

كل الاسرة تحمل هم هذا القاصر وتود له التكييف وتشعر بالعجز عن فرض سيطرتها عليه · الوالدان يبديان الكثير من الاستعداد للتعاون ويودان ان يتمكنا من القيام بواجبهما التربوي ·

أما القاصر فلا زال طفليا ، غير مبال ولا مكترث لشيء سوى اللعب واللهو واللذة الآنية سواء كانت بوسائل مشروعة او غير مشروعة · كما لا يشعر كثيرا بسوء تصرفاته ولم يتعلم بعد معنى الجهد والواجب والحدود السلوكية ·

ذكي ، لديه الامكانيات الضرورية للنجاح المدرسي والمهني الا انه يفتقر الى الدافع لذلك · انه ينتظر ممن حوله ان يقدموا له كل ما يرغب فيه بدون ان يقوم هو بأي جهد · !
الا انه رغم ذلك لطيف المعشر ، قابل للانضباط ، منفتح ويقيم علاقات ايجابية مع الآخرين ·

المشكلة هنا تكمن في الخلل التربوي الذي وقعت فيه الاسرة · فلقد نشأ هذا الحدث مدللا من قبل اخواته · وكان يعامل كطفل صغير غير مسؤول ولا حساب عليه · كان دائما يلعب دور الطفل الصغير الرقيق حتى يفلت من العقاب· واذا لم يستطع الحصول على ما يتمناه من احد افراد الاسرة ، كان يتمكن دائما من الوصول الى غايته بمساعدة اخر · ولذلك كانت الموانع والقيود السلوكية غير فعالة · فالحدود التي يضعها احدهم يلغيها الاخر مدفوعا بعاطفته نحو القاصر · هذا التناقض في المعاملة جعله يظل اسير رغباته وشهواته وعندما كبر بدأت هذه تكبر معه واصبح من الصعب اشباعها بالطرق المشروعة · وحيث انه لم يتعلم معنى الحدود والضبط الذاتي فلقد انساق في معاشرته لبعض الجانحين طلبا لاشباع لذاته · وهنا بدأت العائلة تقلق وتتشدد · انما أتى تغيير موقفها متأخرا وفاقدا لفعاليته · اذ بمقدار ما تشددت انساق الحدث وراء الاساليب غير المشروعة لتحقيق رغباته وابتعد عن جوه الاسري المتكيف ·

الا ان هذا الحدث لا زال يتمتع بالكثير من الصفات الشخصية الايجابية التي تجعل تاهيله ممكنا ، خصوصا اتجاهه الايجابي نحو الاخرين وانفتاحه وحساسيته العاطفية · لقد نتجت تلك الصفات عن تكيف الاسرة وتماسكها وتمتعها بالقيم الاخلاقية الاساسية ·

تشكل هذه الاسرة نموذجا لحالات انحراف احد الاطفال بشكل فردي مع تكيف كل الابناء الاخرين ومع توفر جميع مقومات التكيف من حيث درجة تماسك الاسرة والتفاهم والانسجام داخلها وتمتعها بسمعة اخلاقية حميدة · الخلل هنا يكمن في ان هذه الشروط لم تنطبق على الذي انحرف اما نتيجة لتدليل مفرط او

لنبذ نوعي · ويجد العاملون في الميدان حالات عديدة من هذا النوع نتيجة لميل الوالدين او الاخوة الى التراخي مع بعض الابناء والتستر عليه بدافع من المحبة التملكية ، محبة الطفل ليس لذاته وانما لما يمكن ان يمثله من معنى لدى احدهما او لديهما جميعا ·

الحالة الثانية : أم متساهلة وأب ضعيف الشخصية :

سليم ، حدث عمره ١٤ سنة ، الولد الثاني في اسرة من ثلاثة صبيان وبنت واحدة ·

الاخ الاكبر يعمل في المهن الصناعية بعد دراسة الى المستوى التكميلي اما الاصغر منه سنا ففي المدرسة ·

أقدم سليم على عدة سرقات بعضها موصوفة ، بمفرده أو بصحبة بعض الرفاق · عاش طوال حياته مع والديه · تردد الى عدة مدارس · كان يدرس فيها فترات تمتد الى عدة سنوات · ثم بدأ ينصرف عن الدراسة ويهرب ، ويؤدي ذلك الى تغيير المدرسة ولكنه لم يصل الى نتائج مرضية · وهكذا ترك الدراسة نهائيا وبدأت تظهر على سلوكه علائم سوء التكيف: تجوال ، تردد الى دور السينما ، قضاء الوقت على شاطىء البحر ، معاشرة احداث ذوي سوابق ، تأخر في العودة الى المنزل مساء ·

الوالد رجل في العقد الرابع من العمر يعمل في تجارة الخضار والفاكهة موسميا ولا يدر عليه عمله دخلا كبيرا ·

أما الوالدة فهي تكبر الوالد سنا ولا تمارس اي عمل سوى الاهتمام ببيتها وأبنائها · حالة الاسرة الاقتصادية فقيرة اجمالا ، اذ انها تعيش من دخل الوالد فقط · وهي تسكن منزلا مقبولا مرتبا وصحيا ، نظيفا جدا يضم اثاثا متواضعا ·

تكونت العائلة منذ ١٧ سنة وهي مستقرة تماما داخليا واجتماعيا · يقوم بين الوالدين تفاهم ومودة · وهما يسعيان سويا من اجل تربية وتعليم ابنائهما · ويرغبان في ذلك كثيرا خصوصا لانهما أميان ولا يريدان لابنائهما نفس المصير ·

ولكن رغم هذا الجهد ، فان الوالدة تميل الى التساهل مع ابنائها وتتغاضى عن تصرفاتهم أو تقلل من اهميتها · أما الوالد فهو ضعيف الشخصية يكثر من النصائح والتوجيهات ويلجأ الى الضرب أحيانا ، ولكنه يفتقد السلطة الكافية التي تفرض على الاولاد الاستجابة له · ولذلك تظل نصائحه والقصاصات التي يطبقها بدون تأثير خصوصا القاصر ·

وهكذا رغم السمعة الاجتماعية الجيدة للاسرة ، ورغم تماسكها وانسجامها ، ورغم

الرغبة في تنشئة الابناء بشكل حسن ، يعترف الوالد بعجزه وفشله في تربية ابنه · ويطلب الوالدان العون من المؤسسات التأهيلية ويتمنيان ان يقيم ابنهما مدة في احداها عسى ان ينصلح امره ·

أما سليم فهو عنيد ، لا يطيع اهله ، متطلب بشكل لا يتمكن هؤلاء من تلبية كل رغباته لم يتكيف مدرسيا ولا مهنيا · انما كان يحب مرافقة والده في تجوله في حدائق الفاكهة اثناء المواسم · ويحتفظ عن ذلك بأحلى الذكريات ·

علاقاته مع الآخرين تتسم بالسلبية · فهو يتجنب الحوار مع الراشدين الذين يمكن ان يكون لهم تأثير عليه في اتجاه التكييف · كما انه يتكتم كثيرا ويقاوم كل محاولات معرفة تجربته الذاتية ومشاعره الحقيقية · وهو يرفض ان يجد نفسه في موقع المخطــيء ويشعر بالارتياح تماما في حياته الجانحة · ولذلك فانه يظل متحفظا امام كل من يمكن ان يشعره بمسؤولية عن تصرفاته الجانحة · وهو اجمالا مركز حول عالمه الذاتي الذي يرتاح اليه · ولذلك لا يظهر اي التزام تجاه الاخرين ولا حتى تجاه اسرته · ولا يبدو عليه ان هذا الامر يهم كثيرا ·

نحن هنا امام نموذج آخر من نماذج الاسر المتكيفة اجتماعيا والمتماسكة عائليا والتي يظهر فيها حدث جانح رغم أن جميع الابناء متكيفون · ان تراخي الام وضعف شخصية الاب يفسران لنا انحراف هذا الحدث · فنحن هنا أمــام والدين يشعران رغم ايجابية ارادتهما بأن مهمة تربية الابناء تتجاوزهما بشكل تصبح معه رغبات الابناء ونزواتهم أقوى من سلطة الوالدين · وهكذا يحــرم الطفل فرصة اجتياف معنى القانون والقاعدة السلوكية · ولا تتكون لديه بالتالي الضوابط الخلقية الداخلية القادرة على وضع الحدود لسلوكه وتوجيهه بشكل ملائــم ·

الا أن السؤال الذي يطرح في هذه الحالة هو لماذا يقتصر سوء التكيف على أحد الابناء فقط بينما يستقيم أمر الآخرين ؟ الجواب ليس بعسير وان لم يكن دائما وحيد الجانب · لا بد في هذه الحالة من تفاعل تراخــي الاهل وانعــدام سلطتهم مع عوامل وقوى نوعية خاصة بالحدث الذي انحرف · هذه القوى اما أن تكون دوافع داخلية نفسية أو عائلية علائقية · وفي هذه الحالة الاخيرة يجب القول ان التساوي الظاهري في معاملة الاولاد والموقف منهم لا يعكس الواقــع الفعلي دائما · فالابناء عادة يتوزعون الادوار في الاسرة وتعطى لكل منهـــم مكانة ومهمة انطلاقا من دلالته ومعناه في لا وعي الوالدين ، أو انطلاقا مـــن مكانته بين الاخوة ومشكلة العلاقات الاخويــة بما فيها من صـــراع وتنافس

وتعارض · فقد يحدث رغم محبة الاهل الظاهرية للطفل ان يشعر هذا الاخـير بالحقد عليهم · في هذه الحالة نكون ازاء تفضيل لا واع أو نبذ لا واع يمارسه الاهل مع هذا الولد أو ذاك · وقد يتلخص الامر في عقدة حسد أخوي شديدة تجعل الاخوين المتنافسين يتصرفان بشكل متناقض تماما · فاذا تكيف الاول مال الثاني الى الانحراف ، واذا نجح الاول في الدراسة رغب الآخر عن المدرسـة وانصرف الى اللهو أو العدوان أو أي وضعيّة اخرى تميزه عن أخيه · كما يحدث أحيانا عندما تكون شخصية الاب ضعيفة في المنزل أن تعاني الام من هذا الضعف في لا وعيها لانه يفقدها الشعور بالامن والحماية · ويمكن في هذه الحالة ان تدفع الام أحد الابناء بطريقة لا واعية الى لعب دور القوي العنيـد الشرس أو العدواني (صفات الذكورة) كي يعوض ضعف الاب · كما ان نفس الدافع قد يصدر عن الاب حين يثير ميول التمرد عند أحد الابناء كتعويض لضعفه هو · على كل حال لا بد هنا من تفاعل هذه القوى الخفية اللاواعيـــة والزوجية مع العوامل الظاهرية في الموقف من أحد الابناء مما يؤدي به الى الافلات من القانون والانحراف · وذلك يؤكد لنا مرة ثانية صعوبة الفصل بين الذاتي والاجتماعي عند محاولة فهم دوافع السلوك · فقط ذلـــك التفاعل وحده يمكننا من فهم حالة سليم (تكيف الاهل والابناء ما عدا واحدا منهم) ·

ب ـ أسر مكونة جيدا في حالة عوز مادي مع خلل تربوي

حالة وحيدة :

هاني من مواليد ١٩٥٩ من ضواحي بيروت ، هو الــولد الثاني في اسرة تتكون من ٧ اولاد اكبرهم عمره ١٦ سنة واصغرهم ثلاث سنوات ، بينهم بنت واحدة صغيرة السن ·

الاخ الاكبر يعمل في الميكانيك أما اخوته الاصغر سنا فجميعهم في المدرسة ، بعضهم داخلي في مؤسسات دينية وبعضهم خارجي في مدارس احد الاحياء الهامشية · عرف هاني منذ حداثته بعدم التكيف والتشرد والسرقات المتكررة ·

الاب في اواخر العقد الخامس من العمر ، يتيم عاش في مؤسسات الرعاية حيث تعلم مبادىء القراءة والكتابة وعمل منذ تخرجه في مصلحة التنظيفات في الحي الذي يقيم فيه براتب متواضع ·

تزوج في سن الاربعين وحاول ان يعيش حياة هادئة مع زوجته · وفي سن الخمسين تعرض لعملية جراحية اقعدته عن العمل فترة من الزمن ثم بدأ يمارس أعمالا اخرى متواضعة

حتى توفي • بعد العملية الجراحية انهارت معنوياته واستسلم لمصيره وبدأ يشعر ان حياته آلت الى الافول •

أما الام فهي في العقد الرابع من العمر وهي بدورها يتيمة الاهل ولم تعـرف اسرتها • عملت كخادمة ثم انصرفت ألى تدبير شؤون منزلها • رغم اميتها تملك حسا يمكنـــها من التصرف المعقول في الوضعيات الحياتية خصوصا في الشؤون المنزلية•تبدو احيانا ساذجة واخرى محنكة ولكنها لا تستقر على حال يسهل تغيير رأيها في الناس والاشياء •

عاشت الاسرة فترة طويلة من الزمن في منزل قديم آيل للسقوط يتكون من غرفة كبيرة وغرفتين صغيرتين • واستمرت عدة سنوات لا تدفع ايجارا لان المنزل غير قابل للسكن في حي مكتظ بالسكان •

وهكذا كانت تلك الاسرة ضائعة ومقبولة في خضم هذا التكدس البشري • ثم استفادت من خدمات المساكن الشعبية وانتقلت الى منزل مقبول صحيا ومجهز بالضرورات السكنية الا أن قلة الامكانيات المادية لم تسمح بتأثيث البيت الجديد •

أما من الناحية العاطفية والعلائقية فيسود جو من الحـــنان والحب لا يتجاوز غالبا المستوى المعاشي • يحاط الابناء الصغار بكثير من الحنان خصوصـــا من ناحية المداعبة والطعـــام • ولكن الاهل لا يتمكنون من تكييف حبهم لحاجات ابنائهم عندما يكبر هؤلاء • ويبدون عجزا عن تجاوز حالة الذوبان الكلي في الاسرة وتحمل مسؤولية استقلال الابناء •

وهكذا فانهم يجدون ان الطفل لم يعد متكيفا عندما يظهر بعض الميول الاستقلالية ويتأخر قليلا خارج البيت مساء ، أو يرفض ان ينام مباشرة عند عودته اليه • ولذلك يميلون الى اعتباره حالة صعبة يصرفون النظر عن الاهتمام بها ـ وتتوجه الام التي يعتبرها زوجها عصبية المزاج واندفاعية باهتمامها الى الابناء الصغار ، مما يؤدي آلى مشكلات مع الاولاد الاكبر سنا •

أما هاني فلقد لفت نظر والديه منذ صغره بمهارته وحساسيتـــه • كان يستيقظ ليلا ليشرب الحليب المخصص لاخيه الاصغر وينال عقابا على ذلك • كما انه سقط عدة مرات عن سطح المنزل • وكان يعتبر عديم الاستقرار في المدرسة •

نتائجه الدراسية غير منسجمة • ثم بدأ يسرق ويهرب من البيت • وبدأ الاهل يفقدون سيطرتهم عليه ، اذا اصبح يميل الى المغامرة ويشتغل بشكل عابر ويسرق من مكان عمله• خلال ذلك كان يعود متأخرا الى المنزل او ينام في الشارع عندمـــا يطرده الاهل • ولم تجد

محاولة وضعه في مؤسسة خاصة بالاولاد الصعبين • كما أنه لم يستمر طويلا في عمله عند رب عمل تعهد ان يرعاه • وعند انتقال الاهل الى حيهم الجديد ، ترك العمل ومال الى الالعاب الاستعراضية التي تجعل منه بطلا في نظر الاولاد • ولكنه بدأ ايضا سرقاته وتنبه السكان لذلك • ويميل هؤلاء الى الاعتقاد ان حالة الحدث قد تدهورت لان الوالدين قد تخليا عن مهمتهم التربوية تجاهه •

ولقد حاول احد مراكز خدمات الاسرة الاهتمام به عائليا ومهنيا ، ولكنه لم يفلح فالام قد نبذته تماما • ليس له مكان في الاسرة • او هو قذر جدا بشكل لا يمكنه ان ينام مع اخوته • ولقد اصبح الفرق واضحا بينه وبين اخوته اذ كان ينام على الارض ، ولم يكن يكتسي جيدا مثلهم • ولقد احس الحدث بنبذ الوالدين له واصبح عدوانيا تجاههم يصرح للجميع بأنه يكرههم ولا يود العودة آليهم • وبدأ بالتالي ينام على السطح أو في الشارع او عند الجيران أو على عتبة المنزل • وحول كل حقده الى سلوك عدواني انتقامي ضد اخوته او الامتعة التي كانت أمه تمنعه من استعمالها • واخذ يقوم بتصرفات تلفت النظر اليه • وكان من الواضح انه يعاني من حرمان عاطفيشديد ، غير قادر على احتماله من ناحية او تجاوزه من ناحية ثانية •

ولقد اتضح من الفحوصات النفسانية التي اجريت عليه انه يعاني خصوصا من حرمان عاطفي شديد نتيجة لنبذ الام له • وأنه في دخيلة نفسه يتحرق شوقا الى راشد يعبر له عن اهتمامه وحبه • وعندما يشعر انه وحيدا كان ينقم على ذويه خصوصا امه وعلى الجميع وينطلق في سلوكه العدواني آلانتقامي او تشرده الرافض للنبذ او سرقاته التعويضية •

وفي جميع الحالات كان يستعرض براعته أمام الآخرين وكأنه يريد ان يثبت لهم ولنفسه قبل ذلك انه ليس بحاجة الى حماية • أما داخليا فالامر مختلف تماما • فهو يعاني من المخاوف الشديدة وانعدام الشعور بالامن • ولذلك كله ظل هذا الحدث يتذبذب ما بين الاستقرار عندما كان يجد من يهتم به ويظهر له العطف وبين الثورة عندما يشعر بالاهمال • ولكن لحسن الحظ بقي آنقاذه ممكنا نتيجة لتجاوبه مع من يظهرون له الاهتمام والحب •

ان هذه الحالة ليست بحاجة الى تعليق • أعباء حياتية كبيرة يرزح تحتها الوالدان وظروف مادية عسيرة تجعل الاهتمام بالابناء بشكل فردي أمرا صعبا • اننا ازاء اسرة تستطيع مجابهة المشكلات طالما كانت هذه صغيرة لا تتجاوز امكاناتها المتواضعة • أسرة تعيش بشكل جماعي ذوباني ، تغرق فيها الام في مسؤوليات الانجاب ورعاية الابناء الصغار • ليس لديها لا الوقت ولا الاستعداد للاهتمام بمن كبر منهم • وعندما يجد هؤلاء أنفسهم مهملين فانهم يتخبطون في

المشكلات ٠ وهذا بدوره يؤدي الى نبذهم الصريح لان الوالدين عاجزان عن علاج صعوباتهم ٠ على أنه ليس من المستبعد ان تكون الام في هذه الحالة قد نبذت في لا وعيها وضعها الاجتماعي العسير وأسقطت ذلك على ابنها هاني بعد أن أصبح المعبَر عنه ٠ اذ ان الامر يتجاوز مجرد الاهمال الى النبذ والكراهية الصريحة ٠ نرى من ذلك كيف تتفاعل الظروف المادية والاوضاع الاجتماعية مع الدوافع النفسية ، وكيف يؤدي هذا التفاعل الى الموقف السلبي من الطفل ، ثم كيف ينعكس هذا الموقف على نفسيته مؤديا الى تأزمها واضطرابها مما يولد السلوك غير المتكيف من تشرد وانحراف ٠

جـ ـ اضطراب اسري ـ أب قاس ومهمل لاسرته

الحالة الاولى : أب قاس ومهمل وأم عاجزة عن مجابهة تحديات الحياة :

عصام ، حدث عمره ١٥ سنة ، الولد الثالث في أسرة من تسعة اولاد بينهم خمسة صبيان واربع بنات ٠ الولد الاول بنت متزوجة حالتها المادية عسيرة ٠ الابن الثاني عمره ١٨ سنة ، متمرد لا يرجع الى البيت الا كي ينام ٠ لا يسهم في اعالة الاسرة ٠ ينتقد الوالدين ٠ ثم هناك عصام وبعده صبي عمره ١٢ سنة يعمل في الميكانيك ويدفع كل دخله للام يأتي بعد ذلك الاخوة الصغار بينهم ولد ميال الى التشرد ٠

الاب في منتصف العقد الرابع من العمر ٠ اتي الى بيروت من الريف منذ فترة بعيدة ٠ عصبي المزاج وقاس ، يضرب زوجته وأولاده ٠ يعمل بشكل متقطع في جمع الحديد الخردة٠ تنقل في عدة مهن (عامل في المرفأ ، صياد ، بائع حليب ، صياد مرة ثانية ، ثم جمع وبيع الحديد) ٠ مدمن على لعب القمار ٠

يجيد الحديث أمام الغرباء ، ذرب اللسان ٠ غير راض عن زوجته ٠ يضع اللوم عليها، ويصفها بالسذاجة والغباء ويقول انها تجهل كل شيء فيما يتعلق بأصول تربية الاولاد ، وأنه من الطبيعي ان ينشأ هؤلاء منحرفين طالما ان حال أمهم على هذا الشكل ٠

أما الام فهي في العقد الرابع، مهملة، قذرة، تحاول جهدها مواجهة وضعية تتجاوزها٠ ركيكة الصحة ، بدائية وأمية ٠ تتخبط في البؤس وتتصرف كيفما اتفق عطوفة مع ابنائها ٠ عملت كخادمة ، ثم في بيع سلع تافهة واحيانا تتسول في الحي :

تزوج الوالدان منذ ٢٣ سنة وتنقلا كثيرا بين الاحياء الهامشية المحيطة ببيروت ٠

الزوجان على خلاف دائم · وكثيرا ما كانت الام تأخذ ابناءها وتذهب الى المقهى حيث يلعب زوجها القمار · وعندما كان هذا الاخير يراهم ، كان يترك اللعب ويعود الى البيت فيضرب الام ويعنف الابناء · وكان نفس المشهد يتكرر دائما مما ترك ذكريات سيئة لدى عصام عن حياته العائلية واحدث له صدمات نفسية ساهمت في اضطراب شخصيته ·

منذ فترة قريبة حاول الاب الزواج من فتاة شابة · عندما علمت الام ذلك اخذت ابناءها الكبار وتركت المنزل لتقيم معهم متدبرة امرها بمساعدتهم · أما الصغار فتركتهم للاب · وعندما وجد هذا الاخير نفسه في تلك الوضعية صرف النظر عـــن فكرة الزواج وحاول استرجاع زوجته واولاده · ثم تصالح معها بعد مدة · وعاد الزوجان الى العيش معا ، الا انهما ظلا في حرب مستمرة ، مما ادى الى اضطراب الابناء ·

أما عصام ، فلقد عاش طفولة مضطربة نتيجة للنزاعات بين الوالدين واهمال الابناء تربويا وعاطفيا · ذهب الى المدرسة عدة سنوات ولكنه لم ينتظم في الدراسة ، كان يهرب غالبا مع اخيه الاكبر ومع بعض الرفاق ، يتشرد واحيانـــا يقبع في المنزل لحراسة اخوته الصغار اثناء عمل الام ·

حاول العمل ، وغير رب العمل عدة مرات بدون ان يتمكن من الاستقـرار · ثم توجه الى بيع السجائر المهربة لصالح كبار المهربين النافذين في الحي مما يكسبه بعض الدراهم ·

رغم كل هذا الجو العائلي ، ظل عصام حساسا ، رقيق العواطف ، صادقا ومتجاوبا مع الراشد الذي يفهمه ويحاول مساعدته ، يتحفظ في الحديث عن والديه · قابل للتقدم والتكيف اذا اعطي الفرصة لذلك ووجد الظروف الملائمة · بحاجة ماسة الى الشعـور بأن هناك من يهتم به ، يشجعه ويحترمه ·

لو لم تتح لعصام فرصة الاهتمام به من قبل احدى مؤسسات رعاية الطفولة المتشردة والجانحة لكان نصيبه بلا شك الانخراط في الانحراف · نحن هنا أمام حالة اجتماعية اساسا : اضطراب أسري ، بؤس مادي ، جهل تربوي ، صراع بين الوالدين ، تسيب الاطفال نتيجة لاهمال الاب لواجباته تجاه ذويه ·

هذه الحالة كثيرة الشيوع في أوساط الجانحين والمتشردين · علاجهـا اجتماعي أساسا · يكفي أن يحاط الابناء وتؤمن لهم شروط الرعاية الضرورية من تفهم وتشجيع وتعليم وتدريب مهني حتى يصلح أمرهم ويسيرون على درب التكيف · أما اذا لم تتوفر هذه الظروف · فان مصيرهـــم شبه المحتـوم هو الاحتراف ·

الحالة الثانية : أب عنيف ومهمل لاسرته وأم رازحة تحت عبء رعاية الابناء :

حبيب ، ١٤ سنة هو الولد الخامس في اسرة من سبعة صبيان ·

ـ الاول ، ٢٢ سنة ، وراءه تاريخ حافل بالانحراف وســـوء التكيف · وهو مضطرب

نفسيا وجنسيا • اقام سنوات طويلة في مؤسسات رعاية الطفولة المشردة • ولكن لم يصلح شيئا من امره • اندفاعي تنتابه نوبات غضب شديد • يتذبذب ما بين التجاوب واللطف وبين العنف والتحدي والتهجم بشكل عدواني صريح • لم يستطع الى الآن التكيف والاستقرار في عمل منتظم • علاقاته سيئة جدا بأسرته • يعيش عالة عليها يحتفظ بذكريات سيئة عن طفولته خصوصا عن علاقته بوالده التي كانت تتميز بالعنف •

ـ اما الثاني فلقد استطاع بعد اقامة في مؤسسة رعائية ان يتكيف ويتم تعليمه وتدريبه المهني حتى وصل الى مرتبة مهنية معقولة •

ـ أما الثالث فهو ايضا خريج مؤسسة لرعاية الطفولة المتشردة وهو يعمل بانتظام ويعي مسؤولياته العائلية • وهو ، واقعيا ، معيل اسرته •

ـ أما الرابع فلقد عاش ايضا في نفس المؤسسة وهو يتابع دراسته بانتظام •

ـ الخامس حبيب موضـوع بحثنا ، وهو غير متكيف ومضطرب نفسيا الى حد بعيد •
أما الاخوان الاصغر سنا فهما في عهدة احدى دور الايتام •

الاب من منطقة زراعية متخلفة تزوج في سن الستين بأم القاصر وتوفـي عن ثمانين عاما •

تزوج لاول مرة من امرأة أقام معها اثنتي عشرة سنة • ولكنهما انفصلا لانها لم تنجب منه • ثم تزوج من أم القاصر منذ ما يزيد عن العشرين سنة • كان يعمل بائع خضار متجول ولم يكن يهتم مطلقا بأسرته ، كثيرا ما كان يعود الى قريته تاركا زوجته وأولاده بدون سند• واخيرا ترك اسرته نهائيا ليقيم في قريته بعد ان استولى على النقود التي ادخرتها الزوجة وأنفقها على نفسه •

يعرف عنه انه سيء الطباع ، شديد الغضب ، عنيف يضرب الاولاد والزوجة ، يهمل ابناءه ولا يكترث الا لنفسه •

أما الام فهي في نهاية العقد الثالث من عمرها، تزوجت ولما تتجاوز الخامسة عشرة• نشيطة ، تحاول تدبير أمر اسرتها ، تعمل خادمة احيانا في البيوت واخرى في المدارس • كانت تترك اطفالها وحيدين في المنزل اثناء عملها • واستمرت على هذا الحال حتى تعرفت الى جمعية خيرية ساعدتها على وضع ابنائها في المياتم ومؤسسات الرعاية •

عاشت الاسرة في الاحياء الهامشية في بيـوت الصفيح • وغيرت مكان سكنها عدة مرات : ساد الحياة الزوجية النزاع الدائم نتيجة لفـارق السن الهائل بين الاب ٦٠ سنة والام ١٥ سنة وخصوصا لسوء طباع الاب • ولقد ترك الجو العائلي اثرا سيئا على الابن وعلى حبيب على وجه الخصوص• فالابن البكر كان الشاهد الدائم على عنف الاب وشجاره

مع الام ولقد ولد ذلك لديه اضطرابات نفسية وسلوكية شديدة· اما بقية الابناء فلقد اسعفوا بشكل ملائم قبل فوات الاوان ما عدا حبيب الذي يقول عن نفسه انه عار الاسرة ·

عاش حبيب طفولة عادية لسن ٥ سنوات ، حيث دخل المدرسة لمدة سنة واحدة تركها بسبب تغيير السكن · ثم تابع سنة اخرى في مدرسة ثانية وكان يهرب باستمرار · ثم في مدرسة ثالثة ولكنه ظل يسير على نفس النهج · ثم في مدرسة رابعة تركها بعد اصابته بالتهاب السحايا · عولج مدة ثمانية اشهر في المستشفى ثم في البيت ·

ولم يعد الى المدرسة بعد شفائه نتيجة لاهمال الام وانشغالها بتأمين القوت · وهكذا ترك لشأنه مما أدى به الامر الى مخالطة رفاق الحي واعتاد الغياب عن المنزل · وبدا يعاشر اوساط المنحرفين والمتشردين ويلجأ الى بعض رؤساء العصابات ·

كان يهرب في البداية خوفا من قصاص الام له على بعض تصرفاته السيئة اثناء غيابها عن المنزل · ثم بدأت فترات هروبه تطول وبدأ يسرق من الجيران · وتخصص في سرقة الحيوانات وبيعها مما اضطر امه الى تغيير سكنها غير مرة ·

أرسل الى مؤسسة لرعاية الاطفال المتشردين ولكنه هرب منها · اعيد اليها بعد ارتكابه عدة سرقات فهرب من جديد · وخلال كل ذلك كان يتذبذب ما بين العزلة والعيش في الغابة حيث كان يستقطب حوله بعض الكلاب السائبة وبين التردد على الاوساط الجانحة حيث كان يستغل لواطيا نتيجة لضعف شخصيته من ناحية ولحاجته الى الحماية والمأوى والغذاء من ناحية ثانية · واستمر الامر على هذا المنوال حتى تجمع في سجله عدد كبير من السرقات بمفرده او مع رفاق له ·

لا زال حبيب طفليا مركزا حول ذاته · لا يهتم لمستقبل · لا يكترث لنجاح او فشل بعد ان ترسخت لديه قناعة بانعدام قيمته الذاتية وانعدام قدرته على الوصول الى مكانة مقبولة بين المتكيفين· انشغالات اللحظة الراهنة تلفه في دوامتها· حياته تدور حول تجنب المزعجات وعوامل التكدير والاستمتاع بما يمكن الحصول عليه من مأكل أو مشرب· يعيش دائما في حالة العوز والمذلة وله نفسية متسول فاقد لكل اعتبار ذاتي او قيمة شخصية · التزامه العاطفي هزيل تجاه ذويه · يسرد حياته بشكل محايد وكأنه متفرج على مأساة لا تخصه ·

يعاني من تخلف عاطفي وجنسي · ولذلك يقدم نفسه للواطيين بقصد انتفاعي ·

لقد تماهى تماما بعالم البؤس المادي الذي تعيش فيه الاسرة ويشعر انه واياها فريسة الاقدار · تحفل حياته النفسية اللاواعية بمشاعر الخوف من اخطار الانتقام والفناء ومشاعر الاثم على اخطاء وهمية ارتكبها ·

الا انه رغم ذلك كله منفتح على الآخرين ينقاد للسلطة ويسلم بوجودها ويتجاوب معها عندما يرى اهتماما به ·

على كل حال حياته الداخلية وشخصيته تكاد تكون صورة طبق الاصل عن حياته الاسرية بما فيها من بؤس ومعاناة وشعور بالمهانة الاجتماعية · الا أن اصابته الدماغية في الطفولة مسؤولة أيضا عن الوضع الذي انتهى اليه أمره ، خصوصا من حيث التخلف العاطفي الجنسي وعدم الاستقرار والميل الى التشرد· في الواقع نحن أمام نموذج ممتاز لتفاعل العوامل المرضية الذاتية مع العوامل المرضية الاسرية الاجتماعية بشكل يؤدي الى تدعيم متبادل للآثار السلبية لكل منها · ان الاصابة الدماغية رغم ما تخلقه من استعداد لا تؤدي بمفردها الى الانحراف والتشرد على هذه الدرجة من الشدة · ثم ان هذه الوضعية كفيلة بأن تؤدي بمفردها بدون أية عوامل اضافية الى حياة غير متكيفة كما تظهر لنا حالة الابن البكر ·

د ـ اضطراب اسري ـ أب ساقط (١) (عاجز) وأم سيئة ·

يعقوب ، ١٦ سنة ، الولد السادس في اسرة من عشرة اولاد · كل الذين يكبرونه بنات متزوجات ما عدا اخ يكبره مباشرة · كان يعمل في محلات بيع المأكولات ثم انحرف اخيرا واخذ يخالط اوساط الجانحين يسهل ويحمي بعض اعمال الدعارة · ودخل السجن بسبب نزاعات مع من يقومون بهذا العمل من الجانحين · كما ان احدى اخواته قد طلقت من زوجها وانحرفت بعد مدة ·

أما يعقوب فوارءه تاريخ طويل من السرقات بمفرده او مع اخرين وتشرد لفترات طويلة خارج البيت ·

أما الاخوة الاصغر سنا فيتابعون دراستهم ·

الاب في العقد السابع من العمر · عمل سنوات طويلة في حراسة المنشآت العامة ، ثم تقاعد · ولقد استولت الزوجة على تعويضه ، ونبذته ، مما اضطره أن يقوم ببعض أعمال الخدمة القريبة من التسول كي يكسب مصروفه الشخصي · وهو رجل ضعيف الشخصية انهار نتيجة للشيخوخة وتوفي أخيرا ·

أما الام فهي في أواسط العقد الرابع من عمرها · عملت طاهية وكانت مدبرة ، اهتمت بتربية أولادها في البداية · وكانت تقتصد كثيرا حتى تمكنت من شراء منزل سجلته باسمها· عديمة العاطفة تجاه الابناء · لا تهتم الا بمن يقدم لها مالا ·

---

(١) أب ساقط Père déchu

أصل الوالد من الريف ، تزوج للمرة الاولى في الثلاثينات من امراة سورية واقـــام معها عشر سنوات ثم انفصلا بعد أن أنجبت له ولدين · استقلا عن والدهما تماما بعد أن كبرا وانقطعت صلاتهما معه · ثم تزوج للمرة الثانية في الاربعينات من احدى قريباته · وأنجبا من هذا الزواج عشرة أولاد ، يعقوب هو سادسهما ·

ومع تقدم سن الاب بدأت الخلافات تظهر بينهما · فقد الاب مكانته كليا في الاسرة ، وتسلطت الام عليه وعلى أولاده · ولقد استقطبت جميع الاولاد في حلف ضد الاب ما عدا يعقوب الذي كان نصيبه النبذ لانه يشبه أباه ·

لقد تركت عند العاملين في الرعاية الذين قابلوها آنطباعا بأنها سيدة قديرة ، تتكلم بصوت مرتفع ، تصرخ بأولادها ، وتشتمهم في حضور هؤلاء العاملين ، تفتقد اللياقـة ولا تظهر احتراما للغير ·

أما الزوج فيقول عنها انها لا تحترمه بالمرة ، تضربه لدرجة انها توقعه أرضا · وهي الى ذلك جد بخيلة لا تعطيه درهما واحدا رغم عجزه · تتسلط على الجميع في البيت · لا تحب الا الولد الذي يعطيها المال · تكره يعقوب وترفض اطعامه الى حد الشبع · وتذهب الى حد تركه مريضا بدون علاج عله يموت فتتخلص منه (كما تقول) ·

وهكذا قام حلف بؤس بين الوالد وابنه الضعيـــف الشخصية المتخلف عقليا بعض الشيء · كل من الاب ويعقوب يساند الاخر ويتعاطف معه ويواسيه في همومه وآلامه · وكان آلاب يظهر الكثير من العطف على ابنه ويهتم به ويحاول ايجاد مكان له في مؤسسة رعائية كي يفلت من المآسي ·

نشأ يعقوب بين ذويه · وتردد عدة سنوات على عدة مدارس ولكنه بقي شبه أمي · بدأ يعمل ولكنه غير مستقر بالمرة مهينا · لا يثبت في عمل أكثر من اسبوع ، اذ يتخاصم مع رب العمـــل ·

يقضي أوقات فراغه في مشاهدة الافلام السينمائية · كما انه يتشرد من البيت بشكل بائس · ينام على الارصفة حين يتعب وحيثما أوصلته قدماه · يظل فترات طويلة خـارج المنزل · يحاول سرقة والدته · أقدم على العديد من السرقات · تعاطى اللواط ·

صحته ركيكة اجمالا · مرض بالجرب · امكانياته العقلية محدودة · اندفاعي تنتابه نوبات من اليأس والرغبة في الموت · يصبح عندها عدوانيا ويميل الى الهروب والتشرد · ثم يهدأ فترة بعد ذلك ويحاول العمل والتكيف ·

وضع فترة في مؤسسة رعائية نتيجة لسرقاته وبناء لرغبة الاب ٠ الا أن مزاجه كان دوريا ، ولذلك ظل عديم الاستقرار ٠ ولقد تأزمت مشكلاته النفسية خصوصا بعد وفاة الوالد، اذ احس أنه فقد السند ٠ طغى عليه اليأس ، وبدأت تراوده افكار الانتقام والانتحار ٠ وكثيرا ما كان يهرب من المؤسسة كي يذهب لزيارة ضريح والده ويبكيه ٠ اما الام والاخوة فلقد نبذوه كليا بعد موت الاب ولذلك كانت تنمو في نفسه النقمة عليهم والرغبة في الانتقام منهم٠ وأدى به هذا الوضع الى الانغماس كليا في الانحراف بشكل يكاد يكون انتحاريا ٠

هذه الحالة مثـال حسن على كيفية تركـز اضطراب الاسرة في بعض عناصرها فهناك حلف الاقوياء بين الام والاخوة ٠ وحلف البؤسـاء بين الاب الساقط وابنه المنبوذ ٠ ولقد صبت الام كل نقمتها على زوجها وعلى الابن ممثل هذا الزوج ٠ الا أنها بتصرفها هذا قضت على قانون الاب وسلطة الابوة الضرورية جدا للابناء ٠ ولذلك فان اثنين من ابنائها الذين تحالفـت معهم انجرفوا في الجريمة بشكل خطير ٠

كما توضح لنا هذه الحالة مرة اضافية كيف تؤدي الاضطرابات الاجتماعية الى تكوين أسر مضطربة ٠ وكيف تنتج هذه الاخيرة اطفـالا مضطربين يكون مصيرهم سوء التكيف بعد أن حملوا مرض الاسرة وجسدوه ثم نبذوا ٠

هـ ــ اسر مفككة بالطلاق والوفاة

الحالة الاولى : وفاة الام وقسوة الاب :

حسيب ، ١٦ سنة ، هو الولد الثاني من الزواج الاول للاب ٠ له أخت اكبر منه سـنا متزوجة حاليا ٠ وله أخ وأخت من الزواج الثاني للاب ٠

وراءه تاريخ طويل من عدم الاستقرار المدرسي والمهني والتشرد والسرقة وتشغيـل الاطفال باللواط ٠

الاب في العقد السادس من العمر ، عاطل عن العمل ، ذو تاريخ مثقل بالسوابق ٠ كان في شبابه تاجرا ناجحا ــ ولكنه فقد كل شيء بعد انغماسه في لعب القمار ٠ سجن فترة طويلة ٠ فقد احدى ساقيه في حادث سيارة ٠

يعرف عنه القسوة والتسلط والشدة مع ذويه خصوصا مع حسيب ٠ يعيش دائما على ذكريات الماضي السعيد وحالة البحبوحة التي كان يعيش فيها ٠ يشعر أنه فقد كل شيء وأن حياته تحولت الى مأساة لا خلاص له منها ٠ ولذلك ، فهو يتكيف بصعوبة لوضعيته الراهنة٠

الام عاشت مع الاب مدة أربع سنوات ثم توفيت حرقا ٠ ولا يعرف عنها الشيء الكثير٠

تزوج الاب مرة أولى من الام في أواخر الاربعينات ٠ وأقام الزوجان معا اربع سنوات ، انتهت بانتحار الام تاركة الحدث وأخته الاكبر سنا ، ولما يتجاوز عمر حسيب بضعة أشهر وأخته سنة ونيفا ٠

ثم تزوج الاب ثانية من امرأة تعمل خادما في مستشفى بعد خمس سنوات من وفاة زوجته الاولى ٠

دخل الاسرة ضئيل جدا ويأتي خصوصا من عمل الزوجة ٠ أما السكن فمتواضع ولكنه يتسم ببعض الترتيب والنظافة ٠

اثر وفاة الام وضع الولدان في مؤسسة للايتام مدة عشر سنوات ٠ ولم يستفيد حسيب شيئا يذكر من اقامته تلك مدرسيا رغم ذكائه وامكاناته ٠ كان والده يزوره بانتظام٠ وعندما تزوج أبدت الخالة الكثير من حسن المعاملة والتفهم ٠ كانت تأخذ الولدين الى المنزل أثناء العطل والاجازات وتهتم بهما ٠ عندما بلغ العاشرة أرجع وأخته الى المنزل ٠

في البيت لم يلاق الحدث أي تفهم من الاب ٠ على العكس كان هذا الاخير يميل الى القسوة معه ٠ ولذلك ساءت علاقة حسيب بذويه ٠ وبدأ يظهر الكراهية لوالده ٠ ويشعر بالحسد الشديد من الاخت الكبرى لانها كانت مفضلة من الاب ٠ الا أن الخالة كانت تحاول أن تعوض له مخففة من حدة الكراهية والحسد ٠ ولكن حساسيته المفرطة لاقل مظاهر التمييز كانت تؤدي الى اثارة غضبه الشديد لدرجة التهجم على الخالة والاعتداء عليها والهروب من البيت ٠

ولانه لم يرغب في الدراسة ونتيجة لحاجة أهله الى المال دفعوا به الى العمل ٠ ولكنه غالبا ما كان يتخاصم مع رب العمل ، ويخاف العودة الى المنزل بدون نقود ٠ وهكذا بدأ يذهب الى الشارع ٠ كانت فترات غيابه قصيرة في البداية وكان يعود بمفرده الى المنزل ٠ ولكن تدريجيا بدأت المدة تطول ٠ وأصبح لا يعود الا اذا أرجعه أحد الاقارب أو الجيران ٠

واخيرا غاب لمدة شهرين عمل خلالهما في نفس المقهى الذي كان يلجأ اليه كلما هرب٠ ثم تشرد من جديد بعد عودة قصيرة الى المنزل ، وانتهى به الامر في احدى مؤسسات رعاية المتشردين ٠

كان يبدو في المؤسسة عدوانيا ، كثير الاحتجاج والطلبات ، لديه دائما شكوى حاضرة من تقصير أو غبن لحق به ، يبدي مشاعر الحسد والغيرة من زملائه ، ظل منبوذا من الجماعة ، وكثيرا ما كان يثير لنفسه العقاب من جراء تصرفاته ٠

عمل لفترات متقطعة مع هروب متكرر : سبعة أشهر في الحدادة ، ثلاثة أشهر في

الدهان ، شهر واحد عاملا في مقهى ، ثلاثة اشهر عند عدة بقالين • وكان كل مرة يهرب من العمل لاسباب تافهة أو لخصام مع رب العمل • ظل على هذا المنوال حتى مصالحته مع والده الذي كان ينقم عليه • عندما بدا عليه الارتياح والاستقرار وتقدم في مهنته • الا أنه ظل مدة ثلاثة سنوات في حالة تذبذب ما بين العمل والهروب مع تغيير مستمر لرب العمل• يمارس مهنته لبضعة أيام ثم يهرب • يعود الى المؤسسة فيعمل من جديد ثم يهرب • يختلف مع الاسرة فيهرب من العمل والمؤسسة •

أقام مدة عند صهره (زوج اخته) وعمل معه في الحدادة • ثم انتقل للسكن عند قريبته التي كانت تتفهمه وتفرض عليه سيطرتها في نفس الوقت ، اذ لم يعد هناك من مجال للاقامة مع الاب • شعر بالارتياح في اول الامر وكان يطلب من قريبته ان تتشدد معه وان تراقب نفقاته وتساعده على الادخار • الا انه هرب بعد فترة اثر استرداد مدخراته• اعيد اليها ، فاستقر مدة ثم هرب من جديد • وظل على هذا الحال عدة شهور • وخلال ذلك كله كان يعاني من تشدد والده معه وعدم تفهمه لوضعه • وكان يتمنى في دخيلة نفسه ان يستطيع مصالحة الاب وان يتمكن من اثارة حنانه وابوته • ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا •

وهكذا عاد الى المؤسسة بعد ان تمرس بالتشرد والانحراف ، من خلال تعرفه على الاوساط الجانحة • واقام فيها فترة تميزت بالتقلب ما بين الهوء والاستقرار والثورة والهروب • مال خلال فترات هروبـه مؤخرا الى ممارسة اللواط بشكل نشط • ثم بدأ يستقطب بعض صغار المشردين ويجبرهم على ذلك ثم يشغلهم لحسابه في اللواط والتسول والنشاطات المشابهة •

خلال كل هذه المدة كانت مشاعر الحقد على الاب تزداد في نفسه ، خصوصا عندما اكتشف سبب انتحار الام اذ وجدت مشاعره مبررا لها وعناصر تعززها حتى وصلت الى التصريح عن نيته قتل الاب انتقاما لها • انه في الحقيقة يريد أن ينتقم لنفسه •

اننا أمام نموذج الجانح الذي حرم العاطفة والحماية والامن فنشأ حاقدا على المجتمع غير قادر على الانغراس فيه • عانى من ذلك طالما كان صغيرا • بدأ ينتقم ويعوض بشكل جانح حين اشتد ساعده •

هذه الحالة تمثل تماما العديد من الوضعيات الاسرية الاجتماعية • انهيار الاسرة • انهيار الاب ماديا ومعنويا • تصلب وقسوة نتيجة لذلك • صب النقمة على الابناء • وهكذا ينشأ هؤلاء في الحقد ولا يجدون أمامهم من سبيل لمواجهة الحياة سوى الانحراف الانتقامي ويعيشون رغم قسوتهم الظاهرية في حالـة أسى داخلي وحسرة على الحب المفقود ورغبة في الارتياح الى أم حنون وأب عطوف • ولا تظهر مشاعرهم هذه الا في بعض لحظات الانفتاح الداخلي • أما

ما تبقى من الوقت فهم يقمعونها بعنف لانها تسبب لهم آلاما لا تحتمل نتيجـــة للياس من امكان اشباعها • ويلجاون في حربهم ضدها الى اصطناع القســوة المتطرفة والعنف الذي يصاحبه انعدام للحساسية • فواقعهم لا يسمح لهم باظهار تلك المشاعر التي تضعهم في موضع الضعف وتهدد فعاليتهم ومكانتهم في عالم الانحراف ، مما لا يمكن أن يسمحوا لانفسهم به لان فيه قضاء عليهـم وانهيارا كليا لعالمهم •

الحالة الثانية : انفصال الوالدين وضياع القاصر بين الاب والجدة :

عادل ، ١٦ سنة ، الولد الوحيد من الزواج الاول للوالدين • انفصلا بعدها ليؤسس كل منهما اسرة جديدة ويرزق بالعديد من الاولاد •

لعادل تاريخ طويل وسجل حافل بالسرقات الفردية والجماعية البسيطة والموصوفة مع هروب وتشرد وبدون هروب •

الاب في العقد الرابع من عمـره يمتلك بعض الارض ، يعيش حياة بسيطة ويشعر بالاكتفاء • اما الام ففي بداية العقد الثالث تهتم بشؤون منزلها •

تألفت الاسرة منذ سبعة عشر سنـــة تقريبا • ولكن لم يلبث الزوج مـع زوجته سوى عدة اشهر دخل السجن بعدها بسبب جناية قتل • أمضى في السجن ثلاث سنوات ونصف ، ولد عادل اثناءها فقامت والدته بتربيته • بعد خروج الوالد من السجن سمع الكثير عن زوجته وسوء سيرتها فانفصل عنها ، بعد ان وضع عادل بعهدة جدته لوالدته • ولم يلبث كل من الوالدين ان تزوج بعد انفصالهما ورزق بالعديد من الاولاد •

الاب ناقم جدا على زوجته الاولى ولا يدع فرصة تمر الا ويشتمهـــا ويحاول النيل من سمعتها ، حتى انه يروج أخبارا عن سرقة قامت بها وأودت بها الى السجن •

اما الوضع لاقتصادي فمقبول كما سبق ان اسلفنا • ويسكن الاب مع زوجته في منزل متواضع ولكنه غير نظيف ويفتقر الى العناية والترتيب •

اما الجدة التي تتعهد عادل فتقيـــم في سكن غير صالح ، يفتقر الى التجهيزات الصحية والماء والكهرباء •

اما عادل فقد تربى عند جدته لامــه بعد انفصال الوالدين ولما يكمل الشهر الاول من عمره • ولكنه لم يجد بيتا واحدا يؤويه اذ كان يتنقل ما بين والده وجدته ويتشرد منذ سن صغيرة • ومنـذ ذلك الحين بدأت سرقاته ومعاشراته السيئـة حتى افلت من الجدة واصبح غير قابل للردع • مما دفع جدتـــه الى الرغبة في الخلاص منه لئلا يسبب لها اشكالات قانونية بتصرفاته الجانحة •

وهكذا ضاع بين جدته ووالده ، والكل راغب عنه ، والكل يحاول فرض سيطرته عليه وردعه بدون اعطائه ما يحتاجه من حنان وحماية · وهو حاليا منبوذ من الجميع ، ولقد رفض والده حتى هذا التاريخ الاعتراف الفعلي به ، واستخراج بطاقة هوية له ، مما أزم مشكلته الى حد بعيد وجعله يفقد الامل في الخلاص وامكان التكيف · ولا يقتصر الامر على الاهل وانما تعداه الى المحيط الذي يحذره اشد الحذر ·

ولقد صرح العديد من الجيران بان لا مكان لعادل غير السجن ·

نتيجة لضياعه بين الاهل ونبذهم له ، ونتيجة لجهلهم واهمالهم ، لم يذهب عادل الى المدرسة مطلقا · كما انه لم يعمل في مهنة منتظمة · أقام فترات متقطعة في مؤسسات تأهيل الاحداث الجانحين والمتشردين نتيجة لما اقدم عليه من سرقات ·

كان يستقر عدة شهور في تلك المؤسسات ، يبذل الكثير من الجهد ويتقدم في دراسته وفي تصرفاته ويتجاوب مع المسؤولين · مما يثير فيه الحماسة ويدخل على نفسه الارتياح ويعيد اليه معنوياته المحطمة · ألا انه كان يمر بفترات حرجة من آن لآخر فيهرب ويعود الى السرقة · وتتميز سرقاته بالطابع الانتقامي أساسا · انه ينتقم بالسرقة أو التخريب ممن نالوا منه بشكل او بآخر · وكذلك عندما يذهب لزيارتهم كانت تثار مشكلاته من جديد من جراء الاحتكاك بالاهل والمحيط اللذين نبذاه ، ويتولد في نفسه الاضطراب فيتشرد ويسرق قبل ان يرجع او يسترجع الى المؤسسة ·

لقد تركزت نقمته في المدة الاخيرة حول والده الذي اهمله والذي تقاعس عن اتخاذ الاجراءات اللازمة لاستخراج بطاقة هوية له · وبدأت هذه النقمة تكبر مع مماطلة الاب ووعوده المتكررة التي لا تنفذ لدرجة انه بدأ يفكر في الانتقام منه · لقد أدخلت هذه المشكلة اليأس في نفسه وبدأ يشعر نتيجة لماضيه ولحاضره انه مغلوب على امره ومحكوم عليه بالانحراف ·

في الحقيقة يشعر عادل بعجز داخلي عن مجابهة الحياة وتحدياتها · وينعكس عجزه هذا في تجنبه الاقدام على المهمات التي لا يحسن القيام بها او يخاف الفشل فيها · فهو يشعر بالضعف ولا يتمكن من توكيد ذاته بشكل متكيف ، ويحس كأن الانحراف قد فرض عليه فرضا لعجزه عن الاستقرار في مهنة لائقة ·

لا زالت مشاعر الحرمان نشطة جدا لديه ، وهو يحاول اخفاءها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولكنها سرعان ما تبرز عند اول صعوبة يصادفها · كما انه يشعر بفقدان الروابط الاسيرية المتينة التي تغرسه في الحياة · ولذلك فهو لا زال يعيش كالتائه ، ويرتاح كثيرا عندما يجد نفسه محاطا بأناس يفهمونه ويؤمنون له الرعاية والاهتمام ويمدونه بالتشجيع ·

ولكن عندما يفتقد ذلك يجد نفسه اعزل عاجزاً امام الحياة بلا روابط ولا جذور فتسيطر عليه مشاعر اليأس من ناحية والنقمة من ناحية ثانية ، ويبقى الانحراف الحل

الوحيد لذي يقدر عليه • ولذلك يقدم على سرقاته التي تحمل طابعا استعراضيا ومعنى تعويضيا وانتقاميا •

توضح لنا هذه الحالة كيف يجد الحدث من هؤلاء نفسه في مأزق وجودي، بعد ان فقد الانتماء الاجتماعي الذي يمد حياته بالمعنى وكيانه بالقيمة • ازاء هذه الوضعية التي تولّد الآلام المعنوية العنيفة والتي يصعب على الحدث احتمالها، وازاء مشاعر العجز عن احتلال مكانة مقبولة في الحياة الاجتماعية ، لا بد من حل • الحل الوحيد الذي يظل ممكنا وفي متناول الحدث هو الانغماس في الانحراف ، ففيه تمرد وانتقام واحتجاج وفيه تعويض مادي عن الحرمان العاطفي •

الحالة الثالثة : انفصال الوالدين ثم موت الاب وضياع الابناء :

سنستعرض هنا حالة ضياع أربعة ابناء اسرة تفككت بالانفصال ثم بالموت • ويكاد جميع الاخوة يمرون بنفس التطور ويعرفون نفس المصير • ولذلك سنبدأ بعرض قصة الاسرة ، ثم نعطي لمحة عن مصير كل من الابناء •

الاب حارس منشآت عامة ارتبط برباط غير شرعي عام ١٩٤٦ بامرأة كانت تتعاطى الدعارة بعد ان تعرف عليها وتعلق بها • اقام معها ثماني سنوات أنجبت له خلالها اربعة صبيان • الا ان النزاعات بينهما كانت مستمرة لانها كانت تخونه طوال تلك المدة • ولكنه لم يكن يطيق عنها انفصالا لتعلقه بها • ولقد انتهى الامر بأن تركته كي تقترن بآخر وتسافر خارج لبنان • تركت المنزل فجأة وبدون اعلام زوجها او ابنائها • ولذلك بحث الاب عنها عدة اشهر ولما لم يستطع معرفة مكان اقامتها توفي بعد مدة وجيزة يأسا وحسرة •

بعد وفاة الاب حاول الجد (والد الاب) الاهتمام بالاولاد • الا انه كان طاعنا في السن وما لبث ان توفي بعد عدة اشهر • فحاول العم الاهتمام بهم ولكن محاولته ذهبت سدى لانهم بدأوا التشرد ولذلك فسرعان ما تركهم لشأنهم •

الولد الاول :

عمره حين الاهتمام به من قبل مؤسسة للمشردين ١٧ سنة • بدون بطاقة هوية •

عاش مع والديه حتى السابعة من عمره • لم يذهب خلالهما الى المدرسة • كان يحب مرافقة والده • بعد وفاته حاول الجد الاهتمام بهم • ثم وجد نفسه مع اخوته بدون معيل فذهب وأياهم الى مخفر للشرطة طالبا المساعدة • وادخل الاخوة في مؤسسة رعائية ، اقام فيها مع اخوته سنتين • تركها الجميع بعد ذلك وبدأوا التشرد •

خلال خمس سنوات مر بفترة من الاضطراب وعدم الاستقرار تميزت بالعمل والهروب من مركز رعاية المتشردين • عمل في صناعة الحلويات ، وفي الحانات • وأولع بمراهنات

سباق الخيل حيث كان يصرف عليها كل ما يملك ٠ أخذ يسرق ويختلس ٠ استغل اخوته وشغلهم باللواط والسرقة والتسول ٠ ثم أودعهم في مؤسسة للمتشردين وعاد الى العمل في الحانات ٠ ترك هذا الميدان وحاول العمل في مهنة محترمة ٠ غير عمله اكثر من مرة ولم يستطع أن يستقر في كل عمل الا مدة بسيطة يحاول خلالها ان يهتم باخوته ٠ وعندما يبدو أن الامور بدأت تسير سيرا حسنا يترك عمله بدون سبب ظاهري ٠ وأخيرا عاش حياة بوهيمية واستقر في أعمال الحانات والغانيات ٠ كان يكسب الكثير من النقود في هذا العمل ينفقها كلها على مراهنات السباق ٠

الولد الثاني :

عمره حين الاهتمام به من قبل مؤسسات رعاية المتشردين ١٤ سنة ، بدون بطاقة هوية ٠ عاش مع والديه أربع سنوات ٠ ذهب سنة الى المدرسة وأقام سنتين في مؤسسة للايتام مع أخوته حيث بدأ التشرد ٠

بدأ العمل بعد هروبه ٠ كان ينام أينما اتفق ٠ عمل مدة عند مومس حيث كان يقوم على خدمتها ٠ ثم أخذ ينام في الفنادق الرخيصة التي تؤوي المتشردين ٠ مارس خلال ذلك الالعاب الممنوعة ٠ الا أنه لم يلاحق ولم يقبض عليه ٠ ثم عمل في المطاعم والمقاهي وفي صالات العرض السينمائي وفي مسح الاحذية ٠

وضع في المدرسة عندما كان في الثانية عشرة ٠ أبدى ذكاء وقدرة على التعلم وتعاونا وانضباطا ٠ الا أنه كان يمر بفترات تمرد وعناد ٠ بعد مدة بدأ يهرب من المدرسة مع رفاق له ٠ الا أنه كان يسترجع في كل مرة ٠ ثم هرب من المدرسة ومن مؤسسة المتشردين معا ٠

أصيب بمرض جلدي خطير استدعى اقامته مدة طويلة تحت العلاج ٠ وكان هذا المرض يعاوده من آن لآخر مما أدى الى اقامته فترة في المستشفى ٠

خلال سنتين عاش متقلبا ما بين الدراسة والهروب والمرض ٠ وترك الدراسة ليعمل ولكنه لم ينتظم في ذلك ٠ كان يتذبذب ما بين فترات تكيف يبذل فيها جهدا كبيرا ويبدي تعاونا حسنا وفترات هروب وتشرد وعناد وعدوان ٠ مر خلال ذلك بتجربة لواط مع راشد ٠ ثم استعيد من الشارع وأدخل المدرسة من جديد ٠ أبدى حماسة كبيرة للدراسة الا أنه فشل في اللغة الاجنبية وعاوده المرض ٠ ترك الدراسة نتيجة لفشله ومرضه ٠ خلال أربع سنوات ظل على عدم استقراره وتذبذبه ما بين التكيف والاقامة في المؤسسة والعمل المنتظم وبين الهروب والتشرد والانحراف وانتهى به الامر الى العمل في مراهنات سباق الخيل ٠

الولد الثالث :

عمره حين الاهتمام به ١٢ سنة · ليس لديه بطاقة هوية ·

كان له من العمر سنتان حين تركت الام المنزل · أقـــام في مؤسسة للايتام ثم في مؤسسة رعاية مدة سنتين · بدأ يهرب ويتشرد بتحريض من اخوته · كان ينام في بداية تشرده في سوق الخضار ، ثم في الفنادق المخصصة للمتشردين · كان يعيش نتيجة لصغر سنه على حساب اخوته الاكبر سنا · بدأ يسرق من عند أخواله ·

عمل في البداية بائعا للعلكة ثم ماسحا للاحذية في محلة البرج تذبذب كاخوته ما بين العمل وعدم الاستقرار والهروب والسرقة والتزوير · كان يستقر فترة في المؤسسة ثم يهرب كي يعود معتذرا وقابلا للقصاص ثم يهرب من جديد ·

حاول الدراسة ولكنه لمس من نفسه ضعفا في هذا المضمار فتحول عن المدرسة · مر بتجربة لواط أثرت عليه · وبعد فترة من العمل هرب من المؤسسة لمدة طويلة نسبيا مارس خلالها اللواط بشكل تجاري وانغمس فيه تماما ·

كثيرا ما كان يخالف الانظمة والقوانين ويصطدم مع الادارة ورب العمل نتيجة لذلك · اصيب بحادث عمل اقعده عدة شهور · عاد بعدها الى الشغل ثم تركه بدون سبب وجيه · ثم انجرف في الانحراف وعمل في صالات العرض السينمائي التي يتجمع فيها الجانحون من مختلف الانواع ، ثم في الملاهي وصالات الرقص الشرقي ·طرد من عمله بعد مدة بسبب السرقة · عاد الى الشارع فقام بتعاطي الالعاب الممنوعة واللواط · وبعد محاولة اخيرة للعمل مر بفترة بطالة توجه خلالها الى مراهنات سباق الخيل · ثم استقر اخيرا في العمل في ملهى ·

الولد الرابع :

عمره حين الاهتمام به احدى عشرة سنة · بدون بطاقة هوية · عاش فترة ضئيلة في كنف والديه · ثم اودع في مؤسسة للايتام مدة ثـــلاث سنوات · ثم نقل الى مؤسسة لرعاية الاطفال المحرومين لمدة سنة ونيف · بدأ منذ هذه السن المبكرة في الهروب من تلك المؤسسة حيث كان يذهب لملاقاة اخوته في الشارع حينــــا وفي مكان اقامتهم حينا اخر · ومر بفترة طويلة من التشرد وعدم الاستقرار الكلي · ثم عاد الى الدراسة من جديد وتقدم فيها وحصل على نتائج جيدة · ولكن عدم حيازته على بطاقة هوية وضع حدا لدراسته · اخذ يتشرد ويتعاطى اللواط ويسرق وينام في دور السينما الخاصة بالجانحين · وكـــان كل مرة يعود مع اخيه اما الى دار الايتـــــام او الى مؤسسة للمتشردين ، فيستقر فترة قصيرة ليعود الى الهروب والانحراف ·

واخيرا وبفضل رعاية ومساعدة فعالة من قبل احدى المؤسسات تمكن من التوصل الى ممارسة مهن مقبولة نجح فيها . الا انه لم يتوصل بعد الى الاستقرار في احداها .

هذه حالة لا تحتاج الى تعليق أو تعليل لديناميات التشرد والانحراف . الا انه يجب القول أنها ليست كثيرة الشيوع بين الاحداث الجانحين . فالامر لا يصل الا نادرا الى هذه الدرجة من الانهيار الاجتماعي والنفساني والمعنوي حيث تبلغ عملية الوصم حدا خطيرا يجعل من الصعب اتخاذ اجراءات تأهيلية فعالة.

طبعا ان لانهيار الاسرة وفقدان البديل العائلي دورا بارزا في هذه الحالة. ولكن تجدر الاشارة الى أن عدم توفر مؤسسات رعائية مجهزة بشكل كاف ماديا وبشريا للاهتمام بهذا النوع من الاطفال هو الذي أدى في نهاية الامر الى هذا المصير القاتم . الواقع ان المؤسسات التي تردد عليها هؤلاء الاخوة رغم المجهودات الهائلة التي يبذلها القائمون عليها عاجزة عن تأمين البرامج العلاجية والتربوية والتأهيلية التي تحتاجها حالتهم . ويتضح من ذلك كيف أن العوامل الاسرية تتفاعل مع العوامل النفسية الناتجة عنها ومع العوامل الاجتماعية (نقص التجهيزات) التي يمكن أن تصححها كي تؤدي الى تدعيم عملية التوجه نحو الانحراف الخطير .

خلاصة :

قصدنا فيما قدمنا من حالات الى تحقيق الهدف الذي ارتأيناه لهذا الفصل وهو التمثيل لبعض نماذج الوضعيات الاجتماعية الاسرية التي تصادف الباحث والعامل مع الجانحين المعرضين لخطر الانحراف . وكما بينا في بداية الفصل ليس القصد من هذا العرض الوصول الى معطيات كمية يمكن استخلاص حقائق موثوقة أو على الاقل افتراضات راجحة منها ، فذلك يتطلب تحليل عدد كبير من السجلات وتصنيف نتائجها وهو امر لم يتيسر لنا حاليا وقد نتمكن من القيام به في المستقبل . الغاية اذا هي مجرد اعطاء فكرة عن الاوضاع التي ينشأ فيها الجانحون الفعليون تعطى بعض الحياة للمعلومات التي عرضت في الفصلين السابقين .

من المآخذ المنهجية التي يمكن أن تثار حول هذه الطريقة انعدام الشمول في التمثيل، اذ اكتفينا بعرض أكثر النماذج شيوعا واسقطنا كل حالات الانحراف العابرة. وكذلك محدودية التنوع فالواقع الاجتماعي الاسري للجانحين وان امكن

تصنيفه في فئات أساسية الا أن كل فئة تظل هيكلية محضة ويندرج تحتها عدد من الحالات المتنوعة حتى نصل درجة تقرب من النوعية الخاصة بكل حالة ٠

الا ان الاسلوب الذي اتبعناه لا يسمح في الحقيقة بزيادة عدد الامثلة الى الحد الذي يتلافى المآخذين السابقين ، اذ سنقع عندها في التطويل الذي يفقد التدليل هدفه ٠

ولكن رغم هذه المآخذ وغيرها مما قد يخطر في ذهن القارىء الناقد ، نستطيع ان نستند الى تلك الامثلة كي نسجل بضع ملاحظات تتلاقى مع نتائج الفصلين السابقين :

أولاً : رغم وصولها الى درجة عالية من الانحراف الذي بلغ حد الخطر من الناحية الاجتماعية العيادية ، لم تلاحق كل الحالات المعروضة قضائيا ، بل هي ظلت غارقة في ذلك الحيز من النشاطات الاجتماعية غير المشروعة ٠ وهذا يؤكد ما سبق ان أشرنا اليه في الفصل الاول من هذا الباب من ان الانحراف الفعلي يفلت الى حد ما من الملاحقة ٠ كما أن معظم الحالات قامت بنشاطاتها في العاصمة بيروت أو في طرابلس مع ان اصل الاسرة من الاقاليم وذلك يؤكد القول بأن الانحراف عندما يصل حد الخطورة فانه يتوجه الى العاصمة اجمالا اما بشكل فردي واما نتيجة لانتقال الاسرة من الريف الى الضواحي الهامشية المحيطة بها ٠

ثانياً : الحالاتالمعروضة تبين بشكل واضح أن الوصول الى الانحراف الفعلي يختلف كليا عن الانحراف العابر ، فهو وليد وضعية تجعل خطر هذا الانحراف كبيرا وتجعل امكان الافلات منه ضئيلا ٠ كما انها تعطي أمثلة حية عن عملية التدرج نحو الانحراف التي اوضحها الاستبار : عدم توفر رعاية اسرية ملائمة ، تشرد ، استغلال من قبل القدماء ، تدرج في الانحراف ، تمرس بأساليبه ، ثم استغلال صغار المتشردين وتتطابق مع الوصول الى مرحلة الاحتراف ٠

ثالثاً : تبرز الوضعية الاجتماعيةكعامل أساسي فيانتاج الجنوح الخطير٠ فمعظم الحالات التي استعرضناها ذات أوضاع مادية متواضعة أو معدمة كليا٠ ولكن الامر لايقتصر على المستوى المادي المحض وانما يتعلق بانعكاساته الاساسية على نمط الحياة في الحي والاسرة وأنماط العلاقة الزوجية واسلوب

تربية الاولاد · فمعظم الاسر التي استعرضناها تعاني من الفقر والجهل ، نزحت من الريف ، اقامت في احياء هامشية ، تعرضت لضغوط وتحديات فجرت ضعفها الداخلي وركاكة تكوينها وادت الى انهيار بعضها واضطراب بعضها الاخـــر واختلال العلاقات الوالدية وتربية الابناء ·

من الواضح ان القاصر لم يلق الحماية والرعاية والجو العاطفي المناسب لنموه السليم · وقد يبرز هنا تحفظ تجاه هذ التعميم · فهنـاك حالات انحراف خطير تنشأ في أوساط اجتماعية أسرية جيدة ولم نمثل لها في الحالات التــي قدمناها · الا ان هذا الامر يبقى استثنائيا · ويرجع الانحراف في هذه الحالة اما الى اضطراب نفسي يتخذ شكلا خلقيا جانحا وامـــا لاضطراب علائقي في الاسرة التي تصب مشكلتها وتوتراتها بشكل واع او لا واع على أحد الابنـاء فتفرط في نبذه او في تدليله · وقد يحمل الجانح في هذه الحالة رغبات لا واعية لدى احد الوالدين ويفرض عليه دور المجسد لها (رغبة التمرد مثلا ، رغبـــة العدوان ، رغبة تدمير الذات الخ ··) وقد يكون هناك انحراف خطير في تلك الاوساط ولكنه لا يأخذ على كل حال نفس الطابع الذي نتحدث عنه هنا ، ويفلت من حيز الملاحقة ، اذ يدخل ضمنظواهر أخرى (مخدرات ، تصرفات جنسـية متنوعة الخ ··) ·

رابعا : الا ان الوضعية الاجتماعية الاسرية المضطربة التي اشرنا اليها في الملاحظة السابقة لا تمارس تأثيرها بشكل نمطي يشمل كل الابناء · هنـاك دائما في نفس الاسرة اولاد متكيفون جدا واخرون جانحون بدرجات متفاوتة · ولقد اشرنا الى بعض التفسيرات الممكنة لهذه الظاهرة خلال تعليقنا على بعض الحالات · ولا بد لاستجلاء هذا الامر من الخوض في ديناميات الحياة الاسرية على المستوى اللاواعي فهي تبين لنا أن هناك توزيعا معينا للادوار يحدث بين افرادها نوع من التوازن بين هذه الادوار التي تتمم بعضها بعضا في تعارضها (مثلا دور ولي العهد ، دور الطفل المريض ، الطفل المدلل ، الطفل المطيـــع ، الطفل المتمرد ، الطفل الخادم الخ ··) ورغم ان الاسرة تعيش اجمـالا نفس الوضعية الاجتماعية الاقتصادية فان الابناء لا يعيشون جميعا نفس التجربـة نفسيا وذلك نظرا لاختلاف المكانة والدلالة والدور الذي يعطى لكل منهم من قبل الوالدين بشكل واع ولاختلاف مرتبة كل منهم ودلالة هذا الاختلاف انطلاقا من مسألة التنافس الاخوي · وهكذا نجد بين الاخوة من يقوم بدور المعيل للاسرة بدل الاب المهمل ومن يتمرد ويتشرد ويعبر بذلك عن مأساة تلك الاسرة ·

خامسا : ان الحالات السابقة تبرز بوضوح فساد وخطأ العزل المنهجي بين الاجتماعي والاسري والنفساني ، بين الموضوعي المادي والذاتي عندبحث السلوك الجانح خصوصا والسلوك العادي بوجه عام • فالمشكلة الاجتماعية كما رأينا لا تمارس تأثيرها مباشرة على سلوك القاصر فتدفع به الى الانحراف• ان الجنوح هونتاج تفاعل جدلي لعدة حلقات في سلسلة السببية • الوضع الاجتماعي اللاسوي يؤدي الى اسر مضطربة زوجيا ووالديا وتربويا وهذا بدوره يؤدي الى اضطرابات نفسية وشخصية عند الابناء ، وتعود هذه فتنعكس على الاوضاع الاسرية والاجتماعية فتدعم تأثيرها الضار من خلال المآزم الداخلية والوجودية التي تجعل التكيف صعبا • وعند هذا التدعيم يكون الحدث قد انخرط في عالم الانحراف ، في البيئة التي تشجع على السلوك الجانح وهذه ترسخ اضطراباته الشخصية من خلال الحلول الجانحة التي تقدمها مما يدعم من جديد سوء تكيفه • وهكذا تسير الامور بشكل لولبي متصاعد يتفاقم معه الامر في كل مرحلة حتى يؤدي الى الاحتراف الفعلي ، الا اذا تدخلت قوى جديدة ومؤثرة في الوضعية وغيرت من ديناميتها بشكل يدفع السلوك في اتجاه التكيف •

وهذا ما يفسر لنا تلازم الاضطراب في الشخصية والخلل في الوضعية الاجتماعية والاسرية في معظم الحالات التي عرضت • ولكن هل تتساوى القوتان في التأثير ؟ بالطبع لا • هناك كما اتضح من الامثلة طرف اساسي في لولبية السببية لتي نتحدث عنها وهو الوضع لاجتماعي الاسري وطرف ثانوي ناتج عنه ومتفاعل معه وهو اضطراب الشخصية • الا ان هذا الاخير يصبح في بعض المراحل الطرف الاساسي في السببية ويعزز تأثير الوضعية الاجتماعية بشكل انتقائي • ذلك هو السند لعملية التدرج في سوء التكيف حتى الوصول الى الاحتراف •

سادسا : هناك ظاهرة تلفت النظر في الحالات التي عرضت وتؤيدها في ذلك معطيات الممارسة العيادية والتربوية حول اسر الجانحين وهي اختلال الابوة في معظم الاحيان من حيث قيامها بوظائفها الاساسية الثلاث : الحضور النفسي الذي يؤمن الحماية ويفرض الحدود ويقدم نموذجا صالحا للرجولة يتوصل الطفل الي النضج من خلال التماهي به• فصورة الاب مضطربة في واحدة من هذه الوظائف أو اكثر او فيها جميعا • فاما ان يكون الاب قاسيا فظا عدائيا تجاه الزوجة والاولاد ويصبح عامل تهديد وقلق بدل ان يكون القوة التي تحمي

وتبث الطمأنينة • واما ان يكون مهملا وغائبا أو معزولا أو ساقطا مما يحرم الطفل فرصة التماهي بصورة صالحة للرجولة مما يحرمه الوصول الى التوازن الشخصي • واما ان يكون ضعيفا عديم السلطة فاقد المكانة والاعتبار هامشيا مما يترك الطفل ضحية لنزواته التي لم تجد السطلة التي تضع لهـا الحدود وبالتالي تدعم الانا وتساعده على ضبطها والارتقاء بها • في الحالات الثلاث يظل الطفل اسير القلق والمخاوف فاقدا للقوة الداخلية راضخا تحت تهديد صورة الاب العنيف ، او عاجزا عن الشعور بالمسؤولية او مستسلما لنزواته مما يجعله عرضة للانخراط في الوضعيات التي تحمل خطر الانحراف • اضطراب الابوة وما يتركه من اثار يعطي مثالا جيدا عن تفاعل المشكلة الاجتماعية الاسرية مع المشكلة النفسية الناتجة عنها •

ان هذه الظاهرة جديرة في نظرنا بتخصيص دراسة قائمة بذاتها لرسم معالمها وتوضيح خصائصها وتبيان اثارها • ففي ذلك اسهام هامة فـي فهم الانحراف وعلاجه •

خلاصة البحث الثاني

لم يكن الهدف من هذا البحث اجراء دراسة اجتماعية شاملة لظاهرة انحراف الاحداث في لبنان ، فذلك متعذر علينا لما بينا من أسباب في التمهيد له . الغاية التي ارتأيناها كانت محاولة توضيح بعض معالم الاطار الاجتماعي العام لدراستنا العيادية التي تشكل الجانب الاساسي من بحثنا .فاذا تمكنا من رسم صورة تتميز ببعض الحياة وتعكس الواقع المعاش الذي ينشأ فيه الجانح وخصائصه والمحيط الذي يتدرج فيه نحو الاحتراف نكون قد ادركنا غايتنا . ونعتقد اننا اذا لم نتمكن من ذلك بشكل شمولي فاننا قد توصلنا على كل حال الى شيء مما نصبو اليه . ولا شك ان هناك جوانب كان بالامكان القاء الضوء عليها وهي كثيرة وهامة منها اتجاهات الرأي العام بمختلف فئاته نحو ظاهرة تشرد الاحداث وانحرافهم . ان هذا الموضوع في رأينا يستحق دراسة قائمة بذاتها . فعلى نوع تلك الاتجاهات الصريحة او الخفية ، الواضحة منها والمشوشة ، القطيعة وحيدة الجانب أو المتجاذبة المتذبذبة يتوقف الى حد بعيد مصير ظاهرة الانحراف ومدى الاهتمام الذي يمكن أن تحظى به ونوع هذا الاهتمام وفعاليته .يغلب مثلا ان تكون النظرة الى هذه الظاهرة متصفة بالتجاذب الوجداني : شفقة ظاهرية وميول احسانية مع نبذ خفي قائم على اساس من العداء والخشية من الاذى الممكن . ان نظرة كهذه تؤثر ولا شك على مصير الاجراءات التربوية والتأهيلية وتحد من فعاليتها لانها لا تسمح للجانحبالاندماج في الجماعة ولا تعترف به كعضو فعال انها تؤدي في كثير من الاحيان الى الى التعاطف مع الطفولة المتشردة الجانحة (البائسة !!) ولكن عن بعد وبشكل موسمي أو عابر . ان الحماسة لتلك الطفولة لا تتمكن عادة من اخفاء الجذر والخوف الكامن وراءها . يحس الجانح به من خلال التواصل اللاواعي الذي يتم اثناء العلاقة والعمل معه. فاذا حدث ذلك يكون كل جهد بذل من أجله مقضيا عليه لانه سيصطدم بسلبية لا واعية . فقط الاعتراف الصادق والفعلي بالجانح

كاخر قادر على تجاوز اشكالاته وقابل للاندماج والتكيف يمكن لـه ان يؤدي الى نتيجة ايجابية ·

ثم علينا أن نعرف الى أي حد تقترب اتجاهات الجمهور من النظرة العلمية الموضوعية أو الى أي مدى لا زالت تقوم على الذاتية التي تتخذ أحيانا طابعا سحريا · فبقدر اقترابنا من النظرة العلمية تصبح معالجتنا لظاهرة ما أكثر فعالية وبقدر انغماسنا في الاتجاهات السحرية نظل على تخبطنا وفوراتنا السلوكية الانفعالية ·

وأهم من ذلك كله قد يكون علينا أن نتساءل عن مدى الاهمية التي نعطيها لهذه الظاهرة · هل نعتبرها جديرة بالاهتمام وبتوظيف الامكانات المادية والبشرية والجهود اللازمة للتصدي لها ، أم هي مصابة بالتجاهل ومضروبة بانعدام الدافع للاعتراف بها وبالتالي نصيبها الضياع والاهمال ؟ الكثير من العاملين في هذا الميدان يعبرون عن مخاوفهم من الاحتمال الثاني حين يؤكدون على قلة الامكانات المتوفرة في ميدان رعاية الطفولة عموما ·

ثم هناك ظاهرة التسامح تجاه السلوك الجانح ، كما يقول الدكتور مصطفى العوجي ، واعتباره مجرد سلوك غير مستحب · طبعا من نتائج هذه الظاهرة تشجيع الكثير من التصرفات غير المشروعة من ناحية ، وقلة الاهتمام بمسألة الانحراف وضرورة معالجته من ناحية ثانية · يتخذ الامر في هذه الحالة طابع التراخي بما فيه من تجاهل للمشكلة ، أكثر مما يتخذ طابع قبول الجانح بشكل موضوعي يفتح الطريق أمام تكيفه · وفي رأينا ان ظاهرة التسامح هذه (أو التراخي كما نعتقد) تشكل جانبا واحدا من موقف الجمهور تجاه الطفولة المتشردة المنحرفة وتقتصر على الحالات التي لم تطلها الملاحقة القانونية ولم توصم بالانحراف بعد · أما حين يصدر حكم ما على الحدث أو عدة أحكام اصلاحية فان التساهل قد يتحول الى نقيضه ، الى نبذ صريح او على الاقل الى موقف حذر · ان لذلك ، كما لا يخفى على الملاحظ ، آثارا سلبية على علاج مشكلة الانحراف ، اذ يذهب هذا الموقف في اتجاه معاكس تماما لما يحتاجه اصلاح الجانح · التراخي يؤدي الى تفاقم المشكلة والنبذ بعد الملاحقة يعطل نتائج الجهود التأهيلية ·

أما الموضوع الثاني الذي تستحسن دراسته في اطار البحث الاجتماعي لظاهرة الانحراف ، فيرتبط بالسابق ، ويختص بعملية الوصم الاجتماعي للمنحرف · تلك العملية التي تحدث بعد الملاحقة خصوصا وبعد تكريس الحدث جانحا بشكل رسمي · وهي تؤدي الى عزله عن الجماعة واضفاء طابع الغرابة

عليه• فهو لم يعد أحد أفراد الجماعة العاديين بل يصبح ذلك الآخر المجهول أو المقلق أو المنفر أو المثير للشفقة• باختصار يختزل وجوده وتفقد شخصيته تنوعها ويحشر في صورة الجانح فقط • ويؤدي ذلك عادة الى تعثر الحوار والتواصل معه كآخر مماثل ومساو لبقية أفراد الجماعة • تضخـــم فيه صفات العدوان والسلبية واللا أخلاقية وينظر اليه من خلالها فقط • وتكون النتيجة عرقلـــة لامكانية اعادة تكيفه الذي يتلخص في النهاية بتدامج جيد وفعال في الجماعة ، لان الصفات الايجابية التي لا زال يتحلى بها وامكانات التكيف أو الجوانب التي لا زالت مشتركة مع الناس المتكيفين تطمس خلال عملية الوصم هذه وتبهـــت بمقدار بروز صورة الجانح التي اسقطت عليه• ويضطر الجانح بعد عدة محاولات للتكيف لا يحالفها النجاح عادة ، الى التماهي بهذه الصورة السلبية ويشعر أن ليس له من دور ممكن في الجماعة سوى دور المنحرف الخارج على القانون ، مما يدعم ميوله الجانحة الداخلية ويحسم تجاذبه الوجداني لمصلحتها ، فتتغلب على قوى التكيف في شخصيته • وبقدر ما تتدعم تلك الميول الجانحة وتبـرز تتعزز عملية الوصـــم الاجتماعـــي واجـــدة في ذلك مبررا لها وبرهانا على مشروعيتها • وبذلك تنشأ الحلقة المفرغة التي تبعده عن عالم المتكيفين وتلقى به في عالم الانحراف المحترف • من المهم جدا في الدراسة الاجتماعية لظاهـــرة الانحراف من الناحية الدينامية أن نعرف طبيعة وشكل وشدة عملية الوصـــم هذه • اذ لا علاج للجانح الا بتغييرها من خلال اعادة انسانيته اليه وبالتالي افســاح المجال أمام عضوية ذات دلالة ايجابية له في المجتمع • لا نعـرف مع الاسف الا القليل عن هذه العملية في لبنان • وسيظل هذا الامر أحد مناطـق الظلال في بحثنا الحالي عن الاحداث المنحرفين •

أخيرا هناك موضوع الوظيفة الرمزية للسلوك الجانح وهو من الموضوعات الرئيسية في أي دراسة اجتماعية لا تريد الاكتفاء بالمستوى الوصفي للظاهرة ، بل تحاول الوصول الى المستوى التفسيري الدينامي • ولقد سبق لنا أن بينـا أهمية هذا الموضوع عند الحديث عن المنهج الجدلي في دراسة السلوك الجانح• ويتلخص الامر في أن للسلوك الجانح كما للمرض النفسي أو العقلـــي وظائف اجتماعية بالاضافة الى الوظائف النفسية المتعارف عليها • وان هذه الاضطرابات لا تعبّر فقط عن مآزم داخلية وانما تعبر في نفس الوقت عن تناقضات اجتماعية، وانها ليست فقط وليدة الاواليات الدفاعية للأنا بل هي ايضا وليدة أواليـــات دفاعية اجتماعية • وكما أن الشخصية تدافع عن تماسكها ضد الانهيار الكلي بالاعراض المرضية كذلك فان المجتمع يدافع بنفس تلك الاعراض عن تماسكه ضد

تفجر التناقضات الداخلية التي تسكنه ٠

ما هي وظيفة انحراف الاحداث في لبنان من هذه الناحية ؟ سؤال هام جدا في نظرنا ٠ وليس من الممكن انطلاقا من وجهة النظر هذه علاج ظاهرة الانحراف تماما الا من خلال معرفة جواب ذلك السؤال وايجاد الحلول البديلة للتناقضات التي أنتجت الانحراف ٠ تشكل هذه المسألة مشروع بحث طريف وهام ليس في مقدورنا القيام به في اطار دراستنا الحالية ٠

تلك هي اذا بعض الجوانب الاساسية التي تركتها دراستنا الاجتماعية لظاهرة الانحراف دون بحث كاف ، لانها كما سبق أن بينا لا تدعي الشمول بقدر ما تهدف الى رسم بعض الملامح ٠ لقد برزت هذه الملامح في الفصول الثلاثة التي يتكون منها هذا البحث ٠ وقد يكون من المستحسن والمفيد اعادة تلخيصها في هذه الخلاصة رغم ما يحمله ذلك من خطر التكرار ٠

دلت معظم المعطيات المعروضة ان الانحراف يجب أن يؤخذ من خلال المنطلق الاجتماعي العيادي العريض الذي يشمل التشرد والانحراف اللاحق وخطر الانحراف ٠ من الواضح من هذه الزاوية ان حجم الظاهرة أكبر بكثير مما تبرره الاحصائيات الرسمية التي تدور أساسا حول الانحراف غير الخطير ٠ ولكنها تتضمن على كل حال نسبة من حالات الجنوح السائر نحو الاحتراف ٠

ويمكن لنا تقسيم الظاهرة الى فئتين أساسيتين تتبعها ثالثة :

أ ـ الانحراف العابر مهما كانت درجة الخطورة القانونية للسلوك ، هو أساسا وليد الطبقات المتوسطة والشعبية التي تتميز بحياة اجتماعية متكيفة وبوضعية أسرية متماسكة على الاقل ظاهريا ، وبوعي واضح بخطورة الافعال الجانحة التي يقدم عليها الابناء ٠ يحدث هذا الانحراف فجأة مع بداية المراهقة بما تخلقه من حاجات ورغبات وما تثيره من مأزم نفسيته ، أو يكون له تاريخه الطويل ٠ على كل حال معظم الجانحين من هذا النمط يتكيفون بمساعدة المحيط الاسري بسرعة تتفاوت من حالة الى اخرى ٠ ويبقى قسم منهم ينحرف في الانحراف الخطير ٠ وغالبا ما تكون وراء ذلك اشكالات عصابية حلت بشكل جانح عند الحدث نفسه أو عند احد والديه ٠ على أن نسبة هذه الفئة اذا كانت كبيرة في الاحصائيات الرسمية فهي تظل محدودة على مستوى الانحراف الخطير اجتماعيا ٠

ب ـ الانحراف الفعلي المسؤول عن القسم الاكبر من النشاطات الجانحة ٠ يأتي اساسا من الطبقات المعدمة اقتصاديا واجتماعيا والتي يطلق عليها علماء

الاقتصاد اسم ما تحت الكادحة (١) • تتجمع هذه الفئات السكانية في الاحياء الهامشية المحيطة بالعاصمة أساسا • لا تمارس عملا منتظما ، لا تملك مهارات مهنية معقولة ، تعيش في حالة بطالة صريحة أحيانا ومقنعة دائما ، تقوم بنشاطات موسمية تبعا للظروف بشكل يطغى عليه الارتزاق الذي يتذبذب ما بين النشاط المشروع وغير المشروع بدون أن تكون الحدود واضحة بين كل ذلك • وهي فئات سكانية نازحة اما من المناطق الفقيرة في الريف أو من خارج الحدود ولكن النسبة الكبرى تأتي من المناطق الريفية التي لا تتيسر فيها دائما سبل الارتزاق •

تتعرض هذه الفئات على ركاكة وضعها الى ضغوط كبيرة تؤدي اجمالا الى بروز الكثير من الاضطرابات والاشكالات على مستوى الاسرة •

تنعكس هذه بالتحديد على وظائف الامومة والابوة ، فهي غالبا مضطربة، مما يفقد الاطفال فرصة الرعاية والحماية الضرورية ، فيتشردون بعد فشل دراسي ومهني وحتى قبله أحيانا • يؤدي بهم تشردهم الى مخالطة الاماكن التي تسود فيها النشاطات الجانحة فيستغلون من قبل جانحين كبار (تسول ، بيع علكة ، نشاطات تافهة انتاجيا ، لواط ثم سرقة بسيطة ، فتدريب عليها فتمرس بالحياة الجانحة فاحتراف ، ألعاب ممنوعة ، تشغيل أطفال) • وقد يستغلون من قبل الاهل في كثير من الاحيان •

تتركز هذه الظاهرة خصوصا في العاصمة التي تستقطب القسم الاعظم من الانحراف المحترف ومن المنحرفين السائرين نحو الاحتراف في الاقاليم • وتأتي بعد ذلك مدينة طرابلس كعاصمة اقليمية تضم أحياء شبيهة بأوضاعها بالاحياء الهامشية حول بيروت وان كانت تتكون من احياء سكنية قديمة •

الانحراف هنا ليس فجائيا فالدارس يرى بوضوح خطره في الوضعية التي ينشأ فيها هؤلاء منذ سن مبكرة جدا قبل الثامنة تقريبا • الخطر اجتماعي أساسا تتولد عنه شخصية غير سوية يتعذر عليها التكيف •

جـ ـ هناك انحراف ريفي وهو ذو طابع عدواني حركي اجمالا : اعتداء على

---

(١) ما تحت الكادحة : Sous prolétariat

ممتلكات الغير الزراعية ، ضرب ، جرح ، اتلاف • ومهما كانت خطورته القانونية فانه غير خطر من الناحية العيادية في جزء كبير منه ، لانه يتم في اطار من النزاعات المحلية بين الجماعات الاسرية او غير الاسرية • والحدث يقبل على تلك التصرفات نتيجة لانتمائه المفرط لجماعته • على أن ذلك لا ينفي وجود انحراف حقيقي في الريف ، انما يظل خفيا أحيانا ويبرز أحيانا أخرى • فاذا استمر كان مصير القاصر عادة الهروب من بيئته الاصلية والتوجه نحو المدن الكبرى حيث يتمكن من ممارسة نشاطاته الجانحة •

وهكذا فالانحراف في تقدير معظم العاملين في الميدان مسألة اجتماعية أساسا وهو يقوم على خلفية من التراخي أو التسامح الذي يسهل انتشار النشاطات التي تحاول الوصول الى الاهداف بدون مراعاة المعايير السلوكية بدرجة كافية ، في جماعات تتميز بالعجز عن مجابهة تحديات الحياة في العاصمة وتعاني من الاضطراب الاسري والوالدي • ويزيد من حدة المشكلة عدم توفر امكانات الرعاية والحماية لاطفال هذه الفئات وقلة امكانات الوقاية والعلاج والاصلاح بالنسبة لحجم الحاجات • وتتفاعل هذه العوامل الثلاث : تراخي على المستوى المعياري للسلوك وتعلق بالاهداف ، عجز الاسر والجماعات ما تحت الكادحة عن القيام بواجبات تربية الابناء ، عدم كفاية تجهيزات الرعاية والحماية والاصلاح بالنسبة لحجم الحاجات • وينشأ عن ذلك كله ظاهرة انحراف ذات طابع اجتماعي أساسا •

ونجد تأكيدا لهذا الاستنتاج في أمرين اثنين : موقف الاهل من انحراف الابناء والازدواجية الاساسية التي تميز شخصية الجانح الفعلي او ما يمكن تسميته ايضا بالتجاذب الوجداني تجاه الانحراف •

ـ **موقف الاهل** : يتميز الى حد ما بالتراخي تجاه التصرفات الجانحة لابنائهم ، ويتفاوت ما بين اللامبالاة الكلية والتشجيع احيانا وبين القلق الشديد والبحث عن مساعدة من قبل بعض المسؤولين في ميدان العمل الاجتماعي لوضع حد لتصرفات ابنائهم ، الا أن هذه الحالة الاخيرة تظل قليلة الحدوث نسبيا طالما لم يسبب الحدث أذى فعليا لذويه من جراء انحرافه فهم في معظم الأحيان يستاؤون ويقلقون بدون اتخاذ اي خطوات فعلية لاعادة الامور الى نصابها •

أما بعد أن يلاحق الابناء ويوضعون في معاهد اصلاحية فيحاول الاهل

عادة أن يخفوا مشاعر الذنب الناتجة عن تقصيرهم المقصـــود أو المفروض ٠ ويلاحظ الدارس هنا عدة ردود فعل من الطريف ذكرها ٠

هناك الاهل الاحتجاجيون الرافضون الذين يرون غبنا كبيرا فيما صدر على ابنهم من أحكام وهم يحاولون نفي التهمة عنه وتبرئته من المسؤولية (تبييض صفحته) ، وكأنهم يقيمون مع أبنائهم حلفا ضد المجتمع الظالم ٠ موقفهم الاساسي هو التهجم على الجميع ٠

هناك الاهل الاستعراضيون الذين يغررون بأبنائهم زاعمين السعي لاسقاط الحكم عنهم في أقرب مدة ٠ وهم ما ينفكون يستعرضون علاقاتهم مع هذا النافذ أو ذاك الوجيه واقفين موقفا اضطهاديا أو استعلائيا من العاملين مع ابنهم ٠

هناك أيضا الاسر المتهربة واللامبالية ٠ لا تحاول مطلقا التعاون مع العاملين وتتجنب كل علاقة معهم حتى ولو كانوا هم المبادرين لاغراض التربية ٠ يرفضون القيام بأي جهد من أجل اعادة تكيف ولدهم ٠ وقد يصل الامر ببعضهم حد النبذ الكلي لابنهم فيقطعون كل صلة لهم معه ٠

هناك أخيرا الاسر المستغفرة التي تبـــالغ في الحديث عن تقصيرها ٠ وتتحالف مع المربي متخلية له عن كل حقوقها ٠ فهي تستقيل من مهماتها الوالدية معلنة عدم جدارتها ٠ ويقرب منها أيضا في أسلوب التصرف الاسر المستنجدة بالسلطة الخارجية لتعينها على ضبط ابنائها ٠

في كل هذه الحالات يعاني موقف الاهل من الارتباك ازاء الحكم الممكن على جدارتهم من ناحية وازاء تراخيهم المعياري تجاه تصرفات ابنائهم وتصرفاتهم هم من ناحية ثانيـــة ٠

- **التجاذب الوجداني للجانح** : ان دراسة الجانح اللبناني وموقفه مـــن المعايير السلوكية تظهر أنه لا زال يحتفظ اجمالا باحترامه للتقاليـــد وللسلطـــة وحساسيته للانتماء الاجتماعي والاسري وامكانية اقامة علاقة ايجابيـــة معه واحترام الراشدين المسؤولين عنه عندما يبدون التفهم والعدالة في تصرفاتهـــم تجاهه ٠ فكأن اناه الاعلى من هذه الناحية سليم لم يمس ٠ حتى أشد الجانحين احترافا ندر ان لا تثار عواطفه العائلية وحساسيته العلائقية في لحظات ملائمة٠ وينعكس ذلك خصوصا في أزمات الوعي بالمسؤولية الذي يشعر به عند المراهقة

وبعد سنوات من الانخراط في الانحراف بلا مبالاة تامة . فهنا يظهر الكثير من الرقة والعاطفة تجاه ذويه وتتضخم ماسيهم في نظره ويبدي استعدادا كبيرا للتضحية وللجهد في سبيلهم ، خصوصا تجاه الام والاخوة الاصغر سنا . وذلك كله يشكل امكانات كبيرة للاصلاح اذا استغل بشكل ملائم . الا أننا نجد بجانب ذلك وجها آخر لشخصيته . فهو يقدم على الكثير من الافعال الجانحة وينخرط في سوء التكيف رغم كل الصفات السابقة وكأنه يعيش على مستويين لا علاقة بينهما : مستوى الروابط العاطفية ومستوى السلوك المعاش . وكأن احترامه المعايير على المستوى الاول لا يستدعي احتراما للمعايير على المستوى الثاني ، وبالتالي تظل حياته الخلقية غير فعالة وعديمة التأثير على تصرفاته الجانحة .

على أنه لا يجوز أن نغرق في المنطلق الاجتماعي الموضوعي . بل لا بد من أن نؤكد على انعكاساته غير المباشرة على شخصية الوالدين وشخصية الابناء . فالوضع الذي تحدثنا عنه ينتج اضطرابات نفسية وخللا في توازن شخصية الابناء يدفع بهم الى الانحراف . ويؤكد ذلك شيوع اضطرابات الشخصية عند الجانحين حيث يندر ان نقع خلال الممارسة الميدانية مع المنحرفين الفعليين على جانح معافى الشخصية خال من الاضطراب ، نحن هنا في منطقة من التجربة الانسانية تتجاوز التمييز المدرسي بين اجتماعي ونفساني . فكل منهما مشروط بالآخر ، يحدده ويتحدد به في آن معا . عملية التدرج نحو الاحتراف التي نحن بصدد دراستها تمر بالتفاعل الجدلي للمشكلة الاجتماعية مع المشكلة النفسية الناتجة عنها والتي تعود فتعززها في خطوة تالية وهكذا ...

البحث الثالث

دراسة عيادية للأحداث الجانحين

تمهيد

حاولنا في البحث الثاني من هذا المؤلف رسم الملامح الاساسية للاطـــار الاجتماعي الذي يحدث فيه الانحراف · وبينا من خلال تحليل الاحصائيـات ، واجراء الاستبار واستعراض الحالات بعض الخصائص الاجتماعية للظاهـرة موضوع بحثنا · ولكن ذلك كله لم يكن سوى تمهيد ضروري للبحث العيادي الذي نحاول القيام به هنا · اذ اننا نميل الى الاعتقاد بفائدة اعطاء صورة عن أكثر أنماط الجانحين الاحداث شيوعا · ثم ان هذا الامر يدخل في صلب اختصاصنا وممارستنا العيادية العلاجية · ولهذا فسننكب في هذا البحث على دراســـة شخصيات الجانحين من الناحية النفسية الوجودية · وقد يتبادر الى ذهـــن القارىء ان في هذه الدراسة النفسانية عودة الى التقسيم القديم للظاهرة ما بين اجتماعي خارجي ونفساني داخلي · غايتنا أبعد ما تكون عن ذلك · ثم ان الواقع كما ستعكسه دراسة بعض الحالات سيحسم الامر بشكل قاطع · فالاجتماعي متداخل متفاعل مع النفساني وكلاهما مشروط بالآخر · ثم ان مختلف مظاهر الاجتماعي متفاعلة فيما بينها شأنها في ذلك شأن مختلف مظاهر النفساني · ذلك التداخل والتفاعل الجدليين قد فرضا نفسيهما علينا لدرجة أوقعتنا في حيرة من أمرنا ، كيف نصنف هؤلاء الجانحين الى فئات · فالتصنيف ينشد مثلا أعلى، وهميا في حالتنا ، وهو النماذج او الفئات الصافية · محك الواقع يقضي فعلا على ذلك الوهم عند بحث انحراف الاحداث · ولذلك نود منذ الآن أن نشير الى أن التقسيم الذي سيتبع في هذه الدراسة هو مجرد تقسيم اجرائي للجانحين ، لا يستند سوى الى السيادة النسبية لاحدى القـــوى المحددة للانحراف على

غيرها وبروزها اكثر قليلا من الاخرى في الصور التي سنرسمها · الاقسام التي تكوّن هذا البحث هي اذا مجرد تصنيف منطقي له بعض السند من الواقع ·

هناك نوعان من التصنيف يمكن للباحث أن يختار احدهما تبعا للهدف الذي ينشده من بحثه · الاول هو التصنيف تبعا للخطــورة أو لدرجة الانخراط في الانحراف · أما الثاني فينطلق من الاسباب الرئيسية للانحراف ·

يقسم الجانحون في الحالة الاولى الى جانحين عارضين (١) وجانحـين بالصدفة (٢) وأشباه الجانحين (٣) وجانحين معتـادين (٤) · وهؤلاء يقسمون بدورهم الى مكررين (٥) ومحترفين (٦) · يستخــدم هذا التقسيم في تصنيف الجانحين الكبار خصوصا ، وان كان يصلح للقصر الى حد ما ·

أما الجانــح العارض فهو ذلك الانسان المتكيف اجتماعيا ونفسيا يرتكب عادة جنحا لا ارادية اما بالاهمال أو لجهل أو لسوء تقدير أو لظروف طارئــة · وأهم ما يميزه هو غياب عنصر النية الجانحة ، غياب الرغبة في الوصول الى متعة أو غاية أو مغنم من خلال السلوك الجانح · معظم الاطفال ان لـم يكـن جميعهم جانحون عارضون في مرحلة ما من حياتهم · حيث يشكل الفعــل المخالف للقانون وسيلة لاكتشاف الواقــع أو التعامل معه أو توكيد الذات او ممارسة القدرات النامية أو استعادة توازن الشخصية نتيجة للضغوط والاحباطات التي تقع عليها · ويشكل هذا الامر في نظر ديبويست مرحلة عادية من تطور الطفل السوي ، ويقلع هذا عن تلك التصرفات نتيجة لضغط المحيط ورفضه لهـا أو نتيجة لوعيه بعدم شرعيتها · ويصبح الامر مشكلة عندما يرفض الطفــل التخلي عن هذا الاسلوب رغم تلك الضغوط وذلك الوعي ·

أما الجانح بالصدفة فهو أيضا شخص متكيف اجتماعيا طالما لم يعان من ضغوط خارجية تفوق طاقته على المقاومة · وتتكون تلك الضغوط اما من اغراءات خارجية او من بروز حاجات داخلية ملحة أو من تفاعل الامرين معا · من أمثال ذلك بين الاحداث تصرفات المباهاة والتحدي أمام رفاق اللعب وضرورة الاحتفاظ

---

(١) جانح عارض : delinquant occidental
(٢) جانح بالصدفة : delinquant occasionnel
(٣) شبه جانح : quasi delinquant
(٤) جانح معتاد : habituel
(٥) جانح مكرر : Récidiviste
(٦) جانح محترف : professionnel

بالسمعة أو المكانة من خلال المساهمة في مغامرة تأخذ اجمالا طابع اللعب ٠ وكذلك الحاجة الى الحفاظ على علاقته مع الجماعة من خلال مجاراتها في مغامراتها غير المشروعة ٠ تبدأ الكثير من حالات الانحراف بين القصر على هذا النمط : مخالطة رفاق السوء ـ الانجراف وراء اغراءات اللهو الخ ٠٠٠

ولا يشكل الفعل الجانح هدفا بحد ذاته في البداية ٠ ولكن مع التكرار يصل الى تلك المرتبة ٠ وهنا يصطدم الحدث مع المعايير الاجتماعية ٠ فاما أن يقلع عن تلك التصرفات واما أن يستمر فيها كي تتحول الى أسلوب في اشباع الرغبات ٠ ولا يحدث هذا التحول عادة الا نتيجة لوجود استعداد مسبق لدى الطفل على شكل احباط او مأزم في المحيط الاسري ، ولهذا السبب يتحفظ العلماء كثيرا بصدد مسألة الصدفة التي يتمسك بها الكثير من الجانحين دفاعا عن أنفسهم وتبرئة لها ٠

أما أشباه الجانحين فيشكلون الفئة الانتقالية بين الجانحين العارضين والمنحرفين المعتادين ٠ يكون هؤلاء على درجة ركيكة من التكيف للحياة الاجتماعية ويظلون مستترين طالما وجدوا في محيط حياتي مقبول ، خال من الازمات والصعاب والتحديات ٠ ولكنهم سرعان ما ينهارون عندما يفقدون ذلك الاطار اذا لم تتوفر المساعدة التعويضية ٠ ويؤدي بهم انهيارهم الى الانجراف في تيار الانحراف من خلال الوقوع ضحايا زعماء العصابات بعد تشردهم ٠

ولقد رأينا ان العديد من الاحداث يبدأون هكذا حياتهم الجانحة ٠ تتفاعل في هذه الحالة الظروف الاجتماعية غير الملائمة مع تكوين نفسي ركيك يعاني من الكثير من أوجه القصور والاضطراب نتيجة للنشأة في محيط اسري غير ملائم بدوره ٠ وينتج عن هذا كله عناصر هامشية تنتقل ما بين النشاط المشروع والنشاط غير المشروع بدون تحد صريح للمعايير الاجتماعية بالاضافة الى قابلية متفاوتة في مداها للتكيف ٠ من هذه الفئة تخرج نسبة لا بأس بها من الجانحين المعتادين ٠

الجانح المعتاد يختلف عما سبقه في اتخاذ الانحراف نمطا من الحياة مع دخول في علاقة صراعية مع المجتمع ٠ والعيش بشكل طفيلي لا يشكل فيه النشاط المشروع الا حالة عابرة من الوجود أو ستارا لاخفاء النشاط الجانح ٠ الصلة مع الجماعة المتكيفة تكاد تكون مفقودة بينما تتدعم الروابط مع الجماعات الجانحة ٠ يشكل هذا النمط مرحلة متقدمة نسبيا من التدرج على طريق الانحراف

كما أظهرت لنا دراساتنا الاجتماعية ·

على أن الجانحين المعتادين يتوزعون اجمالا الى عدة فئات أبرزهـــا اثنتان : الجانحون المكررون والجانحون المحترفون · والمحترف هو طبعـــا مكرر انما المكرر ليس بالضرورة محترفا ، فقد يتخذ من الانحراف أسلوبا في العيش ولكنه لا يتخصص ولا يبرع في ذلك · وتشكل هذه الفئة النسبة العظمى من الجانحين الفاشلين نزلاء المؤسسات الاصلاحية والسجون · أما المحترفون فهم أولئك الذين يبرعون في الانحراف ويتخصصون في احدى فروعه · النموذج الذي وقعنا عليه في دراستنا الاجتماعية منهم هو ذلك الذي يتبوأ مركز رؤساء العصابات والذي يعتبر نهاية التدرج في طريق الانحراف ·

على أن هذا التقسيم وان كان يعكس درجة الخطورة عند الجانح ، لا يذهب بنا بعيدا من الناحية العيادية · ولهذا فسنتخذ في هذا البحث من التصنيـــف السببي منطلقا لنا · ولقد أشرنا في الفقرات السابقة الى الصعوبات التـــي يجابهنا بها على مستوى الواقع وحددنا موقعنا منها · علينا هنا أن نشير بشكل سريع الى الاقسام الاساسية الاجرائية التي يتكون منها ·

سنعالج في قسم أول الانحرافات المرضية · وفي قسم ثان الانحرافـات الاجتماعية وننتهي بفصل خاص عن خصائص الوجود الجانح ·

قد يبدو في هذا التقسيم ميلا الى اعطاء الانحرافات المرضية مكانة لا تتمتع بها في الواقع · الحقيقة ان الامر لا يقوم على الوزن النسبي لكل قسم ، بل ينطلق من الاهمية العيادية لتلك الانحرافات · ان نسبة الجنح التي تعود الى أسباب مرضية واضحة ضئيلة في مجموع الجانحين · ان ما نود تبيانه أساسا هو ذلك الواقع الذي يثبت ان لا علاقة سببية صافية بين الاضطراب النفسي والانحراف·

على كل حال يتفق الاختصاصيون على الاحتفاظ بتسمية الانحراف المرضي لتلك الحالات التي يكون السلوك الجانح فيها عرضا لمأزم نفسي داخلي يكون العلة الاساسية · أو تلك الحالات التي تتقنع فيها المآزم النفسية بجلبات السلوك الجانح ·

وللسلوك الجانح المرضي مميزات عامة نتمكن من خلالها القيام بتشخيص فارقي · وتتعلق هذه بطريقة ارتكاب الفعل ، موضوعه ، الضحية ، ومصـــير نتاج ذلك الفعل · وسيكون لنا عودة الى هذه النقاط في موضع آخر ·

اما القسم الثاني فيتناول بالبحث تلك الفئة الغالبة من جمهور الاحداث الجانحين محاولا القاء الضوء على اهم نماذجها وأسبابها الاجتماعية· وسيتضح لنا هنا أيضا انه اذا كان من الصعب الحديـــث عن علاقة سببية صافية بين الاضطراب النفسي والانحراف فانه من غير الممكن الحديث عن علاقة كهذه بين الاضطراب الاجتماعي والانحراف · ورغم أهمية القوى الاجتماعية فهي لا تتدخل في السلوك الجانح الا من خلال ما تولده من اضطرابات شخصية ومآزم نفسية·

على أن الامر قد يختلف قليلا عن القسم السابق فهناك حالات يكاد يكون التأثير فيها مباشرا كحالات النشأة في بيئة جانحة والتماهي بمعاييرها ·

في الفصل الاخير سنحاول أن نلقي بعض الاضواء على خصائص الوجود الجانح كتجربة حياتية لها موقفها من المجتمع والعلاقات والقيم والنظرة الى الوجود ·

وسنرى ان للجانح اواليات دفاعية خاصة به تختلف عن تلك المألوفة عند العصابيين · ثم نختتم هذا الفصل بالبحث في مسألة على غاية من التعقيد لا زالت موضع جدل العلماء من حيث تحديدها ، وهي مسألة الخطورة ومحكاتها مما له أهمية بالغة في تخطيط برامج التربية والتأهيل ·

القسم الاول

الانحراف المرضي

الفصل السابع

الاضطرابات الدماغية والانحراف

لا تشكل الاضطرابات الدماغية سوى نسبة محدودة من الانحرافات المرضية ، وذلك على عكس الاعتقاد الذي شاع في القرن الماضي حيث كانت تعطى الوزن الاساسي في دراسة الامراض النفسية والمشكلات السلوكية • ورغم اننا أمام حالات تعتبر الاصابة الدماغية فيها عاملا هاما في خلق وضعية وجودية تتضمن بما تتعرض له من تعقيدات تالية خطر الانحراف ، الا أن عدد الجانحين بين هؤلاء المصابين يظل محدودا اجمالا • ولذلك فنحن نتحدث عنها لسببين أساسيين : الاول يتعلق بدراسة الخصائص النوعية للوجود الجانح الذي يترتب عليها ، أما الثاني فلكي نقطع السبيل على ذلك الميل التبسيطي في فهم ظواهر السلوك الجانح الذي ينتهي الى أحكام واستنتاجات متسرعة انطلاقا من بعض الاعراض الدماغية العضوية • ان في ذلك الميل بعض الهروب من مجابهة العوامل الفاعلة التي تظل متسترة وراء قناع المرض العضوي • وقد نصل الى هدف آخر من هذه الدراسة وهو تبيان التداخل والتفاعل بين العضوي والنفساني والعلائقي والاجتماعي •

الاضطرابات الدماغية ذات الصلة بالانحراف متعددة ومتفاوتة في مقدار تدخلها • لن نتكلم هنا الا عن فئتين أساسيتين منها الضعف العقلي (١)

---

(١) الضعف العقلي : debilité mentale

والاصابات العضوية الدماغية ٠

اولا : الضعف العقلي والانحراف

تضع دراسة هذا الموضوع الباحث أمام مسالتين هامتين قام حولهما جدل كبير ، وتفاوت في وجهات النظر مما أدى الى حالة من التشويش ليس الخروج منها دائما سهل المنال ٠ الاولى تختص بتحديد الضعف العقلي وأسبابه والثانية تتعلق بالصلة بينه وبين الانحراف ٠

١ ـ تحديد الضعف العقلي :

لم يكن هناك لغاية القرن الثامن عشر تمييز واضح بين الضعف العقلي وبين بقية الاضطرابات الشخصية والسلوكية ٠ كان ضعاف العقول يحشرون مع الذهانين والمتشردين والجانحين واللقطاء والمدمنين والعاطلين عن العمل ٠ وكان نصيب الجميع النبذ الاجتماعي ٠

أول من فرق بين ضعـــاف العقـــول وغيرهم هو الطبيب الفرنسي أسكيرول في القرن التاسع عشر حين وضع مؤلفا من ثلاثة أجزاء خصص أحدها لهم ٠ وقام بتصنيفهم من الناحية الكمية مطلقا على كل فئة منهم تسمية لا زالـــت مستخدمة الى الآن ٠

وفي أوائل هذا القرن توسع مفهوم الضـعف العقلي وتمايز تدريجيا ٠ وأصبح العلماء يفرقون بين الضعف العقلي والاصابات العضوية الدماغية (١) والحالات البيئية(٢) والتخلف الزائف(٣) وحـالات الذهان المبكر(٤) والعاهات الحركية الدماغية(٥) ٠ وكلها قد تؤدي الى نفس المظهر أو الى مظهر متشابه في كثير من الوجوه خصوصا على مستوى الاداء العقلي ٠ فما كان يعتبر ضعفـا عقليا لم يعد كذلك بالضرورة ٠ التخلف العقلي قد يكون العلة الاساسية وقد يكون مظهرا لعلة مختلفة ٠

ولكن الغموض لا زال يحيط بالموضـــوع نظرا لتعدد وتضارب المحطات المستخدمة في تعريفه ٠

---

(١) الاصابات العضوية الدماغية : Attenites organiques cérézales

(٢) الحالات البيئية : cas limites ou liminaires

(٣) التخلف الزائف : pseudo débilité

(٤) الذهان المبكر : psychose précoce

(٥) العاهات الحركية الدماغية : Infirmités matrices en cérébrales (I.M.C.)

هناك أولا المحك الكمي (١) الذي يستند الى العمر العقلي (بينية) ونسبة الذكاء (شترن) · يستخدم هذا المحك اساسا في تصنيف ضعاف العقول تبعا لشدة الاصابة · ويميز بين العته (٢) (عمر عقلي لا يزيد عن ٣ سنوات ونسبة ذكاء لا تزيد عن ٢٥) والبله (٣) (عمر عقلي لا يزيد عن ٧ سنوات ونسبة ذكاء لا تزيد عن ٥٠) والهوك (٤) (عمر عقلي لا يزيد عن ١١ سنة ونسبة ذكاء لا تزيد عن ٧٠) ثم هناك التخلف العقلي البسيط وتليه الحالات البينية التي تقع بين التخلف والذكاء المتوسط ·

يعطينا هذا المحك اذا معلومات كمية ولكنه لا يبين لنا كيفية ونوعية تنظيم الشخصية المتخلفة · ولقد أدى ذلك الى تأخر دراسة الاواليات الذهنية والنفسية عند ضعاف العقول · ولكن المشكلة الاهم في هذا التصنيف الكمي الوصفي بطبيعته هو استخدامه كتفسير للضعف العقلي ينطلق من أسس وراثية أو احيائية يفترض ضمنا وجود علاقة مباشرة بين مستوى التخلف وشدة الاصابة العضوية ·

هناك ايضا المحك المدرسي الذي يربط مفهوم التخلف بالقدرة على التحصيل · وفي ذلك ولا شك مجال كبير للغموض نتيجة لتعقد عوامل التحصيل وتعددها وتفاعلها ·

ثم هناك محك التكيف الاجتماعي والاستقلال الشخصي · يصبح مفهوم التخلف في هذه الحالة أكثر ابهاما لارتباط التكيف بالنضج النفسي من ناحية، ولعدم امكانية تحديده الا من خلال اطار اجتماعي معين من ناحية ثانية ·

كذلك يجد الدارس نفسه أمام غموض اضافي نتيجة للابحاث الحديثة التي برهنت على صعوبة التمييز الفعلي بين التخلف العادي والتخلف الذهاني

---

(١) المحك الكمي : critère quantitatif

(٢) معتوه : Idiot

(٣) أبله : Imbécile

(٤) أهوك : Moron

والتخلف الناتج عن الاصابات الدماغية، ونتيجة للتمييز المعاصر بين التخلف الاولي والتخلف الثانوي • الاول نابع من عوامل وراثية وجبلية أما الثاني فهو نتاج العوامل البيئية • ويرتبط بهذا الاخير التخلف الزائف الذي ينتج اما عـن قصور المحيط (محيط اجتماعي بائس لا يمد الطفل بالمثيرات الكافية لتنشـيط امكاناته العقلية) أو اضطراب نفساني (مختلف المآزم النفسية التي قد تؤدي الى صد عقلي متفاوت في مداه) او اضطراب في الوظائف الحسية الحركيـة (اضطرابات الحواس التي تحد من امكانية نمو الطاقات العقلية ونمو العمليات العقلية العليا • اضطرابات الجهاز الحركي تؤثر على نظام العلاقـات وعلى ادراك الزمان والمكان والممارسة والتجريب وتؤدي الى قصور مفهومي (١)) • اضطرابات اللغة وتأثيرها المباشر على النمو العقلي والذكاء المجرد •

ويأتي كل هذا التشويش في رأي زازو (٢) zazzo من الخلط الشائع بين محكات(٣) التخلف ومحدداته(٤)، بين مظاهره وأسبابه • ويقول آجر ياغيِّرا انه لا يجوز أن نبالغ في أهمية النواحي العضوية ، كما لا يجوز أن نقلل من أهميتها • ومن النادر أن نجد أنفسنا أمام سببية مباشرة (اصابة عضوية ــ سلوك متخلف) ، بل نحن دائما بصدد سببية غير مباشرة • ولهذا من الضروري أخذ مختلف أوجه المشكلة بعين الاعتبار • فتفاعلها ونوعيته هو الذي يؤثر في النهاية على مستوى استخدام الامكانات المتوفرة • فقط دراسة هذا التفاعل بين مظاهر وأبعاد الاصابة العضوية مع العوامل الاسرية والعاطفية ومع المحيط الاجتماعي، هو الذي يعطي طابعه المميز لكل متخلف عقلي •

ب ــ الضعف العقلي والانحراف :

الجدل حول الصلة بينهما قديم العهد نسبيا • وهو لم يحسم بعد بصورة قاطعة • هناك نظرتان أساسيتان : الاولى تربط بينهما برابطة السببية المباشرة ، أما الثانية فترفض علاقة كهذه وتضع المسألة في اطار أشمل •

النظرة الاولى قديمة نسبيا وتجد لها سندا قويا من الواقع في وضعيـة

---

(١) قصور مفهومي : déficience conceptuelle

(٢) زازو ذكره Ajuriaguerra

(٣) محكات (محك) : Critère

(٤) محددات (محدد) déterminants

الجانحين نزلاء مؤسسات الاصلاح أو السجون • فغالبية هؤلاء يقعون في فئة الذكاء المتوسط وما دون المتوسط والضعف العقلي البسيط • معظم روائز الذكاء التي طبقت عليهم اثبتت ضعف مستواهم • يضاف الى ذلك برهان آخر وهو التخلف المدرسي لديهم والصعوبات الجمة التي يلقونها في متابعة برامج الدراسة البسيطة • ويظهر قصورهم بوضوح حين ناتي الى المواد النظرية التي تحتاج الى بعض التجريد والتفكير الشكلي •

اما من الناحية الشخصية فان الامر يكون أوضح وأفصح ، حيث يتصف الجانحون اجمالا بالنزوية والعيش في اللحظة الراهنة وتشتت الانتباه وعدم التبصر بعواقب الامور وقلة الاستفادة من التجربة والقابلية للايحاء وسهولة الانقياد في المشاريع الجانحة وانخفاض القدرة على الضبط الذاتي ، كلها امور تميز تقليديا ضعاف العقول • ومن المنطقي ان يكثر ضعاف العقول بين الجانحين• فهم من ناحية عاجزون عن الضبط النزوي وعن الاشباع البديل او التأجيل لحاجاتهم• وهم من ناحية اخرى يعجزون عن مجابهة الظروف الصعبة والتحديات الحياتية فيلجأون الى الحلول السهلة والاشباع المباشر عن طريق الانحراف • وهم من ناحية ثالثة معرضون كثيرا للوقوع ضحايا التغرير بهم من قبل كبار الجانحين واستغلالهم كأدوات تنفيذية لنشاطهم غير المشروع (تسول ، أعمال هامشية ، جنح الخ •••) • ويظلون هكذا أدوات تنفيذ في حالة من الانقياد والتبعية لحين القبض عليهم •

لوجهة النظر هذه اذا العديد من البراهين التي تعززها • ولكن هذا الفهم لا يستقيم الا على مستوى سطحي من البحث السببى الضيق • نظرة متعمقة للامور تثبت بطلان او على الاقل محدودية صدق ذلك المنطلق •

اما من ناحية كثرة عدد المتخلفين عقليا ورديئى الذكاء بين نزلاء المؤسسات والسجون فالرد عليه بسيط • قلة حيلة هؤلاء تجعلهم لا يتخذون احتياطات كافية وبالتالي يقعون في أيدي العدالة بسرعة • كثرة العدد قد تعكس سهولة الملاحقة اكثر مما تعكس علاقة سببية بين الانحراف والتخلف • الجانح الذكي يفلت اجمالا من الملاحقة لما يتميز به من سعة حيلة وتخطيط • ولقد رأينا فى بداية هذا الفصل كيف ان الجانحين المكررين يملأون السجون نظرا لفشلهم أما الاذكياء فهم الذين يصلون الى الاحتراف من خلال التخصص في أحد ميادين النشاطات غير المشروعة •

روائز الذكاء التي استخدمت في التدليل على ضعف مستوى الجانحين تضع الباحث امام مشكلة القياس اكثر مما تبين علاقة الانحراف بالتخلف ٠ معظم هذه الروائز سواء كانت لفظية أم غير لفظية صممت انطلاقا من المعطيات الحياتية لفئة سكانية ذات مستوى اقتصادي وثقافي جيد ، وقننت على عينيات من أبناء تلك الفئة ٠ وهي غير ملائمة عموما لقياس ذكاء الجانحين الذين لم تتسن لهم فرص تنمية امكاناتهم العقلية المجردة نتيجة لنشأتهم في محيط بائس (التخلف الزائف) خال من المثيرات العقلية والعاطفية ولعدم انتظام دراستهم٠ حالهم في ذلك كحال أبناء الطبقـــات الشـعبية والمعدمة التي يأتون منها ٠ في الحالتين تتوجه الامكانات العقلية ، اذا أتيحت لها فرصة النمو ، نحو النشاطات العملية والمحسوسة التي تتعلق بتدبير الاحوال الحياتية وتتوجه نحو الميدان الحسي الحركي بشكل رئيسي ٠

نفس الامر ينطبق على الفشل المدرسي اذ ان محتويات البرامج المدرسية لا تمت بصلة وثيقة الى تجربتهم الحياتية ٠ كما انها تتطلب للنجاح فيها نفس القدرات العقلية الشكلية والمجردة التي تتطلبها روائز الذكاء ٠ يضاف الى ذلك عدم ألفة هؤلاء بعالم الدراسة والوتيرة الحياتية التي يتطلبها ٠ فمعظمهم عاش بدون انضباط أو تنظيم حياتي ، يتبع هوى اللحظة الراهنة والرغبة الطارئة ٠ ثم هناك قصور في نمو التفكير المجرد عموما عند الجانحين نتيجة لما يعانون من اضطراب عاطفي (خصوصا حرمان عاطفي ، نبذ ، أو تدليل مفرط) ٠ لا تصل حياتهم النفسية في نضجها الى المستوى الرمزي الوثيق الصلة بالتفكـير المجرد والشكلي ٠ الجانح متخلف دراسيا وعقليـــا على مستوى الدراسات والمهمات النظرية ولكنه مخطط بارع للاعمال الجانحة ومناور حذق في التعامل مع الآخرين والتحايل على الانظمة ٠ ذلك ما يعرفه جيدا المشتغلون في هــــذا الميـــدان ٠

أما الحياة العاطفية والنزوية فتتشابه في العديد من أوجهها عند الجانحين والمتخلفين ٠ ولا يعني هذا التشابه تطابق بينهما بالضرورة ٠ القصور في الحالة الثانية يختلف في أسبابه ودينامياته عن الحالة الاولى ٠ نحن هنا كما يقول ردل امام خلل في نمو جهاز الضبط النفسي ٠ أما عند المتخلفين فالامر يرتبط بقصور في امكان ذلك النمو أصلا ٠ وسنبين هذا الامر بوضوح في موضع آخر من هذا البحث ٠

هناك اذا خلاف حول تحديد الضعف العقلي من ناحية وحول علاقتـــه

بالانحراف من ناحية ثانية · ولكن هل يعني ذلك صرف النظر عن هذه المسألة ، أم انها تحتاج الى طرح مختلف ؟ نحن نميل الى الرأي الثاني · ليس الانحراف وليد التخلف بشكل مباشر· بل هو عندما يحدث في هذه الفئة من السكان يكون وليد تفاعل محددات التخلف على تنوعها وتعقدها في علاقتها الجدلية بالوضعية الاجتماعية والوجودية الصعبة التي يعيشها المتخلف والتي غالبا ما تتجاوز امكاناته في المجابهة الفعالة ·

ولكي نبين ذلك سنقتصر في حديثنا على التخلف البسيط الذي يكون المشكلة الفعلية في هذا المضمار · أما التأخر العقلي الشديد فيخرج من اطار بحثنا نظرا لما يتضمنه أصلا من عجز حياتي عام وحاجة للرعاية والحماية الدائمين مما يجعل مشكلة الانحراف على هذا المستوى أمرا طبيا تربويا أكثر منه نفسانيا اجتماعيا ·

ج ـ التخلف البسيط والانحراف ـ

أكثر ضعاف العقول عرضة للانحراف هم فئة التخلف البسيط · فهؤلاء يتمتعون بقدر من النمو الشخصي والامكانيات الذهنية والنفسية التي تسمح لهم باستقلال نسبي · وبالتالي فهم ينخرطون في الحياة العامة بشكل متواضع ، يتعرضون لمغرياتها ويجابهون تحدياتها · الا ان امكاناتهم لا تسمح لهم بالذهاب بعيدا في هذا المجال · ولذلك فهم في حالة خطر الوقوع في وضعيات تتجاوز قدرتهم على السلوك المتكيف فينحرفون · كما انهم من ناحية ثانية يتمتعون ببعض الوعي الذاتي وبقدرة متوسطة على التواصل · الا أنهم سرعان ما يعجزون عن مجاراة الآخرين في علاقاتهم ويقعون بالتالي ضحايا سخرية هؤلاء ، كما قد يقعون ضحايا نبذ صريح من المحيط · وقد يستجيبون لذلك بالعدوان وسوء التكيف مما يدعم نبذ المحيط لهم · على كل حال ، ورغم قصور امكانياتهم ، يتمتعون ببعض القدرات على التكيف والانسجام مع المجتمع اذا أتيحت لهم الظروف المواتية · انحرافهم هو في النهاية رهن بموقف المحيط من قصورهم وما يخلقه هذا الموقف ، اذ اكان سلبيا ، من تحديات اضافية تلقي بهم في هوة التشرد والانحراف ·

وقد يكون من المستحسن تفصيل كل ذلك من خلال استعراض خصائصهم العامة · وهكذا نتحدث تباعا عن الحالة الذهنية ، الحالة العاطفية والحالة الاجتماعية ·

١ ـ الوضع الذهني :

من التقليدي القول أن المتخلف عقليا يتميز بضعف الحكم ، صعوبة التجريد، ضعف التمييز ٠ فهو لا يستطيع أن ينسق بين عدة أشياء متتالية ولا يتمكن من ادراك الارتباطات بينها (تشابه ، تعارض ، تتابع ، تضمن ، تحول ، استثناء) ٠ يفسر ليفين (١) ذلك بعدم تمايز مناطق المجال الادراكي الذي يظل على مستوى العمومية والسطحية كما انه عاجز عن الاحاطة في نظرة واحدة أو فكرة واحدة بمعطيات متنوعة ، وهو ما يسمى بعمليات التوليف (٢) أو التنسيق الذهني ٠ ويسمي ليفين ذلك بظاهرة تفتت المجال الادراكي ، تبقى التفصيلات وحدات منعزلة عما عداها بدون ايجاد رابطة تجمع بينها ٠ ويؤدي به هذا الامر الى الرتابة والجمود الذهني والاستمرارية(٣) ٠ ويتوقف التفكير عند حدود المحسوس ولا يصل مطلقا الى المستوى الرمزي الشكلي والمجرد ٠ والمتخلف يستخدم امكاناته العقلية بشكل آلي ٠ لا يستطيع ان يجدد في الوضعيات المستحدثة ، ولا يستطيع الاستفادة كثيرا من خبراته السابقة في التكيف لتلك الوضعيات ٠ وهو لذلك يعاني من صعوبات تكيفية كلما وجد نفسه ازاء امور أو حالات غير مألوفة لا تجدي فيها أواليات التكيف السابق ٠ ومن أخطر مظاهر القصور الذهني من حيث تأثيره على التكيف ، في رأي ليفين عدم مرونة العمليات الذهنية التي تحد من القدرة على الاستبصار(٤) (التغيير في ادراك العلاقات بين عناصر وضعية ما) ٠ والتفكير المحسوس (٥) (العينية) وتعني أساسا انعدام القدرة على التجريد او اقامة علاقات اختيارية بين الاشياء ٠ مما لا يسمح بالتخيل الابتكارى ويترك ضعيف العقل أسير الواقع ، الامر الذي يجعل وطأته شديدة عليه ، خصوصا اذا وجد نفسه في محيط ساخر أو نابذ أو متجاهل أو متعنت ٠ فتتضخم المشكلة الى حد بعيد بدون أن تكون لديه وسيلة تعويضية تسمح له بمجابهتها بوسائل غير مباشرة أو على مستوى الخيال ٠ وأخيرا من أكبر المعوقات الذهنية أمام تكيف ضعيف العقل، انخفاض القدرة على الابدال(٦)

---

(1) K. Lenvin. A Dynamic theory of personality, New York, MacGraw-Hill 1935.

(٢) التوليف : Synthèse

(٣) الاستمرارية : perseveration

(٤) استبصار : Insight

(٥) تفكير محسوس : pensée concrète

(٦) ابدال : substitution

أو النشاط البديل · وذلك يجعل الاحباط بدون علاج ويجعل النشاطات التعويضية (١) صعبة مما يلقي به في خضم السلوك المادي الجانح كوسيلة وحيدة للخروج من المأزق الحياتي ·

٢ ـ الوضع العاطفي والعلائقي :

جرت العادة على تقسيم المتخلفين الى فئتين من الناحية العاطفية : المتخلف المنسجم (٢) والمتخلف غير المنسجم (٣) · الاول يتميز بدرجة مقبولة من الاستقرار العاطفي والتوازن الشخصي ، فهو كائن لطيف ، انيس المعشر ، انقيادي ، طفلي ، يتعلق بالاخرين ويعتمد عليهم ، يقبل التوجيه ويحاول ارضاء من حوله والحصول على استحسانهم · كل ذلك يمكنه من الانغراس الاجتماعي المتواضع بيسر ، ومن استخدام طاقاته العقلية في نشاطات مفيدة ومتكيفة ·

اما الثاني فيعاني بالاضافة الى القصور العقلي من اضطرابات مزاجية ونزوية وحركية ، تجعله عديم الاستقرار ، عدوانيا ، سلبيا ، صعب المراس ، معاندا · هذه الحالة تضخم كثيرا من قصوره العقلي وتجعل أمر تربيته مسألة عسيرة مما قد ينفر المحيط منه ويؤدي الى نبذه · وذلك بدوره يدعم اتجاهاته العدوانية السلبية فيزداد ميله الى العنف والهياج والتحطيم والعناد ·

ولكن هذا التقسيم لا يعكس واقعا ذاتيا بقدر ما هو نتاج طبيعة العلاقات مع الاسرة ومع المحيط · فالاول طفل توفرت له الاجواء العلائقية والعاطفية الملائمة فنشأ مستقرا متوازنا · أما الثاني فقد عانى من محيط نابذ أو مهمل ومن علاقات صراعية لم تتح له فرصة لاقامة روابط حميمة وايجابية مع الاخرين · وهذا الحرمان يضعه امام تحديات يعجز حتى الطفل العادي عن مجابهتها بفعالية ·

وعلى ذلك قد نجد انفسنا امام طفل متخلف الى درجة بسيطة ولكنه من النوع غير المنسجم وأخر اكثر تخلفا ولكنه من النوع المنسجم · يظل القصور الاكبر في الحالة الثانية أقل خطرا من الناحية التكيفية عن القصور الاخف في الحالة الاولى · وقد تتدخل عوامل اضافية في هذه الحالة او تلك فتزيد من

---

(١) تعويض : Compensation

(٢) متخلف منسجم : Debile harmonique

(٣) متخلف غير منسجم Debile disharmonique

حدة المشكلة او تخفف منها · العنصر الحاسم من الناحية التكيفية التي تهمنا هو تلك المعادلة الناتجة عن تفاعل مختلف العوامل ·

على ان الفئتين تعانيان من بعض اوجـــه القصور في النضج الشخصي مثل القابلية للايحاء وتقلب المزاج والطفلية البـــارزة واضطراب الديمومة ، خصوصا من ناحية العيش في اللحظة الراهنـــة والخضوع لضغوطها بدون الاحتياط للمستقبل وللنتائج التي قد تجرهـــا بعض التصرفات · وذلك يكوّن مشكلة فعلية في وجه التكيف الاجتمـــاعي المرتبط اساسا بالتكيف للديمومة خصوصا في بعدها المستقبل · كذلك هنالك مشكلة قصور الضبط النزوي وعدم القدرة على تأجيل اشباع الحاجـــات والرغبات او اللجـــوء الى الاشباعات التعويضية كما هو حال الاطفال العاديين · ويؤدي هذا الامر الى ضعف الانـــا وقلة سيطرة مبدأ الواقع على السلوك ·

الا ان اوجه القصور هذه تتفاوت في الاخطار التي تتضمنها تبعـــا لنوع ارتباط الطفل بالمحيط · في حالة المتخلف المنسجم يقتصر تأثيرها على انخفاض مستوى التكيف بدون ان يحمل خطر الانحراف الفعلي طالما انه يتمتع بالحماية اللازمة من الوضعيات المأزقية · أما في الحالـــة الثانية فانها ترفع من درجة الخطورة الى حد بعيد وتضخم بقية اوجه القصور لديه ·

٣ ـ **الوضع الاجتماعي** : لموقف المجتمـــع تأثير حاسم على تكيف الطفل المتخلف · في المجتمع الريفي البدائي يقبل المتخلف كعضو في الجماعة ويجد مكانته (وان تكن متواضعة) فيهـــا ، كما يجد له وظيفـــة في دورة النشـــاط الاقتصادي · ويؤدي هذا الامر عـــادة الى مساعدته على الوصول الى توازن نفسي وحياتي مقبول ·

أما في المجتمعات الحضرية المتقدمة فتكون وضعية الطفل المتخلف عسيرة في معظم الاحيان · فمنذ سن مبكرة يجد نفسه امـــام تحديات لا قبل له بها · وسرعان ما يظهر عجزه عن مجابهتها او عن مجاراة الاتراب في الدرس واللعب والتنافس · يلقي به ذلك في وضعية الدونية مما يجعله يلجأ الى الانطواء على ذاته او الاحتماء وراء المعارضة السلبية · وباختصار تتحول تصرفاته الـــى قائمة من ردود الفعل الدفاعية والهجومية لموقف المحيط منه الذي يتصف عادة بتجاذب وجداني ما بين العطف الفعلي او الزائف وبين النبذ الصريح والسخرية والاهمال ، ما بين نوبات من الكرم والاهتمام المفـــرط وبين حالات متفاوتة في

صراحتها من الرغبة في ابعاده والتخلص منـــه · فاذا تلاقت تلك الاتجاهات السلبية مع مثيلات لها في الجو الاسري أدت حتما الى تضخيم مشكلة المتخلف ودفعت به الى الافراط في ردود الفعل العدوانية او المتبلدة او الانسحابية او النكوصية · وفي جميع الحالات يصبح امر تكيفه اعسر منالا · وتبلغ المشكلة حدا عاليا من الخطورة عندما تكون الاسرة مفككـــة او مضطربة وتعيش نتيجة لذلك في محيط اجتماعي ركيك او متدهور ·

بالاضافة الى ما سبق يشيع بين المنحرفين المتخلفين المنسجمين ، كمـــا يظهر من الممارسة العيادية ، ان يبدأ الواحد من هؤلاء حياته ويمضي الشطر الاعظم من طفولته متكيفا بشكل حسن ، طالما هو في كنف أسرة ترعاه وتحدب عليه وتقبله ضمنها · ولكن يحدث ان تزول هذه الحماية نتيجة لتفكك الاسرة او انهيارها بالوفاة · يجد المتخلف نفسه فجأة وحيدا وبلا سند ، يعجز عن مجابهة التحديات الجديدة وتفشل اوالياته الدفاعيـــة في الاستجابة للوضعية الناشئة فينهار · يبدأ بالتشرد البائس الذي يعاش تحت شعار العجز ، وسرعان ما يقع ضحية جانحين محترفين يستغلونه لقاء حمايتـــه وتأمين حاجاته فينخرط في الانحراف بدون ميل حقيقي لذلك · فاذا لم يجـــد اسعافا سريعا قد يترسخ فيه كليا ، اما اذا وجد الحماية اللازمة فانه يعود الى التكيـــف من جديد · مصير الواحد من هؤلاء رهن اذا بالظروف الاجتماعية المحيطة به ·

نرى من كل ذلك ان التخلف ليس بالظاهرة البسيطة وان علاقته بالانحراف ليست سببية مباشرة · كما نرى ان هناك العديد من القوى النفسية والاسرية التي تتفاعل مـــع القصور العضوي الاساسي فتضخم او تخفض من آثاره · ونرى اخيرا ان الامر في جميع الحـــالات رهن بنوعية الاطار الاجتماعي الذي يعيش فيه المتخلف وموقفه وسنعرض فيما يلي حالتين لجانحين متخلفين تدللان على ما توصلنا اليه من استنتاجات ·

الحالة الاولى

عصام عمره ١٧ عاما · هو الولد الثاني في أسرة عديدة مكونة من أربعة صبيـــان وخمس بنات · الاخ الاكبر متشرد وجانح وخـــارج على سلطة الوالدين · متهم بسرقة موصوفة مع شلة من اصدقاء الحي المنحرفين ·

أصل الوالدين من الريف ولقد تزوجا منذ سن مبكرة جدا (اوائل المراهقة) ورزحا

تحت اعباء الحياة الاسرية وتربية الابناء · استقرت الاسرة في المناطق الهامشية من بيروت التي تضم العديد من سكان الريف الذين يأتون طلبا للرزق · الوالدان متفاهمان اجمالا · الاب يعمل بائعا متجولا اما الام فتعمل خادمة · الحالة المادية تكاد تكون معدمة·

الاب ضعيف الشخصية ، خجول ، تسيطر عليه زوجته ، كما انه يبدو متعبا من حمل اعباء الاسرة الكبيرة · ليس للوالدين سلطة على اولادهما · مما أدى بالابن البكر الى التشرد والانحراف وتبعه عصام كما ان الاب يبدو وكأنه قد تخلى عن مسؤولياته التربوية للمسؤولين عن رعاية الاحداث · وهو لا يسأل كثيرا عن ابنه ولا يأتي لزيارته · اما الام فتظهر بعض الضعف في عواطفها نحو ابنها ·

الوضع العائلي اذا ركيك وعاجز عن تأمين السلطة والحماية والحنان اللازم للابناء · ليس فيه أي من المقومات التي تمدهم بالقوة وتشدهم الى الحياة المتكيفة ·

عاش عصام طوال حياته مع ذويه · وتردد على عدة مدارس في صغره لعدة سنوات · كان لا يرغب العلم · وكثيرا ما كان يهرب من المدرسة ليلعب في الحي قريبا من المنزل · ثم ترك المدرسة نهائيا وهو أمي يتمكن فقط من قراءة اسمه · ولم يتعاطى خلال تلك المدة أية مهنة · بل كان يقضي وقته متسكعا في الحي وفي محلات اللهو (بليار ، فليبرز) الى ساعة متأخرة من الليل · ثم يعود ليجد جميع افراد الاسرة نياما · ويبدو ان الوالدين سرعان ما تخليا عن دورهما في تربية القاصر وتركاه يعيش تبعا لاهوائه ·

خلال هذه المدة تعرف على شلة من الاحداث الجانحين في الحي وانتمى اليها في حالة من الانقياد الكلي · وشارك في مغامراتهم الجانحة حتى قبض عليهم جميعا ما عداه هو · وهنا ذهب الى المخفر بحثا عنهم واعترف للدرك انه شريك لهم مما أدى الى احتجازه · ولقد صرح فيما بعد انه اقدم على ذلك رغبة منه في البقاء معهم · ويدلنا هذا الامر على مدى عجزه وضياعه وانقياده وعلى مدى انعدام تقديره للواقع ·

في تقرير للاختصاصي النفساني نقرأ ما يلي :

حدث مهمل الهندام والمظهر ، يفتقر الى الترتيب · حديثه متقطع ومتراخ ، انتباهه مشتت · ينتقل من موضوع الى آخر بدون تركيز او خطة واضحة · يشكو اجمالا من وضعه البائس : غياب الاهل وانقطاعهم عن زيارته منذ شهور عديدة · سخرية رفاقه منه وتحرشهم به · شعوره بالعجز عن التصدي لهم ووضع حد لتصرفاتهم ·

يحترم اساتذته كثيرا ويخضع للسلطة بشكل استسلامي · يشكو كثيرا من صعوبة

الدراسة وانعدام قدرته على الاستيعاب·ليس لديه شعور بامكانية التقدم في هذا المضمار· ولا يخلق له هذا العجز اية مأزم · فهو يقر به ويرضاه · يفضل العمل اليدوي · ولكنه يرضخ اجمالا لما يطلب منه عن عدم رضى ·

لا ينتظر منه نتائج مدرسية تذكر ويستحسن توجيهه الى عمل مهني يخلو من المبادرة ويتصف بالرتابة ويقتصر على المهمات التنفيذية البسيطة · وهو يرتاح الى جو من هذا القبيل اذا وجد استحسانا من قبل رؤسائه ·

هناك تخلف عقلي واضح في حالته ، يصاحبه ضعف وفقر في الشخصية التي تتخذ طابعا استسلاميا · لا يلاحظ لديه بعد أي مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي · وهو يقف ممن هم اعلى مرتبة وأقوى شأنا موقف الطفل الاتكالي ·

انقيادي راضخ يستسلم لجماعة الرفاق وينقاد لها · وهو بالتالي معرض للانقياد الى مشاريع جانحة يزينها له الرفاق بدون ان تكون لديه النيـــة الجانحة بالضرورة · ولذلك فهو بحاجة الى حماية من الوضعيات التي تغري بالانحراف ·

يعاني من قلق دفين يظهر من خلال المخاوف الليلية (يخشى في هواماته (١) واحلامه كائنا خطرا سينقض عليه لخنقه او قتله) ·

نتائجه على الروائز تعكس واقعه بوضوح · فلقد عجز تماما على رائز رسم الرجـــل ولم يستطع القيام الا برسم بدائي لا يتجاوز مستواه اربع سنوات ونصف عمرا عقليا · ويتصف رسمه بالانحسار مما يعكس مشاعر الدونية بالنسبة للمحيط ·

اما على رائز المكعبات فلم تكن نتائجه احسن حالا حيث لم يتمكن سوى من حـــل التمارين الثلاثة الاولى مع شيء من المساعدة ·

ولكن أهم من هذه النتيجة الكمية التي لا يمكن الوثوق بها نظرا لعدم تقنين الرائز على البيئة المحلية من ناحية ولعدم ملاءمته اصلا لامثال هذه الحالات من ناحية ثانية (اذ انه رائز تفكير مجرد يتطلب النجاح فيه تدخل العمليات العقلية العليا والشكلية) الملاحظة العيادية اثناء الفحص التي تعطينا معلومات قيمة عن طريقة ادائه الذهني من ناحية وعن موقفه من هذه المهمة الصعبة من ناحية ثانية ·

....

(١) هوام : fantasme

يتمكن من بناء مربع من اربعة مكعبات باستخدام سطوح ذات لون واحـــد في كل مكعب • ولكنه يعجز كليا عن تجميع المكعبات في رسم باستخدام السطوح ذات اللونين • ويتصرف ازاء ذلك بالعودة الى السطوح ذات اللون الواحـــد مما يضطره الىالتجميع العشوائي لعدد من المكعبات يزيد عن المطلوب • كما انه يعكس العلاقة المكانية بين الالوان فيضع الابيض محل الاحمر وبالعكس • يعمل بطريقة عشوائية وباتباع اسلوب المحاولة والخطأ بدون ان تكون لديه خطة او تصور ذهني عمـــا يجب عمله او الوصول اليه • لا يحاول تصحيح الخطأ مع انه يراه • ولا يثق فيما يعمل • ويسأل عن خطأ او صواب ما عمل • يستسلم بسرعة امام الصعوبة ويبدي مشاعر العجز الصريح •

اجاباته على رائز تبصر المتون(١) (T.A.T.) تدعم ما سبق • فهو عاجز كليا عن رواية مترابطة على اللوحات التي قدمت له ، ولا يستطيع تجاوز الانطباعات العامة بعـد تشجيع والحاح من قبل الفاحص • مثلا على اللوحة رقم ٢ قال « هودي قاعدين بصحراء ، يشتغلون وياكلون وقاعدين ••• » • وهو يسقط على اللوحة رقم ٣ معاناته الوجوديـــة ومشاعر البؤس والعجز أمام الحياة • « ••• بنت اما رجل هذه ؟ • قاعدة تبكي (بعـــد السؤال) زعلانة من الحياة وهيك (ماذا حدث معها ؟) ميته من الجوع (بعد الســـؤال عن السبب) تاركة أهلها وشاردة » يجد صعوبة كبيرة في التعبير عن انطباعاته (أحـــد خصائص ضعاف العقول) فاقد للثقة بنفسه ، يتماهى بالفتاة البائسة ويبدي الحزن •

وتتكرر اجاباته على اللوحات تعكس انعدام القدرة على اعطاء نص متماسك ذي متن منطقي • كما تعكس عجزه ازاء الوضعيات وانعدام قدرة أبطاله على التأثير في المحيط وفي الآخرين • كما يلاحظ في الانطباعات التي يقدمها انعكاس الحياة المادية المعدمة التي يحياها، حيث تدور أفكاره حول موضوعات الجوع والطعام وغيرها •

الا أنه يسقط مخاوفه التي أشار اليها التقرير النفساني على اللوحة الثامنة للرجـال والصبيان : « هذا بيعمل له عملية • حاطط البندقية قدامه • هيدا أخوه قاعد عم يبكي – هذا يتفرج شو صاير معه (بعد السؤال) يمكن اطلق النار على واحد وجاء اخو هيـداك فأطلق عليه النار بدوره بالاخر بيموت • بيصيروا يبكوا عليه • بيتخلصوا منه » يظهـر الوصف والتعداد بوضوح على هذا المتن ، كما تبدو دوافع العدوان الدفينة لديه والانتقـام المرتبط بمشاعر الذنب على تلك الدوافع من خلال لقاء نفس المصير • قد يكون في ذلـــك أشكالا أوديبيا تجاه الاب • ومما يدعم هذا الافتراض ، رضوخه للسلطة وميله الانقيادي

---

(١) رائز تبصر المتون (أو تفهم الموضوع) : Thematic aperception test

المفرط للآخرين ففي ذلك نفي للرغبة العدوانية تجاه الاب · أو ليس في استسلامه للمخفر ميلا لا واعيا لعقاب الذات من خلال التساوي بالرفاق واقتسام القصاص معهم ؟ أوليس في القصة الثانية التي أوردناها اسقاط للعلاقة العدوانية الصراعية مع الاهل (تاركة اهلها وشاردة) وعقاب للذات على ذلك (ميتة من الجوع) وحسرة على فقدان الأم · وخصاء من خلال التماهي بفتاة ؟ هناك متون لم نعرضها وفي تعبر عن الام النابذة التي ترفض الاهتمام بابنها وبرغباته (ما هي هذه الرغبات ؟) وتفضل الاهتمام بآخرين من خلال نظرتها من الشباك · وتنتهي القصة بالاتفاق ، بالجلوس معا والاكل والتفكير بما سيحدث معهم · قد يكون في ذلك رمزيا اشارة الى تعلق آثم بالام ·

العلاقات في اجاباته على رائز تبصر المتون تتم دائما في جو من الابتعاد عن البيت، أو الغاء مفهوم البيت أو الغاء مفهوم العلاقة الاسرية · يبقى الابطال مجرد أشخاص لا هوية لهم ولا رابطة أسرية بينهم · وقد يكون في ذلك كله تهرب من الوضعية الاوديبية في الاسرة · خصوصا وان الاب يقدم صورة عاجزة لا تجسد مفهـــوم الاب ـ القانون الذي يضع حدا للرغبات اللاواعية · وقد يكون تشرد هذا القاصر محاولة هروبية من هـــذه الرغبات الآثمة بالابتعاد عن الام ، واسقاط صورة أب ذي سلطة ينصاع لها على المسؤولين عنـــه ·

تعليـــق :

ليس من اليسير ايجاد رابطة مباشرة وصافية بين التخلف والانحراف في هذه الحالة · وأكثر من ذلك يمكننا ان نتساءل الى أي حد تضخم التخلف في مظاهرة (ضعف الشخصية والانقياد) نتيجة للمآزم النفسية اللاواعية؟ أو لم تتدخل هذه المآزم في نفس الوقت في تشرده وانحرافه ؟ ثم ان الوضعية الاسرية والاجتماعية التي عاشها قد ضخمت تخلفه بدورها (اهمال الوالدين وضعفهم، تخليهم عن مسؤولياتهم ، رزوحهم تحت وطأة أعباء اعالة اسرة كبيرة العدد · نقصان المدد الثقافي الذي ينشط نمو القدرات العقلية الخ ···) · هذه الوضعية قد ساهمت ولا شك في دفع القاصر الى التشرد والانحراف · نحن هنا اذا امام تداخل وتفاعل لقوى متعددة يدعّم بعضها بعضا · وهي المسؤولة في نهاية الامر عن تشرده وهامشيته وانحرافه · القصور العقلي يضخم المآزم النفسية وهـذه بدورها تزيد من شدته من خلال عمليات الصد التي تصيب النشاط الذهني من جرائها · وكلا الامرين يتفاعلان مع محيط كفيل بدوره أن يخلق حالة من التخلف الزائف كما بينا في المقدمة النظرية ، وهو بالتأكيد يضخم آثارهما السلبية على نمو شخصية الحدث كما يتأثر بهما مما يجعل وطأته اكبر والتحديات الحياتية

التي يفرضها أشد • وتتعقد الصورة جدليا لدرجة يصعب معها علينا ان نبين سببا ونتيجة في تحديد هذه القوى الثلاث •

وبالتالي يتعذر ايجاد رابطة وحيدة الجانب بين احداها والانحراف الذي نحن بصدد مناقشته •

الا أن هذه الصورة المعقدة تظهر لنا امكانية اصلاح هذا الحدث اذا توفر له المحيط التربوي الملائم والعلاقات البشرية السوية • امكان التكيف كبير رغم شدة القصور لان الدينامية العامة لشخصيته تسمح به ضمن ذلك المحيط • ولكنه في نفس الوقت معرض للغرق في عالم التشرد والانحراف بشكل بائس اذا لم تتوفر له الظروف الملائمة •

ـ الحالة الثانية ـ

جميل ١٥ سنة الصبي الوحيد بين خمس بنات ، ثلاث أكبر منه سنا من الزواج الثاني للاب • مر بتاريخ طويل من التشرد والانحراف والعنف والعلاقات المترديـة مع الاسـرة •

بعد الزواج الثاني للاب اثر وفاة زوجته الاولى وتركها طفلا صغيرا وراءها تنقلت الاسرة بين عدة مناطق سكنية خارج بيروت ثم في ضواحيها • كانت تنقل سكنها أحيانا نتيجة لسوء تصرفات جميل الذي كان يسيء الى سمعتها •

الاب يعمل في مهنة شاقة تضطره الى التغيب عن المنزل عدة أيام متتالية في الاسبوع• الام عملت خادمة فترة من الزمن ثم انقطعت عن ذلك • الاخوات الاكبر سنا يعملن في مهن مقبولة في القطاع التجاري • منزل الاسرة مرتب ، نظيف ، صحي ، حسن الاثاث • تبدو الاسرة متكيفة ظاهريا لولا تصرفات جميل •

كانت العلاقة الزوجية جيدة في البداية ثم بدأت تصرفات الزوج تتغير تجاه زوجته بعد اعتياده شرب الخمرة • كان يشرب في الخارج أو في البيت ويصب غضبه وعنفه عليها والاولاد خصوصا القاصر الذي بدأ يفلت من سلطته • مرت فترة كان يهمل فيها أسرته ويتركها بدون مدد مالي • أستمر الحال على ذلك سنوات عدة كانت تتخلل فترات العنف حالات من التفاهم والانسجام • أما الام فلقد تحملت بصبر واستسلام وكثير من الاسى هذه الوضعية • ويبدو أن الامور قد مالت الى التحسن والهدوء اخيرا •

عاش جميل مع ذويه طوال حياته • ذهب الى المدرسة الابتدائية في سن الرابعة

ثم غير مدرسته بعد انتقال الاسرة الى مسكن جديد ، وهنا بدأت تظهــر ملامح ســوء التكيف عليه · كان يهرب مرارا دون علم والديه ، واستمر كذلك مدة ثلاث سنوات ، غير المدرسة في نهايتها مرة اخرى · وبدأ يتعرف على أحداث جانحين من ابناء الحي ويرافقهم في تشردهم ومغامراتهم · وأخيرا وضع في مؤسسة رعائية ولكنه لم يتمكن من الاستقرار · وهكذا ترك المدرسة بعد خمس سنوات من الدراسة وهو شبه أمي ، ولم يكن لديه اي ميل الى العلـــم ·

ترك المدرسة نهائيا ليعمل مع والده · ولكنه كان غير محتمل ولم يتفاهم معه مطلقا · كان يهرب باستمرار تاركا اعماله كي ينخرط في النشاطات الجانحة · عمل بشكل متقطع ولم يتمكن من الاستقرار المهني · يقضي وقته متجولا في اسواق بيروت وفي بعض المنـــاطق التجارية مع رفاقه الجانحين ويقوم بما تيسر من السرقات · كان والده يلاحقه كي يستعيده الى المنزل ، حيث بدأ يتغيب عنه لفترات طويلة · وكلما أحس بملاحقة الاب غير مكان اقامته ونشاطه · وهكذا عاش تبعا لاهوائه مفلتا من كل رعاية ورقابة ·

أمضى جميل أربع سنوات من حياته على هذا النسق بعيدا عن أهله · لم يكن يرجـع الى البيت الا نادرا كي يسرق الاموال التي ادخرتها والدته · تصرفاته في البيت سيئة جدا حيث كان يضرب أخواته بشكل همجي · عاش في الفنادق وارتاد المقاهي وأماكن اللهو التي يتجمع فيها الجانحون · كان يقضي وقته في التجول ولعب الورق والسرقة · يشـــتري ملابس جديدة كلما أصبحت ملابسه وسخة جداً ·

في البداية كان الاب يقسو عليه ويحتجزه في البيت مقيدا اياه اياما متتالية · ولقد احتفظ الحدث بذكرى سيئة عن أب بطاش عنيف ، مدمن على الخمرة ·

ويقال انه كان لا يطاق ، لا يعود الى البيت الا مرة واحدة لمدة يومين أو ثلاثة كل عدة أشهر ، حيث يروي لذويه مغامراته باعتزاز كبير · وكان لا يدخل المنزل الا اذا تأكد من غياب والده · كانت الام والاخوات يحاولن اقناعه بالبقاء بينهن ، ويدفعنه الى الاغتسال وتغيير ملابسه ، ولكن بدون جدوى · كان يقرر الخروج وينفذ قراره بدون تردد لا شيء يثنيه عن ذلك ·

من الناحية الاجتماعية المحضة نحن أمام حالة من سوء التكيف نابعة من التدليـــل الزائد الذي عومل به لكونه وحيدا بين خمس بنات · فذلك أبقاه مركزا حول ذاته منقادا لاهوائه · نزواته لم تهذب ولم تمر بالضوابط التي تجعلها تنضوي تحت مبدأ الواقع · الانا من هذه الناحية بقي ضعيفا أمام الحياة النزوية وأسيرا لها · ولقد ضخم من هـذا

الامر عاملان اضافيان : غياب الاب معظم الوقت عن المنزل مما حرم الحدث وجود سلطة أبوية تعوض أو تخفف تراخي الام وتفرض قانونها على حياته النفسية النزوية ، وبطشه وعنفه وسوء علاقته مع زوجته وأولاده عندما يحضر الى البيت • في الحالتين حرم القاصر فرصة التماهي بصورة ذكرية راشدة تحمي وتردع ، تحب وتمنع • ولم يتكون لديه بالتالي أنا أعلى واقعي • سنلاحظ بعد قليل أن أناه الاعلى همجي ووحشي اذ ان صورة الاب مخيفة جدا وتولد الثورة والنقمة من ناحية والهروب والتشرد من ناحية ثانية • ويمكننا أن نتساءل هنا الى أي مدى شجعت الام ولدها على تصرفاته هذه بصورة لا واعية كتعويض عن علاقتها السيئة بزوجها من ناحية وكتعبير عن بؤسها النفسي الناتج عن تلك العلاقة المضطربة باسقاط المشكلة على الابن ، اي الى أي مدى جعلت منه رجلا قويا عنيفا على صورة زوجها الغائب كي يحل محله • ولكنها فقدته وجسدت بذلك مأساتها مع الرجال !!

البيئة الاجتماعية التي عاشت فيها الاسرة من المناطق المشهورة بانتاج الانحراف • ولقد سهلت للحدث الانخراط في ذلك النمط من الحياة بعد أن خلقت الاوضاع الاسرية هذا الاستعداد لديه • على ان الامر لا يتوقف على هذه الابعاد • فنحن امام حالة من التخلف العقلي أدى الى تأزيم وتضخيم الاشكالات السابقة • وجعل القدرة على الضبط والتكيف محدودة جدا •

في تقارير الاختصاصي النفساني والمربين نجد المعطيات التالية :

يعاني من صعوبات واضحة في تركيز الانتباه • لا يقوم بعمليات عقلية منظمة • لديه بعض الامكانات العقلية ولكنها لا تظهر من خلال التفكير المنظم ، بل تتخذ طابعا اعتباطيا• يؤدي ذلك الى فشله أمام مهمات سهلة نسبيا ونجاحه امام أخرى أصعب منها • على أن هذه الامكانات تظل محدودة اجمالا ولا تتجاوز مستوى التفكير المحسوس • لا يستطيع الاستقرار ولا التركيز على أية مهمة اثناء الدرس او العمل • قاصر في امكاناته لا يستطيع مجابهة الوضعيات الحياتية الا بالعنف والهياج • يتأفف كثيرا من صعوبة الدروس• قدرته على الاستيعاب ضعيفة جدا • تقدمه الدراسي والمهني في غاية البطء •

ليس لديه خطة معقولة للمستقبل • لا يتوقع الاستقلال الذاتي • يحس بالحاجة الى البقاء في كنف احد الاقارب كي يعمل معه • يعيش اجمالا في اللحظة الراهنة • يتصرف احيانا بشكل اهوج • يجري مثلا بدون أن يرى من حوله مما يجعله يصطدم ببعض الاشياء او الاشخاص • علاقاته مع رفاقه سيئة اجمالا • يحب الظهور ويميل الى العدوان والتسلط على من هم أصغر منه وأضعف • كثير النزاع معهم لاتفه الاسباب • سمعته بين زملائه سيئة •

يخشى السلطة الفعلية كثيرا · لا يحترم النظام الا اذا كان مراقبا · يخـــــاف القصاص · لا يهدأ الا اذا وجد من حوله جوا منضبطا وسلطة حازمة · ولكنه يشكو من ذلك ويبدي ميولا اضطهادية نحوها · وتشير معظم الدلائل على أنه يسقط عليها اتجاهاته نحو والده · كما انه يثور على كل ما يشبه تصرفات والده ·

طفلي اجمالا ورقيق العواطف عندما يشعر بالمحبة والاهتمام · متذبذب في مشاعره وحالاته المزاجية ما بين العنف الشديد والنقمة وبين الاستكانة الطفلية والرقة · يتألـــم داخليا ولكنه لا يعرف كيف يجد حلا لمشكلاته · كان عدوانه يرتد على ذاته في البدايـــة (يلطم وجهه ، يجرح ساعده ، يضرب رأسه ··) ولكنه توقف عن ذلك بعد ممارسة سلطة شبه أبوية وحازمة عليه · ميال الى اتلاف حاجياته وتبديد ما يعتز به عندما يثور (يتلف هدايا الام مثلا) · بدائي وخام اجمالا · لم تتكون عنده حياة نفسية متمايزة داخليا · عندما لا يستطيع التعبير عن عدوانه ولا يجد الانتباه الكافي ، يشعر بالاهمال ويصـــاب بالانقباض · يميل في هذه الحالة الى الشكوى الجسدية من أوجـــاع مختلفة وهمية في معظمها · كثير الاحتجاج على كل ما يبدو له كاهمال ·

حياته الجنسية نشطة جدا · كثير الاحتلام والاستمناء · تطغى البدائية والفجاجة على ممارساته الجنسية فهو يتحدث عن ذلك بلغة بذيئة لا أثر فيها للياقات الاجتماعية · نزواته تفتقر الى التسامي والى مستوى التعبير الرمزي · يخاف أن يعلم المربون بأمـــر احتلامه وأحلامه الجنسية وأن يعاقبوه عليها مما يشير الى أنا بدائي وأنا أعلى متميـــز بالقسوة · ان نومه مضطرب ، يتحدث بصوت عال وهو نائم ، يرى أحلاما تدور حـــول أخطار العدوان والقتـــل ·

تحسنت علاقاته قليلا مع الاسرة · مشغول البال على صحة الام ، ويتالم اجمالا لـــما تعانيه من بؤس نتيجة عنف الاب · ينقم على والده احيانا ولكنه في لحظات اخرى يقرر العمل معه في المستقبل ·

مستواه العقلي على رائز رسم الرجل ثماني سنوات وثلاثة شهور · ويقع ذكاؤه ضمن نفس الحدود على رائز بندر للانبناء البصري الحركي ·

عملياته العقلية متفاوتة في مستواها · فهو يقترب من المتوسط في تكملة الصور على رائز وكسلر ، ويظل دونه على تذكر الارقام والمسائل الحسابية المتشابهات · ويلاحظ هنا أن أجوبته تظل على مستوى المحسوس (مثلا يتشابه الكلب والاسد بالعض ، والمعطـــف

والثوب في الدفء عوضا عن أن يقول عن الاول حيوانات وعن الثاني ثياب) · ويبدو قصوره العقلي بوضوح على رائز المكعبات ·

أما رائز تبصر المتون فهو يعكس عدة أمور أساسية · من الناحية الشكلية يلاحظ فقر في الاسلوب وتركز حول الذات فيما يروى من قصص وظاهرة الاستمرار التي تلاحظ عند ضعاف العقول · أما من حيث المحتوى فتدور كل القصص حول متن واحد يتكرر على جميع اللوحات وهو مأساة الاسرة وتجاذبه الوجداني تجاه أبيه وما ينتج عن ذلك من محبة وأسف ونوايا انتقام وموت الاب ومشاعر اثم وعقاب الذات عليها ·

وقد يكون من المفيد عرض ما رواه من قصص لتعطي فكرة حية عن معاناته الداخلية والاسرية ·

اللوحة رقم ٢

هذا زوجها لتلك ـ مثل قصة أبي ـ وهو يضربهم · والبنت آخذة كتبها ورايحة على المدرسة · زعلانة ، خيفانة أن يضرب أبوها أمها · الرجل واقف جنب الحصان مش فرقانة معه · (سؤال الفاحص وبعدين ؟) من هيئة البنت زعلانة ما في غير أن يتشكو عليه ·

اللوحة رقم ٣ BM

شو هاي ، كنباي ؟ مش معروف شو هي ·

هيدي حائط ، شارخينه قتلة جاي واقع على الحائط · (ليه ؟) بدو يكون عامل شي، يا ضارب اخواته ، يا عامل شي ما بيسوا بالمدرسة ، شي من ها القصص · قاعد عم بيفكر · بس · خيفان يقوم ما ياكل شي قتلة ثانية ·

اللوحة رقم ٦ BM

هولي زعلانين من بعض ما بيحكوا مع بعض · المرأة زعلانة والزلمي كاشش هيك ، عابس بوجهها · طلبت منه مصاري ـ قال لها ما في · وقفت هيك على الشباك عم بتشوف شو بدها تعمل · قال لها ما معي · ما في (ماذا يحدث لهم بعد ذلك ؟) بيضلوا زعلانين

اللوحة رقم ٧ BM

هولي جد والابن · واقفين زعلانين عم بيشوفوا شو بدهم يعملوا (لماذا !) على البنت والمرأة · الاب يقسو عليهم · الام تطلب مصاري والاب ما بيعطيها · بس · (ماذا يعملان اذا ؟) ما بعرف ··· بدو يكون هيدا الحاكم عم يستشير هيدا · هيك بدو يكون ·

اللوحة رقم ٨ BM

هيدا هون زوجها للمراة · وهيدا ابنه · عم يتطلع لابيه · عم بيشقوا له بطنه وعم يتذكر هيك كيف كان يعمل بأهله · بين بيستاهل بين ما بيستاهل ، بين يقتلوه ، بين ما يقتلوه · زعلان الصبي ، حا يبكي على أبيه عم يذبحوه (من يذبحه ؟) هول العسكرية · لانه اشتكوه (الاهل) بالاول ويرجعوا يسامحوه بعدين مش عم بتوفي معهم · حكمت عليه المحكمة يعملوا فيه هيك · (ولماذا يقول الولد هكذا عن أبيه ؟) لانه كان يشوف الاب يضرب الام ويسب لها وكل شيء · وزعلان على الاب وزعلان على الام · (وبعد ذلك ماذا سيحدث ؟) بيدبحوه ـ تعليق : بتحزن هالقصة ، متل قصتنا نحن ·

اللوحة رقم ١٣ M

هيدا هون وهو ميت · عم بيصلي عليه الخوري · وأهله زعلانين عليه · كيف ، لماذا صار يعمل هيك · وعم يبكوا لماذا رفعوا عليه دعوى · يعني قتلوا قتيل ومشوا في جنازته·

اللوحة رقم ١٣ MF

هون بنت جاءت من المدرسة · وضعت دفاترها على الطاولة ونامت · جاء أخوها الكبير · أخبرته القصة · صار يبكي · واقف هيك عم بيفكر ·

اللوحة رقم ١٧ BM

هيدا الاب ؟

هون قبل ما يقتلوه عم يحكموه بالاشغال الشاقة · بيفكر ليه صار يعمل هيك ·

اللوحة ١٣ B

هيدا صبي هربان من البيت (ليه) بدو يكون أحد معلمه متل ما علموني أنا · وعم بيفكر هيك · كيف بيرجع على البيت · خيفان يأكل قتلة · بس ·

وضوح هذه القصص من حيث الشكل والمتن لا يكاد يحتاج الى تعليق · يلاحظ من حيث الشكل بدائية اللغة وفجاجتها · وتضارب الافكار احيانا · وفقر القدرة التعبيرية · يحتاج الى كثير من الاسئلة كي يعطي نصا متماسكا ذا معنى · كما يلاحظ بدائية التجربة المعاشة داخليا ·

أما من حيث المحتوى فأهم أمر هو التركز حول مأساة الاسرة · الصورة القاسية عن الاب النابذ المهمل · مشاعر الحقد والعدوان عليه · الشعور بانعدام

امكانات الخلاص بالحوار والتفاهم ٠ وخصوصا التجاذب الوجداني ما بين الالم من قسوة الاب والحقد عليه وتمنى موته والحسرة على هذه النتيجة ومشاعر الذنب والندم على كل ذلك ٠ وكذلك الاسف على ماساة الام المظلومة ٠ ويتصف كل أبطاله بهذا التجاذب الوجداني : الاهل ، الابناء ، الاب (الذي يفكر في خطئه على اللوحة رقم ١٧) والحدث ذاته ٠ ويلاحظ بوضوح ان الحدث قد تماهى بصورة الاب الرديئة العنيفة وهو يلقى نفس المصير بشكل مخفف (التذبذب ما بين العدوان على الآخرين والعقاب على ذلك والخوف من عقاب مقبل والندم على ما فعل) ٠

لا شك ان هذا العالم الداخلي المشحون بهوامات وتخيلات العدوان والعقاب والاثم قد ساهم في دفع الحدث الى الانحراف ٠ فهو قد هرب من هذا العالم غير المرحب ، الخالي من الرقة والعطف الذي يميز حياة الاسرة ٠ ان جوا كهذا قد منع ولا شك حل الصراع الاوديبي من خلال التماهيات السوية والمطمئنة وسد السبيل امام ارتقاء الحياة النزوية التي يبدو أنها تحالفت مع الانا الاعلى العنيف ٠ ويفسر لنا ذلك عدوانيته الزائدة التي تتوجه نحو الخارج ونحو الذات على حد سواء ٠ ثم ان عالمه هذا مولّد للقلق كما يتضح لنا من اضطرابات النوم لديه ومن خوف العقاب والموت ٠ وهذا بدوره يدفع به الى المرور الى الفعل العدواني والهروب تخلصا من مواجهة قلقه ٠

يلاحظ من هذه الحالة ايضا ما سبق ان رأيناه في الحالة الاولى من ناحية تعقد ظاهرة الانحراف وعلاقته بالتخلف العقلي ٠

فبالاضافة الى القصور العقلي هناك المشكلة الاسرية : تدليل مفرط ، قسوة وعنف في العلاقات بين الزوجين ٠ وهناك المشكلة البيئية : سكن في محيط مولّد للانحراف يشجع عليه ويدعمه كنموذج لنشاط الاحداث ٠ ثم هناك الاضطرابات النفسية التي بينا بعض معالمها في الفقرات السابقة كل من هذه القوى كفيل بأن يدفع الى الانحراف بمفرده ٠ ولكنها تفاعلت هنا وتدعمت بشكل متبادل ٠ وأدى ذلك الى تضخم المشكلة لشكل خطير ٠

ان القصور العقلي في هذه الحالة أقل عمقا عنه في الحالة الاولى ٠ ولكن صعوبة التكيف اكبر وامكاناته أقل اذا لم توفر للحدث العلاج النفسي الضروري لحل مأزمه النفسية من ناحية والعمل على تحسين العلاقات الاسرية من ناحية ثانية ٠

الضعف العقلي اذا في مستوياته البسيطة قد يحمل خطر الانحراف ولكنه لا يفسره مطلقا · وهو لا يؤدي اليه بشكل صاف وانما دائما من خلال تضخيم تأثيره بتدخل من عوامل بيئية وأسرية ونفسية غير ملائمة · وهو بدوره يضخم التأثيرات الضارة لتلك العوامل حيث يجد الحدث نفسه أمام تحديات وصعوبات ومآزم تتجاوز امكاناته المحدودة في حلها ·

ثانيا ـ الاصابات العضوية الدماغية والانحراف ·

أعطيت هذه الاصابات اهمية كبرى في تفسير السلوك الجانح في بدايات علم النفس الجنائي ، شأنها في ذلك شأن الضعف العقلي · تكاد التفسيرات العلمية الاولى تتركز حول المنطلق العضوي كوسيلة لفهم خصائص الشخصية الجانحة بما تتصف بها من سمات مزاجية ، وطباعية ، وخلقية واجتماعية وبما يصدر عن كل ذلك من سلوك منحرف · وكانت تلك الاضطرابات ترد الى عوامل وراثية أو جبلية في بادىء الامر · واستمر الحال على ذلك زمنا قبل ان تحل المنطلقات الشراجية (١) محل الوراثة · تحول الاهتمام خلال ذلك الى الكلوم التي تصيب الدماغ أو التشويهات التي يمكن أن تلحق به وتؤدي الى تلف متفاوت في درجته في أنسجته مما يؤثر على الوظائف العقلية العليا خصوصا ·

وهكذا نجد ديتيليو مثلا ، وهو من كبار علماء الجريمة الايطاليين يقسم الحياة النفسية الى ثلاثة قطاعات : قطاع العلاقة ، قطاع التكاثر ، والقطاع النباتي · ويربط كل منها بعمل منطقة معينة من الدماغ · قطاع العلاقة يرتبط بعمل المخ في فصوصه الجبهية الذي يعكس آخر ما وصل اليه الانسان من تطور وارتقاء وحضارة · وهو مركز قوى الضبط والارادة والاخلاق والقيم والمثل العليا التي تهذب النزوات وتوجهها في مسارات سلوكية متكيفة مع مقتضيات القيم الاجتماعية والمثل العليا · أما قطاعي التكاثر والحياة البناتية فيختصان بالنزوات العدوانية والدموية والحياة الحيوانية التي تخضع لمبدأ اللذة الآنية· ومركز هذين القطاعين في الدماغ الاوسط والمخيخ ، حيث توجد العواطف والانفعالات البدائية على اختلاف انواعها ·

وهناك علاقات ضبط وائتمار (٢) بين جزئي الدماغ في الحالات العادية ،

---

(١) شراجة : Anatomie　　(٢) ائتمار : Subordination

حيث تخضع النزوات لضبط الارادة من خلال خضوع الدماغ الاوسط للدماغ الاعلى • على أن هذا الضبط قد يختل اما نتيجة لضعف في الدماغ الاعلى أو لاضطراب في الدماغ الاوسط • وهكذا تفلت نزوات وانفعالات هذا الاخير من كل توجيه ورقابة • ويكون لدينا السلوك الجانح أو المجرم الدموي العنيف والجنس اللاأخلاقي • ويحدث الخلل اما نتيجة لاستعدادات وراثية أو لتشويهات جبلية (سوء تكوين تلافيف الدماغ ، قصور أو افراط في نمو بعض أجزائه مما يؤدي الى فقدان التوازن بينها) ، او نتيجة لخلل شراحي (اضطراب في الاوعية الدموية في الدماغ) او نتيجة لاصابات متفاوتة في شدتها تأخذ شكل الكلوم الدماغية المركزة في منطقة معينة أو المنتشرة ، أو شكل التخمجات (١) المختلفة (جرثومية أو تسممية) •

المهم في كل ذلك ان السلوك الجانح هو نتاج اضطراب احيائي كيميائي في الدماغ يفقده وظائفه العليا الخلقية والارادية • وعلينا في كل حالة ان نبحث عن هذا الاضطراب بغية تفسير ذلك السلوك بشكل علمي •

ويقرب من ذلك كل التفسيرات التي تدور حول مفهوم الفجاجة (٢) أو انعدام النضج الدماغي والنفسي • لقد حاول بعض العلماء البحث عن تفسير لذلك السلوك الجانح غير المتكيف الذي يميز بعض المراهقين غير المستقرين ، الذين لا يتعظون من الغير ولا يستفيدون من التجربة وينساقون وراء نزواتهم حينما وأنَّى برزت ، يعجزون عن الالتزام العلائقي والعاطفي والخلقي ، يعلنون التوبة ولكن سرعان ما ينسون ما التزموا به • وهم يوقعون انفسهم وأسرهم نتيجة لذلك في صراعات وأزمات ومشكلات مع المحيط لا تنتهي الواحدة منها حتى يبدأ غيرها • ولقد ذهبوا الى القول بالفجاجة وحاولوا القيام باستقصاءات على النشاط الاحيائي والكهربائي للدماغ بحثا عن مظاهر القصور في نضجه أو الخلل في التناسق الوظيفي لاجزائه مما يؤدي الى قصور في الحياة الخلقية والارادية • ولكن رغم تبنيهم للافتراض العضوي فان استقصاءاتهم لم توصلهم بعد الى معطيات اكيدة •

ولقد مرت فترة من تاريخ علم النفس الجنائي كانت تعطى فيها للصرع دورا كبيرا في تفسير السلوك الجانح العنيف • فالصرعي بما يتصف به من

(١) تخمج (تخمجات) : Infection (٢) فجاجة : Immaturité

تأجج في العواطف وتشبث بالآخرين من ناحية ومن حساسية مفرطة ومشاعر حقد ورغبة في التشفي والانتقام ازاء مظاهر التجاهل أو الاهمال أو النبذ من ناحية ثانية ، معرض باستمرار لنوبات من الهياج والعنف تؤدي الى عـــدوان على الآخرين (ضرب ، جرح ، قتل ، اعتداء جنسي) أو ممتلكاتهم (تخريب، اضرام حرائق) ، أو عدوان على الذات · لقد وجد بعض الاطباء العقليـــين التقليديين في هذا المرض ذي الاسباب العضوية (اصابات دماغية متفاوتة في شدتها وانتشارها) تفسيرا سهلا ومريحا للسلوك الجانح العنيف · الا ان الميل الى التعميم في هذا الاتجاه سرعان ما اصطدم بأدلة من الواقع المعـــــاش لم تسمح له بايجاد السند المطلوب · فالصرعي في تكيفه الاجتماعي تماما كضعيف العقل رهن بموقف المحيط منه · المحيط المتقبل ، المرحب المتعاطف اذا لم يلغ كليا التوتر العالي الذي تعيش فيه الشخصية الصرعية ، فانه بالتأكيد يقضي على أي احتمال للانحراف · والعكس صحيح ، حيث ان الموقف العدائي أو النابذ يتفاعل مع الخصائص النفسية للمصاب ويؤدي الى تضخيمها وبالتالي يفسح المجـال عريضا أمام سوء التكيف ·

بعد أفول نجم الجانح الصرعي ، لجأ العلماء الى الحديث عـــن أشباه الصرعيين (١) وأشباه الفصاميين (٢) محاولين بذلك تفسير الحالات الخطيرة من جرائم العنف · شبه الصرعي يعاني من اضطرابات دماغية خفيفة لا تصل حـد النوبة الكبرى أو الصغرى ، ولكنه يتصف بنفس خصائص الشخصية الصرعية (تفجر العواطف ، والتشبث بالآخرين ، الحساسية المفرطة ، مشاعر الاضطهاد والحقد والميول الانتقامية الخ ···) · وهو مسؤول عن جرائـــم العنف التي ترتكب في حالة من الهياج والتشفي · أما شبه الفصامي فيفتـرض انه يعـــاني بدوره من اضطرابات نابعة من عوامل وراثية أو جبلية · وهو ذلك الانســـان الانطوائي ، المنعزل ، الفاتر ، الذي يتميز بالبرود الانفعالي ، وانعدام الالتزام العاطفي والخلقي والعلائقي تجاه الآخرين ، مركز حول ذاته بشكل أناني · وهو يرتكب جرائمه في حالة من انعدام الحساسية واللامبالاة لآلام الضحية أو من يحيطون بها · اعتبرت هاتان الفئتان المتعارضتان في الخصائص النفسيـــة والعاطفية والعلائقية مسؤولتين عن القسم الاكبر من الجرائم الخطيرة التي

---

(١) أشباه الصرعيين : Epileptoides

(٢) أشباه الفصاميين : Sehizoides

ترتكب اما في حالة من الحقد والهياج أو في حالة من اللامبالاة والبرود ، وهي صفات شائعة جدا بين الجانحين · ولكن هذا المنطلق لم يجد كسابقيه تدعيما له من الواقع · انه مجرد افتراض تفسيري لم يعد من الواضح اذا كانت كل من فئتيه ذات أسس احيائية فعلية أم هي مجرد تصنيف طباعي نفساني ، أم الاثنين معـا ·

يمكن اعتبار نظرية كنبرغ (١) في التكيف اكثر تمثيلا للاتجاهات الحديثة في التفسير الدماغي العضوي للسلوك الجانح · فهذا الباحث لا يهتم كثيرا للاصابات الدماغية الصريحة والكلوم الكبرى لانها لا تفيدنا كثيرا في بحثنا نظرا لحدودها المعروفة · يتوجه اهتمامه للكلوم الصغرى والخفية التي قد تصيب الدماغ وتؤدي الى الخلل الوظيفي الذي يحدث السلوك الجانح · وهو يقول ان هذه الاصابات اكثر شيوعا مما نعتقد · وتنتج عن أنواع متعـددة من التخمجات الجرثومية الشائعة الانتشار (مختلف أنواع الحميـات ، الحصبة ، او السعال الديكي ، الجدري الخ ···) التي تصيب خصوصا مناطق الارتباط بين الدماغ الاعلى والدماغ الاوسط وتمنع سريان المثيرات الحسية من الجسم الى الدماغ الاعلى وسريان المثيرات الحركية من الدمـاغ الاعلى الى الدماغ الاوسط والجسم · ويؤدي ذلك الامر الى شكلين من الاضطراب الدماغي يتصف كل منهما بخصائص نفسية وطباعية معينة ويؤدي الى تصرفات جانحة نوعية · فاذا أدى خلل الارتباط الى احتباس المثيرات الحركية في الدماغ الاعلى نشأ عن ذلك حالة من التوتر الشديد قد يتخذ طابع النوبات الصرعية الحركية ·· ويتميز السلوك هنا بالهياج والتفجر العدواني الشديد وينتج عنه جرائم العنف والدم والانتقام ·

أما اذا أدى الخلل الى احتباس المثيرات الحسية في الدماغ الاوسط فيحرم الدماغ الاعلى منها · وينتج عن ذلك حالات التبلـد الذهني والعاطفي وفقدان الالتزام تجاه الآخرين · ويؤدي هذا المرض الى تلك الجرائم الفاشلة المتميزة بالبرود والتي ترتكب في حالة من اللامبالاة وسوء الحيطة وتؤدي الى القبض على فاعلها بالجرم المشهود ·

يرفض كنبرغ التفسيرات النفسية والذاتيـة التي لا تستند في رأيه الى

---

(1) O. Kinberg, problèmes fondamentaux de la criminologie, Paris, Cujas, 1960

برهان موضوعي ، ويقول بضرورة البحث عن تلك التخمجات الخفية لتفسير السلوك الجانح · الا انه يدخل البعد الاجتماعي في اعتباره كعنصر فعال في دينامية ذلك السلوك · وهو بهذا يخطو ولا شك خطوة أكيدة الى الامام · الا أن نظريته رغم موضوعيتها وتماسكها المنطقي لم تسلم من كثير من الانتقاد · أهم مأخذ عليها هو عدم قدرتها على مراعاة نوعية السلوك الجانح ، أي ان المنحرف لا يقدم الا على تصرفات جانحة من نوع محدد ، في وضعية محددة وتجاه ضحايا نمط معين (١) ·

كل المنطلقات السابقة تعاني من نفس المشكلة · فهي تجعل من السلوك الجانح أمرا آليا ناتجا عن تعطل أجهزة الضبط والتوجيه والارادة في الشخصية · ولكن اذا كان الامر كذلك لوجب ان يتكرر السلوك بنفس الاسلوب وبصرف النظر عن الوضعيات والاشخاص وبشكل دوري · وهذا مخالف كليا لما هو معروف حاليا عن دينامية السلوك الجانح · لقد كان لديجريف الفضل الاكبر في تبيان الاصل النفسي لتلك الخصائص التي اعتبرت عضوية · فالنزوية المفرطة والعدوان المدمر كالتبلد العاطفي وغياب الالتزام تجاه الاخرين وعدم الاحساس بآلامهم ليست سوى نتاج عملية تحول نفسي بطيء يمر به الجانح ويؤدي الى تغيير جوهري في موقفه من العالم ومن ذاته قبل أن ينغمس في النشاط الجانح · ولا يحدث هذا التحول الا كرد فعل دفاعي على آلام وجودية عنيفة ومزمنة يمر بها ، أو نتيجة لظروف اجتماعية تدفع به في هذا الاتجاه كما رأينا سابقا ·

هل يعني ذلك ان نرفض بشكل قاطع كل دور ممكن للاصابات الدماغية في السلوك الجانح ، أم ان المسألة تتطلب طرحا مغايرا ؟ الواقع ان الامر ليس من نوع الكل أو لا شيء ، اما أن يفسر الانحراف بالاصابات العضوية كليا أو لا يفسر · البعد العضوي له دور لا يمكن تجاهله في تحديد السلوك الانساني وعلينا أن نرى موقعه الجدلي في شبكة السببية · يبرز هذا الدور خصوصا كقوة متفاعلة مع غيرها من القوى النفسية والاجتماعية · وسنحاول ان ندلل على وجهة النظر هذه باستعراض أهم الخصائص النفسية للمصابين دماغيا كي تظهر لنا ركاكة وضعهم الوجودي · ثم نرى من خلال تقديم بعض الحالات ان أن هذه الركاكة لا تؤدي الى الانحرف الا في اطار حياتي معين ·

---

(١) انظر بهذا الصدد الفصل الاول من :
M. Hijazi, Delinquance juvenile et réalisation de soi, Paris, Masson et cie, 1966.

أ ـ الآثار النفسية والعقلية للاصابات الدماغية

يجمع الباحثون على أن الاصابات الدماغية سواء تلك الناتجة عن تخمجات (كالتهاب السحايا السلي) أو عن كلوم (صدمات دماغية آلاتية نتيجة السقوط أو الضربات على الرأس التي تحدث في السنوات الاولى من الحياة) تؤدي الى تغيرات مزاجية وعاطفية وعقلية واضحة تتناسب في شدتهـا مع خطـــورة الاصابة (١) ٠

الحالة العقليــة :

يصاب القطاع الذهني بدرجات متفاوتة ، تبعا لشدة الاصابة وللتغيرات المزاجية والعاطفية التي نتجت عنها ٠ ولكن هناك اجمالا فقرا عقليا وميــلا الى الرتابة والاستمرارية يوجد في نفس الوقت مع نقص في التركيز وفقدان القدرة على التقدم ٠ اما لصعوبة الحفظ أو لعجز عن التعلم ، مع تشتت الانتباه ، بعض اضطرابات الادراك خصوصا من ناحية الابناء العقلي وانتاج الاشكال ٠ بطء العمليات العقلية وتذبذبها مع انخفاض القدرة على المثابرة،انخفاض المرونةالذهنية مما يؤدي الى العناد والتشبث على بعض الافكار أو الآراء او الرغبات ٠ قصور في ميدان التعلم والذاكرة ، ينسى الطفل بسرعة أو هو عاجـــز عن ان يحتفظ بذاكرته بأكثر من عنصرين او ثلاثة ويتحسن اداؤه عندما نسمح له ان يسجل ٠ قد يتبع جيدا تعليما لفظيا ولكنه يقدم اعمالا كتابية رديئة جدا ٠ لا يتمكن عادة من الانتهاء في الوقت المحدد ٠ ولا تكون هذه الاضطرابات ثابتة ، بل تتذبذب ـ في حالة من ميوعة التوازن الذهني ـ تبعا للايام والحالة المزاجية ، ولذلك نجد أن الطفل يعطي انتاجا ممتازا ثم لا يلبث أن يتدهور بشكل سريع ٠ يضاف الى ذلك كله انخفاض القدرة على التفكير المجرد والمقولي وعلى التعــامل مع الواقع على المستوى الرمزي ، ولذلك يظل التفكير محسوسا مركزا حول الواقع المادي ٠

الحالة المزاجيــــة :

هناك اضطرابات نفسية تأخذ شكل تغيُر الطبــع ٠ يصبح الطفل متذمرا

(١) انظر مثلا بهذا الصدد :

— Ajuriaguerra, manuel de psychiatrie de l'enfant, Paris,, Masson et cie.

— Debuyest, l'enfant et l'adolescent voleur, Bruxelles, Dessart.

— Aubin, le dessin de l'enfant inadapté, Paris privat, 1970.

لسبب وبدون سبب ، سريع التوتر ، سريع الاهتياج ، نزوي ، عديم القدرة على الضبط وعلى تأجيل اشباع حاجاته ، ميال الى الحركة · ولذلك يمر بفورات مزاجية تأخذ طابع التفجرات تتذبذب مع حالات من الانقباض والحزن والتشاؤم، مرور الى الفعل العدواني ، سلوك مضاد للمجتمع ، ميل للسرقة والتشرد والكذب ، قلق أمام الوضعيات غير المألوفة يأخذ طابعا مبالغا فيه ، بعض التصرفات الجنسية المقلقة ·

الحالة العاطفية :

تتميز الحياة العاطفية والعلائقية بالتطرف · وتتراوح ما بين الحنان المفرط والاتكال والتعلق الطفلي والفرح الظاهر للقاء الراشد الذي يهتم به ويبدي له الترحيب · في هذه الحالة يأتي الطفل شاكيا طالبا المساعدة او عارضا استعداده للتعاون باحثا عن استحسان ورضى الراشد · وتبدو العلاقة كأنها راسخة الجذور ومفضلة · ولكنها اجمالا من نوع العلاقة الثنائية المغلقة لا تترك مجالا لطرف ثالث · ويبدو الطفل مزهوا أمام رفاقه لعلاقته المفضلة مع الراشد الذي يتخذ منه حافظا لاسراره التي يختلط فيها الواقع بالخيال والحقيقة بالتمنيات · ولكن رغم كل ذلك يظل مفرط الحساسية لكل مظاهر التجاهل المقصود او غير المقصود ، فيتحول الى الحقد والغضب الشديد وينغلق على نفسه في حالة من النقمة او الثورة على الراشد الذي خانه (في رأيه) · وسرعان ما يبدو وكأن كل الروابط التي أقامها معه قد انهارت وكأنهما غريبان كليا عن بعضهما · كما أنه مفرط الحساسية لكل مظاهر الغبن فيميل عندها الى مشاعر الاضطهاد ، فالآخرون لا يحبونه ولا يكترثون له ويهدفون الى ازعاجه ، وهو لذلك يتشاءم · وعندها يبدو كأن كل شيء قد انهار ولا خلاص بعد الآن من هذه الوضعية فيميل الى التراخي والسلبية مدرسيا ومهنيا · ولكن مع شيء من الجهد ومن تطييب خاطره واشعاره بالمحبة سرعان ما يهدأ وتعود الامور الى مجاريها ، تظهر الفرحة على محياه ويعود اليه تفاؤله او حتى حماسته وأحيانا يبكي من فرط تأثره · وتمتزج في دموعه الفرحة مع الحزن على ما عاناه من آلام ماضية ·

ان انعدام الاستقرار العلائقي والمزاجي هذا يهدد في كل لحظة بنسف كل الجهود التي قام بها على طريق التكيف والعناية التي احيط بها من قبل الراشدين، ويجعله معرضا لاستجابات تدميرية او انتقامية قد لا يسهل أحيانا تجاوز آثارها الضارة على مكانته في محيطه وعلى علاقاته مع الآخرين وخصوصا على موقف

هؤلاء منه حيث يدخل اليأس على نفوسهم من امكانية تحسنه وتقدمه ويدفع بهم الى نبذه أو على الاقل تجاهله ونفض أيديهم منه · ومن نافل القول التوكيد على آثار هذه الاتجاهات السلبية نحـــوه فهي لن تؤدي الا الى زيـــادة حساسيته واستجاباته السلبية · نحن اذا أمام حالة عضوية تؤدي الى وضعية حياتية ركيكة جدا تجعل امكانيات الانفراس الاجتماعي والتصدي لمسؤولياته وتحدياته هزيلة للغاية ·

على أن الامر ليس بهذه البساطة اجمالا · فهناك حالات من الاصابـــة متكيفة بشكل مقبول وهناك أخرى متكيفة بشيء من الصعوبة وهناك ثالثة تعاني من سوء التكيف الصريح · المسؤول عن هذه الوضعية هو قوى المحيط الاجتماعي والاسري الذي يعيش فيه الطفل · فاذا كان المحيط متفهما مرحبا متمتعا بالصبر والاناة رغم عنف التقلبات المزاجية للطفل المصاب فانه سيساعده على تجـاوز قصوره العضوي الى حد معقول · أما اذا كان المحيط متخلفا ، عاجزا ، يتصف بالتراخي والاهمال ، أو كان مفككا فانه لن يتمكن من تقديم العون اللازم للطفل المصاب · بل قد يميل الى اسقاط معاناته وصراعاته عليه ويحـمله وزر مآسيه ويدفع به الى وضعية يصعب حتى على الطفل المعافى مجابهتها والافلات منها ، فكيف بمن يعاني من تلك الركاكة ؟ من الطبيعي عندها أن يجنح ويميل الى الكذب والسرقة والتشرد والعدوان ، وذلك يؤدي بدوره الى مزيد من النبذ الذي يجر مزيدا من سوء التكيف ·

سنعرض حالتين لاحداث جانحين مصابين دماغيا كي نبين خصائص هذا النوع من الانحراف من ناحية ونذلل على ما قدمنا من أفكار بصدد العلاقة بين الانحراف والاصابة الدماغية من ناحية ثانية · في الحالة الاولى يتضح لنا كيف تفاعلت الاصابة مع اطار اجتماعي غير ملائم لتؤدي الى مزيد من الانحراف · أما في الحالة الثانية فسيتضح لنا كيف يساعد الاطار الاجتمـاعي المتفهم على الاستقرار ·

الحالة الاولى

رامي ، ١٦ سنة ، هو الابن البكر في أسرة من خمسة أولاد ، بينهم بنـت واحدة · أصيب بداء السحايا السلي · ووراءه تاريخ طويل من التشرد والانحراف · ارتكب ما يزيد عن عشرين سرقة وهرب من البيت ومن مؤسسات الرعاية التي وضع فيها ما يزيد عن ست عشرة مرة ·

الاسرة ريفية تكونت بشكل عادي ، يسودها التفاهم • حالتها المادية فقيرة جـدا • يعمل الاب مستخدما • كان يغيب عن البيت طوال الاسبوع ولا يرجع اليه الا يوم العطلة • وكان يترك لزوجته أمر العناية بالاولاد • قلت فترات غيابه بعد ذلك الا أن عمله المضـني يستغرقه كليا • عاش الاب طفولة بائسة نتيجة لافتراق والديه بالطلاق وتخليهما عنه • كما أنه عانى فترة من الوقت من اضطرابات عصبية تأخذ شكل نوبات الصرع •

فقدت الاسرة سيطرتها على ابنها البكر بعد اصابته الدماغية • ولم تعد تجدي معـه وسائل الترغيب او الترهيب • كان الاب يضطر الى تقييده بالسلاسل لمنعه من السرقة التي أصبح مشهورا بها في البلدة •

ولد رامي بشكل طبيعي • ولقد توفي للام ولدان بعده • أدى ذلك الى اغداق العنايـة والتدليل عليه ، مما جعله يعيش تبعا لرغباته • دخل مدرسة البلدة في الرابعة من عمره كان يتابع الدراسة بشكل طبيعي • وفي الخامسة صدمته سيارة وأدى ذلك الى اصابته في رأسه • وضع في عدة مستشفيات ثم اقام ما يزيد عن السنة في مصح للامراض المعديـة عندما كان له من العمر ثمان سنوات حيث عولج من مرض التهاب السحايا السلي • وخرج معافى من الناحية الجرثومية • أجري له تخطيط كهربائي للدماغ بعد سنتين من ذلك التاريخ وكانت النتيجة ضمن المدى العادي •

بعد خروجه من المصح رجع الى ذويه • وهنا بدت عليه أعراض الاضطـــراب وسوء التكيف • بدأ يهرب من البيت باستمرار ويتجول في أسواق البلدة مرتكبـا السرقة تلـو السرقة • كان يعمل دائما بمفرده • يدخل الحوانيت على غفلة من أصحابها ويستولي على ما يقع تحت يده من دراهم • انتشر صيته في البلدة • وبدأ يجلب المتاعب للاسرة حيث كان الاب يضطر الى التعويض على ضحايا ابنه وينصرف عن عمله ملاحقا اياه كي يرجعه الى المنزل • ولقد أعيته الحيلة في ذلك وأخذ يقيده بالسلاسل مما ولد الحقد في نفس الحـــدث •

استعانت الاسرة على ولدها بمكاتب الرعاية والخدمـــات الصحية والاجتماعية • فأدخل احدى مؤسسات تربية ضعاف العقل في سن الحادية عشرة ولكنه لم يلبث فيها سوى عدة ساعات فر بعدها ولم يعد نتيجة لرفض المؤسسة له • ثم وضع في مؤسسة لرعايـــة الاطفال ذوي الحالات الاجتماعية الصعبة • اقام فيها مدة قصيرة تميزت اساسا بالفشـــل الدراسي وتكرار مرات الهروب • وكان في كل مرة يسرق ويقبض عليه • وصل أمره الى المحاكم ووضع في عدة مؤسسات اصلاحية بناء لاحكام وصلت المدة القصوى وهي ســـن الثامنة عشرة • هرب من تلك المؤسسات ما يربو على ست عشرة مرة • وكان يبـــدي

الكثير من الدهاء والحيلة والاقدام في هروبه ، يقفز من أماكن عالية جدا ، أو يخرج من منافذ قلما خطرت ببال أحد أو يتحايل على المشرفين • ولا يضارع براعته في الهروب سوى سهولة اقدامه على السرقة • ولكن ذلك يتعارض بوضوح مع قلة حيطته • اذ كان يقبض عليه عادة اما أثناء السرقة أو بعدها • فلقد كان يثير الشبهة بتصرفاته حيث يتجول في أحياء محدودة سكانيا يتكشف فيها أمر الغرباء • وحين يقبض عليه كان يعترف بسرعة بكل ما فعل ويبدي التوبة • اما اذا أفلت فكان يشتري بالمبلغ المسروق ما يحلو له من ملابس وحلويات • ولم يكن من النادر أن يبتاع بعضها لاخوته ويعود الى البيت محملا بالهدايا • كما مرت به فترات كان يهرب فيها من المؤسسة اثر حالة من اليأس والتشاؤم المزاجي والشعور بالاهمال نتيجة لغياب الاهل أو الشعور بالشوق اليهم • وهنا كان يسرق من أحياء محددة أصبحت معروفة لدى المسؤولين عنه • ولذلك كان هؤلاء عندما يفتقدونه يذهبون الى تلك الاماكن فيجدونه بانتظارهم • كما حدث أن اتصل معهم هاتفيا يخبرهم عن مكان وجوده • لم ينضم أبدا الى جماعة من الاحداث الجانحين • وكان واضحا من تصرفاته أن سرقاته تدخل في اطار الانحرافات المرضية: سلوك نمطي يتكرر بنفس الاسلوب، سرقة افرادية ، انفاق المال المسروق بشكل تعويضي ثم نداء المسؤولين عنه وقلة حيطته •

ظل سنوات على هذا المنوال في مؤسسات الرعاية يتذبذب ما بين فترات من الهدوء وفترات من الهياج الفاتر والتشاؤم • لم يتمكن خلالها من احراز اي تقدم مدرسي أو مهني• ولم يندمج فعلا في جماعة الصف ، أو في النشاطات التي تقوم بها المؤسسة ، خصوصا النشاطات الجماعية • وانتهى به الامر الى السجن نتيجة لاقدامه على السرقة بعد الخامسة عشرة من العمر في واحدة من مرات هروبه •

طوال سنوات اقامته ظل رامي طفليا في مسلكه العام • يعاني من بوال ليلي دائم أدى العلاج النفساني الى تخفيفه نسبيا • يميل الى تجميع اشياء مختلفة وتافهة ويحتفظ بها بعناية (بقايا أقلام ، قصاصات ورق عليها رسومات ، أدوات لعب ، خيطان) وكان يغضب أيما غضب اذا مس أحد رفاقه هذه الاشياء • ولم يكن نادرا ان يسرق من الاشخاص الذين يتعلق بهم خصوصا النساء بعض الاشياء يضيفها الى مجموعته • كان دائما متعطشا للهدايا • ظل منعزلا في النشاطات العامة • اثناء دروس الرياضة مثلا كان ينزوي في ركن من الملعب كي يعبث بشكل نكوصي • وكانت هذه الالعاب تذكره بأيام سعيدة من طفولته قضاها في كنف جدته (قد يكون ذلك صحيحا أو وهميا) • علاقاته مع رفاقه كانت تتميز بالعداء والحقد والغيرة الصريحة • وكان بالتالي موضع سخريتهم ونبذهم لانعدام روح الجماعة عنده • يذهب تفضيله الى اقامة علاقة طفلية مغلقة (أو دمجية) مع أحد المسؤولين عنه • وكان يشعر بالحسد الشديد اذا اهتم هذا الاخير بواحد من رفاقه في لحظة

ما ولم يوجه اليه اهتماما مماثلا · ولكن هذه العلاقة رغم قربها ورغم انه يزهو بها أمام رفاقه ويهلل لها كالطفل الذي وجد أمه ، لم تكن مطلقا أكيدة · بسرعة يتحول الى انسان آخر ويبدو كأنه لم يعد يعرف الشخص الآخر · يحدث ذلك اذا ارتكب مخالفة تستحق اللوم أو اذا شعر بأهمال · كان يميل الى التخريف مدعيا انه الطفل المفضل لرئيسه مؤسسة سبق أن مر بها · أو ان له قريبة في المهجر ترسل اليه الهدايا والرسائل ، أو مسؤول سابق عنه يذرف الدمع على فراقه · وكان يبالغ في ذلك محاولا اظهار اهميته ومكانته في نظــر محدثه · ويعيش على تلك الاوهام التي سرعان ما تنهار · يتفجر غضبا ونقمة على من حوله ولو كان من المقربين اليه ولكن سرعان ما يعود فيعلن رضاه ومصالحته ويظهر التعلق به · وهكذا كان يعيش معظم الوقت في فرحة أو في مأتم ، يختلط عنده الواقع بالخيال · ويظل أسير هواماته · يعيش في اللحظة الراهنة وينجرف في ما تحمله من مغريات او يكتئب لما فيها من آلام · ويهرب أو يسرق عندما يستاء مما يعيشه كنبذ له · لم يكن مطلقا يقــدر عواقب تصرفاته · ويبدو كأنه غير مدرك لما يمكن أن يصيبه من مكروه نتيجة لها · كان يرتعد خوفا من القصاص ولكن بدون ابداء مشاعر الالم أو الحزن أو الندم فعليا ·

كان دائم الشكوى من غياب أهله عنه وانقطاعهم عن زيارته · أحيانا يجد الاعــذار لوالدته وأخرى ينقم عليها ويعلن استغناءه عنها وتنكره لها · كثيرا ما يبدي الاسى على أيام سعيدة في الطفولة حيث كان موضع عناية الجميع (الطفل مدلل) لم يستطع مطلقا أن يتجاوز مشاعره الطفلية ، حتى انه صرح اكثر من مرة انه لا يتصور نفسه مطلقا راشــدا مستقلا ومسؤولا في مستقبل قريب أو بعيد · يبدي غيرته من اخوته الذين يحظون بعناية الام والقرب منها · ويأسف لهم أحيانا متصورا انهم يعيشون في البؤس · وهنا يعبر عن رغبته في لقائهم والعمل على اسعادهم · أما موقفه من الاب فكان يغلب عليه اجمالا طابع الحقد الصريح الذي يصل حد تمني الموت · ولكن ذلك لم يكن يمنعه من التعبير عن تعلقه به وشوقه اليه عندما يكون هادئا ·

ضمن هذا الموضع الحياتي العام ، كانــت تمر به فتـرات من الهدوء والانشراح والحماسة · يتعلق بالمؤسسة ويبدي ارتياحه للحياة فيها ، يحس بقيمتها ، يبذل بعض الجهد المدرسي ، يعيش هادىء البال ، يبالغ في ادعاء محبة الجميع له واهتمامهم بشأنه· ولكن سرعان ما تتبدل الامور ويعود الى غربته وثورته ·

يؤخذ من التقرير النفساني الملاحظات التالية :

أثناء المقابلة ، يتحدث كثيرا ولكن بشكل دعائي ومسرحي · يحاول خصوصا من خلال حديثه أن يعطي لنفسه أهمية مبالغا فيها · ويختلط في ذلك الواقع بالتخريف حين يدعي

انه موضع عناية ومحبة أشخاص يفكرون به بصورة دائمه ، ولا يقوون على فراقه • حديثه خال كليا من المحتوى العاطفي والانفعالي • يتحول الى ما يشبه التلاعب بالالفاظ • خطابه غير متماسك • ينتقل من فكرة الى أخرى تبعا لما يعتقد انه يجلب له استحسان من يستمع اليه • سلوكه العام يظل كحديثه مائعا لا يثبت على حال • يلقي أحيانا الى بعض ما يحيط به من أشياء بنظرة غريبة وخفية وكأنه يستكشف تلك الاشياء بشكل آثم • نظرته تبدو كما لو كانت تحمل نية السرقة أو العمل الممنوع • في هذه الحالة ينسى مؤقتا محدثه والحوار الذي أقامه معه • ويبدو من ذلك بوضوح وجود نشاطين نفسيين في نفس الوقت : الدعايـة المسرحية لنفسه أمام محدثه ، ورغبات داخلية يشعر انها خاصة به يمر تحقيقها من خلال السلوك الممنوع •

من الناحية العقلية يلاحظ تفاوت واضح في ادائه • فبينما يبرع ويتفنن في أساليب الهروب والسرقة نجده متخلفا مدرسيا ومهنيا • يبدو من رسوماته قصور في نضجـه الذهني • رسم الشخص لا يتجاوز سبع سنوات عمرا عقليا على أبعد تقدير • رائز الانبناء البصري الحركي يظهر بعض مؤشرات الاصابات الدماغية وقصور في النضج الذهني • أما رائز رورشاخ فيعكس قصورا في تنظيم المدركات ، انخفاضا في الدقة ، عجـزا عن الضبط العقلي للحياة العاطفية ، انخفاض القدرة على صياغة اشكال جيدة والتحكـم العقلي بالمثيرات ، فقرا عقليا وثقافيا ، طفلية وتخلفا ، هزال المستوى الدراسي ، جمودا وتصلبا في العمليات العقلية وفي القدرات التكيفية • يميل الى التعميم ويكثر من التفاصيل العتهية (١) في اجاباته • تكثر الاجابات التخريفية (٢) مع ادراك رديء مما يشير الى تخلف ونزوية وميل للانحراف • وأخيرا يتضمن آبينه (٣) عدة دلائل على اصابة عقلية عضوية •

أما من الناحية العاطفية والشخصية فيلاحظ على رائز رورشاخ غياب الاجابـات الانسانية ، غياب التماهي بصورة انسانية ، اضطراب واضح في العلاقة مع الاب ، غياب صور الاب والام ، نقص واضح في الاهتمامات الجنسية مما يشير الى قصور محتمل في النضج النفسي الجنسي ، طفلية بارزة تميز عالمه الادراكي والاسقاطي وبالتالي اهتماماته الداخلية • صد عاطفي يتخذ ظاهريا طابع القحط الشديد ، العالم لم ينتظم بعد نتيجة لذلك في موضوعات متماسكة ومتمايزة وناضجة • عالمه مفتت الى تفاصيل ثانوية تتجمع معـا بدون رابطة أو وحدة تجمعها في موضوعات ذات دلالة• العالم يتخذ معناه ويكتسب وحدته

---

(١) عتيهة Oligaphrénique
(٢) تخريف Fabulation
(٣) ابين : Protocole

وتماسكه انطلاقا من تماسك ومعنى ووحدة العلاقات مع الوالدين والصور التي تكونت لدى الطفل عنهما وعن ذاته ، مما يفتقر هذا الحدث اليه ٠

نمط التجاوب الحميم (١) على رائز رورشاخ منحسر (٢) كليا مما يشير الى انحسار الشخصية والتوظيفات العاطفية والاهتمامات الحية ٠ هذه الناحية وما سبقها (عالم مفتت الى تفاصيل ثانوية) يلقي الضوء على أوالميات سلوكه الجانح وعلى ميله الى الاهتمام باشياء تافهة وتجميعها ٠ انه لم يتجاوز بعد أو هو قد نكص الى مستوى الموضوع الجزئي (٣) (يشير ذلك رمزيا الى ثدي الام) الكل (الشخص الآخر) يختزل في حالته الى موضوع جزئي (محبة طفلية دمجية ، أو تملك لمتاع يجب أن يحصل عليه من خلال السرقة) ٠ على أن ذلك الامر ليس قطعيا ٠ فهناك اهتمام بالآخرين وهناك محاولات لاقامة علاقات معهم وهناك مأزم مع بعضهم : مع المربي الذي يتجاهل ، مع الام التي لم تأت لزيارته مع الاب القاسي النابذ ٠ كذلك هناك محاولة لجذب اهتمامهم بالدعاية لنفسه من ناحية وبسلوك النداء الذي يصاحب أو يتبع سرقاته من ناحية اخرى ٠ وهنا يمكن أن نفسر قلة حيطته اثناء السرقة من خلال دافع النداء (اذا لم يقبض عليه ، يتصل هاتفيا بالمؤسسة أو يتجول في مكان السرقة أو يحاول العودة الى البيت محملا بالهدايا لاخوته) ٠ يبدو من خلال هذا التضارب الذي يتدعم بملاحظة الاختصاصي النفساني اثناء المقابلة (الغربة والقرب في آن معا) أن رامي يتذبذب ما بين الامل في اقامة علاقات وثيقة ودمجية مع موضوع كلي هو الام والاب من ناحية واليأس من امكانية ذلك والنكوص الى مستوى الموضوع الجزئي الذي يؤدي الى السرقة والتجميع من ناحية ثانية ٠ وتظهر بعض الرسومات التي رسمها اثناء المقابلات العلاجية هذا الامر بوضوح حيث تدور حول موضوع العزلة وآلامها وما تحدثه من بؤس نفسي وفقدان الموضوع المحبوب (رسم تابوت الجدة المتوفية) مع ردود فعل سوداوية تدور حول مشاعر الخطيئة وعدم استحقاق الحب (صورة الطفل السيء) ، رسم منزل الاسرة والتعبير عن عدم وجود مكان له فيها على عكس الاخوة الاصغر سنا ، رسم منزل مهجور يلح فيه على محبة والدته له ويعبر عن كراهية صريحة لوالده تصل حد تمني موته ٠ وتتكرر النقمة على الاب (الغائب معظم الوقت) الذي لا يستجيب لنداء ابنه مرات عديدة في أحاديثه ، وعلى رسوماته ، وان كان ذلك يدل على شيء ، فهو مقدار شدة الرغبة في علاقة وثيقة معه ٠ ويؤيده ما ورد في احدى رسوماته عن أب يكدح من أجل اسعاد أبنائه ويصيب بعض النجاح فيشتري مركبا يسافر فيه الى

---

(١) نمط التجاوب الحميم : Type de résonance intime

(٢) منحسر : Coarté

(٣) موضوع جزئي : Objet partiel

بلاد بعيدة ، ويصطحب أسرته معه بدل ان يتركها وحدها • من الواضح ان رامي قد عانى في طفولته كثيرا من غياب والده عن المنزل ، وغيابه عنه اثنـــاء مرضه واستشفائه في المصح • أولا يمكن أن يكون ميله الى السرقة والتشرد بعد خروجه من المصح تعبيرا عـن نداء قسري للوالد كي يهتم به ويتوقف عن تجاهله ؟ ولكنه يظل غير واثق من ذلك ولهـــذا السبب يتذبذب ما بين التكيف والاستقرار والتقرب من المسؤولين وبين الثورة والنقمـــة السوداوية والغربة وبالتالي الهروب والسرقة •

يتضح من كل ما تقدم ان هناك اصابة دماغية اثرت على الامكانات العقلية والعاطفية • ولكن العلاقة ليست بسيطة ولا هي وحيدة الجانب بين تلك الاصابة وما تلاها من سوء تكيف • علينا أن ننظر في تفاعلها مع الوضع الاجتماعـــي للاسرة (غياب الاب ، معاناة الام ، صعوبات الاسرة المادية) الذي لم يسمـــح للطفل بالشعور الكافي بالحماية والامن والعطف اثناء استشفائه (لقد أهملتـــه الاسرة على الاغلب خلال تلك المدة) ولقد سبب له ذلك اضرارا بليغة في نمـــوه العقلي والعاطفي وفي تكامل وتدامج شخصيته ، وألقى به في النهاية في خضم سوء التكيف المرضي • فسرقته تتميز بكل خصائص السرقة المرضية وتظهر فيها كل وظائف النداء والتعويض والانتقام وتجسيد مأساة الضياع والغربة في آن معا •

لقد سبق الاصابة تدليل وعناية مفرطة من قبل الام • ويبدو أنه تبعهـــا اهمال وتجاهل ناتج على الاقل عن انعدام قدرة الاهل على زيارة ولدهم بشكل منتظم في المصح نظرا لبعد المسافة وقلة الامكانات • ومن المحتمل ان يكون الحدث قد عاش هذا التجاهل بشكل مضخم وأن تكون آثار الانفصال عن الاهل بالتالي خطيرة جدا •

ان هذه الحالة كفيلة بمفردها بأن تؤدي به الى الانحـــراف والسـلوك النكوصي والتشبثي والتعويضي • فكيف تكون النتيجة عندما تتفاعل مع ما أحدثته الاصابة العضوية من قصور على المستويين العقلي والعاطفي ؟ انـنا لا نستطيع بالتاكيد ان نرجع تصرفاته وخصائص شخصيته بما فيها من طفليـــة

ونزوية وتقلب (تبدو كأنها وليدة الاصابة الدماغية فقط) الى تلك الاصابة فقط، ففي ذلك تبسيط يجافي الواقع الذي عرضناه ٠

ـ الحالة الثانية ـ

فهمي ١٥ سنة هو الولد الثالث في أسرة من ٧ أولاد بينهما بنتان يعاني من اضطرابات سلوكية على علاقة باصابة دماغية ٠ تتخذ هذه الاضطرابات شكل عدم الاستقرار ، التشرد والسرقـــة ٠

الاسرة متكيفة ومكونة بشكل طبيعي ٠ يسود علاقات الوالدين التفاهم ٠ سمعة الاسرة حسنة ٠ حالتها الاقتصادية متوسطة مع ميل الى الضعف ٠ مستقرة سكنيا ٠ المنزل يفتقر الى النظافة والترتيب ٠

يعمل الاب كرئيس عمال في احدى المؤسسات ٠ مستقر ومنتظم في عمله منذ سنوات بعيدة ترجع الى ما قبل زواجه ٠

نشأ فهمي وعاش بين ذويه ٠ كانت حياته عادية لغاية سن الخامسة حين سقط عن مكان مرتفع على رأسه ، وفقد وعيه لعدة ساعات ٠ وبعدها بعدة أشهر بدأت أعراض عدم الاستقرار تظهر عليه ٠ لم يعد يتحمل أية معارضة من ذويه ٠ وعندما لا تلبى رغباته كان يثور ويترك المنزل متشرداً في الشوارع ٠

تردد الى المدرسة في سن الخامسة لمدة ثلاث سنوات ٠ وتركها لقلة رغبته في العلم حيث كان دائم الهروب ٠ أدخل الى مؤسسة للرعاية ٠ أقام فيها سنة ثم تركها على اثر هروب ٠ وأدخل الى مؤسسة ثانية ، ولكنه استمر في الهروب مع فترات من الهدوء والتكيف والاقبال على العلم وتعلم مهنته ٠ وهكذا قطع شوطا من مرحلة التعليم الابتدائي متذبذبا ما بين الهروب والاستقرار ٠ لم يمارس خلال ذلك أية مهنة ، لقلة رغبته في العمل ٠

كان يقضي أوقات فراغه في الشوارع ٠ يرتاد أماكن الالعاب أو دور السينما ٠ وكان يسرق بعض الاغراض والدراهم من منزله ومن منازل أقارب له كي ينفقها على لهوه ٠

ساءت العلاقة بينه وبين أهله ونبذه هؤلاء وأصبح والده يعامله بقسوة مفرطة بعد أن فشلت معه وسائل الترغيب ٠ وتأثر الجميع من تصرفاته التي كانت تسبب لهم الازعـاج والآلام المعنوية ٠ وبدأ يحس أنه منبوذ فأثار ذلك حقده ٠ وأخذ يسرف في تصرفاته ويسرق انتقاما من ذويه ٠ أثار سلوكه حفيظة أهله وأدى الى مزيد من القسوة عليه من الناحيتين

العاطفية والجسدية · وهكذا انهارت العلاقة بينه وبينهم وتحولت الى علاقة صراعية · وزاد من تأزمها وصوله الى المراهقة التي لم تكن يسيرة عليه ·

ولكن الاهل رغم موقفهم السلبي منه والذي كان عبارة عن رد فعل رافض لمرضه ، حاولوا علاجه · فعرض على عدة أطباء اختصاصيين· عمل له في هذا الاطار تخطيط للدماغ وكانت النتيجة مرضية تشير الى وجود نشاط صرعي عام · ولكنه استفاد من هذه العناية الطبية حيث وجه الى مؤسسة رعائية توفر له فيها بعض الاهتمام الفردي وبعض التفهم لحالته ·

بعد عدة أشهر من اقامته فيها ومروره بعدة أزمات سلوكية وعلائقية ، تمكن المسؤولون في المؤسسة من مساعدته على الاستقرار وبدأ يتعلم مهنة ويتقدم فيها · وبمقدار تقدمه الذي صاحبه تشجيع المسؤولين أستقر الى حد كبير · هذا الاستقرار والتقدم المهني الذي أحرزه أدى الى تغير العلاقة مع الاهل · فعاد هؤلاء الى الاهتمام به واظهار حبهم له · وكان ذلك الامر عاملا أثار همته لاحراز مزيد من التقدم · ولقد توصل نتيجة لذلك وبفضل عناية تربوية ونفسية ملائمة الى التخصص المهني والى التعلق بعمله والاعتزاز بمكانته من هذه الناحيـــــة ·

ولقد ساعدته في ذلك امكاناته العقلية الحسنة · فذكاؤه حسن بالنسبة للفئة السكانية التي ينتمي اليها · يتعلم من التجربة ويتوصل الى اكتشاف المبادىء التي تحكم وضعية ما أو مسألة ما · يستطيع تعميم القاعدة المكتشفة على وضعيات مشابهة · يستطيع القيـام بعمليات التحليل والتأليف والتمييز والتشابه والاختلاف · كما يتحكم بعملياته العقليـة فيستطيع توجيهها وتعميمها · يبدو أن الاصابة لم تؤثر عليه كثيرا من ناحية الذكـــاء والقدرة على القيام بعمليات عقلية من مستوى متوسط · على كل حال امكانات العقليـــة ملائمة لاغراض التدريب المهني من المستوى الذي يتابعه ·

ولكن رغم كل ذلك التحسن يلاحظ من المعلومات المدونة في سجله انه متقلب المزاج سريع الاكتئاب ، يميل الى التشاؤم عند أقل صعوبة تصادفه · يستجيب لذلك بالاهتياج واظهار النقمة والثورة ويهدد بتدمير كل ما بناه على طريق التدريب المهني · يتضخم الامر في نفسه ويظهر حساسية مفرطة لكل ما يمس مشاعره · ويبدو له كأن الامر معضلـــــة تستعصي على الحل · ولكنه يطلب العون والنجدة من المسؤوليـــن لمجابهة صعوباته · ويستجيب جيدا لكل مظاهر الاهتمام به فيخرج من عزلته ويهدأ ، ويعود الى بذل نشاطـه من اجل التقدم المهني والانغراس الحياتي · ثم يعود الى سيرته الاولى عند بروز صعوبة جديدة · ولذلك فهو بحاجة الى عناية ومساندة دائمين ·

خلال هذا الجهد تمكن من تجاوز نزويته السابقة جزئيا وأخذ رغم ما يصيب مزاجه من تقلب وما يشعر به من تشاؤم يتبصر قليلا في المستقبل ويفكر بالنتائج الممكنة لتصرفاته· ساعده ذلك كثيرا على ضبط انفعالاته واخضاعها لمبدأ الواقع الى حد ما ·

تشير الروائز الاسقاطية الى تحسن حالته النفسية الداخلية اجمالا والى بروز ميل نحو التكيف والتدامج · يظهر ذلك خصوصا من خلال الحرج الذي ظهر عليه خلال اسقاطه احداثا وتصرفات تتشابه مع تصرفاته في فترة الصراع مع الاهل · لقد كان يظهر الكثير من الحقد والرغبة في الانتقام · ولكنه بدأ يضبط تلك الرغبات ويحكم المعايير الخلقية في نزواته · كما ان علاقته قد تحولت من وضعها المتأزم (كما يعيشها داخليا) الى شيء من الاستقرار الذي يعتز به ·

نحن هنا أمام حالة من الاضطراب الدماغي الشائع أدت الى سوء التكيف نتيجة لما صاحبها من ركاكة في قوى الضبط والتوجيه السلوكي وطغيان النزوات والفورات المزاجية · ولقد استجاب المحيط لذلك استجابة سلبية فأدى الى تدهور التدامج الاسري والاجتماعي من خلال تضخيم اثار الاصابة · ولكن موقف المحيط كان مجرد رد فعل لمأزم علائقي ، أي انه كان رد فعل موضعي ، تدل جميع المؤشرات الى عدم وجود ميل لاواع وراسخ لنبذ فعلي له ·

وهكذا تغيرت وضعيته ومال الى التدامج والتكيف المهني عندما وجد الجو المتفهم المساعد في المؤسسة وأدى ذلك الى تغيير موقف الاهل منه في اتجاه ايجابي انعكس عليه على شكل زيادة في التدامج والتكيف ·

يبدو من هذا المثال مرة اخرى كيف يتحدد مصير الاصابة الدماغية وكيف تتحدد آثارها من خلال تفاعل المحيط مع القصور الذي نتج عنها · فهو قد يتضخم الى حد بعيد اذا وجد تعزيزا من محيط نابذ قاس · أو هو يخفف ويعوض اذا وجد محيطا متفهما متسامحا · وعلى كل حال تظل حاجة هؤلاء الى محيط ايجابي أكبر من حاجة الاطفال العاديين وتظل قدرتهم على مقاومة ضغوطه وتحدياته أقل ويتمكن الواحد منهم من تجاوز قصوره بشكل مقبول ان لم يقع ضحية اسقاط مشكلات المحيط عليه ·

مسألة الانحراف أو التكيف رهن في جميع الاحوال ـ كما رأينا من الحالات التي قدمناها في هذا الفصل ـ بالتفاعل الجدلي بين مختلف المحددات السلوكية من ناحية العمق ومن ناحية الانتشار ·

الفصل الثامن

الحرمان العاطفي والانحراف

علاقة الحرمان العاطفي بالانحراف وثيقة ومتعددة الابعاد . وهي تعكس اكثر من اي أمر آخر التفاعل الحي بين المشكلة النفسية والمشكلة الاسرية والمشكلة الاجتماعية . لقد كان بالامكان ادراج هذا الفصل في باب الدراسة الاجتماعية للظاهرة ، الا ان اهتمامنا الموجه الى شخصية الجانح المحروم عاطفيا وخصائصها والاشكالات التي تطرحها على المستوى التأهيلي وتجربته المعاشة في الانحراف بما لها من خصوصية هي التي جعلتنا ندخله في باب الدراسة المرضية . على ان هذا التركيز ما زال يطرح علينا اشكالات منهجية هامة ابرزها تحديد من هو المحروم عاطفيا وثانيها وحدة او تنوع حالات الحرمان والآثار السلوكية الناتجة عنه وثالثها ضرورة الحذر من التبسيط واختزال الامر الى احد جوانبه فقط .

لم يعد هناك أي شك حول العلاقة بين الحرمان والانحراف ، حيث ثبت من الدراسات العديدة (اشهرها دراسة بولبي عن العلاقة بين الحرمان من حنان الام والسرقة) مدى تكرار التصرفات غير المتكيفة في مؤسسات رعاية الاطفال المحرومين عاطفيا . كما ان الممارسة العملية تظهر ان معظم الجانحين والمتشردين يعانون من احد اشكال الحرمان الدائم او المحدد بفترة زمنية من تاريخهم ، وان هذا الحرمان لا زال قوة فاعلة في الآلام المعنوية التي يعانونها والتي تساهم في دفعهم الى الانحراف . ولذلك لا بد من تحديد موضوعنا

بوضوح حتى لا يُظن ان مـــا سيرد هنا من أفكار قابـل للتعميم على جميـع الجانحين او جميع المحرومين عاطفيا · كذلك حتى لا يعتقد البعض ان العلاقة رغم مداها قطعية وكلية بين الحرمان والانحراف ·

لن نتعرض بالبحث الى مظاهر الانحراف عند نزلاء مؤسسات الرعاية ، كما اننا لن نخوض في حالات الانحراف التي يشكل الحرمان جانبا واحدا من جوانب عديدة في حياتها · سنهتم خصوصا بحـــالات الجانحين والمتشردين الذين يعيشون أساسا تجربتهم الحياتية تحت شعـــار الحرمان العاطفي بشكل يصبح معه القضية الاكثر بروزا عند دراسة وضعهم ·

اولا ـ درجات الحرمان واشكاله :

يمكن تقسيم حالات الحرمان العاطفي من حيث الشدة الى ثلاث فئـــات اساسية (١) ·

أ ـ الحرمان الكلي او الاساسي ·
ب ـ الحرمان الجزئي ·
جـ ـ النبذ العاطفي من قبل الاهل ·

أ ـ الحرمان الكلي :

أما الحرمان العاطفي الكلي او الاساسي فيقصد به فقـــدان الطفل لاية علاقة بالام او من يحل محلها وذلك منذ الشهور الاولى للحياة والنشأة فـــي مؤسسات رعاية الاطفال المحرومين كمجال حيوي وتجربة انسانية ·

ويترك الحرمان الاساسي أثارا سيئة وخطيرة ودائمة على نمو الطفل جسميا وعقليا وعاطفيا واجتماعيا · يتصف هؤلاء اجمالا بالتخلف في نموهم العام · ورغم الاضطرابات السلوكية التي قد تبدو عليهم خلال الطفولة (كذب، سرقة تعويضية ، عدوانية الخ ···) فان مشكلة السلوك الجانح لا تطرح بشكل جدي في حالتهم الا خلال المراهقة ، بعـــد ان يكون نموهم الجسدي قد تقدم واكتسبوا القوة التي تمكنهم من القيام بالافعال الجانحة · الا ان هذه الافعال تظل بالضرورة ضمن المؤسسة التي يعيشون فيهـــا ونادرا ما تدخل في نطاق

....

(١) أنظر بهذا الصدد : رعاية الطفل وتطور الحب ، تأليف بولبي وتعريب السـيد محمد خيري وآخرون ، دار المعارف ـ مصر ·

ظاهرة التشرد والانحراف الاجتماعي · وعندما يكبرون يبدو عليهم اجمالا الخوف من مجابهة الحياة وتحدياتها ويستجيبون لها على الاغلب بشكل رضوخي انقيادي ويظلون عادة في حالة اعتماد على المؤسسة وتبعية لها لا يتمكنون من الاستقلال الذاتي والانطلاق في الحياة · واذا صدف وأتيحت الفرصة لاحدهم للاحتكاك بوضعيات اجتماعية خارج المؤسسة تحمل امكانية النشاط الجانح ، فانه سيتخذ في هذه الحالة طابع انحراف البؤس (سرقة مثلا لتأمين الحاجة الى الاكل او الملبس او الانتقال) او نلاحظ انحرافا ذا صبغة انقيادية حيث يصبحون أدوات منفذة لرؤساء العصابات والجانحين المحترفين · ويحدث ذلك خلال فترات هروبهم من المؤسسة ·

هذه الفئة لا تهمنا اذا في هذا المقام لانها لا تكاد تصادف الا نادرا بين الجانحين موضوع بحثنا ·

ب ـ الحرمان العاطفي الجزئي :

يقصد به نشأة الطفل بين والديه ومروره بالتجربة العلائقية الاولية مع الام والاب خلال سنوات الطفولة الاولى بصرف النظر عن قيمة هذه العلاقة وايجابيتها ومساهمتها في بناء أسس سليمة لشخصيته · يتلو ذلك انهيار كلي او جزئي لهذه العلاقات في الفترة التي لا زال بحاجة اليها ، وغالبا ما يحدث هذا الحرمان الجزئي في فترة الكمون ، وقد يتأخر عن ذلك او يتقدم · وهو يترك آثارا واضحة على توازن وتكيف الشخصية مستقبلا · وتتوقف هذه الاثار على أمرين اثنين : السن التي حدث فيها الحرمان ، فكلما صغرت السن كانت الاضرار اللاحقة بالشخصية أكبر ، وعلى نوعية العلاقة السابقة بين الطفل ووالديه قبل الحرمان ، كلما كانت العلاقة سلبية او صراعية او ركيكة او تميزت بالتجاذب الوجداني (التذبذب ما بين الحب والكراهية) أدت الى اخطار اكبر من ناحية التوازن العاطفي والتكيف الاجتماعي اللاحق ·

ولكننا هنا ايضا لا نصادف كثيرا حالات حرمان نهائي من الاهل · بل الواقع ان العلاقات تنفصم بين الطفل وذويه جزئيا · او هي على الاصح تتدهور لتأخذ طابع الجفاء أو الاهمال من قبل الاهل· يخرج الطفل من اهتمامات والديه او احدهما وتصبح فرص اللقاء معهم نادرة في حالة من التخلي شبه الكلي عنه للمؤسسة وهم يتهربون من تلبية الدعوة لزيارته في المؤسسة · ويكاد الامر يقترب كثيرا من حالات النبذ التي سنتكلم عنها في فقرة تالية · في الحقيقة

يصعب التمييز الواضح في هذه الوضعية بين الحرمان والنبذ · على ان هنالك فارقا اساسيا بين الحالتين ، وهو حالة الجماعة الاسرية · في الحرمان الجزئي تعاني الاسرة من درجات متفاوتة من الانهيار أو التفكك اما بافتراق الوالدين وزواج احدهما او كليهما ثانية او موت احدهما وزواج الاخر ، او هجر زوجي وسفر الى اماكن بعيدة او غير معروفة مما يجعل القرين عاجزا عن تحمل اعباء الاطفال فيهملهم كليا او جزئيا · او هم يتوزعون بين الاهل يعيشون آنا عند قريب وآخر عند غيره · وكثيرا ما ينتهي بهم الامر الى التشرد فالانحراف بعد محاولات دراسية ومهنية متعثرة ·

(ب) :

الولد البكر لاسرة من أربعة أولاد توفي منها الاثنان الاخيران بعد الولادة · اقترن الوالد بزوجته وهي احدى قريباته ، وأقام عند أهلها عدة سنوات · ثم استقلت الاسرة بسكنها بعد خلاف معهم · في هذه الفترة ظهر الاختلاف الزوجي بينهما · يأخذ الزوج على زوجته أنها سيئة السيرة · وانتهى الامر به الى الطلاق منها بعد ان هربت مع أحد الجيران ولم تعرف اخبارها منذ ذلك الحين ·

الوالد عامل بسيط محدود الدخل قليل الامكانات الشخصية والمادية يميل الى التقتير ولذلك كان يبخل على طفليه مما عرضهما الى حالة من الحرمان · لم يكن مثلا يكترث كثيرا لحاجاتهما الاساسية من ماكل وملبس ، ولذلك مال ب ··· الى التشرد البائس مما أدى الى تدهور وضعه المدرسي · خافت الجدة على حفيديها من الاخطار الخلقية التي يتعرضان لها فتعهدتهما بالعناية وأسكنتهما معها · ساعدهما ذلك على الاستقرار واظهر ب ··· تقدما مدرسيا من جديد · الا انه بعد فترة أقدم على السرقة (بداعي الحاجة على ما يبدو) · قابلت الجدة هذا التصرف من جانبه بالنبذ ورفضت استقباله · عاد الى السكن مع والده الا أن هذا الاخير أصبح اكثر تقتيرا وتشددا مع ابنه · ترك ب ··· الدراسة وبدأ يعمل ، وكان والده يريد أن يأخذ ثمار عمله · لم يستقر القاصر في العمل وسرعان ما مال الى التشرد متهما والده باستغلاله والقسوة عليه · والواقع ان الوالد لا يكترث كثيرا لانه لا يريد تحمل مسؤوليته ·

وضع ب ··· في معهد للتاهيل وأحرز تقدما كبيرا في الدراسة والاعداد المهني مما يسمح له بمستقبل مهني جيد · الا أن العلاقة مع الاب ظلت على حالها من الاضطراب · الاب يقسو كثيرا عليه ويعاقبه بشدة متناهية اذا ما بدرت منه تصرفات غير متكيفة · ولكنه لا يحاول أن يؤمن له مقابل ذلك الرعاية والحماية والحب الكفيلة بمساعدته على الاستقرار·

ولذلك كان يمر بفترات من سوء التكيف والتراخي في دراسته وحالة من التشاؤم الذي يسد أمامه آفاق الخلاص في المستقبل • وهنا ينخرط في تصرفات يائسة تأخذ طابع التدمير الوجودي ، أو تأخذ طابع الرغبة الآنية في الخلاص من وضعية غير محتملة على حساب الاعداد الملائم لمستقبل مضمون •

تشكل هذه الحالة نموذجا لتداخل عاملي الحرمان العاطفي والنبذ الوالدي الصريح •

(ج) :

الولد الوحيد لوالدته من اقترانها برجل من غير ملتها رغم معارضة الاهل • الا ان هذا الرباط لم يدم طويلا حيث ان ابا (ج •••) هجر قرينته بعد فترة وجيزة من ولادة ابنه وانقطعت أخباره نهائيا •

عادت الوالدة الى ذويها ولم يطل بها الامر فتزوجت من جديد من رجل يكبرها سنا لحين وفاته • لم تظهر الاهتمام بطفلها ولا هي اعتنت به مطلقا • كانت تتعلل باضطرارها للشغل طوال النهار خارج المنزل نتيجة لمرض زوجها الثاني وشيخوخته •

اهتمت الجدة به وطلبت من زوجها (جد ج •••) ان يسجله على اسمه في سجلات النفوس حيث انه لم يسجل على اسم اي من زوجي الام • وهكذا نشأ ج••• في كنف جدته واعتاد أن يناديها بأمه وينادي أعمامه باخوته • ولكنه كان يعرف ان جده ليس والده وان أمه ليست أخته •

تعلق ج ••• بجدته كثيرا ، ولكنها توفيت اثر مرض عضال ، أدت الوفاة الى حالة من الاكتئاب ، وتشاؤم المزاج عند الجد ، فتغيرت معاملته للقاصر ولم يعد يتحمل تصرفاته الصبيانية • فأخذ يقسو عليه ويضربه لاتفه الاسباب • وهكذا تدهورت العلاقة بينهما مما قاد ج ••• الى الهروب من البيت ومخالطة عصبة من الاحداث ذوي السلوك الجانح عاش معهم شهورا عديدة كان يتعاطى واياهم خلالها المسكرات والمخدرات والممارسات اللواطية• وازدادت حاجته الى النقود فأخذ يقدم على السرقات كما تعرض غير مرة للشجار والعراك مع آخرين •

أدخل بسبب ذلك كله أحد معاهد التأهيل وانقطعت علاقته بشكل شبه تام بذويه • وبعد فترة طويلة من الاضطراب وعدم الاستقرار امتدت عدة سنوات تكيف وبدأ ينغرس مهنيا ويخطط للمستقبل بشكل سليم • الا انه رغم ذلك ظل يعيش على احلام العودة الى كنف

أسرة وهمية (العيش مع أخ في المهجر) بشكل طفلي ولا واقعي · فهو يعيش متعللا بهذا الامل بدون أن يخطط له أو يعرف كيف ينفذه ·

هذه الحالة أيضا تبين لنا مدى العلاقة بين الحرمان والنبذ العاطفيين كما انها تبين لنا كالتي سبقتها مدى العلاقة بين المشكلة النفسية والمشكلة الاسرية والمشكلة الاجتماعية ·

(س) :

الولد الخامس من سبعة أولاد من الزواج الاول للوالدين · الولد البكر بنت وأما الآخرون فجميعهم صبية · الوالد غير لبناني · تزوج من الوالدة اللبنانية وسكنا في الاقاليم ثم انتقلا الى العاصمة وغيرا السكن غير مرة · اختلف الزوجان وتفاقمت النزاعات بينهما · أدى ذلك الى سفر الاب خارج لبنان تاركا وراءه زوجته وأولاده · وانقطعت أخباره مدة ثم اتضح انه يعمل حيث سافر وانه تزوج ثانية · خلال ذلك حصلت الوالدة على الطلاق ولم تلبث ان تزوجت ثانية · ورزقت من زوجها الثاني أربعة أولاد · ولقد رفضت أن تأخذ ابناءها من زواجها الاول تحت رعايتها · ولذلك يعيش هؤلاء جميعا عند جدهم لوالدتهم ·

أما الاب فلقد أنجب بدوره ولدين من زواجه الثاني وعاد بعد عدة سنوات الى لبنان ·

خلال كل هذه المدة كفل الجد احفاده ، الا أن الثلاثة الاصغر سنا بينهم س ···· وأخويه مالا الى التشرد والنوم خارج المنزل · ومخالطة أماكن تجمع الجانحين · كان الجد يحاول دائما أن يبحث عن س ··· عندما يهرب ويعيده الى البيت · الا ان هذا الاخير كان ما يلبث أن يعاود الهروب ليلا · لم يذهب س ··· الى المدرسة كحال أخويه الاصغر سنا · كان يعمل بشكل متقطع اعمالا غير متخصصة يطغى عليها طابع التسول (علكة ، مناديل ورقية ، الخ ···)

بعد عودة الاب من الخارج استعاد أولاده لمدة سنة تحت ضغط من الاهل · الا ان زوجته لم تكن تفسح المجال لهؤلاء كي يستقروا في كنفه · كما انه لم يكن فعلا مستعدا لفقره وقلة اكتراثه بواجبه التربوي للعناية الجدية بأولاده ، فاستمر هؤلاء في تشردهم وتسولهم وانحرافاتهم · ولقد حدث غير مرة أن وشى الاب بهم الى الشرطة خصوصا بابنه س ··· مما أدى الى وضع هذا مع أخويه في احدى معاهد التأهيل · وهنا انقطعت العلاقة تقريبا مع الاهل · الام ترفض أن تستقبلهم او أن تأتي لزيارتهم في المعهد متعللة بمنع زوجها الاول لها من ذلك · ومرت اكثر من سنة لم تر فيها أبناءها · أما الاب فكان يختلق

الحجج لعدم الزيارة ٠ ثم لم يلبث ان غادر لبنان من جديد ، بدون ان يكترث لمصيرهم خصوصا س ٠٠٠ الذي لم يستخرج له بطاقة هوية ، اذ اهمل تسجيله في قيود النفوس عاد الجد الى الاهتمام بـ س ٠٠٠ وأخويه وكذلك الاخت البكر التي أخذت تشق طريقها في الحياة انما بشكل غامض وغير موثوق من مستوى تكيفه ٠ كذلك ابدت الام بعض الاهتمام الذي لم يكن مستمرا ولم يتجاوز التمنيات٠ وخلال كل هذه المدة كان كل من الاب والام والجد ينتقد الآخر ويتهمه بالتقصير بحق الابناء وبسوء المستوى الخلقي ٠ وكان س ٠٠٠ مع أخويه ضائعا في خضم دوامة التفكك الاسري هذه ٠ فحاول أن يستعيض عنها بروابط عاطفية مع اشخاص جانحين ٠ وعرفت حياته لسنوات عدة حالة من انعدام التكيف والاستقرار يتخللها التشرد والتسول والسرقة واساءة الامانة واللواط والمخدرات ٠ ولقد تعلق بهذه الاجواء الجانحة حيث وجد الاهتمام من قبل احد رؤساء العصابات الذي ارتبط معه برباط لواطي ، مما جعل عملية تأهيله عسيرة جدا وغير مضمونة النتائج شأنه في ذلك شأن أخويه ٠

ظل الثلاثة يعيشون حالة من اليأس والتشاؤم والاحتجاج العدواني واتهام الآخرين بظلمهم والتقصير بحقهم والمطالبة بالانصاف والقلق على مكانتهم المضطربة في الاسرة وسيلتهم الوحيدة لتجنب آلام هذه التجربة هي الهروب والانغماس في العالم الجانح بما يقدمه من فرص للتعويض المادي عن الحب المفقود ٠

تلك أمثلة عن حالات الحرمان العاطفي الجزئي التي تصادف بكثرة بين الجانحين الذين يأتون على وجه الخصوص من الفئات السكانية المعدمة ماديا والبائسة اجتماعيا ومعنويا ٠ ويتلاقى في كل هذه الحالات البؤس المادي مع اضطراب العلاقات الزوجية والاسرية عموما ليخلق حالة من سوء التوافق الحياتي العام ٠ ولا بد ان ينتج عنها جوا يفتقر الى أبسط مقومات رعاية الابناء وتربيتهم ٠ ويعيش هؤلاء كعبء على الاسرة المفككة التي لا تتمنى اكثر من الخلاص منهم بأي سبيل ، متخلية بذلك عن مسؤولياتها الاساسية ٠ وسنرى في بحثنا العيادي لعالم هؤلاء المحرومين عاطفيا وتجربتهم الحياتية مدى الآثار التي تتركها اوضاعهم الاسرية على ابناء شخصيتهم وتوازنها ومدى القصور في نضجها وتكاملها ٠

على أن علاقة الحرمان العاطفي بالانحراف لا تقتصر على الجانب النفسي من المشكلة بل تدعمه بالظروف الاجتماعية التي يحدث فيها ويولدها الحرمان ٠ فالطفل المحروم لا يفتقد العاطفة فقط وانما يوضع في اطار اجتماعي يتميز

بدرجة كبيرة من الخطر الخلقي ليس بمقدوره ان يجابهه وحينما ينجرف في تيار التشرد والانحراف يتخذ ذلك كذريعة من قبل الاهل لنبذه والتحلل من مسؤولياتهم نحوه · هذا النبذ يؤدي الى تأزيم وضعه النفسي من جانب ويلقي به في المحيط الجانح من جانب آخر · وهنا تتلاقى حاجاته التعويضية مع يأسه من الحيـــاة المستقرة الآمنة ومع اغراءات البيئة الجانحة في عملية من التفاعل الجدلي ·

جـ ـ النبذ العاطفي من قبل الاهل :

يختلف النبذ العاطفي عن الحرمان العاطفي من عدة نواح ويلتقي معه في اخـــرى ·

في النبذ العاطفي يظل الحدث مقيما مع أهله فترات تطول او تقتصـــر ويحتفظ بروابط معهم وان كانت مأزقية · ولا يحدث الانفصال ، لا تنهار العلاقة وينفض الاهل يدهم من الطفل بشكل صريح الا بعد صراعات عنيفة وفي ســن متقدمة نسبيا ، أو آخر مرحلة الكمون وقبل المراهقة أو مع اطلالتها · وبعد ان يحدث الانهيار في العلاقات تقوم عدة محاولات لاصلاح الامر سواء من قبل الحدث أو من قبل والديه او احدهما أو من قبل أحد الاهل الذي قد يبدي بعض الاهتمام بمصيره · وتمر الامور بفترات من الوفاق قد تطول أو تقصر ، ولكنها تجتــاز دائما مراحل حرجة وتتضمن انتكاسات متعددة · تؤدي هذه الاخيرة عادة الى مزيد من التباعد بين الحدث ووالديه · وقد يقف هؤلاء منه موقفا عدائيا صريحا أو ضمنيا · في هذه الحالة الاخيرة قد يأخذ الامر طابع الاهمال ، الغاء الحدث من مجال اهتماماتهم ، أو طابع المراوغة على شكل وعود كاذبة وآمال سرابية ببذل جهد للاهتمام به · ويعيش الحدث في قلق انتظار تلك الوعود كي يحصــد في النهاية خيبة الامل ·

أما الاسرة فقد تكون متماسكة ظاهريا وذات سمعة مقبولة اجتماعيا · ويظهر التكيف والانغراس الاجتماعي على بقية الابناء ، مما يثير الدهشة بصدد عدم تكيف الحدث الذي عانى من النبذ ·

ويبدو الامر في هذه الحالة وكأنه نابع من مشكلة ذاتية عنده لا دخل للاسرة فيها ان لم تكن ضحية لها · نحن هنـــا على الاغلب أمام حالة من النبذ النوعي الذي ينصب على أحد الابناء دون غيره · وينتج هذا النبذ اجمالا عن دوافـــع نفسية لدى الوالدين او احدهما · او يكون تعبيرا عن صراع زوجي كامن وراء

التماسك الظاهري • ويغلب أن تسقط على الحدث المنبوذ دلالات سالبة ويحمل الاشكالات النفسية أو العلائقية في الاسرة حتى لا ينتشر الصراع بين جميع افرادها ويهدد وحدتها كليا • ويبدو الامر عندئذ وكأن ذلك الفرد (الطفل هنا) او تلك المنطقة هي مصدر معاناة الاسرة • وان هذه ستكون سعيدة خالية من الاشكالات لولاها • الا أن البحث المدقق يظهر دائما أن حصر المشكلة بهذا الاسلوب ما هو الا أوالية دفاعية وان وراء هذه المشكلة الظاهرية اضطرابات أو مازم أخطر وأعقد منها بكثير تمت الى توازن الوالدين او انسجام العلاقة بينهما • ومن الضروري التساؤل هنا الى أي مدى تؤدي القوى اللاواعية في الاسرة الى دفع الحدث كي يقدم على تصرفات عدوانية او غير متكيفة او صراعية مع الاهل حتى يكون في ذلك تبرير لنبذه ؟ انه احتمال شائع التكرار • ولكن الحقيقة ان العلاقة جدلية بين الطفل وأهله فهو قد يستجيب بتلك التصرفات لنبذ مبدئي • وتصبح أفعاله مبررا لذلك النبذ وتوكيدا له مما يؤدي الى تفاقم الامر الذي ينتهي بانهيار العلاقة •

هنالك حالات تأخذ طابعا صريحا منذ البداية • فالوحدة الاسرية أو الزوجية مفككة تطغى عليها الصراعات • كما انها تعاني من سوء التكيف الاجتماعي وتتصف بسمعة غير مقبولة في الحي • ويأخذ الامر عدة أشكال : اهمال الاب لاسرته وعدم قيامه بواجباته الزوجية والوالدية مع ادمان ، او بطالة ، أو قسوة على الزوجة والابناء • كذلك اهمال الام لاولادها وعدم تقديرها لزوجها • فقدان الروابط الايجابية بينهما • طغيان المرأة على الاسرة والحط من قدر زوجها المتقدم في السن او المريض مع ميل الى الاهتمام بحاجاتها الشخصية فقط • وقد يحدث أن يكون النبذ نوعيا لطفل معين يعطى دلالة حليف الاب ويعرف نفس مصيره في الاسرة ، بينما تتحالف الام مع بقية الابناء • كما يحدث العكس تماما فتكون الام مع احد أطفالها هي المنبوذة من قبل حلف أب قوي مع الابناء • وقد يكون النبذ عاما يصيب جميع الابناء على حد سواء ، في جميع الاحوال يطغى طابع الاضطراب الاجتماعي والاسري على ما عداه ويصبح النبذ او الحرمان مجرد نتيجة ثانوية للمشكلة الاجتماعية حيث يبدو سوء التكيف واضحا على الوالدين او أحدهما •

بين هاتين الفئتين هنالك حالة وسطى تتكون من زواج الام أو الاب مرة ثانية وعدم وجود مكانة للحدث في الاسرة الجديدة • القرين الجديد ينبذ الطفل صراحة او ضمنا ويجد الوالد نفسه مضطرا لمماشاته •

ويمر الامر بمرحلة من الصراع بين الحدث والقرين الجديد تتفاوت في طولها وتستقر عند حد ما من التوتر او تؤدي الى انهيار العلاقة مع الاسرة الجديدة والى التشرد ثم الانحراف · على أن للحدث في هذه الحالة دورا يتفاوت في نشاطه · فهو على الاغلب يقابل القرين الجديد بالعداء ويرفض الاعتراف به أو القبول بأن يحتل مكان الام أو الاب · فاذا لم يتمكن من تفريغ عدوانه على القرين ، وهذا ما يحدث عادة لصغر سنه وعجزه ، يتوجه الى الخارج ، الى التصرفات الجانحة ذات الطابع الانتقامي او التعويضي أو التدميري · وتبرز عملية وصم الطفل في النهاية واضحة نشطة ، حيث يجد القرين في تلك التصرفات تبريرا ملائما لاتجاهه النابذ ·

يستجيب الحدث للنبذ في مختلف هذه الحالات بأساليب متنوعة تبعا للسن والتاريخ السابق واقتصاد الشخصية والاواليات الدفاعية التي برزت على مستوى الأنا ·

وهكذا نلاحظ ردود فعل عدوانية اضطهادية ، او ردود فعل تتصف بالتوتر الوجودي العام والقلق الشديد وصعوبة التعويض ، أو ردود فعل قدرية تدميرية (ميل الى تدمير الذات) أو رضوخية استرضائية تأخذ طابع التعلق المتفاني بالاهل والقلق عليهم · ولكن نادرا ما يكون رد الفعل صافيا بل هو يتخذ في معظم الحالات طابعا مزيجا من كل هذه المظاهر ·

(ع) :

الولد الرابع في أسرة من أحد عشر ولدا ، مكونة بشكل طبيعي ، الابناء الكبار يعملون ويساعدون في اعالتها خصوصا الابن البكر ، الذي يحتل مكان الاب نتيجة لمرضه المزمن· حالة الاسرة متواضعة جدا من الناحية المادية · عمل الاب طوال حياته مستخدما عند ذوي زوجته الذين استغلوه ، ثم انقطع عن العمل عدة سنوات نتيجة لمرضه وحاول العودة اليه، ولكنه لم يتمكن من الاستمرار · نتيجة لمرض الاب وعجزه انتقلت السيطرة الى الام ، ولكنها كانت تسيء سلطتها وتميل الى التصرف بشكل غير متكيف اجتماعيا : اصطدام مع الآخرين كذب ، مراوغة ، رفض المساعدة على تحسين أوضاعها الاسرية · تنطلق في سلسلة من الادعاءات والتبجحات بعلاقات مع سياسيين ذوي مكانة هامة بدون أن يكون لذلك اي أساس من الصحة ·

ذهب ع ··· الى المدرسة في الحي الشعبي حيث تسكن الاسرة ولكنه كان يهرب منها لقلة رغبته في العلم · وضع بعدها في مؤسسة رعائية للاطفال ذوي الحالات الاجتماعية ·

كانت تجربته سيئة جدا فيها ، نظرا لقلة العناية التي توجه الى الاطفال وسوء تجهيزاتها ٠ عاش أقامته كنبذ وعقاب له على هروبه من المدرسة ٠ بعد أن ترك المؤسسة قامت محاولة فاشلة لاعادته الى المدرسة تخللها الكثير من مرات الهروب الذي كان يلقى العقاب الشديد عليه من الاخ الاكبر ٠

عاش هذا العقاب كنبذ وظلم لا يستحقهما خصوصا ان علاقته بالمعلم كانت اضطهادية٠ ترك الدراسة نهائيا ولكنه لم يرغب في العمل ولم يتمكــن من الاستقرار فيه ٠ مال الى معاشرة الاحداث غير المتكيفين في الحي وارتياد أماكن اللهو ثم بدأ تشردا مقنعا (ظـل يعود الى البيت في المساء) واقدم على عدة جنح بسرقة ٠

وضع في مؤسسة للتأهيل لعدة سنوات ٠ الا أن اقامته أخذت دلالة العقـــــاب الظالم ، ولذلك أستجاب لها بشكل اضطهادي ٠ فهو لم يقبل أبدا هذه الاقامة التي توحي له دائما بالغبن ٠ ولقد أذكى هذه المشاعر تصرفات أمه التي كانت تخدعه بوعودها الكاذبة بالتوسط له مع هذا السياسي أو ذاك ٠

يشعر ع ٠٠٠ بحقد شديد على الآخرين الذين ظلموه ويبدو أنه يرفض تحمل مسؤولية أفعاله ٠ وتعود مشاعره هذه الى مراحل سابقة من حياته حين كان يلقى القصاص الشديد من أخيه ، ولقد ترسخت تدريجيا وأخذت طابعا قدريا (الآخرون والاقدار ضده) نتيجة لفشل محاولاته في التكيف للعمل المهني اثناء تأهيله ٠ لقد كان دائما يتصرف بشكل يسبب له العداء والنبذ من رؤسائه ويشعر عندها أنه مغبون وأن القـــدر قد حكم عليه بالبؤس والمعاناة والفشل ، القدر (بعد أخيه) يريد معاقبته ، وهو يسقط هكذا ميولا دفينة لعقاب ذاته وتحطيمها ٠ وما ذاك سوى رد فعل لعدوانية شديدة وحقد كبير على ذويه كان يتحول في طفولته الى سادية على الحيوانات التي كان يعذبها ويقتلها ٠

لقد فقد الامل في الحصول على اهتمام أسرته ، وفي الحصول على مكانـة ملائمة له فيها مما ولد الحقد في نفسه عليها وعلى الحياة وعلى شرطه الانساني على وجه الخصوص٠

ذلك نموذج مبسط من النبذ الذي يمكن أن يتخذ في أحيان كثيرة شكـلا أكثر صراحة واكثر عنفا ٠ استجابة الحدث عندها ستكون بدورها اكثر تطرفا ٠ اما ان يستجيب بالعنف الذي يعممه على جميع العلاقات والوضعيات في حالة من الانتقام من الذات ومن الآخرين ومن النقمـــة على الحياة ٠ واما أن ينسحق بعد أن يغرق في مشاعر الدونية وعدم الاستحقـــاق والاثم ويقع في الرضوخ المازوشي للآخرين وللمحيط ٠ على أن الامر في الحالتين ندر أن يكون

صافيا انه دائما خليط من المشاعر يغلب عليها الطابع الدوري كما سنرى في فقرات لاحقـة ٠

على اية حال يتضح من العرض السابق انه لا فصل قاطعا بين الحرمان الجزئي والنبذ ٠ الحالات تتدرج على سلم واحـــد مسـتمر ، يستوي ذلك من النواحي الاجتماعية والنفسية ٠ ففي الحالتين نلاحظ اضطرابا اجتماعيا أسريا هاما يكاد يكفي بمفرده لدفع الحدث على دروب الانحراف ٠ والحقيقة انه لولا خطورة الوضعية لانخفضت نسبة الجانحين بين الاطفـال المنبوذين والمحرومين عاطفيا الى درجة كبيرة ، اذ من الممكن من الناحية النفسية المحضة أن يؤديا الى العصاب والاضطرابات النفسية التي وان شلت الفعـــالية والتكيف الاجتماعي النشط فانها لا تصل حد الاصطدام بالقوانين ٠ الواقع ان استعراض أوضاع أسر هذه الفئة من الجانحين يظهر بوضوح انها تعاني دائما من درجات متفاوتة من سوء التكيف الاجتماعي ، ويصح تسميتها بالحالات الاجتماعية ٠ تاريخهـا يثبت في معظم الاحيان مرورها بفترات حرجـــة من المأزم الداخلية وصعوبات متنوعة من الانغراس الاجتماعي ٠

أما من الناحية العيادية فلا يلاحظ فرق نوعي بين المحرومين والمنبوذين من حيث التركيب النفسي والحالة العقلية والمزاجية والموقف من الآخرين ٠ ولذلك فسيعتبر هؤلاء فئة واحدة عند بحث هذا الجانب ٠

مرة أخرى تضعنا مشكلة انحراف المحرومين والمنبوذين أمام نفس الواقع الجدلي لتفاعل القوى المؤثرة وتظهر بجلاء ان العوامل الوحيدة الجانب اجتماعيا والانماط الصافية نفسيا لا وجود لها ٠ نحن دائما أمام ظروف حياتية على درجة عالية من التعقيد وتعدد الابعاد التي تتحدد بشكل متبادل ، تدعِّم بعضها بعضا أو تعوض أو تخفف من حدة ووزن بعضها ٠ فقط انطلاقا من هذا الواقع يمكننا أن نهتم بهذا الجانب أو ذاك على وجه الخصوص ونسلط الضوء عليه بشكـل نوعي ٠ وهذا ما سنفعله الآن حيث نحاول أن ندرس خصائص وجود الجانـح المحروم أو المنبوذ من الناحية الشخصية ٠

ثانيا ـ شخصية الجانح المحروم عاطفيا

يمكن دراسة الخصائص الاساسية لشخصية الجانح المحروم أو المنبوذ من خلال استعراض بعض مظاهرهـــا الوظيفية كما تبدو من الخارج أولا ثم

استعراض طبيعة تجربتها الوجودية ثانيا كي ننتهي بعد ذلك الى دراسة الدينامية النفسية الواعية واللاواعية التي تتحكم بها في مرحلة ثالثة • وهكذا فسنبحث على التوالي في :

أ ـ الوضع العقلي

ب ـ الوضع العلائقي والعاطفي

جـ ـ التجربة الوجودية

د ـ الدينامية النفسية

أ ـ الوضع العقلي :

يؤدي الحرمان والنبذ العاطفي الى صعوبات متفاوتة في شدتها على مستوى الاداء العقلي • نتبين ذلك من بعض الامثلة المستقاة من تقارير الاختصاصي النفساني حول خصائص النشاط الذهني عند المحرومين •

(ج) :

ذلك الحدث الذي تبناه الجد والذي تشرد وانحرف بعد وفاة الجدة ، حيث ان الام كانت قد رفضت أصلا كفالته وتربيته ، ترد عنه من الناحية العقلية الملاحظات التالية : يلاحظ بدائية عقلية وامكانات محدودة • فهو من فئة البينيين ، لا يتجاوز عمره العقلي تسع او عشر سنوات كحد اقصى • عاجز عن الاحاطة بوضعية معقدة وعن التجريد والاستنتاج وعمليات التحليل والتوليف • يواجه الوضعيات المعقدة بشكل عشوائي وبدون خطة تقود تصرفه • ويختلط عليه الامر مما يؤدي به الى الشعور بالضياع •

أما مدرسيا فمستواه ضعيف ، وكذلك معلوماته العامة ، مفرداته متوسطة يستطيع الملاحظة ، يفهم الشروحات ، لا يحب الدرس وتجب ملاحقته باستمرار ليقوم بواجباته المدرسية •

وفي موضع آخر نجد التالي : بطيء ، يفتقر الى الطريقة والترتيب ، لا يبذل كثيرا من الجهد ، ولكنه ينفذ التعليمات • يرضخ للسلطة ولكنه يظل فاترا ، بدون مبادرة ولا محاولة للحصول على رضى الفاحص • اذا ترك بمفرده فانه يتراخى تماما لا يحب العمل المدرسي •

(ع) :

ذلك الحدث الحاقد على أمه التي أهملته وكذبت عليه ، وعلى أخيه الذي كان يقسو عليه ، والذي يرضخ لنوع من القدرية يلاحظ في التقرير النفساني عنه ما يلي : يصعب عليه أن يتموضع في الحياة بشكل واضح ، ويكاد يكون فاقدا للتوجه في الزمان والمكان · غير واضح في تعابيره · لا يستطيع أن يتحدث بانتظام وبتسلسل منطقي عن موضوع ما · لا يتمكن من التعبير عن ذاته ومشاعره وخبرته الحياتية بسهولة · ان هذه الصفات تجعلنا نشعر كأنه ضعيف عقليا · الا أن رسوماته لا تدعم هذا الاعتقاد · فهو رغم بطئه المفرط قادر على الادراك الدقيق وعلى التمييز بين الصواب والخطأ ، وان لم يكن بمقدوره ان يصحح خطأه دائما وبشكل ملائم ، اذ سرعان ما يشعر بالعجز ويفقد الثقة بنفسه ويحتاج الى مقدار كبير من التشجيع كي يتابع عمله الذي لا يرضى عن جودته · لا يستطيع الرسم من الذاكرة ، يحتاج دائما الى نموذج يقلده · يعاني من صعوبات في عمليات التفكير المجرد ·

(ك) :

حدث فقد أمه اثر طلاقها من الاب وزواجها ثانية وانقطاع أخبارها وكان لا يزال صغيرا · أقام مع الاب الذي تزوج ثانية · الا أن أمرأة الاب لم تعوض له الاضرار التي لحقت بنموه وتوازنه النفسي نتيجة لفقدان الام · وهكذا ظل طوال سنوات حداثته يبحث في تشرده وانحرافاته وداخل المؤسسات التأهيلية التي رعته عن صورة الام وحنانها وظل صغيرا من الناحية العاطفية والذهنية ، رازحا تحت الحاجة العاطفية بنوع من القدرية · ورد في التقرير النفساني الملاحظات التالية عن وضعه النفسي والذهني : يحس انه أعزل تماما أمام الحياة · غير منغرس وفاقد لكل سند · قلق كثيرا بصدد المستقبل حيث لا يعرف أين يذهب ، ماذا يعمل ، ماذا سيحل به · يغرق في القدرية ويفقد كل ثقة بنفسه وبقدراته· وهكذا رفض بعض الروائز ليس عن معارضة ولكن عن انعدام للثقة · يتردد كثيرا امام مهمات عقلية غير واثق من قدرته على القيام بها · يبدأ العمل ثم يتوقف · يحتاج الى الكثير من التشجيع وبث الثقة بنفسه ، كي يبدي بعض المقدرة · امكاناته العقلية محدودة ولكن الامر يتعلق خصوصا بصد عاطفي يفقره كثيرا ويمنعه من استغلال طاقاته الذهنية ·

تلك نماذج من الوضعية الذهنية للاحداث الجانحين المحرومين عاطفيا ·
هنالك اولا بدائية ذهنية نابعة من فقر المحيط الذي عاش فيه هؤلاء وقلة

المحفّزات للنمو العقلي · فتاريخهم الطويل من العيش في أوضـــاع ركيكة أو بائسة وعدم انتظام دراستهم لم تتح لهم الفرصة مطلقـــا لابراز امكاناتهم · وينعكس ذلك خصوصا على النشاط الذهني ذي الطابع المدرسي ·

ثم يلاحظ صد عقلي أو تبخيس للقوى والامكانات الذهنية ، نتيجة لفقدان الثقة بالنفس ، الشعور بالضياع ، الشعور بالعجـز من ناحية ولقلة الاهتمام وانعدام الرغبة والميل الى السلبية والتراخي والانقياد لظروف الحياة من ناحية ثانية · وكلا الامرين ينتج عن الفراغ العاطفي الذي يعانون منه والصراعـــات الداخلية واضطراب انبناء الشخصية بشكل متين ، مما لا يفسح مجالا امام بروز الامكانات الذهنية ويجعلهم أقرب الى فئة التخلف البسيط منهم الى ذوي الذكاء العــــادي ·

وهناك برهان على صحة النقطتين السابقتين نجده في تطور هؤلاء الاحداث عندما تتاح لهم ظروف تأهيلية ملائمة ويجدون السند العاطفي والتشجيع المعنوي والمحفزات الكافية للنجاح · فمن متخلفين ذهنيا ومدرسيا يتحولون الى مبرزين في الدراسة والمهنة على حد سواء · مثلا ب ··· ذلك الحدث الذي نبذه والده المقتّر استطاع الحصول في النهاية على شهادة الكفاءة المهنية بتفوق · امـا ج ··· فلقد أصبح عاملا اختصاصيا في مؤسسة صناعية متقدمة · اما ك ··· فلقد تمكن من ان يجد له مكانا في الحياة بعد ضياع واستقل في عمله وسكنه · ولكن التطور لا يكون دائما ايجابيا · هنالك حالات عديدة تتعثر في سعيها لبناء مستقبلها وتتدهور أوضاعها تدريجيا ·

ثم يلاحظ من الناحية العقلية فقدان التنظيم والترتيب والقدرة على تحليل وضعية معينة ووضع خطة للعمل قبل المباشرة فيه · فاما ان يتهرب الحدث من المهمة المطلوبة أو يقدم عليها بكثير من التردد والسلبية · وعندما يقبل القيـام بها فانه يتصرف كيفما اتفق ويبقى محدودا على مستوى الخطة والتفصيل ، يظهر قصورا واضحا في النظرة الشـــاملة التي تنسـق بين التفاصيل وبين اللحظات · هنالك صد للقدرة على التجريد والتوقـع · آفـاق المستقبل مسدودة اجمالا وخبرات الماضي تفتقر الى الاشباعات · هذان الامران لا يؤديان فقط الى فقدان الثقة بامكانات التعويض والتفاؤل الحياتي بل يؤثران ايضا على نمو القدرة على التجريد الذهني ·

وهكذا فان فقر المحيط والانشغال الدائم بالحاجة الملحة للتعويض العاطفـي

لا يتيح اي فرصة لدى الاحداث المنبوذين والمحرومين لنمو طاقاتهم الذهنية ٠ وذلك بدوره يشكل قصورا جديدا ينعكس على وضعهم الحياتي لكي يزيده صعوبة ويضع عراقيل اضافية امام انغراسهم الاجتماعي وتوازنهم النفسي والعاطفي ٠

ب ـ الوضع العلائقي والعاطفي :

موقف الجانح المحروم من الراشدين المسؤولين عنه في مؤسسة التأهيل ومن زملائه فيها مميز جدا ٠ وكذلك الحال بالنسبة لموقفه من أسرته ، ومـــن العلاقات العاطفية اجمالا ٠

يمكن تمييز ثلاثة استجابات اساسية تجاه العلاقـــات مع الراشدين : التجنب والتبلد ، العدوان والاتهام والاحتجاج ، التعلق المفرط ٠ يتميز اسلوب المحروم في العلاقات اما بالحركة بعيدا عن الآخرين ، أو بالحركة ضدهم ، او بالحركة نحوهم ٠ على أن هذه الاتجاهات الثلاثة ليست صافية دائما ولا هي ثابتة بشكل نهائي ، بل قد يتذبذب الحدث من نمط الى آخر من العلاقة تبعـــا للظروف ٠ كما انه في تطوره يسير اجمالا من التجنب الى التعلق المفرط مرورا بمرحلة تتفاوت في طولها من العدوان والاحتجاج والمطالبة ، ولا يصـــل الى الاستقلال الذاتي الا بعد مرور فترة كبيرة من الزمن يستمر فيها نمط التعلـــق الطفلي الاتكالي بالآخرين ٠ كما ان علاقاته تتأرجح اجمالا ما بين الانفتـــاح والتقارب وبين الابتعاد ٠ الا ان أبرز مرحلة هي التي تتميز بمشاعر الاحتجاج والمطالبة ٠ ومن ناحية أخرى تتصف العلاقات بالراشدين بالنمط الطفلي أساسا٠ فالجانح يعجز عن اقامة علاقة ناضجة فيها مساواة واعتراف بالآخر كشخص ذي حاجات مغايرة ٠

كذلك تمر العلاقة بفترة طويلة من التذبذب والميوعة قبل ان تستقر ٠ يتغير موقف الحدث من الراشد رأسا على عقب من لحظة الى اخرى ٠ وتنقلب النظرة والموازين تبعا للاشباع أو الاحباط ٠ في حالة الاشباع يصل التعلق الايجابي حد التشبث ولا يعود يملك الراشد انفكاكا من هذه العلاقة ٠ ولكن النقمة والحقـــد والاحتجاج وحتى الاضطهاد سرعان ما تظهر تجاه نفس الشخص اذا لم يستجب لرغبات الحدث ، أو هو أبدى تجاهلا ما ٠

وفي جميع الحالات هنالك نداء عاطفي قوي يأخذ طابعا تسلطيا ٠ واذا استجاب الراشد لطلبات الحدث فانه سيقع في دوامة يصعب الخروج منها ٠ فالطلبات المادية والالحاح على اسداء الخدمات لا ينتهيان ، ذلك أمر منطقـــي

نظرا لان جميع هذه الطلبات ما هي الا محاولات تعويضية عن الحرمان الذي لا يمكن أن يعوض كليا والتلهف الفمي الذي لا يعرف الارتواء · كل اشباع يترك ثغرة تفسح المجال أمام بروز طلب جديد يوظف فيه كل الامل في التعويض الكلي والنهائي · ولكن الامر ينتهي باحباط حتمي يؤدي الى احتجاج أو تشاؤم أو يأس أو الى طلب جديد ·

ويحاول الحدث أن يقيم مع الراشد علاقة ثنائية دمجية كالعلاقة الطفلية الاولى مع الام · ويبدي الكثير من الغيرة من رفاقه · فهو في حالة تربص دائم لاي أمر يمكن ان يعتبر غنما حصل عليه احدهم ، عندها يأتي مسرعا طالبا الانصاف والمساواة · ثورته عارمة واتهاماته للآخرين بالظلم والتجاهل أشد عنفا ، وكأنه لم يلق في يوم من الايام سوى الاهمال من قبلهم أو كأنه المنبوذ الابدي (انه يعيش وضعه كذلك في الواقع) · اي تمييز في المعاملة يمكن ان يأخذ طابع تفضيل الآخرين يحرك ازمته الاساسية : الحرمان الذي عانى منه ولا زال يشكل ثغرة هامة في حياته ·

وكما ان كل محاولات اقامة العلاقة معه تصطدم احيانا بجدار من الرفض في حالة التجنب كذلك فان احتجاجه ونقمته واتهاماته تبدو وكأنها غير قابلة للعلاج ، او تعلقه الطفلي الانقيادي والتملكي لا ينتهي وكأنه لن يخرج يوما من هذه الوضعية · في جميع الحالات تشكل العلاقة بين الحدث المحروم أو المنبوذ والراشد المسؤول عنه تحديا كبيرا لهذا الاخير تدفعه في كثير من الاحيان الى الخروج عن طوره وتثير تذمره أو عداءه مما قد يدفعه الى تجنبه · وهنا تسد الطريق امام امكان التأهيل ويغرق الحدث في يأسه وموقفه السلبي من الحياة· ان ذلك الموقف من قبل الراشد يحرك لدى الحدث كل مشكلة الحرمان ويدعم احساسه بالغبن الوجودي ، كما يثير عنده عقدة انعدام الثقة بنفسه : انه لا يمكن أن يكون محبوبا أو مرغوبا فيه · والواقع انه يتحرق شوقا كي يحصل على تقدير واستحسان الراشدين · فاذا حصل عليه يعود اليه التفاؤل انما بشكل مفرط ، حيث تدغدغ مشاعره آمال الخلاص السحري · ولكن هذا التفاؤل لا يدوم اجمالا كما سنرى ، فخوفه من عدم الحصول على التقدير والحب الذي يعيد اليه اعتباره المفقود يجعله ينغلق على ذاته ويتجنب الانفتاح على الآخرين · كما تؤدي مخاوفه من تجربة انفصال جديدة الى نفس النتيجة · ان قمع مشاعر الحب وانكار الحاجة اليه أهون كثيرا من الاحساس به مع عدم الامل في اشباعه · كذلك فان شعوره بالحرمان من حقه في الحب هو السبب وراء ثورته الدائمة على

المسؤولين واتهامهم بالاهمال والتقصير · وأخيرا فان خشيته من فقدان الحب الذي يكون قد حصل عليه هو أحد الدوافع المسؤولة عن تشبثه بالراشد وتصرفه بشكل انقيادي رضوخي استرضائي · على ان علاقات الحدث المحروم في فترة ما ليست متساوية دائما من حيث نوع الموقف والمشاعر المصاحبة له تجـــاه جميع الراشدين · تعميم المشاعر محدود جدا ولفترات قصيرة ، اما عمليا فانه يقيم علاقات مختلفة تصاحبها مشاعر مختلفة مع مختلف الاشخاص ، يتجنب الاول ، ويبدي عدوانا اضطهاديا تجاه الثاني ويتشبث بشكل طفلي استرضائـي بثالث · وهو يعطي لكل منهم دلالة مختلفة يسقط على الاول صورة الام المنبوذة من عالمه (لانها غير جديرة بحبه وتقديره) وعلى الثاني صـــورة الام النابذة المضطهدة (الام السيئة) وعلى الثالث صورة الام الخيِّرة (الحنون مصدر الحب) ·

أما الموقف من الاسرة فيظل مميزا ولو كانت له بعض السمات المشتركة مع الموقف من المسؤولين · هنالك في جميع الحـــالات وعلى مختلف درجات الحرمان أو النبذ أو السن الذي حدثت فيه أو نوع العلاقة اللاحقة مع الاهل ، خلفية عامة من الحسرة على الحب المفقود وشعور بالضياع والعجز مع تلهف شديد للعودة الى حالة طفلية خيالية كان يحظى فيها بحنان الام ورعاية الاب · هنالك دائما نوع من الامل السحري في أن تستقيم الامور ويعود الطفل الضائع الى حظيرة الاسرة التي تتمتع بالدفء الانساني والعلاقات الحميمة · يصاحب ذلك أحيانا شعور بالاثم على خطيئة وهمية يعتقد انه ارتكبها وان نبذه أو حرمانه عقاب عليها · وهو يعاني أشد الآلام نتيجة لشعوره بالادانة من قبل الناس أو الاقدار · ويتمنى لو يموت أو يتلاشى من الوجود (وفي ذلك نوع من العــودة الرمزية الى بطن الام بعد التكفير عن الخطيئة والقضاء على الصورة السيئـة عن الذات مع أمل ميلاد جديد) ·

ولكن هذه الوضعية ليست محتملة وجوديا · ولذلك تظهر عنده ردود فعل دفاعية متفاوتة في شدتها وعددها وتداخلها · هنالك مثلا رد فعل التجاهل · فهو لا يتحدث عن أسرته ولا يفكر بها (يبدو وكأنه ألغاها من مجال اهتمامه) وحتى لو طلب منه ذلك فانه يميل الى التهرب الصريح أو الضمني : يرفض الاجابة أو يجيب بشكل مبتسر او يتحدث بدون أن يبدي اي التزام عاطفي فيما يقوله · وهناك رد فعل النقمة والحقد على الاهل حيث يشعر أنهم سبب مشكلته وأنهـم كانوا دائما قساة عليه أو انهم ظلموه · أو هو يثور على اهمالهم له والاخلال

بالوعود التي قطعوها له · ويلاحظ أحيانا تعلق وتركز مرضي حول الاسرة ، لا يفكر الا بذويه قلق ومشغول البال عليهم نتيجة لانقطاع اخبارهم عنه يخشى أن تلم بهم النوائب أو تحل بهم الامراض أو أن يتعرض أحدهم لخطر داهم (خصوصا الام أو الاب) · ويحدث أن يتصور لنفسه دورا هاما في انقاذهم ومد يد العون لهم وحتى اعالتهم بنوع من قلب الادوار : يقلق عليهم حيث يتمنى ان يقلقوا عليه، يلعب دور المعيل حيث كان يود لو لعب دور الطفل · وينتج ذلك على الارجح من شعور بالذنب على نوايا عدائية انتقامية تجاههم لانهم نبذوه أو أهملوه ·

على أن الموقف هنا أيضا ليس ثابتا ولا هو وحيد الجانب بل الشائع هو التجاذب الوجداني ، فيتذبذب بين الحقد والتعلق ، بين الثورة والقلق ، بين التجاهل والانشغال الدائم ، وبين الحط من قيمتهم ورفعهم الى مكانة مثالية · وتتخلل كل ذلك محاولات لاعادة الصلة معهم يتبعها صراع وفرقة · يحدث مثلا أن يعيش شهورا على أمل لقاء الاهل وعندما يذهب الى زيارتهم في مأذونيته فانه يقضي معظم وقته خارج المنزل أو هو يهرب منه · يفر من المؤسسة مثلا بحجة الحاجة لرؤية اهله والاطمئنان عنهم فاذا به لا يذهب اليهم مطلقا ·

على كل حال يظل الحدث في معظم الاحوال أسير علاقته المضطربة مع أهله مما يؤثر كثيرا على عملية تأهيله فيصرفه عنها مدة تطول أو تقصر · ولا يتمكن من النظر الى الامور بشيء من الواقعية والتوجه في الحياة انطلاقا من ذلك الا بعد سنين طويلة من الصراع والآلام والضياع عندما يبرز أمامه امكان الوصول الى كيان ذاتي وهوية شخصية واستقلال نسبي عن الاسرة · ولكن الخلفية العامة التي سبق أن أشرنا اليها تظل نشطة معظم الاحيان ·

أمثلة سريعة مستقاة من التقارير النفسانية والاجتماعية توضح ما أسلفنا :

(ع) :

الذي سبق ذكر حالته وردت عنه الملاحظات التالية : اثناء الفحص النفساني يلاحظ تعبير عاطفي متحفظ جدا · يتكلم على نفس الوتيرة بدون أن يبدو عليه أي انفعال او تأثر· تبدو على محياه نفس التعابير الانقباضية (الخورية) المتبلدة · يعطي الانطباع انه يتألم بدون أن نحس أنه كذلك فعلا · لا يتخذ موقفا نشطا من مختلف الوضعيات الحياتية ، يظل

انسحابيا على وجه الاجمال · تجاه السلطة لا يظهر أي علامات على الرفض او الاحتجاج· يرضخ لها بشكل فاتر وبدون أي مبادرة · لا يحاول الحصـــول على رضى الفاحص أو المسؤول عنه · عندما لا يصل الى غايته يثور ويتمرد بصورة طفلية ولمدة قصيرة · يظل سطحيا وانعزاليا في علاقاته ·

يعاني من طفلية عاطفية بارزة · يفتقد جدته كثيرا ويشعر بالضياع بعد وفاتها · لا زال يرغب في العيش كطفل صغير محاط بالعناية من قبل الوالدين · يتألم كثيرا لعـــدم تجاوب والدته وجده معه ·

أما ع ··· الناقم على أسرته التي ظلمته والذي عمم مشاعر الاضطهاد نتيجة لقسوة أخيه عليه الى الحياة عموما ، فانه يعيش تحت شعار الغبن · الحقد على الآخرين الذين ظلموه هو محركه الوحيد ظاهريا · يرفض كل علاقة مع المسؤولين الا اذا كانت تساعده على انهاء مدة اقامته في مؤسسة التأهيل لانها أخذت بدورها دلالة الغبن · يزداد غيظه تدريجيا اثناء الحديث معه لدرجة يبدو معها كأنه سينفجر · ويعود هذا الغيظ الى طفولته الاولى وعلاقاته الصراعية مع ذويه · أدت به حالة التوتر الدائم ورفض وضعه كليا الى الكثير من حوادث الصراع والشغب مع رفاقه ·

ويعود سبب شغبه (كما ورد في التقارير النفسانية) الى محاولة الهروب من توتره الداخلي من وضع عائلي واجتماعي يعجز عن تحمله ويشعره بالبؤس الوجودي · يمـر بأزمات عنيفة من الشعور المؤلم بالوحدة والعزلة (كأن ليس له أحد في الحياة كما يقول) · ولقد ازدادت حالته سوءا في احدى الفتـــرات ، فأصبح يبدو كالضائع يرزح تحت وطأة قدر كتب عليه الشقاء في الحياة · لديه احساس داخلي بأنه محكوم عليه بالبؤس والفشل والمعاناة ، وكأن الحياة تريد معاقبته · وما هذه المشاعر سوى اسقاط لميول دفينة لعقاب ذاته وتحطيمها · بدأ يخشى عالمه الداخلي وما يحمله من خطر الايذاء له وللآخرين · كما بدأ يخشى الانهيار والوصول الى حياة السجون · ولذلك فهو يقمع ثورته ويسكت على مضض · لا يميل الى الحديث عن أسرته تلقائيا ويبدو أنه حاقد عليها تماما · الا أننا نجد في تقرير سابق تصريحا يعبر عن تعلق شديد بالاب اكثر من بقية أفراد الاسرة وهو بحاجة

الى صورة الاب كي يستمد منها القوة لمواجهة نزواته التي تخيفه · كما يحتاج الى سند دائم من قبل راشد متين الشخصية متفهم لوضعه يعوض له غياب الاب ·

وضعية ك ·· الذي فقد أمه ولم يجد عنها تعويضا في زوجة الاب تؤدي الى نموذج مختلف من الاستجابة كما ورد في التقرير النفساني : « خجول وصامت في بداية المقابلة وجه حزين ، صوت منخفض ، يكثر من الحركات اليدوية كتعويض عن صعوبات في التعبير·

منذ البداية يلاحظ عليه الرضوخ لقدر قاس يبقى أمامه عاجزا كليا · يحس أنه وحيد ، مجرد من كل سند ، فاقد للجذور ، قلق على مستقبله ، لا يعرف كيف يتوجه ، ليس لديه ملاذ ، وهو لذلك يفقد الثقة بنفسه وبقدراته ، وينقاد كليا لاي شخص يتمتع ببعض القوة سواء كان مسؤولا أم رفيقا · يلح دائما في طلب العون والتوجيه ويحاول القاء مسؤولية حياته على المسؤول عنه (وكأنه يريد بذلك أن يحله مكان الام التي نقدها) ·

« على المستوى العاطفي ظل كطفل صغير متعطش للحنان وللجو الدافء الذي يؤمن الحماية · يعيش على حسرة حياة أسرية مرحبة ولكنه يائس من امكان الحصول عليها »·
« يعوض عن كل ذلك باللجوء الى الهوام والتخريف حيث ينطلق في مغامرات خيالية يلقي فيها جميع الاخطار حتى يصل (كالامير الى الاميرة) الى وضع الشاب المحبوب المفضل الذي يحظى بالجاه والسعادة · المرأة (بديل الام) هي محور اهتمامه الاساسي ، وهو مستعد لعمل أي شيء كي يكسب ودها » · اننا ازاء حالة من الطفلية العاطفية ، ورغم تقدمه على طريق الشباب الا أنه ظل على المستوى الفمي في علاقته بالمرأة · موقفه من المسؤولين عموما كموقفه من المرأة استرضائي انقيادي ·

جـ ـ التجربة الوجودية :

من الامور الهامة في أية دراسة تهدف الى فهم السلوك معرفة التجربة المعاشة للشخص الذي يسلك كيف يعيش ذاتيا شرطه الانساني ، وما هي نظرته الى نفسه والى الآخرين والى العالم انطلاقا من معاشه هذا · بالاضافة الى العوامل الخارجية أو الداخلية التي تؤثر على السلوك وتحدده بدرجات متفاوتة من الحتمية هناك الانعكاس الذاتي لهذه الظروف · وهو أمر يختلف من شخص لآخر ، ويتوقف تأثير الظروف الخارجية او الداخلية كثيرا على الدلالة التي تأخذها في وعي الشخص والدلالة التي يتخذها وجوده انطلاقا من ذلك · هناك

اذا بالاضافة الى الحتمية الخارجة عن ارادة الشخص موقفه الذاتي ، تفاعله معها هو الذي يحدد الطابع الذي يتخذه سلوكه والتوجه الذي يسير فيه ·

ولقد أشرنا الى العديد من ملامح التجربة الوجودية للجانحين المحرومين عاطفيا في الفقرات والامثلة السابقة · انما يستحسن هنا أن ننظمها بالاضافة الى غيرها في صورة تتصف بشيء من التماسك ·

تجربة الحرمان أو النبذ تؤدي في معظم الاحوال الى تغيرات هامة في أسلوب الحياة وفي الدلالات التي يتخذها وجود المحروم وانعكاس هذه الدلالات على قيمته الذاتية ·

هنالك خصوصا الشعور بفقدان الاعتبار وانعدام القيمة والشعور بالضياع والوحدة · تؤدي جميعا الى الخوف من الحياة اجمالا والتشاؤم من المستقبل· يظل المحروم أو المنبوذ متركزا حول الفراغ الوجودي الذي خلفته تجربته ، أسيرا له لا يتمكن من التحرر منه أو تجاوزه ويشعر بوضوح باستحالة الخلاص الا من خلال سد ذلك الفراغ · واذا كان يشعر بشيء من التفاؤل فهو مشتق دائما من الامل في الخلاص السحري من المأساة بالعودة الى كنف الام ورفقة الاب · كل تفاؤل يشعر به اثر نجاح أو تقدير أحرزهما مرتبط بشكل أو بآخر باستعادة قيمته الاساسية ورد الاعتبار الى ذاته والثقة بها من قبل الام والاب · وهكذا تنتظم أحداث الحياة وتجاربها حول هذه النقطة الاساسية : التفاؤل أو اليأس · أي أمر عارض ، أي حدث ، قد يتخذ دلالة الامل في الخلاص السحري واستعادة القيمة أو على العكس دلالة الادانة والنبذ والضياع ·

ولذلك فان استجابات الحدث المحروم متطرفة على الدوام · فهو يستبشر ويتفاءل ويكاد يطير من الفرح أحيانا ويشعر بشيء من التضخم الذاتي الذي يصل حدا نفاجيا (١) أحيانا · يحس وكأن الوجود قد ابتسم له وكأن الخلاص أقبل· ولكن ذلك لا يستمر لمدة طويلة حيث انه سيجابه لا محالة بعض الصعاب والاحباطات (٢) ، وهنا قد ينقلب الموقف كليا ، فيطغى التشاؤم ، تنسد آفاق المستقبل ، تظهر مشاعر انعدام القيمة ويسود الخور ذو الطابع السوداوي ·

---

(١) نفاج : Mégalomanie

(٢) احباط : frustration

الحدث المحروم لا يستطيع تحمل الاحباط · انه يخشاه ، ويعيش في حاجة دائمة الى براهين على أنه لن يحدث · ولهذا السبب فانه يعيش في الحاضر رهن مـا يحمله من أحداث ، من صعوبات وامكانات ويغرق فيه لدرجة يصعب عليه معها تصور حلول ممكنة في المستقبل · وتبرز الحاجة ماسة حينئذ الى حل آنـي للمشكلة وبشكل محسوس ·

القلق الوجودي نشط دائما في الصورة ويأخذ أشكالا متعددة · وعندما تزداد وطأته تبرز مشاعر العدم والخوف من الموت ويصاحبها باستمرار النقمـة على الذات والرغبة في تحطيمها (تلك الذات التي لا تساوي شيئا لانها لم تحب أو لم تستحق الحب) · والميل الى عقاب الذات حاضر دائما في الصورة وان اتخذ شكلا ضمنيا احيانا · يعبر الحدث عن هذا الميل باليأس من الوصول الى أي مركز أو بالرغبة في الموت ·

وهو في كل حالاته في وضع من ينادي الآخرين مستغيثا قبل أن يفـوت الاوان · الا أن الواحد من هؤلاء لا يعيش دائما على هذا المستوى من التوتـر والقلق الشديدين فذلك غير ممكن عمليا خصوصا ان الانا لديه لا يتمتـع بالمتانة الكافية لتحمل وضعية من الضغط المزمن · يمر بفتـرات من الهـدوء والاستقرار وأخرى من الحماسة وثالثة من اليأس والتشاؤم ويتخلل كل ذلـك حالات من الهروب من الذات ومن الوضعيات التي تثير آلامها أو التي تسقـط عليها الذات آلامهـا ·

ويمكن رصد التجربة الوجودية للحدث المحروم من خلال تغيرات المزاج بين حالات أربعة : السوداوية العدمية (١) ـ العظام الاضطهادي (٢) ـ الاهتيـاج النفاجي التخريفي (٣) ـ الطفلية الدمجية (٤) ·

أفضل وسيلة لاستعراض هذه الحالات قد تتيسر لنا من خلال تقديم مثال واقعي ··

---

(١) السوداوية العدمية : Mélancolie annihiliste

(٢) العظام الاضطهادي : Paranoia persécutive

(٣) الاهتياج النفاجي التخريفي : Mégalomanie fabulatoire

(٤) الطفلية الدمجية · : Infantilisme fusionnel

(٥) :

حدث منبوذ ومهمل من قبل الوالدين في البداية ثم الام بعد وفاة الاب · نبذ بشكل ثانوي بعد تصرفاته غير المتكيفة التي نتجت بدورها عن اهمال تربوي سابق · ولقد عرضنا لحالته بالتفصيل في فصل الحالات الاجتماعية تحت اسم هاني ·

ترد في التقارير النفسانية عنه الملاحظات التالية : مسرحي مأساوي ـ يحب كثيرا أن يستعرض معاناته وآلامه · يضخم الامور كثيرا · يتحدث على شكل تداعي الافكار · ينتقل من موضوع الى آخر مفرطا حينا في وصف ضعفه وبؤسه بعيدا عن الاسرة وآخر في ادعاء القوة والجبروت وعدم التأثر والقدرة على التصدي · يشكو كثيرا من النبذ واهمال أهله والمسؤولين عنه · يعبر باستمرار عن رغبته في وضع حد لبعده عن أهله وبالتالي للآلام التي يعانيها · يشعر بالبؤس احيانا لدرجة تنهمر معها الدموع من عينيه غزيرة ، وترد على خاطره أفكار الموت كي يرتاح من هذا العذاب · عندما يشعر بالاهمال يثور محتجا على الغبن متهما الجميع بالتقصير والمراوغة ، مهددا باللجوء الى العدوان ·

لديه حاجة ماسة للتعبير عن الذات ، اذ يساعده ذلك كثيرا على التخفف من اثقاله الداخلية وآلامه الوجودية · يتحرق شوقا الى مظاهر الاعجاب به والرضى عنه ، يظهر عندها النشوة والفرح · وينطلق في هوامات تخريفية يروي فيها بطولاته ويتحدث عن قوته التي لا تقهر ، كما يروي بطولات وهمية حربية أو فروسية · وينطلق في الحديث عن اكتفائه بذاته وعدم حاجته الى أي انسان آخر ·

الا أن كلا الحالتين لا تدومان طويلا فسرعان ما تظهر حاجته الى الاعتماد الطفلي على شخص راشد يظهر له الحب ويرتبط معه بعلاقة دمجية · وهو بحاجة دائمة الى من يرفع له معنوياته ويواسيه ويشعره بقيمته والا فان نقمته على الحياة تصبح عارمة ويقف موقف المعاند الرافض لكل شيء ·

ان تقلب المزاج بهذا الشكل وان كان يظهر جميع جوانب التجربة المعاشة للحدث المحروم الا أنه لا يلاحظ بهذا الوضوح دائما · في الحالات الشائعة يطغى جانب أساسي من الجوانب الاربعة التي عددناها على غيره مما يعطي لشخصية الحدث طابعها الخاص · أما بقية الجوانب فانها تظل كامنة وتظهر بشكل ظرفي ·

د ـ الدينامية النفسية للحدث المحروم عاطفيا

يترك الحرمان العاطفي والنبذ من قبل الاهل آثارا عميقة في الحياة النفسية

للحدث ، خصوصا على المستوى اللاواعي • ولقد رأينا من خلال ما سبق قوله عن التجربة الوجودية وعن الحالة المزاجية ، وعن الوضعية العلائقية المظاهر الخارجية لهذه الآثار • ومن الضروري الآن أن ننظر في العمليات النفسية اللاواعية لنرى كيف تنتج تلك المظاهر •

يتركز الامر هنا كليا حول العلاقة مع الاهل ، الام والاب بالتحديد وانعكاسات تلك العلاقة على الحياة النزوية وعلى الحياة الهوامية وعلى التشبثات الفمية • وتساعدنا نظرية ميلاني كلاين حول الوضعية السوداوية والوضعية العظامية كثيرا في القاء الضوء على هذه الحالة •

نلاحظ أن الحدث المحروم أو المنبوذ يعيش في حالة متفاوتة من الخور الذي يتراوح ما بين التشاؤم واليأس من ناحية وبين السوداوية من ناحية ثانية • ويتخلل ذلك ردود فعل واتجاهات عظامية متفاوتة في شدتها تذهب بدورها من الاحتجاج والرفض الى المشاعر الاضطهادية الصريحة •

كما نلاحظ انه يعيش في حالة من التجاذب الوجداني بين العدوان وبين تحطيم الذات ، في حالة من نشاط الحياة الهوامية بشكل مفرط على خلفية من القلق الوجودي : تكثر هوامات الموت والدمار والاعتداء الذي يصل حد القتل • ويصاحبها هوامات الضياع والبؤس والحزن الشديد والعقاب •

يرافق هذه الظواهر نكوص عاطفي وتشبث على المرحلة الفمية الاتكالية في حالة من الشوق الى علاقة الرضاعة • وقد يكون من المفيد بهذا الصدد ان نذكر أن معظم المحرومين عاطفيا يعانون اجمالا من درجات متفاوتة من قصور النضوج العاطفي الجنسي • فالكثير منهم لا يهتمون بالجنس الآخر مطلقا • حياتهم وتخيلاتهم تخلو الى حد بعيد من الموضوعات الجنسية • واذا كان هنالك من اهتمام فهو يتخذ طابعا ما قبل تناسلي (علاقة طفلية بالمرأة على غرار العلاقة مع الام) أو طابعا ساديا حيث تبدو العلاقة الجنسية كاعتداء يولّد القلق ومشاعر الاثم •

تقول ميلاني كلاين ان اجتياف(١) موضوع كلي(٢) متعاطف ومرحب هو الذي

---

(١) اجتياف : Introjection

(٢) موضوع كلي : objet total

يخفف القلق المصاحب للنزوات الجزئية السادية التي تهدد بتدمير الـــذات والموضوعات الخارجية على حد سواء · فالليبيدو المتعلق باوضوعات الخارجية يتدخل كي يضع حدا للعدوان السادي ويخفف من همجية الانا الاعلى · ويساعد وجود أهل متعاطفين الطفل في هذا الامر فتتحول العلاقة من السادية التدميرية (الاضطهادية) الى علاقة ايجابية مع الموضوع الكلي الذي اجتافه الطفـــل (الام والاب) · ويتحول قلق الطفل من خوف أولي من خطر الموضوعـــات الجزئية الخارجية والداخلية الى قلق على الموضوع الذي اجتافه داخل الذات · فهو الآن يخشى على هذا الموضوع من نزعاته السادية الداخلـــية السابقة · والخوف على الموضوع المحبوب أو الخوف من عدم امكان حمايته هو الذي يؤدي الى بروز السوداوية التي تشكل مرحلة هامة على طريق النمو وانبناء الشخصية بشكل سليم · فاذا غاب الموضوع الكلي واقعيا أو كانت الصـــورة عنه مهـــددة بدل أن تكون مرحبة مطمئنة سد الطريق أمام الليبيدو لمجـابهة السادية العظامية والسيطرة عليها فتعود النزوات العدوانية الى السيطرة على حياة الطفـــــل النفسية ويبرز معها الانا الاعلى الهمجي ويأخذ العالم طابع العدوان وخطـــــر العدوان والانتقام والقتل وذلك على المستويين الداخلي والخارجي ، ويقع الطفل فريسة لهذه النزوات السادية : تلك هي الوضعية العظامية ·

الطفل المحروم أو المنبوذ عاطفيا يفتقد اذا حماية الموضوع الكلي الخارجي· وهو يقع في السوداوية لانه يخشى على هذا الموضوع الذي اجتافه من نزواته السادية العظامية · ونتيجة لهمجيـــة الانا الاعلى في تلك المرحلة فانه يحس بالذنب والمسؤولية عن غياب ذلك الموضوع وكأن هذا الاخير قد غاب انتقاما من الطفل على نزواته السادية المدمرة واقتصاصا منه · ولهذا السبب يحاول ان يصلح خطأه وان يعوض عن الاذى الهوامي الذي ألحقه بالموضوع من خـــلال عقاب ذاته وتدميرها · ومن هنا تمنيات الموت والاحساس بوطأة القدر الـــذي يشكل اسقاطا على الخارج لميل الانا الاعلى الى عقابه · أما القلق العـــــام والاحساس بالخطر المحدق الذي يعيشه الطفل المحروم فانه ينتج على الاغلب عن اسقاط ذعره الداخلي أمام نزواته السادية التدميرية العظامية على الخـــــارج والاحساس بأنه بدون دفاع أمامها · وعندما تطغى هذه النزوات فهي ولا شك ستعرقل امكان ارتباط الليبيدو بموضوع كلي يسمح بالوصول الى المرحلـــــة التناسلية ومرحلة النضج العاطفي · وقد يرتبط الليبيدو بالعدوان هنا وعندهـــا تتخذ العلاقة الجنسية طابع الايذاء السادي · امكان الهروب من هذه المشكلة يأخذ عدة أشكال : تجميد العواطف والنزوات عموما الذي يظهر على شكل تبلد

علائقي كما رأينا عند بحث مظاهر العلاقة عند المحرومين عاطفيا ، التعويض الهوامي ونفي السادية من خلال النكوص الى المرحلة الفمية قبل السادية ، وهنا نرى الحدث عاجزا خاليا من أي عدوانية حتى تلك التي ترمي الى توكيد الذات. كما يحدث أن يمر الحدث المحروم بفترة من العلاقات الاضطهادية والانسياق وراء النزوات السادية على شكل سلوك عدواني جانح لا يقيم وزنا لاي اعتبار او معيار . يحدث ذلك بعد أن يصل القلق النزوي درجة لا تحتمل وتكون الوسيلة الدفاعية الوحيدة هي الهروب من الخطر بالانغماس فيه . على أن هذا السلوك الجانح يتضمن تعويضا فميا بديلا من خلال تحويل التعلق بالام والبحث عن عاطفتها الى التعلق بالاشياء القابلة للاستهلاك . وسنرى توكيدا لذلك عند استعراضنا للتجربة الجانحة حيث يمر الحدث بتجارب لواطية وتعاطي المخدرات وغيرها . كما أن العلاقة مع رئيس العصابة أو القرين اللواطي تأخذ في هذه الحالة طابع البحث عن الحماية من خلال اسقاط دلالة الام عليه .

النبذ والحرمان يؤديان اذا الى هز بنية الشخصية في أعمق مستوياتها النفسية . ويزداد هذا الاحتمال لان العلاقة بين الحدث وذويه تكون ركيكة منذ البداية ، منذ الطفولة الاولى . التواصل اللاواعي خلال عملية التفاعل الاسري ينقل الى الطفل العدوان الضمني وعدم الاهتمام الحقيقي به من قبل الوالدين. ولذلك فمن المحتمل أن لا يشكل الموضوع المجتاف كليا حماية كافية ضد السادية الطفلية وان يتميز موقف الطفل نحوه بالتجاذب الوجداني (مشاعر العداء الشديد الناتجة عن المرحلة العظامية ومشاعر القلق عليه الناتجة عن اجتياف جزئي ومشاعر الاثم الناتجة عن الانا الاعلى الهمجي) . فاذا حدث انفصال فعلي فيما بعد أو نبذ صريح فانه ولا شك سيفجِّر الصراع في تلك البنية النفسية لانه يحدث على تربة تتميز بدرجة عالية من الاستهياء. ولذلك فان تأهيل المحروم عاطفيا ومساعدته على الوصول الى النضج العاطفي والعلائقي والاجتماعي يظل أمرا عسيرا يستغرق سنوات طويلة من الجهد الدائب من قبل أشخاص يتمتعون بقدر من التوازن ومتانة الشخصية والتعاطف لدرجة تعطيهم قدرة التعويض عن الموضوع الكلي الاصلي . بهذا التعويض فقط يعود التوازن والاستقرار الى نفسية الحدث المحروم من خلال اجتياف موضوعات كلية بديلة مرحبة .

يمكننا الآن أن ندلل على ما قدمنا حول دينامية الحياة النفسية للمحروم عاطفيا بنماذج من الاستجابات الاسقاطية التي يقدمونها على رائز تبصر

المتون (T.A.T) الذي يعكس بشكل جيد الصراعات العائلية · وسيقتصر عرضنا على بعض اللوحات التي تعكس اكثر من غيرها المآزم الاسرية : العلاقة الثلاثية ، اللوحة رقم ٢ ، العزلة والمعاناة ، اللوحة رقم 3BM ، العلاقة بين شاب وامرأة مسنة (شاب وأمه ؟) اللوحة رقم 6BM ، العلاقة بين شاب ورجل مسن (ابن وأب ؟) اللوحة رقم 7BM ، هوامات العدوان على الاب اللوحة رقم 8BM ، لوحة التشرد والضياع 13B ، لوحة العلاقة الجنسية وصراعاتها 13MF ·

د ··· الذي لقي الاهمال من والده المسن الذي يهتم بمواشيه اكثر من أولاده أجاب كما يلي :

١ ـ لوحة رقم ٢ :

هيدي كانت حاملة كتابين وفزعانة ، عم تتطلع هيك · وهيدي متكتفه هيك كمان زعلانة · وهاي زلمي عم بيقول لها تعالي وعم يتطلع عليها هيك (للمرأة الكبيرة) بدو يأخذها معاه · (سؤال : ليه ؟) بركي حدا جاي ليهم بدو يقوصهم هيك شي · بيركبها على الحصان وبيروح البنت بدها تهرب وفزعانة على هول · بركي في شيء جاي ليهم بدو يقتلهم ، مثل عصابة ، مثل شي هيك ·

٢ ـ لوحة رقم 3BM :

هاي في واحد ميت هون وقاعدة عم تبكي عليه · عم تبكي عليه لانه مات · (سؤال : من هو) واحد هوني ···

٣ ـ لوحة رقم 6BM :

أمه لهيدا عم تتطلع هيك لتحت وفزعانة · من الشباك عم تتطلع وهيدا زعلان · هيدا عسكري ما هيك ؟ (د ··· يسأل الفاحص) حامل في يده قبعة · فزعانة كيف بدو يروح هالعسكري وانشغل قلبها عليه · (بعدين ؟) بيروح الزلمي وهي تبقى وحيدة ·

٤ ـ لوحة رقم 7BM :

هول اتنيناتهم قاعدين عم يبكوا (ليه ؟) بدو يكون على شيء حدا ميت لهم · يا اما راحلين من بلادهم ·· بعدين بيفلوا ·

٥ ـ لوحة رقم 13B :

هاي محتلين بلدهم وهيدا قاعد هون لحاله ، ما في حدا غيره • قاعد عم يبكي امام الباب وجوعان ، منين بدو يأكل ؟ قاعد هون بلا حذاء ولا شيء ، ثيابه ممزقة ، بردان من الهوا • عامل ايديه هيك عم ينفخ على يديه • وبعدين بيفل وبيروح يفتش على أكل حتى يأكـــل •

ان القراءة العاجلة لهذه الاجابات تظهر بوضوح مدى المعاناة الداخلية لهذا الحدث • موضوعان يهزان حياته النفسية : خطر الموت وبؤس التشـــرد والانفصال عن الام • انه يعيش على المستوى اللاواعي في حالة حداد نفســي نتيجة للاخطار (الموت ، القتل) التي يمكن أن تحدثها نزواته السادية ، التـي أسقطها على اللصوص وعلى الغزاة ، على الموضوعات المحبوبة التي يخشـى عليها • ذلك هو موضوع اللوحة الاولى : قلق الفتاة على ذويها من العصابة • على أن هناك تمويه للاسرة من خلال ابقاء العلاقات غامضة بدل أن تكون علاقات أسرية (زلمي ، هيدي ، وهيدي !!) • انه يبكي أسرته ويتمنى في نفس الوقت أن تبكيه أسرته ، أن تفتقده • انه يعبِّر عن بؤسه نتيجة لوجوده وحيدا ويعاقـب ذاته في نفس الوقت • على كل حال انه بطل مأساة يلقى العناء ويتعرض للمخاطر من عالم مهدد • ونلاحظ خصوصا ان المأساة تبقى بدون حل في معظم الحالات ولذلك فمن البديهي أن يطغى التشاؤم والقلق على عالمه كما ذكرنا في موضــع سابق • فقط السلوك الجانح (بيفل وبيروح يفتش على أكل حتى يأكل) يظل الحل البديل الممكن لهذا الحدث الذي أقامت مشاعر العداء حاجزا بينه وبين علاقات أسرية صحيحة •

جـ ••• الحدث الذي أهملته أمه وتبنته جدته ثم تشرد بعد موتها وصراعه مع جده يعكس في اجاباته عالمه المقلق المتشائم العاجز •

١ ـ اللوحة رقم 3BM :

امرأة بيجوز متزوجة ومتعذبة في هذه الحياة • بتكـون متأثرة من شيء• اما مـن زوجها واما من هذه الدنيا وقاعدة •••• (بعدين) اكيد بدها تتوصل لامراض ، زعـل ، وبدها تتعذب في حياتهـا •

٢ ـ اللوحة رقم 6BM :

ملاحظة : اظهر صعوبة واضحة في الاسقاط على هذه اللوحة •

هيدا الشخص عم يسال أول سؤال وهي غير راضية ٠ زعلان ومنرفز ويفكر بطريقة حتى يقنعها ٠٠٠ من الجائز أن يكون متزوجا ومتخاصما مع زوجته (من هي ؟) ٠٠٠ مثلا يمكن يكون محبا لامرأة ويطلب من أمه أن تخطبها له ٠ وأمه مش راضية ٠ من الجائز انها سمعت عنها شيء مش منيح ٠

٣ ــ اللوحة رقم 7BM :

هيدا شاب ٠٠٠ له ثقة بابيه ٠ وفي مشكلة عم يطرحها على أبيه والاب يشرح له ، أو بيحب شي بنت مثلا ويطلب من أبيه ان يخطبها له : بعدين تتم الخطوبة لان الاب يظهر حنونا يحبه ٠

٤ ــ اللوحة رقم 8BM :

أظهر صدمة عدوان ٠

ما فهمان عليها هذه الصورة ٠٠ ما فهمان كيف هالمنظـر ٠ في شابين عم يقتلــوا واحد ٠ عم يضربوه بالسكين ٠ أكيد بدو يكون هناك سبب ما ٠ واضعين صورة ابنه هون٠ بدو يكون هيدا السبب ٠٠ أو بيكون عم يحلم بناس جايين يقتلوه ٠

٥ ــ اللوحة رقم 13MF :

هيدا رجل بيكي ٠ اما زوجته مريضة أو حدث لها شيء ، مثلا توفيت أو صار لهـا شيء ٠٠٠ أو بيكون تعاطى معها بالعادة الجنسية وبيكون خالص وقايم ٠ او انها مش قبلانه معه مثلا وحاطط يده على رأسه هيكي ٠٠ ويمكن تــدل على غير شيء ايضا ٠ رجل وزوجته فقراء ٠ زوجته مريضة وهو لا يستطيع علاجها ٠

أول اجابة تعكس وضعه تماما كحدث معذب في الحياة لا يحظى بالعنايـة والمحبة ٠ وهو نتيجة لذلك يشعر بالعجز (متعذبة من هاالدنيا وقاعدة ٠٠٠) لا يرى حلا يمكنه الوصول اليه شخصيا ولا يتوقع غير مزيد من البؤس الوجودي ٠

ثم يبدو بوضوح أن لديه مشكلة مع صــــورة الام ٠ هنالك خلط بين الام والزوجة ٠ ولقد عاش واقعيا يخلط بين الام والاخت ٠ هنالك تعلق آثم بالام يدل عليه هذا الخلط وكذلك الصعوبة التي وجدها في الاسقاط على هذه اللوحة ٠ ثم ان آخر اجابة له تدل بوضوح على المشكلة الجنسية مع المرأة عموما حيث يتذبذب ما بين العلاقة الجنسية ونفيها وهو في الحالتين في وضع لا يستطيع الوصـول الى حل معقول وعلاقة منسجمة ٠

الاجابة الوحيدة ذات الصبغة الايجابية نجدها على اللوحة رقم 7BM في العلاقة مع الاب· الا ان اللوحة التالية تظهر بوضوح ان هنالك مخـاوف شديدة لديه من النوايا العدوانية تجاه ذلك الاب أدت الى ظهور صدمة عـدوان ونفي النزوة وتحويلها الى الذات (عقاب الذات) حيث يحلم أن الصبي هـو الذي يهاجَم ويقتل· · العجز واضح في كل اسقاطاته فهو يحتاج الى أب يأخـذ بيده ويفشل في الحصول على رضى الام والتفاهم مع الزوجة · وهو كزوج (في اسقاطاته) يعجز عن مجابهة الاخطار الخارجية : خطر المرض ، خطر العدوان· هنا ايضا نرى كيف يعيش الحدث المحروم في عالم مهدد وعدواني يفتقر الـى الاحساس بالطمأنينة ·

ثالثا ـ الملامح العامة للانحراف الناتج عن الحرمان العاطفي :

لا يمكن دائما التمييز القاطع بين السلوك الجانح أو التجربة الجانحـــة للمنبوذ او المحروم عاطفيا وبين الانحراف الناتج عن مآزم نفسية عصابية أو ذلك وليد البيئات المفككة · فالحرمان العاطفي يشمل كلا الامرين معا · هنالك دائما مازم نفسية أسرية تتفاعل في حالة الحرمان مع ظروف اجتماعية تتصف بدرجة عالية من خطورة الانحراف · وهكذا فاننا نجد بين المحرومين جميع أشـــكال ودرجات ودلالات الانحراف · الا أن ذلك لا يمنعنا البتة من النظر في تجربتهـم الجانحة اذ ان لها بعض الملامح المميزة ـ وذلك على عدة مستويات ·

تأخذ التجربة من حيث تطورها شكلا تدريجيا او فجائيا تبعا للظروف · هنالك مثلا حالات صراع مع الاسرة المهملة او النابذة تقود أولا الى التشـــرد والتسول ثم التطفل على جماعات الجانحين وبدء الممارسة الجانحة بعد ذلـك بمقدار ما تتوثق الصلة معهم · ويكون الانحراف أمرا ثانويا والبحث عن الانتماء الى جماعة بديلة هو الاساس · على أن الامر قد يتحول تدريجيا الى عكسه بعد فترة من التدريب على السلوك الجانح وبعد أن يكون الحدث قد تقدم قليلا في الخبرة والسن ، واكتسب قدرات جانحة وثقة بنفسه · في هذه الحالة تصبح الحياة الجانحة نموذجه الاساســـي في العيش ويفتش بالتالـــي عن الاجـواء والجماعات التي تدعَم ميوله ·

كما اننا نجد نموذجا آخر مغايرا لما سبق · الحدث في حالة صراع مـع الاسرة ولكنه لم يقطع الصلة بها · وقد يظل الصراع كامنا لا يدل عليه سوى

هروب متقطع من البيت لفترات قصيرة وعودة اليه مع فشل مدرسي او عـــدم استقرار مهني · ثم تظهر حالات السرقة من البيت أو الجيران · ومع تكرارها يتفجر النبذ صريحا مما يؤدي الى تشرد الحدث وانقطاعه كليا عن البيت مــع انغماس في الحياة الجانحة · هنالك حالة ثالثة تأخذ طابع النزاع والعـــداء الصريح بين الحدث وأسرته ، يبقى فيها ولكنه يفلت كليا من سلطتها وينغمس في حياة اللهو والانحراف · ويتحول البيت في هذه الحالة الى ما يشبه الفندق وتتحول العلاقات مع الاسرة الى تباعد وغربة · وتعاش التجربة تحت شـعار الادانة المتبادلة ، كل طرف يضع اللوم والمسؤولية على الآخر · يغلب أن يحدث ذلك في حالات النبذ أكثر من حالات الحرمان ·

أخيرا قد تبدأ الحياة الجانحة الصريحة بشكل فجائي اثر انهيار الاسـرة وخصوصا اثر فقدان الشخص الذي كان يشكل مرجعا وسندا عاطفيا للحدث · يشعر بالضياع وتزداد الامور سوءا نتيجة لعدم وجود بديل يعوض له ما فقده · ويصل الامر درجة الخطر عند بروز صراع بينه وبين من بقي في الاسرة (أم أو أب أو جد الخ ···) فيتشرد الحدث وتقطع الصلة مع ذويه ، وينخرط في تجارب جانحة ليس من الضروري أن تصطدم بالقانون مباشرة · ويستمر في ذلك وقتا يطول أو يقصر حتى تبدأ تصرفاته بتشكيل ازعاج للآخرين فيدخل عندها في حلقة الجانحين قانونا ·

يعطينا ج ··· مثالا واضحا على هذه الحالة · فهو بعد موت جدته التي تبنته شعر فجأة بالضياع وفقدان السند ، وبدأت بوادر سوء التكيف المدرسي والمهني تظهر عليه مما أدى الى صدام مع الجد الذي لم يظهر صبرا عليه ولا تفهما لوضعه · وانتهى به الامر الى قطع الصلة مع المنزل والتشرد شهورا عدة · كان خلالها يعاشر عصبة من الاحداث غـير المتكيفين ويقضي الجميع أوقاتهم في أماكن التسلية واللهو مع تعاطي المسكرات والمخدرات والمرور بتجربة اللواط · وعندما أحس بالحاجة الى النقود بدأ يسرق حتى قبض عليه ·

في الحالات السابقة قد يطغى الطابع الفردي على تشرد وانحراف الحدث· ويعيش تجربة وجودية تتميز بمشاعر البؤس والقدرية والعجز والضياع ، وفي حالة حسرة لا تعالج وبحث دائم عن الشخص الذي كان يحبه ويحميه ·

حدث ذلك مع ك ··· الذي فقد أمه بالطلاق وأقام مع زوجة أبيه ثم بدأ يسرق ويظهر تصرفات غير متكيفة رغم عناية المحيط الظاهرية به · وفي سن العاشرة بدأ يهرب من المنزل ويتشرد ويذهب في كل اتجاه ممكن · وحيثما وصل كان يستدر العطف من بعض الناس

فيقيم بينهم ولكنه كان يميل الى السرقة حتى من الذين آووه · وكان يعترف بسرقاته عندما يقبض عليه وغالبا ما كان يقبض عليه · وكأنه في كل ذلك كان يبحث عن الام أو بديل لها· وهو لم ينتم أبدا الى عصابة جانحة · بل ظل كالطفل الضائع في الحياة يبحث عن علاج لوحدته ويجسد مأساة تلك الوحدة في آن معا ·

أما م ··· فهو انسحابي انقيادي مع أنه يخفيّ وراء ذلك شحنة كبيرة من العدوان ومشاعر الاضطهاد · كان متذبذبا في مشاعره تجاه الاسرة وتجاه المسؤولين في مؤسسة التأهيل حيث أقام فترة من الزمن · كان يتعلق بهم ويهدأ لبعض الوقت طالما حظي بقـــدر كبير من الاهتمام · ولكن عند ظهور أي احباط أو تجاهل كانت تثور ثائرته ويهرب من البيت أو المؤسسة في الحالتين كان يميل الى التشرد والتسول ولم يقدم على جنح عنيفة او نشيطة · وقع أثناء تشرده على أحد رؤساء العصابات الذي يتمتع بالقوة والسطوة وقامت بينهما علاقة لواطية · أولع به رئيس العصابة وشعر هو بالحماية والحب والمكانة· ولم يكن انفصاله عنه بالامر الهين · كان يعود اليه عندما يشعر بالحرمان الذي لا بد ان تتضمنه الحياة المتكيفة · كانت العلاقة اللواطية تشكل ملاذا بالنسبة له في صراعه مع العالم المحيط ·

على أن الحدث المحروم عاطفيا لا يتوجه بشكل نهائي نحو الانحراف منـذ البداية · فهو يظل متجاذبا لفترة طويلة من الزمن في اتجاهـــاته · يحاول ان يتكيف ويبذل الكثير من الجهد كي يتقدم في تأهيله · يتفاءل مع كل نجاح يحرزه وترتفع معنوياته ويستعيد الثقة بنفسه· وهنا يفكر بالاسرة من جديد والعودة الى الحياة السوية حيث الحب والود والحماية · الا ان الامر لا يستمر كذلك · أزمات التشاؤم أو الخور تظهر بشكل دوري · يفقد الثقة بنفسه وينغلق على ذاته ويزداد توتره الداخلي وينظر الى المسؤولين عنه وكأنهم أغراب لا معرفة له بهم ولا أمل يرجى منهم · وقد تتحول علاقته معهم الى الاضطهاد · وعند هذا الحد ينهـار كل شيء · ينسف كل ما حققه من تقدم ويهرب من المنزل أو المؤسسة كي ينخرط في تجربة جانحة تطغى عليها السرقة وتعاطي المخدرات أو اللواط أو التشـــرد البائس · ويعود سيرته هذه مرات عديدة قد تصل الى العشرات ما بين فترات الاستقرار ونوبات الانحراف حتى يستقر نهائيا أو ينجرف بشكل لا رجعة له عنه في عالم الانحراف · ويحدث هذا الاحتمال الاخير كثيرا اذا اصطدم بالقـانون بشكل يقلق المحيط ويؤدي به الى السجن مرة أو اكثر ولفترات قصيرة حيث يكون قد تقدم في السن ووصل حد المسؤولية الجنائية ·

قد تكون هذه الدورية من أبرز مميزات الانحراف عند المنبوذين والمحرومين

عاطفيا · فهم دون سواهم يتأرجحون سنوات طويلة ما بين أمل الخلاص واصلاح الامور واليأس من الحياة والرزوح تحت مشاعر القدرية ·

وتحمل جنح المنبوذين والمحرومين عاطفيا دلالات متنوعة · الا أنها تدخل في معظمها في اطار ردود الفعل النفسية · أهم الدلالات وأكثرها شيوعا هي التعويض عن الحب المفقود وقد يتخذ هذا التعويض طابع استبدال الحب بالاستهلاك والتملك الماديين · ويتخذ الاستهلاك هنا طابعا فميا على الاغلب · فالحدث يعيش وليمة فمية تحمل معنى القضاء على البؤس أو العوز · اذ كثيرا ما يتحول في هذه الحالة الحرمان من الحب الى شعور بالعوز المادي · كما قد تحمل التصرفات الجانحة طابع الانتقام العدواني والثورة على الحياة وكل من يمثلها من الكبار الذين يحرمون أو ينبذون · وهنا تعمم مشاعر الحقد تجاه الوالدين وعلى الراشدين بدون استثناء ·

الا أن الامر في الحالتين يتضمن دائما قدرا متفاوتا من تجسيد مأساة الحرمان · فوراء المغامرة هناك حسرة دائمة على فقدان الاهل · كما يتضمن عقابا للذات وتدميرا للصورة السيئة عن الوجود التي يولّدها الحرمان · ويحدث ذلك في حالة من الاحساس بقدرية لا مفر منها يتقبلها الحدث راضخا مستسلما·

دلالة التشرد والانحراف في حالة الحرمان العاطفي متعددة الجوانب اذا وتخضع لقانون تضافر المحددات ، فهي ليست صافية في أي من حالاتها ، كما انها ليست صافية في أسبابها · التعقيد والتفاعل الجدلي للدوافع هنا كما في أي ظاهرة اخرى هو مفتاح الفهم الصحيح · وأي تبسيط او اختزال ليس سوى وقوع في السطحية والضلال المعرفي ·

الفصل التاسع

العصاب والانحراف

العلاقة بين الاضطرابات النفسية ، سواء انتظمت في عصاب صريح أم لا، وبين الانحراف ، شديدة التداخل والتعقيد · ليس من السهل دائما ان نحدد الحالات التي يرجع فيها الانحراف الى اضطراب عصابي ، فالعلاقة ليست ثنائية محضة، بل تتدخل فيها عوامل اجتماعية وأسرية متنوعة تجعل المنحرف المضطرب نفسيا يختلف بدرجات متفاوتة عن العصابي العادي من حيث دينامية الشخصية واقتصادها ونمط علاقاتها بالمحيط وموقفها من معاييره · كما ان الانحراف قد يشكل دفاعا ووقاية من العصاب وما يتضمنه من قلق وآلام معنوية ، كما هو الحال في الانحرافات الطباعية· ويصل الامر أحيانا حد التعارض الصريح بين الفئتين· الا أن ذلك هو الاستثناء · واقعيا تلاحظ الاضطرابات النفسية والمآزم الذاتية بكثرة عند الجانحين العاديين ولكنها ليست هي المسؤولة عن انحرافهم ، انها وليدة وضعية اسرية تعاني الاضطراب النفسي وسوء التكيف الاجتماعي في آن معا · العنصر الحاسم هنا هو الوضعية الاجتماعية بما تحمل من اخطار سوء التكيف · الا أن العكس ممكن الحدوث ايضا ، حيث نلاحظ احيانا حالات تطغى الاضطرابات العصابية فيها على دينامية الشخصية وتبرز كقوى محددة للسلوك الجانح بصرف النظر عن وضعية بقية القوى · يتكرر هذا الامر في أسر مكونة تكوينا حسنا ومتميزة بدرجة جيدة من التماسك الزوجي ورعاية الابناء · كما قد يتكرر في أسر تعاني من سوء التوافق الزوجي والاجتماعي مما يضيف الى الاضطراب النفسي اضطرابا اجتماعيا يعزّز احتمال الانحراف·

على أن التماسك والتوافق في الحالة السابقة قد لا يكون بالضرورة حقيقيا على المستوى النفسي ولو بدا كذلك اجتماعيا • قد تكون هناك صراعات ومـــآزم زوجية أو والدية كامنة • تنعكس في سلوك الطفل كما سنرى عند بحث عصاب الطبع والانحراف • ولكن الحالة الاكثر شيوعا هي اسقاط المآزم على أحد الاطفال دون اخوته وحصره بذلك الطفل الذي يصبح مضطربا أو غير متكيف بينما يستمر الجميع على توازنهم وتوافقهم •

وهكذا تتنوع الحالات عمليا بشكل يكاد يثبط عزيمة الدارس الذي يبحث عن أنماط صافية أو سببية وحيدة الجانـــب في شأن العـــلاقة بين العصـــاب والانحراف • ولكن هذا البحث يظل له ما يبرره من الناحية العيادية ، فمن الهام أن نميّز مختلف الفئات التي تشكو من مآزم عصابية لان الاجراءات التربويـــة والتأهيلية التي تحتاجها ونمط استجاباتها لها وللوضعية العامة في المؤسسة يتطلب خططا خاصة •

على أن هذه النظرة الجدلية لم تجد لها مكانا في دراسة الجانحين الا في مرحلة متأخرة من البحث العيادي • في البداية قال المحللون النفسيون بالتطابق بين العصاب والانحراف • استندوا في ذلك الى كثرة هوامات السلوك الاجرامي والنوايا اللااخلاقية التي تحفل بها الحياة النفسية للعصابيين على المســـتوى الواعي او اللاواعي • ومن ناحية اخرى فالجانح يخفي مآزم نفسية وقلقا طاغيا وراء ذلك القناع الظاهري من القسوة أو اللامبالاة •

وفي مرحلة تالية تغيرت هــذه النظرة الى نقيضها • فالتعارض كلي بين الجانح والعصابي • ويبرز خصوصا على مستوى الاسلوب العـــام للوجود : الموقف من الذات ، الموقف من العلاقة والموقف من المعايير الاجتماعية •

هذا التناقض وجد تجاوزا له في الاهتمام بدينامية شخصية الجانح على المستوى اللاواعي وبشكل نوعي مما أفسح المجال امام دراسات قيمة جدا • الا أنها تخرج عن موضوع بحثنا الراهن وهو الاهتمام بالجانحين العصابيين أو الذين يعانون مآزم عصابية •

وقد يكون من المستحسن هنا وقبل أن ننكب على بحث خصائصهم ان نتحدث

قليلا عن خصائص السلوك الجانح المرضي · ونستعين في ذلك بدراسة قيمة حول السرقة المرضية · (١)

السرقة المرضية :

للسرقة المرضية مظاهر خارجية وخصائص مميزة يتمكن الباحث من خلالها التمييز بينها وبين السرقة العادية · أهمها ما يلي :

١ ـ الشكل الخارجي للسرقة : فالسرقة الفردية تثير الانتباه اجمالا من الناحية المرضية خصوصا اذا تكررت بدون اشتراك آخرين أو عصابة وهنا يلاحظ أن الجانح انعزالي اجمالا غير مندمج في جماعة · يهيم على وجهه ويقدم على سرقات ذات طابع بائس او مغامر او ملفت للنظر ·

أما السرقة في عصابة فأميل الى ان تدخل في اطار الانحراف العادي ، على أن ذلك لا يمنع مطلقا معاناة أفراد هذه العصابة من اضطرابات نفسية متفاوتة في شدتها ·

٢ ـ طريقة ارتكاب السرقة : تساعدنا كثيرا في التفريق بين حالات السواء والمرض · فالسرقة الاندفاعية النزوية التي لم يخطط لها ولم تنفذ بمهارة ، أو تلك التي لا يحتاط السارق خلالها لحماية نفسه من الملاحقة · وكذلك تلك التي يبدو عليه وكأنه يحاول لفت الانتباه اليه واثارة الشكوك حوله، كلها حالات تدل على وجود اضطراب أكيد عند الجانح ·

فقد يحدث ان يسرق الحدث من مكان ما ثم يظل يتجول في نفس المنطقة بشكل يثير الشكوك فيقبض عليه وسرعان ما يعترف · أو ذاك الذي يسرق وينام في مكان السرقة اذا دهمه النعاس · يدل ذلك على اضطراب نفسي أو تخلف عقلي أو طفلية مفرطة او كلها جميعا ·

ثم يجب النظر في الاعمال التي قد تصاحب السرقة كاضرام الحرائق، أو تحطيم بعض الاشياء أو المتاع بدون مبرر اجرائي أو تلطيخ مكان

---

(1) Le vol phathologique, L. Cotte et L. Thevenin in études de criminologie clinique, Marcel colin et col. 1964 masson, Paris.

السرقة أو تناول الطعام أو العبث في بعض المتاع ذي الدلالة الرمزية ، كلها تدل على المرض بشكل صريح · فالعملية هنا تتجاوز الغاية الانتفاعية التي توجه السرقة العادية كي تكتسب دلالة نفسية رمزيـــة واعية أو لا واعية بالنسبة للسارق ·

٣ ـ طبيعة الشيء المسروق : كل الاشياء غير المفيدة أو التي لا يمكن استعمالها أو بيعها تدل على سرقة ذات طابع طفلي عبثي أو عصابي · ومثلهـــا الاشياء عديمة القيمة أو تلك التي لا تتناسب قيمتها مطلقا مع الاخطـــار التي يتعرض لها السارق · الدلالة الرمزية غالبة في هذه الحالة · حيث يحتمل أن يكون لها قيمة خاصة في نظر السارق ، أو هي تدل على عبثية طفلية وانعدام القدرة على التمييز وتقدير ابعاد ونتائج السلوك · ويقترب من ذلك سرقة المواد الغذائية او الاطعمة التي تستهلك شخصيا من قبـل الحدث الجانح · نحن هنا بصدد سلوك تعويضي صريح يستبدل الاستهلاك الغذائي بالحب نظرا للرابطة الوثيقة بينهما ·

٤ ـ مصير المتاع المسروق : من أبرز الدلائل للتفريق بين السرقة المرضيـــة والسرقة العادية · في الحالة الثانية يطغى الطابع الانتفاعي على نـــوع المسروق والاستعمال التالي له بشكل مباشر او غير مباشر · أما سرقة الاشياء لتجميعها او تحطيمها أو توزيعها على الرفاق او لاكلها كلها تدل على مظاهر مرضية · على أن العكس ليس صحيحا · فقد تخفي السرقة الانتفاعية تكوينا عصابيا أكيدا وتكون مدفوعة بدوافع مرضية ·

٥ ـ شخصية الضحية : قد تكون لها قيمة في التفريق بين السواء والمرض ، فالسرقة من العائلة ، من أحد الوالدين ، من رب العمل أو من مكان محدد فقط ، كذلك السرقة من نوع محدد من الناس ، يغلب أن تكون مرضية · للضحية دلالة هامة هنا حيث تسقط عليها معان رمزية والدية خصوصا · السرقة من الاب مثلا قد تحمل معنى التعويض القضيبي · السرقة من رب العمل أو من سيدة عجوز قد تدل على ازاحة الصراع النفســـي (التعويضي أو الانتقامي) من الوالدين الى من يمثلهما ، كذلك الحدث الذي اعتاد نشل السيدات المتبرجات المتعاليات اللواتي كن يثرن في نفسه مشاعر الحقد والرغبة في الانتقام منهن واذلالهن من خلال تجريدهن من نقودهن · انه صراع أوديبي حاد ورغبات آثمة تدور حول الام التي يئس

من الحصول على حبها · وهو الى ذلك انتقام وتغطية لمشاعر الخصـــاء التي يعانيها والتي تجعله يرى المرأة ككائن لا ينال ويشعره بالدونية · وقد يحمل النشل هنا معنى سلب الام قضيب الاب الذي تتباهى به في حالة من اللواطية الكامنة ·

على أن السرقة من الاسرة قد تكون نذيرا ببداية حياة جانحة على مستوى عال من الخطورة من الناحية العيادية · حيث تشير الى انهيـــار الروابط العاطفية الايجابية بين الحدث وذويه والى تحويـــل الحب الى امتلاك واستهلاك ماديين · وكلا الامرين يشير الى فقدان الصلة بالعالم المتكيـــف ·

٦ ـ الحالة المزاجية للسارق : في السرقة المرضية يحتمل أن يبالغ السارق في مشاعر الذنب لدرجة تقترب من ادانة الذات التي تصاحب الارجـــــاع السوداوية · فلا غفـران له ولا مجال لتصحيح خطيئته التي الحقت به او بذويه العار · وقد يصاب الجانح بنوبة من الخور الصـريح · وهو الى ذلك قد يستعطف ويطلب العون من الآخرين لاصلاح الامر · نحن هنا أمام سرقة مرضية ترتكب تحت شعار عقدة الذنب وعقاب الذات على غلطـة وهمية · كما قد يلاحظ حالات يعتد فيها الحدث بما أقدم عليه من سرقات يرويها على شكل مغامرات أبطال مأساويين · أو هو يفتخر ببراعته ولا ينفك يتحدث عن مهاراته في هذا المضمار · تشير هذه الحالة الى سلوك مرضي ذي طابع تعويضي يخفي وراءه مشاعر دونية شديدة · أما الجانح الذي يعاني من عصاب الطباع فقد يستجيب لما أقدم عليه ولما ينتظره من اجراءات قضائية وغيرها باللامبالاة التامة · يكاد لا يفقه سببا لملاحقته او محاكمته · يقلل من شأن أفعاله ولو عظم خطرها وكأنها من التوافه التي لا تستحق التوقف عندها · فاذا اثيرت قضيـــة مسؤوليته الخلقية استجاب بالدهشة ، أو هو يعلن التوبة الزائفة في فعل مسرحي يقصـد منه اقناع محدثه دون أن يعني فعلا ما يقول أو أن يفكر لحظة بالالتـــزام المستقبلي بما يدعي · وهناك من يستجيب منهم بشكل اضطهادي واضعا

اللوم على الآخرين مدعيا الغبن ومتهما من حوله بالظلم والتشفي لدون ما سبب ·

هذه الخصائص لا تدعي مطلقا الاحاطة والشمول بمظاهر الانحراف المرضي · انها تلقي فقط بعض الاضواء عليه وتعرض للحالات التي يكبر فيها احتمال الاضطراب بصرف النظر عن نوعه وشدته · ولكن الاضطراب النفسي قد يجد له حلا جانحا عندما تسود الاواليات الدفاعية التي تسهل الانحراف كالاسقاط (١) والنفي (٢) والتباعد (٣) والمرور الى الفعل العدواني (٤) · تأخذ دينامية الشخصية واقتصادها هنا طابعا قريبا من الانحراف العادي بكل معنى الكلمة ·

بعد هذه الملاحظات يمكننا ان ندرس بشيء من التفصيل العلاقات بين الاضطرابات النفسية والانحراف · أول ما يمكن قوله بهذا الصدد هو ان حالات العصاب الصريح قليلة جدا بين الجانحين · وعندما توجد لا تكون السبب الرئيسي في انحرافهم · كل ما في الامر ان عصابهم يصبغ بطابعه الخاص سلوكهم الجانح النابع من عوامل اجتماعية اسرية · كذلك الحدث الهستيري الذي كان يحتمي وراء شكاوى متنوعة من أمراض جسدية كي يتهرب من مسؤوليته او يفلت من العقاب أو يستدر العطف او يثير مشاعر الذنب عند المسؤولين ·

في بداية الامر كان يميل الى المسرحية (٥) في سلوكه يستعطف او يهدد أو يعلن التوبة الزائفة تبعا لموقف وتفضيلات محدثه · غرضه من ذلك هو الحصول على افضل التسهيلات أو اقل الازعاجات ، بدون أن يكون لديه أية رغبة فعلية في اعادة النظر في نمط حياته · وعندما ازداد الضغط عليه من أجل ذلك اخذ يصاب بنوبات اغماء هستيري مما اثار الذعر في نفوس المسؤولين عنه الذين اعتقدوا ان في الامر اصابة بالصرع · وأخذوا يعاملونه بكثير من الحيطة · ·لقد نال غايته من ذلك واصبح يستخدم هذا السلاح كلما أراد التهرب من المسؤوليات · ولكن الاختصاصي النفساني اشار عليهم أن لا يكترثوا كثيرا لتلك

---

(١) اسقاط : Projection

(٢) نفي : Négation

(٣) تباعد : Prise de distance

(٤) (تفعيل) المرور الى الفعل العدواني : actingout

(٥) المسرحية théatralisme

النوبات وأن يقفوا منه موقفا حازما وخصوصا أن لا يعفوه من المسؤوليات بسبب ذلك وأدى هذا الموقف الى زوال النوبات نهائيا • وتحول الامر الى شكاوى جسمية متنوعة ثم الى محاولات هروب متكرر من المؤسسة حيث برز الصراع صريحا مع المحيط • أما انحرافه فهو وليد وضعية أسرية مفككة ومحيط يحمل خطرا خلقيا كبيرا •

يمكن تقسيم الاضطرابات العصابية التي تلاحظ عند الجانحين الى فئتين أساسيتين لكل منهما خصائصها ومظاهرها الخارجية ومصيرها ، كما تضم كل منهما عدة تنوعات : أولا ـ المآزم العصابية التي تحل بشكل جانح • ثانيا ـ عصاب الطبع •

أولا ـ المآزم العصابية والانحراف ـ

تتخذ المآزم اشكالا متعددة وتؤدي الى تصرفات جانحة متفاوتة في مداها الزمني من ناحية وفي شدتها من ناحية ثانية • وهكذا قد يتخذ الفعل الذي يحسم الصراع العصابي طابعا فجائيا مأساويا أو طابعا متدرجا هو أقرب الى سوء التكيف الشائع •

١ ـ الانحراف الفجائي :

تكون المآزم النفسية في هذه الحالة كامنة اجمالا • لا يظهر منها ما يلفت النظر على مستوى السلوك الخارجي • ويستمر الحدث في تكيفه الاسري والمدرسي كالمعتاد • الا أنه يشكو من معاناة داخلية، يشكل القلق خلفيتها العامة• وتؤدي الى ميول طباعية تتصف بالحساسية لبعض الوضعيات ذات الصلة الرمزية بالمأزم الاساسي • فاذا تعرض الحدث لوضعية من هذا القبيل فقد قدراته التكيفية للواقع واستجاب بشكل مرضي • وقد تتخذ هذه الاستجابة طابع السلوك الجانح • الذي يفاجيء المحيط لتناقضه مع الاسلوب الحياتي العام للحدث • فقد يعرف عنه الهدوء والدعة والميل الى التساهل وحتى الانقياد ، أو التهذيب الواضح في العلاقات مع الآخرين ، واذا به يقدم على تصرف عدواني أو جنسي أو غير أخلاقي يصدم من حوله تماما ، كما يفاجأ به هو نفسه • ويبدو بعد فعلته كمن استيقظ من حلم ، يدهش كيف أقدم عليه ويحس بالعجز عن تحمل نتائجه ويظل كمن أسقط في يده • وقد يميل الى أوالية الالغاء فينفي تماما خطورة ما أقدم عليه • ويحدث ان يكون ذلك السلوك على درجة عالية من الخطورة

القانونية كمحاولة القتل أو الاغتصاب او غيره · ولا يحتمل أن يقدم عليه أو على غيره مرة اخرى · نحن هنا امام انسان يرزح تحت صراعات نفسية شديدة يصرف جل طاقته في السيطرة عليها ويميل الى أوالية القلب الى الضد (١) على شكل طبع مسالم او مفرط في تمسكه بالقيم الاجتماعية والخلقية · ولكن الوضعية الخارجية اثارت المأزم بشكل يتجاوز طاقة الانا على الضبط فيقدم على سلوك جانح يتخذ طابعا مأساويا أو مفرطا في عنفه · اذا كان السلوك عدوانيا كالقتل مثلا فانه يحدث في حالة من الذعر الذي يفقد الانا بصيرته وكأنه قد أصيب بالشلل · كذلك الحدث الذي أطلق النار على رجل من بندقية صيد كان يحملها فأرداه قتيلا اثر خلاف بينهما تطور الى شجار اثار الذعر في نفسه · ولقد أقدم على فعلته بشكل آلاتي ولم يجد لها تبريرا · لا بد ان يكون ذلك الذعر الذي شعر به فجأة ناشئا عن تحريك مخاوف لا واعية مرتبطة بهوامات الانتقام على نوايا عدوانية قديمة تجاه صورة الاب · ولا بد أن تكون هذه الوضعية قد حركت لديه مخاوف الخصاء · وهكذا قامت معركة ذات طابع قضيبي (استخدام البندقية التي ترمز الى الذكورة القضيبية) تجنبا لخوف الخصاء الذي أثاره عدم تساوي القوى عضليا بين الطرفين من ناحية وعدم امكان الاعتماد على رباط البنوة الذي يحمي من قلق الخصاء من ناحية ثانية ·

ولقد كان هذا الحدث من النوع الذي يعتبر مثاليا قبل فعلته ، وظل كذلك بعدها خلال سنوات اقامته في المؤسسة التأهيلية · علاقاته بأسرته جيدة ومثلها علاقاته بالمربين والمسؤولين · كان دائما متجاوبا معهم · وبعد فترة من العلاج والعمل التربوي معه أصبح يستشيرهم في شؤونه الجنسية وكأنه يطلب من صورة الاب ان تقود خطواته نحو الرجولة في محاولة لتجاوز الصراع الاوديبي بما فيه من نوايا عدوانية وقلق خصاء ·

قد يحدث ان تكون الدلالة العصابية للفعل الجانح ظاهرة تماما كحالة ذلك الحدث الذي قتل أباه في أزمة من قلق الخصاء · قام بفعلته بعد يومين من الذعر وفي حالة من اعتام الوعي(٢)حيث تناول بندقية الاب التي كان يضعها بجانبه اثناء قيلولته وأطلق عليه النار منها · كأن الاب السكير الذي يتصف بالعنف المفرط

---

(١) القلب الى الضد : Transformation au contraire

(٢) اعتام الوعي : Obnubilation de la conscience

تجاه زوجته وأولاده ، قد هدد بقتل اخ القاصر الاكبر الذي هرب من البيت تجنبا لقسوته • ولقد وضع البندقية بجانبه حتى يقوم بذلك بعد ان يصحو ويذهب في طلبه حيث هرب • لقد فجرت تهديدات الاب قلقا عنيفا عند القاصر الذي تماهى باخيه الاكبر وكان يامل الافلات من بطش الاب عندما يشتد عوده • ولقد عانى من سوء معاملة الاب كثيرا ولم تجد محاولات هروبه من البيت حيث كان يسترجعه دائما وينزل به أشد العقاب • كما ظل هذا القاصر محتفظا بذكريات مؤلمة عن طفولته خصوصا عن حادثة أقدم فيها الاب على ضرب الام لدرجة انه كسر لها ساقها وجعلها تتنقل زاحفة عدة أشهر • وكان يراها هكذا وتثور أشد الآلام والمخاوف في نفسه • كما ان الام بدأت تشحنه بالعداء للاب عندما كبر وكأنها تطلب منه واقعيا ان يقوم بدور الحامي لها من بطش الاب الخاصي •

بعد جنايته بدا القاصر غارقا في مأساته في حالة تشبه الذهول • تمنيات الموت تطغى عليه وكذلك الرغبة في الهروب الهوامي (١) من خلال الاختفاء من الوجود (العودة الى حالة ما قبل المأساة والوعي بها ، الى بطن الام) • ظل فترة طويلة يعاني من صعوبات النوم حيث يبصر أشباحا مضرجة بالدماء وأشخاصا يحاولون قتله • وتعكس هذه الرؤى عنف الانا الاعلى لديه الذي حرك بعد الجناية التي جسدت كل عدوانه المتراكم وكل صراعه الاوديبي ، الخوف من البطش الانتقامي • الاب في هذه الحالة ظل يمثل واقعيا الصورة السلبية الهمجية اللاواعية والتي تتعدل عادة نتيجة لما يتميز به الاب من حدب وحب وحماية لاطفاله • ظل والد القاصر يجسد اذا صورة الاب الخاصي (٢) • وظل الحدث يقاوم ما تثيره هذهالصورة من عدوان بالرضوخ من ناحية وبأمل الخلاص في المستقبل من ناحية ثانية • وعندما اطلق الاب تهديده وأعد العدة لتنفيذه فانه الغى عمليا المسافة بين الواقع والهوام او بمعنى آخر جعل الواقع تجسيدا للتهديد اللاواعي الدائم بالخصاء ، مما لم يترك أي مجال للقاصر كي يبعد التهديد عنه • وبذلك تكون فعلته الوسيلة الوحيدة لمنع الاب من تنفيذ تهديده •

على ان الوضعية الاسرية عموما تتصف في هذه الحالة باضطراب مزمن كفيل بأن يؤدي وحده الى الانحراف • ولا شك ان هذه الوضعية كانت مسؤولة عن نشأة واستمرار المأزم النفسي عند القاصر • ولقد أدت الى تعزيزه فيما بعد حتى

---

(١) الهروب الهوامي : fuite phantasmatique

(٢) الاب الخاصي : père castrateur

انتهى الامر الى سلوك كارثي هو تعبير عن مرض الاسرة بقدر ما هو تعبير عن اضطراب الحدث ·

ولكن الامور لا تأخذ بالضرورة هذا الطابع الكارثي · يعيش الحدث حياة غير ملفتة للنظر في أسرة لا تخرج في وضعها العام عن المألوف والمقبول· يذهب الى المدرسة بانتظام ، علاقاته مع ذويه ومع المحيط معقولة · ثم تأتـي المراهقة واذا بالامر قد تغير · يفقد الاهتمـــــام بالدراسة او ينقطع عنها بعد فترة من الغياب المتكرر كما يبدأ بالتغيب عن الاسرة · ويظهر التباعد بينه وبين ذويه · ثم يكتشفون انه متهم بسرقة او اكثر او انه اقدم على اعمال تدخل تحت طائلة القانون · او قد يهرب ويغيب عن البيت مع تشرد ومخالطة عصبة جانحة · وقد يستغرق غيابه مددا تطول تدريجيا ينخرط خلالها اكثر فاكثر في الانحراف ·

عندما يسأل عن سبب هذا التغير يظـــــل عاجزا عن الاجابة او هو يقدم تعليلات غير معقولة · ولكن يلاحظ عليه نوع من المعانـــــاة الخفية يقاومها او يستسلم لها تبعا لاقتصاد الشخصية في كل حالة · ويظهر الاستقصاء العيادي واستخدام الوسائل الاسقاطية ان هناك مآزم عنيفة تعصف بحياته اللاواعية ، تدور معظمها حول المسألة الجنسية ، وحـــول العلاقة مع الوالديـــن وتختلط الرغبات بالمخاوف والآثام بالعدوان ·

اننا بصدد اضطرابات نفس جنسية قديمة تعود الى الطفولة الاولى ، الى مرحلة التماهيات بالوالدين ولم تجد لها الحل الملائم الذي يفتح الطريق امــام النضج السليم · تهدأ عادة خلال مرحلة الكمون (١) لتتفجر من جديد مع اطلالة المراهقة بما يصاحبها من نضج جنسي يؤدي الى طرح كـــل الاشكالات التي لا زالت عالقة منذ الطفولة · فاذا كـــــانت المآزم شديدة او صاحبها قلق كبير ، او اذا كان الانا يفتقر الى المناعة والصلابة الكافيتين لمجابهة النزوات والعقد التي تفجرت وعجز عن مكاملتها بشكل ملائم في الشخصية قد يلجأ الى اساليب دفاعية ذات طابع جانح · قد يقدم على افعال لها دلالة رمزية خاصة تحمل معنى التعويض القضيبي او امتلاك بديل للام او تحمل معنى عقاب الذات ، خصوصا في حالات التشرد · وقد يعني الهروب والتشرد والابتعـــاد عن الام خوفا من

---

(١) مرحلة الكمون : période de latence

نتائج تعلق آثم لا واع بها او خوفا من انتقام الاب · فالقرب يزيد من خطر عودة الرغبات المكبوتة · ولكن هذا التجنب (١) يحمل في نفس الوقت ميولا عقابية على الرغبات الآثمة · ويعيش المراهق هذه الوضعية تحت شعار مأساة البطل التائه· وقد تكون المعاناة ظاهرة واعية مما لا يدع مجـــالا للشك في الاصل العصابي للمشكلة ، ولكن قد يحدث رد فعل دفاعي ضدها يأخذ طابــــع التبلد العاطفي واللامبالاة العلائقية والانانية الظاهرة مع تعلق بالاستهلاك المادي · ويبدو الامر عندها وكأنه انحراف عادي ناتج عن اختلال المعايير الخلقية ، و يحتاج الباحث ان يذهب بعيدا وراء الظواهر كي يقع على المآزم النفسية المحركة للسلوك ·

كما ان الوضعية الحياتية العامة في الاسرة والمحيط قد تحمل احيانا خطر الانحراف بمعزل عن بقية العوامل ، ولكن هذا الخطر يظـــل غير فعال طالما لم يبلغ الحدث سن المراهقة · عندما يصل الـــى البلوغ تتفجر مشكلاته النفسية الكامنة وتجد في تلك الوضعية تربة مناسبة لحل تلك المشكلات بشكل جانح ·

تتعدد الحالات اذا تبعا لشدة كل من الازمات النفسية من ناحية ودرجـــة اضطراب الاسرة والمحيط من ناحية ثانية · وتتفاعل هاتان القوتان بنسب متفاوتة لتؤديا الى السلوك الجانح · الا ان المآزم النفسية تظل في هذه الحالة كطرف اساسي في عملية التفاعل الجدلي · ولهذا يصح ان ندرج هذا السلوك الجانح في باب الاضطرابات العصابية ·

ثانيا ـ الانحراف التدريجي المزمن :

الانحراف العصابي الفجائي لا يشكل تحديا كبيرا للاختصاصي النفساني فالاواليات النفسية والدوافع التي تحركه ظـــاهرة عادة في نوع الفعل وطريقة ارتكابه · ولذلك فلم نتوقف كثيرا عند هذه المسألة · اما الانحراف المبكر الذي يتخذ طابعا تدريجيا فقد يصبح مزمنا عندما يتخذ شكل الاسلوب الحياتي فحيتاج الى الكثير من البحث المدقق لاكتشاف المآزم العصـــابية المحركة له · وتـــزداد المشكلة تعقيدا نتيجة لتنوع مظاهره وخصائصه ومصيره والاواليـــات النفسية التي تحكم مساره · ولكن من الممكن حصر هذا التنوع في فئات تختلف عددا تبعا للمنظور الذي يتبناه الباحث · ونود هنـــا ان نتحدث على سبيل المثال لا

---

(١) تجنب : evitement

الحصر عن نموذجين لهذا الانحراف : الهروب من الوضعية الاوديبية مع ميل لعقاب الذات وتدميرها ، وضعية اوديبية تحمل خطر انتقام الاب مع نكوص عام والغاء الصراع ، ورغم سيادة هذه الاوالية او تلك في كل حالة الا ان الوضعية كما تلاحظ عياديا تظل على درجة عالية من التعقيد على مستوى القوى النفسية· هنالك عدة قوى تتدخل كل مرة لتعطي الحالة طابعها النوعي · يضاف الى ذلك البعد الاجتماعي الذي يحدد الى مدى بعيد الدينامية النفسية الداخلية والسلوك الجانح ومصير الحدث ·

قبل استعراض هاتين الحالتين لا بـــد من الحديث بشكل عام عن عدة خصائص مميزة لهذا النوع من الانحراف ·

ا ـ **الشكل الخارجي للانحراف** : يظهر سوء التكيف الاجتماعي مبكرا · فبعد سنوات معدودة من دراسة فاشلة اجمالا وفي حالة من انعدام الدافع يميل الحدث الى الهروب مـــن المدرسة بشكل عابر في البدايـــة · ينساق في ذلك لاغراءات متعددة لا تخلو منها حياة أي طفل من قبل عناصر غير متكيفة · يذهب الى البحر او الى المدينة او الى احد امـــاكن عبث الاطفال المشردين ، او هو يهرب منفردا ويهيم على وجهـــه في اماكن اللهو · تتميـــز تجربته العائلية والمدرسية في كل الحالات بالمعاناة ، تنتابه مشاعر غامضة بانعـــدام الارتياح يحس بشيء من الغربة او التباعد عن الاهل وعن المدرسة · وقـــد يجد نفسه مدفوعا بقوى خفية نحو ترك المدرسة والبيت ·

وعند الحديث معه في مرحلة تالية عن أسباب بداية هروبه وتشرده قـد يتعلل برفاق السوء ، ولكنه يعجز دائما عن ذكر أسباب فعلته لعـدم ارتياحـه البيتي والمدرسي · فهو على عكس الجانحين العاديين يندر أن يقف موقفـــا اضطهاديا من الاسرة أو من المعلم بل قد يميل الى التستر على الاضطرابـــات الاسرية اذا وجدت ، لا يأتي مثلا على ذكر قسوة الاب أو تجاهل الام · وقد يعبِّر عن مشاعر الضيق التي تنتابه في البيت والمدرسة وعن حاجته الى الخروج · ويبدو الامر ملغزا بالنسبة للباحث حيث لا يستطيع الحدث أن يعطي أسبابا واقعية لتلك المشاعر · هنالك اذا حالة من الضيق وعدم الارتياح يعجز عن تبريرها · وكذلك مشاعر غربة وتباعد عن الاهل والمدرسة · وأخيرا تخلو الحالة مـــن المواقف الاضطهادية الاتهامية تجاه الاثنين معا · يمكن اعتبار هذه العناصـر الثلاثة مؤشرات على وجود مأزم عصابية كامنة وراء السلوك غير المتكيف ·

تستمر هذه المرحلة مدة تتفاوت في طولها · ثم يميل الامر الى التضخم ويأخذ طابع المشكلة الصريحة · يتكرر الهروب من المدرسة وينكشف أمر الحدث· أو هو يبدأ بالهروب من البيت بالاضافة الى المدرسة ويظل ليالي عدة خارجه وخلال ذلك قد يقدم على سرقات فردية او مع جماعة من الرفاق ، وقد يندمج في عصبة غير متكيفة · تثير هذه التصرفات قلق الاهل فينشطون لوضع حد للمشكلة، قد ينجحون بقدر متفاوت ولكن لفترات محدودة من الزمن ، ان يعود الحدث الى سلوكه · وبعد عدة مرات يفشل معه فيها الترغيب والترهيب على حد سواء قد تبدأ العلاقات الصراعية بينه وبينهم ، فيكتسب سمعه الحدث السيء أو الشقي أو المزعج الخ ··· وقد ييأس الاهل فيتراخون ويحسون ان لا سيطرة لهم عليه وتخلق هوة بين الاثنين · وقد يصل الامر حد اتهامه بأنه سبب متاعب الاسرة ومنغص عيشها والمسيء الى سمعتها · على أن الحالة الغالبة هي التجاذب الوجداني عند كل من الطرفين · فيتذبذب الاهل ما بين النقمة على الحدث وبين العطف والاشفاق ويتراوح سلوكهم بين محاولات القسوة عليه وعقابه وبين محاولة مساعدته وانقاذه · كما ان الحدث بدوره يتذبذب ما بين فترات الهروب والانفصال والغربة وفترات التقرب والتعلق المفرط بذويه وبذل الجهد للتكيف واسترضائهم · خلال ذلك يكون الامر قد تفاقم لدرجة يتدخل معها القضاء ، فيوضع الحدث في مؤسسة تأهيلية · وهنا تستمر العلاقة المتصفة بالتجاذب مع الاهل اذا لم يحدث تغيير فعلي على مستوى دينامية الشخصية · وتنشأ علاقة مماثلة مع المربين والمسؤولين فيها النبذ والعطف والقسوة والمساعدة ، وفيها التقرب والغربة · وقد يهرب الحدث عدة مرات من المؤسسة ويمر بفترات من الازمات وأخرى من الهدوء والمحاولات الجادة للتكيف · يتوقف ذلك على المحيط من ناحية وعلى دورية الصراع العصابي من ناحية ثانية · يحس المسؤولون أنهم يمتلكون ناصية الامور أحيانا وان الحدث متجاوب معهم ولكنهم يفاجأون مرات اخرى بتصرفاته ويعلنون أنهم لم يعودوا يفهموا شيئا بصدده مما قد يدفع بهم الى اليأس · ويحس القاصر بدوره انه مرتاح ومتفائل للمستقبل ثم تمر به فترة من التشاؤم والضيق والخور ويبدو رازحا لقدر غريب حكم عليه بالبؤس والشقاء · أو هو يمر بفترات من الارق الممض ويعاني من مختلف الامراض والشكاوى الجسدية التي يكشف الفحص الطبي أن لا اساس فعليا لها ، يأتي خلالها طالبا النجدة من الاختصاصي كي يساعده على تخفيف آلامه · وعلى كل حال يبدو بوضوح أن الامر بحاجة الى اجراءات علاجية نفسية بالاضافة الى البرامج التأهيلية العادية ·

أما السلوك الجانح فيتخذ اشكالا متنوعة تتراوح ما بين الانحـــــراف العادي الانتفاعي الى الانحراف العبثـــي الظرفي الى الانحراف البائس الذي يطغى عليه طابع عقاب الذات • وقد تتداخل هذه الاشكال فيما بينها أو يتذبذب الحدث من شكل الى آخر تبعا للحالة النفسية ولوضعية المحيط • ولكن تكثـر حالات عقاب الذات من خلال خلق وضعية بائسة • مثلا يهرب الحدث من البيت ويتشرد وعندما يحل عليه التعب مساء ينام بشكل بائس على الارصفة او تحت درج احدى البنايات أو في مكان مهجور أو بين بعض الصناديق الفارغة • ومن الملفت للنظر هنا أنه يميل الى تكرار هذه الوضعية كلما هرب من المنزل • ويبدو أن مشاعر الذنب تتحرك كلما أحرز الحدث تقدما يجلب له الاستحسان والرضى من ذويه أو من المسؤولين فيحدث تحول فجائي في مسلكه فيهرب ويســـرق أو يتعاطى المخدرات ويغرق في البؤس من جديد هادما كل ما حققه من انجازات وكأنه يبحث بصورة لا واعية عن عقاب لذاته •

الا أن الامر لا يتخذ دائما هذا الطابع فهناك حالات تتحول الى النمـــط الجانح من الحياة يقدم فيها الحدث على الانحراف تحت شعار المتعة والبحـث عن اللذة المادية دون ان يعاني مطلقا من الآلام النفسية • وقد يتوقف تطـــور الحالة عند حد الانحراف البسيط القابل للتحول بسهولة اذا توفر الاطار الملائم للتكيف • أما الحالة السابقة فتتضمن خطورة التنذر (١) السيء اذا لم تتعدل ديناميات الحياة النفسية اللاواعية من خلال النشاط الجانح الذي يمارس تحت شعار اليأس من الخلاص • تشكل هذه الفئة نسبة كبيرة من الجانحين الفاشلين الذين يقضون حياتهم ما بين الحياة الهامشية والسجون • وقد يحدث تعويض عدواني يأخذ طابع سلوك العنف في مرحلة متقدمة من تطور الحالة •

ب ـ الخصائص النفسية كما تبدو من خلال الفحص النفساني :

يتميز الجانح العصابي ببعض الخصائص التي تبدو بدرجات متفاوتـــة من الوضوح أثناء الفحص النفساني •

---

(١) تنذر : pronostic

السمة الاولى ترتبط بنوعية علاقته مع الفاحص وموقفه من وضعية الفحص ٠ الاتجاه الغالب هو سهولة العلاقة ٠ فالعصابي لا يقمع عواطفه ومشاعره كما هو حال الجانح العادي ٠ يحس الفاحص بأن هناك تواصلا من نوع ما يقوم بينه وبين الحدث ٠ ويلاحظ ان هذا الاخير لا يقف موقفا اضطهاديا منه أو من الوضعية ، لا يتهم ولا يدين ولا يحتج رافعا لواء الغبن ٠ ولكنه قد يتحفظ احيانا في الافصاح عن مشاعره وعن تجربته الوجودية بدون اظهار ميول عدائية صريحة ٠ أكثر من ذلك قد يبدي الحدث بعد تقدم المقابلة تقربا من الفاحص ، وقد يحاول الحصول على استحسانه أو مساعدته عندما يطمئن اليه ويحس أنه يتفهم وضعه ٠ وقد يعبر عن شكاواه ومعاناته الداخلية ، ولكن ذلك لا يحدث عادة الا بعد تقدم العلاقة وتكرار المقابلات ٠

وكما هو الحال مع الفاحص فان موقفه يتصف بنفس الميزات تجاه المؤسسة التأهيلية وتجاه المسؤولين فيها ، اتجاه امتثالي متجاوب ٠ وان تحفظ أحيانا فانه لا يهتم ولا يدين حتى في فترات تذمره وثورته ٠ في هذه الحالة تظل الشكوى متركزة حول المشكلة التي يعاني منها ولا تتحول الى وضع علاقته بالاشخاص موضع الشك ، على العكس تماما من الجانح العادي ، أو الجانح الذي يعاني من عصاب طباعي حيث تتحول الشكوى من المسألة المادية الى الاشخاص ٠

هنالك اختلاف اساسي بين ردود فعل الجانح العصابي في مرحلة الكمون وفي مرحلة المراهقة ٠ فهو في المرحلة الاولى يميل الى التهرب من مآزمه الداخلية ٠ لا يبدو أنه يشكو او يعاني ولا يطلب المساعدة ٠ أما في المراهقة أو مع اقترابها فان تلك المآزم تطفو على السطح بشكل صريح ٠ وتأخذ الشكوى أشكالا مختلفة تتراوح ما بين صعوبات النوم التي تسبب له الارهاق لما يصاحبها من أرق ورؤى مخيفة أو مزعجة (أشباح ، دم ، قتل ، جرح ، حيوانات مفترسة تهاجمه ، كوارث الخ ٠٠٠) والصعوبات الجنسية التي تثير قدرا كبيرا من الانشغال (قد تتخذ طابع الاستمناء القهري المفرط الذي يثير مشاعر ذنب شديدة وذعر على الصحة والتوازن النفسي) الى قلق على الاهل ٠ في هذه الحالة يبدو الجانح وكأنه قد تغير كليا ، فبينما كان سابقا لا يكترث لاهله كثيرا ولا يأتي على ذكرهم الا بشكل عابر ، يبدو وكأنه قد استيقظ فجأة من غفوة لا تغتفر ، وتحتل الاسرة المركز الاول من الاهتمام في عالمه ٠ يريد أن يساعد ذويه ، يعبر عن اجحافه بحقهم في طفولته وعن عقوقه وخطئه حيث لم يستمع

الى نصحهم · ولكن الامر يأخذ في معظم الاحيان طابع القلق عليهم خوفا من أن يحدث لهم مكروه أو تحل بهم كارثة ، كأن تمرض الام ، أو يتوفى الاب ، ويحس أن لا اطمئنان له الا بقربهم حيث يود أن يسهر عليهم · ويحدث ذلك كله على خلفية من الشعور الشديد بالذنب تجاههم والرغبة المعلنة باصلاح الاذى الذي الحقه بهم · وتتحول خططه المستقبلية كليا لخدمة هذا الغرض · واذا كان التعلق الآثم بالام لا زال شديدا فقد يزاح القلق والاهتمام منها الى اخت كبرى على سفر أو أخت صغرى يبدي نحوها فجأة تعلقا مفرطا وشوقا شديدا يذهب به حد البكاء على فراقها ·

ثم هناك الشكاوى الجسدية المتعددة التي تتخذ طابعا هكعيا (١) بقدر ما تشتد وطأة المأزم عليه · ويختلف الجانح العصابي في هذا الصدد عن الجانح العادي في أن الاخير يستغل أمراضه الفعلية أو الوهمية لاتهام المسؤولين بالتقصير والاهمال غير المقبول تجاهه بينما يأتي الاول طالبا العون في حالة من الذعر على تكامله الجسدي ويقف موقفا اتكاليا طفليا يتميز بالاستغاثة ، ويظهر الامتنان لكل عناية تقدم له ·

تتعلق السمة الثانية بالمظهر الخارجي والاسلوب اثناء المقابلة · المظهر مميز جدا في بعض الاحيان · تبدو المعاناة واضحة على وجهه · وتتراوح ما بين أعراض التعب والاصفرار والخور (٢) · يبدو وكأن الازمات قد عصرته ، وكأنه مغلوب على أمره · سريع التأثر وقد يجهش بالبكاء عندما نتعرض لنقاط حساسة من حياته او وضعه · ويتصف تأثره بالصدق على عكس الجانح الطباعي أو العادي الذي يلجأ الى المسرحية في معاناته كي ينال مكاسب من الآخرين · وتأخذ التعابير طابعا يقترب من السوداوية في حالة الجانحين الذين يعانون من مشاعر ذنب شديدة · الرأس مطأطأ ، الجبهة مقطبة ، الصوت منخفض وحزين ، التعبير صعب ويعكس آلاما معنوية واضحة مع استسلام لها · لا يحاول أن يبرر موقفه أو يدافع عن نفسه بصدد الافعال الجانحة التي أقدم عليها ·

ولكن هذه الحالات السوداوية تظل محدودة اجمالا ، فمعظم الجانحين

---

(١) هكع : hypocondrie

(٢) خور : depression

العصابيين لا يختلفون كثيرا عن سواهم من الاحداث من حيث المظهر وذلك تبعا لنوع الانتماء الاجتماعي الاقتصادي ٠ فقد يلاحظ عليهم الترتيب والعناية ٠ كما قد يلاحظ عليهم التهذيب في حديثهم ٠ كما يلاحظ الاهمال وقلة اللياقة ٠ ولكن في معظم الحالات يتجاوب الجانح مع الفاحص ، ولا يظهـــر الكثير من المناورة والتضليل اللذين يظهرهما الجانح العادي ٠

أما السمة الثالثة فتتعلـــق بالاداء العقلي (١) اثناء الفحص ٠ لا يبدي الجانح العصابي الكثير من التحفظ عندما تطلب منه مهمات عقلية ٠ فبينما نجد الجانح العادي قد يقف موقف الحذر أو التهرب أو الرفض ويبذل جهدا محدودا، نرى العصابي يتجاوب بسهولة نسبية ويبذل جهده لاعطـــاء نتائج معقولة ٠ ويحصل هؤلاء عادة على نتائج حسنة تشير الى ان ذكاءهم لم يتأثر كثـــيرا باضطراباتهم ٠ فالعمليات العقلية الذكية (التحليل ، التأليف ، التنظيم التخطيط، الضبط) تمارس بشكل حسن ٠ كما يبذل الحدث عناية مقبولة فيما يقوم به من عمل ٠ ولكن صراعاته قد تظهر احيانا فتأخذ على هذا المستوى طابع التـــردد والارتباك والعجز عن السيطرة على الوضعية قد ينتهي بالصد العقلي واعلان الفشل الذي تصاحبه مشاعر مؤلمة معنويا ٠ في هذه الحالة يحصل على نتائـــج رديئة ، ويبدو كأنه مصاب بالتخلف العقلي ٠ الا أن المؤشرات الاخرى التي تلاحظ أثناء الفحص تظهر بوضوح أن هناك تفاوتا في المستوى من وضعية الى اخرى ومن قطاع وظيفي الى آخر ٠

أوجه القصور في الاداء العقلي تشير الى النقاط التي سيطرت عليهـــا المآزم النفسية ، أما أوجه النجاح فتشير الى القطاعات التي لا زالت حرة من وطأة الصراع ٠ وقد يتفاوت الاداء العقلي من مقابلة الى أخرى تبعا لتقـــدم العلاقة ومدى الارتياح الذي يشعر به الحدث ٠ وهنا يغلب أن يكون رديئا في المقابلات الاولى وأن يسير نحو التحسن التدريجي فيما بعد بمقدار توثق العلاقة مع الاختصاصي ٠ ويصاحب هذا التحسن عادة ازدياد في مقدار الاهتمــــام والعناية والتجاوب الذي يظهره ٠

السمة الرابعة تميز الموقف من السلوك الجانح نفسه ٠ ولقد أشرنا الى بعض خصائصها في حديثنا عن السرقة المرضية ٠

---

(١) الاداء العقلي : rendement mental

يظهر الجانح العصابي عدة ردود فعل ممكنة ٠ فقد يظل لا مباليا ومحايدا تجاه ما أقدم عليه من أفعال لا يتهم نفسه ولا يوجه اللوم الى الآخرين ، معتبرا أن الامر وليد ظروف عابرة ٠ وقد يغرق على العكس في مشاعر الذنب وكأن لا غفران له من اثم ارتكبه مسيئا بذلك الى سمعة الاسرة او سمعته الذاتية ، وهنا تتضخم قيمة الرأي العام في نظره ٠ وقد يعيش الامر وكأنه قدر كتب عليه وليس أمامه سوى تحمل المأساة ، فيبدو السلوك الجانح كأنه مفروض عليه من قوى خفية لا سيطرة له عليها ٠ ويحدث أحيانا ان يتباهى بما أقدم عليه ويروي وقائعه على شكل مغامرة يقوم ببطولتها ٠ وفي معظم الاحوال لا يقف من المجتمع أو الآخرين موقف الاضطهاد أو وضع اللوم عليهم ٠ وهو قد يتحمل نتائج عمله ويعرب عن استعداده لتغيير نهج حياته ٠ وعلى عكس الجانح العادي الذي يعلن التوبة الزائفة فانه صادق فيما يقول وفيما ينوي الذهاب اليه ٠ والواقع ان موقف الجانح العصابي من المستقبل ايجابي اجمالا الا في الحالات التي يتفاقم فيها تفاعل العصاب مع وضعية اجتماعية مولّدة لخطر الانحراف وهو يحاول أن يقوم بجهود حسنة في سبيل التغيير وقد يصل الى التكيف اذا لم تكن حدة المآزم كبيرة ، أو يمر بحلقة التكرار كما بينا سابقا ٠

جـ ـ الديناميات النفسية ـ

الديناميات النفسية للانحراف العصابي تكون دائما على درجة عالية من التعقيد وتتبع قانون الحتم المضاعف (١) شأنها في ذلك شأن الظواهر النفسية عموما ٠ لا يمكن بأية حالة ارجاع السبب الى قوة واحدة محركة مهما كان نوعها ٠ ورغم وجود قوة أساسية الا أنها تنتظم في بناء الشخصية الكلي بما يضم من قوى ودوافع متفاعلة تاريخيا ومتموضعة اجتماعيا مما يعطيها طابعا خاصا في كل حالة ٠ ثم ان هذه الدينامية تتكون من مستويات عدة من السطح والشكل الخارجي الى العمق والمستوى اللاواعي وتأخذ طابعا خاصا على كل مستوى ٠ يضاف الى ذلك الموقف الذاتي التقويمي من هذه الدوافع ونتائجها مما يؤثر على مصيرها وعلى طابع تدخلها في تحديد السلوك ٠ فالصورة التي يكونها الحدث عن ذاته وعن تجربته الوجودية والمعنى الذي يريد ان يعطيه لهما توجه سلوكه بنفس القدر الذي توجهه الدوافع اللاواعية ، أو هو يعطي لهذه

---

(١) الحتم المضاعف : sur detérmination

الاخيرة دلالات معينة تدخل ضمن الصيغة العامة التي ينتقيها والتي يريد ان يعرّف ذاته كشخص امام الآخرين من خلالها ٠

لذلك كله فان الحديث عن دينامية لاواعيـــة سائدة هو دائما ضرب من التبسيط النظري لا يحيط بغنى التجربة الوجودية ٠ فاذا اخذنا هذه الامور بعين الاعتبار أمكننا ان نتحدث عن تلك الديناميـــات دون أن نخشـــى الوقوع في الاختزالية ٠

وسننطلق في هذا البحث من مبادىء نظرية التحليل النفسي الفرويدي ٠ وقد يكون من المستحسن كي لا نقع في التجريـــد النظري أن نستعرض بعض الحالات الواقعية ٠ وسنرى انه اذا كانت القوة الاساسية المحركة هي ذاتها فيها جميعا وتتلخص بفشل الصراع الاوديبي فان مصير هذا الفشل ونتائجه متنوعة للاسباب التي ألمحنا اليها ٠

الحـالة الاولى

زهـير :

الصبي البكر لاسرة مكونة تكوينا حسنا تتألف من سبعة أولاد (خمس بنـــات وصبيين) ٠ كان في الثانية عشرة من العمر عندما وصل أمره الى محكمة الاحداث ٠ وراءه تاريخ طويل من الهروب من البيت والتشرد والسرقة أحيانا بمفرده وأخرى مع رفاق متشردين ٠ لم تنجح محاولات تأهيله رغم الجهود التي بذلها هو والمسؤولون عنه في آن معا ٠ كان يمر خلال اقامته في المؤسسة بعد أن هرب من اخرى قبلها بفترات من الهدوء والتعاون والجد ، ثم يهرب ويتشرد وينساق الى السرقات ذات الطابع البائس مما أدى به الى السجن عدة مرات بعد أن بلغ الخامسة عشرة ٠ ويبدو أن أمره سائر في طريـــق التدهور نحو التكرار الفاشل ٠

الاب حرفي يعمل حين يتيسر له شغل ٠ الام تهتم بتربية أبنائها ٠ الوضع الاقتصادي

سيء جدا · السكن مزر لا يتوفر فيه الكهرباء ولا الماء نتيجة لسوء الوضع الاقتصادي · تنقلت الاسرة في عدة اماكن قبل أن تستقر في سكنها الحالي · تزوج الوالدان قبل سنة من انجاب زهير ، يبدو عليهما الاتفاق والتفاهم ويتعاونان على تربية الاولاد · الا انهما فقدا سلطتهما على القاصر بعد محاولات عدة فاشلة لثنيه عن الهروب من البيت ·

تردد القاصر الى المدرسة في سن السادسة وغيرها عدة مرات نتيجة لانتقال مكان سكن الاسرة · ترك الدراسة في أواخر المرحلة الابتدائية ·

يبدو من التقرير الاجتماعي انه كان مجتهدا ومواظبا على دروسه في بادىء الامر · ولكنه فقد اهتمامه بالدراسة بعد تعرفه على عصبة من الاحداث المنحرفين وبدأ يتشرد دون علم ذويه · كان يمضي أوقاته في الازقة والشوارع باحثا عن وسيلة لكسب المال وصرفه · ينام في صناديق من الكرتون في مداخل البنايات وسط المدينة · كان والده يبحث عنه في كل مرة ويعيده الى البيت ، الا أنه لا يلبث هناك الا قليلا ليهرب من جديد اثناء غيابه في العمل · وعندما سئل عن تشرده لم يستطع ان يعلله ، في حين يعلن رضاه تماما عن جو الاسرة ومعاملة الوالدين له · وهو يتحدث بصراحة عن حياته وسلوكه لا يحاول تبرئة نفسه ولا يضع اللوم على غيره · يعد بأن يغير نمط حياته ويحاول تنفيذ وعده الا انه يقع بعد فترة في سيرته السابقة ·

نجد في تقرير الاختصاصي النفساني ملاحظات مماثلة ·

وراء زهير تاريخ طويل من التشرد والسرقة البائسة · وبالحديث معه لا يستطيع تبرير مسلكه · يعلن الرضى عن حياته العائلية ، ولا يبدو أنه مسرور بالذات لحياته الجانحة ، يعطي انطباعا بأن الامر أقوى منه ·

أثناء المقابلة يبدو صبيا لطيفا ، ذا نظرات معبرة ، يتحدث بهدوء يعبر عن همومه ، لا يبدي حذرا ولا معارضة، يتلعثم في حديثه احيانا، يتعاون مع الفاحص، يعمل بمثابرة ومنهجية، ويظهر العناية فيما يعمله، حركاته سهلة، الضبط النفسي الحركي جيد، الادراك التحليلي التوليفي جيد، يظهر بعض القدرة على الابداع ويتمتع بكثير من الامكانات والغنى الداخلي ·

يعاني من البوال (١) ومن مخاوف ليلية· يبدو عليه الذعر عندما يتحدث عنها، يتصبب منه العرق، ويظهر مغلوبا على أمره وكأنه بدون سند ·

---

(١) بوال : enuresie

اضطراباته الاساسية تتعلق بالقطاع العاطفي · يعاني من صراع عصابي قديم مع صورة الاب وصورة الام · يميل في هذا الصراع الذي يتميز بشحنة كبيرة من العدوان وبمشاعر ذنب عنيفة جدا الى عقاب ذاته · يتضح هذا الامر من اسقاطاته علـــى رائز رورشاخ وعلى مختلف الرسومات التي أنتجها خلال سلسلة من المقابلات العلاجية ·

تطغى على اجاباته على رائز رورشاخ صور العدوان والتهديد وبتر الاعضـــــاء والاستغفار · صور الوالدين مهددة وعدوانية ·

مثلا اللوحة رقم واحد :

١ ــ هيدا هون متل رأس رجل راكب على فرس ·

٢ ــ هون اثنين مثل ملائكة ظاهرين على أحدهم ·

٣ ــ هون امرأة رافعة يديها طالبة السماح · يأتي ملاك ويخلصها من جهنم ·

اللوحة رقم ٢ :

١ ــ هول مبينين متل رأس كلاب صغار عم يلعبوا ، عم يتنازعوا على قطعة لحمة ·
(أذنيهم ، رأسهم ، فمهم) ·

٢ ــ هول متل أوجه وحوش ·

اللوحة رقــم ٣ :

١ ــ هول متل تمثالين وبالنصف ماسكين ·

٢ ــ رأس عبد ، هاي فمه ، وهاي أنفه حاطط ·

٣ ــ برنيطة لونها أبيض وأحمر ·

اللوحة رقــم ٤ :

١ ــ هاي مبين متل جلد أسد مفروش ·

٢ ــ (هاي أرجله ، وهاي ذنبه وهون مقطوع منه رقبته) وعامل هيك متل غوريلا بدها تهجم على أحدهم ·

اللوحة رقــم ٥ :

١ ــ هيدا وطواط طاير ·

٢ ـ هول أذنيه وأرجله ٠

اللوحة رقـم ٦ :

١ ـ هول متل سمكة مقطوعة نصفين ٠

٢ ـ هيدا ذيلها وهيدي عينها وهيدي عينها ٠

٣ ـ وهول جوانحها تجذف بهم ٠

اللوحة رقـم ٧ :

١ ـ هول هون تنين سوا مبينين متل رأس أفيال ٠

٢ ـ هول هون أرجلهم ٠

٣ ـ وهيدا هون جسمهم على العالي ٠

اللوحة رقـم ٨ :

١ ـ هول هون اثنين متل خروفين متسلقين على

٢ ـ أرزة عم يأكلوا منها ٠

٣ ـ وتحت منهم صخور ٠

اللوحة رقـم ٩ :

١ ـ هول هون رأسين متل وحوش ٠

٢ ـ هول أسنانهم طالعين لبرة هيك ٠

٣ ـ عم يتطلعوا فوق بالغيم ٠

اللوحة رقـم ١٠ :

١ ـ هول متل صراصير معلقين من شواربهم الطوال ٠

٢ ـ هون مثل اخطبوط بحر مادد رجليه ومتعلق بالصخور ٠

٣ ـ هون مثل رأس أرنب وأذنيه متدليين ٠

٤ ـ هون شخصين تحت في وادي عم يقطعوا من ضفة الى اخرى ٠

لم يكن من الممكن استخلاص نتائج رقمية من هذا الآيين (١) الذي وجدناه خاما في ملف زهير الا أنه يبرز عدة ظواهر اهمها ما يلي :

---

(١) آيين : protocole

- تكرار الاجابات العدوانية على اللوحات الوالدية خصوصا لوحات صورة الاب رقم ١ و ٤ وكذلك لوحات صورة الام ٧ و ٩ ٠
- كثرة اجابات التفتت على مختلف اللوحات وتقطيع الاعضاء ٠ وكذلك اجابات التعليق الذي يقترب من الشنق ٠
- قلة الاجابات البشرية اجمالا ٠
- بعض صور النزاع على الطعام ٠
- بعض وضعيات صعوبة العبور ٠

صورة الاب مبتورة وخطرة في نفس الوقت فهو رأس رجل راكب على فرس ، وهو جلد أسد مقطوع الرقبة ولكن في نفس الوقت فارس أو غوريلا تهاجم احدهم ٠

صورة الام ايضا خطرة وقضيبية (لوحة ٧ و ٩) رأس افيال (لا شك أن الخرطوم هو الذي أوحى بهذه الاجابة) وكذلك رؤوس وحوش اسنانها بارزة ٠ ولكنها بدورها مبتورة ٠

الصورة الجنسية (اللوحة ٦) تتميز بالبتر (سمكة مقطوعة نصفين) ٠

العلاقات الثنائية صراعية اجمالا وتتخذ طابع التنافس والصراع الفمي العدواني (لوحة رقم ٢ و ٣) ٠

نستطيع من كل ذلك ان نفترض وجود صراع أوديبي يطغى عليه الطابع العدواني والتهديد المتبادل وتصاحبه عقدة خصاء مع ميل الى مشاعر الذنب وطلب الاستغفار خوفا من العقاب على الخطيئة ٠ الحقيقة ان اللوحة الاولى تشير الى المشكلة بأجمعها حيث يتماهى القاصر بامرأة رافعة يديها طالبة السماح كي يأتي ملاك ويخلصها من جهنم٠

وقد نستطيع ان نفترض على ضوء ذلك ان هروبه وتشرده الذي يحمل طابعا بائسا والذي يبدو بدون مبرر أسري من الناحية الظاهرية مدفوع بالحاجة الى تجنب الوالدين اللذين يثيران الصراع الاوديبي من ناحية وبالحاجة الى عقاب الذات وتدميرها من ناحية ثانية ٠ ان تطوره الحياتي الذي أدى به الى تكرار الاقامة في مختلف السجون قد يعزز هذا الافتراض ٠

كما نجد في رسوماته تعزيزا لنفس الافتراض ٠ فعلى احدى الرسومات التي تتكون

من مركب فينيقي في البحر تحته أسماك ثلاثة صغيرة يطاردها وحش بحري يروي القصة التالية : الام وابنتها يطاردهما الوحش ويفترسهما · وفي رواية اخرى على نفس الرسم يهربون منه ويفتلون بالاحتماء في مكان أمين لانهم صغار ·

وفي رواية ثالثة يقول انهما أب وأم وابنتهما · يطاردهم شقي كي يقتلهم وهم يهربون منه ·

يلاحظ في الصيغ الثلاثة ان البطل بنت يتماهى بها نتيجة لعقدة الخصاء · ويتخذ الامر طابع التهديد بالافتراس أو القتل وهو تعبير آخر عن قلق الخصاء الذي تثيره العلاقة مع الام · والوسيلة الوحيدة للنجاة من هذا الخطر هي الهروب (ولذلك فهو يهرب من الوضعية الاسرية) ·

ويؤكد ذلك رسم آخر هو عبارة عن زهرة وحيدة · يروي عنها القصة التالية : زهرة وحيدة · مسرورة لانها وحيدة ليس لها أم ولا أب · هكذا خلقها الله · تصلي كي يحفظها طويلا · انها سعيدة بمفردها ، لا أحد يزعجها · هكذا أتمنى أن أكون انا ·

انه يقطع هنا الصلة بالاسرة كليا هربا من القلق الاوديبي · ولكنه يحتمي بصورة الاله الاب العطوف ·

وفي مرة اخرى رسم بشكل هزيل النصف العلوي لامرأة وقال انها راهبة تصلي · وفي ذلك كبت للميول الجنسية ورضوخ لقوة مطلقة متعاطفة وتماهي بامرأة ·

وفي مقابلة ثالثة رسم غصنا مكسورا من شجرة (قطع الصلة بالام) حملته الرياح وحطت به على شجرة ثانية · تأتي عصفورة أم لتأكل منه الكرز وتأخذ منه لصغارها · وعند ذكر التعارض بين الغصن المكسور والام التي تطعم صغارها قال بأن الغصن قد يعيش اذا حملته المياه (رمز الام) وغرسته في الارض (رمز أمومي آخر) عندها سيكبر وحده (نفي العلاقة مع الام من جديد) · وانطلاقا من هذا الرسم تحدث زهير عن الصغار الذين ينفصلون عن ذويهم انفصالا يؤدي بهم الى الموت اذا لم يجدوا شخصا آخر يحل محل الاهل في العناية بهم ·

تظهر هنا مأساة القاصر بوضوح ـ انفصال عن الاهل نتيجة قلق الخصاء هربا من الصور الوالدية المخيفة ـ نفس المشكلة الاوديبية من خلال الانفصال والتماهي بالمرأة أو البنت أو الراهبة ، ثم نكوص الى العلاقة الفمية ما قبل التناسلية حيث الام الرحوم التي تعتني بالصغار والاله العطوف الذي يحمي · هذه العودة الطفلية الى الام لا تتم الا بعد

عقاب الذات والاستغفار ، وهي تتم من خلال وضعية الطفل البرىء الذي ألغى نزواته كليا (الراهبة النصفية التي تصلي) ٠

ان زهير واقع ضحية لأنا أعلى همجي نتيجة للصور السيئة التي اجتافها عن الوالدين ٠ هذا الانا الاعلى يتطلب عقابا دوريا كي يهدأ ، وهو عقاب ينزله القاصر بنفسه من خلال انخراطه في أعمال تؤدي الى تدمير الذات والى وضعية البؤس ٠ ومن هنا الميل القهري الى الهروب المتكرر من البيت ومن المؤسسة التأهيلية رغم كل جهود الاهل والمسؤولين ٠

كما ان للسرقة هنا دلالة رمزية ، فهي حصول آثم على الموضوعات البديلة للرغبة المحرمة ٠ وبما أنها كذلك فهي تحمل معنى تحقيق الرغبة والعقاب عليها في آن معا ٠

الحالة الثانية

وديع : ـ الولد السادس لاسرة من ثمانية أولاد (أربع بنات وأربعة صبيان) الاخ الاكبر منه مباشرة متشرد وجانح ٠ ابتدأ وديع حياته غير المتكيفة منذ سن مبكرة ٠ كان يهرب من المدرسة ويتبع أخاه على درب الانحراف ٠ ثم استقل عنه وأخذ يهرب من المدرسة والبيت معا ٠ أقدم منذ سن التاسعة على عدة سرقات بعضها عادي والآخر موصوف ٠ كان في البداية يسلم الى والديه لصغر سنه ٠ استقر مدة من الزمن ثم ساء سلوكه من جديد ٠ واكتسب في البيت سمعة الطفل الشقي السيء الذي لا يطاق ٠ وضع في مؤسسة تأهيلية خاصة ولكنه هرب منها ٠ وضع في مؤسسة تأهيلية رسمية ووجد أخيرا العناية الملائمة لحالته والعلاج الضروري له فاستقر وأخذ يتقدم على طريق التكيف وبناء مستقبل ملائم ٠

المستوى الاقتصادي للاسرة متواضع جدا ٠ دخلها غير محدد نتيجة لعدم انتظام عمل الاب ٠ الاب حرفي ، اتكالي وكسول ، مدمن على الخمرة ، عصبي المزاج حسب رأي الام ٠ لقد اعتاد الحياة السهلة لان شقيقه كان يعيل الاسرة ، ولما توفي وجد الاب نفسه مجبرا على العمل ، وتحمل مسؤوليات أسرة كبيرة العدد ، مما دفعه الى الافراط في تعاطي الخمرة ٠ وترجع الام سبب تصرفات أولادها الى ادمان الاب ٠ ولقد كانت تتمنى الانفصال عنه ، الا أنها لم تفعل رأفة بأولادها ٠ ويبدو من التقرير الاجتماعي انها أم مثالية، ربة منزل من الطراز الاول ، متفانية في تربية أولادها ، الا أنها لا تلقى الدعم اللازم من الاب ٠

أما وديع فلقد دخل المدرسة صغيرا ٠ ووصل الى أواسط المرحلة الابتدائية ، حين بدأ هروبه ٠ يبدو عليه الذكاء واليقظة الذهنية والتجاوب مع الآخرين ٠ وهو حسب افادة

معلميه تلميذ ذكي ، مواظب وحسن السلوك • اما والـــده فيصرح بأنه منحرف ، متشرد ، غير مستقر في المدرسة ، متأثر بشقيقه وسائر على خطاه •

يقضي وديع معظم أوقاته بالتردد على دور السينما والبحر •

نام مرات عديدة خارج المنزل برفقة أخيه الجانح • ورغم طيب عنصره وامكـــان التأثير عليه ، الا أنه دائم الحركة ، لا يعرف الى الاستقرار سبيلا ، لا ميل عنده نحو أي شيء ، يعيش في حالة من اللامبالاة • لا ينكر ما يؤخذ عليه من تشرد وتصرفات منحرفـة ولكنه يزعم بأن أخاه هو الذي جره في ذلك التيار •

تعتقد الاختصاصية الاجتماعية ان عدم تكيفه يرجع الى سوء سيرة الاب كنمـــوذج للسلطة في المنزل ، فهو سريع التوتر ، يضيق ذرعا بأبنائه •

وعندما وضع الاخ الاكبر بعض الوقت في مؤسسة تأهيلية تحسنت حالته وأظهر شيئا من الاستقرار • وكذلك وديع فترة من الوقت عاد يواظب على الدراسة ويتحلى بالسمعة الحسنة • ولقد كان لجهود الام فضل في هذا الصدد •

الا أنه بعد سنة عادت تصرفاته الى سابق عهدها : هروب وتشرد ونوم خـــارج المنزل • وصرح الاهل أن تصرفاته لم تعد تحتمل ، وانه غير مرض عنه البتة •

يبدو من ذلك ان هذا الحدث مدفوع بدوافع لاواعية بالاضـــافة الى سوء الوضـع الاسري (ادمان الاب وانحراف الاخ) • سلوكه وحياته عموما تتذبذب ما بين التكيـف والاستقرار وحسن السمعة وجودة العلاقة مع الآخرين وبين التشرد والسرقة والشغب في البيت لدرجة تجعل أهله ينبذونه • فاذا كان الاطار الاسري يسمح بالانحراف لا بد أن هنالك عوامل اضافية دفعت اليه وهي تتحرك بشكل دوري • فلننظر الى وضعه من هـذه الناحية ولنر ماذا نستطيع ان نكتشف • لدينا عدة وثائق هي عبارة عن تقارير وملاحظات سجلها الاختصاصي النفساني الذي تتبع حالته في مؤسسة التأهيل بالاضافة الى بعض الرسومات وبعض الاجابات على رائز تبصر المتون • فاذا استعرضنا محتوياتها كمـــا تسلسلت زمنيا نجد التالي :

المقابلة الاولى : كان عمره ١٣ سنة •

وديع حدث بشوش ، لطيف المظهر ، انما يظل بعيدا عن الفاحص منغلقا على ذاته ، يستمر في قراءة مجلة أحضرها معه أثناء المقابلة • لا يبادر الى الحديث ولا يتكلـــم تلقائيا • لا يحاول اقامة علاقة ودية مع الفاحص ولكنه لا يتحدى ولا يقاوم ولا يناور • يتجنب الحديث عن نفسه وعن وضعه ، وعندما يفعل فلكي يظهر أن الامور تسير على خير

ما يرام حاضرا وماضيا · يقلل كثيرا من أهمية تصرفاته الماضية حتى حديثه العهد منها، ويتحول الى الحديث عن براعته في الدروس ·

يتجنب الحديث عن أهله وكأنهم لا يعنون له شيئا · يبدي بعض اللامبالاة والبـرود العاطفي · يتحدث عن عزلته عن رفاقه كي يتجنب المشكلات ·

يزعم انه هرب من المدرسة تجنبا لسخرية رفاقه من تهتهة (١) يعاني منها أحيانـا تظهر خصوصا عندما ينفعل · تخفي تهتهته مشاعر ذنب شديدة على نوايا عدوانية مكبوتة موجهة نحو الاب خصوصا · يضاف الى ذلك مشكلات في التوجه الزماني المكاني ومشكلات جنبية (٢) حيث انه لا زال اضبطا (٣) · ولهذا فقد فشل في وضع خطة مكانية وضاع في التفاصيل حتى بدا كأنه متخلف عقليا بدون أن يكون كذلك فعلا ، حيث ان امكاناته تسمح له بالنجاح المدرسي كما يثبت تاريخه السابق · هنالك اذا صراع على مستوى صـورة الجسد وكأنه يفشل في موضعته بالنسبة للعلاقات وللمحيط ·

يتحدث عن مخاوف في طفولته وعن تعرضه لعدة اصابات وجروح ·

يلاحظ من اجاباته على رائز تبصر المتون انه يرفض صورة الاب بصراحة · أما الام فتتخذ في حياته دور الحماية غير المجدية · فهي عاجزة عن حمايته من انتقام الاب على ذنوب غامضة ارتكبها (ذنوب وهمية أوديبية ؟) كما انه يتخذ لنفسـه مسافة عن الام ويحولها الى امرأة غريبة وكأنه ينفي رغباته تجاهها ·

النهاية السيئة لقصص أبطاله على هذا الرائز تدل على اشكالات نفسية ذات طبيعـة مرضية بدأت تأخذ طابعا جانحا كأسلوب لحلها · ويخلص التقرير الى القول ان تشرده وجنحه تدخل بصورة رئيسية ضمن نطاق الانحرافات العصابية · ومن هنا حاجته الـى علاج نفساني بالاضافة الى التأهيل الاجتماعي ·

....

(١) تهتهة : begaiement
(٢) جنبية : latéralité
(٣) اضبط : ambidextre

خلال هذه المقابلة الاولى أعطيت له بعض لوحـــــات رائز الرتم (١) تسمح خصوصا باسقاط العلاقات الاسرية ٠ وهذه اجاباته عليها :

اللوحة رقـم ٢

رفض هذه اللوحة بشكل قطعي لانه لم يعرف ماذا تعني خطوط الحراثة في الحقل ٠

من المحتمل تأويل هذا الرفض كهروب من وضعية الاسرة حيث العلاقة الجنســـية واضحة (فلاح يتمتع بالرجولة ، امرأة حامل تستند الى شجرة وبنت تنظر بشرود وتأمل) أما القول بعدم معرفة خطوط الفلاحة فقد تكون هذه أثارت في نفسه صورة الجماع (آلـة الحراثة التي تفلح الارض لزراعتها) ، الفلاح هو الرجل الذكري ٠

اللوحة رقـم 3 BM

هيدا ولد يتيم ؟٠٠٠ (حذر يقلب اللوحة كي يراها من الخلف) ٠

ولد مثلا نايم على شيء مثل رصيف ٠ فقير ، نائم وبجانبه مسدس ٠ يهرب من البيت كي يسرق ويتعذب ٠ بعدين كل افعاله تلك سيدفع ثمنها عندما يكبر (كيف ؟) بالحبس ٠

اللوحة رقـم 6 BM

شو هاي ؟ مثلا درك لاحقين هذا الشخص ٠ ودخل على بيت ، فتحت له امرأة وأدخلته لجوه ٠ صارت تنظر من الشباك اذا كان الدرك قادمين (لماذا ؟) مثلا بيكون عم يقوص أو متخانق هو وأحدهم ٠ وبعدين سيقبضوا عليه ويأخذوه الى السجن ٠

اللوحة رقـم 7 BM

ما هذه ؟

هيدي ما راح تفوت بمخي ٠ ليس لها معنى أي معنى (ينظر خلف الصورة) ليس لها معنى بالمرة ٠

اللوحة رقـم 8 BM

مثلا واحد مقوص رجل ٠ كان هذا الرجل عاري ٠ وهو ميت ٠

هناك شخصان قادمان معهما سكين يشقان له بطنه ٠ لست أدري ماذا يريدان لن يعملا له ٠ يمكن يأتي الجيش ليقبض عليهما ويسجنهما ٠ الرجل الذي قوصه سيقبض عليه٠

---

(١) رائز الرتم (اختبار تبصر المتون)

يلاحظ أولا ان قصصه فقيرة وقصيرة وانه يقف موقف الحذر من اللوحات خوفا من ميوله الذاتية التي قد تثيرها · كما يلاحظ ان كل قصصه تنتهي بالقصاص (الحبس) على الاعمال التي اقترفها البطل ، والتي سيدفع ثمنها عندما يكبر في السن · وسنرى ان لهذا الامر مكانة هامة في ديناميته النفسية : القصاص عندما يكبر · ولقد رأينا سابقا ان صورة الجسد مضطربة عنده وانه كبت الميول الذكرية التي أوحت بها اللوحة رقم ٢ · كما نرى ان هناك رفضا قاطعا لصورة الاب (اللوحة رقم 7 BM) · الاب انتقامي عقابي يأخذ صورة الدرك الذين يلاحقون والسلطات التي تعاقب وتسجن · أما الام رغم رأفتها فهي لا تستطيع حمايته من انتقام الاب · ومن الملفت للنظر انه ينفي العلاقة مع الام (اللوحة رقم 6 BM) ويحولها الى علاقة مع امرأة غريبة ·

أما العلاقات مع صورة الاب فتتميز بالعدوان الشديد (اللوحة رقم 8 BM) وقتل الاب · ولكن هذا العدوان تجاه الاب يلقي عقابه بالحبس من ناحية وبالتشرد والعذاب من ناحية ثانية ·

ولقد أسقط وديع ذاته بوضوح على اللوحة (رقم 3 BM) فهو اليتيم الذي انفصل عن الاسرة هربا من العلاقة الاوديبية من ناحية وقضى على الاسرة من ناحية ثانية ، فكونه يتيما يعني انه قتل والديه · ولكنه لهذا السبب بالذات يتشرد ويتعذب وسيدفع الثمن عندما يكبر · من هنا نستطيع القول ان تشرده وسرقاته لها طابع أوديبي · كما ان خوفه من دفع الثمن عندما يكبر سيأخذ في الشهور التالية شكل أزمة نمو جسمي عنيفة مع الاقتراب من البلوغ وتظهر بوضوح في المقابلات التالية :

ـ المقابلة الثانية بعد خمسة شهور ـ يرد في التقرير ما يلي :

شاحب اللون ، هزيل ، يبدو التعب الناتج عن الارق حول عينيه ، لا ينام ليلا قبل ساعة متأخرة · لا يفكر بشيء محدد (كبت) يصاب بنوبات ذعر ، لا يرى احلاما مخيفة· يشكو من أوجاع مختلفة : زكام ، ألم أمعاء (يقول انه مصاب بالزائدة) تضخم شرايين الساق الخ ··· شكاواه الجسدية تحمل معنى الخوف من الخصاء · فألم الامعاء هو في النهاية خوف من النوايا السيئة التي اجتافها (العدوان تجاه الوالد والرغبة الآثمة تجاه الام) والقلق الناتج عن توجس العقاب (اجراء جراحة الزائدة كفعل خصاء رمزي) ·

مسرور جدا في تدريبه المهني · يبذل جهدا حسنا في عمله · يستجيب جيدا لاهتمام الاختصاصية الاجتماعية بأمره · ولكن يبدو انه لا زال يظهر بعض اللامبالاة محاولا بها اخفاء مشكلاته الداخلية ومحولا اياها الى شكاوى جسدية ·

يتحدث عن علاقات جيدة مع الاهل · ويقلل من أهمية تصرفاته الجانحة متخذا لنفسه

مسافة عنها ، وفي ذلك دفاع ضد قلق العقاب الذي تتضمنه هذه الافعال لما لها من دلالة عصابية كما رأينا اعلاه ٠

يتحدث مع الاختصاصي النفساني بكثير من الانفتاح ويقيم علاقة معه ٠ يتعـــاون، لا يبدي اية ميول احتجاجية او اضطهادية ٠ يتقيد بمعايير وقيم التكيف معلنا رضـــاه عن اقامته في المؤسسة ٠ يود الحصول على رضى المسؤولين ٠

في كل ذلك نلمح بداية تفجر الصراعات الاوديبية وما تحدثه من قلق من ناحيـــة وبداية مصالحة واسترضاء لكل من يمثل صورة الاب من ناحية ثانية ٠

خلال هذه المقابلة رسم اسرة بناء لطلب الاختصاصي ، تتكون بالتسلسل من ابن ، أخت ، أم ، أب ٠ الاسرة تمسك بأيدي بعضها البعض خـــلال نزهة تظل مجتمعة ٠ يلاحظ في هذا الرسم رغبة في التقرب من الوالدين وابتعاد عنهما في نفس الوقت ٠ هنـــاك ابتعاد عن الاب الذي يبدو أصغر حجما وأقل أهمية من الام ٠ ولكن وديع منفصل عن الام أيضا حيث توجد بينهما الاخت ٠ من تعليقه على الرسم يبدو أن الاخت هي أكثر اعضـاء الاسرة سعادة لانها (حسب قوله) خالية من الهموم خصوصا هموم الكبار على مستقبل الاولاد حيث يبدو الوالدان أكثر شقاء ٠ انه في الواقع يعاني من صعوبات مهمات الذكورة والرجولة ويتمنى لو كان بنتا وكأن الخصاء حل لمشكلاته اذ فيه قضاء على تلك الميـــول العدوانية والآثمة معا ٠ كما نلمح بداية تحول في النظرة الى الوالدين اللذين يهتمـــان لمستقبل الاولاد بدل أن ينتقما منهما ٠ الا أنهما يشقيان بسببهم في نفس الوقت ٠ محاولة التقرب من الوالدين نلمح لها نتائج عملية على مستوى تغير العلاقة تجاه الاختصاصـــي النفساني من ناحية وبقية المسؤولين من ناحية ثانية ٠ وفي الرسم يقلل وديع من حجـم الاب ، وقد يكون في ذلك تعبيرا عن رغبة في الحد من قوته وبالتالي خطره ولكن فيه في نفس الوقت حط من قدره كما ان المسافة بينهما كبيرة ، وفي ذلك ابعاد لخطر الصدام ٠ ثم انه كصبي يظل محايدا اجمالا وبعيدا عن جو الاسرة ، وفي خلال ذلك أيضا تجنب للمشكلة الاوديبية التي قد تبرز من خلال الاحتكاك المباشر ٠

ــ المقابلة الثالثة بعد أسبوع من الزمن ورد فيها ما يلي :

يعبر عن عدم ارتياحه الداخلي ٠ مرتبك بذاته ، يتمنى الموت في بعض اللحظـــات طلبا للخلاص ٠ يشعر بعدم استقرار واستقامة أموره الداخلية ٠ يعجز عن مجابهة مهمات الرجولة والذكورة ٠ يحاول النكوص الى مرحلة طفلية سابقة كانت تخلو من الهموم هزاله وأمراضه وأرقه مرتبطة جميعا بقلق النمو والخوف من الوصول الى الرجولة ٠ وضعيـــة الراشد تبدو له محاطة بالمتاعب والاخطار وكذلك وضعية الذكـــر عموما ٠ كان يلجأ الى

الانحراف والتشرد فيما مضى كحل للصراع الاوديبي أما الآن وبعد أن بدأت تباشيـــر المراهقة فلا زال هروبيا ولكن باتباع أوالية النكوص ٠ هزاله يحمل معنى رفض النمـــو والهرب من تحمل تبعات الرغبات الجنسية التي يثيرها ويتضمنها ٠

ـ المقابلة الرابعة بعد أسبوع من الثالثة :

يعاني من هجاسات هكعية (ألم في الحلق ، وهم خروج قطعة لحم من جسده اثناء البصاق) ـ تمنيات موت للخلاص من المعاناة الداخلية ٠ أحلام مخيفة (يقتل رجلا وينزلق عن جبل) تجسد هذه الاحلام المشكلة الاوديبية بوضوح : قتل الاب والاستمناء المرتبط بالام كموضوع جنسي ٠ فالانزلاق هو رمز للاستمناء والجبل رمز المرأة الام ٠ ازاء ذلك يصـر على العودة الى الطفولة من خلال الالحاح على نقله من التدريب المهني الى مرحلة التعليـم المدرسي التي سبق له أن اجتازها ٠ يستغرب السؤال عن حياته الجنسية ٠ وفي سـؤال حول الاستمناء يقول انه يرغب في الاحتفاظ بصحته وعافية جسده وتكامله ، مع انه يشكو رمزيا من ذلك الاستمناء في مخاوفه الهكعية ٠ يتضح من ذلك انه يكبت نزوآته الجنسيـة ويبتعد كليا عن هذه الانشغالات كوسيلة لتجنب المخاوف الاوديبية ٠

خلال هذه المقابلة رسم باخرة اطلق عليها اسما انثويا ذا دلالة جنسية صريحة (ريتا) وفي تعليقه على هذا الرسم قال : باخرة جميلة راسية في عرض البحر لعطل ألم بها ٠ البحارة ينزلون قوارب النجاة ٠ الباخرة مهددة بخطر الغرق ٠ النار تتصاعد من المدخنة والشمس تحرقها بأشعتها والبحر هائج (رموز جنسية ومخاوف صريحة) ٠ تقول يا رب أنجو من الغرق حتى ينقذ ركابها ٠

ان تفجر الرغبات الجنسية أصبح صريحا وهو في نفس الوقت يحمل خطر المـــوت غرقا ٠ والامر كله يدور في اطار عالم الام (الباخرة ترمز الى آلمرأة والبحر الى المـرأة المفترسة) أما المدخنة التي يتصاعد منها النار والشمس المحرقة فهي رمز القضيب ورمـز الذكورة في آن معا ٠ الجنس خطر على الام وعلى من تحتويه في بطنها ٠أي عليه هو بعد حركته النكوصية الطفلية ٠ النجاة لا تتم الا بترك الباخرة الام (القرين الجنسي) والعودة الى البحر في قارب النجاة ـ أي العودة الى الحياة الرحمية ٠

ـ المقابلة الخامسة بعد أسبوع من الرابعة :

ـ تأزم الصراعات الداخلية وانعكاسها على حالته العامة : تعب ، أرق ، كوابيس ٠ يبحث عن سند وحماية خارجية من صراعاته ومخاوفه ، يبدي تعلقا واضحا بالاختصاصي النفساني ٠

اجيب طلبه النكوصي بالعودة الى الدراسة وادى ذلك الى هدوء نسبي في صراعاته ٠

ـ المقابلة السادسة بعد عشرة أيام من السابقة :

ـ يعاني من فورة من القلق العنيف الذي يأخذ طابعـا هكعيا (احساس بالغثيان وخوف من الموت) ٠ مغلوب على أمره تجاه مخاوفه ومشاعره ويتمنى الخلاص حتى ولـو من خلال الموت ٠ تحمل هذه الامنية رغبة في تلقي القصاص الاكبر مرة واحدة حتى يحصل على البراءة والارتياح فيما بعد ويولد من جديد انسانا آخر ٠ مشاعر الذنب تتركز حول النضج الجنسي والكبر ٠

يفتقد الشهية حاليا وفي ذلك دفاع ضد اجتياف الطعام الذي يؤدي الى النمو ويضعه أمام رغباته التي ستبرز نتيجة لذلك ٠ يلاحظ ان قلقه يهدأ عندما يحاط كطفل صغير (أي كائن بريء من الرغبات الآثمة) ٠

بعد سلسلة من المقابلات التي تهدف الى تخفيف حدة معاناته نصل الى آخرها ونجد ما يلي :

مسرور جدا لوضعه وللتقدم الذي يحرزه في تأهيله ٠ مرتاح نفسيـا وجسديا ٠ يفكر بالمستقبل ويعتقد انه وعى وضعه واستعاد بصيرته بعد ان كان يعيش في الظلام ٠ يهتم كثيرا بتعلم مهنته ٠

وعن طفولته قال في هذه المرحلة انه لم يكن يدري كيف كان يجد نفسـه خارج البيت ٠

يزين الوضع الاسري ويدعي التفاهم مـع ذويه وفيما بينهم وان والده يلبي كل طلباته ٠ يذكر انه أصيب بالرعب في سن الخامسة اثر تخيلات أشباح ووحوش تهاجمه ٠ ظل ينام عدة شهور مع والدته على أثرها ٠ كان الجميـع يقولون ان به مسا ٠ يرجع سبب مشكلاته الى تلك السن (وهو قد يكون على حق في ذلك دون ان يدري) قد تكون المشكلات الاوديبية التي أوضحنا قد تأزمـت في تلك الفترة ٠

ورغم استقراره النفسي الحالي ، الا انه لا زال قاصرا في نموه الجنسي٠ تبدو الطفلية واضحة على محياه ، يصرح انه لا يحب البنات ويتضايق اذا حاولن الاحتكاك به ٠ ويسر كثيرا عندما يسمع من الاختصاصي ، انه يعتقد ان لديه بعد متسع من الوقت لهذه الامور ، ففي هذه الملاحظة يقبل الاختصاصي الحـل شبه النكوصي الذي وصل اليه ٠ يفكر بمستقبله الآن الا انـه يلغي الناحيـة الجنسية من هذا التفكير ٠

ومن الطريف انه يتصور مستقبله في المهجر « عندما أتخرج من المؤسسة سيساعدني والدي على اتمام اعدادي المهني ثم أسافر الى الكويت حيث أعمل كقريب لي هناك » ٠

لقد تصالح مع صورة الاب من خلال العـــلاج النفساني ولكن لم يحل اشكالاته الاساسية حيث ان ذلك تم على حساب الغاء الاهتمامات الجنسية من حياته ، أي الغاء التنافس مع الاب ٠

ان هذه الحالة التي عرضنا لها بشيء من التفصـــيل تكاد لا تحتاج الى تعليق ٠ فهي نموذج جيد للانحراف العصـــابي ٠ حيث ان وراء السلوك غير المتكيف الذي اتخذ طابعا جانحا صريحا يخفي وراءه مآزم نفسية شديدة ٠ الا انه يجب القول ان الحل الجانح قد سهلته أوضاع الاســرة ، فالاب المدمن لم يساعده على تكوين أنا أعلى ايجابي مما دفع به الى الارجاع العصابية بعد أن ظل فريسة لأنا أعلى بدائي يتميز بالهمجية السادية ٠

ثم ان الاخ الاكبر سنا شجعه على اتباع الحل الجانح ٠ وهكذا فالعصاب في هذه الحالة هو وليد وضعية أسرية مضطربة زوجيا واجتماعيا ٠ ولقد وجد حلا دفاعيا فيما تقدمه ذلك الاطار الاجتماعي من امكانات الانحراف ٠ مرة اخرى نجد انفسنا امام ظاهرة التفاعل الجدلي الافقي والعامودي بين القوى الاجتماعية الاسرية من ناحية وبين مختلف مستويات الحياة النفسية كما تكونت تاريخيـا من ناحية ثانية ٠ والسلوك في اتجاهه الجانح في البداية وتحوله الى التـكيف مع استمرار النكوص الجنسي فيما بعد هو وليد تلك الدينامية الجدلية ٠

ثالثا : عصاب الطبع(١) والانحراف

بينما تكون الصلة واضحة تكاد تأخذ طابعا مباشرا بين المآزم النفسية والحلول الجانحة كما رأينا ، هنالك حالات من الاضطراب النفســي تدفع الى الانحراف ، انما بشكل غاية في الخفاء ، ولا بد من رحلة صــعبة تسبر أغوار لاوعي الجانح كي نتمكن من الامساك بالصلة بينهما ٠ المآزم العصابية العادية تميز الجانح العصابي عن غيره من عدة نواح وهي على كل حال طاغية على الصورة ، أما في الحالة التي نحن بصددها والتي أطلقنا عليها اسم عصــاب

(١) عصاب الطبع : névrose de caractère

الطبع فيبدو الجانح صلبا متوازنا نفسيا ، لا يشكو من معاناة ، ولا يستنجد من مخاوف ، يحس انه على وفاق مع ذاته وليس هناك ما يجب بحثه سوى علاقته السيئة الصراعية مع المحيط · وهو الى ذلك لا يفقه لهذا الصراع سببا ، يبدو وكأنه قد احتمى وراء درع منيعة لا تنفذ منها المعاناة ·

على أن هذه الدرع تتفاوت في صلابتها من حالة الى اخرى · ففي الحالات المتطرفة يقترب الوضع من الفسق الخلقي(١) التام الذي أطلق عليه في علم النفس الجنائي اسم السيكوباتية · يتميز الواحد من هؤلاء بانعدام الصراع النفسي ، بالانانية المفرطة ، بانعدام الاحساس بآلام الآخرين وغياب التعاطف معهم ، بغياب مشاعر الحب وسيادة المصلحة الذاتية ، بالتوجه نحو المنفعة المادية الآنية وانعدام الالتزام بالوعود والوفاء بها ، وبصعوبة التأهيل لدرجة تقرب من الاستحالة · أما على الطرف الآخر فنجد درعا ركيكة نسبيا لا تصمد كثيرا للضغط ، اذ سرعان ما تبرز المآزم النفسية والاعراض العصابية النشطة وراءها · بين هذين الطرفين نجد نماذج لحالات متنوعة تقرب من أحدهما او من الآخر بمقادير متفاوتة ، كما قد يحدث تواجد الدرع مع المآزم على المستوى الظاهري من السلوك والتجربة المعاشة ·

هذه الوضعية خصوصا التطرف في مناعة الدرع هي مدعاة للكثير من الابهام من ناحية التشخيص الفارقي (٢) بين الانحراف العادي والانحراف العصابي · الوضع الخارجي متشابه الى أبعد الحدود مما يغري بالتسرع في الحكم ، الا أن هذا التشخيص ممكن على مستويات التجربة الذاتية · ولكن قبل أن نستعرض خصائص الانحراف الناتج عن عصاب الطباع ، يجدر ان نتوقف قليلا كي نوضح المقصود من هذه التسمية · نفر عديد من علماء النفس قدموا لنا توضيحات حولها وهم يلتقون في العديد من النقاط بصددها ·

قدم رايش (٣) لنا عرضا مفصلا لهذه التسمية في كتابه تحليل الطباع · يقول ان أصل الطبع يبدأ كشكل محدد لحل عقدة أوديب ، وما يميز مجمل الشروط القائمة وراء بنائه هو نزوات قوية جدا مع أنا ضعيف نسبيا · يكبت الانا هذه النزوات ، ولكن الكبت لا يكفي في هذه الحالة ، أو هو غير فعال بالدرجة المطلوبة ، وهنا يظهر الطبع كدفاع عن الانا ضد تلك النزوات وما تحمله من

---

(١) فسق خلقي : Perversion morale

(٢) تشخيص فارقي : Diagnostic differentiel

3) W. Reich. Analyse caracterielle Paris, payot. 1971.

تهديد على مستوى العالم الخارجي · الا ان هذه الدرع لا تكفي ، فلا بد للقلق أن يظهر ولذلك يحتاج الانا لتكوين طبقة اخرى تدعّم الدرع ، ولهذا فهنـــاك طبقات في الدرع الطباعي تبنى تاريخيا في رأي رايش (١) ·

الطبقة السطحية وليدة التجارب المعاصرة ، أما الطبقات العميقة فهي وليدة تجارب الطفولة ، ولكن الطبقات العميقة يمكن ان تكون معاصرة في نفس الوقت اذا ارتبطت بتجربة معاصرة وعززتها ، وطبقات الطبع هي أشبه ما تكون بطبقات الجيولوجيا او الآثار ·

وتبني الدرع (٢) الطـباعية كنتيجة للصراع بين متطلبات النزوات واحباط المحيط ، ويعزز استمرار الصراع الاحتفاظ بها على مستوى الانا ، مما يؤدي الى تعديل مزمن في بنائها وتطبع الشخصية والسلوك جميعا بطابعها الخاص · وباعتبارها نوعا من الدرع فانها تحد من الحركية والمرونة النفسية ، وان احتوت على بعض الثغرات التي يمكن النفاذ منها · ولهذا فان تحطيم تلك الدرع الطباعية أو زحزحتها يكشف التكوين النفسي الهش الذي يحتمي وراءها مما يهــــدد بالهيجان الانفعالي او الارجاع الاندفاعية النزوية · وهكذا فلهذه الدرع وظيفة هامة من الناحية الاقتصادية النفسية ، وهي الهروب من المشاعر المؤلمة والحفاظ على التوازن النفسي ، وامتصاص الطاقات المقموعة وخصوصا ايقاف ولجم القلق العائـــم · ولذلك فان ما يحكم حركتها اساسا هو مبدأ اللذة وتجنـب الالم · أما من الناحية الدينامية فيتضح ان الوضعيات التي تبرز تصلب ومقاومة الدرع الطباعية ، ليست في العادة سوى صورة عن الوضعيات الاولى التـــي ولدتها ، انها نقلة للعلاقـــات الطفلية مع المحيط ·

ولا تفصح الطبع عن نفسها من خلال المحتوى انما من خلال شكل السلوك والخطاب والاتجاهات الجسدية والمزاجية والعلائقية وصيغ التعامل وردود الفعل والاسلوب العام للحياة وللتواصل والتفاعل ·

اما سوغي فتميز بين الطبع العصابية والطبع الذهانية وعصاب الطبع · وفي هذه الحالة الاخيرة (عصاب الطبع) يبدو تصلب الدفاعات الطباعيـــة أكثر بروزا ، حيث تتبع قانون الكل او لا شيء الذي يمـــيز الاسلوب الاثري لاستجابة الانا للنزوات والموضوعات ، ولذلك فالمرور الى الفعل له طابع اكثر الزاما وعنفا · وعندما تتعرض الدفاعات الطبـــاعية لضغوط قوية نزوية أو

1) W. Reich, La fonction de l'orgasme, l'arche éditeur, Paris (p. 116) 1970.

(٢) الدرع الطباعية : cuirasse caractèrielle تسمية موفقة لرايش

خارجية ، يتحرك الصراع المرتبط بالصدمات المبكرة التي أدت الى تكوينها ، وهنا يشيع ان تظهر الارجاع العظامية او الخوافية او الاسقاطية ، او فقدان الاحساس بالشخصية ، او تبرز اعراض عصابية مكانها · فالعلاقة وثيقة اذا بين الدرع الطباعية والاضطراب العصابي ، الاول هو دفـــاع ضد القلق الذي يتضمنه الثانـــي ·

ويقدم لنا دياتكين وليبوفيسي (١) تحليلا عميقا للدينامية النفسية والعلائقية التي تحكم حركة عصاب الطبع ونشأته ·

قد تنتظم الشخصية في شكل دفاعي له نفس وظيفة الاعراض العصابية ، مما ينتج عنه سلوك ذو طبيعة اسقاطية · ومع ان مجمل الشخصية مضطربة الا أن المصاب بعصاب الطبع يفتقد الوعي بهذه الاضطرابات · ما يزعجه هـــو صراعه مع المحيط ، يحس نتيجة لذلك ان هنالك شيئا ما لا يسير على ما يرام ، ولكنه لا يشعر بالمرض ، ويتراجع عند أول محاولة لوضع سلوكه موضـــــع التساؤل ، يتحفظ في التعاون مع المعالج ، ويرفض التعبير عن أفكاره بصـــوت عال ، مع تكرار المرور الى الفعل ·

وكي نفهم عصاب الطبع ، علينا أن نمسك بأبعاد التفاعلات المعقدة ضمن الاسرة · ويلاحظ هنا أنه لا الولد ولا الاهل الذين تقوم بينهم علاقة مأزمية واعون فعلا بطبيعة قلقهم ودفاعاتهم الطباعية التي ينمونها كي يحتموا منه · يعيش الطفل ضغوطا أسرية متزمتة جدا يستجيب لها بالاضطراب الطباعي السلوكي بدون أن يعي فعلا قلقه ، العقاب هو الشيء الوحيد الذي يخشاه والذي يبدو أنه يبحث عنه في آن معا ·

وتعاش المشكلة على نمط الاسقاط من قبل الاهل والطفل ، كل يتهم الآخر ويضع اللوم عليه · وتنشأ عن ذلك حلقة مفرغة من التزمت الوالدي يجابههـــا الطفل بمزيد من الهياج والاضطراب السلوكي · وتكمن صعوبة المشكلة في أن الطفل لا يستطيع ان يشعر بالامان الا اذا أثار ردود فعل عقابية تجاهه ، كل تراخ في النظام العائلي يؤدي الى ازدياد مباشر في خطورة سلوكه · والواقع ان الطرفين يتصرفان بشكل مازوشي ولكنهما يجهلان ذلك · وتصطدم محاولة تغيير سلوك الاهل بالرفض لانها تضع موضع الشك شخصيتهم الكلية ، من خلال اعادة النظر في ظاهرة نبذ الطفل ·

(1) S. Lebovici et R. Diatkine, Revue Française de psychanalyse, No 3, Mai-juin, 1966.

فالعلاقة سلبية اذا والدلالة التي تعطى للطفل سيئة ، وذلك لا يســـاعده بالطبع على حسم تجاذبه العاطفي الاساسي تجاههم لمصلحة الروابط الايجابية· ولهذا يتحول الطفل الى سند لاسقاطات الاهل العدوانية ، ويتحول الى كائن لا يطاق ، وبالتالي يشعر الاهل بالبراءة امام هذا المعتدي الخارجي ·

تظهر الدفاعات الطبعية الاسقاطية خلال مرحلة الكمون خصوصا ويعيش الحدث والاهل والراشدين عموما كمصدر احباط وازعاج ، لا تأتيه المتعة الا من تصرفاته الجانحة أو هواماته ، أو أفعاله العدوانية التي تثير الارجاع القمعية من قبل المحيط · وهكذا ينخرط كل من الاهل والطفل في علاقة سادو مازوشية تؤدي الى تدميرهم جميعا حيث تولّد جرحا نرجسيا عندهم وتجره الى سلوك تدميري ذاتي ·

الدرع الطباعية عند الجانح اللبناني :

بعد هذا العرض النظري لخصائص وأواليات عصاب الطباع نعود الى الحديث عن الجانح اللبناني كما يبدو من خلال الممارسة العيادية والتربوية ·

تاريخ الجانح الذي حل مآزمه النفسية بتنمية درع طباعي ، وعلاقتـــه بالآخرين ، وموقفه من تجربته ومن القيم الاجتماعي مميز جداً ·

فمنذ سن مبكرة نسبيا ، في أواسط مرحلة الكمون ان لم يكن قبلا تظهــر الاضطرابات التكيفية عنده خصوصا في قطاع المدرسة وفي الحياة الاسرية · في المدرسة يلاحظ فقدان واضح للاهتمام بالدرس وعدم اندماج في جو المدرسة، العلاقة مع المعلمين سيئة او مفقودة اجمالا · ينجذب الحدث كثيرا نحو نشاطات اللهو خارج المدرسة ، ويؤدي به هذا الامر الى اكتساب سمعة سيئة ، وعندمـا ينبذ أو يعاقب من قبل معلميه يتخذ من ذلك ذريعة للهروب أو عدم بذل الجهـد وكأنه كان ينتظر تلك الفرصة كي يتحرر من الالتزام الدراسي · يغير المدرسة عدة مرات ويتراكم الفشل وتتأزم الوضعية من تغيير الى آخر · وعند هـذا الحد تبدأ مخاوف الاهل بالظهور بصدد تصرفاته · تكون عابرة في البداية ثم تتزايد تدريجيا ، ومن التشجيع والترغيب يتحول الامر الى التهديد والترهيب · ولكن كل ذلك غير مجد ، الشيء الوحيد الذي يبدو أنه يثير اهتمام الحدث هو اللهو والتسلية · يترك المدرسة بعد أن خيب آمال الاهل الذين يفكرون بالاعـداد المهني كتعويض ، ولكن هذه المحاولة تفشل بدورها حيث لا يبدي أي اهتمـــام

جدّي ولا يبذل أي جهد فعلي كي يختار مهنة يتعلمها ويستقر من خلال ممارستها٠ يغير العمل عدة مرات شأن المدارس ، وتزداد حالات هروبه من البيت وغيابه عن العمل سرا في البداية ثم علنا فيما بعد ٠ ويصطدم مع الاهل نتيجة لذلك ، وقد يلقى العقاب الشديد ولكن دون أي تأثير ٠ وتتفجر الصراعات مع ذويه ، ويبدو هنا كما في المدرسة انه لا يكترث ولا يهمه مصير علاقته معهم ، فيبدو كالغريب عن الاسرة ٠ وتتحول العلاقة بينه وبين ذويه الى احباط متبادل ، فهم مصدر انزعاج وهو مصدر خيبة أمل وجرح نرجسي ٠ ويحدث كثيرا ان يسرق نقودا أو متاعا لذويه لينفق على لهوه وملذاته ، أو هو قد يسيء الامانة ، وفي كل الحالات يتصرف وكأن الالتزام الوحيد هو تجاه ملذاته الشخصية فقط ٠

وبمقدار تردي العلاقة تزداد فترات غيابه عن المنزل وتطول المدة كي تصل أسابيع أو شهورا ٠ يعود بعدها ويحاول الاهل اصلاح الامر ولكن دون جدوى، فيعلنون فشلهم ويطلبون العون من بعض الهيئات التي تهتم بالطفولة غير المتكيفة ٠ وقد يتعرض خلال هذه التجربة الحياتية الى ممارسات جنسية شاذة أو يتعاطى المخدرات أو قد يندمج في عصابة جانحة ويشارك في نشاطاتها ٠

وعندما تبدأ مكاتب الخدمات ببحث وضعه يقف موقفا مميزا جدا يتذبذب فيه ما بين المراوغة والتهرب والوعود الكاذبة ، والتوبة الزائفة وسلوك التجنب، وبين الاعلان الصريح عن رفضه للتكيف في فورات من الغضب أو التوتر ٠ وهو في الحالتين يرفض وضع سلوكه موضع الشك ، لا يتحمل مسؤوليته ولا يرى في وضعه مشكلة ، وعندما يحشر يميل الى الاسقاط واتهام الآخرين بالتقصير ٠

أما الاسرة فيغلب ان تعاني من صراعات علائقية على المستوى الزوجي تنعكس على الموقف من الاولاد ولو بدت متماسكة ظاهريا ، ومتكيفة من الوجهة الاجتماعية الاقتصادية ٠ الروابط بين الوالدين تتميز بدورها بالتوتر والاحباط المتبادل ، وكأنها عبء على أحدهما أو كليهما ٠ وقد تكون الشكوى ظاهرة أو ضمنية ، وهنا يحتمل كثيرا أن تتحول الى الابن الذي لم يتكيف ، فيبدو وكأنه سبب مأساة الاسرة نتيجة لتصرفاته ٠ وقد يكون من الضروري التعمق في دراسة حالة الروابط الزوجية والوالدية من الناحية النفسية الواعية أو اللاواعية، الا أن ذلك لا يتيسر للباحث في معظم الاحيان ، وعليه أن يكتفي ببعض المؤشرات التي تدل على المشكلات الضمنية ٠

أما مصير هذا الحدث فيتصف اجمالا بالتحفظ ٠ اذ يحتاج الى تجهيزات بشرية على درجة عالية من التخصص والى اطار مستقر ومنظم كي يمكن

تأهيله ، لانه ميال الى احباط جهود المربين اجمالا مما يؤدي الى نبذه ، ويلقي به في خضم الانحراف الخطير بعد فترة من الزمن · فاذا تيسرت تلك التجهيزات، يحتاج عادة الى تأهيل طويل الامد ليس فقط مدرسيا ومهنيا بل خلقيا وعلائقيا· العقبة الكبرى أمام هذه العملية هي تجنب اقامة العلاقات الايجابية مع المربين، وغياب الرغبة في بذل الجهد للتقدم حيث يبدو وكأنه لا يحتاج اليهم ، لا يحتاج الى الروابط العاطفية ، ولا يحتاج الى تهيئة مستقبل ملائم · ولهذا فعندما يجد أن لا مفر له من مواجهة عملية التأهيل (أي مواجهة ذاته) قد يلجأ الى السلوك العدواني الاضطهادي · وعندما يجابه بالشدة يتخذ من ذلك مبررا لرفض التعاون ، واقفا موقف المغبون ومبررا اتهامه للآخرين ووضع اللوم عليهم · وهو قد يبحث عن أي احباط مادي لحق به ليتخذ منه ذريعة لموقفه العدواني الاضطهادي · ويبدو بوضوح أن ما يهمه ليس ازالة أسباب الاحباط بقدر اتخاذه سلاحا في معركته ضد التكيف · فاذا واجه حزما وسلطة قوية قد يرضخ ويتبع ما يسمى باستراتيجية التكيف الهروبي · يظهر سلوكا مثاليا لتجنب الاحتكاك بالمربين أو المسؤولين الذي يمكن ان يضع شخصيته أو تصرفاته موضع التساؤل ويضطره ان يعيد النظر فيها · وهكذا بعد أن كان عنصر ازعاج يتحول الى عنصر مغفل لا يلفت النظر ، وفي ذلك هروب فعلي من مجال المؤسسة ومن التأثيرات التي يمكن ان يمارسها عليه ·

وقد يلجأ اذا لم يتمكن من التكيف الهروبي الى الاحتماء الهروبي في المرض · كل يوم يأتي الى الاختصاصية الاجتماعية أو المربي عارضا مرضا ما يحتمي وراءه من الدراسة أو التدريب المهني أو المسؤولية عموما · ويشغلهم بأمره من خلال سلسلة من الزيارات الى مختلف الاطباء أو سلسلة من الفحوصات السريرية · وهو يتربص بهم مستغلا أقل تهاون أو تأخير لاتهامهم بالاهمال الذي يجد فيه ذريعة للتحلل من التزاماته ·

وقد يحدث أن تكون الدرع الطباعية متوسطة الصلابة بدرجة تفشل معها في القضاء على المآزم النفسية الفاعلة وراءها · في هذه الحالة تتفجر تلك المآزم ويجتاحه قلق شديد · يحدث ذلك على وجه الخصوص مع اطلالة المراهقة التي تحرك كل الصراعات النفسية الطفلية بعنف · وقد يتحول الحدث عندها من طباعي الى عصابي · امكانية التكيف في هذه الحالة تزداد بدرجات متفاوتة تبعا لمقدار التحول الذي طرأ على الدرع الطباعية من ناحية وعلى امكان حل الصراعات العصابية من ناحية ثانية · فاذا توفر الامكان الثاني فتح المجال أمام اعادة تنظيم الشخصية خصوصا من خلال بروز العلاقات الايجابية مع

المربين · ومن أبرز الدلائل على التحول الذي نحن بصدده تغير الموقف من الاسرة · يشعر الحدث فجأة بقلق على ذويه وبحاجة الى البقاء بالقرب منهم وبالتزام شديد تجاههم ، وبرغبة عارمة في العمل والكسب من اجل مساعدتهم · ويأخذ الامر كله طابع الرغبة في التعويض عليهم ، وباصلاح الخطأ الذي ارتكبه بحقهم صغيرا وكأنه استيقظ فجأة من ضلال طمس عليه وعيه وبصيرته · يتوقف الامر طبعا على مدى استعداد الاهل للتجاوب مع هذا التحول ، وهو ممكن اذا كانت درجة الاضطراب معتدلة في الاسرة مما يسمح بتغيير دينامية العلاقة مع الحدث · هذا التحول من العناصر الحاسمة في تكيفه اذا وُجد من يستغلها بشكل ملائم ·

ولكن الامر قد يتصف بالتجاذب ما بين التوجه العصابي والتوجه الطباعي، ما بين الميل نحو التكيف أو الاستمرار في الانحراف · وقد يستمر التذبذب فترة طويلة اذا لم تتدخل عناصر تحسم الوضعية في اتجاه أو في آخر · وقد تتجاور الاضطرابات العصابية الصريحة مع الموقف الطباعي من عملية التأهيل ومن العلاقة مع المربين فيشكو من القلق ويعاني من الآلام النفسية ولكنه يظل عديم التجاوب متهربا من الالتزام العلائقي ·

هذه الملامح وتلك الاتجاهات تبدو بوضوح خلال الفحص النفساني ، حيث يتميز موقف الحدث بالرفض اجمالا · يتجنب العلاقة مع الفاحص ولا تفلح معه مظاهر التعاطف والتفهم التي يبديها ، ويظهر بوضوح أنه ليس بحاجة الى الاختصاصي النفساني ، وليس لديه ما يقوله عن حياته الداخيلة ولا يبدو عليه أنه يعاني من أية آلام معنوية ، مما يشعر الفاحص أنه يتدخل فيما لا يعنيه · ويحتاج الامر الى تكرار المقابلات كي يبدي الحدث بعض التجاوب ، ولكنه يظل شبه محايد تجاه ما يرويه من أحداث ماضية او من تجارب شخصية مع الاسرة وفي الانحراف وكأنه يتحدث عن أمور لا تعنيه · انحرافاته لا تثير اية مشكلة نفسية له أو أي مأزم معنوية ، وهو سرعان ما يضع اللوم على الآخرين (الظروف ، الرفاق ، الاهل) ويتأفف لتدابير قاضي الاحداث مصرحا بأنها مبالغ فيها من حيث المدة أو الشدة ·

أما السمة الثانية الاساسية التي تميز موقفه اثناء الفحص فهي فقر الاداء · فهو لا يبدي أية رغبة في تنفيذ المهمات التي قد تطلب منه أثناء تطبيق بعض الروائز عليه لبحث وضعه العقلي ، يقوم بالجهد الادنى الذي يسمح له بالتخلص من المهمة · ويتضح ذلك خصوصا في كل المهمات ذات الطبيعة

الاسقاطية . فانا لم يرفض صراحة الاجابة ، يعطي اجابات فقيرة جدا أو يجد صعوبة واضحة في اسقاط مشاعره . وقد يظهر الانزعاج عليه نتيجة للمهمة التي تبدو كعبء ثقيل . وقد يسقط بعض ملزمه الداخلية ولكنها تظل مشوشة ، مترددة ، وتخلو اجمالا من السياق الانفعالي الذي يفترض أن يرافقها (التأثر ، الانشغال ، القلق ، المعاناة ، الحماسة الخ ...) . على كل حال يتخذ الحدث من الفاحص موقف من يحاول أن يشعره بأنه سيكون ممتنا له اذا أعفاه من هذه الوضعية جملة وتفصيلا .

ولكن الامر لا يأخذ دائما هذا الطابع المفرط . هنالك ثغرات في الدرع، لحظات تفاعل ايجابي وانفتاح واهتمام يستجيب خلالها للموقف المرحب من قبل الفاحص ولما يبديه من تفهم . وتجدر الاشارة الى أن الاسلوب التشخيصي لا يؤدي اجمالا الى نتائج تذكر ، وعلى العكس من ذلك فان الاسلوب الوجودي في ادارة الفحص الذي يتركز حول المضمون ويعكس حالاته الوجدانية في اطار من التقبل يؤدي الى نتائج أفضل ويشكل مدخلا لاقامة علاقة ايجابية بين الحدث والاختصاصي النفساني تحتاج الى كثير من الاناة كي تتأكد وتتوطد . العنصر الحاسم هنا هو تنبه الفاحص لخطر الانزلاق نحو نبذ المفحوص نتيجة لاتجاهاته التي قد تولد الاحباط ، حيث انه يميل تلقائيا الى اقامة هذا النوع من العلاقات الاضطهادية مع الآخرين .

أخيرا قد يلجأ الحدث عندما يأنس تعاطفا من الفاحص الى اتخـــاذه كحليف له أو كوسيط للحصول على طلبات أو تحقيق رغبات لم تجد تجاوبـا من المسؤولين . وهو في هذا يتهرب من العلاقة التي تتركز حول حياته الداخلية ، بتحويلها الى مطالب مادية وتحويل الاختصاص الى محام يدافع عنه . على هذا الاخير أن يتنبه لهذا الخطر ويتخذ الموقف الملائم تبعا للمرحلة التي وصلت اليها العلاقة ، فان اتخذ موقف الرفض الصريح قد يعطي مبررا لبروز الميـــول الاضطهادية ، وان قبل اللعبة قد يتحول الى أداة .

تلك ملامح عن الجانح الذي يحتمي وراء درع طباعية . وهو اجمـــالا من النوع الذي يشكل تحديا عيابيا كبيرا للاختصاصي النفساني بقدر التحدي التأهيلي الذي يطرحه على المربي . ونستطيع الآن أن نقدم تدليلا على ذلك من خلال استعراض احدى الحالات :

نديم هو الابن الثاني في أسرة من ٧ أولاد (أربعة صبيان وثلاث بنات) . الاب مستخدم ، الام ربة منزل ، المستوى الاقتصادي متواضع . تزوج الوالدان قبل ولادة نديم

بعامين وأقاما في مدينة كبرى • بعد اكثر من عشر سنوات وجد الاب أن دخله لا يسمح له بمجابهة متطلبات المدينة خصوصا ان أسرته اصبحت كبيرة العدد ، فأرسل زوجته وأولاده الى القرية مسقط رأسه وبقي هو في المدينة • انما السبب الحقيقي هو فتور العلاقة مع زوجته ومخالطة غيرها في المدينة • بقيت الام بمفردها في القرية مع أولادها لا تستطيع أن توجههم بما فيه الكفاية وأحست أن زوجها أبعدها في الواقع ولذلك فهي تلح بالعودة اليه بينما هو يعد ويماطل •

أما نديم فوراءه تاريخ حافل من الصراع مع الاسرة والتشرد واللواط والسرقة ظهر جليا في أواخر مرحلة الكمون •

تردد في طفولته الى عدة مدارس ولم يثبت في أي منها • ترك الدراسة في أوائل المرحلة الابتدائية بعد رسوب متكرر ومارس عدة مهن ، كان لا يثبت في أي منها اكثر من أسابيع أو أيام تنتهي بالهروب والتشرد حيث يمضي أوقاته في اللعب واللهو ، وكان يتسول عندما يجد نفسه في الحاجة • ولقد بدأ يسرق من المنزل أو يبيع مواد كلفه والده ايصالها الى أصحابها • سرقاته كانت بسيطة في البداية ثم تكاثرت كمية وعددا ، وهو يبررها بالحاجة الى مجاراة رفاقه الذين يسرقون من أهلهم أيضا •

ابتدأ انحرافه في جو التوتر العائلي بين الوالدين ، وفي غياب سلطة آلاب الذي لم يكن يتدخل الا كي يضربه بعنف • ولم تكن الام تعوض عن قسوة الاب ، حيث يصفها نديم بقلة العاطفة • وعندما يئس الاهل من امكان تقويمه حولوا الامر الى محكمة الاحداث، واتضح انه من الصعب التاثير عليه من قبل الاختصاصيات الاجتماعيات ، حيث لم تتمكن من توجيهه بسهولة الى المؤسسة التأهيلية • وعندما تمكنت الاختصاصية من مقابلته ، أبدى الكثير من الذكاء والوعي للحياة بشكل مبكر ، ولم ينكر ما نسب اليه من أعمال انما لم يتحمل مسؤوليتها • كان يضع اللوم على الرفاق وخصوصا على سوء معاملة آلاهل • كانوا يقسون عليه لتصرفاته مما يؤدي به الى الحقد والميل الى الانتقام • وعندما حاولت وضعه أمام مسؤولياته ثار معلنا عدم رغبته في الدراسة أو العمل « أنا ما بدي أشتغل ، بدي عيش على كيفي ، وبخصوص النقود فاني أتدبر أمري ، أتسول أو أطلب من رفاقي » • ولقد بدا أنه حدث غير مستقر بحاجة للكثير من العطف حيث تحول الصراع بين الوالدين الى صراع بينهما وبينه • ونتيجة لسوء سلوكه وعدم استقراره عرض على أحد الاطباء العقليين فأفاد بأن نديم مصاب بتأخر عقلي وقصور ذهني واضطرابات سلوكية ولكن هذا التشخيص لم يؤيده الواقع فيما بعد• ولقد عولج بالمهدئات لفترة طويلة من الزمن الا ان ذلك لم يغير من حالته شيئا • استمر في سرقاته وتشرده ومراوغته في كل مرة كان يبحث فيها أمره •

خلال حياته غير المتكيفة انجرف في آلممارسات اللواطية واعتادها لدرجة أصبحت

تكون لديه حاجة لا يملك نفسه عن السعي الى اشباعها ، كان الامر في البداية انتفاعيا ثم تحول الى تعود أدى الى اصابته بمرض معد ، ولكن ذلك لم يمنعه عن هذه الممارسات ٠

تعطينا التقارير النفسانية معلومات دالة عنه وتعكس الدرع الطباعية التي احتمى وراءها من مأزقه النفسية ٠

ـ المقابلة لاولى :

نديم حدث منفتح ظاهريا ، انما بشكل جد سطحي ، يتحدث عن حياته وتجاربه في الاسرة والانحراف ببساطة كلية وبدون أي التزام وكأنه يروي أحداثا وقعت لغيره ٠ غير مبال بالمستقبل كثيرا ، لا يشعر بالخطأ ولا يبدي أي دلالة على تحمل مسؤولية أعماله ، ويظل مركزاً حول ذاته وملذاته ٠

ينقاد للسلطة الحازمة ، لا يصطدم بمن حوله ، ولكنه لا يتفاعل ولا يندمج في علاقات ايجابية ٠ لا يأتي مطلقا على ذكر عالمه الداخلي أو معاناته ، وكأنه لا يتألم من أي مشكلة، ويبدو كمن يتهرب من ذاته أو هو يود التستر مع ميل الى عدم الاستقرار العاطفي ٠

لا زال طفليا في موقفه من وضعه ومن العالم ٠ موقفه من أهله جد غامض اذ يتهرب من الحديث عنهم ٠

يتمتع بامكانات عقلية مقبولة ٠ ذاكرته حسنة ، لديه قدرة تنظيمية الا أنه يعوزها الشمول ، ينشد الدقة في عمله ولكن على مستوى الجزئيات يتسرع أحيانا الا انه يعي ذلك فيضبط نفسه ويصحح خطواته ٠ يمكنه من الناحية العقلية متابعة دراسة متوسطة والنجاح في التأهيل المهني ٠ الا أن ما يعوزه هو الدافع لذلك على المدى الطويل ٠

يبدو نديم اذا خاليا من المشكلات ، آلا أنه يعاني من مآزم داخلية تحل بأوالية الهروب والطفلية والتعمية وهو لذلك معرض كثيرا للانحراف اذا سنحت الفرصة وفقد رقابة السلطة الحازمة ٠ على أن بروزه في بعض الميادين يرضي غروره ، ويجعله يتحفظ بعض الشيء في تصرفاته غير المتكيفة ٠ امكانات تأهيله غير معدومة عندما يجد المعاملة الملائمة٠

أما أجوبته الاسقاطية على رائز تبصور المتون فتتميز بالتردد وعدم الوضوح وعدم اتخاذ موقف ٠ تظل أحيانا وضعيته وتفتقر دائما الى الالتزام الشخصي الانفعالي ٠ ويظهر من سلوكه أثناء الفحص أنه يتجنب آلاسقاط حيث يتلهى بما يدور حوله عن رواية القصص على لوحات الرائز ٠ تبقى قصصه مبتورة ، بدون مأساة لها بدايتها ونهايتها ، ويدل المحتوى على عدم وجود علاقات وثيقة وايجابية بين أبطاله حيث تتكرر موضوعات النزاع والصدام والملاحقة والاجرام والقتل والانتحار والبؤس ٠ ويضيع الامر في عدد كبير من الاحتمالات في كل مرة ، مما يشير بوضوح الى طبيعة الدرع الطباعية من ناحية والى ما يخفي من مآزم مكبوتة من ناحية ثانية ٠

الاجابات على رائز تبصر المتون :

ـ اللوحة رقم 2

في واحد عم يفلح الارض · هوني أمه يمكن أو امرأته · واقفة هيك عم تتطلع عليها · حاملة كتبها وذاهبة الى المدرسة · ناس يعتاشون من الارض · آخر السنة بيخلص موسمهم · عايشين في غابة حد البحر لوحدهم بين الشجر ·

ـ اللوحة رقم 3 BM

هون واحد زعلان وقاعد على الرصيف ، أو في البيت ، هناك مسدس بجانبه · يمكن يكون أحد أقاربه ميت · أو تقويبا قاتل أحداً من الناس ومغمى عليه ، يمكن يكون قتل نفسه ووقع المسدس منه · يمكن يكون في مشكلات مع أهله ، أو هربان من حكومة ، يريدون محاكمته أو حبسه أو شنقه ، قتل نفسه · يمكن يكون عامل شي شغلة أو شيء ، أو بدو يتزوج وأهل العروس لم يقبلوا ، فضل الانتحار ، قتل حاله ·

ـ اللوحة رقم 6 BM

هذا الشاب كأنه حزين ، زعلان · أمه تتطلع هيك من الشباك · (بعد التشجيع على المتابعة) يمكن يكون رايح لهم شيء أو ميت لهم أحد ، أو مزوج ابنته وزعلانه أمه · مش مبين ما هي القصة ·

ـ اللوحة رقم 7 BM

هنا شخصان واقفان جنبا الى جنب : هذا يتطلع بالآخر وذاك لست أدري الى ماذا ينظر ، أو هما يتكلمان مع بعض · ولكن هذا تبدو عليه هيئة اجرام ، هيئة زعل (وبعدين) يمكن أن يتفقا ، يحدث معهما شيء ، والله مش عارف ·

ـ اللوحة رقم 8 BM

هؤلاء تماثيل · في شخص هنا وراءه تماثيل · واحد حامل مقص يغرسه في بطن آخر · هناك واحد آخر في الخلف يحمل قنينة · وهذا بجانبه بندقية · يمكن قد ألم بـه شيء ، يمكن يريدون قتل الشخص أو هم يحاكموه ·

ـ اللوحة رقم 9 BM

هؤلاء أشخاص ، عدة أشخاص ، يمكن نائمين أو أعتقد موتى ، نائمين على العشب · يمكن يكونوا زعلانين مع أهلهم ونائمين على الطريق ، أو ليس معهم أجـرة فندق ، أو زعلانين مع أهلهم ·

تعكس هذه الاجابات المآزم النفسية الدفينة والموقف الهروبي منها ·

هنالك خلط في اللوحة الاولى بين الام والزوجة ، تتضح منه الميول الاوديبية المموهة · الا أن موقف البطل فاتر متفرج من الرغبات الدفينة · تنتهي القصة بجملة تحمل دلالـة رمزية واضحة « العيش وحيدا في كنف الام » حيث يشير الحصر والغلبة الى الام عموما ·

وتأتي اللوحة الثانية فتعكس النوايا العدوانية المرافقة للرغبات الآثمة والعقاب عليها من قبل أنا أعلى همجي مسقط على الخارج أحيانا ونشط مباشرة أحيانا اخرى · وهو في كل الاحوال يخلط بين موتـه هو وبين القتـل ، ويخلط بين رغبات جنسية صراعية ومحبطة وبين الصراع مع الاهل · الواقع ان هذا الصراع الاخير يخفي وراءه احباطا أوديبيا · وهنا يصل الامر أعلى درجات التمويه والتشويش من خلال تكديس الاحتمالات التي تعكس مختلف جوانب المشكلة وتعمل على تعميتها في نفس الوقت ·

أما في اللوحة الثانية فيتضح المأزم الاوديبي · انه أمام الام القاسية الرافضـــة ورد فعل جوري على موقفها (شاب زعلان ، حزين لعدم رضى أمه) ولكنه هنا أيضـــا سرعان ما يتهرب من المشكلة عجزا عن مجابهتها ·

أما العلاقة مع الاب فيشوبها الغموض والصراع وأحيانا التواطؤ ، الاب مجــــرم كالولد · لقد تماهى بصور والدية سالبة اجمالا · ولذلك تكونت لديه صورة قاسيــــة ومهددة عن العلاقات وعن العالم الخارجي ، وقد يكون ذلك هو السبب في ميله المازوشي الى ممارسة اللواط لعقاب ذاته وتهدئة الانا الاعلى من ناحية ، وطلبا للمنفعة المادية من ناحية ثانية حيث كان يقدم جسده لقاء دراهم أو سجائر او غيرها من الامور التي تبرز كرغبة في مجال وعيه ·

أما اللوحة التالية فتعكس خصوصا درجة الهروب من المآزم النفسية من خـــلال الدرع الطباعية التي تقضي على قطاع الاحساس والتأثر ، يتحول الابطال الى تماثيـل متحجرة · لان القتل سيجر المحاكمة والقتل الاقتصاصي ، مما يولد قلقا ليس بمقدوره مجابهته الا بالتحجر والغاء العاطفة ·

أما اللوحة الاخيرة فتعكس الى حد كبير تجربته الحياتية مع الاسرة · وتشير الى معاناته خلال هروبه الذي يتضمن عنصرا من عقاب الذات (يمكن يكونوا زعلانين مــع أهلهم ونايمين على الطريق ، أو ليس معهم أجرة فندق) ·

وهكذا يبرز في البداية المأزم آلاوديبي على مستوى رمزي عصابي ثم يتضح تدريجيا ولكنه في نفس الوقت يؤدي الى ظهور الدرع الطباعية كدفاع أساسي ويتلازمان معا فترة من الوقت · وينتهي الامر بافراغ المأزم من كل شحنته الانفعالية وتحجيره حيث تتصـلب الدرع وينغرس الامر في تجربة وجودية تتميز باضطراب العلاقة مع الاهل ·

المقابلة الثانية بعد عدة شهور من السابقة :

يعبر عن ارتياحه لمقابلة الاختصاصي على عكس الاحراج الذي شعر به سابقا · لا يطرح أي مشكلة ذاتية ، يروي ذكرياته عن التدخين والسرقة في سن مبكرة · يتحدث عن كل ذلك ضاحكا وكأن الامر لا يعنيه ، وهو على كل حال لا يكون مشكلة شخصية بالنسبة

اليه · تاتي المشكلة خصوصا من ردود فعل المحيط الذي يرفض ممارساته ، وهو متيقظ باستمرار لهذا الامر ، عندما يحس بأقل بوادر التساؤل يتحفظ ويحتمي وراء درعـــه الطباعية ، وكأن عليه دوما ان يرد الاتهام الممكن الذي قد يوجه اليه ·

يشير بشكل محايد الى اصابته بمرض معد نتيجة لممارساته اللواطية · لا يبدو عليه أنه يعيرها كبير اهتمام ، يحاول تقليل خطورتها ، على انه يشعر بالخجل وشيء من الارتباك عندما يثار هذا الموضوع ·

الصورة الاسرية باهتة جدا وسلبية : ذكريات عن الام التي تضربه لسرقاته ، والاب الذي يقسو عليه لنفس السبب ، يرويها بأسلوب خال من أي سياق عاطفي عدا كثير مــن الخشية من الاب ·

ويستمر أسلوبه في مختلف المقابلات التي تكاد تصبح متطابقة لشدة تشابهها ·

يقيم علاقات سطحية ويخوض في أحاديث اجرائية او حياتية عامة ، ويتجنب كل تعرض لحياته الذاتية وكأن في ذلك امكان ادانة له عليه أن يدرأها عنه مباشرة · ولكن رغم هذا المظهر يميل نديم الى عقاب ذاته وانزال الاذى بجسده من خلال التجارب اللواطيـــة التي يعيشها تحت شعار الرضوخ والنفعية في آن معا · فاذا أضفنا هذه الاستجابـــات الى مشاعر الارتباك والخجل التي أشرنا اليها ، لاتضح لنا أن درعه الطباعية رغـــــم صلابتها وتحجرها لا تخلو من مناطق ضعف يمكن النفاذ منها الى حياته الداخلية والعمل من خلال ذلك على تغيير اقتصاد شخصيته · الا أن ذلك يتطلب الكثير من الاناة والحرص العياديين لتهيئته كي يجابه مشكلاته بدون الحاجة الى درعه ، وبذلك يكون السبيل قد فتح أمام تأهيله فعليا ·

حالات الانحراف العصابي متنوعة اذا من حيث شكلها الخارجي ومن حيث ديناميات‍ها وكذلك من حيث اقتصاد الشخصية في كل منها · بعضها يقترب من العصاب العادي والآخر يقترب من الانحراف الاجتماعي · وبين هذين الطرفين تتدرج الحالات ، وتتمازج العوامل · على ان المآزم العصابية مهما كان نوعها لا تؤدي الى الانحراف الا ضمن اطار أسري واجتماعي يهيىء الظروف لها كحد ادنى وقابل ان يولدها بصرف النظر عنها كحد اقصى · علاقة التدعيم المتبادل هي السائدة في كل الحالات · ولكن نمط الانحراف الناتج عنها يختلف في نهاية الامر عن الانحراف المرضي المحض أو الاجتماعي المحض · على أن تعبيـــر « محض » هذا يدحضه الواقع بدوره · ليس هناك على الاطلاق نموذج صاف ولا نستطيع في النهاية عرض الامور من خلال السببية الطولية · الانسان ذو التجربة المعاشة الفريدة تاريخيا ونفسيا واجتماعيا يفشل باستمرار الميل التبسيطـي الاختزالي الذي قد تحاول النظرية فرضه عليه ·

القسم الثاني
الانحراف الاجتماعي

تمهيد :

حاولنا في البحث الثاني ان نرسم خطوطا عريضة للاطار الاجتماعي لظاهرة انحراف الاحداث في لبنان · وأتينا بعدها الى استعراض ما يسمى في الدراسة العيادية بالانحرافات المرضية ·

ونعود في هذا القسم الى بحث أشكال الانحراف التي لا ترجع أساسا الى اضطراب نفسي أو اصابة دماغية صريحة ، فنحاول أن نرسم صورة للخصائص الشخصية والتجربة الوجودية ونظام القيم للجانحين العاديين · هؤلاء هم أساسا نتاج وضعية اجتماعية ، ويختلفون عن سواهم في العديد من الملامح اذا بحثنا الامر على المستوى العيادي · وهم الى ذلك يشكلون النسبة الكبرى من الاحداث الجانحين في لبنان ويتوزعون بدورهم الى عدة فئات من الناحيتين الظواهرية والسببية ·

قد يبدو في مسارنا هذا بما فيه من تصنيف عودة الى السببية الميكانيكية أو على الاقل نظرية العوامل السائدة ، وكلاهما نظرة وحيدة الجانب تعزل وتفاضل بين القوى المسببة للانحراف · الواقع أننا أبعد ما نكون عن منطلق كهذا · فلقد رأينا عند بحث الحالات المرضية كيف ان السلوك الجانح لا يمكن أن يظهر الا اذا توفر له اطار اجتماعي يسمح به والا لوجد لاضطراب النفسي مسارا آخر كالعصاب أو الامراض النفس جسدية مثلا · ذلك أمر معروف ولا يحتاج الى برهان · حتى الاصابات الدماغية أو التخلف العقلي لا تؤدي رغم ما تتضمنه من استعدادات الى الانحراف الا اذا وقع المصاب ضحية اطار اجتماعي وتجارب علائقية معينة كما أوضحنا ·

وعلى العكس من ذلك تماما ، فان الاطار الاجتماعي الذي يتضمن درجة عالية من خطر الانحراف لا يمارس تأثيره بشكل مباشـــر دوما ، لا بد له من المرور بمراحل متعددة تنعكس تأثيراته خلالها على بنية شخصية الحدث التي تتشكل في نظام دينامي يدفع الى الانحراف · انه يؤدي الى اضطرابات أسرية متنوعة تجعل عملية التماهي بالوالدين والقيم الاجتماعية المتكيفة مشوشـــة ويعتورها القصور مما يرسي خلل التوازن النفسي والسلوك الجانح على حد سواء · ونجد توكيدا لهذا الرأي من خلال كثرة الاضطرابات والمآزم النفسية عند الجانحين العاديين لدرجة يصبح من المشروع معها التساؤل عما اذا كان هنالك فعلا منحرف عادي (أي يخلو من الاضطراب النفسي) · ان الوضعيـــة الاجتماعية تسد الطريق امام التوازن النفسي خالقة بذلك الاستعداد للانحراف ثم هي تظهره الى حيز الوجود من خلال تقديم امكانات الحلول الجانحة للمآزم النفسية والحياتية · وهي تعززه بعد ذلك من خلال قصور التجهيزات الرعائية والتأهيلية للجانحين · ذلك هو على الاقل الحال في لبنان والكثير من البلدان النامية والصناعية ·

وكما ان استعراضنا للانحرافات المرضية أوضح لنا أن الامر ليس مسألة مفاضلة بين النفسي والاجتماعي بل تحديد متبادل كذلك الحال في هذا القسم · التقسيم هو من ناحية ضرورة اجرائية ، ومن ناحية أخرى وسيلة لتبيان القـــوة الاساسية الفاعلة في كل وضعيته ·

ويضاف الى هذه وتلك أننا بصدد دراسة عيادية لنماذج من الجانحين الاحداث تهدف ابراز خصائص الشخصية ونوعية التجربة الوجودية والاواليات النفسية لكل فئة · من هذه الناحية يختلف الجانح العادي عن سواه مما يبرر افراد قسم خاص به ·

نقصد بالجانح الاجتماعي العادي ذلك الذي يعود انحرافه بشكل رئيسي الى أسباب وقوى اجتماعية · ونجد هنا العديد من الحالات التي تتفاوت في درجة التقارب أو التباعد بينها من الناحية النفسية ومن ناحية تجربتها الاجتماعية التاريخية وبالتالي من حيث بنية الشخصية وموقفها من الوجود · يتراوح الامر اذا ما بين الجانح المدلل الذي يعيش في بيئة أسرية واجتماعية ملائمة ويقترب كثيرا من الحالات النفسية ، الى الجانح البدائي الذي يأتي من مناطق ريفيـــة معزولة · وبين هاتين الفئتين يقع العدد الاكبر من الحالات التي تكون النســبة

الكبرى من الانحراف الفعلي · ونقصد بها الحالات وليدة البيئات المفككة التي تمثلت معايير جانحة والحالات التي تنتج عن انهيار الاسرة التي تعيش أصلا في محيط يحمل قدرا كبيرا من خطر الانحراف · ثم هناك الحالات الهامشية التي تتذبذب ما بين النشاطات المشروعة وشبه المشروعة وغير المشروعة كأسلوب في الحياة وكسب القوت ، بشكل تضيع الحدود فيه بين التكيف والانحراف · اننا هنا ازاء حالة منتشرة بدرجات متفاوتة في بلدان العالم الثالث ، ولا تلاحظ الا ضمن جزيرات سكانية هامشية في العالم الصناعي ·

سنحاول اذا أن نعرض للملامح الاساسية لهذه الفئـــات المختلفـة من الجانحين · وننهي هذا القسم بدراسة الخصائص الاساسية للاحداث الجانحين في لبنان الذين يتفاوتون في اقترابهم أو ابتعادهم عن أمثالهم في البلـــدان الصناعية والبلدان النامية · ذلك أمر على درجـــة من الاهمية حتى لا نقع في محذور المعرفة الزائفة للظاهرة كما هي محليا من خلال قراءة ابحاث اجنبيـة نظن فيها تفسيرا لواقعنا ·

الفصل العاشر

الجانح المدلل

قد يبدو مستغرباً الحديث عن جانح مدلل يتوجه الى الانحراف نتيجة لافراط في المحبة يحظى بها في أسرته ، اذ يرتبط الانحراف عادة بالحرمان العاطفي أو النبذ والاهمال الوالدي ٠ ولكن الافراط في محبة الطفل قد يسد الطريق أمـــام التكيف كالتفريط به ٠ والواقع ان الصورة الدينامية النفسية في الحالتين رغم ما بينهما من تضاد تتقارب في الكثير من ملامحها ، مما يؤدي الى سلوك متشابه رغم اختلاف المنطلقات ٠

الا أن عدد الحالات من النوع محدود اجمالا ويكاد لا يستحق دراســـة خاصة به لولا الاوجه العيادية الطريفة التي يتخذها والمشكلات التربوية والتأهيلية التي يطرحها خصوصا نتيجة لتدخل الاسرة ٠

وقد يبدو من الانسب ادراج الجانح المدلل في القسم النفساني من بحث مشكلة الاحداث الجانحين ٠ الا ان هذه الفئة هي في الواقع ابعد ما تكون عن الاضطراب النفسي بالمعنى المألوف رغم الخلل الذي يعتور بناء شخصية الطفل٠ ومن ناحية ثانية التدليل المفرط كالاهمال المفرط هو أصلا مسألة أسرية اجتماعية تتعلق بمكانة وقيمة الطفل والدور الذي يعطى له ٠ واذا كان الاهمال هو نبـذ لما يمثله الطفل من سوء يسقط عليه فالتدليل هو اعلاء لشأن دلالة تعطى لهـذا الطفل ، وهو في الحالتين أداة لتجسيد مشكلات أسرية يلعب المجتمع فيها دورا أساسيا ٠

ثم ان الجانحين المدللين لا يشكلون فئة واحدة ، بل يتنوعون تبعا لتنوع الاسباب التي أدت الى تدليلهم ، أي تبعا لحاجات الاهل المختلفة الى ذلك التدليل ، ولذلك فان المشكلات التربوية التي يطرحونها ليست واحدة في كل الحالات • انهم يتراوحون ما بين امكان التكيف السهل الى الفسق الخلقي الذي يكاد يستعصي على وسائل التأهيل الشائعة حاليا •

وهكذا فاذا كان اهمال الطفل وضياعه يعكس مرضا اسريا واجتماعيا صريحا ، فان التدليل المفرط الذي يؤدي الى الانحراف قد يعكس جوانب من الاضطراب نفسه لا تقل طرافة أو أهمية وان اتخذت طابعا غير مباشر ، أو تخفت تحت قناع الافراط في الامومة أو الابوة •

وسنحاول أن نستعرض هذه الامور فندرس الاوضاع الاسرية التي تنتج الجانح المدلل ونبحث التطور الحياتي الذي يقود الى الانحراف ثم ندرس الخصائص النفسية العامة كما تبدو وعلى مستوى السلوك والاتجاهات والعلاقات والاواليات النفسية الواعية واللاواعية التي تتحكم بدينامية الشخصية •

أولا ـ الوضع الاسري :

الطفل المدلل هو نتاج دينامية الحياة الاسرية شأنه في ذلك شأن بقية اضطرابات الطفولة • فهو ليس كائنا محايدا في الاسرة ، انه يتحدد انطلاقا من الدلالة التي تعطى له من قبلها عموما ومن قبل كل الوالدين على وجه الخصوص• ويختلف الاخوة فيما بينهم تبعا للمكانة الخاصة التي تعطى لكل منهم ، وهكذا قد نجد في نفس الاسرة طفلا مدللا وآخر منبوذا وثالثا مستقلا • ويتوقف ذلك بالطبع على الوظيفة النفسية الهامة التي يشغلها كل منهم في عالم والديه ، فحتى قبل ان يولد يعطى الطفل مكانة ومعنى جيدين أو سيئين ويحاط بمجموعة من التوقعات التي لا يستطيع الا أن يستجيب لها • وتتحدد هويته انطلاقا من المعنى الذي اتخذه في نظر الام والاب ، فهو خارج هذا المعنى ليس سوى كتلة بيولوجية لا هوية لها • وتساعد ردود فعله على المعنى الذي أعطي له من قبل الاسرة على تعزيز أو تغيير مكانته الاصلية ، فقد يتحول اتجاه الام مثلا من نبذ أولي الى حب أو العكس • والطفل قد يُحب ويدلل أو يكره وينبذ تبعا لحاجات ودوافع كل من الوالدين على حدة وتبعا لطبيعة العلاقة الزوجية ودلالتها من جهة اخرى •

فبالنسبة للام قد يتخذ معنى أو أكثر في نفس الوقت ، انه توكيد لانوثتها ودليل نضج وتقدم على طريق الامومة ، وهو نتاج وجودها ويتخذ نفس المعنى الذي يتخذه ذلك الوجود ، وهو موضع اعتزازها بنفسها او قلقها الوجودي، وهو حامل ومجسدّ الآثام والتبخيسات التي قد تعاني منها في لاوعيها · وهو ضمانة لاستمرار الحياة الزوجية ، ومجسد آمالها ورغباتها التي لم تستطع تحقيقها ، وهو يعكس طفولتها هي وموقفها منها ومن رغباتها التي لم تشبع · وهو أخيرا نتاج العلاقة الزوجية وتجسيد للصلة الجسدية العميقة بالزوج ، كما انه في النهاية ابن اسرة الاب أو أسرتها هي ·

والام قد تحب أحد الابناء بشكل مفضل ، وتدلله لواحد أو أكثر من الاعتبارات السابقة · فهي قد تعطي مكانة مفرطة للطفل على حساب الآخرين والعالم الخارجي على حد سواء لانه ولد بعد طول انتظار ، أو بعد موت عدة أطفال أو اجهاض متكرر يضع قدرتها على الامومة موضع الشك فهي تدلله في هذه الحالة كتوكيد واعلاء لشأن امومتها في النهاية · أو هي قد تدلل الصبي الذي ولد بعد عدة بنات لما له من قيمة اجتماعية من ناحية وقيمة نفسية لا واعية من ناحية ثانية ، فهي قد أعطت الاب وأسرته الصبي الذي يخلد اسمها كما أن فيه تعويضا قضيبيا عن خصائها الاصلي (انها أنجبت الطفل الذي يحمل القضيب فهي اذا لا تفتقر اليه) ·

وقد تدلل الام الطفل لانها ترى فيه مرآة ذاتها ، مرآة الطفلة التي كانت والتي لا زالت تعيش في لاوعيها ، انها تدلل ذاتها وتعوض للطفلة التي كانت كل الاحباطات التي عانت منها واقعيا أو هواميا يبدو ذلك جليا في الميل الى استعراض الطفل امام الآخرين ·

كما قد تدلل الام طفلها أو أحد اطفالها لانه يثير فيها قلق الموت نظرا لاعتلال صحته واصابته بالعديد من الامراض · فهي تفرط في تدليله كي تنتزعه من الموت هواميا من خلال اثبات كبر المكانة التي يتمتع بها في حياتها ، كما قد تدلله كتعويض ونفي لميول عدوانية لاواعية تجاهه · تغدق عليه الكثير من الحب وتتركه على سجيته وتقع أسيرة رغباته ونزواته بدل أن توجهها وتشبعها بشكل سليم كي تتجنب مشاعر الذنب التي يثيرها نبذ الطفل على المستوى اللاواعي · وقد ترضخ الام لاحد اطفالها الذي يصبح فيما بعد مدللا متسلطا لانه يتخذ

دلالة الام أو الاب في لاوعيها ، ترضخ له كما رضخت للاب أو الام أو الاخ أو الاخت تبعا لكل حالة ٠

وقد تدلل الام أحد أطفالها كي تنافس والدتها على الامومة اذا لم تتمكن من حل مشكلتها الاوديبية ، وكأنها تريد ان تقول لها بشكل لاواع « أنظري انا أم مثلك وحتى أفضل منك » ٠ ثم هناك أيضا الام التي قد تدلل أحد اطفالها التي أعطته دلالة الحليف في صراعها مع الزوج أو مع أسرته اذا كانت العلاقات متوترة او مضطربة ٠ ففي هذه الحالة تحول حبها ذا الطابع الجنسي الذي يفترض أن يوجه الى الزوج الى عاطفة أموية مفرطة موجهة الى الطفل ٠ وهي تقيم علاقة ثنائية دمجية معه خالقة عالما مغلقا على العالم الخارجي (على الزوج أو أسرته) تجد فيه تعويضا نرجسيا عن فشلها العلائقي ٠ ولا يندر في هذه الحالة أن تنبذ الام طفلا ثانيا أسقطت عليه دلالة حليف الاب ، مما يحول الاسرة الى معسكرين : هي وطفلها المدلل ضد الاب وحليفه ٠ أو هي قد تنبذ الاب من عالمها بعد احباط زوجي مزمن فتقيم علاقة دمجية مع أطفالها جميعا خالقة عالما مغلقا يبقى الزوج خارجه ولا تسمح له بالتدخل مطلقا في شؤون الابناء ٠ أو هي تتواطأ مع طفلها أو أطفالها المدللين ضد الاب فتتستر عليهم وعلى تصرفاتهم الممنوعة التي يمكن ان يطالها قانون الاب ٠ وهي أخيرا قد تحاول تدليل الطفل كأسلوب في الرشوة العاطفية كي تستقطبه الى جانبها في حالة تحويل الاحباط الزوجي الى تنازع على حب الاطفال ٠ كل من الزوجين يحاول رشوة الابناء كي يتقربون منه بشكل يعوض له احباطه الزوجي من ناحية ويدعم مواقعه في معركته مع القرين من ناحية ثانية ٠

هذه الحالات وغيرها التي تؤدي بالام الى تدليل احد أطفالها نجد لها مثيلا لدى الاب وان اتخذ الوضع مظاهر نوعية خاصة بالابوة وطبيعة علاقتها بالابناء ٠ ولقد ركزنا على الام لانها هي المسؤولة قبل الاب عن تدليل الطفل ، ولان حالات تدليل الام لطفلها تظل أكثر تواترا من تدليل الاب مع ان النتائج واحدة من حيث دينامية شخصية الطفل وسلوكه اللاحق ٠

علينا ان نضيف الى الحالتين السابقتين حالة ثالثة هي تدليل أحد الابناء من جميع أفراد الاسرة على السواء ٠ تحدث هذه الحالة تجاه الطفل الاصغر عادة ، حيث يمارس الجميع نحوه أدوار الكبار الذين يعطون ٠ يستخدم تدليل الطفل الاصغر عادة كحل للكثير من الصراعات العلائقية الصغيرة التي لا بد أن

تحدث في إ يإسرة ، فيقيم كل منهم علاقة تعويضية مع الطفـــل تتخذ طابع الود والتدليل · ويؤدي ذلك عادة الى افلات الطفل من أي قانون أو سلطة تضبـــط نزواته ، فهو يستطيع باستمرار الحصول على رغباته التي منعها أحد افـراد الاسرة من فرد آخر بشكل سري أو علني · ولذلك نتائج سيئة على توازنــــه النفسي وتكيفه الاجتماعي ·

هناك حالات قليلة التواتر نسبيا تلاحظ في الاسر التملكية الدمجية التـي تبني هويتها من خلال التعارض بين الداخل والخارج ، بين الاسرة والمجتمع · تعلي شأن كل ما هو أسري على حساب الاجتماعي ، وتقع هذه الوحدات العائلية في النرجسية الاسرية او العشائرية ، التي تقود بالضرورة الى تجاهل او تبخيس قانون المدينة · وتؤدي هذه الوضعية الى حالة شبيهة بحالة الطفل المدلل انمـا معممة على كل أفراد الاسرة ، يظل الجميع على نرجسيتهم يخضعون لقانونهـا ضد قانون العالم الخارجي ·

الاسر التي يحدث فيها تدليل للطفل متنوعة من حيث درجة تماسكهـــا وانغراسها الاجتماعي ، مما يعطي طابعا خاصا للتدليل في كل حالة من حيث نتائجه على التكيف اللاحق ·

هناك الاسر المتماسكة التي تتميز بالتوافق الزوجي والعـــلائقي المقبول وبالانغراس الاجتماعي الجيد · قد لا يكون في هذه الحالة لتدليل الطفل دوافـع شديدة او مرضية ، وقد يعوض عن الموقف المتراخي من قبل الوالدين بموقف فيه الحزم الضروري من قبل أحد أفراد الاســـرة · قد تؤدي هذه الحالة الى انحراف الطفل ، ولكنه انحراف عبثي اجمالا ،الطفل قابل للاصلاح والتأهيل لانه تمثل المعايير الخلقية والاجتماعية الاساسية ·

ولكن هناك الاسر المفككة اجتماعيا أو زوجيا ، تقوم فيها محاور ومعسكرات وجزيرات علائقية متضادة أو متحاربة او عدائية · يؤدي تدليل الطفل الناتج عن هذه الوضعية الى آثار خطيرة اجمالا من الناحية التكيفية ، فهو لا يتمثل المعايير الخلقية الاساسية ولا يتعلم معنى القانون الذي يمنع ويضع الحدود لنزواته · ولذلك يظل في حالة من التضخم الذاتي على حساب العـــالم الخارجي · اذا انحرف هذا الطفل فان تكيفه عسير جدا ان لم يكن مستحيلا بالوسائل التأهيلية الشائعة · وكذلك الامر اذا كان الدافع للتدليل عند الام او الاب ذا أهميـــة

جذرية في اقتصاد شخصيتهما حيث يشكل ضرورة لتوازن الشخصية بدونـــه تتفجر مأزمها ·

يصعب في هذه الوضعية خلق التوازن الضروري بين الحب والحمايـــة والمنع في تربية الطفل ، ولذلك فانه ينشـــأ نزويا نرجسيا لا يقيم اعتبارا الا لاهوائه · وقد يتحول الى طاغية متسلط يتحكم بالاسرة ويفرض عليها رغباتـه في حالة من رضوخ الوالدين له ، مما يفسح المجال أمام احتمال الفسق الخلقي الذي يستعصي على العلاج · والغالب ان الوالدين أو أحدهما على الاقل متواطىء مع الطفل بشكل واع أو لاواع ، يدعم تسلطه نتيجة لدوافع مرضية لديه (أبرزها الميل المازوشي لعقاب الذات بشكل لاواع) · وقد تشكو الاسرة حظها العاثر مع ذلك الطفل الطاغية بعد أن يشتد عوده قليلا ، اذ انه يهدد والديه أو أحدهما بشكل جسدي مباشر أو يثير قلقهما الدائم ، أو خوفهما من الفضيحة الاجتماعية · ويلاحظ في الاستقصاء الاجتماعي ان الام وقعت مريضة (انهيار عصـــبي خصوصا) نتيجة لتصرفات ابنها · تلك حالة مرضية نموذجـــية ، مرض الام الظاهري ما هو الا تجسيد لميول دفينة أنتجت الطفل الطاغية اولا وحولت الام ضحية له فيما بعد في حالة من تواطؤ الاب بشكل أو بآخر ·

وكذلك حال الاسر النرجسية ، فانها تنتج أولادا معرضين للفسق الخلقي بدرجات متفاوتة لانهم يتصرفون ضد قانون المدينة أساسا ·

نرى من ذلك كله ان تدليل الطفل ظاهرة مرضية ولو تستر بقيم الابـوة والامومة المفرطة ، انه دليل مرض أحد الوالدين او اضطراب العلاقة الزوجيـة بينهما أو اضطراب علاقة الاسرة بالمجتمع · وهو مرضي لان الطفل المدلل او الطاغية يتحول الى أداة لخدمة اهواء او رغبات او مخاوف او آثام او احباطات من دلله بدل أن ينشأ ويربي لذاته ويوجه نحو الاستقلال ·

يتضمن تدليل الطفل دائما خللا في التوازن بين الشروط الأساسية الثلاث لنموه السليم : الحب ، التماهي والقانون ·

فهو كي ينمو وتبنى شخصيته بشكل متوازن بحاجة الى الحب الاكيد انما لذاته وليس حبا له كأداة · على أن الحب وحده لا يكفي مهما بلغت درجته وارتفع نضج الوالدين اللذين يقدمانه ، يحتاج الطفل الى صورة راشدة ناضجة رزينـة متزنة عاطفيا واجتماعيا كي يتماهى بها ويبني شخصيته على غرارها او يجد

اصالته الذاتية انطلاقا من النموذج الذي تقدمه له · في حالة الطفل المدلل يختل هذا الركن بدرجات متفاوتة· فهو اما أن يتماهى بنموذج يفتقر الى صفات الرشد السابقة ، أو لا يتماهى الا جزئيا أو مطلقا في بعض الحالات ، وهكذا يتحول الى مرجع للاهل بدل أن يشكلوا مرجعا له · لا يمكن للطفل ان ينمو بشكل سليم الا اذا وجد له مرجعا راشدا ، فاذا تحول هو الى مرجع للراشد فسيغرق حتما في عالم النزوات البدائية ولن يصبح مطلقا كائنا متدامجا اجتماعيا ·

بالاضافة الى الحب والتماهي يحتاج الطفل الى سلطة تحمي وتمنع ، تطمئن وتضع حدودا في نفس الوقت · بذلك وحده يشعر بالثقة تجاه نزواته الداخلية المخيفة وتجاه أخطار العالم الخارجي ، وهو يتماهى بهذه السلطة ويتمثلها بشكل يمكنه من ضبط نزواته من الداخل فيما بعد ، قانون الاب والتماهي به يدخل الطفل الى قانون المدينة الى الانفتاح على المجتمع والتدامج فيه · فاذا حرم الطفل هذه السلطة يقع لا محالة ضحية نزواته البدائية التي تتخذ طابعا مخيفا يجابهه الطفل بمزيد من التسلط والعدوان بعد ان يسقط المخاوف على العالم الخارجي ·

ان التدليل المفرط للطفل من قبل الام يمنع تدخل قانون الاب اولا وقانون المدينة الذي هو استمرار لقانونه فيما بعد · ويلاحظ بهذا الصدد كثرة حالات تواطؤ الام مع طفلها ضد تدخل ذلك القانون ، فهي تتستر كثيرا على افعاله غير المتكيفة ، او هي تبطل سلطة الاب بنوع تدخلها مما يؤدي الى افلات الطفل من القانون في الفترة التي يكون في اشد الحاجة اليه لبناء شخصية متماسكة قادرة على الضبط الذاتي · ولا بد للامر ان يتفاقم في هذه الحالة فتزداد خطورة تصرفات الطفل بمقدار تقدمه في السن وتشكل ازعاجا او تهديدا للام نفسها ، وعندما تستنجد بسلطة الاب كي يفرض قانونه يكون الاوان قد فات ·

يؤدي تدليل الطفل المفرط من قبل الاب الى نفس النتيجة : لا سلطة تفرض القانون الذي يخلق التوازن ما بين النزوات والواقع · ويقترب من ذلك من حيث النتيجة حالة الاسر النرجسية التي تفرض قانونها في حالة من التضخم الذاتي ضد قانون المدينة ، يتماهى الطفل بقانون مرضي اجتماعيا مما يؤدي به الى الاصطدام بالمعايير الاجتماعية · وعندما يوضع في مؤسسة تأهيلية نتيجة لانحرافاته يقع صراع بين الاهل الذين يصرون على فرض قانونهم والمؤسسة التي تتبنى قانون المدينة · يؤدي هذا الصراع عادة الى تحصين الحدث ضد

التأهيل وما يتطلبه من التماهيات ولا يندر ان يثور الاهل على المجتمع مبيضين صفحة ابنهم ، كما لا يندر أن يهدموا خلال لقاءاتهم معه كل الجهود التربوية المبذولة لتأهيله ، نحن هنا في خضم المرض الاسري الاجتماعي ٠

يتم لافلات من القانون (قانون الاب والمدينة على حد سواء) من خلال التمسك بتبريرات متنوعة : الطفل المريض الذي تجب مدراته ، الطفل الذي لا زال صغيرا ويحسن التساهل معه ، الطفل ذو الطبع الذي يجب تجنب نوبات غضبه، الطفل الوحيد او الصبي المنتظر الذي يُعلى شأنه ، وحتى الطفل العادي الذي يجب تركه على سجيته (كي لا يصاب بالعقد النفسية !!) من أجل نمو ثقته بنفسه ٠ جميع هذه التبريرات تؤدي الى نتيجة واحدة هي اعفاء الطفل من المهام والمسؤوليات والواجبات والاعدد لادوار الراشد ويظل بذلك عبثيا لا مباليا ، او غير مقدر لنتائج سلوكه واخطاره لانه لم يتعلم مطلقا ان يتحملها او يحتاط لها (هناك دائما من يتحمل هذه لنتائج نيابة عنه) ٠

ثانيا : التطور نحو الانحراف :

ينشأ الطفل المدلل أنويا(١)، لا تتحدد ذاته من خلال الاطر المرجعية الخارجية (الاب والمدينة) وانما على العكس يتحدد الخارج من خلال الذات كاطار مرجعي أساسي ٠ ذات الطفل تصاب بالتضخم بينما تتقلص الاهمية المعطاة للاشخاص والقيم والاحداث الخارجية ٠ هذه الوضعية تشكل اجمالا عقبة هامة أمام الدراسة المنتظمة التي تتطلب تجاوز الانوية وتقبل قانون المدينة ، اي تقبل الضغوط التي تمارسها المدرسة على الطفل ٠ وهي تتطلب الخروج من عالم الام التي توظف دلالات أيجابية كبيرة في طفلها الى وضيعة المساواة مع الرفاق والمنافسة معهم للحصول على المكانة في الصف وفي نظر المعلم ٠ ولا يتم ذلك الا من خلال بذل الجهد لاسترضائه والامتثال لمعايير الحياة المدرسية ٠ الطفل المدلل ليس بحاجة الى بذل الجهد للحصول على اعتراف به وبقيمته ، فهو لا يرى سوى تلك القيمة التي حظي بها في الاسرة ٠

ويتعلم الطفل عادة كي يرضي والديه ويحصل على استحسانهما ولكنه قبل

---

(١) أنوية : Egocentrisme

ذلك يتعلم كي يكبر ويصبح مثل ابيه . الكبير هو الذي يعرف على عكس الصغير الضعيف او العاجز نتيجة لجهله . ويحاول الطفل ان يكبـــر من خلال المعرفة والاعداد المدرسي كي يفتن الام ويثير اعجابها به كما تعجب بالاب مرجع الطفل . ولكن الطفل المدلل ليس بحاجة لان يكبر او يثير الاعجاب ى فهو قد حصل سلفا على الغاية من كل جهد نحو المعرفة والكبر . انه لا يحتاج ان يصبح مثل ابيه لانه يحظى بالاعجاب الزائد من قبل الام . يضاف الى ذلك ان انوية الطفـــل المدلل تجعله يعيش اساسا تبعا لنزواته واهوائه التي لا تقبل الاحباط او التأجيل مما يعرقل الجهد المدرسي الذي يتضمن تأخير الاشباع الى آجال بعيدة نسبيا (تعلم الآن كي تصبح كذا وكذا فيما بعد) وبالتالي يربط القيمـــة الذاتية التي تعرف الوجود بمستقبل يتفاوت في بعده .

هذه العوامل مجتمعة يضاف اليها تهـــاون من جانب الاهل بصدد سير دراسة الطفل في مراحلها الاولى تؤدي الى الحد من قيمة عملية التعليم او تأجيل مرحلة الجهد الجـدي فيها الى مستقبل لاحق بشكل متواطىء مع انوية الطفل ، مما لا يوفر الشروط الضرورية للنجاح المدرسي . وقد يحدث ان يكون الاهل غير مقدرين لاهمية الدراسة في الاعداد لمستقبـــل الطفل عن جهـــل او سوء تكيف اجتماعي مما يزيد من خطورة الامر كثيرا .

يذهب الطفل المدلل الى المدرسة . وسرعان ما يحس بأن الدروس والنظام والانضباط والواجبات هي عبء يصعب احتماله وتبريره او هو يلح ان يعامل في الصف كما عومـــل في البيت وذلـــك غير ممكن . فتتولد في نفســـه مشاعر الاحباط ، وقد يثور على المعلم متهما اياه بالاضطهـــاد والظلم . ولا بد للصلة بالمدرسة ان تنقطع نتيجة للعلاقات المتأزمة بعد فترة تطول او تقصر ، فيغيرها مرة او اكثر . ويعيش الاهل على أمل وهمي في ان تستقيم الامور ولكن بدون طائل .

وقد يهرب الطفل من المدرسة بدون علـــم ذويه طلبا للهو مـــع رفاق غير متكيفين في غابة او على ضفة نهر اوشاطىء بحر او مكان لهو ، ويزداد هروبه بمقدار تعلقه بحياة العبث وتوتر العلاقة مع المدرسة . ويكتشـــف الاهل الامر ويبـــدأ قلقهم عـــلى مستقبل الطفـــل وتكيفه ، يبـــدأون بالنصـــح والترغيب فيفشلون ، ويجدون انفسهم أمام الوسيلة الوحيدة المتبقية لهم كحل سحري وهي الضغط والتهديد . ويحسون عندها بضرورة فرض قانون الاب وقانون المدينة على الطفـــل ولكن بعد فوات الاوان ، محاولاتهـم تصطدم بـــردود فعل عنيفة او عدوانية من جانب الطفل الذي لم يتعلم معنى الاحبـــاط . وسرعان ما يتحول

الامر من قلق على الدراسة الى ازمة علائقية في الاسرة ذاتها بين الاهل والطفل، وهنا قد يتدخل الاب الذي لم يكن حاضرا ابدا فيما سبق محاولا فرض قانونه بالقوة (القصاص ، الضرب ، الحجز الخ ...) . ولكن الطفل الذي تعلق بحياة اللهو ولم يتمثل قانون الاب كحدود لنزواته لا يرى في هذه المحاولة سوى ازعاجا لا مبرر له فيثور على الاب . ولا يندر في هذه المحاولة ان تتواطأ الام مع الطفل كي تحول دون تدخل الاب لمحاسبته على تصرفاته غير المتكيفة ، اما من خلال اخفائها عن الاب او من خلال ابطال مفعول سلطته بوسائل متعددة . اما اذا كان الاب متواطئا مع ابنه فانه سيتحالف معه ضد المدرسة .

بعد سنوات من الدراسة وبعد تكرر المحاولات الفاشلة يتوجه الحدث المدلل الى العمل ، وهنا يتابع سيرته السابقة : انعدام الاحساس بالمسؤولية ، عدم اكتراث للمستقبل ، عدم وجود ميول واضحة لتعلم مهنة محددة ، عدم وجود دافع لبذل الجهد اللازم للتدريب المهني ، صراع مع رب العمل أو مع الزملاء لاسباب مختلفة ، تغيير مكان ورب ونوع العمل عدة مرات . وخلال ذلك كله تزداد ميوله نحو العبث ومخالطة الرفاق غير المتكيفين . واذا كان اللهو لا يشكل خطورة قانونية في البداية فانه يضع الحدث المدلل في خطر الانحراف الفعلي فيما بعد ، سواء كان الانحراف مقصودا أو بالصدفة (مغامرة أو نتيجة لمغامرة) . ويكون الحدث قد أفلت في هذه المرحلة من سلطة الاسرة بشكل شبه نهائي . تستعين هذه بالسلطة التي تمثل قانون المدينة لوضع حد لتصرفات الحدث التي بدأت تشكل ازعاجا فعليا واجتماعيا لها . وترحب باتخاذ اجراءات حاسمة تضع حدا له من خلال وضعه في مؤسسة تأهيلية أو أي اجراء مشابه. الا أن تحليل موقف الاهل يظهر باستمرار تجاذبهم الوجداني تجاه تلك الاجراءات . فهم يريدون فرض سلطتهم على الحدث او بكلمة أدق الاحتفاظ بعلاقتهم التملكية معه مع رفض حقيقي لتدخل قانون المدينة ، انهم يطلبون اجمالا مساعدتهم على استعادته ، الى حظيرتهم ، مما يؤدي الى عرقلة أو تعطيل الاجراءات التربوية التي توضع له في المؤسسة التي يعيشونها كمنافسة لهم على السيطرة على الطفل .

هذه الحالة الوسطى نجد تغيرات لها على كلا طرفي السلم . فقد تكون المشكلة بسيطة او على العكس على درجة عالية من الخطورة .

في الحالة الاولى نجد أن الاسرة متماسكة ومتكيفة اجتماعيا ، وأن تدليل

الطفل لا يرجع الى دوافع مرضية شديدة · الطفل متمثل للمعايير الاجتماعية والخلقية اجمالا · تقبل قانون الاب والمدينة جزئيا · للسلطة حضور وتأثير على عالمه وسلوكه · لديه استعداد للتعلم مدرسيا ومهنيا مع شيء من الضغط المتفهم· الا انه قد انحرف لانه ظل طفليا في تصرفاته ونظرته الى الوجود · انحرافه يحمل طابع العبث وقلة تقدير أخطار نتائج الافعال لانه لم يتعود ان يتحمل مسؤولية شخصيته · قد يتابع دراسته بشكل مقبول أو حسن ، ويحظى برضى معلميه وأهله ، الا انه ينساق وراء اللهو والمتعة يزينها له رفاق اعتادوا العبث غير المتكيف او الانحراف · وهكذا يبدأ بالهروب من المدرسة · وتتوتر العلاقة مع الاهل الا أن الامور لا تصل حد القطيعة · فهم يقبلون الاجراءات التربوية التي تصحح العلاقة بينهم وبينه · الجانح المدلل في هذه الحالة قابل للعلاج والاصلاح بيسر نسبي ·

على العكس من ذلك قد تكون الدوافع للتدليل مرضية جدا ، اما على مستوى العلاقة الزوجية أو على المستوى الذاتي لكل من الوالدين ، والاغلب ان يلاحظ الامران معا · في هذه الحالة سرعان ما يتحول الطفل الى طاغية يرضخ الاهل لاستبداده بدرجات متفاوتة من الاستسلام المازوشي · ويظل الامر محتملا طالما أن حاجات الطفل محدودة ومجال نشاطه محصور في البيت ، ولكن مع التقدم في السن تزداد حاجاته وترتفع كلفتها وتتجاوز الاطار المنزلي ، وهنا تبدأ المشكلات الفعلية ، فالحدث يصطدم بالاهل كما يصطدم بالمدينة · يفرض على ذويه رغباته بشكل تسلطي يصل حد التهديد المباشر أو العدوان الصريح عليهم · قد يسرق من المنزل أو يبتز من والدته أو والده النقود يصرفها على ملذاته المتصاعدة · واذا ما قوبلت طلباته المتزايدة بالرفض فانه يهتاج ويعتدي لا يقيم وزنا لامومة أو أبوة ، لا يكترث لوالديه الا بالقدر الذي يحققان له رغباته · أما الصدام مع المدينة فقد يتفاوت هو أيضا في حدته ، يظهر نفس القدر من العدوانية لا يهمه من العالم الخارجي ومن العلاقات مع الآخرين الا الحصول على اشباع نزواته (تتحول العلاقة الى وسيلة انتفاعية محضة) ، أو هو يظهر الجبن امام السلطة الرسمية فيلجأ الى وسائل ملتوية تتصف بالمراوغة والاحتيال · ولكن في الحالتين يبدي بوضوح وبسرعة عدم التكيف الصريح مدرسيا ومهنيا ، ويقاوم بشكل علني أو خفي كل اجراءات التأهيل · درجة الخطورة في هذه الحالة عالية جدا وامكانات التأهيل هزيلة ·

ثالثا ـ الخصائص النفسية العامة :

نستعرض الآن الملامح العامة لشخصية الجانح المدلل كما تبدو من خلال الفحص النفساني والحياة في المؤسسة التأهيليـــة ، ثم ننتهـي بالحديث عن الديناميات الاساسية لحياته كما تبدو على المستوى الظواهري الواعي وعلى المستوى اللاواعي • وسيتضح لنا في هذا العرض أن هنـــاك فروقا هامة بين الجانح المدلل القابل للتأهيل وبين ذاك الذي يصعب تأهيله •

أ ـ معطيات الفحص النفساني والحياة في المؤسسة :

يبدو الجانح المدلل حسن المظهر ، مرتب الهندام ، واضح العناية بنفسه • حديثه سهل ومباشر • لا يحاول التقرب من الفاحص أو استرضاءه • كما أنه لا يهاب الوضعية كثيرا • نلمس بسرعة انه لا يكترث كثيرا للمقابلة • يظل سطحيا في علاقته وفي اهتماماته • لا يبدي أي قلق لما ارتكب من جنح • ولا يحس مطلقا أنه مسؤول مهما بلغت خطورة أفعاله ، انه يميل الى التقليل من شأنها أو التقليل من شأن الضحية حتى انه لا يفهم كثيرا لماذا حكم عليه بالاقامة في المؤسسة التأهيلية ، ولا يجد مبررا حقيقيا لذلك ، اذا لم يشعر بالغبن • وهو في الواقع يعتقد انه ظلم بابعاده عن محيطه الاسري • واذا لم يبد ميولا اضطهادية فانه يميل الى الإحتجاج الشديد مدعيا عدم تمكنه من تحمل هذه الحياة الجديدة • ويحاول جاهدا ان يدفع الفاحص للتوسط له لدى المسؤولين في المؤسسة لاعفائه من الواجبات على اختلاف أنواعها • وقد يبكي بكاءا مرا وكأنه يعيش كارثـــة فعلية • أما اذا كان قوي الشخصية فهو يحتـــج ويشكـــك ويخطىء الجميع (القضاء ، والمسؤولين) ، ويبدو كأنه مندهش لعدم مراعاته وتمييزه عـــن زملائه ، حيث يشعر في قرارة نفسه انه ليس كالآخرين أبدا ، وان ليس بينـــه وبينهم أي مجال للمقارنة ، انه من طينة اخرى ، انه يتوقع في الحقيقة ان يعامل بشكل مفضل وان يعترف الآخرون بوضعه الاستثنائي ، ولا يخطر بباله في مقابل ذلك ان يبذل جهدا من جانبه •

يبدو وكأن حياته كانت تسير على ما يرام لولا هذا التكدير الذي يلقـــاه في المؤسســـة •

أثناء الفحص النفساني يظل على وجه الاجمال مركزا حول أمر واحد هو سرعة اطلاق سراحه وعودته الى حياته السابقة ، ويبرر ذلك بأنه لا يستطيع أن يركز اهتمامه في الدرس أو العمل أو القيام بالواجبات المطلوبة منه •

وهكذا لا يبدي أي معاناة داخلية تدل على صراع نفساني ، خـــارج احتجاجه وعنائه من تحمل نظام الحياة في المؤسسة : ينام بسرعة ليلا ، لا يرى أي أحلام تشير الى مآزم انفعالية . قد يفكر بأهله ويأرق أو يراهم في أحلامه . الا اننا نلاحظ فقدان القلق على الاهل او الشوق اليهم عاطفيا . انه يفكر فقط بما يناله منهم من منفعة أو غنم مادي . ويفكر بحياة اللهو والعبث التي كان يحياها في الخارج . وكذلك حال اسقاطاته على روائز الشخصية ، تظل هزيلة المضمون ، سطحية ومتسرعة . والواقع انه لا يتجاوب كثيرا مع المهمات التي يطلبها منه الفاحص : يرفض أو يدعي عدم المعرفة أو القدرة ، واذا اضطر فانه يقوم بعمـل متسرع ويبذل الحد الادنى من الجهد الذي يخلصه من العبء (لانه يرى في تلك المهمات عبئا لا مبرر له) .

ويلاحظ بهذا الصدد فرق كبير بين الجانح القابل للتأهيل والجانـــح الصعب . فالاول يرضخ للضغط اجمالا ويتجاوب عندما يلمس سلطة فعليـة أمامه ، أما الآخر فيعاند ويثور متمردا أو يبدي مشاعر الاضطهاد .

أما من الناحية العقلية فيتمتع على وجه الاجمـــال بامكانات حسنة أو متوسطة على الاقل . الا أنه يفتقر الى الدافع لبذل الجهد كي تنمو هـــذه الاستعدادات وتعطي مزدودها الممكن .

يظل طفليا ولا مباليا في نظرته الى الوجود اجمالا ، لا يحس أن عليه أن يقوم بجهد فكري أو عملي لتدبير شؤونه أو الاعـــداد لمستقبله . والواقع ان المستقبل لا يدخل ضمن اهتماماته التي تظل مركزة حول الحاضر وموجهة نحو المتعة على اختلاف أنواعها . انه يشعر بالاكتفاء الذاتي سواء فيما يقدمه من جهد أو في العلاقات مع الآخرين . وعلى الاجمال فهو موجه بمبدأ اللـــــذة والمنفعة ، لا يقوم بجهد الا اذا أوصله الى متعة ولا يهتم لعلاقة الا اذا توقع منها منفعـــــة .

لهذه الصورة العامة تغيرات سلبا وايجابا . هنالك الجانح المدلل القابل للتأهيل . انه يهتم لاهله ويفتقدهم ليس فقط للمنفعة التي يتوقعها بل تعبيرا عن روابط عاطفية معهم . وهو يأخذ في الاعتبار السلطة في المؤسسة . ويتجاوب بعد ممارسة شيء من الحزم في التعامل معه ، وان مال الى التراخي عندمـــا يلمس ضعفا أو قصورا . وهو يهتم للدراسة وللمستقبل ويقبل على الاعـــداد

المهني بعد فترة من اقامته في المؤسسة ، وان ظل طفليا ميالا الى الجهد الاقل أو اللهو عندما تسنح الفرصة ٠

أما الجانح المدلل الصعب فهو متعال ، ناقم ، متهم في موقفه من السلطة ٠ يعاند ويقاوم ويرفض القيام بالجهد المدرسي او التدريبي ٠ نفعي لا يكترث للآخرين اذا لم يتوقع منهم فائدة مادية مباشرة ٠ لا يكترث لاهله الا بمقدار ما يشبعون له حاجاته ٠ يتجنب الحديث عن ذاته أو اقامة علاقة عاطفية مع من حوله ٠ يميل الى التخريب والاحتيال والمراوغة وبذر الشقاق بين الجماعة التي ينتمي اليها ٠ عدو السلطة على وجه العموم ، يثور ويصبح شديد العدوانية عندما يمارس عليه ضغط فعلي لدفعه الى التغيير ولكن اذا واجه سلطة تتمتع بالقوة الكافية كي تفرض نفسها عليه ماديا ومعنويا ، فانه يميل الى الهدوء الاستراتيجي منتظرا فرصة مناسبة كي يعود الى سيرته الاولى ٠ انه يكمن كي يتجنب الضغوط التي تزعجه ، والتي تضطره الى التغيير اذا ما استمرت لفترة طويلة ٠ ومن أجل هذا الهدف يقوم بالحد الادنى من الجهد ويظهر الانضباط الكافي كي لا يثير الانتباه ٠

فاذا لم تنجح خطته هذه فانه يتعرض للامراض ، يصاب بالهزال يبدو واضحا على وجهه ٠ وتبدأ سلسلة من الامراض المتنوعة ، التي تتفاوت ما بين وهم المرض والاصابة الفعلية ٠ وهو يمرض لعدم قدرته على التغيير كي يتأقلم مع متطلبات المحيط ، من ناحية ولعجزه عن تحمل الضغوط التي تمارس عليه من ناحية ثانية ٠ وهنا يبدو عليه البؤس والشقاء الفعليين ٠ يتذكر اياما خوال كانت الحياة فيها هنيئة هينة ، وقد يعي وجوده في تلك اللحظات ويدرك الاخطاء التربوية التي اتسمت بها نشأته في الاسرة وما جرته من متاعب حالية ٠ في هذه الحالة يبدي بعض بوادر التغيير ٠ ويبذل جهدا في تدريبه كي يستعد لمستقبله ٠ الا ان هذاالتغيير ليس اكيدا او نهائيا ٠ اذ من المحتمل ان يعود الى سيرته الاولى نتيجة لتدخل ظروف خارجية ٠

وتظل امكانيات تكيفه الفعلي اجمالا محدودة أو مشكوك فيها ، فهو قد يتعلم مهنة مقبولة ويتقدم فيها بدون أن يرافق ذلك تغيير فعلي على المستوى النفسي ٠ فاذا أتيحت له ظروف ملائمة في الخارج قد يتكيف ، أما اذا عاد الى نفس الوضعية العائلية والاجتماعية فمن المحتمل أن تظل اقامته في المؤسسة التأهيلية مجرد فترة ازعاج في حياته ٠ وتلعب الاسرة دورا حاسما في كل ذلك،

فاذا ظلت متواطئة مع ميوله وشجعته ونصبت من نفسها محاميا عن سلوكه فانه لن يذهب بعيدا في تكيفه وستفشل جهود المربين مهما عظمت ٠ اما اذا اقتنعت الاسرةباهمية تكيفه فانها ستفسح المجال امام المؤسسة لتعميده على قانون المدينة ٠ ولذلك من الهام جدا في هذه الحالة ان يرافق العمل مع الحدث عمل مواز مع الاسرة لدفعها الى تغيير اتجاهاتها ، أو على الاقل للحد من التأثير المعطل لهذه الاتجاهات على عملية التأهيل ٠

ان عملية تأهيل الجانح المدلل على اختلاف فئاته لا بد أن تكون طويلة المدى ٠ ولا بد أن ينصب الجهد الاساسي على تغيير الشخصية في اقتصادياتها ودينامياتها ٠ ولا بد أن تمر بفترات من التذبذب ، بين التكيف والمعارضة ، بين الاقدام والاحجام ٠ وتحتاج باستمرار الى اطار ثابت منظم ، وسلطة حازمة وقادرة على التفهم في آن معا كي يتعلم الحدث معنى القانون ويتمثله وينفتح على التبادل العلائقي العاطفي الملتزم ٠

وتعد فترة المراهقة مرحلة حاسمة في امكانية التكيف أو عدمه ، فاذا أثارت حساسيته العاطفية والعلائقية ، واذا فجّرت المعاناة الوجدانية في عالمه فانه قد يعي وضعه بما فيه من التواءات ويدرك الاخطار التي يمكن أن يتعرض لها مستقبلا ٠ في هذه الحالة يكون حظه في التكيف كبيرا ٠ اما اذا اتسمت المراهقة باستمرار الاتجاهات التي سادت في الطفولة ، فانها قد تزيد كثيرا من خطورة وضعه لانه تقدم في السن واكتسب قدرة مادية ونفسية على المجابهة من ناحية ، ولان مآزم المراهقة العاطفية والجنسية تتخذ في هذه الحالة شكلا طباعيا من ناحية ثانية ٠ ولا بد له في هذه الحالة من ان ينتهي الى صدام صريح مع قانون المدينة ويجلب لنفسه اجراءات قمعية ، تعرضه لتجارب (السجن) ترسخ اتجاهاته الجانحة التي يحتمل أن تتخذ طابعا عنيفا ٠

ب ـ ديناميات شخصية الجانح المدلل :

تحتاج الخصائص العامة لشخصية الجانح المدلل التي استعرضناها في الفقرات السابقة الى تفسير دينامي يوضح القوى التي تحركها وتعززها ٠ وسنهتم هنا ببعض الخصائص الاساسية مثل عدم تحمل الاحباط والتركز حول اللذة الآنية وعدم الاكتراث للمستقبل أو لنتائج التصرفات ٠ وكذلك التضخم الذاتي على حساب العالم الخارجي ، والعلاقات السطحية الانتفاعية مع الآخرين ٠

ويمكننا أن نستعين من أجل هذا الغرض بالطريقة الظواهرية والطريقة التحليلية النفسية في البحث ٠

١ ـ الطريقة الظواهرية :

تساعدنا في القاء الضوء على أمرين هامين : عدم تحمل الاحباط والتركز حول الحاضر واهتماماته وكلاهما يعطل القدرة على التكيف للواقع ٠

ان الجانح المدلل لا يستطيع تحمل الاحباط والموانع المتنوعة التي لا بد أن ترافق الحياة العادية التي تتكون من مزيج متوازن من الاشباع والاحباط ٠ منذ الميلاد تدرب حاجات الطفل على اكتساب المرونة اللازمة كي تتلاءم مع الواقع من خلال تواتر الاشباع وتحقيق الرغبات مع التأجيل والمنع ٠ هذا التواتر يضع للحاجات البيولوجية وللرغبات النفسية التي تتحول اليها فيما بعد حدودها ٠ بذلك وحده يتعلم الطفل التأقلم مع العالم الخارجي وضروراته المتمثلة بالمجال الفيزيقي وحدوده وبموقف الام وتصرفاتها تجاه رغباته ٠ كما ان الاشباع يساعده على اكتساب ثقة بنفسه وشعور بالقدرة على التأثير على العالم الخارجي كي يتلاءم مع حاجاته ٠ ومن هنا تكتسب الرغبات مرونتها الضرورية ، فليس كل أمر ممكن في أي لحظة ، ولكن غير الممكن الآن قد يصبح ممكنا فيما بعد أو بأسلوب غير مباشر ٠ ويتمثل الطفل ذلك التوازن بين الممكن وغير الممكن ، بين قوة الرغبات وقوة الواقع ، وبالتدريج يصل الى تصور الاشباع البديل على المستوى الخيالي بانتظار الاشباع الفعلي ، كما يتعلم تحوير رغباته كي تتلاءم مع متطلبات الواقع ٠

هذه المرونة وذلك التوازن ونمو القدرة على الاشباعات الخيالية أو البديلة قد تضطرب لسببين أساسيين متعارضين في المظهر ولكنهما يؤديان الى نفس النتيجة هما الاشباع المفرط والحرمان المفرط ٠

في الحرمان المفرط لا يستطيع الطفل تصور تجربة اشباع ممكن مستقبلا أو تصور امكانية اشباع بديل (خيالي ، رمزي ، محوّر ، غير مباشر الخ ٠٠)٠ يبدو الاطار المرجعي والحدود الخارجية التي فرضت الحرمان صلبة جدا وغير قابلة للتغيير ولذلك تصبح الحاجات نفسها صلبة وفاقدة للمرونة مما يفقدها التوازن بين قوة تأثيرها على الخارج وقوة تأثير الخارج عليها ٠

كذلك الحال في الاشباع المفرط . فالحاجة تشبع وتجد لها جوابا مباشرا حين ظهورها او حتى قبل أن تظهر نتيجة لكثرة عناية المحيط الذي يعبأ باستمرار لخدمة الطفل المدلل . هنا أيضا يختل التوازن لصالح الرغبات التي تفقد فرصة التدريب على المرونة وعلى بروز الحلول البديلة وتصاب بالتصلب العاجز عن مراعاة الواقع ، كما تصاب بالتضخم على حسابه . وتظل الرغبة في الحالتين محسوسة مادية لا ترقى الى مستوى الخيالي والممكن والرمزي .

وهكذا ففي الحرمان كما في التدليل المفرط يصبح الطفل عاجزا عن لجم رغباته او ملاءمتها مع الواقع ، يعجز عن تقبل الضغوط التي تبدو له عندها كعقبات نهائية ، كما يعجز عن التأجيل وتصور اشباع لاحق أو اشباع بديل . وتؤدي هذه الوضعية الى ارتفاع التوتر الى درجة خطيرة كلما منعت رغبته من التحقيق . ولان ذلك التوتر لا يجد له متنفسا في اشباعات بديلة فلا بد من وصوله الى حالة الانفجار . تصلب الحاجة أو الرغبة سيقود الى محاولة تحطيم الموانع الخارجية بدل التعايش معها ، ومن هنا يبرز السلوك النزوي عند الجانح المدلل ، كما تصبح ثورته على الاحباط عارمة وتؤدي الى تصرفات كارثية (ايذاء المحيط والاعتداء عليه لارغامه على التلاؤم او ايذاء الذات وتحطيمها انتقاما) .

الا أن الامر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه الى ما هو أخطر من ذلك ، أي اضطراب الديمومة الذي يأخذ شكل التركز على اللذة الآنية ، على اهتمامات اللحظة الراهنة على حساب اعتبارات المستقبل وضروراته والماضي وعبره . ان التكيف الحياتي السليم يتطلب تنسيق أبعاد الديمومة في كل دينامي متوازن . ويعني ذلك انه في كل تصرف راهن يجب أخذ عبر الماضي وتجاربه من ناحية وتطلعات المستقبل وتوقعاته واحتمالاته وأهدافه من ناحية ثانية كموجهات سلوكية . والواقع ان التكيف الاجتماعي والتدامج الاجتماعي هو أصلا تدريب على الاستفادة من الماضي من أجل تصور أهداف واشباعات مستقبلية توجه السلوك الحاضر ، انه ربط الحاضر بالمستقبل في خطة حياتية تعطي للوجود معناه .

وقد تختل الديمومة ويضطرب السلوك بالتالي اذا فقد التوازن بين أبعادها الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) لصالح واحد منها على حساب الآخرين . فالتركز على الماضي يجمد الديمومة ويلقي بالانسان في مرض السوداوية أو الخور حيث يفقد الحاضر والمستقبل كل وزنهما . والتركيز على المستقبل والتحوط لاخطاره يشل الشخصية وقدرتها على التصرف والمبادرة والاقدام والمغامرة

ويحولها الى شخصية دفاعية كما في عصاب القلق والخواف ٠ والتركيز على الحاضر يؤدي الى النزوية والانسياق وراء الرغبات الآنية التي تورط الشخص في متاعب لاحقة أكيدة ، هذا هو حال الجانح المدلل : شخص متركز حول الحاضر ، لا يتعظ بالماضي ولا يخطط أو يتحوط للمستقبل ٠ ولذلك يظل طفليا، ويعيش خارج التاريخ ، أي على هامش الحياة الاجتماعية الخلاقة المتدامجة ٠ ان الجانح المدلل لم يتعلم التأجيل ولذلك لم يصل الى وحدة وتوازن الديمومة ٠

ان اضطراب الديمومة يؤدي بدوره الى تصلب الرغبات وتصلب التجربة المعاشة كليا ٠ وهو يقود بعد أن يعزز عدم القدرة على تحمل الاحباط الى التصرفات الكارثية التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة ٠ بذلك يتضح لنا أية صعوبات تواجهنا عند محاولة تأهيله اجتماعيا ٠ لا يمكن لتلك العملية ان تنجح الا اذا أدخلنا المرونة على عالمه الداخلي والتوازن بينه وبين اعتبارات الواقع من ناحية واذا تمكنا من علاج اختلال الديمومة وخلق توازن بين ابعادها الثلاثة من ناحية ثانية ٠ تلك عملية تتطلب دائما وقتا طويلا وجهدا دؤوبا ٠

٢ ـ الطريقة التحليلية النفسية :

أما طريقة التحليل النفسي فهي تلقي مزيدا من الاضواء على ما سبق من اختلال في شخصية الجانح المدلل ، وتفسر لنا بالاضافة الى ذلك بعض الخصائص الاخرى ذات التأثير الحاسم على امكانيات تكيفه ونعني بها : التضخم الذاتي على حساب العالم الخارجي والعلاقات السطحية الانتفاعية ٠ ويمكن دراسة هذا الاختلال في الشخصية على المستوى الموقعي والدينامي والاقتصادي ٠

أما على المستوى الموقعي فان شخصية الجانح المدلل تعاني من اختلال التوازن بين الهو والأنا الاعلى والانا ٠

في الحالات العادية لا بد لنزوات الهو ورغباته ان تأتمر بقوانين وموانع الأنا الاعلى ٠ ولا بد للأنا ان يقوم بوظيفته التنسيقية بشكل سليم بين تلك الرغبات وبين موانع الانا الاعلى ومتطلبات الواقع الخارجي ٠ وحتى يتم ذلك التوازن لا بد ان ينمو كل من الانا والانا الاعلى بشكل سليم ، وهذا ما لا يحدث في حالة الجانح المدلل ٠ انه يعاني من قصور في نمو الأنا الاعلى نتيجة لعدم تمثل قانون الاب باعتباره السلطة المرجعية في الاسرة ، السلطة التي تحمي

وتوجه وتمنع في آن معا ، اما نتيجة لتدخل الام التي تحول بين الطفل وأبيه (تمنع الاب من تمثيل السلطة والنموذج الذي يحتذى) أو نتيجة لتواطؤ الاب لضعف عنده أو لدوافع مرضية لا واعية بشكل يلغي دوره · ويظل الطفل هكذا بدون مرجع خارجي يجتافه كي يتحول الى مرجع داخلي معياري يضبط الرغبات والسلوك · والطفل الذي لم يجتاف السلطة (قانون الاب) لا يستطيع ان يقيم اعتبارا فيما بعد لقانون المدينة (سلطة المجتمع) أو لوجود الآخرين ورغباتهم كحدود وتحديد للرغبات الذاتية في آن معا · الطفل الذي لم يدخل في قانون الاب ، لن يتمكن من الدخول في قانون الثقافة على مستوى العلاقات مع الآخرين ومستوى المؤسسات الاجتماعية ومعاييرها · سيظل بالضرورة ابن الام ومنضويا تحت قانون اللذة ·

ويؤدي هذا الامر مباشرة الى اختلاف الانا وتضخمه على حساب العالم الخارجي بدل أن يكون موجها للسلوك انطلاقـــا من التنســيق بين الذاتي والموضوعي ، بين الرغبات واعتبارات الواقع · وبدل أن يهتدي الانا في وظيفته بمثل اعلى (١) خارجي يتماهى به ويُبنى على غراره (الاب والمعلم ومن يحل محلهما أو يقوم بوظيفتهما في عالم الطفل وترشيده على الحياة الاجتماعية) يتحول الى أنا مثالي (٢) : انه مرجع ذاته ومرجع للخارج وللآخرين في آن معا· رغباته قوانين لا تناقش ، المحيط والآخرون أدوات مسخرة لخدمتها وتحقيقها · الانا المثالي لا يلتزم بعلاقة تجاه الآخرين بل يقيم علاقات انتفاعية في حالة من الالتزام المقتصر على الذات ورغباتها كموجه وحيد لسلوكه ·

ومن هنا يمكن أن نفهم ردود فعله العدوانية تجاه الاحباط الذي لا بد أن يصادفه · يكاد لا ينقصه سببا ولا يجد تبريرا لذلك الاحباط سوى أنه تقصـير غير مقبول من الآخرين · ان النتيجة المباشرة لهذا الاختلاف متشعبة الجوانب · فالأنا لا يقيم اعتبارا للعالم الخارجي وهو لا يتحمل مسؤولية اعماله ولا يشعر بالحاجة الى الحساب الذاتي ، وما هو اخطر من هذا وذاك لا يحس بالحاجة الى التغيير ، الى النمو والتقدم ، الى الجهد من أجل الحصول على اعتراف الآخرين

---

(١) مثل أعلى : Idéal du moi

(٢) أنا مثالي : Moi ideal

به • وكلها عوامل لا تؤدي مطلقا الى التكيف ولا تسهل عملية التأهيل • ولا يندر أن تتحول هذه العملية في نظرة الى محاولات لزعاج يمارسها عليه المحيط بدون مبـــرر •.

يعاني الجانح المدلل على مستوى اقتصاد شخصيته من خلل في توظيف الطاقات الحيوية وتوزيعها ما بين الذات والعالم الخارجي • الطاقات الحيوية هي اساسا اللبيدو والعدوانية • من خـلال توزيعها وتفاعلها يتحـــدد السلوك وتتحدد النظرة الى الذات والى الموضوعات الخارجية • اما الليبدو فهو الطاقة الحيوية الجنسية المسئولة عن الارتباط ، التقرب ، التوحيد ، النظرة الايجابية والرغبة في الحصول على موضوعات ما واعطاؤها قيمتها • وهو قد يوظف في الذات او في الموضوعات الخارجية (اشخاصا وقضايا ومبادىء) • توظيفه في تلك الموضوعات يؤدي الى ظهور المحبة والتعلق والاهتمــــام ، ويؤدي الى اعلاء شأنها والتضحية من أجلها ، اعلاء شأن من نحب والتضحية من أجله ، أو اعلاء شأن العقيدة او الاهتمام (علمي ، مهني أو غيره) والكفاح من اجل تحقيقها بشكل تصبح معه هذه الموضوعات أطرا مرجعية لتقويم السلوك • كل تقرب منها سلوك مرغوب وكل بعد عنها غير مستحب •

ويتركز الليبرو في الاصل في الذات كليا عند الميلاد وهذا ما يسمـــى بالنرجسية الاولية • الا أنه يتوزع فيما بعد بينها وبين الموضوعات الخارجيـــة وأولها الام التي يتعلق بها الطفل ويحبها ثم يأتي مختلف الاشخاص • كما يوظف في مرحلة تالية في مختلف الاهتمامات الحياتية التي تعتبر رئيسية في حيـــاة الشخص • وفي كل الحالات يحتفظ الانا بجزء منه مما يعطيه قيمته وأهميتـــه الخاصة ، ويمده بالثقة في مواجهة العالم والآخرين • كما ان الليبرو قـــد ينسحب جزئيا وبشكل مؤقت من الموضوعات الخارجية ويعود الى الذات في بعض الحالات (كالمرض ، والنشوة والاحساس بالانتصار أو الحداد) ونكون عندها بصدد ما يسمى بالنرجسية الثانوية •

الخلل الذي يصيب شخصية الجانح المدلل من هذه الناحية يتلخص في نقص ا وقصور التوظيف الليبدو في العالم الخارجي (اشخاصا واهتمامات) مما يؤدي الى الحد من قيمة ذلك العالم ، بينما يظل الجانح نرجسيا لا يحب الا

ذاته ولا يهتم الا لها • ولذلك فهو لا يكترث للآخرين الا بمقدار ما يخدمون تطهير وتركز الليبيدو في الانا هو الذي يؤدي الى تضخمها كما رأينا في الفقرة السابقة ، والنتيجة الاولى لهذا التضخم هو السطحية في العلاقات وعدم القدرة على الالتزام بروابط عاطفية ثابتة تتضمن حتما تضحية وعطاء ، وكذلك البقاء في حالة طفلية نفاجية •

وما يصيب الليبيدو يحدث ما يماثله للعدوانية • فهذه الطاقة الحيوية تتوزع بدورها بين الذات والعالم الخارجي من ناحية وبين مختلف اجهزة الذات من ناحية ثانية • في الحالات العادية يتركز قسم من العدوانية في الانا ، متخذا شكل الميل الى المجابهة والتحدي والقتال وتوكيد الذات • ويتركز قسم آخر في الانا الاعلى مما يغذي مشاعر الذنب والندم والحاجة الى اصلاح الخطأ ، وكلها عومل ضرورية للحد من الانانية وافساح المجال امام احتلال الآخرين وزنا كافيا في العالم الذاتي • عندما يحدث تركز مفرط للعدوانية في الانا الاعلى يميل الشخص الى المازوشية أو تدمير الذات • وعلى العكس عندما يحدث تركز مفرط للعدوانية في الانا يعزز تضخمها ويبالغ في قدرتها على المجابهة التي قد تصل حد السادية • فاذا تذكرنا ان التوظيف الليبيدي في الآخرين يشكل شرط حمايتهم واعتبارهم والالتزام نحوهم من قبل الذات ، واذا تذكرنا أن قلة ذلك التوظيف تؤدي عادة الى الحط من تلك القيمة ، نرى كيف يمكن ان تندمج العدوانية مع ذلك النقص لتؤدي الى موقف سادي من الآخرين الذين يمكن أن يتحولوا الى ضحايا سهلة اذا شكلوا احباطا له • ويزداد الامر خطورة اذا أسقطت العدوانية على الآخرين فيصبح هؤلاء هم مصدر الاحباط وعلة الازعاج• وتتحول سادية الجانح المدلل الى نوع من الدفاع المشروع عن النفس مما يسكت بشكل تام صوت الانا الاعلى •

أما على المستوى الدينامي فيتلخص الامر في أن الجانح المدلل ظل في النهاية مسيرا بمبدأ اللذة ، ولم يتمثل مبدأ الواقع المسؤول عن وضع حد للنزوات وتكييفها كي يتلاءم اشباعها مع ضرورات الحياة الاجتماعية والمادية •

هذه الخصائص الدينامية على المستويين الظواهري والتحليلي النفسي تتفاوت في شدتها من حالة الى اخرى • قد يكون الخلل في مختلف تلك الجوانب محدودا ، كما هو حال الجانح المدلل القابل للعلاج او شديدا كما هو وضع الجانح المدلل الذي يقترب من الفسق الخلقي •

الجانح المدلل يطرح علينا أساسا مشكلة طباعية ، موطن الصعوبة فيها يتلخص في انعدام احساسه شخصيا بها • الجانح المدلل لا يعاني ذاتيا ، الصعوبات تبدو دائما خارجية ولذلك فالتغيير يجب أن ينصب في اعتقاده على الخارج ، أما شخصيته فيجب ألا توضع موضع التساؤل • ومن المعروف ان انبناء الشخصية بهذا الشكل يؤدي عادة الى مقاومة التغيير وبمختلف الوسائل من أقصى التهرب الى أقصى العنف •

وهكذا نرى مرة اخرى تفاعل النفساني والاجتماعي ، الخارجي والذاتي• فاذا كانت الاوضاع الاجتماعية والاسرية المضطربة تؤدي الى اضطرابات نفسية أو عصاب طباعي ، أو هي تزيد من خطورة تلك الاضطرابات وتهيىء لها سبل الحلول الجانحة ، فان الافراط في الامومة والابوة ، الافراط في اعطاء قيمة للطفل على حساب المجتمع تؤدي بدورها الى اضطرابات لا تقل خطرا • والافراط في العناية كالتفريط يعكس في رأينا نفس المشكلات الاجتماعية الاسرية ، أو بكلمة أدق أوجها مختلفة لتلك المشكلات •

الفصل الحادي عشر

الانحراف الاجتماعي العادي

نقصد بالانحراف الاجتماعي العادي ، كما بيَّنا في التمهيد لهذا القسم ، تلك الحالات التي تلعب القوى الاسرية الاجتماعية فيها الدور الاكبر في عملية التفاعل الجدلي بين النفساني والاجتماعي ٠ على انه يجدر التذكر ان كل انحراف هو اساسا اجتماعي ولو كان للعوامل المرضية الدور الحاسمفيه ٠ كما ان الظروف الاجتماعية قد تولد الانحراف مباشرة ، فنجد أنفسنا ازاء شخصيات سوية أو شبه سوية من الناحية النفسية ، أو بشكل أكثر تعقيدا من خلال عدم اكتمال بناء الشخصية من ناحية تماهياتها الاساسية نتيجة للظروف الاسرية التي تحول دون ذلك ٠ ويتكرر هذا الامر متخذا وجوها متنوعة لدرجة قد يبدو معها من الساذج الحديث عن جانح عادي٠تدل التجربة العيادية انه ليس هناك جانح فعلي لا يعاني من اختلال هام على مستوى حياته النفسية والعلائقية ٠ وهكذا فاستخدام كلمة عادي قد يكون غير موفق بالمرة اذا لم ترد ان تقول مضللا ٠ والواقع اننا عندما وصلنا هذا الحد من بحثنا حاولنا المباشرة في كتابة هذا الفصل وجدنا انفسنا نهبا لاشكالات منهجية : كيف السبيل الى بحث الانحراف الاجتماعي بدون الوقوع فيما عرضنا من انحراف مرضي ؟ ما عسانا ان نقول مما لم نقله بعد اذا اردنا الحديث من الناحية العيادية ؟ ثم ما عسانا ان نقول اجتماعيا دون ان نقع في خطر تكرار ما سبق بيانه في البحث الاجتماعي من هذه الدراسة ؟ كدنا امام هذه الاشكالات المنهجية أن نعدل عن كتابة هذا الفصل ٠ ولكننا شعرنا بسرعة أن في ذلك تشويه للواقع ٠ فليس من الجائز الاقتصار على استعراض مستفيض للحالات الاستثنائية في الانحراف أي

الحالات المرضية اذا كانت غايتنا الاساسية دراسة الظاهرة باكبر قدر ممكن من الواقعية والشمول . نحن نصطدم هنا بحدود الحاجة المنطقية للتسلسل في العرض الذي يحمل في طياته حتما خطر تفتيت الظاهرة واختزالها من ناحية وخطرا اكبر منه وهو الوقوع في منهجية السببية الطولية الاحادية ذات الطابع الميكانيكي . ولكن يمكننا ان نمضي قدما متجاوزين هذه المحاذير اذا تمسكنا بشمولية المنهج الجدلي الذي يراعي تعقد الظاهرة وكليتها كموجه لخطواتنا الجزئية . على أن هذا التجاوز لا يحل رأسا كل الاشكالات التي يجابهنا بها الحديث عن الانحراف الاجتماعي . فهو متعدد الاوجه لدرجة يكاد يستحيل معها حصر الحالات التي تندرج تحته . هذه الحالات تختلف فيما بينها أحيانا لدرجة يصعب معها ايجاد قاسم مشترك لها من الناحية العيادية مما يخلق عقبات امام التبويب المنطقي لمادة الفصل .

ضمن حدود تلك الصعوبات المنهجية يمكننا أن نستعرض في مرحلة أولى مختلف أشكال البنى الاسرية التي تولد الانحراف الاجتماعي ، وفي مرحلة ثانية نبحث في خصائص هؤلاء المنحرفين من النواحي الوجودية والعيادية .

اولا : البنى الاسرية .

يمكن على سبيل التدليل لا الحصر استعراض عدة نماذج من الاسر التي تعيش وضعيات داخلية أو بيئية أو كليهما معا تؤدي الى الانحراف . وقد يكون الانحراف من خصائص المحيط البارزة ، أو من خصائص الاسرة عموما ، وقد لا يظهر الا عند بعض الابناء مع تكيف متفاوت في شدته عند الاخرين وقد يتخذ سوء التكيف طابعا نشطا عدوانيا ، أو على العكس يظهر وكأنه قدر مفروض ترزح الاسرة تحته . قد تبدو الاسرة مغلوبة فعلا على امرها ازاء ظروف قاهرة لا بد ان تسحق من يتعرض لها ، أو هي تنخرط في النشاط الجانح كاسلوب اساسي لكسب العيش . هناك اسر تعاني من اشد درجات العوز لكل مقومات الحياة وأخرى تحصل ما يكفيها من مال أو ما يزيد عن حاجتها . في الحالة الاولى نلاحظ ظاهرة تسيب وعجز عن رعاية الاطفال ، اما في الحالة الثانية اتجاه عدائي ضد المجتمع . هناك اسر وراءها تاريخ طويل من الاضطراب يتفاقم صعدا من الاهل الى الابناء ، واسر متماسكة زواجيا وعلائقيا ولكنها تتصف بالركاكة والعجز عن مجابهة تحديات الحياة وتنهار قدرتها على المقاومة بعد فترة تطول او تقصر . ويقرب منها اسر أخرى أكثر تماسكا واشد قدرة

على المقاومة انما تتميز بالبدائية المفرطة والبؤس الثقافي ، تفتقر الى ابسط أسس تربية الاطفال ، وتطلب العون من الهيئات الاجتماعية المختلفة كي تمارس مهامها التربوية نيابة عنها ٠

تشترك هذه الاسر جميعا رغم تنوع أوضاعها من الناحية الوصفية ببعض الخصائص العامة التي تفرز الانحراف أهمها ما يلي :

ـ الغربة أو العزلة المتفاوتة في شدتها عن العالم الاجتماعي المتكيف ٠ قد تكون العزلة مادية بمعنى أنها تقيم في أحياء هامشية وتقوم بنشاطات هامشية أيضا ، أو معنوية وعلائقية بمعنى عدم الالتزام بالمعايير الاجتماعية الاساسية التي توجه التفاعل بين الناس وتحكم عملية الانغراس الاجتماعي ٠ العلاقة مع المجتمع المتكيف في الحالتين تتميز بالتجاذب الوجداني ، بالشك والحذر والعداء من جانب والخوف والدونية من جانب اخر ٠ ليس هناك علاقات تضامن بل علاقات تجنب وتهرب ، أو علاقات استغاثة واستنجاد ورضوخ ٠ ولذلك فان الابناء ينشأون تحت شعار هذه الغربة، يرزحون تحت وطأة الوصمة الاجتماعية، أو ضد قانون المدينة٠وهم يفتقرون في الحالتين الى شروط الانغراس الاجتماعي السليم ٠

ـ وهناك أبدا اختلال في تنشأة الاطفال وعملية التدامج الاجتماعي ٠ الطفل منذ صغره أو في مرحلة من مراحل النمو الحاسمة يتعرض لاوضاع لا تسمح له بأن يتمثل معايير ونماذج التكيف الحياتي ٠ انه لا يحظى بالرعاية الكافية او الصحيحة٠ يتراوح الامر ما بين العجز عن الرعاية والاهمال المقصود او وغير المقصود والنبذ والقسوة ويصل احيانا حد الاستغلال المباشر في نشاطات جانحة او غير جانحة ٠ الالتزام الوالدي تجاه الابناء من حيث تعهدهم على مختلف الاصعدة بشكل يضمن النمو المعافى نفسيا واجتماعيا وجسديا يتصف بالاختلال ٠ الطفل لا يتمتع بالدلالة الايجابية والمكانة اللازمة ، انه عبء أو اداة ، أو حدث عارض يستقبل باستهتار ٠ولذلك فمن النادر ان يكتسب دلالة تعرفه وتفرضه اجتماعيا بشكل فعَّال ٠

ـ اضطراب صورة الاب من الامور الاساسية التي تميز هذه الاسر ٠ انه عاجز ذو حضور هزيل أو منبوذ من الاسرة ٠ أو هو على العكس قاس عنيف يمثل الرعب والبطش والتهديد للام والابناء ٠ وقد يكون نابذا للزوجة والابناء يتجاهلهم ويتخلى عن مسؤولياته تجاههم منصرفا الى ملذات خاصة أو علاقة

مع امراة اخرى او اكثر • وقد يكون غائبا ماديـــا (وفاة ، طلاق ، سفر) او معنويا يترك الزوجة تتخبط في القيام بمهمات تربية واعالة الابناء • هنـــاك حالات يكون الاب فيها على علاقة وثيقة بزوجته واولاده ولكنه يقدم لهم نموذجا جانحا من الحياة • النتيجة واحدة دائما وهي عيش الطفل في نظام مضطرب من العلاقات وحرمانه فرصة التماهي بنموذج راشـــد يتصف بالعطف والحب ويؤمن الحماية ويجسد السلطــة التي توجه وترسي أسس الحياة الاجتماعية • يفتقد الطفل اذا فرصة نمو قدرته على اقامة علاقات ايجابية مع الاخرين وتمثل المعايير الاجتماعية • ويظل بالتالي نهبا لنزواته البدائية ذات الطابع الوحشي ، تهدده داخليا او تكوّن لديه تصورا عدائيا عن العالم الاجتماعي بعد ان تسقط على الخارج •

لا بد ان تؤدي هذه الخصائص الى اضطـــراب في الشخصية يتفاوت في مداه تبعا لشدة تلك الخصائص ، كما يتفاوت في شكله العرضي • ومن المحتمل ان يحدث مأزما نفسية تأخذ شكل العصاب او تحل بطريقة جانحة ، وغالبا مــا يتخذ الحل أسلوب الاضطراب السلوكي الطباعي • الا ان تأثير هذا الاضطراب على تكيف الشخصية اذا تسنت لها الظروف الملائمة في فترة مبكرة من الحياة (مؤسسة رعاية او تأهيل مناسبة) ليس واحـــــدا في جميع الحالات • عملية التأهيل قد تكون عسيرة جدا شخصيا وأسريا او هي تتميز بيسر نسبي عندمـــا يتخذ الانحراف طابع التعويض عن بؤس مادي او معنوي •

يمكننا بعد هذه اللمحات السريعة عن مميزات الاسر بشكـل عام الحديث عن بعض اشكالها بشيء من التفصيل •

١ ـ اسرة مفككة وأم مغلوبة على أمرها وابناء جانحون

أم لخمسة صبيان في العقد الرابع من عمرها • توفي زوجها اثر مرض خطير في أوائل العقد الرابع من عمره • تعمل خادمة عند احدى الاسر الميسورة لاعالة ابنائها • عاشت عدة شهور عند والدها بعد وفاة الزوج ، ثم سكنت بمفردها مع أبنائها • يضطرها عملها الى التغيب عن البيت معظم الوقت ، تعيش اوضاعا اقتصادية صعبة جدا ، لا دخـل لها سوى ما تكسبه من عملها • الا أن اولادها الكبار يتسلطون عليها ويبتزون منها مـا كسبته لانفاقه على ملذاتهم • تركت العمل عند تلك الاسرة الميسورة التي كانت تساعدهــا ماديا بعد أن أقدم أحد ابنائها الصغار على سرقة مبلغ ذي قيمة من المال منها •

نشأ الزوج يتيم الوالدين عند أقاربه · عاش حياة تشرد وانحراف ، كان مدمنا على المخدرات وتعاطي الكحول يبذر كل ما يكسبه على الميسر ومعاشرة الغواني · يسيء الى زوجته ولا يهتم لاولاده مطلقا ، ولم يكن من حوله يجرأون على ردعه أو نصحه اذ كانت له سمعة (القبضاي) الذي يفرض ذاته ، دخل السجن عدة مرات لاسباب مختلفة منهـــا جناية قتـــل ·

عاش مع زوجته عقدا او ما يزيد قليلا ، كان يسيء معاملتها · تعرف بعدها علـى غانية وتزوج منها ، ولقد أنجبت له هذه الاخيرة عدة أولاد بدورها · أقامت الزوجتـــان في منزل واحد ، احداهما تهتم بشؤون المنزل والاخرى (الغانية) تكسب المال لصرفه على الجميع بعد مرض الزوج الذي أقعده شهورا عديدة · بعد وفاته ذهبت الام عند والدها اذ استولت الزوجة الثانية على المنزل ومحتوياته · ولكن هذا الوالد كان سيىء الســيرة بدوره ، فهو رجل مزواج رغم تقدمه في السن ، يعيش في محيط أسري يتصف بالاهمـال واللامسؤولية ويؤدي الى تسيب الابناء ·

بعد وفاة الاب انحرف جميع الابناء كل على مستواه · أصبحوا ينامون خـــارج المنزل ، الابن الاكبر يتعاطى المخدرات وهو من أصحاب السوابق ، الثاني سجين لتكرار انحرافاته ، الثالث قاصر تنقل بين عدة مؤسسات تأهيلية للجانحين ولكنه لم يستقر في أي منها · أما الابنين الاخيرين فهما معروفان من مختلف مؤسسات رعاية الاطفال ، ولكنهما شأن من سبقهما لم يتكيفا مطلقا · الرابع بدأ ينحرف بعد أن تقدم في السن قليلا ، ولقد اعتاد أن يبيع جسده لبعض اللواطيين لقاء دراهم ينفقها على نفسه ، أما الخامس فهـو متشرد فقط نظرا لصغر سنه · جميع الابناء لهم سوابق عديدة في مجال السرقة والانحراف· الام مغلوبة على أمرها تستنجد بمؤسسات الخدمات الاجتماعية لمساعدتها على الاهتمـــام بأبنائهـــا ·

ان انحراف الابناء يكاد يكون بديهيا نظرا لتفكك الاسرة من جانب والعيش في محيط مريض أسريا وعلائقيا عند الجد من جانب آخر مما أدى الى ضياعهم وفقدانهم الاطار المرجعـــي الذي يساعدهم على النمـــو السليم والانغراس الاجتماعي · ولكن اهم من ذلك هنالك تماهٍ بالاب الجـانح أصلا · ولا شك ان هذا التماهي كان يعتوره الاضطراب نظرا لقسوة الاب واهماله وانصرافه الــى زوجته الثانية مما قد يولد حقدا شديدا عند الابناء نحوه ، وقد يكون انحرافهم بعد موته مدفوعا بمشاعر الذنب القوية تجاهــه ، مما دعّم التماهي بتصرفاته الجانحة · على ان الامر في كل الاحـــوال يبين مدى انهيار الروابط الاسرية

والعلاقات بين الام والابناء : الكبار يبتزون ثمار عملها واحد الصغار حرمهـــا مساعدة مخدومتها بعد ان سرقها · ولا شك ان في ذلـك حقدا على الام تحول عند بعضهم خلال بعض مراحل نموهـــم (الثالث والرابع) الى شعور شديد بالمسؤولية تجاهها وقلق كبير عليها ، انما ظل هـــذا القلق وذاك الشعور بدون جدوى حيث لم يوجها سلوك ذينك الابنين في طريق التعويض عنها من خلال جهد تكيفي يمكنها من مساعدتها فيما بعد ·

٢ ـ أسرة مفككة وأب يتذبذب بين العمل المشروع والانحراف

الاب في أواخر العقد الرابع من العمر · نشأ يتيما وعاش في المياتم · اعتاد على صعوبة الحياة وتحمل المسؤوليات منذ نعومة أظفاره · يعمل حرفيا لحسابه الخاص في قضايا الصيانة ·

تزوج أربع مرات · كانت الاولى قريبة له رزق منها بولدين ثم طلقها لسوء تفاهم بينهما · تركت له الاولاد وتزوجت · ثم تعهدهما اخوتها بعد فترة ، اذ كانـــا يفتقـــدان الرعاية الكافية من قبل الاب ·

ثم تزوج ثانية وعاش مع زوجته خمسة عشر عاما ورزقا ثمانية أولاد · ولكنه في المدة الاخيرة لم يعد يمدها بالمال اللازم مما اضطرها الى العمل كخادمة · وأدى ذلك الى خلاف بينهما انتهى بالطلاق · عادت الزوجة الى ذويها ولم تلبث أن اقترنت بأحـــــد أصدقاء زوجها تاركة الاولاد في عهدته · أما الاب فلقد تزوج للمرة الثالثة من امرأة لديها بعض المال · ولم يلبث أن طلقها بعد عدة شهور حين تمكن من أخذ مالها ·

وأخيرا تزوج للمرة الرابعة من امرأة تصغره سنا الى درجة كبيرة ورزق منهـــا بولدين ·

تدور المشكلة حول الابناء من الزواج الثاني ، حيث تشرد هؤلاء وانحرفوا وعرفوا تاريخا طويلا من الاقامة في مؤسسات رعاية الاطفال دون الاستقرار فيها · لقد ضـاع الابناء بين الاب والام المتزوجين كليهما ثانية · كان الوالدان يتراشقان تهم التقصير بحق الابناء · أصبح الوالد عصبي المزاج نتيجة لعجزه عن القيام بمسؤوليات اولاده التي تتزايد باستمرار ، ولذلك كان يقسو عليهم · وعندما يلجأون الى والدتهم ، كانت تطردهم مـن منزلها بحجة أن زوجها الثاني غير ملزم باعالتهم · وهكذا تشردوا تدريجيا بعد أن طردوا من مؤسسات الرعاية نظرا لعدوانيتهم وشغبهم وعدم استقرارهم ، ولم يكونوا يجرأون

على العودة الى منزل الاب خوف بطشه ٠ مرت فترات كان الاب يستخدم بعضهم في أعماله، الا أن قسوته كانت تؤدي به الى ارهاقهم في العمل مما يدفعهم الى الهروب والانحراف ٠ ولقد تحول ثلاثة منهم الى جانحين صعبي المراس على غرار الاب ٠ على سجل كل منهم عدد كبير من السرقات والجنح المتنوعة ٠ يود الاب ان يتخلص من اعبائهم ولذلك فهو يعبر عن ارتياحه عندما صار مصيرهم الى احدى مؤسسات تأهيل الجانحين ٠ وهنا كان يبدي تجاذبا وجدانيا نحوهم ، فهو يتخلى عن مسؤولياته التربوية من ناحية ويزورهم بانتظام ويبدي العطف عليهم من ناحية ثانية ٠ الا أنه كان يميل الى تمثيل دور الواعظ الخلقي امام المسؤولين ولا يتوانى عن ضربهم بشدة اذا وصلته أخبار سيئة عنهم ٠ الواقع انه يبدي بعض الاهتمام بهم الا أنه لا يلتزم كليا تجاههم ، ولا يعرف من سبيل لمعاملتهم سوى القسوة ٠

على أن الام ليست أقل انحرافا من الاب ٠ فهي قد تخلت بكل بساطة عن أبنائها ولم تظهر تجاههم اي اكتراث أو قلق او التزام حول مصيرهم ، شأنها شأن الزوجة الاولى ٠ وكأن الاب في الحقيقة بزواجه المتكرر والفاشل وبنبذ زوجاته لابنائه يكرر مأساته الشخصية (كيتيم حرم العطف والعناية) مع أبنائه ٠

ولقد زاد من مأساة الابناء ان أمهم رغم نبذها لهم ظلت على علاقة عمل مع والدهم ٠ حيث كانا يقومان بمساعدة زوجها الثاني (صديق الوالد) بصفقات تهريب مواد ممنوعة والاتجار بها ، حتى اكتشف أمرهم وغرم الزوج الثاني مبالغ طائلة أدت الى افلاسه ٠ وهنا مد الاب له يد العون ٠

نحن بصدد أسرة مفككة ووالدين يتذبذبان ما بين النشاط المهني المشروع والنشاط الجانح ٠ يقف الاب موقفا غير متكيف تجاه الابناء حيث يتخلى عن مسؤولياته ويقسو عليهم ٠ ذلك مثل صريح عن عدم الالتزام تجاه الابناء وعن سوء التدامج الاجتماعي ، حيث يثور الاب عندما يحاول احدهم ان يلفت انتباهه الى تقصيره ويقف موقفا عدوانيا صريحا من هذا الامر ٠ وهو الى ذلك كائن هامشي بينه وبين العالم الاجتماعي غربة واضحة رغم عمله الذي يعطي انطباعا بتكيف مهني ٠

ولقد نشأ الابناء على غرار الاب عدوانيين هامشيين يتذبذبون ما بين فترات التكيف وفترات الانحراف ، كما هو بالاب تماما من حيث تصرفاته الطباعية ومن حيث موقفه من المجتمع ومعاييره ، وخصوصا من حيث السطحية والزيف العلائقي ٠ ولقد قمعوا معاناتهم النفسية وراء قناع من الصلابة والقسوة

الطباعية ـ (لم يكن لهم خيار في ذلك) كدفاع حياتي ضد مأساة الضياع وفقدان العاطفة والحماية ٠

٣ ـ أسرة بائسة اقتصاديا وثقافيا وبشريا وأب جانح

الاب في بداية العقد السادس من العمر ، أما الام فهي في بداية العقد الرابع ٠ تكونت العائلة منذ عقدين ٠ استقر الزوجان عدة سنوات في أحد الاحياء الهامشية المحيطة بمدينة بيروت ٠ كان يسود التفاهم بينهما ٠ رزقا خمسة أطفال ٠ كان الاب يعمل ككادح مياوم في منطقة المرفأ ٠

انتقلت الاسرة الى منطقة الكرنتينا كي تقترب من مكان عمل آلاب ٠ عاشت عـــدة سنوات في تخشيبة ٠ خلال هذه المدة بدأ الوالد يعمل بغير انتظام ، يهجر المنزل ، ينفـــق نقوده على ملذاته الخاصة تاركا الزوجة والاطفال بدون معيل ٠ بدأ يتعاطى المخـــدرات ثم احترق الحي الذي تسكنه الاسرة فانتقلت الى تخشيبة اخرى في حي مجاور ، تخلو من الماء والكهرباء والمرحاض ، تطغى عليها القذارة المفرطة ٠ في هذه الفترة اصيبت الام بحادث أقعدها شهورا عديدة في المستشفى ، ولا زالت كسيحة ٠ لا تتمكن من التنقل الا بصعوبة بالغة ٠ وهنا بدأ الابن البكر يتشرد متجولا في أزقة الحي ، يغيب عن المنزل ، لم يذهب مطلقا الى المدرسة نتيجة لجهل وبؤس أهله ٠ خلال ذلك زادت فترات غياب الاب عن الاسرة وزاد ادمانه على المخدرات ٠ وفي الاوقات التي كان يعود فيها الى البيت كان يعاقب ابنه أشد العقاب دون جدوى ٠ أخذ الاب يعمل بشكل متقطع في جمع الخردة متجولا بعربته بين الاحياء السكانية المختلفة ٠ كان يصطحب معه أولاده ويدفع بهم الى السرقة كلما سنحت له الفرصة ، ويعود محملا بالامتعة المسروقة والخردة في آن معا ٠

ولكنه لم يستمر في ذلك طويلا اذ سرعان ما عاود الغياب عن المنزل لمدة تزداد باضطراد كان يترك ابناءه وزوجته العاجزة خلال تلك الاوقات في حالة عوز مطلق ٠ المعيل الوحيد لهم كانت الجدة وهي في أواسط العقد السابع من عمرها ، تكسب يوميا مبلغا زهيـــدا من المال يكفي لشراء الخبز وتأمين الانارة فقط ٠

حدث حريق آخر في الحي التهم التخشيبيـــة التي تسكنها الاسرة ممـــا اضطرها في غياب الاب الى ان تلجأ هي واطفالها الخمســـة والجدة الى الجيران تقيم معهم٠ اثر هذه المصائب المتتالية انهارت الام وفقدت القدرة على تربية اولادها والسلطة عليهم والامل في انقاذ الوضعية ٠ اخذ هؤلاء يتشردون ويجنحون ٠ اصبح الابن البكـر جانحا بعد تكرار سرقاته ، أما البنت التي تأتي بعده فلقد غادرت المنزل بدورها وضلت طريقها ٠

وضع الابن ألبكر في مؤسسة رعائية واتضح انه مصاب هو واخوته بامراض تناسلية نتيجة التعرض لتجارب لواطية · كان يهرب من المؤسسة كثيـــرا ويعود الى ذوية · حتى استقر به المقام في مؤسسة لتأهيل الجانحين · خلال ذلك سجن الاب بعد اقدامه على سرقة لشهور عديدة ولانه لا يمتلك هوية شان أفراد الاسرة جميعا · ازاء ذلك كله تدخلت احدى مؤسسات الخدمات وتولت رعاية الا طفال ·

سنعود الى استعراض الوضع الشخصي للابن البكر حيث توفرت لنا تقارير نفسانية عن حالته ·

تشكل هذه الاسرة نموذجا واضحا للبؤس الاجتماعي والمادي والثقافي ، وما ينتج عنه من تشرد وانحراف عند الابناء · وتعتبر فوق ذلك تدليلا جيدا على التجربة الحياتية في الاحياء الهامشية · المحيط مفكك تطغى عليه كل اشكال سوء التكيف : ظواهر ما تحت التكديح ، البطالـــة ، شيوع الادمان على المخدرات ، واللواط والنشاطات الجانحة ، ركاكة التكوين الاسري ، العجـــز عن مجابهة تحديات الحياة ، التعرض لكوارث متتالية واخيرا الرضوخ والاستسلام · محيط من هذا النوع وأسرة على هذا الشكل لا يمكن ان تؤمن للابناء اي من الظروف المعقولة للنمو السليم والانغراس الاجتماعي ·

هذه الاسرة وتلك التي سبقتها تعكس خاصية تلاحظ في الجماعات السكانية الهامشية في البلدان النامية · انها الظاهرة التي يمكن ان نطلـــق عليه اسم تصرفات « تدبير الحال » · الانسان غير مؤهل مهنيا ، يعمـــل ككادح مياوم ، يتعرض للبطالة اما نتيجة لتذبذب سوق العمـــل او بسبب مآزم شخصية تزداد وطأتها من آن لآخر ·

يؤدي به عمله هذا الى مزيد من الهامشية والتدهور الحياتي · وقد يتحول الى اعمال عابرة طفيلية · خلال هذا النشاط يقدم على اعمـــال مخالفة للقانون كمجال للسكب حين تسنح الفرصة · وهو في كـل ذلك يعيش تحت شعار تدبير الحال حسبما تسمح الظروف · تتلاشى في هـذه الوضعية الفروق بين النشاط المشروع والنشاط غير المشروع · تلك خاصية من خصائص الهامشية الاجتماعية حيث تنتفي الضمانات الحياتية ويترك المرء يتخبط امام مصيره · والواقـع ان الواحد من هؤلاء لا يميز فعلا بين النشاط المنتج وغير المنتج ، المشروع والممنوع، يعيش ليومه بدون تخطيط للمستقبل ، وبالتالي يقدم على ما تقدمه الظروف من امكانيات · ولا يقتصر هذا الاسلوب على نشاط الكبار بل يعمم كأسلوب حياتي يطبع جميع تصرفاتهم تجاه الاسر والاولاد ·

يربى هؤلاء كيفما اتفق ، يحاطون بشيء من العناية احيانا ويهملون احيانا اخرى ، يغدق الاهل العطف عليهم ثم يتركونهم نهبــــا للظروف ، يتعثرون في الدراسة اذا حدث ان ادخلوا مدرسة ، يغيبون عن البيت ، يتشردون · ولا يندر ان يستغل الاهل ابناءهـــم لاغراض انتفاعية مادية ، يدفعون بهـــم الى اعمال طفيلية كآبائهم (بيع اكياس ورقية ، بيع سلع تافهة ، مسح زجـــاج السيارات ، مسح احذية ، تسول ، جمع بعض الامتعة من النفايات) تتخلل هذه النشاطات الكثير من التصرفات الجانحة غير الملفتة للنظر · وهي تعتبر كجزء من النشاط الشائع الذي لا يثير القلق ، لانه نوع من تدبير الحال ومجابهة صعوبات الحياة· ولا بد ان ينتهي الامر الى الانحراف الصريح والملاحقة القانونية التي قد تشكل فرصة ملائمة تؤمن للحدث بعض اسباب الرعاية والتأهيل · ويتميز سلوك هؤلاء الاحداث ، كما سترى فيما بعد ، بالتجاذب الوجداني ما بين الرغبة في التكيف والقلق بالحياة السابقة التي وصمته لدرجة تولّد عنده عقدة عجز اجتماعي ، نوع من انعدام الثقة بالنفس على الوصول الى التكيف الناجح والحياة اللائقة· على كل حال يظل التأهيل محفوفا بالاخطار النابعة من وطأة المحيط ·

٤ ـ اسرة متماسكة وجانحة

الاب في العقد الرابع من العمر أما الوالدة فاصغر سنا · تزوجا بشكل عادي ورزقا سبعة اولاد اكبرهم سنا صبي · كان الوفاق يخيـــم على جو الاســـرة التي كانت تتمتع بمستوى اقتصادي حسن وتسكن بيتا ملائما · الا ان الوالد الذي يعمـــل في التجارة في ميدان تختلط فيه النشاطات المشروعة والجانحة ، خسر خسارة كبيرة في احدى الصفقات، فتدهورت احوال الاسرة ومرت بفترة من العوز الشديد · ظل فترة عاطلا عن العمل ، وغيرت الاسرة مسكنها اكثر من مرة تخفيفا للاعباء المادية · ولكن أمور الاب المادية استقامت بعد مدة فعاد الى تجارته · انما تشير الدلائـــل انه تحت ستارة التجـــارة يمارس نشاطات مشبوهة تدر عليه ربحا كثيرا ، ادى الى تعزيز مكانته من جديد ·

خلال هذه المدة بدأ الابن البكر حياته الجانحة بعد ان تنقـــل في عدة مدارس لم يبد في اي منها استقرار او رغبة في العلم · مال الى الهروب واللهو مع اولاد الحي، ثم تعرف على جماعة من الاحداث الجانحين وسار على خطاهـــم ، حتى وضـــع في مؤسسة لتأهيل الجانحين بعد ارتكابه بعض الجنح · ولم يحاول الحدث أبدا تعلم مهنـــة ما نظرا لفقدان الدافع ، فهو لا يرغب في القيام باي جهد مدرسي او مهني ولا يجد للهو بديلا ·

يظهر الوالدان اتجاهات جانحة تجاه الحياة وتجاه الآخرين وتجاه تصرفات ابنهما

فالوالد غير مكترث لسلوك ابنه يقر بانحرافه ، لا يبدي املا في اصلاح أمره ، يسمح له بالتدخين منذ سن مبكرة كوسيلة وحيدة لثنيه عن التشرد والانسياق وراء جماعة الرفاق الجانحين • أما الام فرغم وعيها لخطورة تصرفات ابنها ، تبدو لا مبالية • وهي كالاب ، تترك عند الملاحظة انطباعا بأن التربية والاعداد الخلقي للابناء لا تنال الكثير من اهتمامها• كما انها تميل الي تبيض صفحة ابنها وتخفف كثيرا من خطورة افعاله ، وتظهر استجـابة عدائية لكل من يحاول ان يضعها امام مسؤوليتها التربوية • ثم انها كالوالد تحتج عـلى الاجراءات التاهيلية التي تطبق على ابنها خصوصا من ناحية النظام والحياة الجدية مما ادى الى عرقلة تلك الاجراءات • ظل الحدث رافضا لوضعية التأهيل ، لا يرى جدوى من الدراسة او التدريب المهني متذرعا بأنه سيعمل مع ابيه في المستقبل ويكسب من ذلك مـالا كثيرا يغنيه عن كل ما يخطط له في المؤسسة •

يتهرب من الجهد ، ينساق وراء اللذة ، لا يبدي اي شعور بالمسؤولية يستخف بكل القضايا ، لا يثنيه عن الاقدام على التصرفات الجانحة الا خوفه من العقاب • يبذل الحد الادنى من الجهد الذي يجنبه آلملامة دون قناعة منه بجـدوى • معاييـــره الخلقية تتصف بالتراخي المفرط ، يفتقر الى الاحساس بالخطأ والندم ، لا يكترث للآخرين ولا يلتزم بعلاقة معهم الا بمقدار ما يناله منهم منفعة مادية او ما يخشاه من قصاص • لا يستطيع تجاوز اهتمامات اللحظة الراهنة بما تحمل من امكانـــيات المتعة ، وهو لم يندمـج أبدا في بيئته المؤسسة • على آلعكس يخفي عدوانا شديدا تجـــاه المسؤولين والرفاق ، ولا يتورع عن انتهاز اي فرصة لاحداث الوقيعة بينهم او توريطهم في متاعب علائقية او انضباطية • ويبدو في كل ذلك مفلتا من كل محاولة للتأثير عليه تربويا ، فهو لا يبحث عن العلاقة ولا يشكو من مآزم داخلية • تنصب شكواه على ما يعتبره كازعاجات تأتيه من المحيط • ويقف منها ومنه موقفا اضطهاديا ، فيضع اللوم على الآخرين وسرعان ما يتهمهم بالتقصير تجاهه •

نحن بصدد اسرة تتصف بالكثير من خصائص الوجود الجانح من اهمها : التحالف ضد العالم الخارجي ، ضد المعايير والقيـــم السلوكية المتكيفة يتحول هـذا العالم نتيجـة للعلاقة الاضطهادية الى مصدر استغلال ممكن او مصدر ازعاج يحسن تجنبه، دون الاحساس بضرورة التاقلم وآلاندماج فيه • كما انها تعيش وضعية غامضة بين النشاطات المشروعة المنتجة وغير المشروعة في حالة من الانوية التي تفتقر الى الالتزام والتضامن • ويبدو كأن لا تمييز عندها بين هذين النوعين من النشاط • المحرك الوحيد هو الفائدة الاكبر والمغنم الاسهل وآلاسرع • يشكل هذا النموذج الحياتي مقاومة كبيرة لكل محاولات تأهيل الابناء نظرا لعدم الاعتراف بقيمة هذا التأهيل واهميته•وقد يمضي الحدث وليد تلك الاسرة سنوات طوالا في المؤسسة دون ان يتغير فعليا حتى ولو اكتسب بعض الحصيلة العلمية وآلمهنية •

اسلوب الحياة السابق يشده دوما ، خصوصا اذا استمرت علاقته وثيقة بالاهل • ولا بد في هذه الحالة ، اذا اردنا أحداث تغيير فعلي في شخصيته ، من كسر سطوة قانونهم لصالح قانون المدينة •

هذه النماذج الاسرية مضافة الى تلك التي استعرضناها في الفصل الخاص بالحرمان العاطفي وتلك التي اوردناها في البحث الاجتماعي ، تعطي جميعـــا صورة ممثلة للاوضاع الاسرية المؤدية الى التشرد والانحراف •

هناك بالطبع نماذج اخرى لم ندلل لهـــا بما فيه الكفاية ، الا انها نادرة نسبيا في المراكز العمرانية التي تقدم اكبر نسبة من الاحداث الجانحين ، ولكنها تشيع في المناطق الريفية المعزولة • ظاهرة الانحراف تتخذ في هذه الحالة طابعا بدائيا او عشائريا • اما الطابـــع البدائي فيلاحظ في أسر متخلفـــة اقتصاديا وثقافيا ، تعيش في نوع من العزلة عن تيارات التغيير الاجتماعي• يفتقر الاولاد الى فرص الارتقاء ويتابعون اعمال آبائهم (رعايـــــة المواشي ، اعمال زراعية بسيطة) • لايتخذ الانحراف في هذه الوضعية طابع العداء للمجتمع ، انما قد يشكل جزءا من نمط الحياة او تصرفا عارضا • فالفعل الجانح قد يخرق القانون الوضعي الا انه لا يعتبر كذلك بالنسبة للبيئة المحلية • وقد تحدث حالات هروب وتشرد وسرقات عند بعض الابناء تنتج عن مآزم أسرية او نفسية ، أو عن جهل تربوي من قبل الاهل •

اما الحالة الثانية فتشيع في الجماعات ذات الطابع العشائري وتتخذ شكل الاعتداء على الملكية واتلاف المزروعات او مخالفات الرعي والمواشي • الواقع ان هذه التصرفات لا تعد من الناحية النفسية العيادية انحرافات فعلية، انها جزء من التوترات والصراعات التي يتميز بها نظام تلك الجماعات والعلاقات بينها • والحدث الذي يتركبها انما هو متكيف تماما في اسلوبه الحياتي مع النمط الشائع للسلوك في الجماعة التي ينتمي اليها •

على ان هذه الظواهـــــر لا تعني خلو الريف من الامـــراض الاجتماعية والاسرية التي تؤدي الى انحراف فعلي • لا بد لهذه الامراض ان توجد بمقدار وجود اختلال في النظام الاجتماعي الاقتصادي في تلك المناطق• ولكن الانحراف قد يظل خفيا في هذه الحالة ، اما نتيجة للعزلـــة وقصور الرقابة والملاحقة او نتيجة لحل الاشكالات التي يجرها محليا•

ويقترب من ذلك حالات الاضطراب الاسري ، واضطراب العلاقة بين الاهل

والابناء التي تحدث في الطبقات المتوسطة وما فـوق المتوسطة • يظل الانحراف في هذه الحالة ضمن الرقم الاسود اجمالا • اي انـــه لا يظهر بشكل صريح صارخ ، لان الامور تتدارك قبل ان تصل الى القضاء ، ولان هنـــاك امكانيات كبيرة لدى هذه الفئات السكانية لتمويـــه اشكالاتها تحت ستار من الاستقرار والتماسك • الا ان بعض القضايا تخـــرق ستار التمويه وتظهر على السطح كالفقاقيع مما يخلق نوعا من الدهشة والتعجب عند الرأي العام • وهكذا يفاجأ الجمهور بقضية جماعة من الاحداث ابناء الاسر ذات الوجاهة الاجتماعية وقد اقدمت على تعاطي المخدرات او انخرطت في مغـــامرات جنسية او دعارة او عصابات سرقة او اتـلاف ملكيات عامة • تعتبر هذه الحالات كمؤشرات على مآزم أسرية اجتماعية ضمنيـــة • ويلاحظ هنا ايضا كمـــا في حالات البؤس الاجتماعي التي بيناها اختلال في السلطة الوالدية وان تستر بتبريرات متنوعة (انشغال الاهل بأعمالهم ، تعويد الحدث على الحرية الخ ••) الواقع ان بعض الاحداث يتركون بدون رعايـــة او توجيه كافيين ، بدون ترشيد على الحيـــاة المسؤولة ، وكذلك بدون تمثل لقانون المدينة ، شرط التدامج الاجتماعي • يؤدي التقصير في ممارسة تلك السلطة او التخلي عنها بشكل خطير من ناحية ووهن الروابط ضمن الاسرة على مستوى العلاقة الزوجية والعلاقة مع الابناء الـــى القاء هؤلاء في دوامة من الضياع الوجودي يقود الى اتخاذ مواقف عبثية من الحياة • وقد يكون في هذه الظواهر (الادمان ، الدعارة ، التحلل الجنسي) نداء للاهل خفي من جانب الابناء ، نداء استغاثـــة كي يتدخلوا لخلق التوازن الضروري في شخصيتهم • الحدث الذي ترك بدون سلطة والديه والذي لم يتعلم الالتزام بقانون المدنية سيقع نهبا للقلق والشك حول ذاتـــه ووجوده في مرحلة المراهقة بما تتضمنه من تغيرات حاسمة وما تثيره من مآزم وجودية • ولا بد له من حل (حيث فقد الحل السليم وهو امكانية الرجوع الى سلطة متينـــة ورزينة تشكل قدوة لوجوده) سريع لمآزمـــه • واسرع الحلول هي التي تتخذ اسلوبا جانحا طباعيا او انسحابيا (مخدرات ، لا مبالاة ، لا التزام هروب في التحلل الجنسي) • ان الشرط الاجتماعي لهذه الفئة من الاحداث يضخّم تأثير وضعهم الاسري ، فهم يفتقـــدون الاحساس بدور اجتماعي مهـــم يغرسهم بشكل نشط ويساعدهم على تحديد هويتهم الذاتية • ليس هنـــاك من يحتاج اليهم او الى جهدهم ، ولذلك تظل هويتهم غامضة مشوشة تفتقر الى التعريف الذي لا يتم الا من خلال جهد او مكانة يعترف بها المجتمع والاخرون •

التصرفات الجانحـــة في هذه الحالات ذات طابـــع اجتماعي اساسا •

الرفاهية المفرطة في بعض البنى الاجتماعيـــة كالبؤس المفرط يؤديان الى نتائج متقاربة وان اختلف الاسلوب !! ويزداد هذا الامر تكرارا كلما ازداد التراخي في المعايير التي توجه السلوك وتضبطه لصالح الاهـــداف ، اي كلما تضخمت الاهمية المعطاة للوصول الى الاهـــــداف (خصوصا اهداف المظهر والوجاهة الاستهلاكية) على حساب القيم السلوكية · ويصل الامر اخطر حالاته عندمـــا يصبح الوصول السريع الى تلك الاهداف قيمة بحد ذاتها ، دليل براعة وعنوان نجاح · ونصل هنا مرة اخـــرى الى حالة مماثلة لنموذج تدبير الحـــال الذي تتلاشى فيه الحدود بين النشاط المشروع والنشاط غير المشروع الذي اشرنـــا اليه عند الحديث عن الاسر المفككة والبائسة الجانحة ·

الانحراف في هذه الحالة يظل كما قلنا ضمنيا ، واذا ظهرت بعض حالاته في اعمدة اخبار الناس والمجتمع في بعض الصحف فسرعان ما يضرب حولـه طوق من التمويه والنسيان حيث للاسرة من القوة والوسائل ما يتيح لها تسوية الامور قبل ان تسير شوطا بعيدا وتفلت من يدها ·

ثانيا : الخصائص النفسانية للجانح الاجتماعي

لا يشكل الجانحون الاجتماعيون فئة واحدة · فاذا كانت القوى الدافعـــة لانحرافهم اجتماعية في المقام الاول، فان خصائصهم النفسية وامكانياتهم العقلية ومعاناتهم الداخلية ومواقفهم من مختلف الوضعيات تتنوع الى حد كبير ممـــا يجعل الرابطة بينهم على هذا المستوى اقل وثوقا · ويمكننا ان نبين هذا التنوع من خلال بعض الوضعيات الاساسية والتجارب التي يمرون بها خلال اقامتهـم في مؤسسة تأهيلية ·

١ ــ الموقف من الفحص النفساني :

يختلف هؤلاء في مظهرهم العام ، الا اننا نلاحظ اهمـــالا وانخفاضا في مستوى هندامهم وعنايتهم بأنفسهم خصوصا عند قدومهم وفي بداية اقامتهم · ويشير مظهرهم الى تجارب البؤس والضياع التي مروا بهـــا · ويزداد المظهر تعبيرا بمقدار انخراطهم في العالم الجانح · فاذا وصل الامر درجة بعيدة نلاحظ ان لغتهم نفسها ونبرات صوتهم اصبحت مميزة وتخـــرج عن المألوف بالنسبة لسنهم · فقد يبدو الواحد منهم كمن عركته الحيـــــاة ، يتخذ اتجاهات جسدية وايمائية اقرب الى الرجال منها الى الاحداث ، يتكلم بصوت خشن ، يظهر نوعا

من التضخم الذاتي يتعارض فعلا مع ضآلة نموه الجسدي ، يظهر ثقة سطحية مفرطة بنفسه ، ويخاطب محدثه بنوع من الاستعلاء (استعلاء من عرف الكثير وخبر الحياة واستخلص عبرها) ، ولا يندر ان يكثر من ذكر الحكم والامثال اثناء حديثه · يبدو من ذلك مباشرة انه تمثل فعلا ثقافة الاوساط الجانحة وتماهى بالمحترفين فيها · ومن الامور الثابتة في موقفه محاولته اظهار قوة شخصيته ، فمن المسائل الحيوية بالنسبة اليه في هذا اللقاء الاول ان يخفي كل علائم ومؤشرات الضعف في كيانه · الضعف خطير جدا نظرا لحاجته الماسة الى التصدي ومجابهة التحديات التي فرضتها عليه حياة الانحراف التي يتحكم بها قانون سيادة الاقوى · وهو يقف من الاختصاصي النفساني ومن المسؤولين عموما نفس الموقف الذي اعتاده من الوضعيات التي تتضمن خطرا ممكنا عليه حيث لا يرى فيهم في البداية الا احتمالات الايذاء · ولذلك فانه حذر متحفظ جدا في الامور الذاتية التي يعتبرها حساسة ، يتجنب الحديث عن معاناته ، او عن أسرته ، او عن مشكلاته الداخلية · يقبل فقط الحوار على المستوى السطحي الذي يحفظ له مواقعه · وهو قد يلجأ الى المراوغة والكذب والادعاء تهربا من كل ما يعتبره توريطا له ، وهو تهجمي معاند اذا شعر بأنه مدفوع للحديث عما يضعه في موقع الضعف او الملامة · فاذا كان يتمتع بامكانيات عقلية حسنة سرعان ما تشعر انه يتبع خطة محدودة للمواجهة تتفاوت ما بين التجنبوالتهجم الاضطهادي، وتمثيل الفضيلة والاتعاظ من الاخطاء والوقوف موقف الحكيم الذي يستخلص العبر من الحياة · وهو في هذه الحالات الاخيرة يبدو كمن يتحدث عن كائن اخر لا يمت اليه بصلة وثيقة ، وقد يمضي فيتحدث عن مأساته انما يظل خطابه مجردا من كل شحنة انفعالية · وقد يبدي الكثير من الواقعية في النظرة الى الامور توهم محدثه بمستوى عال من النضج الشخصي ، ولكن الحقيقة هي انه قد تعلم لعب هذه الادوار حيثما يراها مناسبة لمواجهة الوضعية · وتجدر الملاحظة في هذا المقام ان الجانح من هؤلاء هو دارس وملاحظ دقيق لمحدثه · يحاول ان يسبر اغواره ويستشف نواياه ويحدد نقاط القوة والضعف عنده كي يتصرف تبعا لهذه المعطيات بما يخدم اغراضه الدفاعية · ويبدي بعضهم براعة كبيرة في هذا المضمار لا تقل عن براعة الاختصاصي · اما الاقل تمايزا من الناحية العقلية فانهم يفتقرون الى تلك المرونة وهذه القدرة على المناورة ، فيلجأون الى دفاع جامد وبسيط يتلخص معظم الاحيان في العناد والرفض والصمت الاحتجاجي والتجنب · او هم يلجأون الى الاستعراض الطفلي لقوتهم من خلال الاسترسال في رواية مغامراتهم في التشرد والانحراف ، وينساقون في ذلك بعيدا لدرجة ينسون معها انفسهم · يحس الواحد منهم برواية مغامراته

بنشوة تبث الطمأنينة في كيانه ٠

لقد سلم رغـــم ما تعرض له وما اقدم عليـــه من امور يتردد العاديون باتيانها ٠ في هذه المرحلة يتجنب الجانح الحديث عن تجربته العاطفية مع الاسرة اما من خلال رفض الخوض في الموضوع او من خـــلال الاقلال من شأنه ، او تجاهل اسئلة الفاحص بهذا الصدد ، او هو يتحدث بشكـــل محايد جدا وكأنه يروي وقائع لا تمت الى اسرته بصلة ولا تعني له شيئا على المستوى الوجداني، او هو يجيب بشكل مبتسر وكأنـــه يقول لمحدثه ان لا داعـــي للخوض في ذلك الموضوع ٠ ولكن يحدث ان يلجأ الى الاسلوب المسرحـــي ، فيستعرض مأساته ومأساة الاسرة مستدرا عطف محدثه لوضعـــه في موضع الضعف ان لم نقل الشعور بالذنب المرتبط بالتضامن الاجتماعي ٠ وقد يستغل هذا الامر اذا انس استجابة ضعف للحصول على فوائد مادية او خدمات متنوعة او حتى تسخيره كأداة في معركته مع العاملين في المؤسسة ٠ بالاضافة الى الغاية التكتيكية لذلك الموقف من الاسرة هنالك حاجة دفاعية ذاتية له٠ فالجانح في هذه المرحلة بحاجة ماسة لان يحصن نفسه ضد كل ظواهر الضعف واهمها المعاناة الداخلية الفعلية٠ انه يقمع او يكبت تلك المعاناة مظهرا ما يشبه الدرع الطبـــاعي او حتى جلد التمساح ، بذلك وحده يطمئن على تكامله النفسي ، وبدونه ينهار ويفقد توازنه وقدرته على المجابهة وهو اشد ما يخشاه ٠ هنالك دائما كما سترى فيما بعـــد معاناة عنيفة في الطبقات العميقة من ذاته يشن حرب دائمـــة ضد بروزها او الشعور بها ، وتتناسب خشونته وصلابته الظاهرية عادة مع شدة معاناته ٠

وكما هو شأنه تجاه الاسرة كذلـــك هو حاله تجاه عالمه الداخلي ٠ فانه يجهد كي يستر على ما يعتمل في نفسه بشكـل يصبح من الصعب معه الحصول على معطيات ذات دلالة انفعالية ٠ انما نستطيع هنـــا ايضا ان نستشف مدى معاناته من شدة دفاعاته وتصلبها ومن فراغ حواره الصريح من السياق العاطفي الذي يصاحبه عادة عند عامة الناس ٠ ولهذا السبب فان اسقاطاته تكون اجمالا هزيلة على روائز الشخصية ، وهو يقف من تلك الوسائل حذرا اذ يعتقد فيهـا تجسسا عليه بقصد توريطه ٠

يتضح الامر جليا اذا طبقت عليه نفس الروائز بعـــد مدة كافية من الزمن شعر خلالها بالاطمئنان والثقة بالمؤسسة والقائمين عليها ٠ اجاباته تختلف الى حد بعيد من حيث غنى محتواها في المرة الثانية ، ولذلك لا يجوز التسرع بالحكم عليه بشكل قاطع من اول مقابلة ٠

اما الموقف من الجنـــح فهو مميز بدوره · يقـــف المنحرف اجمالا موقفا دفاعيا ، يخفف من اهمية تصرفاته ، او يضعها على عاتق الاخرين او الظروف او حتى اغواء الشيطان وضعف النفس الامـــــارة بالسوء · المهم الا يقف في وضعية المخطىء ، اذ في ذلك التزام تجاه الاخر بتصحيح الخطأ ، وهو يريد في هذه المرحلة تجنب كل التزام علائقي ·

وهكذا فالجانح الاجتماعي الذي تمرس بالانحراف يقف موقف الحذر من كل ما له صلة بالتعبير عن الذات او معاناتها ويقف موقف التجنب من كل مـــا يشكل رباطا مع الاخرين او التزاما نحوهم · يخشى ذاتـــه او ضعفها ويخشى الاخرين، ويحاول جاهدا ان يحتفظ بصلابته الظاهرية التي تشكل العاطفة اكبر تهديد لها ·

الا ان هذه الخصائص تختلف من حالة الى اخرى في شدتها تبعا لصلابة الدرع الطباعي التي تزداد بمقدار التحديات التي تجابهه خلال تجربته الجانحة من ناحية ، وبمقدار معاناته التاريخية من ناحية ثانية ·

وهكذا قد نجد على العكس من ذلك كله حالات يبدو انها تنفست الصعداء عندما وصلت الى مؤسسة التأهيل وكأنها وصلت شاطىء الامان · انها حالات عاشت الانحراف وما سبقه من معاناة اسرية تحت شعار العجـــز والاستسلام لظروف قاهرة · وهي تقف موقف المستنجد الذي يحـــاول استرضاء المسؤولين باذلة جهدها للتكيف مع نمط الحياة في المؤسسة ، معلنة امتنانها للظروف التي اوصلتها اليها ·

الا ان ذلك يحتاج لبعض الوقت ، اما في البداية فهناك تحفظ وترقب ، مع الاستعداد للانفتاح على الفاحص والتجـــاوب مع المسؤولين اذا انسى الحدث تشجيعا واهتماما · وقد يأتي الحدث الى المؤسسة في وضعية الضعيف الخائف الذي يفتقد الثقة بنفسه ويشعر بالدونية تجاه هذا العالم الجديد الذي لم يألفه قبلا ·

في هاتين الحالتين يكون التطور سريعا في اتجـاه الاندماج في المؤسسة والتقدم على مستوى الدراسة والتدريب المهني · ويسير الامر نحو غايته بيسر نسبي لا تعوقه سوى مآزم المراهقة او صعوبات نابعة من المحيط داخل المؤسسة او خارجها ·

اخيرا قد نصادف احداثـــا هم اقرب الى التكيـــف والسواء من حيث اتجاهاتهم نحو الفاحص والمؤسسة والعلاقات وماضيهم ٠ تتمتـــع شخصيتهم بتوازن معقول ، لا يحتاجون سوى اجراءات رعايـــة لم تتوفر لهم في محيطهم الاصلي ٠ وهم لذلك سرعان ما يستقرون ويتقدمون ٠ انحرافهم ليس اصيلا، او هو قد حدث لظروف قاهرة ٠ ورغم اضطراب الوضع الاسري والمحيط الاجتماعي موضوعيا يبدون وكأنهم افلتوا من مؤثراته الضارة بفضل روابط عاطفية ايجابية اتيحت لهم وحصنتهم ضد التشرد والانحراف ٠ او يكون في الامر نبذ او جهل من قبل الوالدين لم يستطيعا ان يقضيا على روابط ايجابية ضمنية امتن واكثر استمرارا ٠

ومن الجوانب ذات الدلالة في بحث حالة الجانحين الاجتماعيين امكانياتهم العقلية ٠ انها من اكثر الامور تضليلا للمرء ومدعاة للتسرع في اطلاق الاحكام الخاطئة ٠

يتميز الاداء العقلي اثناء الفحص وخلال التعلم المدرسي بالرداءة والقصور والهزال لدرجة يخيل للملاحظ معها انه بصدد احداث متخلفين عقليا ٠ والواقع هو كذلك ، الا اننا بصدد تخلف زائف في غالبية الحـــالات ٠ ان الحذر ورفض الانفتاح العلائقي في البداية يحد كثيرا من الدافع لبذل اكبر جهد ذهني ممكن ٠ يميل كثير من الجانحين الى السير على مبدأ الجهد الاقـــل كي لا يتورطوا من ناحية وكي يتخلصوا بأسرع ما يمكنهم من المهمة التي يعيشونها كعبء لا مبرر له من ناحية ثانية ٠ ولا يندر ان يعمم الاتجاه العدائي المعاند الى النشاط الذهني على شكل رفض للمهمات المطلوبة حين تطبيق روائز الذكـــاء ٠ الروائز ، أداة الاختصاصي النفساني (حليف السلطة التي تدين كمـــا يعتقد الجانح) ترفض كرفض محاولاته للنفاذ الى حياتهم النفسية الحميمـــة ٠ ولا بد للحصول على نتيجة مرضية عليها من الانتظار حتى يطمئن الحدث الى وضعه الجديد ٠

ومن ناحية اخرى ، حتى لو بذل جهده لاعطاء افضل ما يمكنه من اداء ، قد لا يحصل على نتيجة مرضية بسبب بقاء امكانياته العقلية قاصرة في نموهـــا على الصعيد المدرسي والنظري عموما٠ ينبع هذا القصور من عاملين اساسيين: الاضطرابات النفسية الناشئة عن اختلال التماهيات بصور راشدة متزنة كمـــا رأينا او عن حرمان عاطفي ، وقصور المدد الثقافي في المحيط المتخلف ٠ نتيجـــة لهذين العاملين مضافا اليهما فقدان المحفزات والتشجيـــع على نمو القدرات

العقلية ذات الطابع النظـــري المدرسي (لقلة اكتراث الاهـــل او سوء الوضع المدرسي) ، تظل الطاقات العقلية قاصرة على المستوى المجرد ولكنها تتوجــه على العكس الى النشاط الجانح · ولهذا فان الكثير من المنحرفين يتمتعون بذكاء اجتماعي جيد يمكنهم من سرعة ادراك الوضعيات الانسانية والحكم عليها ·

يتغير الامر بدرجـــات متفاوتة بمقدار استقرار الحـــدث واندماجه في المؤسسة مما يؤدي الى بروز طاقاته · ولا يندر ان يحرز بعضهم تقدما كبيرا في الدراسة والتدريب المهني ثم في الممارسة المهنية بشكل يفـاجيء اكثر التوقعات تفاؤلا · يحدث ذلك عندما يجدون البرامج التدريبية الملائمة والعناية التربويـة التي يحتاجون ·

٢ ـ الحياة داخل المؤسسة التأهيلية :

تجربة الجانحين الاجتماعيين داخل المؤسسة تتميز بنفس تنوع ردود فعلهم للفحص النفساني · منهم من يتكيف ويندمج بسرعة ، ويقيم علاقات ايجابية مع المربين ويتفاعل بشكل حسن مع الرفاق · هؤلاء هم الفئة التي ترى في اقامتها خلاصا لها · هناك فئة اخرى تتكيف بعد مدة من الزمـــن تمر خـلالها بفترة من التذبذب والتجاذب الوجداني · ذلك هو حال الذين انحرفوا نتيجة لمآزم اسرية عابرة وخصوصا اولئك الذين نمت شخصيتهم بشكــــل معقول رغـم الاوضاع الاجتماعية الصعبة ·

أما تلك الفئة التي ذهبت بعيدا في الانحراف وتمثلت الثقافة الجانحة ، وتلك التي تعاني من اضطرابات شخصية هامة نابعة من مرض الاســرة ورداءة المحيط فتصادف صعوبات كبيرة في التكيف · وهي تحتـــاج الى مربين يتحلون بالنضج الشخصي الكافي وبالبصيرة التربوية الملائمة ، اي مربين لا يستجيبون بشكل مرضي لردود الفعل المتميزة بالحذر والتجنب والاضطهـــاد التي يبديها الجانحون في البداية · كما تحتاج الى اطار مؤسسي له مميزات علاجية اكيدة وليست سطحية ، وتحتاج الى برامج تأهيليـــة ملائمة لاوضـاعها وامكانياتها الذاتية والاجتماعية · ومن الضروري ان نؤكد بشـــدة في هذا المقـام على ان مسألة التكيف لا ترجع فقط الى الصعوبات الذاتية للجانح بل هي تعود وبنفس المقدار ان لم يكن اكثر منه الى مدى ملاءمة محيط المؤسسة انسانيا وتربويا ·

معظم حالات الفشل التي تلاحظ في تأهيل الجانحين ترجع اسبابها الى

عملية تفاعل سلبي (يعزز الانحراف) بين مشكلات الحدث وردود فعل المسؤولين فلا يندر ان يستجيب هؤلاء لردود الفعـــل السطحية دون ان يذهبـــوا كما هو مفترض بهم الى ما وراءها ، الى الدوافع التي تحركها ، وتكون استجابتهم عادة متميزة بالميول النابذة الاضطهادية العقابية تتستر وراء حكم متسرع بعدم قابلية الحدث للتأهيل ، حكم يلقى اللوم عليه ناعتا اياه بالسوء والفساد · وقد يقوم المسؤولون بمحاولات لمساعدة الحدث ولكنهم لا يتحملون بشكل تربوي صحيح اضطراباته السلوكية التي تتخذ طابعا دوريا · وهكذا فكـــل موجة جديدة من الاضطراب تعزز حكمهم عليه ، وتزيد من شدة ميلهم الى التخلي عن مسؤولياتهم التربوية تجاهه · هذه الاستجابات من قبل المســـؤولين لا بد ان تؤزم اضطراب الحدث اذ انها تبرر ميوله الاضطهادية وقد تكرر صدماته العاطفية في الاسرة ، انها تدفع به دفعا الى قطع الصلة الايجابية بالمؤسسة وتلقيه في خضم الروابط التي نسجها خلال تجربته في المحيط الجانح · وهكذا فهو يهرب ، كي يعود او يستعاد عنوة ثم يهرب من جديد الى ان ينبذ بشكل صـــريح يسد أمامه كل باب للاستقرار ولا يترك له من منفذ سوى العودة الى حياته السابقة مثقلا بصدمات علائقية اضافية تزيد من حقده وغربته عن المجتمع وتبرر له تصرفاته العدوانية التي تتخذ في هذه الحالة طابع الدفاع المشروع عن النفس ·

مصير عملية التأهيل مرهون اذا بأمور ثلاثة : مدى انخراط الحـدث في التشرد والانحراف · فكلما كان انحرافه مبكرا تشكلـــت شخصيته بالاسلوب الجانح من الحياة الذي يخلق مقاومة كبيرة للتغيير فيما بعد · مدى ملاءمة جـو المؤسسة التربوي وبرامجها التأهيلية خصوصا في المراحل الحرجة التي تتصف بالضرورة بتجاذب وجداني شديد · ثم العنصر الثالث والاخير امكانية الحد من التأثير الضار للجو الاسري وللمحيط الاجتماعي السابق ·

على ان الاستقرار والتقدم لا بد ان يمر بالضرورة بفترة من الشك والحذر والتهرب يتمسك خلالها الحدث بالاسلوب الجانح من الحياة · ثم تعقبها فترة طويلة نسبيا من التجاذب الوجداني بين التكيف والانحراف وهي من اخطر المراحل عادة حيث نراه يستقر ويبذل جهدا مدرسيا ومهنيـــا طيبا ويحـرز تقدما مثيرا للتفاؤل ولكنه ينتكس من جديد ، يفقد رغبة في الدرس او التـــدريب ، يقـع في مشكلات انضباط او مآزم علائقية مع المربين او الرفاق ، قد يهرب ويجنح ، يصل الى حافة الانهيار · ثم تهدأ الامور فيعود الى الجهد والتقدم ثانية وهكذا · وخلال

ذلك كله يظهر الكثير من عدم الاستقرار بالنسبة للمشاريع المستقبلية · فهو تارة يريد ان يدرس وطورا لا يرى جدوى من الدرس بل يريد ان يعمل ويكسب بعض المال بسرعة ، وقد يعود الى الدرس من جديد · أما اذا انخـــرط في العمل فلا يتمكن من الاستقرار في مهنة محددة ، ينتقل من ورشـــة الى اخرى بحجة عدم التفاهم مع رئيس العمل او عدم ملاءمة العمل نفسه لامكانياته ورغباته · وينبع هذا التذبذب كما سنرى في الفصل القادم من أمرين اثنين : انعدام الثقة بالنفس من الناحية المهنية والاجتماعية ، ومقاومة التغيير في اتجاه التكيف ·

وتتميز العلاقة بالمربين بنفس التجاذب الوجداني مارة بحركة من التقارب الشديد والصراع وقطع الصلة ثم تقارب جديد او تحول الى علاقة مع مرب آخر· وقبل سيادة العلاقات الايجابية مع الآخـــرين ومع المحيط اجـمالا يمر الجانح بتجربة انفصام العلاقة تجاه مختلف الاشخاص · فهو يتحالف مع احدهم ويعلن الحرب على الآخر ، وهو يمجد لاول ويحـــط من قدر الثانـــي · تنفصم الصور الوالدية اللاواعية بشكل قاطع (صور سيئة وصور جيدة مرحبة) وتسقط الاولى على شخص والثانية على آخر ، فيكتسب الاول دلالة سلبية قاطعة والآخر دلالة ايجابية قاطعة · وهكذا يعجز الجانح في هذه المرحلة عن ادراك الآخرين بشكل واقعي (لكل انسان حسناته وسيئاته) مما يجعـــل اقامة علاقات ناضجة أمرا عسيرا عليه · وهو لا يستطيع الاندماج الاجتماعي الا عندما يتوصل الى الواقعية العلائقية · وهنا ايضا يكمن خطر كبير في ان يستجيب المربون او المسؤولون عنه بشكل مرضي لاسقاطاته مما يؤدي الى تعزيزها ويحرمه فرصة اختبار الواقع وتصحيح عواطفه تبعا لذلك ·

٣ ـ الحياة النفسية الداخلية :

أشرنا الى المحاولات الدفاعية التي يقوم بها الجانح في بداية اقامته في المؤسسة التأهيليـــة ، ورأينا انه يتحصن خلف نوع من الدرع الطباعي او جلد التمساح تجنبا لبروز معاناته لداخلية · يستمر الامر كـــذلك فترة متفاوتة في مداها يدرك صعوباته خلالها بشكل اسقاطي حيث يتهم المحيط بأنه المسؤول عن متاعبه : النظام ، المربين ، لرفاق ، برامج الدراســـة والتدريب الخ ··· فاذا اشتدت عليه وطأة مآزمه الداخلية ، وهو ما يحدث غالبا بمقدار تراخي الدرع الطباعي من خلال اقامة علاقات ايجابية مع المسؤولين ، يحتمي بالمرض الجسمي كوسيلة لا واعية تحفظ له توازنه الداخلي · من خلال المرض يستطيع ان يظهر

ضعفه من ناحية وحاجته الى العلاقة من ناحية ثانية بدون ان يفقد الطمانينة التي يمده بها درعه عند اللزوم • ويستطيع اضافة الى ذلك ان يتخذ من مرضه وسيلة لشن الحرب على المسؤولين (الذين يقصرون ويتجاهلون) في حالة من ازاحة المشكلة من الاهل الى المؤسسة •

يشكل اللجوء الى المرض ، او الهروب ، او الاصابة بالحوادث المرحلة الانتقالية بين الموقف الحذر الاضطهادي وبروز المعاناة الداخلية وطلب المساعدة لمجابهتها • في هذه الفترة يعاني من صعوبات في نومه تتفاوت ما بين الارق والاحلام المزعجة او الكوابيس • ويدل ذلك على قرب تراخي جلد التمساح (انعدام الاحساس بالمعاناة) ولو انه لا زال يتصرف على هذا الاساس خلال تفاعله اليومي مع الآخرين• تدور معظم هذه الاحلام حول موضوعات اضطهادية: نزاع ، اقتتال ، دماء ، مطاردة • وهي تعكس مدى الاضطراب والقلق الذي يصاحب الصور الداخلية التي تمثلها عن الاهل وعن العلاقات الاسرية ، كما تعكس في الآن نفسه الشحنات العدوانية الكبيرة التي ولدتها تلك الوضعية ، كرد فعل على ما عاناه من خوف من ناحية ومن احباط من ناحية ثانية • يحدث تحول واضح عادة في الحالات التي تسير نحو التكيف اثناء البلوغ • المراهقة من المراحل الصعبة في حياة هؤلاء الجانحين • تتضخم خلالها مآزمهم بشكل غير مألوف وتنصب على الحياة الجنسية • ولذلك فهم ينخرطون في استمناء مفرط يتخذ احيانا طابعا قهريا • يأخذ الامر طابع العبث والبحث عن اللذة في البداية ثم سرعان ما يتحول الى عبث يقض مضجعهم ويثير قلقهم والواقع ان هذا القلق المبالغ فيه حول تكامل الجسد والنفس الذي يثيره الاستمناء المفرط يرجع في قسم كبير منه الى قلق مرضي سابق على البلوغ ، يتسرب من خلال مشكلة الاستمناء او من خلال المرض الجسمي سواء بسواء • ويساعد الجهل بالامور الجنسية عادة على زيادة حدة هذا القلق • في هذه المرحلة يبدأ الحدث في البحث عن حل وسند في علاقات ايجابية يقيمها مع المسؤولين • يأتي لمقابلة الاختصاصي النفساني بحثا عن وسيلة تضع حدا لاستمنائه او احتلامه الليلي او احلامه المرعبة او ارقه • وهكذا تتغير العلاقة الى عكس ما كانت عليه في البداية • تلك لحظات ملائمة جدا للعمل العلاجي واعادة بناء الشخصية • ولكن هذا التطور ليس واضحا عند الجميع ، فهناك من يحول قلقه الجنسي الىممارسات لواطية تهدف الى بث الطمانينة والشعور بالقوة في نفسه اكثر مما تهدف الى المتعة المنحرفة وقد تشكل هذه الممارسات عقبة في وجه التطور السليم ، اذ تخفف من حدة القلق وتدعم الدرع الطباعي من خلال وهم القوة التي تعطيها للحدث •

تصل المعاناة الذاتية اقصاها في الوعي على مأســـاة الاسرة • ينصرف الجانح عن اسرته خلال مرحلة الكمون حيث كان الدرع الطباعي في اوج قوته ، يهرب من البيت ، لا يهتم لقلق اهله عليه او لنبذهم اياه يجد في اللهو والعبث والمغامرات والصحبة الجانحة تعويضا وسلوى عن الآلام المعنوية التي ولدتها في نفسه حياة الاسرية • كما يجد في الاستهلاك المادي والاستمتاع بثمار جنحه تعويضا عن الحرمان العاطفي • ويستمر الامر كذلك طالما بقي الحدث طليقا •

عندما يدخل المؤسسة التأهيلية قد يستمر في انصرافه عن اسرته ، لا يتذكر من تجربته فيها الا ما كان يتمتع بـــه في الخـــارج من امكانيات اللهو واللذة المادية ، او ما كان يناله من ذويه من غنم • ولكن الاغلب هو بروز تعلق بالاهل وشوق اليهم ، وترقب لزيارتهم وانتظار بفارغ الصبر لمأذونيته تعطى له كي يذهب اليهم • وقد يتخذ من هـــذا القلق وسيلة لمحاربـــة المؤسسة واتهام القائمين عليها بتجاهل حاجاته • يبالغ مثلا في تضخيم مشكلة صغيرة حدثت في الاسرة ووصلت اصداؤها اليه او في اهمية مناسبة ما ، كي يلح في طلب مأذونية ، فاذا لم يلق الاستجابة المبتغاة تنفجر ثورته على المؤسسة مسقطا عليها كل مأساته فتكتسب عندها دلالة تجسيد بؤسه كله • وقد يهدد بالهروب او بافتعال مشكلات سلوكية ولكن الملفت للنظر انه عندما يهرب بعض هؤلاء بحجـــة المنع عن زيارة الاسرة لا يذهبون لزيارتها والاطمئنان عنها بل للقاء الجماعة الجانحة • على ان هناك من يهربون فعلا بقصد الاطمئنان على الاسرة •

يتخلى الواحد منهم عن التزامه تجاه المؤسسة لمصـــلحة الاسرة فاذا به يعود الى الانحراف ناسيا الاثنين معا • وقد يكـــون وراء هذا التعلق الفجائي حاجة دفينة للاحتفاظ بوهم الانتماء الذي يحميـــه من قلق الضياع في المرحلة الانتقالية (لم يندمج بعد في محيط المؤسسة وهو بعيد عن الاســـرة وبعيد عن اندماجه السابق بالمحيط الجانح) ، ذلك القلق الذي يضعه امام العدم ، أمام خطر الفناء نتيجة الوحدة •

يتحول التعلق بالاسرة تدريجيا في حالة التطور الايجابي من تعلق دفاعي الى التزام مستقبلي بها وقلق على افرادها يبدأ الحدث برؤية دور له في دعمها (خصوصا الام والاخوة الصغار) • ويتخذ هذا الالتزام شكل الرغبة في انجاز تقدم مهني فعلي يهيء امكانيات حقيقية له كي يوفق به • انما هو يبالغ في غيريته في البداية حيث يود ان يقدم كل مايكسب لذويه • ان في هذه المبالغة الاولية نوع من رد الفعل التعويضي الذي يهدف الى اصـــلاح خطأ وهمي لاواع يعتقد انه

ارتكبه بحق ذويه ، حيث تتحول نواياه العدوانيـة واحقاده الطفلية النابعة من الاحباط الى مشاعر ذنب وولاء في المراهقة وهـو تحول ايجابي بلا شك يفسح السبيل امام الرغبة في تصحيح السيرة الجانحة (التي تحمل معنى الاحتجاج على الاهل اصلا) من خلال اندماج اجتماعي ايجابي ، فهو يتصالح مع المجتمع من خلال تصالحه مع الاسرة نفسيا وعلائقيا ٠

على ان الامور لا تسير في خط مضطرد على هذا الشكل على الـدوام ٠ خط التكيف في غاية التعرج، والانتكاسات عديدة حتما ف يالحالات الصعبة ، وكل انتكاسة تحمل خطرا كبيرا بانهيار عملية التكيف كليا ٠ ولا بد ان يلقى الحدث مساعدة ملائمة في تلك اللحظات الحرجة اذا اردنا له الوصول الى شاطىء الامان ٠ فالتكيف ككل نمو فعلي يتضمن ازمات تقع عـلى الراشدين مسؤولية كبيرة في مساعدة اليافع على تجاوزها والاستفادة منها ٠ والامر كله رهن في النهاية بتوفر اطاراجتماعي يوفر شروط النمو السليم ٠

نستعرض الآن حالة واحدة لتطور الحدث في المؤسسة التأهيلية يمكن ان تعتبر تمثيلا لنسبة كبيرة من حالات الانحراف الاجتماعي ، هي حالة كامل ٠

كامل هو الولد البكر للاسرة الثالثة التي عرضنا حالتها في هذا الفصل (اسرة بائسة اقتصاديا وثقافيا وبشـريا واب جانح) ، مر خـلال اقامته في المؤسسة بمراحل متعددة من التطور كما يتضـح من ملاحظـات الاختصاصي النفساني ٠

الملاحظة الاولى

كامل ٠٠٠ حدث بدائي ، غير متمايز ، منغلق على نفسـه ، يعيش في عالم ذاتي ، عاجز عن التعبير عما يجول في ذهنه ، يصعب عليه الحوار مع محدثه ٠ يخرج عن تحفظه مع بعض التشجيع ، انما لايقيم علاقة ، ويظل غريبا عمن حوله ٠ يتكتم حول الامور ذات الشخصية الخلقية الشديدة ٠ يشكو كثيرا من الاستمناء ٠ غير مرتاح للاقامة في المؤسسة، ولكنه لا يستطيع ان يعرض شكواه ويبررها باسلوب متماسـك ٠ لا يندمج مع رفاقه ، لا يشارك في النشاطات المختلفة ٠ يتذبذب في ادائه المدرسي ٠ تمر به فترات ضيق فيتراخى، ثم يعود الى بذل بعض الجهد ٠

يتحدث عن ماضيه ومغامراته بسرعة ، وكأن هناك صيغة حفظها لتكرارها حين الطلب· لايبدو عليه التأثر لسلوكه الجانح ، ولا للحكم الذي صدر بحقه · يبدو كمن لا يدرك تماما خصائص وضعه وابعاده ·

متعلق بأسرته ، يفكر فيها مساء مما يسبب له ارقا شديدا ·

امكانياته العقلية محدودة اجمالا · عاجز عن تنسيق معطيات وضعية ما بشكل متماسك ومنطقي · ادراكه يفتقر الى الدقة · يفتقر الى الدافع الفعلي لابراز امكانياته · يبدو كمن ترك نفسه للظروف تسيره كيفما آتفق ·

يعاني كثيرا من وضعه الاسري كما يظهر من رسوماته : فقر ، انحطاط ، عجز الام ، مرض الاب · يهتم لصورة الام كثيرا ويميل الى نبذ الاب في لا وعيه· يتمنى في دخلية نفسه استبدال اسرته باخرى شابة ، مرموقة وسعيدة حيث ينعم الابناء بعناية واهتمام الوالدين·

اننا بصدد حدث بدائي وشبه متخلف ، يحتاج الى آلتربية وبناء حياته من جديد على جميع الاصعدة · لا بد من توجيه اهتمام كاف اليه حتى لا يظل عنصرا مغمورا ، ولمساعدته على الاندماج في الجماعة ·

الملاحظة الثانية

اكثر انفتاحا مما سبق ، انما لا يخرج الا بصعوبة عن تحفظه المعتاد · لا زال يتجنب المسؤولين ، لم يقم بعد صداقات متينة مع آلرفاق· لا يبدي حماسا كبيرا في التدريب المهني· مزاج متقلب · من الضروري مساعدته للخروج من تحفظه كي يتمكن من الاندماج اجتماعيا·

الملاحظة الثالثة

يائس ومشمئز · يعزف عن التدريب اثر خلاف مع الاستاذ · لا يحاول ان يبذل الجهد اللازم للنجاح · يبدو لا مباليا تجاه مستقبله ومسؤولياته العائلية ·

الملاحظة الرابعة

هادىء ومستقر حاليا · يبـذل بعض الجهد · يفكر بمستقبلـــه · يقـدم على بعض الافعال الصبيانية ، ولكن يبدو أنه بدأ السير على طريق التكيف · صحتـــه جيدة جسديا

ونفسيا · خجول نسبيا من وضعيته العائلية ، مما يشكل مؤشرا ايجابيـــا · ينفتح ويقيم صلة مع الراشد · يستجيب للتشجيع ·

الملاحظة الخامسة

متقلب المزاج مما يؤثر على علاقاته مع رفاقه · يتفاهم معهم ويمازحهم ولكنه يتخاصم ويغضب عندما يكون متوترا · كذلك هو حاله في التدريب المهني ·

يعاني من مآزم نفسية تدور حول أمرين : الاسرة والقلق على مصير اخوته الصغار خوف ان يتعرضوا لسوء دون أن يتمكن من حمايتهم ، ومتاعب البلوغ والمراهقة · ينزعج كثيرا من احتلامه المركز حول آنسة اهتمت بأمره اجتماعيا فيما مضى · يرى فيذلك خيانة وعملا لا يليق (ازاحة المشاعر حول الرغبات الآثمة من الام الى تلـــك الفتاة) · كأن في الاحتلام تغرير غير مقبول بها · او اساءة اليها يتبعه تخل عنها بعد استغلالها مما يسبب لها مصيبة · لا يجوز في رأيه القيام او حتى التفكير بنشاطات جنسية من هذا القبيل (ولو في الحلم) قبل الزواج · يصرح بكرهه المزمن للبنـــات وتجنبهن ، حتى محـاولة المساعدات الاجتماعيات للاحتكاك به والتواصل معه كانت تثير غضبه ·

يود لو تخلص من هذه الامور ، ولكنه لا يجد الى ذلك سبيــلا · يتحفـــظ كثيرا في الحديث عن النشاطات الجنسية ناعتا اياها بالامور الرذيلة بحاجة الى مساعدة نفسانية لاجتياز ازمة البلوغ ، التي ترتبط على ما يبدو برغبات آثمة لا واعية ·

تظهر لنا هذه الملاحظات السريعة عن وضـــع كامل النفساني في مراحل مختلفة من عملية تأهيله ، الخط المتذبذب الذي يمر به تطور الجانح فهو بمقدار ما يبتعد تدريجيا عن قناعه الاولي الذي يضلل الباحث اذا وقف عنده يتقدم نحو نوع من المعاناة النفسية تقرب من حالة المآزم العصابية خلال المراهقـــة · وفي هذا التحول تبرز العلاقات الايجابية ، وتتفتح آفاق المستقبل بشكل متردد في البداية ، يرى الحدث دورا له في النهوض بأسرته يبدو له الماضي مثار قلق يخيفه فعلا ، انه يخشى عودته والوقوع في نفس التجربة السابقة ومن هنا التوتر والارق الــذي يعانيه في مرحلة لم تترسخ بعد قدماه على طريق التكيف ولم تتوطد آفاق المستقبل بشكل اكيد · وقد يزداد القلق لدرجة يدفع به الى القاء نفسه فيمـــا يخشاه ، فيهرب من المؤسسة للالتحاق بالمحيط السابق اثر خلافات مع المسؤولين او فشل في التدريب ·

هذه الازمات قد تكون لها نتائج خطيرة وحاسمة عـلى تكيفه اذا لم تقابل بالتفهم الكافي واذا لم يجد الحدث الدعم الملائم اثناءها من المسؤولين · على ان الامر لا يتخذ بالضرورة شكلا مضخما ، بل قد يقتصر على فترات من التشاؤم

والتراخي والخور تتخلل حياته التي تسير بخطى بطيئة نحو الاندماج الاجتماعي • على كل حال تتغير الصورة تدريجيا مارة بمرحلة طويلة نسبيا من تواجد القوى الفاعلة في ماضيه والاواليات النفسية المقابلة لها مع علائم التطور والتغيير ولا بد للامر ان يأخذ مداه ، ومن هنا خطر التسرع في الحكم على تطوره أيما كان هذا الحكم •

ملاحظة اخيرة حول ازمة البلوغ لدى كامل ، بعد مرحلة من الاهتمامات الجنسية المفرطة (استمناء ، سبقته ممارسات لواطية) التي لم تكن تثير قلقه ، مر ، شأنه في ذلك شأن العديد من الاحداث الجانحين بفترة من التزمت الخلقي الشديد معلنا الحرب على نزواته ورغباته الجنسية • يشير ذلك الى تحول اكيد في مسار الانا الاعلى • فبعد ان كان يمارس ساديته مسقطة على الخارج على شكل علاقات اضطهادية اذا به يتحول الى نوع من الندم او الشعور بالاثم القائم اساسا على الالتزام تجاه الآخر ، الآخر الذي يجب حمايته والحفاظ عليه • يدل هذا التحول على تغيير جوهري في اقتصادية التوظيفات الحيوية على اعمق المستويات النفسية من ابرز خصائصه لجم جماح العدوانية البدائية وتقنيتها في اتجاه اقامة روابط ايجابية فعلية مع الآخر • وندرك اهمية هذا الامر اذا علمنا ان احد ابرزخصائص الجانح الفعلي من الناحية النفسية هو انعدام الالتزام تجاه الآخر • الواقع ان ليس هناك تكيف حقيقي اذا لم يحدث هذا التحول من العلاقة السادية الاضطهادية الى الالتزام الذي يصون الآخر ويحدد الذات ايجابيا من خلال التفاعل معه •

قد تبدو المعاناة الداخلية لهذا الحدث قريبة من تلك التي لاحظناها عند الجانحين العصابيين • وقد تقبل تفسيرات هي اقرب الى دينامية الصراع العصابي • هذا واقع صحيح الا ان العصاب في تقديرنا يختلف كثيرا عند الجانحين عنه عند الناس العاديين • ومن المرجح ان الاطار الاجتماعي والتجربة الاسرية في هذه الحالة تعطي لدينامية واقتصاد الحياة النفسية واضطراباتها مميزات تختلف عن مثيلتها عند العصابي الذي يعيش في بيئة جيدة • ما يمكن قوله هنا بشيء من الثقة هو عدم وجود اختلافات جوهرية على مستوى الدينامية النفسية الداخلية بين الجانح العصابي والجانح الاجتماعي الذي يعاني مآزما نفسانية شديدة • الفروق الملاحظة تدور اجمالا حول الشكل الخارجي الذي يأخذه الاضطراب وحول سيادة احدى القوتين (النفسانية او الاجتماعية) في عملية التفاعل الجدلي بينهما •

الفصل الثاني عشر

خصائص الوجود الجانح

نحاول في هذا الفصل ان نرسم صورة للجانح اللبناني ، نحدد فيها الخصائص الاساسية لوجوده والملامح العامة لشخصيته · تستند محاولتنا هذه على المعطيات التي تقدمها لنا الممارسة العيادية اكثر مما تستند الى بحث استقصائي يعطي نتائج احصائية نظرا للصعوبات المنهجية الجمة التي يطرحها علينا ذلك البحث بشكل يجعل النتائج المستخلصة مشكوكا في صحتها · أما الممارسة العيادية فهي ذات طبيعة علاجية أساسا (العلاج هو الوسيلة الفضلى للفهم) تمكننا من الغوص في عالم الحدث الجانح ومرافقة حركته وتذبذباته بما فيها من معاناة وتقدم وتراجع خلال فترة كافية من الزمن يقطع فيها شوطا كبيرا نحو التكييف او هو يتعثر ويغرق في مأساة الانحراف · ان الميزة الاساسية لهذه الطريقة تكمن في تجاوز ظواهر الامور التي تكون دائما مدعاة للتضليل نتيجة للتسرع في استخلاص النتائج واطلاق الاحكام انها تمكننا من الغوص في عالمه الحميم الذي يختلف كليا عن الانطباع الاولي الذي نكون عنه مهما كانت دقة الاداة المستخدمة في ذلك · انما يعيب هذه الطريقة انها تبدو اعتباطية احيانا تفتقر الى السند الكمي · الا ان طول الممارسة العلاجية مع مختلف الفئات التي عرضنا لها في الابحاث السابقة تسمح لنا بدون كبير شطط ان نرسم الصورة التي نهدف اليها · انها بالطبع عامة تعرض ما هو مشترك ، ولذلك فلا بد من الاخذ بعين الاعتبار عند بحث الحالات الخاصة احترام المعادلة الذاتية لكل جانح · فالواقع المعاش هو باستمرار اكثر غنى وحياة من اي تعميم· وقد يلاحظ القارىء بعض ملامح الصورة تتلاقى مع ما قد يرد في المؤلفات الموضوعة عن الاحداث الجانحين في العالم الغربي ، وبعضها الآخر يتلاقى مع خصائص الجانحين في البلدان النامية · كما ان هناك ملامح قد نستطيع القول بنوعيتها عند الجانحين اللبنانيين ، ذلك كله طبيعي ومتوقع ·

ان المعطيات التي استندنا اليها تقتصر على المنحــــرفين الذين اقاموا في مؤسسات التأهيل فترات طويلة نسبيا وكان لهم تاريخ مثقل بالانحراف قبل تلك الاقامة واثناءها · هنالك فئة من هؤلاء وصلت مستوى الاحتـــراف ودخلت في عملية الوصم الاجتماعي الى حد بعيد ، ونعني بها فئة الجانحين الشبان الذين مروا او لا زالوا يمرون بتجربة السجن لفترات متفاوتة في مـــداها · لا شك ان وجودهم يتميز بخصائص تختلف بمقادير متفاوتة عن الصورة التي سنرسمها ولذلك فلايمكن الادعاء انها تعكسه بدرجة كافية من الدقة · يمكن رسم ملامح الوجود الجانح من خلال بحث الجوانب التالية :

اولا ـ الحياة الاجتماعية والعلائقية

ثانيا ـ البنية النفسية ·

ثالثا ـ الاواليات الدفاعية ·

رابعا ـ مؤشرات الخطورة ·

اولا : الحياة الاجتماعية والعلائقية

يبدى الحدث الجانح تجاذبا وجدانيا واضحـــا في موقفه من الحيـــاة الاجتماعية ، ومن الانغراس الاجتماعي · فهو يتذبذب ما بين الشعور بالغـربة الكلية عن تلك الحياة وبين ابداء التقارب المفرط من الآخرين والامتثال الشديد للمعايير الاجتماعية · تمر لحظات يكون فيها اشبه بتلميذ مدرسة نجيب حسن التهذيب ، يبدي الكثير من الحياء والعواطف الرقيقة الصادقة التي تقربه مـــن محدثه ، ويبدو عندها وكأنه استقر وترسخت قدماه في التكيف · وقد ينخـدع القائمون على شؤونه بذلك كله فيعتقدون أنهم نجحوا نهائيا في جهودهم معه · ولكن لا تمضي فترة طويلة حتى يقع في مآزق سلوكية أو علائقية ، وسرعــان ما يتبدل الامر رأسا على عقب ، يبدو غريبا ويظهر الغربة عمن حوله ، حتى عن اكثر من كانوا قربا منه عاطفيا · وتعود اساليبه العلائقية والسلوكية الجانحة الى البروز لدرجة يبدو معها وكأنه لم يتعرف على أحد في المؤسسة · يغرق في العزلة الاجتماعية وقد يظهر العداء الصريح للاخرين الذين كان يحرص علــى مودتهم أيما حرص ويبذل من اجل الحصول عليها أيما جهد · يتحول الحياد الى فظاظة ، وتتحول العواطف الرقيقة الى مشاعر اضطهاد عدواني للاخـــرين ، ويتحول التقدير الذي ابداه لهم الى اتهام وادانة · ويتخلى عن كل ما يبذله من جهد للحصول على مكانة تتميز بالاعتبار ، يتخـــلى عن انجازاته في الدرس

والتدريب المهني ويسقط خططه للمستقبل وكأنها لم تكن . خـلال هـذه الازمة يطغى عليه التوجه نحو حياته الماضية وارتباطاته الجانحة ، وقد يهرب كي يعود سيرته الاولى . اما اذا مرت الازمة بدون تفاعلات مضرة فانه يهدأ تدريجيـا ويعود الى سابق وده وحياته وتعاطفه وتقربه وتوقـه الى المكانة الاجتماعية اللائقة وكأنه قد استيقظ من كابوس ، ويكون أول المندهشين لما مر به .على أن هذا التجاذب ما بين الغربة والتقرب ليس متساويا في قطبيه دائما . في البداية تطغى الغربة ولا يظهر من بوادر التقرب الا لمحات سريعة في مناسبات خاصة جدا . اما في نهاية اقامته فان قطب التقرب والشعور بالانغراس الاجتماعي هو الذي يطغى مما يجعل الازمات تبدو كأحلام مزعجة .

ويظهر الجانح تجاذبا على مستوى آخر هو النظرة الى الذات من الناحية الاجتماعية . يعاني الحدث المنحرف ممـا يمكن ان يسمى بعقدة الدونيـة الاجتماعية . فهو يفتقد الثقة بنفسه وبقدرته على الاندماج الاجتماعي والوصول الى مكانة لائقة . ولكن يتوق الى ذلك بشدة في دخيلة نفسه . الا ان احساسه بالعجز عن بلوغ تلك الغاية يجعله يقمع توقه ، ويتمسك بالحياة الجانحة بشكل يجعل من هو على معرفة بعالمه الذاتي يعتقد أنه يحتمي بتلك الاتجاهات المنحرفة من الفشل الذي يخشاه ايما خشية ويسبب له أكبر الالام المعنوية . يظهر ذلك من مقاومته للبرامج التي تقدم له ، يرفض الدرس بحجة أنه لم يرغب يوما فيه، يرفض التدريب المهني لانه (في رأيه) لن يستفيد منه في حياته المقبلة . ويصل رفضه درجة من الشدة يخيل معها للاخرين انه عاجز فعلا عن احراز تقدم ما في هذا المضمار او انه ميؤس منه ولا مجال لخلق دافع لديه. ولكن الواقع ان رفضه وتهربه ليسا في كثير من الحالات الا وسيلة لتجنب آلام الفشل . انه يحس في دخيلة نفسه بعـدم القدرة وعـدم الجدارة ، لن يصـل يوما الى الحصول على احترام الآخرين او تحقيق تقدم يرضيه ويعيد اليه اعتباره الاجتماعي. وقد تشتد هذه المشاعر لدرجة يسيطر معها اليأس عليه ، فيدع نفسه يغرق في النشاطات الجانحة ، المجال الوحيد الذي جرب قدراته فيه . وهو في ذلك كله يبخس ذاته ويحط من امكانياته التي تكون معقولة . وعلى العكس من ذلك نراه في فترات غيرها يكاد يخرج من جلده فرحا لنجاح حققه ولم يكن يتوقعه. يعتز ساعتها بما احرز من تقدم ويبالغ في تفاؤله وفي ثقته بنفسه لدرجـة تقرب من التضخـم الذاتي . يخطط للمشاريع الكبيرة يتجاوز في طموحه امكانياته العقلية . يعلي من شأن الميدان الذي استطاع تحقيق النجاح فيه ويصرح أنه كان يرغب دائما بالقيام بعمل كهذا وأن مستقبله هو حتما في ذلك الاتجاه . ويبدو عندها وكأنه

قد ترك الى الابد حياته الماضية واهتماماته الجانحة ، أو كأنها لم تكن سوى كبوة على الطريق · يبدو له المستقبل مليئا بالامال والامجاد ، ويصرح انه وعى مصالحه ، وان الاوان قد ان كي يتخلى عن طيش الطفولة ·

ولكن التشاؤم واليأس يسيطران عليه من جديد عندما تجابهه بعض الصعوبات التي لايمكن ان تخلو منها دراسة أو تدريب · فنراه يتراخى ويرغب عن الدرس أو التدريب ويصر على الانتقال الى نشاط اخر · أو هو ينخرط في فترة من الاضطراب ، تسوء معها علاقاته ، ويبدو كمن يبحث عن ازمة تسبب له التحقير والحط من شانه· وقد تطفو ميوله الجانحة من جديد (كحماية من آلام اليأس وتوقع الفشل) · أو هو يحتمي بوهم القناعة بقدر محتوم فرض عليه أن يظل خارج اطار الحياة اللائقة · ذلك كله مدعاة لدهشة الملاحظ غير الخبير الذي يمكن ان يستجيب بشكل غير ملائم مدعما هكذا الميول السلبية عند الحدث، او هو قد يتهمه بسوء النية وحتى نكران الجميل اذا نظر الى تلك الازمة كتفشيل لجهوده ورفض شخصي له · وقد يستجيب لذلك بالنبذ الصريح او الاهمال أو اليأس من امكانية مساعدة هذاالحدث الذي لا يجدي معه جهد · ولهذه المواقف اذا أبداها المربي أو المسؤول نتائج خطيرة على عملية التاهيل لانها تدعم الوصم الاجتماعي ·

يستمر هذا التذبذب مدة طويلة من الزمن مسببا المعاناة والكثير من خيبة الامل والحيرة للحدث وللمربي على حد سواء · ولكن الامر يرجح ناحية بروز الثقة بالنفس وتجاوز عقدة الدونية تدريجيا بمقدار ما يحرز من نجاحات · إنما تظل هذه الثقة هشه ويظل الحدث معرضا للانتكاس لفترة كبيرة طالما لم ينغرس في الحياة الاجتماعية والمهنية الفعلية ويرى ثمار جهده اكيدة ، وهو امر يستغرق عدة سنوات من الجهد والرعاية يحتاج الحدث خلالهما الى دعم أكيد ومساندة لا تعرف التراخي ·

ويحسن ان نشير هنا الى ان الرغبة في التكيف والانغراس الاجتماعي عند الحدث الجانح في لبنان ، اذا لم يسير شوطا بعيدا في الانحراف ولم يتعرض لعملية وصم اجتماعي ، موجودة دائما بدرجات متفاوتة من الشدة والبروز · قد تكون موجودة على مستوى الرغبة الأكيدة في الحالات العادية ولكنها لا بد ان توجد على مستوى النية (ولو لم تكن فعالة) او على مستوى الامل على الاقل · والميل الى التكيف يحتاج لظروف أجتماعية وعلائقية وتدابير تأهيلية ملائمة كي يظهر ويتدعم · ولقد اثبتت التجارب التربوية أن وضع برامج

ملائمة لهؤلاء الاحداث وامكانياتهم ضمن اطار تربوي ونفساني مناسب يكشف عن مدى رغبتهم في التكيف • انهم يتحولون من جانحين أو متشردين غرباء عن الانغراس الاجتماعي الى أحداث لا يختلفون في شيء عن طلاب المدارس المهنية الابتدائية، طلاب يبدون الكثير من الرغبة ويبذلون الكثير من الجهد ويتحولون ليس فقط على مستوى تطلعاتهم وانما أيضا على مستوى اتجاهاتهم النفسيةالعميقة في اتجاه التكيف الاكيد • يؤيد هذا الواقع رأي العديد من العاملين مع الاحداث الجانحن من نوي الخبرة الذين يقرون انمشكلة الانحراف في لبنان هي الى حد كبير مشكلة تجهيزات وان تامين هذه التجهيزات ووضع التشريعات المناسبة لحماية الطفولة كفيل بحل القسم الاكبر من المشكلة •

درجة الانتماء عند الحدث الجانح في لبنان كبيرة اجمالا • فهو يعترف بالقيم والمعايير الاساسية التي تحكم سير الجماعة والعلاقات بين الناس • وهو يتقبل السلطة الفعلية اذا ابدت الحد الادنى من القبول له والتفهم لوضعه • وهو يتجاوب مع ضغوطها ومتطلباتها اذا أحس أنها تمارس فعلا من موقع الاهتمام به • يبرز هذا الانتماء بسهولة عندما نتحدث اليه مستثيرين كبرياءه الاجتماعي ومؤكدين على اللياقات الحياتية • انه يبدي حساسية مفرطة لتلك الوضعيات ويظهر انفتاحا أكيدا على محدثه • يبدو ذلك أيضا أثناء الاحتكاك بالغرباء الذين يزورون المؤسسة حيث يلعب الاحداث دور تلامذة المدارس الذين يتمتعون باخلاقيات اجتماعية عالية ، كما يظهر حياؤهم واضحا عندما يزورون مؤسسات تتمتع بسمعة اجتماعية لائقة • تشير هذه التصرفات والمواقف الى وجود ميل حقيقي للانتماء الاجتماعي ويكون الحدث خلال تلك اللحظات صادقا كل الصدق وكأنه قد نزع عنه جلد الانحراف الذي يظهر به عادة •

ولا يلاحظ الباحث المتعمق الا نادرا ظاهرة ازمة الاجيال أو صراع الاجيال ، او الهوة بين الاجيال التي تلاحظ في البلدان الصناعية • ان الجانح اللبناني يشعر بالارتباط بالكبار ، ويحترم العلاقات بين الاجيال ، يحترم قيم الامومة والابوة والبنوة والاخوة ، ويعترف بالمرتبية الاجتماعية ، بصرف النظر عن سلوكه الفعلي في حياته اليومية • وقد يرجع هذا الامر الى نوع البنى الاجتماعية السائدة في المحيط الذي ينشأ فيه حيث يكون الرأي العام نشطا ودرجة الانتماء الى الحي والبيئة المحلية والجيرة كبيرة ونظام القرابة واسعا يصل حد تعميم سلطة الاقارب المباشرين الى الابعدين والى كل من هم من نفس الجيل في الحي • ولهذه ميزة اكيدة في تسهيلعملية التأهيل والانغراس

الاجتماعي اللاحـق حيث لا ينشأ الطفل مطلقـا في اطار مغلق من العزلـة الاجتماعية ٠

الانتماء الاجتماعي والامكانيات العلائقية هي بلا شك اقل اضطرابا عنـد الاحداث الجانحين في لبنان عنها في البلدان الصناعية ٠ الا ان ذلك لا يمنـع الانحراف وانتشاره بشكل مقلق ٠ ولكن هذا الانحراف لا يمارس عـادة ولو وصل حد الاحتراف ضد الانتماء وضد احترام السلطة المتفهمة وحربا عليهما ، بل هو يمارس بمعزل عنهما ٠ لا يضع الحدث الجانح مطلقا تلك القيم موضع الشك او الرفض على المستوى النفسي ، انما يبدو أنها تظل في بعض الحالات غير فعالة بما فيه الكفاية لردعه عن الانخراط في ذلك الاسلوب من الحـياة ٠ اننا بصـدد نوع من الازدواجية الوجودية يطلق عليهـا ردل اسم الانـا الاعلى غير الفعال ٠ يبدو ان قطاعات الشخصية المختلفة (قطاع القيم والمعايير وقطاع الرغبات والسلوك) لم تتكامل بشكل كاف عند الحدث الجانح ٠او ان كل من هذين القطاعين يخضع لقوانين واعتبارات خاصة به ٠ ان عدم التنبـه لتلك الازدواجية توقع الملاحظ غير الخبير في الخطأ والحكم المتسرع انطلاقا من احدى هذه القطاعات فقط ٠

فالانحراف اما أن يكون جزءا من التصرفـات التي يشجعها المحيط أو يتراخى تجاهها (كما هو الحال في المناطق الهامشية) واما نتيجـة لقصور امكانيات رعاية الاطفال أو سوء التجهيزات الموجودة (خصوصا المدارس التي لا تسمح مطلقا بتنمية دوافع الطفل للتعلم) بشكل ينفره من السير في قنـوات النشاط المتكيف ، أو نتيجة لمآزم عائلية تزعزع توازنه النفسي وتدفع به نحـو الحلول الجانحة ٠

اما على المستوى الذاتي فالسلوك الجانح لا يبدو للمنحرف بديلا فعليـا للنشاط المتكيف ، قد يعاش كضرب من اللهو الطفيلي في البدء ، ثم كنوع مـن الضرورة من خلال التعود فيما بعد ٠ وقد تأخذ الضرورة شكل الحلول السهلة التي ألفها الجانح أو الوقوع ضحية قوى تشده نحو الانحراف (ذاتيـة وخارجية) لا يملك لها صدا ولا يستطيع مقاومتها ٠ ولا يندر أن يعاش السلوك

الجانح بعد التمرس سنوات في الانحراف والمرور بمعاناة كبيرة نتيجة التقلب في الاصلاحيات والسجون والتعرض لتجارب الحرمان والضياع كمأساة أو قدر محتوم كتب عليه الشقاء في الحياة · تظهر هذه المشـــاعر في لحظات الهدوء والوعي الوجودي اثناء العلاج النفساني او العلاقات التربويـة الحميمة ، حيث يعبِّر اليافع عن مدى معاناته ، ويبدو عليه التأثر الفعلي لاضطراب وجوده على هذا الشــكل ·

تحتل الاسرة مكانة مميزة في عالم الجانح · ذلك أمر بديهي نظرا لموقف الجانح من القيم الاجتماعية التي لا بد أن تصله من خلال التجربة الاسرية · الاسرة كمؤسسة اجتماعية تحظى بأهمية خاصة في سلم قيمه ، ولو كان موقفه الواقعي منها غير ذلك تماما ·

وضمن الاسرة تحتل الامومة أفضل مرتبة · هناك نوع من الاحترام الخاص والتقدير والولاء لها كقيمة اجتماعية نفسانية · قد يكون الجانح على علاقـة صراع مع أمه الا أنه لا يتعرض أبدا للامومة · ولا شك ان ذلك راجع الى أهميتها الاجتماعية ، انما لا بد أن يكون له جذور علائقية أولية ترجع الى الطابع الفمي المفرط الذي يقوم بينهما في حالة من الدمجية · ثم ان صورة الام هي دائما أقل اضطرابا من صورة الاب في الحياة النفسية للاحداث الجانحين · ففي غيـاب أو قصور أو خلل سلطة الاب تظل الام كمرجع نفسي للطفل · ويقرب من هذا الامر ذلك الحرص الشديد الذي يبديه الجانح على أخته ، حيث يقرن شرفه بسمعتها مهما بلغ من خطورة انحرافه · انه لا يتساهل مطلقا بالتعرض لها بالكلام أو بالفعـــل تماما كالتعرض للام اذ في ذلك مساس بأشد جوانب وقيم شخصيته حساسية · بالاضافة الى الدور الاجتماعي الذي يعتقد أن عليه ان يلعبه كحـام ومدافع عن الام والاخت (وهو اعتقاد نشط جدا اجمالا) · لا بد ان يكون هناك تعلق آثم بالاخت كازاحة للعلاقة الاوديبية بالام على المستوى اللاواعي ·

بعدهما يأتي الاخوة الصغار في الاهمية · فهو يقلق عليهم أيما قلق ويحس بواجب رعايتهم واعالتهم ، وقد يعاني نتيجة لعجزه عن ذلك أشد الآلام المعنوية التي تمنعه من الاستمرار في تدريبه المهني · تبرز هذه المشاعر فجاة خـــلال المراهقة كما رأينا في مواضع سابقة ، وتتخذ طابع المسألة الملحة التي تحتـاج الى علاج آني حيث يبدو الانتظار غير ممكن لأنه يحمل في طياته خطر كارثة لا يجوز أن تحدث · ذلك أيضا جزء من القيم الاجتماعية التي تمثلها الجانح ، ولكنه

قد يعكس في آن معا أسقاطا لميوله الطفليـــة للعطف والحماية والرعاية على الاخوة الصغار • انما يتخذ الامر على المستوى النفسي طابع القيمة الشخصية والاعتبار الذاتي (أنا لست بشرا اذا لم أبد هذه الغيرة على الام والاخت والاخوة الصغار) الذي يعلق عليه اهمية كبرى •

قد يكون الارتباط بالاسرة نشطا على مستوى الفعل ، كما يحدث حين يتقدم في التأهيل ، الا أنه قد يظل على مستوى القيم غير الفعالة خلال الحياة الجانحة• فهو يهتم ويغار الا أن ذلك لا يمنعـــه من الاستمرار في نشاطه المنحرف الذي يبعده بالتأكيد عن القيام بالدور الذي يتصوره لنفسه تجاه الاسرة • نلمح في ذلك مظهرا آخر من مظاهر الازدواجية التي تميز وجوده •

لا تستقيم صورة الحياة الاجتماعية والعلائقية التي نحاول أن نرسمهـا للوجود الجانح اذا لم نأت على ذكر التفاعل مع الرفاق ، خلال النشاط الجانح ثم اثناء الاقامة في المؤسسة التأهيلية •

ليس هناك صداقة حقيقية بين الجانحين بمعنى الالتزام العلائقي تجـاه شخص آخر مع احترام فرديته • هناك فورات عاطفية ذات طابع دمجي ، يذوب فيها في الآخر أو يود أن يتملكه • يحاول الحصول على حمايته أو يحميه ، يكون محظيا عنده أو يصطفيه محظيا له • انها حالة تعاطف مع آخر من أجل التعويض اللاواعي عن البؤس الذاتي • ولذلك فهو يغدق عليه الحماية والعطاء لانه يرى فيه صورة ذاته • وقد تتخذ العلاقة طابعا رومانسيا مأساويا بين حدثين جانحين تستقطب كل آلام الانفصال والعزلة العاطفية التي يعيشها كل منهما • يبدو ذلك واضحا من خلال قراءة المراسلات بينهما (اذا كان احدهما في السجن والآخر في مؤسسة أخرى مثلا) • ان الرسائل تفيض بالعواطف التي لا تعرف حدودا والمديح الذي لا يضاهى والشوق بكل ما يمكن أن يتضمن من حرقة وألم الفراق بأقصى ما يمكن أن يكون له من لوعة • هذه الرومانسية هي أقرب الى الاسقاط منها الى العلاقة الحقيقية ، انها نداء الحب المفقود ، انها فورات وجدانيـــة تحدث من آن لآخر سرعان ما يطويها النسيان ، لا نلمح بعدها أي أثر لارتبـــاط دائم ومتين •

ـ امثلـة من مراسلات الجانحين ـ

نعرض هنا نموذجين لرسائل متبادلة بين جانحين قامت بينهما صلات ود

في السجن إتخذت طابع الحب الرومانسي المتفاني من قبل احدهما تجاه الآخر ·
الحبيب الذي ظل في السجن كتـــب سلسلة رسائل الى حبيبه الذي وضع في
مؤسسة للتاهيل تاخذ جميعا نفس الاسلوب ونفس المحتوى ·

الرسالة الاولى

باسم الاخوة الصادقة ·

باسم المحبة الطاهرة ·

باسمك افتتح رسالتي هذه راجيا من المولى أن تكون باتم الصحة والعافية ·

حبيبي ومالك قلبي !! من قلب ادماه البعد · ويد حطمتها الالام والشقاء ، اكتب اليك هذه الرسالة والدموع تنهار من عيناي ، والاسى يهز قلبي · فارقتني وتركت في القلب لوعة فراق الاخ لاخيه · أخي ان قلمي هو من عظمي والورقة من كبدي والكلمات تخـرج من أعماق صدري وكبدي ·

اكتب اليك هذه الرسالة من موضع سجن حريتي ، ابعثها لاستطيع أن اعبر عنهـــا بلساني وقلبي فكيف بالقلم وان كان من دمي ·

حبيبي ···

أخبرني عن صحتك وأحوالك لاني باشد الاشواق لمعرفة اخبارك · كيف حالك · انني حزين لفراقك · دائما أجلس أفكر وأبكي ، انك آخي ، اخي وستظل اخي مهما غرســت الطريق بالصعوبات ستظل أخي ·

· · · · · · · · · · · · · · · ·

ارجوك ان تبعث لي صورة لك جديدة لان صورتك التي معي قديمة ولكنى ساحتفظ بها الى الابد ·

سابعث لك مسبحة خرز صنارة حلوة مثلك · عند خروجـك من المؤسسة ارجوك أن تعمل بنصيحتي ولا تعد الى الاعمال السيئة ، وتعلم أي مصلحة كانت ، أو تعال لعندي حتى ابعثك الى عمي وأشغلك بالورشة ·

والختام وليس بيننا ختام ·

اهديك الف سلام وقبلة ولك مني الف قبلة وسلام ٠٠٠

والسلام ٠

اخاك الذي لا ينساك ابدا ٠

حرر في ٠٠٠/٠٠٠/٠٠

الرسالة الثانية

آخي ونور عيني ٠٠٠٠

سلام عطر ومحبة من صميم قلب محب لنور وجهك الذي جعلك اخا له ٠ وحفر ذكراك في فؤاده ٠ اليك يا من عرفت في نفسك دم الاخوة والوفاء ، اليك يا من لم أنساك حتى يفنى الدهـــر ٠

من قلب مجروح لم يعرف النوم منذ فارقته من الالام قلبي ، أخط هذه الرسالة لاعبر لك عن حبي واخلاصي ، لكي تعرف بأنه لك أخ فارقته وتركت في قلبه لوعة الاسى والفراق ٠

اخـي ٠٠٠٠

كيف حالك يا أخي ، انني باشد الاشواق لمعرفة أخبارك ٠ اخبرني سريعا عن صحتـك وأحوالك ٠ انني اتعذب وحيدا لا أخ يعطف علي ٠ كنت عندي ، كنت تعطفني ولكنك فارقتني وتركتني أتعذب ٠ انها مشيئة الله فلا غالب على مشيئته ٠

أخي : سابعث لك مسبحة خرز صنارة ٠٠ شو ما بتريد أخبرني حتى أبعث لك ، انني تحت تصرفـــك ٠

اسمع نصيحتي ولا تعد الى الاعمال السيئة وأن تتعلم مصلحة تنفعك ٠

والختام وليس بيننا ختام ٠

يهديك السلام اخاك ٠٠٠ ولك منه الف سلام وقبلة ٠

والسلام ٠

اخاك المعذب لاجلك

حرر في ٠٠/٠٠/٠٠

تعليـــق :

أمور عديدة تلفت النظـــر في هذه الرسائل من حيث الشكل والاسلوب والمحتـــوى ·

أما من حيث الشكل فأول ما يلاحظ الخط المنمق · ولا بد أن يكون المرسل قد بذل جهدا كبيرا في كتابته أو هو لجأ الى أحد المتمرسين بالكتابة · وقبل ذلك تلفت نظرنا ظاهرة التزيين · العين فيها سهم تقطر دما ، وخنجران في أعلى الصفحة يقطران دما وافتتاحية باللون الاحمر · ثم عصفور على غصن في وسط الصفحة · أما الرسالة الثانية فلقد رسم فيها بعناية غصن يضم ثلاثة زهرات في براعمها الحمراء ، وفي أسفل الصفحة عصفور يحمل رسالة ·

أما الاسلوب فيتميز بالمبالغة المفرطة في التعبير عن العواطف والمعاناة وهو يلجأ من أجل ذلك الى التكرار لتوكيد المشاعر · ويلاحظ ان الرسالتين تكـادان تكونان نسخة طبق الاصل في شكلهما واسلوبهما ومحتواهما ·

وأما المحتوى فيدور حول لوعة الفراق والتفاني والذوبان في الحبيـب والضياع للبعد عنه والاستعداد للتضحية من اجله بكل شيء · ويختتم بالنصيحة لتجنب البؤس الوجودي (تجنب طريق الانحراف) · ان الرسائل تعكس طابعا مأساويا واضحا من خلال التعبير عن المعاناة والمصير البائس · وهي من هـذه الناحية تعكس في آن معا الشوق الى علاقة دمجية بالام وعقاب الذات على اثـم واع ولاواع في آن معا · تجربة السجن تحولت الى عقاب في النهاية · أما الاثم فهو بالضرورة متعدد المصادر (أهمها عدم الحصول على الحب الاموي الذي يتوق اليه) · انه يقدم دمه وكبده وعظمه ودموعه للحبيب (الام) كي يكفر عن خطاياه ويسترضيها ويعود الى علاقة دمجية هوامية معها · يشير الى ذلك أيضا الخنجران يقطران دما والعين المصابة بالسهم (رمز مثقل بالدلالة : العـــين المشتاقة التملكية الآثمة والمعاقبة في آن معا) ·

ان الامر في النهاية هو اسقاط للرغبات الداخلية (العودة الى العلاقة الدمجية بالام وأسى الفراق من خلال العقاب الذي يلقاه كمدخل الى التكفير الذي وحده يسمح بالعودة الى كنفها · ان علاقة الحب بين هذين الحدثين ما هي في نظرنا سوى عملية ازاحة لمأساة يصعب التعبير المباشر عنها · الوله شبه اللواطي ظاهريا ما هو سوى تعبير عن الميول الدمجية · ولهذا السبب فليس من المستغرب

ان يتحول الاسقاط بعد مدة تطول او تقصر من شخص الى آخر طالما ان ذلـك الشخص يلعب في النهاية دور السند للحياة الهوامية اكثر مما هو قرين في علاقة واقعيـــة ٠

كلمة اخيرة عن تضخيـــم الاسلوب وتنميق الشكـــل وتزيين الرسائل ٠ ان في ذلك دلالة واضحـــة على قصـــور لغة الجانح عـــن التعبير الحقيقي والملائم عن العواطف ٠ الافراط في التنميق والمبالغة يعادل تماما مدى قصـــور التعبير اللفظي كما سنرى في الفقرات القادمة ٠

ما عدا ذلك فان العلاقات لا تتعدى صلات المنفعة المادية العابرة ٠ انهـا تحالفات تقوم وتنحل تبعا للظروف وللحاجات ، هناك صلة طالما توقع الجانـح غنما عاجلا٠ اما الشائع فهو العلاقات الصراعية علاقات التسلط والاستغلال والازدراء والسخرية وتبخيس الآخر٠ انه لما يثير دهشة الملاحظ، ذلك المقدار من الحقد والعداء الذييميز التفاعل بين الجانحين،وذلك الميل للنيل من الآخر وتربص الفرص بأي حدث يظهر ضعفا او قصورا ليصب عليه الجانح عدوانه وينال منه بكل الطرق الممكنة ٠ ان نسبة كبرى من النزاعات والاشكالات السلوكية التي تقوم بين الجانحين في المؤسسة التأهيلية يعود الى هـذا الامر بالتحديد ٠ يتضح ذلك من خلال السهولة القصوى التي تتحول فيها النزاعات الى صدام جدي مباشر، حتى أكثر العناصر حساسية للقيم الاجتماعية وتمثلا لها ، اكثر العناصر اظهارا للحياء الاجتماعي أمام السلطة او الغرباء والتي تعطي انطباعا بتكيف فعلي ، سرعان ما تقع في اشكالات علائقية تتدهور رأسا الى الاعتداء الجسدي ٠

يبدو أننا هنا أيضا أمام وجه آخر من أوجه الازدواجية التي تميز الوجود الجانح ، يوجه الميول الايجابية نحو العلاقات مع الكبار المتفهمين ويحصر الميول السلبية العدوانية في صلات الرفاق ٠ ان هذا القطاع من حياة العلاقة هو بلا شك من أكثر القطاعات دلالة في تقدير مدى تكيف الحدث الجانح ٠ انه القطاع الذي يستقطب أشد جوانب حياته اضطرابا ٠ وليس ذلك امر ملغز او اعتباطي سوى ظاهريا ، أما التحليل الوجودي الدقيق فيظهر ان له وظيفة هامة في التـوازن الحيوي للجانح ٠

انه عندما يصب عدوانه كله ، عندما يسخر ، يزدري ، يستغل ، يتسلط فهو يحطم الصورة السالبة عن ذاته التي يسقطها على الآخر الذي يمثل نوعا من

المرآة تعكس له مأساته وبؤسه وقصوره ·

ان هذه الصورة تثير له آلاما معنوية شديدة وتولد في نفسه نوعا من الذعر الوجودي تجاه كارثة انعدام القيمة · وهو لذلك بحاجة ماسة أن يهرب منها ، أو بالاحرى أن ينفي وجودها كليا من مجال وعيه ، ولا وسيلة لذلك الا بتحطيمها مما يمكنه من الاحتفاظ بشيء من التوازن الوجودي · ومن ناحية أخرى فانه عندما يحطم تلك الصورة أو يزدريها أو يتسلط عليها فانه يحاول الوصول من خلال جدلية الانفصال والتمايز (انه ليس بائسا أو رديئا كالآخر) الى نوع من وهم المصير الافضل بعد اسقاط السوء كله على غيره والتنكر له من خلال الاستعلاء · ذلك حل سهل وممكن دائما يلجأ اليه كلما اختل توازن القيمة الذاتية الذي لا بد ان يحدث نتيجة للصعوبات التي تميز وضعيته الوجودية · اننا ازاء حل سحري بلا شك ، وهو واحد من ضمن الحلول العديدية من نفس النوع التي يلجأ اليها هروبا من ذعر انعدام القيمة وأبرزها على الاطلاق الفعل الجانح نفسه · ان هذا الفعل هو في النهاية اعادة توازن (ولو وهمي أو عابر) لوجود مفلس من خلال وهم القوة ، او البراعة أو الاستهلاك أو المغامرة ·

يتضح ذلك بجلاء اثناء اقامة الحدث في المؤسسة التأهيلية ، حيث يهدد بالعودة الى الانحراف أو ينخرط فعلا في تصرفات جانحة كلما مالت ميزانية وجوده المعاش الى الافلاس · لهذا الفعل اذا وظيفة حيوية في اقتصاد الشخصية ، وهو ليس مجرد فعل سلبي ((على درجات متفاوتة من الاعتباطية) أو محصلة لتفاعل سببي آلاتي كما قد يخيل الى المرء الذي يكتفي بظواهر الامور ·

خلاصة القول ان الحياة الاجتماعية والعلائقية للحدث الجانح تتصف بما يقرب من الانفصام · هناك دائما تجاذب وجداني نشط · وهناك انظمة داخل شخصيته فاعلة في نفس الوقت ولكنها منغلقة على نفسها وعديمة التأثير او التأثر بما حولها في معظم الاحيان · ويطغى الاسلوب الجانح من الوجود طالما ظل الامر كذلك ولم تصل الشخصية الى التكامل النظمي (١) والوظيفي ، وهو الهدف النهائي للتربية والعلاج ·

---

(١) نظمة : Systéme

ثانيا : البنيــة النفســية :

تتصف البنية النفسية لشخصية الحدث الجانح بعدة خصائص تجعــل احتمال الاقدام على أفعال جانحة كبيرا ، وتزيد من صعوبة التكيف • وليس من السهل دائما الاحاطة الشاملة بهذه الخصائص ، فهي تتنوع من حيث شدتهــا وعددها من حالة الى اخرى ، كما انها تتفاعل فيما بينها بدرجات متفاوتة ممــا يعطي الشخصية طابعها الخاص في كل حالة • على انه من الممكن استعراض بعضها الاكثر تكرارا وتاثيرا كما تلاحظ خلال العمل العلاجي والتربوي مــع الجانحــين •

من السمات الواضحة لدى الغالبية التجاذب الوجداني ودوريــة المزاج • فالجانح كائن متقلب المزاج ما بين النشوة والفرح والتفاؤل والاقدام وبين الاكتئاب والخور والحزن والتشاؤم والتخاذل • حياته النفسية ونشاطه محكومان بهذه الدورية ، مما يجعل استقراره صعبا وتوجهه الحياتي متعثرا • فهو يتحمس كثيرا للنجاح وينهار أمام الفشل • وهو يتردد لا يعرف ماذا يختار ولا ماذا يريد • أو هو يتسرع في الاختيار ويجزم بأن ما اختاره هو ما يناسبه فعلا أو هكذا يود لمستقبله ان يكون • ولكنه سرعان ما يغير رأيه • وهو يختــار ويرجع عن اختياره انطلاقا من معطيات جزئية ومن تأثر بأهواء او ايحــاءات أو اغراءات اللحظة الراهنة • وهو يندفع في مشاريع لا يلبث ان يسير فيهــا خطوات حتى يعدل عنها مبررا اندفاعه وتراجعه بنفس الحماس •

ويبرر الجانح حالته المزاجية في تقلبها باعتبارات واقعية ، او يرجعها الى تأثيرات وصعوبات نابعة من المحيط • وهو يجد دائما العناصر الكفيلة بتبريــر حالته من وضعه المعاش • ويبدو للوهلة الاولى أن تلك العناصر معقولة سببيا • الا أن الملاحظة والمتابعة طويلة المدى تظهر أن الامر داخلــي ذاتي أساسا وان المحيط لم يفعل في كثير من الاحيان اكثر من اثارة ما هو كامن •

ان لهذه الدورية المزاجية دوافع لاواعيــة تنبع من الاقتصــاد النفسي للشخصية • انها وليدة الحرمان ومشاعر الاهمال والضياع وما يصاحبها من مشاعر اثم وميل الى عقاب الذات من ناحية ورد فعل دفاعي تعويضي ذو طابع فمي نفاجي ضد قلق الاندثار من ناحية ثانية •

وعلى عكس التذبذب السابق هنالك القطعية والجمود اللذان يميــزان بنيته النفسية • انها بنية تفتقر الى المرونة وتعجز عن التكيف مع المعطيات الجديدة

بشكل يحفظ مصالح الشخصية · وهكذا نجد الجانح متصلبا في رأيه لا يحيد عنه ، يلح على تحقيق طلبه بأسرع فرصة ، لا يستطيع الانتظار، ولا يتقبل ضرورة مراعاة بعض الاعتبارات الحياتية ·عند الحديث معه يظل مستقطبا تماما حول موقف معين · ولا تجدي محاولات الاقناع معه كثيرا · يعود باستمرار الى نفس الامر وكأنه لم يسمع ، أو هو على الاصح لم يتمثل ما سمعه · يبدو انه لا يمكن النفاذ اليه الا بالاستجابة لطلبه ، وكل ما عدا ذلك لا يثير اهتمامه · وهو يرهن علاقته بالآخرين بمدى تجاوبهم معه ، فاذا هم فعلوا انفتح عليهم وأبدى تفاعلا ايجابيا ، وان هم رفضوا قطع الصلة معهم بشكل احتجاجي اتهامي ·

وهو الى ذلك يعجز الى حد كبير عن تلطيف أحكامه على الآخرين وعلى الاشياء · لا يستطيع أن يرى ما للآخر وما عليه ، او يدرك الجوانب الايجابية والسلبية في أمر ما في نفس الوقت · فالاشخاص اما مقربين أصدقاء أو مضطهدين أعداء ، كلهم طيبة وايجابية أو شر وسوء · وكذلك الحال بالنسبة لوضعيات الحياة · وهو لا يستطيع وضع حد للتعميمات التي يطلقها هكذا ويتصرف انطلاقا منها او الموازنة بين الامور وبين الاشخاص ، مما يلقي به في صعوبات حياتية من السهل جدا توقعها في مثل هذه الحالات ·

ويرتبط بالامر السابق وينتج عنه صعوبة تحمل الاحباط ، فالصعوبات الحياتية تتخذ طابعا مضخما ، يجعلها عسيرة الاحتمال وتتطلب حلا سريعا · ويحدث ذلك لافتقاره الى المرونة وهي الشرط الاساسي للاشباع البديل او الحلول التعويضية · ويصاب الجانح أمام الاحباط بدرجة عالية من التوتر الذي لا يمكن أن يصرّف الا بتحقيق الحاجة موضوع الاحباط أو بالسلوك النزوي التدميري· وحيث يعسر الحل الاول لا بد من الوقوع في التصرفات الكارثية ، التي تحدث غالبا على حساب المصالح الذاتية · وهكذا يبدو وكأنه قد نسي فعلا كل ما حققه من نجاح ، يتخلى عن ثمار جهده مهما كبرت ازاء مشكلة صغيرة ، يترك عمله حتى بدون أن يتناول الاجر الذي يستحقه ، أو يقطع مشاريعه التي حضر لها فترة طويلة بسهولة مذهلة ، ويبدو كمن يقدم على تصرفات انتحارية ·

كما انه يظل عاجزا عن التبصر بالمستقبل أو الاحتياط له ، أو تقدير نتائج أفعاله وما تجره عليه من ضرر · ويبدو فعلا كمن لا يقيم اي اعتبار لاي شيء سوى الرغبة الراهنة وضرورة اشباعها او الصعوبة الآنية وضرورة تجاوزها · وهو يدفع ثمن هذا الحل غاليا في معظم الاحيان لانه عاجز عن وضع سلم

اولويات حسب الاهمية الفعلية للامور · الاولوية الوحيدة الممكنة في نظره هي الحاجة الراهنة مهما صغر شأنها على حساب ما عداها مهما عظم شأنه · انه يبيع حياته بثمن بخس كما يصرح الكثير منهم ·

لقد اطلق البعض على هذه الحالة اسم النزوية ، وسماها البعض الاخر بقصور الضبط الذاتي · والواقع ان الجانح يبدو من الخارج كذلك ، فهو لا يستطيع التحكم بانفعالاته ورغباته ، ولا يستطيع الصمود أمام المغريات الخارجية ، ينساق اليها ببساطة يكون أول من يدهش لها فيما بعد عند طلب النجدة للخروج من الورطة التي يجد نفسه فيها ·

نزويته هذه تجعله عاجزا في كثير من الاحيان عن استخلاص العبر من تصرفات الاخرين وما جرته عليهم من صعوبات او حتى من تجاربه الذاتية كموجه وضابط لسلوكه حاضرا ومستقبلا ·وقد يتهم بسوء الارادة او الفسق نتيجة لذلك (لا يجدي معه نصح ولا عقاب) والواقع أنه ليس كذلك ، فهو يتعظ ويندم ويعد صادقا بتحسين سيرته الا أن وعده يظل آنيا لا يتجاوزه الى اعادة النظر في أسلوب حياته · ان الجانح يظل أسير الضغوط أو المغريات لا يستطيع دائما ضبط نفسه عن الغرق في دوامتها ،، مما يجعله قاصراً عن ادراك قانون السببية (أو روابط السببية) بين الظواهر أو الاحداث · وقد يصل هذا الامر حدا يعجز معه حتى عن ادراك مسؤوليته الشخصية فيما الم به أو انخرط فيه ·

لقد تحدث ردل عن هذه الظواهر وغيرها بشكل مستفيض في مؤلفه سابق الذكر تحت عنوان تفكك الانا وقصوره · ويتحدث آخرون عن نفس الظواهر تحت عنوان الفجاجة (الشخصية الكلية أو فجاجة الانا) · ذلك منطلق انبنائي يمكن الاخذ به طالما لم نقع في جمود التصنيف وقطعيته · ونحن نرى من المستحسن البحث في تاريخية هذا القصور لتجاوزه · ان معظم الخصائص السابقة تعود في تقريرنا الى خلل اعتور نمو الشخصية وتكاملها نتيجة لنوع تجربتها الوجودية ، هذا الخلل يتخذ مظهرين اساسيين هما : العينية الآنية ·

١ ــ **العينية** : ويقال لها ايضا التفكير المحسوس أو المحس ،يقصد بها نوع من الوجود المركز حول ما هو ملموس ، ما هو مادي ، لا يستطيع تصور الممكن والمحتمل والبديل · اما على المستوى الذهني فيأخذ طابع قصور التفكير المجرد والقدرة على التعامل بالرموز · ويؤدي هذا الامر الى ظواهر مميزة

لوجود الجانح ، أهمها التركز حول الذات والنزوية ، وانعدام القـــدرة على التسامي ، والافتقار الى المرونة النفسية وكلها سمات تجعل التكيف للواقـــع وتحمل احباطاته امرا صعبا · كما تخلق صعوبات واضحة امام عمليـــة التعليم المدرسي ·

ان العينية تنبع من قصور نمو الوظيفة الرمزية اساسا ، فالواقع المادي لا بد ان يتحول خلال عملية النمو السليم الى واقع نفسي أو ذهني · ويحدث هذا التحول من خلال تمثل التجارب الحياتية على شكل صيغ فكرية بفضل نمو اللغة شرط الرمزية الاول · تحل الكلمة (كرمز) محل الشيء المادي ، وعندما يكتمل نمو اللغة ، يحدث تمايز للواقع المادي فيتحول الى واقع نفسي رمزي · وهكذا فالانسان الذي اكتمل نموه بشكل سليم لا يتعامل معظم الوقت مع الاشياء مباشرة بل مع دلالتها الرمزية · وهو يتجنب ضرورة المحاولـــة والخطأ في التعامل مع الاشياء من خلال القدرة على التصور المجرد لما هو ممكن ولما هـو محتمل · ويؤدي هـذا الامر الى نمو القدرة عـلى التخطيط والتوقع والاحتياط للمستقبل من ناحية ، والى امكانية الابدال الرمزي للموضوعات المادية بعضها ببعض ، والاشباع الخيالي · وهكذا فالنزوة لا تمر رأسا الى هدفها من خلال فعل مجسد ، بل تدخل في سلسلة من التصورات ، والدلالات الرمزية ترتقي بها الى اشكال اكثر تساميا من الاشباعات ، كما يحدث مثلا للنزوة الجنسية عنـد الفنان الذي يعبر عنها على شكل أحاسيس وجدانية في قصيدة شعرية رمزيـة أو لوحة فنية مجردة ·

ان الجانح على العكس من ذلك تماما يظل لصيقا بالواقع المادي لا يستطيع تجاوزه أو الارتقاء به، لهذا فان تصرفه يظل اسير الهدف المحسوس، لا يستطيع ان يتصور له بديلا أو أن يحول حاجته الى معاش وجداني رمزي ·المسافة بين النزوة وهدفها قصير جدا مما يعطي ذلك الهدف قوة جذب أكبر بكثير ويعطـي السلوك طابعا اندفاعيا · وهذا ما يفسر لنا عجزه عن مقاومة المغـــريات ، والانخراط في مغامرات بدون تقدير عواقبها · وهذا ما يفسر لنا أيضا تصلبه والحاحه ورفضه للتأجيل أو لصرف النظر عن موضوع يشغلـــه · وهو يبين عجزه عن الوصول الى حلول تعويضية أو تسامي حاجاتـــه · ولنفس السبب تبقى حياة الجانح الداخلية فقيرة جدا ، لا تستطيع أن تجد تبريرها في ذاتها ، تعاني من الفراغ الممل حين تفتقد المثيرات الخارجية التي تؤمن لها وهم الحياة والمتعة · الجانح لا يعرف كيف يلهو او يتسلى اذا ترك بمفـرده ، انـه يتعرض

لخطر الاحساس بالعدم اذا افتقد المغريات المادية ، وهو يهرب من ذاته ويغوص في كل ما يثير الاحاسيس (مغامرة ، أضواء ، ضجيج ، حركة) بذلك فقط يشعر أنه يعيش ·

ان العينية على علاقة وثيقة اذا بقصور نمو الوظيفة الرمزية للغة ، اداة التعبير الاولى · وان الملاحظة العابرة والممارسة العيادية طويلة الامد تظهر أن هناك اختلالا في اللغة عند الجانح ·

... ظاهريا يعاني الحدث الجانح من صعوبة اقامة حوار هـادىء مع شخص (خصوصا الجانحين امثاله) يدافع فيه بشكل منظم ومنطقي عن موقف يتخذه · سرعان ما يجد نفسه وقد افلس على مستوى التعبير اللفظي المنطقي وسـوق البراهين تاييدا لوجهة نظره · عندها يتدهور الحوار من التعبيـر اللغـوي العقلاني الى التعبير الانفعالي ·

ينفعل ويغضب فيثور ويحول حديثه الى اتهام ، او شكوى ، او شتائم · ثم لا يلبث ان يلجأ الى اساليب سحرية تغطي قصور منطقه فينخرط في الرهان (كاسلوب لحسم الخلاف في التقدير) في الحالات التي لا تتميز فيها العلاقـة بالعداء · اما اذا كان الامر على العكس فالحل السحري هو استخدام اللغـة الحركية ، يشتبك بالايدي ، يلجأ الى القهر والاخضاع بعد ان عز عليه التفوق بالاقناع · ذلك هو تفسير سهولة الصدام والتعدي التي تلاحظ في علاقـات الجانحين فيما بينهم · اما اذا كان شانه مع شخص في موقع السلطة فانه يلجأ الى نفس الحل السحري الحركي بالهروب من المؤسسة مثلا او بالتصـرفات العدوانية · انه يحس بعجز حقيقي عن اقناع المسؤول بوجهة نظره لفظيا فلا يجد امامه سوى اللغة الحركية ضمن هذا المنظور يحسن ان ناخذ كل تصرفات الجانح كلغة تعبر عن معاش وتبعث الينا برسائل يجب ان نتلقاها ونفهمها اذا اردنا فهم مشكلة الانحراف وعلاجها بشكل فعال · تحتل اللغة الحركية مكانة هامة اذا في خطاب الحدث الجانح على حساب اللغة اللفظية على العكس تماما من حـال الناس الذين وصلت شخصيتهم الى درجة جيدة من الارتقاء والتمايز ·

ومن مظاهر اختلال اللغة في هذه الحالة العجز الواضح عن التعبير عن انفعالاته وقصوره عن صياغة تجربته المعاشة (من حزن والم ويأس ، أو فرح وسرور وتفاؤل) في قوالب لفظية · انه في ذلك (مرة أخـرى) على النقيض تماما من الشاعر الذي يمتاز اساسا بالقدرة على هذه الصياغة اللفظية المباشرة

او الرمزية • الجانح يتالم او يعاني ولكنــه لا يتمكن من نقل معاناته لفظيا الى الاخرين ، ولذلك تتضخم هذه المعاناة بشكل مقلق • وهو يبدو على وشك الانفجار كما يظهر جليا من التغيرات الفسيولوجية التي تلاحظ على محيــاه حين يتالم فعلا ، تطغى عليه انفعالاته فلا يستطيع لها ضبطا بل يغرق فيها كمن حمله تيار جارف • وهنا ايضا لا يجد امامه سوى التصريف الحركي حلا ممكنا اذا لم يجد من يقدم له حلا ملائما •

نجد نفس الظــاهرة في صعوبة اسقاط حياته الوجدانيــة على الروائز الإسقاطية • ولذلك تبدو اجاباته هزيلة وفقيرة في محتواها • وقد يخيل الـى المرء انه يقاوم او يتهرب ، قد يكون ذلك صحيحا احيانــا ، ولكن هناك حالات يكون فيها الجانح صادقا كل الصدق ، راغبا في التعاون مع الفاحص ولكنــه يعجز فعلا عن الاسقاط • يصعب على معظم الجــانحين مثلا ان يعبروا عن مشاعر البطل على رائز تبصر المتون ، وهم لا يدرون جوابا حينما يطلب الفاحص اليهم وصف تلك المشاعر •

هنالك خاصية اخرى لاضطراب اللغة عند الجانح تتخذ مظهرا عكسيا لما سبق • فنلاحظ فيضا لغويا وسهولة لفظية كبيرة ، الا انهــا تتميز بالسطحية المفرطة • فاللغة تخلو تمامــا من السياق الانفعــالي والوجداني الذي يرافق الافكار عادة • وقد يكون هناك تعبير عن معــاناة الا انه يفتقر الى الاحاسيس الحقيقية مما يجعل الامر يبدو وكانه مجرد تلاعب بالصيغ اللغوية وبالانفعالات في حالة تقرب من المسرحية الهستيرية • يتحدث الجانح من هؤلاء ليس تعبيرا عن تأثر ذاتي بل رغبة في اثارة مشاعــر من يسمعه بقصد الحصول على غنم مادي • وهو يبالغ عادة في هذه المسرحية وكانه يهدف الى التعويض عن فراغ خطابه من العواطف الحقيقية او التستر عليها • انــه يتاجر بالمشاعر بالشكل الذي يعتقد انه يرضي محدثه كي يدفعه للتمشي مع رغباته •

تلاحظ حالة الأنفصام بين شكل الخطاب ومحتواه العاطفي خصوصا عند الجانحين الذين تمرسوا في الانحراف لدرجة اصبح الحوار عندهــم نوعا من التضليل والمراوغة • الخطاب هو نتاج الذات الزائفة التي تتعامل مع الخارج ، لا تدع شيئا من الذات الحقيقية الدفينة يتسرب فيه ، انه جزء من تلك الذات التي اطلقت عليها اسم الدرع الطباعي في فصل سابق •

هنالك اذا عند الجانح عجز في اللغة عن التعبير عن المشاعر الحقيقية او اختلال في الوظيفة التعبيرية • ويؤدي هذا الامر في الحالتين الى نتائج خطيرة

فيما يتعلق بالتكيف والانغراس الاجتماعي · فلا مجال لذلك الانغراس طالما تهرب الجانح من انفعالاته او عجز عن التعبير عنها في قنوات التواصل المقبولة علائقيا واجتماعيا · كما ان الاختـــلال في اللغة يخلق له صعوبـــات جدية في التعليم المدرسي مما يثير عقدة الدونية الاجتماعية عنده وانعـــدام ثقته بنفسه · وذلك بدوره يدفع به بعيدا عن مناحي السلوك المتكيـــف ، الا ان اخطر النتائج هي النزوية التي تميز سلوكه ·

لقد ظلت النزوية من الامور التي اعيت الاختصاصيين في دراسة السلوك الجانح · وقدمت لتفسيرها افتراضات شتى تذهب كل مذهب ابتداء من المنطلقات الجبلية الوراثية ، ومرورا بنظريات الفجاجة وقصور النضج العصبي وانتهاء بالانانية وقصور الانا · الا ان هذه الفرضيات جميعـــا تعكس الفشل في فهم المشكلة اكثر مما تفسرها · ونحن نرى ان التفسير يجـــب ان يذهب في اتجاه البحث في القصور اللغوي والقدرة على التواصل الانفعالي ، والعينية التي تميز الوجود الجانح · الا ان الاكتفاء بهذا التفسير يظل غير مكتمل اذا اكتفينا بهذا المظهر · لا بد ان ننظر في الجانب الاخر من الخلل الذي يعتور شخصية الجانح وهو الآنية ·

٢ ـ الآنية :

يعاني الجانح مـــن اضطراب الديمومة · فالشخصية تتحـــدد من خلال الصيرورة التاريخية حيث تتماسك لحظات الديمومة ، ماض ، حاضر ومستقبل في وحدة مترابطة تعطيها هويتها · السلوك الحاضر هـــو وليد تفاعل القوى الراهنة مع القوى التاريخية (الماضي) من ناحية ومع توقعـــات المستقبل من ناحية ثانية · ولا بد للسلوك كي يستقيم من مراعاة هذه الابعاد الثلاثة في حركة جدلية يحدد كل منها الاخر ويتحدد به في آن معا · ان التكيف هو اساسا القدرة على العيش في ديمومة متناسقة الابعاد · وعمليـــة التنشأة الاجتماعية هي اساسا تدريب على مهام المستقبل ، انها جهد حاضر يبـــذل انطلاقا من توقعات المستقبل · وكلما ارتقى الكائن الحي زاد ارتباط تصرفه بمستقبلية اوسع مدى·

اما الجانح فهو يعاني من اختلال الوحدة الجدلية للديمومة · انه يتأثر ولا شك بالماضي، سلوكه محتوم بتاريخه الا انه يهرب من ماضيه اجمالا.او هو يحوّر هذا الماضي بشكل يختلف الى حد بعيد عن الواقع · يبالغ في آلامه او يفرط في تخيل سعادته · وهو اما ان يكبت هذه الآلام لعدم استطاعته احتمالها أو يرزح

تحتها بشكل يعمم على حاضره ويسبغ عليه طابعا مفرطا من المأساوية والبؤس.

اما المستقبل فهو صعب التصور . يهرب الجانح من التوقع او هو غير عملي وغير منطقي في توقعاته التي تتجاوز كثيرا امكانياته الفعلية . انما يغلب ان يعاني من تشويش المستقبل او انسداد آفاقه وهذا هو الاحتمال الاكثر تكرارا . يعجز عن تصور امكانيات المستقبل ، واذا تمكن منه تبدو متشائمة لا تحمل املا في خلاص او امكانية لحل مأساته .

أمام هذا الاحتمال تتضخم آلام الماضي الى درجة كبيرة ، وتتفاقم خطورة صعوبات الحاضر بشكل غير محتمل . ان المعاناة التي لا تجد لها خلاصا او توقع خلاص في المستقبل تتحول الى كارثة وجودية . الاحتمال الوحيد في هذه الحالة هو البحث عن حل آني ، عن خلاص في الحاضر . هذا الحل في غياب التبصر بنتائجه وانعكاساته على المستقبل لا بد ان يتخذ طابعا نزويا واحيانا كارثيا . انه رهن بالصعوبة الحالية دون مراعاة مصالح الشخصية على المدى البعيد .

من تعامل مع الجانحين خلال مدة كافية من الزمن يلمس اضطراب الديمومة لديهم من خلال ظواهر حياتية عديدة ، منها صعوبة التخطيط للمستقبل ومنها صعوبة الاحتراز لنتائج السلوك الراهن ، ومنها حاجتهم للحصول على نتائج مباشرة وملموسة . يبدأون نشاطا ما بحماس كبير ثم سرعان ما يظهر عليهم التراخي كي ينصرفوا عنه بعد مدة لا تطول . ومنها ايضا عدم الاستقرار على حال والتغيير الدائم في قراراتهم واختياراتهم . ان الحاضر يجذبهم ويغرقهم في دوامته ، يقعون تحت اسر مغرياته او صعوباته . وتتضخم هذه الصعوبات عندهم بشكل مفرط ، وينحسر الوجود ليتمحور حول المشكلة الراهنة دون سواها . كذلك هو حال التزامهم ، يعدون صادقين ، او يعلنون التوبة عن خطأ لينسوا وعدهم او ليتجاهلوا توبتهم بما يشبه البراءة التامة . يتورطون تحت وطأة النقمة او الاغراء اوالتوتر ويدهشون فيما بعد كيف وقع لهم ذلك فيستفيقون طلبا للخلاص .

العينية والآنية يتبادلان التحديد والتعزيز بشكل جدلي ، وينتجان عن نفس الاسباب كليهما ، وترجع هذه الى عوامل نفسية واخرى اجتماعية ، وهي نفسها المسؤولة عما يعتور اللغة من قصور . اما العوامل النفسية فاهمها اضطراب الحياة العاطفية.الطفل لا يتعلم الارصان الذهني للتجارب الحياتية وابدال الواقع المادي بالرمزي والمجرد ، الا اذا مر بتجربة متوازنة من الاشباع والاحباط ، من

الحضور والغياب ٠ وهو لا يتعلم معنى المستقبل وتوقع الحلول البعدية الا اذا خبر متعة الماضي وعممها على المستقبل من خلال الحرمان الذي يتلو هذه المتعة ويهيء لاخرى غيرها ٠ تواتر الاشباع والحرمان هو الذي يساعد اذا على تكامل الديمومة وعلى الارتقاء الذهني واللغوي اي المستوى الرمزي والمجرد ٠ فاذا كانت تجربة الطفل حرمان كلها او اشبـاع كلها ظلت البنيـة النفسية متسمة بالجمود والمادية ٠ فالطفل المحروم كالطفل المدلل يعاني كلاهما من نفس الخلل ، الاول لم يتعلم معنى الاشباع واسقاطه على المستقبل او تصـوره على مستوى رمزي او بديل ، أما الثاني فلم يتعلم معنى الاحباط الذي يدفعه الى تصور اشباع ممكن كحل لذلك الاحباط في المستقبل او تصور بديـل رمزي له ٠ ولـذلك فهما يتصفان بنفس الخصائص السلوكية : ضرورة الاشباع الآني ، العيش انطلاقا من اللحظة الراهنة ، النزوية ، والتمسك بما هو مادي ٠ دراسة شخصية الايتام ، او الذين حرموا حنان الاهل او انفصلوا عنهم تبين لنا هذه الظواهر بوضوح في سلوكهم وفي اسلوب حياتهم ٠

أما من الناحية الاجتماعية فان ظروف الحرمان والقهر التي غالبا ما تحيط بحياة الاهل تؤدي الى نفس الاضطراب ٠ ان القهر الوجودي يسد آفاق المستقبل فيبدو خاليا من امكانيات الحل الواقعي من خلال الجهـد الذاتي ٠ فقط الحل السحري (على اختلاف اشكاله) هو الامل الوحيد الممـكن ٠ ثم ان الوضعية العامة لهذه الفئة السكانية من الناحية المهنية لا تترك مجالا كبيرا للتخطيط البعيد المدى ، كسب العيش رهن بفرص تدبير الحال التي تتيسـر لها ٠ ليس هناك اية ضمانة لاستمرار عمل ما ، فليس هناك اذا غد اكيد يمكن توقعه والتخطيط له ٠ العمل والبطالة ، الصحة والمرض، الغنم والكارثة كلها احتمالات تفلت من سيطرة الشخص وتبدو كقدر مفروض في جميع الحـالات ٠ ولهـذا فهو مدفوع الى التمسك بما هو يقين ، بالحاضر والمادي الملموس ، قد يأمل في غنم بدون ثقـة او يقلق لمصيبة بدون القدرة على درئها ٠

ينشأ الطفل في هذا الجو فيعاني بالضرورة من نفس الاضطراب الوجودي٠ ويلاحظ ان اختلال اللغة وقصورها الذي اشرنا اليه يصادف ايضا عند الاهل ٠ نمط علاقة الوالدين بالطفل يظل ماديا حـركيا او انفـعاليا وجدانيا ٠ انهم لا يستطيعون ، نتيجة لقلة امكانياتهم الثقافية وللقلق الذي يخيم على وجودهم ارصان تجاربهم اليومية في قوالب لغوية وصيـغ ذهنية ٠ العـلاقة بين الآباء والابناء تفتقر الى الحوار الذي يسامي ويجرد التجربة المـادية ٠ انه تواصل

انفعالي او حركي (تعنيف او ضرب) وهكذا فما يلاحظ عند الجانح من خصائص نفسية وسلوكية هو الى حد ما تكرار لنمط الوجود الشائع عند الاهل قد يضاعف منه ما يتضمنه هذا الوجود من عوامل تؤدي الى اضطـــراب الشخصية وتمنع نموها وتكاملها بشكل سليم · على ضوء هذه المعطيات تبدو المشكلات التي ينخرط فيها والخصائص التي تميز البنية النفسية والتي حيرت العلمـــاء طويلا اقل غموضا وابهاما ·

ـ تحقيق الذات ، تدمير الذات والسلوك الجانح :

العينية وما يصاحبها من اضطراب في اللغة والآنيــة يهيئان السبيل الى النزوية الا ان ذلك لا يكفي لتفسير الانحراف ، فلهذا السلوك كما رأينا وظائف ايجابية في اقتصاد الشخصية · انه حل سحري يغير مـــوازين القوى لصالح المنحرف بخلق وضعيات هي اقرب ما يكون الى تغيير المصير · الهـــدف الهام للسلوك الجانح اذا هو اعادة شيء من الاعتبار الى الذات واحساسها بقدرتها وسيطرتها على ظرفها الوجودي بدل ان ترزح تحت الآلام غير المحتملة التي لا بد ان تعانيها نتيجة للحرمان والبؤس العــاطفي والاســـري والاجتماعي ومشاعر الدونية · فقط السلوك الجانح يبدو كمخرج ممكن من الازمة الوجودية التي يجد فيها الحدث ذاته لما يوفره من تغيير آني ومادي · انه في النهاية اسلوب خاص في تحقيق الذات وانتشالها من هوة العدم الوجودي واعطاءها قيمة ما تعرفها· يتم هذا التعريف او بالاحرى انتزاع اعتراف الآخريـــن بها مـــن خلال مظهرين اساسيين · أولهما سلوك التحدي والمجابهة والجرأة على خرق القانون والثورة على القاعدة المفروضة · يبين الجانح في ذلك انه قادر وقوي ، لا بد ان يحسب حسابه ، ولا بد ان ينشغل القائمون عليـــه بأمره · فهو يثير قلقهم وعدوانهم ، وهو يدفعهم الى التصرف انطلاقا من الوضعية التي خلقها : يسترضونه يهدؤنه او يحتاطون لما قد يقدم عليه او يجرهم الى العنف معه وهكذا يشعر بقوته عندما يحتل ولو لفترات مؤقتة مركز الاهتمام في عالم الآخرين · وهو يتصرف انطلاقا من قناعة داخلية بعجزه عن اثارة اهتمامهم بغير العنف « انهم لا يهتمون الا بمن يشاغب ، او لا يستجيبون الا لمن يخيفهم » · ان في ذلك شيء من الصحة فى كثير من الاحيان ·

اما المظهر الثاني فهو انتزاع مكانة مرموقة بين الجانحين · بمغامراته او تحدياته او عدوانه من ناحية وببراعته في التصرفات الجانحة واتقان فنونها من

ناحية ثانية يفرض نفسه عليهم يثير خوف وتبعية الضعفاء فيهم واعجاب المتدرجين واعتراف المحترفين · انه معروف ، انه موجود في عالمهم ·

بهذين المظهرين يستعيد اعتباره الذاتي ، يحس بقيمته ويتمكن من الوجود· الا ان هذا النمط من تحقيق الذات بما له من طابع سحري لا يحل المأزق الوجودي فعليا ونهائيا ، انه حل ملغوم بالسرابية· تحقيق الذات يرافقه دائما تدمير لها ، العدوانية ملغومة بمشاعر الذنب ·هنالك ميل دائم للانتقام من هذه الذات التي لم تحظ بالاعتراف والتقدير · وهكذا فالحل السحري يخفي انتحارا وجوديا ، نلمحه من السهولة التي يورط فيها الجانح ذاته متناسيا كل ما بذل من جهد وما حقق من تقدم على طريق الانغراس الاجتماعي الفعلي ، او مضيعا له في حالة مذهلة من تناسي المصالح الحقيقية للذات · يبدو الجانح عندها وكأنــه مدفوع بدوافع لاواعية حكمت عليه بالفشل والشقاء ·

ويمر تدمير الذات عادة بمرحلتين · الاولـــى تهدف الى ادانة الآخـرين واتهامهم بالتقصير · يدمر ذاته كأسلوب لتسجيل مســـؤوليتهم واثارة مشاعر الذنب لديهم · انه يريد ان ينتقم منهم هكذا بعد ان اسقط عليهم مشاعر الذنب اللاواعية من ناحية وكل احباطاته التاريخية من ناحية ثانية · اذا افسد حياته فهم السبب ، هكذا يخاطبهم بشكل مباشر او غير مباشر من خلال التهديدات التي يطلقها عادة قبل الانخراط في السلوك الكارثي · انه يحس بخطورة هذا السلوك ولكنه يعجز عن تقدير الاذى الذاتي الذي سيناله لانه مشـــدود برباط العبودية الانتقامية الاتهامية للآخر ، اننا هنا ازاء حالة من مكافئات الانتحار الانتقامي هذه الاوالية ثابتة في سلوك الجانح تجاه الاسرة اولا ثم تجـــاه المسؤولين في مختلف المؤسسات التأهيلية الذين يحلون محلها نفسيا بعد ذلك (انهم جميعا أهل سيئون مقصورون غير جديرين بالابوة) يحطم ذاته من اجل تسجيل هـذا الاتهام الخطير · ويطلق قبله نداء الاستغاثة الاخير كي يغيروا الوضعية (التي لم تعد تحتمل) برفع الغبن عنه ·

خلال المرحلة الثانية ترتد الادانة الى الذات ، ينخرط الجانح في لوم نفسه واتهامها بالجهل والغباء والتقصير · ويقع فيما يشبه الخـــور والسوداوية ، يجتر شقاءه في نوع من الاستسلام للقدر الذي انزل به العقاب المستحق · وهنا تنبعث صرخات الاستغاثة للآخرين كي ينقذوه ويساعدوه على مجابهة مصيره · يعد بتغيير سيرته ، يبدي التوبة ، يعترف باستحقاقه لما حل به ، ولكنه يبالغ ايما مبالغة في وصف شقائه·

يبدو ذلك جليا من مراسلاته اذا قادته الظروف الى السجن • فهو يسترحم السلطة التي كانت مسؤولة عنه في المؤسسة التأهيلية التي فر منها ، السلطة التي رفضها أو لم يستطع الالتزام بعلاقة معها تضبط سلوكه وتردعه عن الانحراف • وهو يعلي من شأنها ويبرز محاسنها ويلوم ذاته لانه لم يلق الى ما خصته به من عناية بالا• وتتحول علاقته معها من اضطهاد الى مبالغة في التعلق والولاء. على كل حال يعيش الجانح دائما اقامته في السجن تحت شعار المأساة ويحس وكأنه كتب عليه ان يشقى. انه يسقط على القدر العقاب الذي ينزله به اناه الاعلى الوحشي ويسقط على الآخرين محاولات استرضائه لذلك الانا الاعلى ، او هو على وجه الدقة يستنجد بهم (بعد ان يسقط عليهم صورةالانا الاعلى الرحوم) لمجابهة وحشيته اللاواعية •

ان الانخراط في الحياة الجانحة اذا كان يتخذ في البداية طابع تحقيق الذات فانه يتحول تدريجيا وبعد تكرار الملاحقة والسجن الى تدمير وجودي وذلك على صعيد المعاناة المادية والجسدية والمعنوية في السجون من ناحية وعلى صعيد النبذ من الحياة اللائقة والغربة عن الانغراس الاجتماعي من ناحية ثانية • الا ان الامر لا يأخذ بالضرورة هذا الطابع المأساوي باستمرار • ذلك غير ممكن على مستوى الاقتصاد النفسي للشخصية • انه أقرب الى الدورية الوجودية : فترات من النشاط الجانح وتحقيق الذات واخرى من الخور وتبخيس الذات وتحطيمها •

الا أن التذبذب بين قطبي تحقيق الذات وتدميرها ليس متساويا لا في مدته ولا في شدته ولا في شدة التوازن بينهما • هنالك حالات يغلب فيها تحقيق الذات ، ويكون تدميرها خفيا ، واخرى على العكس يطغى فيها التدمير ولا نستطيع تبيان الجوانب الايجابية الا بعناء • يتوقف الامر في كل حالة على تاريخ الشخصية وبنيتها واقتصادها •

ثالثا : الاواليات الدفاعية للانا الجانح

يعيش الجانح موضوعيا في وضعية المدان اجتماعيا بالاضافة الى الادانة اللاواعية التي يلقاها من أناه الاعلى • ولذلك فهو يحتاج كي يستمر في الانحراف كاسلوب لتحقيق الذات ، ويستمتع بثماره، ان يحمي نفسه من الشعور بالذنب والخطأ وما يصاحبها من قلق • وتتكون لديه من أجل هذا الغرض بعض الاواليات الدفاعية تترسخ بمقدار اقترابه من مرحلة احتراف السلوك الجانح

كاسلوب في الوجود · وتوجه هذه الاواليات ضد هذا العالم الخارجي واتهاماته او لاسكات صوت الانا الاعلى أو الى الاثنين معا ·

ولقد عرض ردل (١) هذه الاوليات بتفصيل ووضوح كبيرين · وقسمها الى ثلاث فئات : أ ـ استراتيجية تجنب الحساب الداخلي ، ب ـ البحث عن سند للانحراف ، جـ ـ مقاومة التغيير وعوامله ·

أ ـ اما الفئة الاولى فتتلخص في عدة وسائل تهدف الى نفي النوايا الجانحة والمسؤولية الذاتية : « لقد فعلوا ذلك قبلي ، كل الناس تقدم على أفعال مماثلة بدرجات متفاوتة ، لقد اشتركنا جميعا في المغامرة ، لقد وقعت ضحية لنفس الفعلة قبلا ، لقد تسبب لنفسه في ذلك ، كان علي أن اقدم على ذلك العمل والا فقدت ماء وجهي، لم استفد شيئا مما اقدمت عليه ، لقد عدت وتصالحت معه بعد ذلك ، انه (الضحية) لا يستحق الاعتبار ، انهم جميعا ضدي لا أحد يجني، انهم يتحرشون بي طوال الوقت ، لم أكن لاستطيع الحصول عليه (الهدف) بوسيلة اخرى » (١) ·

ان الجانح في ذلك ينفي مسؤوليته الشخصية اما بواسطة تعميم السلوك على الآخرين او بتوزيع الذنب وتخفيف حصته منه ، او بتصوير نفسه ضحية لاعمال مماثلة قبلا ، أو بالسير على خطى الغير ، او بوضع المسؤولية على الضحية التي تتحرش ، او التي لا تستحق ان يدان من أجل ما ارتكبه بحقها · في كل هذه الاساليب يضع اللوم على الاخرين أو على العالم الخارجي مفلتا بذلك من مجابهته غلطته بكل ما تتضمنه من ادانة معنوية والتزام تجاه الاخر ·

وقد يلجأ الى التستر وراء الضرورة · فيصور نفسه ضحية الظروف أو ضحية الآخرين · انه المحروم الذي لا يحظى بالحب وعليه بالتالي ان يدافع عن نفسه ضد اعداء العالم الخارجي ، أو هو المحروم الذي لا يمكنه اشباع رغباته الا بواسطة السلوك الجانح ، أو هو المضطر الى الحفاظ على ماء وجهه بعد ان وجد في وضعية مأزقية · في كل الحالات السابقة نلاحظ اوالية الاسقاط نشطة جدا ، يصور نفسه ضحية الاخرين والظروف حتى ولو كان هو المسبب والمبادر · ويلاحظ العامل مع الجانحين أية صعوبة تحول دون ادراكهم

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٤ ـ ١٨٥ ·

لمسؤوليتهم الذاتية تجاه مختلف الامور • ولذلك فغالبا ما تفشل معهم عمليات الاقناع والحوار •

هناك أوالية أخرى يمكن اعتبارها الدرع الاخير الذي يتحصن به الجانح عندما تفشل الوسائل السابقة في اقناع محدثه بانعدام أو قلــة مسؤوليته : اسقاط المسؤولية على القدر او المرض • وهكذا فهو يعلل فعلته بغواية الشيطان، أو بالقدر المكتوب الذي لا مفر منه ، أو بالمرض (عندما تثور اعصابي لا أعود أعي ما افعل وما اقول) ، (أريد أن تفحصوا دماغي لانني أصبت بصدمة في صغري ، ان رأسي يكاد ينفجر) ، (ان ذلك اقوى مني ، لا اعرف كيف يحدث لي القيام بذلك السلوك) ، (ان ذلك في دمي كالافيون) • احيانا يتهم الاسرة التي لم ترعاه وتوجهه بما فيه الكفاية •

يحقق الجانح بواسطة هذه الاوالية الاخيرة هدفا اخر هاما وهو القــاء مسؤولية انحرافه على الاختصاصي النفساني او علــى المسؤولين في المؤسسة عموما ، انه مريض وعليهم أن يعالجوه • الا ان مرضه هو في الحقيقة تعجيزي يهدف من وراء التمسك به الى صدهم وافشالهم (عالجوني وغيروني اذا كنتم تستطيعون الى ذلك سبيلا)• انه يرد الكرة اليهم ويجلس متفرجا ماذا سيفعلون محولا بذلك الانظار عنه ، وقد يرد الكرة من خلال طرح مشكلات اسرية او مادية عسيرة الحل عليهم• في الحالتين ليس عليه ان يتغير بل على المسؤولين ان يغيروا وضعه الوجودي اذا ارادوا له ان يتكيف ، والا فهو في حل من كل جهد •

هناك أيضا التمسك بقانون التسعيرة : (لقد اذنبت واناالان أدفع ، ولذلك فانا لست مدينا لاحد بشيء ، ليس لاحد ان يحاسبني أو يقومني ، لست ملزما بالتغيير) !!

ب ـ يتخذ البحث عن سند للانحراف وتزيين هذا الاسلوب من الوجــود اشكالا عدة اهمها ما يلي : « اكتشا فاصدقاء جانحين ، التعاطف مع العصابات الجانحة ، الانجذاب نحو الوضعيات التي تطلق الافعال الجانحة ، البحث عن الوضعيات التي تغري بالانحراف ، الثورة لحساب الآخرين ، وهــم السلامة والقدرة على الافلات من العقاب ، الاعتماد على المهارات والطموحات المرتبطة بالانحراف(١) » •

---

(١) المرجع السابق صفحات ١٨٧ ـ ١٩٧ •

قدرة الجانح على اكتشاف العوامل التي تفرز الانحراف ادهشت العلماء، ان لديه حساسية مفرطة لهذه العوامل تجعل من السهل عليه اكتشاف رفاق المغامرة الجانحة ، أو اكتشاف أماكن تجمع الجانحين ، أو اكتشاف المشابهين له في جمع من الناس وكذلك اكتشاف الضحية الممكنة · ان في ذلك ما يقرب من التواصل اللاواعي الذي يخلق تنبها انتقائيا لاشخاص معينين أو وضعيات معينة تسمح بالانحراف · وعندما يجد نفسه في تلك الوضعيات يصبح من العسير عليه مقاومة ما تتضمنه من المغريات التي تكتسب جاذبية كبرى يزيد من قوتها نزوية وآنية الوجود الجانح من ناحية وتأييد الجماعة الجانحة للسلوك المنحرف واعلاء شأنه من ناحية ثانية · الانجذاب نحو المغريات يعطل الرقابة الخلقية ، والحصول على تأييد العصبة الجانحة يقضي على قانون المدينة كاطار مرجعي للسلوك فارضا عوضا عنه قانون البراعة في الانحراف والاستمتاع بثماره · وكلا الامرين يعطلان مشاعر الذنب ·

وحيث انه الميدان الوحيد للنجاح الذي يشعرون بالثقة بأنفسهم فيه ، فلا بد أن يتمسكوا بالنشاط الجانح ويقعوا في حالة اتكال عليه والا فاجأهم قلق العدم الوجودي ، قلق العجز وانعدام القيمة ·

وما يزيد من خطورة هذه الوضعية ، الوقوع في حالة من التفكير السحري الذي يخيل اليهم وهم السلامة والافلات من العقاب · ان قوانين السبب والمسبب لا تنطبق عليهم ، انهم متميزون عن غيرهم ولا بد للحظ ان يحالفهم · ثم أن الانية والنزوية تبعد من مجال تفكيرهم البحث في النتائج · بعد وصوله الى المؤسسة لا يصدق ما يجري ، يبدو كمن فوجىء فعلا بما آل اليه امره ، ويرفض الاعتراف بالواقع ظانا انه سيترك المؤسسة عما قريب معللا النفس باعتبارات شتى هي الىالوهم أقرب منها الى الواقع (أنه ليس كالاخرين ، وليس عليه اذا ان يقيم في المؤسسة التأهيلية) · وقد يؤكد هذه الحالة برفض الاندماج في البيئة الجديدة والتعامل مع الرفاق الجدد مما يضاعف من صعوباته التي لم يعُد لتحملها · وقد يفجر هذا الامر عنده قلقا شديدا وثورة عارمة ، ويحتاج عادة الى فترة ليست قصيرة حتى يتقبل الواقع الجديد شأنه في ذلك شأن انسان حلت به كارثة مفاجئة يجابهها بالنفي أولا وبأفكار سحرية ثانيا ولا يتمكن من تمثلها وتقبل الواقع الذي تتضمنه الا تدريجيا ·

جـ ـ مقاومة التغيير : لا يكفي ان يتقبل الجانح واقعه الجديد (هذا اذا تقبله فعلا) كي يتكيف ويتغير · قد يرضخ للواقع في كثير من الحالات ، انما

يحاول أن يجعل من اقامته في المؤسسة فترة معلقة من تاريخه ، يجهد كي يتجنب فيها كل تغيير . ويعبِّر الجانحون عن هذا الامر باشكال مختلفة تلخصها الصيغة التالية « لا بأس سأنام سنتين » (مدة الاقامة في المؤسسة أو السجن) . المهم اذا الغاء تأثير هذه الاقامة على شخصيته ،أن يخرج من المؤسسة كما دخلها . وليس من النادر ان نجد بعض السجناء مثلا يتأفف من نقص وزنه (ذلك امر يقلقه لانه يتحسس فيه مظاهر التأثر بالبيئة الجديدة) . هنالك من يذهب أبعد من ذلك فيرفض حتى زيادة الوزن لانها تزعجه بما تشير اليه من تحول ولو جسدي يلجأ الجانح اذا الى أوالية الالغاء ، فيرفض ويتنكر لكل عوامل التغيير . ويحاول ذلك بعدة وسائل اهمها تجنب الناس الذين يشكلون خطرا على الانحراف . يتلافى مخالطة الاحداث الميالين الى التكيف ويشن حربا عليهم بالتحالف مع أمثاله من المنحرفين . كما يتجنب التواصل مع الراشدين الذين يتميزون باللطف لانهم يعطلون أوالية الاسقاط الاضطهادي التي يلجأ اليها عادة (الآخر ظالم اذا أنا في حل من التمشي معه والتكيف لما يريد) . يبذل الجانح جهدا واضحا للدس والوقيعة واثارة حفيظة المسؤول عنه كي يتمكن بدوره من الاستجابة بشكل جانح . وهو يخنق في نفسه كل حاجته الى الحب والتعاطف والروابط الحميمة من أجل هذا الغرض . الحاجة الى الحب تجر حتما الالتزام بروابط ايجابية وبالتالي تحمل خطر التغيير . ويتم خنق هذه الحاجة بتعزيز الدرع الطباعي الذي يلبسه عادة والذي عرضنا لخصائصه ووظائفه في موضع سابق . وعندما يتمكن من ذلك يفلت من كل تأثير ، لا شيء ينفذ الى عالمه الداخلي ، انه كالبطة التي تخرج جافة بعد الغوص في الماء .

وقد يرفض الجانح لنفس السبب الدراسة او البرامج التدريبية كما بينّا سابقا كوسيلة للابتعاد عن عوامل التغيير . الا انه لا يتمكن من ذلك دائما ، اما نتيجة لضعف عن المجابهة او نتيجة للازعاجات التي يتعرض لها اذا ما فعل . فاذا كان الضغط عليه كبيرا قد يلجأ الى ما يسمي « بالتكيف الاستراتيجي ، او الهروب في الفضيلة (١) » يقر بمسؤوليته ، ويعلن التوبة والندم ويعد بالاقلاع عن حياته الماضية انما بشكل زائف يهدف الى تضليل محدثه . ويذهب في ذلك الى حد استخدام اللغة التي يعتقد انها تحظى برضى المسؤولين ساردا في كل لقاء له معهم الحكم والامثال التي تؤيد معايير التكيف . يضاف الى التوبة الزائفة تأقلم مع ظروف العيش في المؤسسة ومراعاة كبيرة للقواعد والمعايير

(١) ردل ، نفس المرجع ص ٢٠١ .

الرسمية · يتجنب مخالفة القوانين ، ينجح في الدراسة والتدريب ، يتمشى مع رغبة المسؤولين وتوقعاتهم · الهدف من ذلـــك هو تجنب كل صدام معهم يضع شخصيته موضع التساؤل · وغالبا ما يصل الى هدفه ذاك من خلال لعب دور الحدث النموذجي الذي لا يلفت اليه الانتبـــاه · وهو يختلف عن الحدث الذي يسير الى تكيف فعلي في اجتنابه لكل ازمات العلاقة مع المسؤولين ، يبدو كمن لا يطلب شيئا ، ولا يحتاج أي مساعدة · كل ذلك بأنتظار ساعة اخـلاء السبيل كي يعود الى سيرته الاولى ·

ان هذه الاواليات الدفاعية تتغير من حالة الى اخـــرى تبعا لكل وضعية وخصائصها ، فاذا فشلت بعضها لجأ الى غيرها وهكذا ·

وقد يلجأ الى اكتشاف نقـــاط الضعف في المربين والمسؤولين ويحاول ان يستشف ما هو قائم بينهم من صراع يستغله كي يفلت منهم جميعا من خـــلال التحالف مع بعضهم ضد الاخرين ، او من خـــلال اذكاء حدة خلافاتهم بشكل يلهيهم عنه · انه يلغم ، اذا تمكن ، كل حقل العلاقات بينـه وبينهم حتى لا يصل اليه تأثيرهم ، ولذلك فان التعـــامل معه يحتاج الى كثيـــر من الفطنة واليقظة والبصيرة ، كما يحتاج الى شخصية ناضجة ثابتة القدمين تعي كل تلك المناورات وتستمر في تعاطفها وانفتاحها تجاهه بانتظار لحظـــات تراخي الدرع الطباعي وبروز الحاجات والمعاناة الحميمة ·

رابعا : مؤشرات الخطورة

لا يتساوى جميع الجانحين ، بصرف النظر عن نوع انحرافهم ، في درجة خطورتهم · ومن المهم جدا تقدير هذه الخطورة من اجل التخطيط السليم لعملية التأهيل · ولقد ثار جدل كبير بين العلماء حول نوعها وكيفية تحديدها · فالمنطلق القانوني يحددها استنادا الى شدة الاعتداء على القـــانون : مخالفة ، جنحة ، جناية · أما المنطلق العيادي الاجتماعي فلا يعطي كل الوزن لتلك الشدة ، بـــل يهتم اضافة الى ذلك بنوع التوجه الحياتي العام · فالجـانح قد يرتكب سلسلة مخالفات يظهر البحث انها نذير ببداية توجـــه نحو الانحراف الاكيد ، ويكون عندها اخطر من آخر ارتكب جناية معزولة في تاريخه الشخصي · ونحن هنـــا تتبنى المنطلق العيادي كما بينّا في موضع سابق ، ونركز جهدنا على استخلاص القوى او المؤشرات التي تنذر بذلك التوجه نحو الانحراف كأسلوب في الحياة · يحكم هذا الاختيار تقدير احتياجات وصعوبات التأهيل في كل حالة ·

الا ان المشكلة الاهم في تقدير الخطورة تتلخص في تحديد مركزها · هناك من قال بالخطورة الذاتية ، الجانح الخطر هو ذاك الذي تتسم شخصيته بخصائص معينة تجعله غير قابل للتأهيل بسهولة او تجعل ميله الى النشاط الجانح هو الغالب في مختلف الوضعيات الحياتية · وهناك من ركز الخطورة على المستوى العلائقي ، قائلا ان الجانح ليس خطرا الا في وضعيات علائقية محددة، يثار فيها أو يدفع الى لعب الدور العدواني · وهناك من ارجع الخطورة الى المحيط الاجتماعي وما فيه من ضغوط تدفع نحو الانحراف او عوامل تعيق التكيف ·

الواقع ان لكل فريق من هؤلاء نصيب من الصواب في وجهة نظره · الا ان أيا منهم لا يستطيع الاحاطة بمسألة الخطورة بالشمول الكافي · ولا بد من الاخذ بوجهة النظر الجدلية في التفاعل العلئّي كي نحددها فعلا · وعلى ذلك فسنبحث أوجه القضية الثلاثة بالتتابع ثم ننتهي الى صورة دينامية : الخطورة الذاتية ، الخطورة العلائقية ، الخطورة الاجتماعية ·

ا ـ الخطورة الذاتية

كل الدراسات التقليدية حول المجرمين انطلقت من البعد الشخصي لتحديد الخطورة معتبرة الامر مسألة جوانية محضة ، سمات او صفات متنوعة تجعل الانحراف أمرا شبه حتمي بصرف النظر عن البعد العلائقي والشرط الوجودي او الاطار الاجتماعي او هي في احسن الاحوال لا تعطي لهذه الابعاد سوى دورا جد ثانوي · من هنا كانت نظرية لومبروز حول المجرم بالفطرة الذي يحدد من خلال سمات الاندثار (١) او الفساد بواسطة الاناسية المترية (٢) (خلل في الانسجام بين الاعضاء متعدد الجوانب) ويكفي ان يتصف انسان ما بخمسة من هذه السمات حتى يحكم عليه بالاجرام الفطري الحتمي ·

ولقد استمرت هذه النظرة الفردية التي ترد الامر الى خلل ذاتي محض رغم اتخاذها اشكالا مختلفة تبعا لتطور علوم الانسان وتقدم الابحاث في ميدان الانحراف·محل المجرم بالفطرة وقريبا منه برز المجرم الجبلي (خلاف في التسمية

---

(١) سمات الاندثار Stigmates de degénerescence

(٢) اناسية مترية Anthropometrie

فقط) مع نقل الاهمية من البعد العضوي الى البعد الطباعي (انعدام الحساسية الخلقية والعاطفية ، الانانية المفرطة ، عدم فعالية الثواب والعقاب ، عدم امكانية التأهيل) · ثم تطور الامر ثانية الى المستوى النفساني فبرزت تسمية جديدة : الشخصية السيكوباتية · تعني هذه التسمية (وهي انكليزية الاصل) اضطراب في الشخصية يأخذ شكـــل خلل نزوي وعلائقـــي ووجودي يؤدي الى تكرار الاصطدام بالقانون والمعاير الاجتماعية في حالـــة من التعلق الاعمى بالاهداف (المركزة حول المتعة المادية) مع استحالة العلاج النفساني او التأهيل التربوي· يتصف السيكوباتي بالانانيـــة المفرطة ، التركز حول اللذة ، انعـــدام الالتزام العاطفي ، العيش في اللحظة الراهنة ، عدم القـــدرة على الاتعاظ من تجارب الحياة (عدم فعالية الثواب والعقاب) ، التعبير الزائـــف · ويرجع السبب اما الى عوامل جبلية او تاريخية من الطفولة الاولى او تفاعلهما معا ·

في مرحلة تالية خفت حدة الوصمة التي كان يدمـــغ بها الجانح ، وبـــدأ الحديث عن شخصية جانحة او معرضة لخطر الانحـــراف في ظروف معينة ، وتتصف بخصائص معينة يعتبر وجودها دليل خطورة تكيفية · هناك في هـــذا الصدد عدد لا بأس من الابحاث النظرية او التطبيقية حول مؤشرات الخطورة ·

تعتبر نظرية النواة المركزية للشخصية الجانحة التي استخلصها بيناتل (١) من استعراض عدد كبير من الابحاث حول الجانحين نموذجا للبحث النظري في الخطورة الذاتية · يلخص الباحث خصائص الشخصية الجـــانحة (مؤشرات الخطورة) في اربع اساسية تتكرر بدرجة كبيرة عند معظم المنحرفين : الانوية، الميوعة الوجودية ، العدوانية ، واللامبالاة العاطفية ·

اما الانوية فهي مسؤولة عن مشاعر الغيظ والشعور بالاحباط والحساسية للغبن وتبرير الافعال ، والحسد والغيرة وانعدام القدرة على مراعاة الآخرين ·

واما الميوعة الوجودية فتتخذ طابع الميل نحو عـــدم الاستقرار والتذبذب العاطفي والمزاجي وضعف الارادة ، وقلـــة مقاومة المغريات وصعوبة الضبط الذاتي والبحث عن الاشباع الآني ·

اما العدوانية فهي لا تحتاج الى تبرير ، كل فعل جانح يتضمن بالضرورة

---

(١) انظر : J. Pinatel, traité de droit pénal et de criminologie, Tome III, Paris, Dalloz, 1963.

عدوانا على الاخرين وعلى الذات وعلى المجتمع ٠

وأما اللامبالاة العاطفية فتتلخص بانعدام الحساسية تجاه الاخر ، انعدام مشاعر التعاطف والغيرية ٠ وهي صفة تجعـــل الاعتداء عليه او على مصالحه أمرا ممكنا ، وبالتالي تعتبر ركنا هاما من اركان الانحراف ٠

التغير الهام هنا هو في النظرة الى اصل هذه الصفات من ناحية وامكانيات العلاج من ناحية ثانية ٠ انه يتضمن اعترافا بتاريخية الجانح ويجعله اكثـــر انسانية من خلال الاعتراف بقابليته للتأهيل ٠ الا انها تظل في اهتمامها مركزة حول البعد الذاتي كسبب اساس للسلوك الجانح ٠

اما من الناحية التطبيقية، فان ابحاث ديبويست (١) على استجابات صغار الجانحين على رائز تبصر" المتون لتحديد درجة خطورتهم ، تقـدم مثالا جيدا ٠ فلقد قارن بين استجابات مجموعة من المراهقين الجـــانحين بأخرى مماثلة من المراهقين الاسوياء ، ووجد فروقا دالة احصائيا بين المجموعتين ٠
تعتبر الاجابة جانحة او متجاذبة او سوية كالتالي :

١ ـ **الاجابات الجانحة :** ا) البطل شخص عدواني ، معـــارض او مضاد للمجتمع ، يعيش في حالة تعارض او صراع مع المحيط (مجتمع ، أسرة ، قرين) تستمر الوضعية الصراعية طوال القصة ٠ تظل بدون حل او تجاوز ٠ لا يشعر البطل بأي احاسيس اثم ٠

ب ـ يفترض جواب المفحوص ان البطل يظهر موقفـا تحقيريا او تبخيسيا تجاه الاخرين دون ان يلطف هذا الاتجاه بأي صورة من الصور ٠

ج ـ يفترض الجواب من قبل المفحوص تماه متعّي (٢) بالبطل ٠ على ان المفحوص يجب ان يفصح عن مثله الاعلى المتعي" هذا ٠ ولا يكفي مجرد وصف شخص كسول ٠

٢ ـ **الاجابات المتجاذبة :** تقسم الى قسمين متجانبـــة فاترة ، ومتجاذبة نشطة ٠

---

(1) C. Debuyest, la criminolcgie clinique, Bruxelles, Dessart, 1968

(٢) متعي : Hédonique

أ ـ المتجاذبة الفاترة اهمها: صراع بين البطل والمحيط وحل لهذا الصراع على حساب البطل تحت ضغط عناصر خارجية تفرض عليه وبدون الشعور بأي اثم · وقوع البطل ضحية فعل جانـــح بدون صلح او تعويض لاحق · انعدام المبادرة تجاه الصعوبات التي يجد البطل نفسه فيها (يستسلم ، يتراخى ، ولا ينظم جهده ، يفقد شجاعته وأمله) · تمـــاهي ملطف بأشخاص عدوانيين او مضادين للمجتمع ·

ب ـ المتجاذبة النشطة اهمها : صراع او انحراف يحل من خلال المصالحة او يولد مشاعر اثم عند المفحوص او توبة وندم · محاولة ايجاد حل للوضعيات الصعبة · يستطيع المفحوص تصور التزام مهني مقبول اجتماعيا · الاشارة الى وفاق ممكن ولكن مبهم وغير محدد بين الابطال · اشارة الى نشاطات عبثية او محايدة بدون التزام عاطفي ولكن مع قدرة على المتعة والسرور ·

٣ ـ **الاجابات السوية** : تتضمن جهدا بناء يقوم به البطل من اجل انغراس اجتماعي ملائم وجهد موجه نحو المستقبل بشكـــل نشط · يعيش البطل تبادلا عاطفيا فعليا مع الاخرين يتميز بالاستقرار والملاءمة الاجتماعية ·

فائدة هذه الابحاث في تشخيص خطورة الميل الى الانحراف لا شك فيها · وقد يكون من الطريف القيام بدراسات مقارنة حـــول هذا الموضوع بين لبنان وبلجيكا ، لنرى مدى فعالية هذه المؤشرات وصلاحيتها على البيئة المحلية · ان الخبرة العيادية للمؤلف في هـــذا الصدد تشير الى بعض الصلة بين اجابات اللبنانيين وتصنيف ديبويست وهي بدورها تلتقي مع نتائـج بحث عـلى الاحداث الجانحين المصريين لدراسة اضطرابات صورة الذات والتماهي بالاب مـن خلال رائز الرتم · فلقد وجد ان العلاقات مع المحيط ومع الصور الوالـدية والراشدة وكذلك ردود فعل البطل ومواقفه ، وقدرته على الحلول الايجابية ودرجة الصراع والعدوانيــة التي تميز وجوده متقاربـــة مع اجابات اللبنانيين والبلجيكيين المنحرفين ولكن الغالب على اجابات اللبنانيين هو النمط المتجاذب الفاتر والنشط على السواء ، مما يشير الى سهولة تكيفهـــم في ظروف ملائمة · الا انه يجب الحذر من حماس زائد بهذا الصدد يؤدي الى تعمية معرفية من خلال الاكتفـــاء بهذه المؤشرات واعتبار مشكلة الخطورة محلولة · ان التسرع قد يؤدي الـــى

---

(١) كمال جندي ابو السعد ، انحراف الاحداث القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ ·

عملية وصم للجانح يخفي الابعاد العلائقية والبيئية · اختزال مشكلة الخطورة الى بعدها الذاتي كان دائما من الاخطار الاكيدة في الابحاث على الجانحين ·

واذا ابقينا هذه التحفظات ماثلة امام اذهاننا نستطيع ان نستعرض اكثر مؤشرات الخطورة عند الاحداث تكرارا كمـــا تبدو خلال الممارسة العيادية · ونسرع فنقول قبل هذا الاستعراض اننا لسنا بصدد صفات ثابتة في الشخصية، ان الامر في معظم الحالات لا يعدو كونه اواليات دفاعية تبدي درجات متفاوتة من الصلابة بقدر ما تقترب من سمات الدرع الطباعي الذي يحتمي به الجانح · وهي قابلة في الغالبية العظمى من الحـــالات للتعديل بوسائل العلاج والتربية الملائمين ·

أهم مؤشرات التوجه الفعلي نحـــو الانحراف عند الجانحين اللبنانيين ما يلي :

١ ـ سوء التوافق المدرسي والمهني منذ سن مبكرة · فالحدث يفشل فـــي الاندماج في عالم المدرسة ولا يتمكن من تحقيق ذاته من خلال التحصيل العلمي· يهرب بشكل متكرر لمخالطة رفاق لهو غير متكيفين · يغير المدرسة اكثر من مرة· ثم يترك الدراسة شبه أمي في اواسط المرحلة الابتدائية بعد تكرار سقوطه ·

محاولات التدريب والانغراس المهني تلقى نفس المصير · انتقال متكرر من عمل لاخر بشكل يرسّخ فشله · ثم قطع الصلة كليا او جزئيا بالعمل والتحول الى النشاط الجانح ، مع الاحتفاظ بذكرى واهنة او سلبية تماما عن تجربته تلك، وميل الى تجنب الحديث عنها اثناء الفحص النفساني ·

٢ ـ موقف اضطهادي او مراوغ او تمثيلي من سلوكه الجانح والاجراءات القضائية التي تلته · فهو يتنصل باشكال مختلفة من مسؤوليته الشخصية من ناحية (كما رأينا عند الحديث عن الاواليات الدفاعية) ويبدي الاحساس بالغبن من الاجراءات القضائية (لا تتناسب مطلقا في نظره مـــع ما اقدم عليه) التي يرى فيها انتقاما لا مبرر له وليس اجـــراء اصلاحيا · وهو الى ذلك يرفض الاعتراف بحاجته الى مثل تلك الاجـــراءات ، او يقف منها موقـــف الراضخ ظاهريا كجزء من قدره او كجزء من اخطـــار المهنة مع امل بامكانية الخلاص السحري ·

٣ ـ الغربة الوجودية عن العالـــم الاجتماعي والعلائقي خارج المؤسسة

التأهيلية وداخلها • الغربة عن كل النشاطات الجماعية او التي تؤدي الى الاندماج الاجتماعي، في حالة من تحصين الذات ضمن قوقعة مغلقة على تأثيرات العالم الخارجي• تتضح هذه الغربة من خلال الاحتفاظ بمسافة علائقية وعاطفية واضحة بينه وبين الفاحص او المربي • يشعر هؤلاء بأن الحدث ينتمي الى عالم مغاير كليا لعالمهم ويعيش تجربة وجودية ليس لها اي روابط بالمشاركة الانسانية العادية مع الاخرين • وكلما حاول احدهم النفاذ الى عالمه او فتح ثغرة في قوقعته نرى الجانح يستجيب بشكل دفاعي محبطا تلك المحاولة ، ومستعيدا للمسافة التي كانت بينه وبين الاخر •

٤ ـ الدرع الطباعي الذي يتخذ مظهرين اساسيين : تجنب الالتزام في العلاقات العاطفية والميل الاسقاطي الاضطهادي • أما تجنب العلاقات العاطفية فيبدو واضحا في الموقف من الاسرة والمربين والمسؤولين والرفاق • روابط البنوة لا وجود لها ، او لا وزن لها ، او هي فاقدة لشحنتها العاطفية • انها في احسن الاحوال علاقات منفعة مادية • وكذلك حال العلاقات مع المسؤولين داخل المؤسسة ومع الرفاق • فهذه يطغى عليها الطابع الاضطهادي يرى في الاخرين سبب بؤسه أو انزعاجه او فشله ، انهم ينغصون عليه حياته •

وهو لذلك متربص دوما بأي مظهر للتقصير من جانبهم كي يغذي موقفه الاضطهادي منهم • يؤدي هذا الدرع الطباعي الى ظهور الجانح بمظهر الانوي الاناني عديم العاطفة ، عديم التعاطف مع الاخرين ، عدوانيا لا يتراجع امام التهجم عليهم والحاق الضرر بهم •

٥ ـ العينية والانية اللتان تعطيان طابعا متصلبا للشخصية التي تفتقر الى المرونة التكيفية (الاشباع البديل ، التأجل) • ويؤدي هذا الامر الى النزوية والى تضخم الاحباط مما يدفع به الى السلوك العنيف الذي يخلو من كل تبصر بعواقب الامور • ويبدو الجانح عديم الصبر ، عديم التفهم لاعتبارات الواقع مستقطبا كليا برغباته وضرورة اشباعها المباشر والمادي بدون ان يقوم بالجهد اللازم لذلك فعليا • انه يتوقع من الآخرين ان يلبوا طلباته منذ بروزها الى حيز وعيه وكأنهم ملزمون بهذا الامر ، والا فانه يحملهم النتائج كاملة ، يضع عليهم وزر افعاله النزوية •

ب ـ الخطورة العلائقية

اذا كان يصح البحث في خطورة ذاتية عند الجانحين الراشدين ، حيث

تكون الشخصية قد اتخذت طابعا ثابتا في بنيتها وديناميتها وتوجهها الوجودي العام ، فان الامر مدعاة للشك عند الاحداث منهم • فهؤلاء غير مسؤولين قانونيا واجتماعيا ونفسانيا • تكيفهم او انحرافهم رهن بالشرط الحياتي الذي يوجدون فيه ، بنوع الرعاية التي يحظون بها ، او بالاخطار التي يتعرضون لها •

ولذلك فحديثنا السابق دار في معظمه تحت شعار احتمالات التوجه نحو الانحراف وصعوبات التكيف • ما اوردناه من مؤشرات تتراوح ما بين خصائص ذاتية وظروف تاريخية وتفاعل علائقي ، ليست لها طابع الصفات الثابتة • والواقع ان الحدث الجانح ليس خطرا • الا بمقدار ما نعتبره كذلك (خصوصا المسؤولين عن تأهيله او الاشخاص ذوي التأثير الكبير في حياته) •

ان المؤشرات الخمسة التي اوردناها لا تأخذ كل وزنها وتأثيرها الا بقدر ما تؤدي الى تكوين موقف من الحدث الجانح يتصف بالسلبية او الريبة او التحفظ • تتحول عندها الوضعية من المستوى الذاتي الى التفاعل العلائقي السلبي ويخضع الحدث لعملية وصم تسد الطريق امام بروز القوى الخلاقة في شخصيته من خلال تعزيز القوى المضادة للتكيف • تحدث عملية الوصم من خلال اختزاله الى صفاته السلبية ونواياه العدوانية • يفقد بذلك انسانيته ، او اعتباره كآخر يعاني و يحتاج المساعدة كي يتمكن من الوصول الى مكانة شخصية ذات قيمة • وهذا ما يسمى بعملية التشييء : فقدان الدلالة الانسانية (بما لها وما عليها) واكتساب دلالة تصنيفية هي مجموع الصفات السالبة • منذ تلك اللحظة لا يعود الاخر (المسؤول او المربي او الاسرة) يتصرف تجاه الحدث ، بل تجاه كائن اسطوري هو مجموع تلك الصفات السالبة (انه الفاسق ، الكسول ، النزوي ، غير المستقر ، العدواني الخ •••) • وحين يقع تحت وطأة وصمة كهذه يفقد فعلا فرصته في استعادة الاعتبار الذي لا يمكن ان يتم الا من خلال علاقة ايجابية بآخر يعترف له بقيمته الانسانية • ان الصفات السلبية هذه تبرز بشكل قوي طامسة ما عداها ويبني انطلاقا منها نظام من التوقعات لا يساعد مطلقا على بروز صفة ايجابية فالمسؤول لا ينتبه الا الى المشكلات السلوكية والعلائقية التي يقع فيها الحدث كي يرسخ قناعته بالحكم التشييئي الذي اصدره عليه • وهو يميل الى ادانته قبل غيره والى الظن به عندما تحدث مشكلة في الجماعة • ويضطر الجانح نتيجة لذلك كله ان يتمشى مع هذه التوقعات مندفعا في طريق سوء التكيف • ذلك امر تثبته كل يوم الممارسة العيادية والتأهيلية مع

الجانحين الاحداث ، ان التحولات التي قد تحدث في حياة الواحد من هؤلاء نحو التكيف لا تتم واقعيا الا عندما يتم تحول في النظرة اليه · على ان هذا التحول صعب اذا ترسخت عملية الوصم ، اذ انها بحاجة الى تعزيز من قبل من قام بها، لتبرير موقفه وتجنب مشاعر الاثم التي تصاحبها عـــادة ، فالوصم والاختزال والتشييء اعتداء على الاخر لا يحدث بدون ازمة ضمير عنـــد الانسان العادي تثير مسؤوليته الشخصية · وحتى يتجنب تلك المشاعر يبالغ في حكمه السيء ويحاول ان يدعمـّه بقرائن متعـــددة لها سند من الواقـــع ولكنها ذات طبيعة اسقاطية في معظم الاحيان · وعند هذا الحد يتخذ الامر بالضرورة طابعا قطعيا لا مجال فيه لاعادة النظر وتلطيف الاحكام · يصبح المسؤول بحاجة (واعيـــة او لاواعية) لما يؤيد موقفه النابذ ، الرافض ، العدائي الذي يجنبه عناء الفهم والتفهم والجهد طويل النفس من اجل الاخذ بيد الجانح ·

ان كثيرا من الاحداث الجانحين الذين انتهوا الى الانحراف الفعلي قد مروا بسلسلة من عمليات الوصم هذه ، تبدأ عادة في الاسرة حيث لا يجد مكانة ودلالة ايجابية وتستمر في المدرسة التي تعزز الوصمة الاسرية من خلال موقف المعلـم ثم في محاولات التدريب المهني واخيرا في ميـــدان الانحراف · وتبلغ الوصمة اقصاها عندما تسقط على شكله الخارجي خصائص المجرمين (نظراته نظرات لص ، شكله شكل مجرم ، انه يثير الحذر او التقـــزز في النفس ، هكذا يقولون شعبيا) يأتي الى المؤسسة التأهيلية وقد تعلـــم ان لا يتوقع من الاخرين سوى الادانة والوصم ولذلك يجابههم بالحـــــذر ويلجأ بدوره الى الاسقاط العدواني عليهم · وهذا ما يعزز ويعمم عملية الوصم بعد مدة تطول او تقصر من اقامـــته في المحيط الجديد ، يحكم علية المسؤولون نفس الاحكام يبررونها من قراءة ملفه (سوابقه) ومن تكرار الصراعات السلوكية التي يقع فيها ·

ان عملية الوصم بطبيعتها الاختزالية الاسقاطية سلوك مرضي لا شك فيه· فالمربي وقبله رب العمل والمعلم وقبلهم جميعا الوالدان او احدهما ، يسقط مـا ينفر منه في ذاته على الحدث الجانح ، يسقط عليه عدوانه الذي يخشاه ، يسقط عليه نواياه اللاخلقية التي يرفضها يسقط عليه خجله من قصوره الذاتي (لست انا المسؤول او المقصر بل هو غير القابل للعلاج والتربية) يسقط عليـــه خوفه (لست انا من يخاف ولكن هو الخطر على سلامة الاخرين) يسقط عليه السادية (لست انا من يريد التسلط وخصاء الاخرين بل هو الشرس الذي يحتـاج الى

عقاب رادع لضبطه) واكثر من ذلك يسقط عليه ميوله الجانحة التي يحاربها في وعيه (انا انفر من الجانحين الفاسقين ، انا لا اعجب بهم ، انا لا يمكن ان اقبل تصرفاتهم او آتي بمثلها) ٠ واخيرا قد ينبذ الحدث لانه يتمتع بشخصية تؤكـد ذاتها وترفض الدخول في لعبة العلاقة الدمجيـة التملكية التي تحوله الى طفل وتمنعه من الوصول الى الذكورة جسديا وجنسيا ونفسيا (العلاقة التي تخصيه) اذا رفض الخصاء فقد ينبذ بحجة حاجتـه الى اجراءات تربوية او علاجية او تأهيلية (ما شابه) لا تتوفر في المؤسسة ، او بحجـة الخطر الذي يشكله على سلامة الاحداث الاخرين (الذين قبلوا الخصاء ولو ظاهريا على الاقل) ٠

لقد جابهت المؤلف خلال ممارسته العيادية مع الاحـداث الجانحين امثلة عديدة جدا عن فشل عملية التأهيل نتيجة لنبـذ المسؤولين للحدث اما لانه يثير بمشكلاته مآزم نفسية عندهم لا يستطيعون احتمالها واما لما يسقطون عليـه من دلالات ٠ كان يرى الواحد من هؤلاء ينجـرف الى مصيره البائس بعد ان وصم ويجد نفسه عاجزا عن التدخل لانقاذ الموقف نتيجة لتصلب شبه مرضي من قبـل المربي او المسؤول او الاسرة ٠

ان الخطورة العلائقية لا تقارن بآثارها الحاسمة على تكيف الحدث الجانح بالخطورة الذاتية التي لا تحتل فعليا سوى دورا ثانويا ٠ الغالبية العظمى من حالات الانحراف الخطير هي في النهاية وليدة عملية تفـاعل علائقي واصم ٠ ولذلك فلا تأهيل ممكن للجانح اذا لم تتخذ الاحتياطات الكافية لتجنب اخطار ذلك التفاعل او علاج ما حدث منه ٠ لا تأهيل ممكن الا عندما تعاد الصلة الايجابية التي تضمن الاعتراف المتبادل بانسانية الحدث والقائم على شانه ٠

ج ـ الخطورة الاجتماعية

تتناسب خطورة الانحراف طرديا مع قصور امكانيات رعاية الطفولة من ناحية وقصور امكانيات التأهيل من ناحية ثانية ٠ ولذلك فالخطورة هي في المقام الاول امر اجتماعي ٠ الجانح ليس خطرا الا بمقـدار تعرضه لقوى تسد امامه سبيل الحياة المتكيفة والاندماج الاجتماعي الفعال الذي يميل اليه تلقائيا ٠ وهو ليس خطرا الا عندما تفتقر البيئة الى التجهزات الملائمة لتأهيله٠ من هذا المنظور يمكن ان نشير الى بعض الظروف التي تسهل التوجه الى الانحراف ثم تعززه ، ثم تعيق التأهيل فيما بعد ٠ من اهم هذه العوامل الفاعلة في مجتمعنا ما يلي :

١ ـ عدم كفاية التشريعات الخاصة برعايـــة الطفولة • فالطفل لا يحظى دائما وفي الاوساط الهامشية على وجه التحديد بالحماية الملائمة من سوء معاملة الاهل او اهمالهم او استغلالهم له منذ سن مبكرة في نشاطات هامشية اولا ثم جانحة فيما بعد • يتعرض الطفل الى سوء الرعاية فينجرف الى الشارع كمجال حيوي اساسي وهنالك يقع في وضعية الخطر الخلقي الصريح، وضعية التشجيع على النشاطات غير المتكيفة •

٢ ـ يمنع قانون العمل اللبناني تشغيل الاطفال والاحداث، بقصد حمايتهم• الا ان الواقع لا يتطابق مع ذلك دائما • هنـــالك العديد من الاسر التي تضطر لتشغيل ابنائها قبل سن الخامسة عشرة وبعضها قبل سن العاشرة • يقع هؤلاء ضحية استغلال الاهل من جانب وارباب العمل من جانب آخر • يشغلون فـــي ظروف لا تتوفر لهم فيها الشروط الضرورية لنموهم الجسدي والنفسي السليم ، يتعرضون منذ سن مبكرة الى تجارب ومغريات لا يستطيعون مقاومتها ولا تسهل الاندماج المهني والاجتماعي • تؤدي هذه الوضعية الى الهروب والتشرد مـــن الاسرة والعمل معا فتتلقفهم الاوساط الجانحة •

٣ ـ عدم فرض التعليم الالزامي الى نهاية المرحلة الابتدائية علىالاقل مما يترك اعدادا لا يمكن تجاهلها من الاطفال خارج الاطار المدرسي • ولذلك نتائجه الخطيرة نظرا لعدم توفر الرعاية البديلة من ناحية ولان الدراسة الابتدائية تعتبر حاليا (على الاقل في الاوساط الحضرية) القنـــــاة الاولى للتكيف والاندماج الاجتماعي السليم من ناحية ثانية • الطفل الذي لم يذهب الى المدرسة ويندمج في جوها ليس امامه من بديل سوى الشارع بمـــا يتضمن من خطر خلقي ، او العمل الذي لا يتلاءم مع شروط النمو السليم •

٤ ـ عدم كفاية التجهيزات الخاصة برعاية الطفولة وذلـــك منذ السنوات الاولى للحياة : مراكز خدمات اجتماعية وصحية ونفسية للاسرة واطفـــالها • خصوصا ان الكثير من الاسر التي تعزز الانحراف عاجـــزة ماديا او نفسيا او تربويا عن العناية الملائمة باطفالها • فاذا لم تلق مساعدة خارجية تغطى هذا العجز ، سيكون مصير الطفل الضياع وبالتالي التشرد فالانحراف • وكذلك عدم كفاية تجهيزات رعاية الطفولـــة وتوجيهها بشكل يحميهـــا من ضغط وجاذبية الشارع •

٥ ـ انخفاض مستوى المدارس الابتدائية الخاصة (دكاكين التعليم) التي

تكثر في الاحياء الهامشية والبيئات التي تنتج الانحراف· ان هذه المدارس تفتقر الى أدنى مقومات جذب الطفل للدراسة وخلق الدافع عنـده للتحصيل العلمي ، وبالتالي للانغراس الاجتماعي·فهي تخلو عموما من التجهيزات المادية والصحية والبشرية والعلمية التي تحبب الطفل بالمدرسة · والنتيجـــة كما تدل الممارسة الاجتماعية في تلك الاحيـــاء ان الطفل يبدأ الهـــروب من المدرسة والنفور من الدراسة بعد سنتين او ثلاثة على الاكثر من تجربة التعليم ، معظم الاحيان مـا بين الثامنة والحادية عشرة · ولقد دلت التجارب على ان مرحلة السن هذه من اخطر مراحل الطفولة من حيث احتمالات التكيف او الانحراف · اذا لم يندمج الطفل في جو المدرسة فلن يجد مجالا آخر يساعده على الانغراس الاجتماعي · البديل الوحيد حاليا هو الشارع وجماعات الرفاق غير المتكيفين

٦ ـ عدم كفاية المؤسسات التأهيلية للطفولة المتشردة والجانحة · فهذه المؤسسات لا تستطيـــع ان تغطي سوى نسبة ضئيلة جـــدا من الحجم الكلي للظاهرة · وهي تعمل في ظروف ليست دائما يسيرة من حيث توفـر التجهيزات البشرية والمادية المكلفة بالضرورة · ورغم الجهود الكبيرة التي يبذلها القائمون عليها ، ورغم النتائج الحسنة التي تحصل عليها ضمن امكانياتها ، تظل اقرب ما يكون الى جزيرات معزولة ضمن الاطار الاجتمـــاعي الكلي ، طالما انعدمت الخطة المتكاملة لعلاج مشكلة الطفولة · ولا يجوز ان ننسى ان بعضا من هذه المؤسسات التي لا تهتم بالضرورة بالتشرد والانحراف تؤدي واقعيا نظرا لرداءة تجهيزاتها وبرامجها الى دفع الاطفال الذين ترعـــاهم الى سوء التكيف بدل أن تعوض قصور الاسرة او اضطرابها او غيابها كما هو مفترض فيها ·

٧ ـ عدم كفاية تجهيزات الرعاية اللاحقة او خدمات المتابعة بعد اقامـــة الطفل او الحدث في مؤسسة رعائية او تأهيلية ·ان الجهد المبذول للتأهيل خلال الاقامة في المؤسسة يظل معرضا لخطر الضياع اذا لم يجد الحدث السند والدعم الفعليين للانغراس الاجتماعي الملائم · انه بحاجة الى مساعدة لتدبير شؤونـه المهنية والمعاشية والعائلية ، لانه يعجز عن مجابهات التحديات التي يصادفها في هذا الصدد بمفرده فاذا فشل في محاولاته الاولى سيكون امام خطر جدي للعودة الى حياته السابقة في عمر لا تتوفر له اي تجهيزات للرعاية حاليا ، نقصد بذلك الخدمات الخاصة بالشبيبة · ان قسما من هؤلاء يعامـل على اساس المسؤولية الكاملة قانونيا رغم عجزه الفعلي عن مجابهـــة التحديات التي تصادفه نتيجة لحياته السابقة وظروفه الحالية · وكما ان هناك مرحلة حرجة (سن ٨ ـ ١١)

للتوجه نحو الانحراف ، فهناك مرحلة اخرى حرجـــة (سن ١٥ ـ ٢١) تحمل خطر الاحتراف • التجهيزات قاصرة حاليا بالنسبة للمرحلتين •

٨ ـ قبل ذلك كله وبعده ، هنالك عدم كفاية الاهتمام بالمشكلة• فهي لا تحتل سوى مكانة متواضعة في سلم الافضليات على المستوى الاجتماعي الكلي • وهي لا تحظى الى الان بما تستحق من قلق الجمهور والمسؤولين • الحل في هــذه الحالة هو التخطيط الشامل لسد الثغرات في التشريعات والتجهيزات على مختلف المستويات والمراحل ، والتغيير الاجتماعي الذي يقضي على القوى الدافعة الى التشرد والانحراف والمشجعة عليه والمعطّلة لعملية التأهيل •

ان خطورة توجه الحدث الى الانحراف هي محصلة جدلية للتفاعل والتحديد المتبادلين للاوجه الثلاثة التي استعرضناهــا (الخطورة الذاتية ، الخطورة العلائقية والخطورة الاجتماعية) • في هذا التفــاعل تلعب الاخيرتين الدور الاساسي في مرحلة اولى ، ثم تأتي الثالثــة لتحتل مكانها فتعزز تأثيرهما • وتكون نتيجة هذا التعزيز تدعيم لها بدورها • وهكذا يسير الامر الى التضخم التدريجي الذي يزيد من عملية الوصم ويزيد من حدة قصور التجهزات • وتقوم حلقة مفرغة تلف الجانــح والمجتمع في دوامتها • تنتقل عدوى الوصم مــن المسؤولين والاسرة الى المجتمع الكلي • يتحول موقف الجمهور من التجــاذب الوجداني (الخوف والحذر والشفقة والتعاطف) الى القطيعة التي يطغى عليها الجانب السلبي (القلق والحذر) الذي سرعان مــا يتحول الى عدوان صريح بقدر ما يتقدم الجانح على طريق الانحــراف المحتوم • وتحل محل محاولات التاهيل عملية العزل من اجل حماية الجماعة • ويؤدي العــزل المتكرر والذي تطول مدته بالتدريج مع تكرار الافعال الجانحة الى التدمير المعنوي والاحتراف•

اضطراب الجانح كبقيــة اشكال المرض وسوء التكيف او سوء الانغراس قناع يخفي المشكلة الاجتماعية ومؤشر يدل عليها في آن معا • ان وظيفة القناع هذه هي في النهاية العقبــة الاساسية في وجه التأهيل الفعــال والوقاية من التشرد والانحراف •

ثبت المصطلحات الواردة في النص

ـ ١ ـ

ـ ائتمار (تبعية)	(Ang. Franc.) Subordination
ـ اب خاص	Père castrateur
ـ اب ساقط	Père déchu
ـ ابدال	(Ang. Franc.) Substitution
ـ ابله	(Ang. Franc.) Imbécile
ـ اتجاه	(Ang. Franc.) Direction
ـ اجتياف	(Ang. Franc.) Introjection
ـ احباط	(Ang. Franc.) Frustration
ـ احيائية	(Biology) Biclogie
ـ اختزال (اختزالية)	(Ang. Franc.) Réduction (Réductionisme)
ـ ادماج	(Ang. Franc.) Incorporation
ـ ازمان	Chronicisation
ـ استبصار	(Ang. Franc.) Insight
ـ استمرارية	(Ang. Franc.) Pérseveration
ـ استهياء	(Ang. Franc.) Prédisposition
ـ اسقاط	(Ang. Franc.) Projection
ـ ارضاء	(Ang. Franc.) Satisfaction
ـ اضبط	(Ambidenter) Ambidextre
ـ اضطراب الطبع	(character disorder) Trouble de caractère
ـ اضطهاد (مشاعر)	(feelings of persecution) pérsécution (sentiments)
ـ اعتام الوعي (عطش)	Obnubilation de la conscience
ـ الأنا	(The Ego) Le moi

ـ الانا الاعلى	(The Super ego) Le surmoi
ـ الذات	(The self) Le soi
ـ امتثال	(Ang. Franc.) conformisme
ـ انبناء	Structuration
ـ انحراف	(Delinquency) Delinquance
ـ اندثار	(Ang. Franc.) Désintégration
ـ اندثار اجتماعي	(Social disintegration) Desintégration sociale
ـ انوية	(Ang. Franc.) Egocentrisme
ـ اهتياج	(Mania) Manie
ـ اهوك	(Ang. Franc.) Moron
ـ اوالية	(Ang. Franc.) Mecanisme
ـ الاتي	(Mechanical) Mecanique
ـ ابين	(Protocol) Protocole

ـ ب ـ

ـ بنيانية	(Ang. Franc.) Structuralisme
ـ بوال	(Enuresis) Enuresie

ـ ت ـ

ـ تجاذب وجداني	(Ang. Franc.) Ambivalence
ـ تجنب	(Avoidance) Evitement
ـ تحت الكادحة	(Ang. Franc.) Sous-prolétaire
ـ تخريف	(Ang. Franc.) Fabulation
ـ تخلف	(Feeble mindidness) Débilité
ـ تخلف زائف	Pseudodebilité
ـ تخمج	(Ang. Franc.) Infection
ـ تراخي اجتماعي (تسيب)	(Social anomy) Anomie sociale
ـ تدامج اجتماعي	(Ang. Franc.) Socialisation
ـ تشخيص	(Diagnosis) Diagnostic
ـ تشخيص فارقي	(Differential diagnosis) Diagnostic differentiel
ـ تشييء	Chosification

ـ تعاضد اجتماعي	(Social Solidarity) Solidarité sociale
ـ تعاطف	(Sympathy) Sympathie
ـ تعويض	(Ang. Franc.) Compensation
ـ تعويض قضيبي	(phallic compensation) Compensation phallique
ـ تفاعل	(Ang. Franc.) Interaction
ـ تفصيل عتهي	Detail oligophrenique
ـ تفعيل	(Acting out) passage à l'acte
ـ تفكير محس (أو محسوس)	(Concrete thinking) pensée concrete
ـ تكرار (تواتر)	(Frenquency) Frequence
ـ تكويني (ناسلي)	(genetic) génétique
ـ تماهي	(Ang. Franc.) Identification
ـ تماهي اسقاطي	(projective identification) Identification projective
ـ تمثل	(Ang. Franc.) Assimilation
ـ تنذر (تنبؤ)	(prognosis) pronostic
ـ تنميط	Stéreotypisation
ـ تهتهة (فأفأة)	(Stuttering) Bégaiement
ـ تواصل	(Ang. Franc.) Communication
ـ توليف (تنسيق)	(Synthesis) Synthèse

ـ ث ـ

ـ ثقافة	(Ang. Franc.) Culture

ـ ج ـ

ـ جانح	(Delinquent) Delinquant
ـ جانح عارض	(Accidentel delinquent) Delinquant accidentel
ـ جانح محترف	(professional delinquent) Delinquant professionnel
ـ جبلة (جبلي)	(Ang. Franc.) Constitution
ـ جـدل	(Dialectic) Dialectique
ـ جنبية	Latéralité

- ح -

ـ حتم مضاعف	(overdetermination) Sudetermination

- خ -

ـ خواف	(phobia) phobie
ـ خور (خوري)	(Ang. Franc.) Depression

- د -

ـ درع طباعية	(Character cuirass) Cuirasse caractérielle
ـ دونية	(Inferiority) Infériorité
ـ دونية (مشاعر)	(Inforiority feelings) sentiment d'inferiorité
ـ دونية اجتماعية	(Social inferiority) Infériorité sociale
ـ ديمومة	Durée

- ذ -

ـ ذهان	(psychosis) psychose
ـ ذنب (شعور)	(guilt feelings) sentiment de culpabilité

- ر -

ـ رائز (روائز)	(Ang. Franc.) Test
ـ رائز اسقاطي	(projective test) Test projectif
ـ رجع (ارجاع) رد فعل	(Ang. Franc.) Réaction
ـ رجع عرضي	(symptômatique reaction) Réaction symptômatique
ـ رد فعل تعويضي	(compensational reaction) Reaction compensatrice
ـ رغبة	(Ang. Franc.) Désir
ـ رقم أسود	(Black number) chiffre noir

– س –

(Ang. Franc.) Sado-masochisme — ـ سادو مازوشية
(Melancholia) Melancolie — ـ سوداوية

– ش –

Epileptoïde — ـ شبه صرعي
Schizoïde — ـ شبه فصامي
(Anatomy) Anatomie — ـ شراحة

– ص –

(Ang. Franc.) Inhibition — ـ صد (كف)
Traumatisme Cranien — ـ صدمة دماغية
(Epilepsy) Epilepsie — ـ صرع

– ط –

(character) caractère — ـ طبع
(psychotic character) Caractère psychotique — ـ طفلية
(Neurotic character) caractère névrotique — ـ طبع عصابي
(Infantilism) Infantilisme — ـ طبع ذهاني
(Rituals) Rite (rituels) — ـ طقس (طقوس)

– ظ –

(Ang. Franc.) occasionnel — ـ ظرفي

– ع –

(Factor) Facteur — ـ عامل (عوامل)
(Dominant factor) Facteur dominant — ـ عامل سائد
(Idiocy) Idiotie — ـ عته (معتوه)

ـ عرض	(Symptom) Symptôme
ـ عصاب	(Neurosis) nevrose
ـ ’عظام	(Ang. Franc.) paranoïd
ـ عظام اضطهادي	paranoïa persécutrice
ـ عقدة أوديب	(œdipus complexe) complexe d'œdipe
ـ علم الاتام	(Ethnology) Ethnologie
ـ علم الاناسة	(Anthropology) Anthropologie
ـ عمليات التحضر	(Ang. Franc.) Urbanisation

ـ غ ـ

ـ غطش	obnubilation de la conscience
ـ غيرية	(Altruism) Altruisme

ـ ف ـ

ـ فجاجة	(Immaturity) Immaturité
ـ فساد	Dégénerescence
ـ فسق	(Ang. Franc.) Perversion
ـ فصام	(Schizophrenia) Schizophrenie
ـ فعل طبي شرعي	Acte médico-légale

ـ ق ـ

ـ قلق	(Anxiety) Angoisse
ـ قلق عائم	(floating anxiety) Angoisse flottante

ـ ك ـ

ـ كامن	(Ang. Franc.) Latent
ـ كبت (مكبوت)	(repression) Refoulement
ـ كلم (كلوم)	(Injury) Lesion

ـ ل ـ

.....

- م -

ـ متبلد	(Apathetic) Apathique
ـ متخلف منسجم	Débile Harmonique
ـ متخلف غير منسجم	Débile disharmonique
ـ متعي	(Hedonic) Hédonique
ـ متغير (متغيرات)	(Ang. Franc.) Variable
ـ محدد (محددات)	(Ang. Franc.) Déterminant
ـ محك (محكات)	(Criteria) Critère
ـ مدى	Etendue
ـ مرتبية	(Hierarchy) Hierarchie
ـ مرحلة فمية	(oral phase) stade oral
ـ مرحلة شرجية سادية	(Sado-Anal phase) Stade sadique anal
ـ مرحلة قضيبية	(phallic phase) Stade phallique
ـ مرحلة تناسلية	(genital phase) Stade génital
ـ مرض نفسدي (نفسجسمي)	(psychoscmatic illness) Maladie psychoso-matique
ـ مسرحية	(Théatrical) Thêatralisme
ـ معامل ارتباط	(Correlation coefficient) Coefficient de corrélation
ـ معيار (معايير)	(Norm) Norme
ـ منظور	(Ang. Franc.) perspective
ـ منحسر	Coarté
ـ موضوع	(object) objet
ـ موضوع جزئي	(partial object) objet partiel
ـ موضوع هوامي	(phantasmic object) objet phantasmatique

- ن -

ـ نرجسية	(Narcissism) Narcissime
ـ نرجسية أولية	(primary narcissism) Narcissisme primaire
ـ نرجسية ثانوية	(Secondary narcissism) Narcissisme secon-daire
ـ نزوة	(Instinct) pulsion
ـ نفاج	(Megalomania) Mégalomanie
ـ نفي	(Ang. Franc.) Négation
ـ نقلة	(Transference) Transfert

(Ang. Franc.) Regression	ـ نكوص
Type de résonance intime	ـ نمط التجاوب الحميم
(Spécificity) Spécificité	ـ نوعية

ـ هـ ـ

(Marginal) Marginal	ـ هامشي
(Ang. Franc.) obsession	ـ هجاس (هجاسي)
(Hypochondria) Hypocondrie	ـ هكع
(phantasm) phantasme	ـ هوام

ـ و ـ

(Ang. Franc.) Situation	ـ وضعية

ـ لا ـ

(Ang. Franc.) Asocial	ـ لا اجتماعي
Astructuration culturelle	ـ لا انبناء ثقافي
(Unconscious) Inconscient	ـ لاوعي

المراجع التي ورد ذكرها في النص

١ ـ الاتحاد لحماية الاحداث في لبنان ، بيروت ، ١٩٧٢ ·

٢ ـ جون بولبي ، رعاية الطفل وتطور الحب ، ترجمة السيد محمد خيري وآخرين ، دار المعارف بمصر ·

٣ ـ كمال جندي أبو السعد ، انحراف الاحداث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ ·

4 — J. Ajuriaguerra, manuel de psychiatrie de l'enfant, Paris, Masson et cie, 1971.

5 — H. Aubin, le dessin de l'enfant inadapté, Paris, privat, 1970.

6 — J. F. Boutonier, la psychanalyse, vol 3, Paris, P.U.F. 1957.

7 — Chombart de Lauwe, II Cours interntional de criminologie, Paris, P.U.F. 1953.

8 — T. M. J. Chombart de Lauwe, psychopathologie sociale de l'enfant inadapté, Paris, C.N.R.S. 1959.

9 — D. Cooper, psychiatrie et anti-psychiatrie, Paris, Seuil.

10 — L. Cotte et L. Thevenin, le vol pathologique, in Etudes de criminologie clinique, Colin et col. Paris, Masson et cie. 1964.

11 — F. Dagognet, sociologie et criminalité, in Etudes de criminologie clinique, Colin et col. Paris, Masson et cie. 1964.

12 — C. Debuyest et J. Joos, l'enfant et l'adolescent voleurs, Bruxelles, Dessart, 1971.

13 — C. Debuyest, in la criminologie clinique, Bruxelles, Dessart, 1968.

14 — M. El-Auji, délinquance juvenile au Liban, Beyrouth, Centre de recherche, U. L 1970.

15 — A. Freud, le moi et les mécanismes de defense, Paris, P.U.F., 1967.

16 — J. Guindon, les étapes de la reéducation des jeunes delinquants, Paris, Fleurus, 1970.

17 — M. Hijazi, delinquance juvenile et réalisation de soi, Paris, Masson et cie. 1966.

18 — O. Kinberg, problèmes fondamentaux de criminologie, Paris, Cujas, 1960.

19 — M. Klein, essais de psychanalyse, Paris, Payot, 1967.

20 — J. Labbens, nouveaux aspects de la famille, Paris, Bureau de recherche sociale de l'Association d'aide à toute détresse, 1963.

21 — J. Lacan, Actes de II congres international de criminologie, Tome I, Paris, P.U.F. 1951.

22 — D. Lagache, Actes de II congrès international de criminologie, Tome I, Paris, P.U.F. 1951.

23 — S. Lebovici, Actes du II congrès international de criminologie, Tome I, Paris, P.U.F. 1951.

24 — S. Lebovici et R. Diatkine, Revue française de psychanalyse, Tome XXX, Paris, P.U.F. Mai-Juin 1966.

25 — C. Levy-Strauss, Anthropologie Sociale (intaoduction à...) Marcel Mauss, Paris, P.U.F.

26 — K. Lewin, a dynamic theory of personality, New York, MacGraw-Hill, 1935.

27 — N. Mailloux, jeunes sans dialogue, Paris, Fleurus, 1971.

28 — R. Merton, Social Theory and social structure, New York, Free press, 1949.

29 — J. Pinatel, Traite de droit pénal et de crimionlogie, Tome III, Paris, Dalloz, 1963.

30 — F. Redl, l'enfant agressif, Tome I, Paris, Fleurus, 1964.

31 — W. Reich, Analyse caractérielle, Paris, Payot, 1971.

32 — W. Reich, la fonction de l'orgasme, Paris, l'Arche, 1952-1970.

33 — Sauguet, caractére et nevrose, in Revue française de psychanalyse, Tome XXX, P. U. F. Mai-Juin 1966.

34 — Selosse, familles dites asociales et delinquance juvenile, in familles inadaptées et rélations humaines, Paris, 1961.

35 — E. Sutherland, le voleur professionnel, Paris, Spes, 1963.

36 — E. Sutherland, principes de criminologie, Paris, Cujas, 1966

37 — D. Szabo, Déviance et criminalité, coll. U2, Paris, A. Colin, 1970.

38 — Van Bemmelen, in Actes de II congrès international, de criminologie, Tome VI, Paris, P.U.F. 1951.

فهرست الموضوعات

الصفحـة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الاولى ـ ١٩٧٥

مطبعة الراي الجديد تلفون ٢٥١٢٤٠

هذا الكتاب

ابحاث ثلاثة متكاملة حول الاحداث الجانحين : نظرية ، ميدانية اجتماعية، نفسانيةعيادية. منطلقا من تجربة علاجية ورعائية تنيف عن عشرة سنوات ، يطمح هذا المؤلف ان يقدم نموذجا في التفكير النظري والبحث الميداني لهذه الظاهرة في لبنان والعالم العربي ، ومرشدا للعاملين مع الاحداث يساعدهم على حسن الفهم وفعالية الممارسة .

ما وراء كل النظريات ، الانحراف ظاهرة انسانية على درجة عالية من التعقيد فقط المنهج الجدلي الذي ينطلق من التحديد المتبادل بين الذاتي والاجتماعي ، بين العمق والانتشار ، بين الجانح والاخرين كفيل بالاحاطة بها . ذلك هو الخيط المنهجي الذي يجمع مختلف فصول هذا الكتاب .

فوق كل برنامج تأهيلي ، اللقاء الانساني مع الحدث الجانح الذي يعترف بانسانيته ، يعطيه مكانة اجتماعية ترد اليه اعتباره ، هو العامل الحاسم في نجاح التأهيل . تلك هي الروحية التي يود هذا الكتاب ان توجه الموقف من الجانح .

المؤلف :
دكتوراه دولة في علم النفس ، استاذ علم النفس المساعد في الجامعة اللبنانية ، اختصاصي في علاج وتأهيل الطفولة غير المتكيفة . اشرف على العديد من برامج التدريب والاعداد للعاملين في ميدان الرعاية .



دار الحقيقة – بيروت
ص. ب : ٨١٤٧

السعر : ١٥ ل.ل.